

التنوير الآن

دفاعًا عن العقل و العلم و النزعة الإنسانية و التقدم



ستيفن بينكر

ترجمة هالة جمال

التنوير الآن

شعار فايكنج للنشر



التنوير الآن

دفاعًا عن العقل والعلم والنزعة الإنسانية والتقدم

ستيفن بينكر



مؤلفات أخرى لستيفن بينكر

Language Learnability and Language Development (القابلية لتعلُّم اللغات وتطويرها)

Learnability and Cognition (القابلية للتعلُّم والإدراك)

The Language Instinct (الغريزة اللغوية)

How the Mind Works (كيف يعمل العقل)

Words and Rules (الكلمات والقواعد)

The Blank Slate (الصفحة البيضاء)

The Stuff of Thought (جوهر الفكر)

The Better Angels of Our Nature (الجوانب الملائكية من طبيعتنا البشرية)

Language, Cognition, and Human Nature: Selected Articles (اللغة والإدراك والطبيعة البشرية: مقالات مختارة)

The Sense of Style (الذوق في أسلوب الكتابة)

مؤلفات من تحرير ستيفن بينكر

Visual Cognition - الإدراك البصري

Connections and Symbols (with Jacques Mehler) – أدوات الربط والرموز (مع جاك ميلر)

Lexical and Conceptual Semantics (with Beth Levin) – الدلالات المعجمية والمفاهيمية (مع بيث لفين)

The Best American Science and Nature Writing 2004 – أفضل الكتابات الأمريكية في العلوم والطبيعة لعام 2004

إهداء إلى

هاري بينكر (1928 – 2015)

للتفائل

و

سولومون لوبيز (مواليد 2017)

والقرن الثاني والعشرين

«إن الذين يقودهم العقل لا يرغبون في شيء لأنفسهم، إلَّا ويرغبون فيه لبقية النّاس أيضًا».

- باروخ سبينوزا

«كل ما لا تمنعه قوانين الطبيعة أمرٌ يمكن تحقيقه في ظلِّ وجود المعرفة الصحيحة».

- ديفيد دويتش

فهرس المحتويات



قائمة الأشكال

تمهيد

لا يبدو النصف الثاني من العقد الثاني من الألفية الثالثة وقتًا مناسبًا ومبشِّرًا لنشر كتابٍ عن اكتساح التقدم عبر التاريخ وأسبابه، فبينما أكتب هذا، يقود بلدي أشخاصٌ ذوو رؤية مظلمة للحظة الحالية: ف «الأمهات والأطفال يحاصرهم الفقر، والنظام التعليمي يترك طلابنا الشباب محرومين من المعرفة، والجريمة والعصابات والمخدرات سرقت أرواح الكثيرين»، فنحن في «حربٍ صريحة تتوسع وتنتشر»، ويمكن الإلقاء باللوم في هذا الكابوس على «هيكل القوى العالمي» الذي اجتث «الأسس الأخلاقية والروحانية الكامنة في المسيحية».

في الصفحات التالية، سأوضِّح أن هذا التقييم القاتم لأوضاع العالم خاطئ، وليس خاطئًا بنسبةٍ قليلة، بل خاطئ خاطئ، خاطئ تمامًا، ولا يمكن أن يكون أكثر خطأً من ذلك. ولكنّ هذا الكتاب لا يدور حول الرئيس الخامس والأربعين للولايات المتحدة ومستشاريه، إذ إنني فكَّرت فيه قبل إعلان دونالد ترامب ترشحه للرئاسة بسنوات، وآمل أن يتجاوز الكتاب إدارته بعدة سنوات أخرى. إن الأفكار التي مهدت الطريق لانتخابه هي في الحقيقة أفكار واسعة الانتشار بين المثقفين والعامة من اليمين واليسار، وتشمل هذه الأفكار تشاؤمًا بالطريقة التي يسير بها العالم، وبالمؤسسات الحديثة، وعدم القدرة على تصور هدفٍ أسمى في أي شيء سوى الدين. سأعرض فهمًا مختلفًا للعالم، على أساسٍ من الحقائق، وبوحيٍ من مُثُل التنوير، وهي: العقل والعلم والنزعة الإنسانية والتقدم. إنَّ مُثُل التنوير –كما آمل أن أوضِّح– خالدة، ولكنها اليوم أكثر صلةً بالواقع من أي وقتٍ مضى.

عرَّف عالم الاجتماع روبرت مرتون شيوع المعرفة –Communalism– بأنه أحد الفضائل العلمية الأساسية، إضافةً إلى الفضائل الأخرى وهي العالمية –Universalism– وغياب المصالح –Disinterestedness– والشك المنظم –Organized Skepticism–، وتُختصر إلى (CUDOS). تحيةً للعلماء العديدين الذين شاركوا بياناتهم بروحٍ تتبع فضيلة «شيوع المعرفة» وأجابوا استفساراتي بسرعةٍ وبتعمق. ومن بينهم ماكس روزر، صاحب موقع Our World in Data الإلكتروني المغذي للعقل، والذي كانت أفكاره ورؤاه الثاقبة وكرمه لا غنى عنها في نقاشاتٍ عديدة في الجزء الثاني، في القسم الخاص بالتقدم. أتقدم بالامتنان أيضًا إلى ماريان توبي من مشروع HumanProgress وإلى أولا روزلينج وهانس روزلينج من مؤسسة Gapminder، وهما مصدران قيِّمان آخران لفهم وضع البشرية، لقد كان هانس شخصًا ملهمًا ومثَّلت وفاته في عام 2017 مأساةً لمن يتبعون العقل والعلم والنزعة الإنسانية والتقدم.

أتقدم بالامتنان أيضًا إلى علماء البيانات الآخرين الذين أثقلت عليهم، وإلى المعاهد والمؤسسات التي تجمع البيانات وتحتفظ بها: كارلين بومان، ودانييل كوكس (المعهد العام لبحوث الدين PRRI)، وتامار إبنر (مؤشر التقدم الاجتماعي)، وكريستوفر فاريس، وتشيلسيا فوليت (التقدم البشري – HumanProgress)، وآندرو جيلمان، ويائير غيتزا، وأبريل إنجرام (أبطال العلم – Science Heroes)، وجيل يانوخا (مكتب إحصاءات العمل)، وجايل كيلش (إدارة مكافحة الحرائق الأمريكية/الوكالة الفيدرالية لإدارة الطوارئ)، وألينا كولوش (مجلس الأمن القومي)، وكاليف ليتارو (مشروع قاعدة البيانات العالمية للأحداث واللغة والنبرة GDELT)، ومونتي مارشال (Polity Project)، وبروس ماير، وبرانكو ميلانوفيتش (البنك الدولي)، وروبرت موجاه (مرصد جرائم القتل – Homicide Monitor)، وبيبّا نوريس (مسح القيم العالمية)، وتوماس أولشانسكي (إدارة مكافحة الحرائق الأمريكية/الوكالة

الفيدرالية لإدارة الطوارئ)، آيمي بيرس (Science Heroes)، وتيريز بيترسون (برنامج أوبسالا لبيانات الصراعات – Uppsala Conflict Data Program)، ومارك بيري، وليوناردو برادوس دي لا إسكورسا، وستيفن رادليت، وأوك ريبما (مشروع Clio Infra التابع لمنظمة التعاون والتنمية في الميدان الاقتصادي)، وهانا ريتشي (Our World in Data)، وسيث ستيفنز ديفيدوتيز (مؤشرات جوجل)، وجيمس خافيير سوليفان، وسام توب (Uppsala Conflict Data Program)، وكايلا توماس، وجينيفر ترومان (مكتب إحصاءات العدل)، وجين توينج، وباس فان ليوين (مشروع Clio Infra التابع لمنظمة التعاون والتنمية في الميدان الاقتصادي)، وكارلوس فيلالتا، وكريستيان ويلزيل (مسح القيم العالمية)، وبيلي وودوورد (Science Heroes)، وجاستن وولفرز.

قرأ كلٌّ من ديفيد دويتش، وريبيكا نيوبرجر جولدشتاين، وكيفن كيلي، وجون مويلر، وروزلين بينكر، وماكس روزر، وبروس شناير، مسودة الكتاب بأكمله وقدَّموا لي نصائح قيِّمة. وأفادتني أيضًا تعليقات الخبراء الذين قرؤوا فصولًا أو مقتطفات، ومنهم سكوت أرونسون، وليدا كوزمايدز، وجيريمي إنجلاند، وبول إيوالد، وجوشوا جولدشتاين، وإيه سي جرايلينج، وجوشوا جرين، وسيزار هيدالجو، وجودي جاكسون، ولورنس كراوس، وبرانكو ميلانوفيتش، وروبرت موجاه، وجايسون نيميرو، وماثيو نوك، وتيد نوردهاوس، وآنتوني باجدن، وروبرت بينكر، وسوزان بينكر، وستيفن رادليت، وبيتر سكوبلك، ومايكل شيلينبرجر، وكريستيان ويلزيل.

وأجاب بعض الأصدقاء والزملاء الآخرين عن بعض الأسئلة أو قدموا بعض الاقتراحات المهمة، ومنهم تشارلين آدامز، وروزاليند آردن، وآندرو بالمفورد، ونيكولاس بومارد، وبرايان بوتويل، وستيوارد براند، وديفيد باين، وريتشارد دوكينز، ودانييل دينيت، وجريج إيستربروك، وإيميلي روز إيستوب، ونيلس بيتر جليديتش، وجينيفر جاك، وباري لاتزر، ومارك ليلا، وكارن لونج، وآندرو ماك، ومايكل ماك كولو، وهاينر ريندرمان، وجيم روسي، وسكوت ساجان، وسالي ساتل، ومارتن سيليجمان، ومايكل شيرمر. وأتقدم بشكرٍ خاص إلى زملائي بجامعة هارفارد مازرين باناجي، وميرسيه كروساس، وجيمس إنجل، ودانييل جلبرت، وريتشارد ماك نالي، وكاثرين سيكينك، ولورنس سامرز.

وأشكر ريا هوارد ولوز لوبيز على جهودهما البطولية في جمع البيانات وتحليلها وتخطيطها بيانيًّا، وكيهاب يانج على إجراء العديد من تحليلات الانحدار. وأشكر أيضًا إيلافينيل سوبيا على تصميم الرسوم البيانية الأنيقة وعلى اقتراحاتها بخصوص الشكل والجوهر.

أنا ممتن بشدة للمحررين ويندي وولف وتوماس بين، ولوكيل أعمالي الأدبية جون بروكمان، على إرشادهم وتشجيعهم خلال مراحل المشروع. نقَّحت كاتيا رايس ثمانية كتب من تأليفي حتى الآن، وفي كل مرة، تعلمتُ واستفدتُ كثيرًا من عملها.

أوجه شكرًا خاصًا إلى عائلتي روزلين وسوزان ومارتن وإيفا وكارل وإيريك وروبرت وكريس وجاك وديفيد ويائل وماركو وسولومون ودانييل، وخصوصًا ريبيكا، معلِّمتي وشريكتي في تقدير قيمة مُثُل التنوير العليا.

الجزء الأول:

التنوير

«كان الحس العام في القرن الثامن عشر، واستيعابه الحقائق الواضحة عن معاناة البشر، والمطالب الواضحة للطبيعة البشرية، بمثابة مغطس للتطهير الأخلاقي للعالم».

– ألفريد نورث وايتهيد



على مدار عقودٍ عديدة من إلقاء المحاضرات العامة عن اللغة والعقل والطبيعة البشرية، تلقيت بعض الأسئلة الغريبة، مثل: ما هي أفضل لغة؟ هل المحار والصدف كائنات واعية؟ متى سأستطيع رفع محتويات عقلي على الإنترنت؟ هل السمنة المفرطة أحد أشكال العنف؟

ولكنّ السؤال الأكثر لفتًا للنظر تلقيته بعد محاضرةٍ شرحتُ فيها فكرة مألوفة بين العلماء وهي أن الحياة العقلية تتكون من أنماط من النشاط في أنسجة المخ، حيث رفعت إحدى الطالبات من الجمهور يدها وسألتني:

«ما الذي يجب أن أحيا من أجله؟»

أوضحت نبرة الطالبة البسيطة أنها لم تكُن ساخرة ولا تنتابها أفكار انتحارية، وإنما ينتابها فضول أصيل حول كيفية العثور على المعنى والهدف إذا كان آخر ما يتوصل إليه العلم يهدم المعتقدات الدينية التقليدية التي تتمحور حول الروح الخالدة. تقول سياستي إنه لا يوجد سؤال غبي. ومما فاجأ الطالبة والجمهور، وفاجئني أيضًا، أنني استجمعت إجابة ذات مصداقية إلى حدٍّ معقول. أذكر أنني قلت – بعد تحريفه قليلًا بالتأكيد بفعل الذاكرة وحضور الذهن متأخرًا– ما يلي:

بمجرد طرحك هذا السؤال، فأنتِ تبحثين عن **أسباب عقلية** لقناعاتك، وهكذا فأنتِ تلتزمين بالعقل وسيلةً لاستكشاف الأمور المهمة لكِ وتبريرها. وللحياة أسباب كثيرة!

بصفتكِ كائنًا حسَّاسًا، فإنّ لديكِ القدرة على **الازدهار**، يمكنكِ تنقيح ملكتك العقلية نفسها عبر التعلُّم والجدال، ويمكنكِ البحث عن تفسيرات من عالم الطبيعة عن طريق العلم، والتبصُّر في الحالة البشرية من خلال الفنون والعلوم الإنسانية. يمكنكِ تحقيق أقصى استفادة من قدراتك في الاستمتاع والرضا، وهذا هو ما سمح لأسلافكِ بالازدهار، ومن ثم سمح لكِ بالوجود. يمكنكِ تقدير جمال عالم الطبيعة والثقافة وثرائهما. أنتِ وريثة مليارات السنوات التي أدامت الحياة فيها نفسها، يمكنكِ بدوركِ أن تحاولي إدامة الحياة أيضًا. لقد وُهبتِ حس التعاطف –القدرة على الإعجاب والحب والاحترام والمساعدة وإظهار الرفق والشفقة– ويمكنكِ الاستمتاع بنعمة اللطف المتبادل بين الأصدقاء وأفراد الأسرة والزملاء.

ولأن العقل يخبركِ بأن أيًّا من هذا لا يخصكِ **وحدك**، فإن على عاتقك تقع مسؤولية منح الآخرين ما تتوقعينه أو تريدينه لنفسك، إذ يمكنكِ تعزيز رفاهة الكائنات الحسَّاسة الأخرى عبر تحسين مستوى الحياة والصحة والمعرفة والحرية والوفرة والأمن والجمال والسلام. إنّ التاريخ يرينا أننا عندما نتعاطف بعضنا مع بعض ونطبِّق براعتنا في تطوير الحالة البشرية، فإنّ بإمكاننا أن نحقِّق تقدمًا في هذا المجال، ويمكنكِ المساعدة في مواصلة ذلك التقدم.

لا يُعد تفسير معنى الحياة من المهام الوظيفية المعتادة لأساتذة العلوم المعرفية، ولم أكُن لأتحلى بالجرأة للإجابة عن سؤالها لو كانت الإجابة تعتمد على معرفتي الفنية المتخصصة أو على حكمتي الشخصية المشكوك في قيمتها. ولكنني عرفتُ أنني كنتُ أوجه لها مجموعة الاعتقادات والقيم التي تشكَّلت منذ أكثر من قرنين والتي تتصل بالواقع الآن أكثر من أي وقتٍ مضى، وهي: مُثُل التنوير.

قد يبدو المبدأ التنويري القائم على أن بإمكاننا تسخير العقل والتعاطف لتعزيز ازدهار البشر واضحًا ومبتذلًا وقديمًا، ولكنني ألَّفت هذا الكتاب لأنني أدركت أنه ليس كذلك في الحقيقة، إذ تحتاج مُثُل التنوير –أي العقل والعلم والنزعة الإنسانية والتقدم– إلى دفاعٍ

مخلصٍ الآن أكثر من أي وقتٍ مضى، فنحن نسلِّم بوجود نِعَمها مثل: الأطفال الذين سيعيشون أكثر من ثمانية عقود، والأسواق التي يغمرها الطعام، والمياه النظيفة التي تتدفق بإشارةٍ من أصابعنا، والنفايات التي تختفي بإشارةٍ أخرى منها، وأقراص الدواء التي تقضي على أي عدوى مؤلمة تصيبنا، وأبنائنا الذين لم تعُد الحكومات ترسلهم إلى الحروب، وبناتنا اللاتي يمكنهن السير في الشوارع بأمانٍ، ومنتقدي أصحاب السلطة الذين لا يتعرضون للسجن أو للقتل، وكل معارف العالم وثقافاته موجودة في جيبك. ولكن هذه جميعًا إنجازات الإنسان، وليست حقوقًا كونية مكتسبة بالولادة. يشكِّل كلٌّ من الحرب والندرة والأمراض والجهل والأخطار الفتاكة جزءًا طبيعيًّا من الوجود في ذاكرة العديد من قرَّاء هذا الكتاب –بل وفي واقع سكان المناطق الأقل حظًّا من العالم–. نعرف أن دول العالم قد تعود إلى تلك الظروف البدائية بسهولة، لذا نتجاهل إنجازات التنوير على مسؤوليتنا الخاصة.

في السنوات التي تلت سؤال تلك الشابة، تذكرت في مواقفٍ عدة الحاجة إلى إعادة توضيح مبادئ التنوير (الذي يُطلق عليه أيضًا النزعة الإنسانية والمجتمع المفتوح والليبرالية العالمية أو الكلاسيكية). ليست الأسئلة الشبيهة بسؤالها والتي تصلني في صندوق الوارد هي فقط ما يذكِّرني بذلك، (مثال: «عزيزي الأستاذ بينكر، ما نصيحتك لشخصٍ أخذ الأفكار المذكورة في كتبك والعلم على محملٍ حرفي وأصبح يرى نفسه مجموعة ذرات؟ أو آلة ذات مدى محدود من الذكاء انبثقت من جينات أنانية وتسكن الزمكان؟»)، وإنما يذكرني به أيضًا أن نسيان مدى التقدم البشري قد يؤدي إلى أعراضٍ أسوأ من الفزع الوجودي، إذ يمكن أن يجعل الناس متشائمين وتهكميين من المؤسسات القائمة على مبادئ التنوير والتي تكفل هذا التطوير مثل الديمقراطية الليبرالية ومنظمات التعاون الدولي، ويوجّههم نحو بدائل رجعية.

إنَّ مُثُل التنوير نتاجٌ للعقل البشري، ولكنها في صراعٍ دائم مع جوانبَ أخرى من الطبيعة البشرية، مثل: الولاء للقبيلة، والإذعان للسُلطة، والتفكير السحري، ولوم مرتكبي الشرور على المحن والمصائب. لقد شهد العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين ظهور حركات سياسية تدَّعي أن هناك فصائل خبيثة تحيل بلدانها إلى «ديستوبيا»* جهنمية، وأنه لا يمكن أن يقاوم هذه الفصائل سوى قائد قوي يعيد هيكلة البلد ليجعله «عظيمًا مرة أخرى». حثت على هذه الحركات رواية تشيع بين كثيرٍ من أعتى معارضيها، و تشير إلى أن مؤسسات الحداثة قد فشلت، وأن كل جوانب الحياة في أزمة متفاقمة، فالطرفان متفقان اتفاقًا مرعبًا على أن تحطيم هذه المؤسسات سيجعل العالم مكانًا أفضل. ويصعب العثور على رؤية إيجابية ترى مشكلات العالم على خلفية التقدم الذي تسعى إلى الإضافة إليه عبر حل تلك المشكلات بدورها أيضًا.

إذا لم تكُن واثقًا بعد من حاجة مُثُل النزعة الإنسانية التنويرية إلى دفاعٍ مستميت، ففكِّر فيما شخَّص به شيراز ماهر، المحلل للحركات الإسلامية الراديكالية، مشكلتنا: «الغرب يخجل من قيمه، ولا يدافع علنًا عن الليبرالية الكلاسيكية» فنحن كما يقول: «غير واثقين منها، فهي تُربكنا». قارن بين هذا وبين الدولة الإسلامية، التي «تعرف ما ترمز إليه بالتحديد»، ولديها يقين «مغرٍ للغاية». وهو يعرف ما يتحدث عنه، بما أنه كان من قبل قائدًا إقليميًّا لمجموعة جهادية تُدعى حزب التحرير.

---

*أي المدينة الفاسدة، وهي مقابل المدينة الفاضلة أو اليوتوبيا – المترجمة.

وبتأمل المثل الليبرالية في عام 1960، أي ليس بعد وقتٍ طويل من اجتيازها أصعب اختباراتها، عبَّر الاقتصادي فريدريش هايك عن ملاحظاته قائلًا: «إذا أريدَ للحقائق القديمة أن تحتفظ بمكانها في عقل الإنسان، فلا بد إذًا من إعادة صياغتها بلغةٍ الأجيال اللاحقة ومفاهيمها. فما قد يكون في لحظةٍ ما أقوى التعبيرات، قد يبطل مع الاستخدام ويتوقف عن التعبير عن معنى محدد. ربما تظل الأفكار الأساسية صالحة في كل وقت، ولكنّن الكلمات لم تعُد تنقل نفس القناعات، حتى وإن كانت تشير إلى مشكلاتٍ ما تزال قائمة».

إنّ هذا الكتاب هو محاولتي لإعادة صياغة وتوضيح مُثُل التنوير بلغةٍ القرن الحادي والعشرين ومفاهيمه، سأعرض في البداية إطارًا لفهم الحالة البشرية استنادًا إلى العلوم الحديثة؛ من نحن ومن أين جئنا وما التحديات الماثلة أمامنا وكيف يمكننا التغلب عليها. وأخصِّص أغلب الكتاب للدفاع عن تلك المثُل بالطريقة المميّزة للقرن الحادي والعشرين: البيانات! تكشف هذه النظرة المستندة إلى الأدلة لمشروع التنوير عن أنه لم يكُن مجرد أمل ساذج، فالتنوير نجح بالفعل! بل ربما هو أعظم قصة حدثت ونادرًا ما تُروى. ولأن التغنّي بهذا النصر نادر، يندر أيضًا تقدير قيمة مُثُله كالعقل والعلم والنزعة الإنسانية. وبدلًا من الإجماع على هذه المثُل، فإنّ المثقفين والمفكرين يعاملونها اليوم بلا مبالاة وتشكُّك وأحيانًا باحتقار. إنني أرى أنَّ مُثُل التنوير حماسية وملهمة ونبيلة، بل وحتى سبب كافٍ للحياة، إذا قدَّرناها حق قدرها.

الفصل الأول

تجرَّأ على الفهم!

ما هو التنوير؟ في مقال منشور في عام 1784 تحت هذا العنوان، أجاب إيمانويل كانط بأنه عبارة عن «خروج الإنسان من قصوره الذي جلبه على نفسه» وخضوعه «في كسلٍ وجُبن» ل«دوغما وقواعد السلطة الدينية أو السياسية». أعلن كانط أن شعار التنوير هو «تجرَّأ على الفهم!» وأن مطلبه الأساسي هو حرية الفكر والتعبير. وقال: «لا يمكن أن تُعقد في أحد العصور معاهدة تمنع أبناء العصور اللاحقة من توسيع بصيرتهم وزيادة معرفتهم وتصحيح أخطائهم، إذ ستكون هذه جريمة في حق الطبيعة البشرية، التي يكمن مصيرها بالأحرى في هذا التقدُّم».

نجد تعبيرًا ينتمي إلى القرن الحادي والعشرين عن الفكرة ذاتها في دفاع الفيزيائي ديفيد دويتش عن التنوير في كتاب «**بداية اللانهاية**». يقول دويتش إننا إذا جرؤنا على الفهم، فسيصبح التقدم ممكنًا في كل المجالات العلمية والسياسية والأخلاقية:

> *التفاؤل (بالمعني الذي سُقته) هو نظريةٌ ترى أن كل الإخفاقات –كل الشرور- سببُها نقصُ المعرفة... المشكلات حتمية الحدوث؛ لأن معرفتنا ستكون دومًا أبعد ما يكون عن الكمال. تتَّسِم بعضُ المشكلات بالصعوبة، لكن من الخطأ أنْ نخلط بين هذه وبين تلك التي لن تُحلَّ على الأرجح. المشكلات قابلة للحل، وكلُّ شرّ بمنزلة مشكلةٍ يمكن حلُّها. الحضارة المتفائلة منفتحة لا تخشى الابتكار، وتقوم على تقاليد النقد. إن مؤسساتها تُطوّرُ من نفسها دائمًا، وأهم معرفةٍ تمثّلها هي معرفةُ كيفيةِ الكشف عن الأخطاء واستبعادها.*

ما هو التنوير؟ لا توجد إجابة رسمية، لأن الحقبة المذكورة في مقالة كانط لم تُحدد بدايتها ونهايتها بمراسمَ مثل الأولمبياد مثلًا، ولم يُنص على مبادئها في قسَمٍ أو عقيدة. من المتفق عليه أن التنوير كان في الثلثين الأخيرين من القرن الثامن عشر، رغم أنه انبثق عن الثورة العلمية وعصر العقل في القرن السابع عشر وامتد حتى أوج الليبرالية الكلاسيكية في النصف الأول من القرن التاسع عشر. التمس مفكّرو عصر التنوير فهمًا جديدًا «للحالة البشرية»، مدفوعين بتحدي العلم والاستكشاف للحكمة السائدة، وواعين بسفك الدماء الناتج عن الحروب الدينية، وشجعتهم على ذلك سهولة حركة الأفكار والأفراد. كانت في هذه الحقبة وفرة من الأفكار، وكان بعضها متناقضًا، ولكن تربطها أربعة موضوعات هي العقل والعلم والنزعة الإنسانية والتقدم.

على رأسها العقل، فالعقل غير قابل للتفاوض. بمجرد أن تبدأ بمناقشة سؤال "ما الذي يجب أن نحيا من أجله؟" (أو أي سؤال آخر)، طالما أصررتَ أن إجابتك –مهما كانت– عقلانية أو مبررة أو صحيحة ومن ثم يجب أن يصدقها الآخرون أيضًا، تكون قد ألزمت نفسك بالعقل، وبوضع معتقداتك محل المحاسبة وفق معايير موضوعية. إذا كان هناك ما يجمع بين مفكّرِي التنوير، فهو الإصرار على أننا نطبق معيار العقل في فهم عالمنا بكل طاقتنا، ولا ننتكص إلى صانعي الأوهام مثل الإيمان أو الدوغما أو الوحي أو السلطة أو الفتنة أو التصوف أو التنجيم أو الرؤى أو الحدس أو التحليل التأويلي للنصوص المقدسة.

كان العقل هو ما دفع معظم مفكّرِي عصر التنوير إلى رفض الإيمان بإله ذي صفاتٍ بشرية مهتم بشؤون الإنسان، وأظهر استخدام العقل أن القصص المأثورة عن المعجزات مثار شك، وأن أسلوب مؤلفي الكتب المقدسة بشري أكثر من اللازم، وأن الظواهر الطبيعية تحدث دون اعتبارٍ لرفاهة البشر، وأن مختلف الثقافات تؤمن بآلهة متعارضة وتنافي بعضها بعضًا، ليس أحدها دونًا عن غيره منزهًا

عن أن يكون نتاج الخيال، (مثلما كتب مونتسكيو: «لو كان للمثلثات إله، لتصوروه بثلاثة أضلاع»). رغم كل ذلك، لم يكُن كل مفكّري عصر التنوير ملحدين، بل كان بعضهم ربوبيًّا (وهؤلاء يختلفون عن المؤمنين بالألوهية والأديان)، أي كانوا يعتقدون أن الله قد خلق الكون ثم ابتعد وسمح له بالسير وفقًا لقوانين الطبيعة، وكان بعضهم مؤمنين بالواحدية، التي كانت تستخدم كلمة «الله» للتعبير عن قوانين الطبيعة، ولكن لجأت قلة منهم إلى إله الكتب المقدسة الذي يضع التشريعات ويحقق المعجزات ويتخذ له ولدًا.

يخلط كثيرٌ من الكتاب اليوم بين تأييد التنوير لاستخدام العقل من جانب، والادعاء غير المعقول أن البشر كائنات فاعلة عقلانية تمامًا. هذا الخلط أبعد ما يكون عن الواقع التاريخي، فالمفكّرون مثل كانط وباروخ سبينوزا وتوماس هوبز وديفيد هيوم وآدم سميث كانوا علماء نفس فضوليين للعلم وواعين تمامًا بنواقصنا وعواطفنا اللا عقلانية، وأصروا أننا لا يمكن أن نتغلب على مصادر حماقتنا الشائعة إلا بانتقادها وتحديها. فتعمُّد استخدام العقل ضروري بصورةٍ خاصة لأن عادات تفكيرنا الشائعة ليست منطقية.

يقودنا ذلك إلى المثال الثاني، وهو العلم، أي تنقيح العقل من أجل فهم العالم. كانت الثورة العلمية ثوريةً بطريقة يصعب علينا اليوم فهمها وتقديرها، إذ أصبحت اكتشافاتها الآن عادية في نظر معظمنا. يذكّرنا المؤرّخ ديفيد ووتون بمستوى فهم الرجل الإنجليزي المتعلّم في عشية الثورة في عام 1600 كما يلي:

> *يؤمن بأن الساحرات يمكنهن استحضار العواصف التي تغرق السفن في البحر...ويؤمن بالمستذئبين، رغم عدم وجود أيٍّ منهم في إنجلترا، فهو يعرف أنهم موجودون في بلجيكا...ويؤمن أن كيركي حوَّلت رجال أوديسيوس إلى خنازير فعلًا. يؤمن أن الفئران تتولد عشوائيًّا في أكوام القش، ويؤمن بالسحرة المعاصرين...ورأى قرن وحيد القرن، في حين لم يرَ وحيد القرن نفسه.*
>
> *يؤمن بأن جثة القتيل تنزف في حضور القاتل، ويؤمن بوجود دهان إذا وُضع على خنجر كان قد أحدث جرحًا، فسيُشفى هذا الجُرح. ويؤمن بأن شكل النبات أو لونه أو ملمسه يشيران إلى كيفية عمله علاجًا لبعض الأمراض لأن الله صمَّم الطبيعة كي يفسّرها الإنسان. ويؤمن أنه من الممكن تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب، إلا أنه يشك في أن يعرف أحدٌ كيف يفعل ذلك. ويؤمن بأن الطبيعة تمقت الخواء، ويؤمن بأن قوس قزح علامة من الله وأن المذنَّبات تنذر بالشر. إنه يؤمن بأن الأحلام تتنبأ بالمستقبل إذا عرفنا كيف نفسّرها تفسيرًا صحيحًا، ويؤمن بالطبع بأنَّ الأرض ثابتة والشمس والنجوم تدور حول الأرض مرة كل أربعة وعشرين ساعة.*

بعد مرور قرنٍ وثُلث القرن، لم يعُد سَلَف هذا الرجل الإنجليزي المتعلّم يصدق أيًّا من هذه الأمور، فلم يكُن هذا هروبًا من الجهل فحسب، بل من الرعب أيضًا. يشير عالم الاجتماع روبرت سكوت أنَّه في العصور الوسطى «أسهم الاعتقاد بتحكُّم قوة خارجية في الحياة اليومية بحدوث ما يشبه ارتيابًا جماعيًا»، فقال:

> *كانت العواصف الممطرة والرعد والبرق وهبَّات الريح وكسوف الشمس وخسوف القمر وموجات البرد والحر وفترات الجفاف والزلازل تُعد علامات وإشارات على سخط الله على الإنسان، ونتيجةً لذلك، سكنت «عفاريت الخوف» كل ميادين الحياة، فأصبح البحر ميدان إبليس، والغابات مسكونة بوحوش الفرائس والغيلان والساحرات والشياطين، واللصوص والسفاحين الحقيقيين...وبعد انسدال الظلام امتلأ العالم بالنُّذُر التي تنبئ بالأخطار من كل نوعٍ، مثل: المذنَّبات والنيازك والشُّهُب وخسوف القمر وعواء الحيوانات البرية.*

أوضح الهروب من الجهل والخرافة لمفكّري عصر التنوير مدى خطأ حكمتنا السائدة، وكيف أن الطرق العلمية –التشكُّك وقابلية الخطأ والنقاش المفتوح والاختبار التجريبي– هي نماذج لكيفية الوصول إلى المعرفة الموثوقة.

تشمل تلك المعرفة فهم أنفسنا، فكانت الحاجة إلى «علم خاص بالإنسان» موضوعًا ربط بين مفكِّري التنوير الذين اختلفوا في أمورٍ أخرى كثيرة، ومنهم مونتسكيو وهيوم وسميث وكانط ونيكولا ماركيز كوندورسيه ودنيس ديدرو وجان دالمبير وجان جاك روسو وجيامباتيستا فيكو. جعلهم اعتقادهم بأن هناك شيئًا اسمه الطبيعة البشرية، يمكن دراسته دراسة علمية، أول الممارسين لعلومٍ لم يُطلق عليها اسم سوى بعد قرون. كانوا علماء أعصاب معرفيين حاولوا تفسير الفكر والعاطفة والأمراض النفسية من حيث الآليات المادية لعمل المخ، وكانوا علماء نفس تطوري حاولوا تمييز الحياة في الحالة الطبيعية وتحديد الغرائز الحيوانية «المغروسة فينا». كانوا علماء نفس كتبوا عن المشاعر الأخلاقية التي توحِّدنا، والعواطف الأنانية التي تقسِّمنا، ونواقص قصر النظر التي تفسد أفضل خططنا. وكانوا علماء أنثروبولوجيا نقَّبوا في حكايات المسافرين والمستكشفين عن أي بيانات عن العموميات البشرية وتنوع التقاليد والأعراف بين مختلف ثقافات العالم.

تنقلنا فكرة الطبيعة البشرية العالمية إلى موضوعٍ ثالث هو النزعة الإنسانية. رأى مفكِّرو عصر العقل والتنوير حاجةً ماسة إلى أساسٍ علماني للأخلاقية، لأنهم كانوا مطاردين بذكرى تاريخية لقرونٍ من المذابح الدينية، مثل: الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش ومطاردة الساحرات والحروب الدينية في أوروبا. وضعوا ذلك الأساس بما نسميه الآن النزعة الإنسانية، التي تفضِّل رفاهة الأفراد من الرجال والنساء والأطفال على مجد القبيلة أو العرق أو الأمة أو الدين. فالأفراد هُم الكائنات **الحسَّاسة**، أي التي تحس بالمتعة والألم والرضا والكرب، وليست المجموعات. كانت القدرة العالمية بين البشر على المعاناة والازدهار، سواء كانت في إطار توفير السعادة القصوى لأكبر عددٍ من الناس أو في إطار إلزامٍ قطعي بمعاملة الناس بوصفهم غايات بدلًا من وسائل، هي ما استدعت اهتمامنا الأخلاقي كما قالوا.

ولحسن الحظ، أعدَّتنا الطبيعة البشرية لتلبية النداء، لأننا وُهِبنا حِس **التعاطف**، الذي يطلقون عليه أيضًا الإحسان والشفقة والمواساة. بالنظر إلى أننا مزودون بالقدرة على التعاطف مع الآخرين، لا يمكن لأي شيء أن يمنع دائرة التعاطف من التوسع من الأسرة والقبيلة لتشمل كل البشرية، وخاصةً عندما يحثنا العقل على إدراك أنه لا يمكن أن يوجد في أنفسنا أو في أيٍّ من المجموعات التي ننتمي إليها شيء متفرد بالاستحقاق، فنحن مرغمون على العالمية: أي قبول كوننا مواطنين في هذا العالم.

دفع الإحساس الإنساني مفكِّري التنوير إلى إدانة العنف الديني، إضافةً إلى الأفعال الوحشية العلمانية في عصرهم، ومنها: العبودية، والطغيان، والإعدام بسبب جنايات تافهة مثل سرقة المعروضات والاعتداء على أراضي الغير للصيد، والعقوبات السادية مثل الجلد والبتر والخوزقة ونزع الأحشاء والتكسير بالعجلة والحرق حيًّا. يُطلق على التنوير أحيانًا الثورة الإنسانية لأنه أدى إلى القضاء على الممارسات الوحشية التي كانت شائعة بين مختلف الحضارات لعدة ألفيات.

إذا لم يكُن القضاء على العبودية والعقوبات القاسية تقدُّمًا، فلا يمكن أن يُعد أي شيء آخر كذلك، وهو ما يصل بنا إلى المثال الرابع من مُثُل التنوير. مع تطوُّر فهمنا للعالم بفعل العلم، وتوسُّع دائرة تعاطفنا بفعل العقل والعالمية، قد تُحدِث البشرية تقدُّما فكريًّا وأخلاقيًّا. ليس عليها أن تذعن لمآسي الحاضر ولا عقلانيته، ولا أن تحاول إعادة الزمن للوراء وصولًا إلى عصرٍ ذهبي ضائع.

لا ينبغي الخلط بين الإيمان التنويري بالتقدم والإيمان الرومانسي في القرن التاسع عشر بالقوى الروحانية والقوانين والجدلية والصراعات والكشف الروحاني الصوفي والأقدار و«عصور الإنسان» والقوى التطورية التي تدفع البشرية في اتجاهٍ صاعد نحو اليوتوبيا (المدينة الفاضلة). وكما تشير عبارة كانط التي ذكرناها: «...زيادة معرفتهم وتصحيح أخطائهم»، فإن هذا الإيمان بالتقدم كان عاديًّا، وكان خليطًا من العقل والنزعة الإنسانية. إذا تتبعنا مسار قوانيننا وآدابنا، وفكَّرنا في طرقٍ لتحسينها، وجرَّبناها، وأبقينا منها على ما يجعل الناس أفضل، يمكننا أن نجعل العالم مكانًا أفضل بالتدريج. فالعلم نفسه يتحرك ببطءٍ إلى الأمام من خلال دورة النظرية والتجربة، ويوضِّح تطوره المتواصل، والمتداخل مع بعض الانتكاسات والنقض الداخلي، مدى إمكانية التقدُّم.

كما لا يجب الخلط بين مثال التقدم من جانب، والحركة من أجل إعادة تصميم المجتمع لملاءمة أصحاب الخبرة الفنية (التكنوقراط) والمخطِّطين في القرن العشرين، وهو ما أطلق عليه خبير العلوم السياسية جيمس سكوت الحداثة السلطوية الفائقة. أنكرت هذه الحركة وجود الطبيعة البشرية، باحتياجاتها الفوضوية إلى الجمال والطبيعة والتقاليد والحميمية الاجتماعية. صمَّم الحداثيون مشروعات للتجديد الحضري تستبدل بالأحياء النابضة بالحياة طرقًا سريعة ومباني متعددة الطوابق وساحات مفتوحة والعمارة الوحشية أو الخام، وكأنها لوحات بيضاء فارغة دون تاريخ. كانت نظريتهم أنَّ: «البشرية ستولد من جديد، وتحيا ضمن علاقةٍ متناسقة بالكُل». رغم ربط هذه التطويرات أحيانًا بكلمة **التقدُّم**، إلَّا أنَّ استخدامها كان مثيرًا للسخرية، فالتقدُّم الذي لا توجِّهه النزعة الإنسانية ليس تقدُّمًا.

يأمل التنوير أن يركِّز التقدُّم على المؤسسات البشرية بدلًا من محاولة تشكيل الطبيعة البشرية، فالأنظمة التي من صنع البشر مثل الحكومات والقوانين والأسواق والمدارس والهيئات الدولية هي الهدف الطبيعي لتسخير العقل في تحسين أحوال البشر.

ضمن منظومة التفكير هذه، لا تُعد الحكومة مرسومًا إلهيًّا بالحكم ولا مرادفًا للمجتمع، ولا تجسيدًا للروح الأممية ولا الدينية ولا العرقية. إنها اختراع بشري، متفق عليه ضمنيًّا في عقدٍ اجتماعي، مصمَّم لتعزيز رفاهة المواطنين عبر تنسيق سلوكياتهم وصرفهم عن الأفعال الأنانية التي قد تكون مغرية لكل الأفراد ولكنها تترك فيهم جميعًا أثرًا سلبيًّا. فكما قال أشهر نواتج التنوير، إعلان الاستقلال الأمريكي: من أجل كفالة الحق في الحياة والحرية والسعي وراء تحقيق السعادة، تؤسَّس الحكومات بين الناس، وتستمد سلطاتها العادلة من موافقة المحكومين.

من بين سلطات الحكومة توزيع العقوبات، وقد فكَّر كُتَّاب مثل مونتسكيو وتشيزاري بيكاريا والآباء المؤسسين للولايات المتحدة من جديدٍ في الرخصة الممنوحة للحكومة بإيذاء مواطنيها، فقالوا إنَّ العقوبة الجنائية ليست تفويضًا بتطبيق العدالة الكونية، وإنما هي جزء من بنيةٍ تحفيزية تُثني عن ارتكاب الأفعال المعادية للمجتمع دون أن تتسبَّب في معاناةٍ أكثر مما تردعها. فالسبب وراء فكرة أنَّ الجزاء لا بد أن يكون من جنس العمل مثلًا ليس معادلة ميزانٍ روحاني للعدل، وإنما ضمان توقُّف المذنب عند ارتكاب جريمةٍ صغيرة وعدم تجاوزها لارتكاب جريمة أكثر إيذاءً. ليست العقوبات القاسية، سواء كانت «مستحقة» أم لا، أكثر فعالية في ردع الأذى من العقوبات المتوسطة الثابتة، وهي تقلل حساسية المتفرجين وتزيد وحشية المجتمع الذي يطبِّقها.

شهد التنوير أيضًا أول تحليل عقلاني للرخاء، ولم ينطلق من كيفية توزيع الثروة وإنما من السؤال عن كيفية وجود الثروة من الأساس. أشار سميث، مضيفًا إلى التأثيرات الفرنسية والهولندية والاسكتلندية، إلى أن الوفرة من الأغراض المفيدة لا يمكن أن توجد بفعل سحرٍ يقوم به مزارع أو حرفي منعزل، بل تقوم على شبكة من المتخصصين، يتعلَّم كلٌّ منهم كيفية فعل شيءٍ ما بأكبر قدرٍ ممكن من الكفاءة، ويجمعون ويتبادلون ثمار براعتهم ومهاراتهم وعملهم. قدَّم سميث مثالًا شهيرًا حسب فيه أنَّ صانع الدبابيس الذي يعمل منفردًا قد يصنع دبوسًا واحدًا بحدٍ أقصى في اليوم، في حين أنَّه في ورشةٍ يوجد فيها «رجل يسحب السلك، وآخر يسوِّيه ويقوِّمه، وثالثٌ يقطعه، ورابعٌ يسنَّه، وخامسٌ يشحذه من الأعلى كي تُثبَّت رأسه»، قد يُنتج كل منهم خمسة آلاف قطعة تقريبًا.

لا ينجح التخصص سوى في سوقٍ تتيح للمتخصصين تبادل سلعهم وخدماتهم، وشرح سميث أنَّ النشاط الاقتصادي شكل من أشكال التعاون المتبادل المفيد للطرفين، إذا يحصل كلٌّ منهما على شيء أكثر قيمة لديه من الشيء الذي يتنازل عنه. ينفع الناس بعضهم بعضًا عبر نفع أنفسهم أيضًا من خلال المقايضة الطوعية، فكما كتب سميث: «إننا لا نتوقع حصولنا على العشاء بفضل إحسان الجزار أو صانع الخمر أو الخباز، وإنما بفضل مراعاة كلٍّ منهم مصلحته الخاصة، فنحن لا نخاطب إنسانيتهم وإنما حبهم لذواتهم». لم يقصد سميث أنَّ الناس أنانيون لا يعرفون الرحمة، ولا أن عليهم أن يكونوا كذلك، إذ إنه كان أحد أحرص مفسِّري التاريخ على تعاطف البشر، وإنما كان يقصد فقط أنَّه في ميدان الأسواق، يمكن أن يؤدي ميل الناس إلى الاعتناء بأسرهم وبأنفسهم إلى الخير للجميع.

فالتبادل قد يجعل مجتمعًا بأكمله أثرى، وألطف أيضًا، لأن شراء الأغراض من السوق العاملة أرخص من سرقتها، وبعض الناس تكون قيمتهم وهُم أحياء أعلى من قيمتهم وهُم أموات (إذ كما قال الاقتصادي لودفيج فون ميزس بعد بضعة قرونٍ: «لو حارب الترزيُّ الخبَّازَ، فسيضطر بعد ذلك إلى صنع خبزه بنفسه»). أيَّد كثيرٌ من مفكِّري التنوير بمن فيهم مونتسكيو وكانط وفولتير وديدرو وشارل إيرينيه رئيس دير سان بيير نموذج ***doux commerce*** أي التجارة الناعمة،وقد صمَّم الآباء المؤسسون للولايات المتحدة الأمريكية –جورج واشنطن وجيمس ماديسون، وبالأخص ألكساندر هاملتون– مؤسسات الوطن الشاب بما ينمي هذا النموذج.

يصل بنا هذا إلى مثال آخر من مُثُل التنوير وهو السلام. كانت الحرب شائعة جدًّا في التاريخ لدرجة أنه كان من الطبيعي أن يُنظر إليها بوصفها جزءًا دائمًا من الحالة البشرية وأن نظن أن السلام لن يأتي سوى في العصر المسياني *.ولكن لم يعُد يُنظر إلى الحرب الآن كأنها عقاب إلهي يجب تحمُّله واستهجانه، ولا مسابقة مجيدة يجب الفوز والاحتفاء بها، وإنما كمشكلة عملية يجب الحد منها وحلها يومًا ما. وضع كانط في كتابه "السلام الدائم" إجراءات تمنع القادة من جر بلادهم إلى الحروب، فأوصى بالتجارة الدولية، إضافةً إلى الجمهوريات التمثيلية –أي ما نطلق عليه الآن الديمقراطيات– والشفافية المتبادلة، وأعراف مضادة للغزو والتدخل في الشؤون الداخلية، وحرية السفر والهجرة، واتحاد للدول يفصل في النزاعات بينها.

رغم بصيرة الآباء المؤسسين والمشرِّعين والفلاسفة، فإن هذا ليس كتابًا لتقديس التنوير، فمفكِّرو التنوير كانوا رجال عصرهم ونساءه، أي في القرن الثامن عشر، كان بعضهم عنصريًّا، وبعضهم يميِّز على أساس الجنس، وبعضهم معاديًا للسامية، وبعضهم مالكًا

---

*نسبةً إلى المسيا، وهو شخصية تظهر في نهاية العالم حسب الديانة اليهودية، وهو يشبه شخصية المهدي لدى المسلمين، ويتسم العصر المسياني بالاتحاد والحب والسلام – المترجمة.

للعبيد، وبعضهم مبارزًا .فبعض المسائل التي كانت تشغلهم غير مفهومة لنا تقريبًا، وتوصلوا إلى كثير من الأفكار الحمقاء كما توصلوا إلى كثيرٍ من الأفكار العبقرية، فهُم باختصار وُلدوا في مرحلةٍ مبكرة جدًّا، مما منعهم من معرفة بعض أحجار أساس فهمنا الحديث للواقع.

كان هؤلاء أنفسم سيصبحون اول من يقر بالتالي: إذا كنت تمجِّد العقل، فما يهمك هو سلامة الأفكار وليس شخصيات المفكِّرين، وإذا كنت ملتزمًا بالتقدُّم، فلا يمكنك ادعاء معرفة كل شيء. فلا يقلل من مفكِّري التنوير أن نحدِّد بعض الأفكار الحاسمة التي نعرفها نحن في حين لم يعرفوها هم، وتلك الأفكار هي في رأيي الإنتروبيا والتطور والمعلومات.

الفصل الثاني:

الإنتروبيا والتطور والمعلومات

إن حجر الأساس الأول في فهم الحالة البشرية هو مفهوم الإنتروبيا أو الفوضى، الذي ظهر من فيزياء القرن التاسع عشر وعرّفه بشكله الحالي الفيزيائي لودفيج بولتزمان. ينص القانون الثاني للديناميكا الحرارية على أن الإنتروبيا لا تقل مطلقًا في نظامٍ معزول (أي نظام يتفاعل مع بيئته). (ينص القانون الأول على حفظ الطاقة، وينص الثالث على استحالة الوصول إلى درجة الصفر المطلق). تقل بنية الأنظمة المغلقة ونظامها وقدرتها على تحقيق نتائج مفيدة ومهمة، حتى تعود إلى التوازن الرمادي المحايد الفاتر الرتيب وتحافظ عليه.

أشار القانون الثاني في صيغته الأصلية إلى عملية التبدد الحتمي للطاقة الصالحة للاستخدام على هيئة فَرْقٍ في درجات الحرارة بين جسمين مع تدفق الحرارة من الجسم الأدفأ إلى الجسم الأبرد. (فكما فسَّر فريق فلاندرز وسوان في إحدى أغانيه: «لا يمكنك نقل الحرارة من الأبرد إلى الأدفأ، حاول إذا أردت ولكن الأفضل ألا تفعل»). فكوب القهوة سيبرد إلَّا إذا وُضِع فوق صفيحٍ ساخن متصل بالكهرباء. عندما ينفد الفحم الذي يشغِّل المحرك البخاري، لن يستطيع البخار البارد على أحد جانبي المكبس تحريكه لأن الهواء والبخار الدافئ على الجانب الآخر يصدانه بنفس القوة.

بمجرد فهم أن الحرارة ليست سائلًا خفيًّا وإنما هي الطاقة الكامنة في الجزيئات المتحركة، وأن الفرق في درجات حرارة الأجسام يتشكَّل من الفرق بين متوسط سرعات تلك الجزيئات، تكوَّنت صيغة إحصائية أعم من مفهوم الإنتروبيا والقانون الثاني. يمكن وصف الانتظام من حيث مجموعة حالات النظام المختلفة اختلافات دقيقة (مثل الأوضاع والسرعات المحتملة لكل الجزيئات في الجسمين في المثال الأصلي الذي يتضمن الحرارة). ومن بين كل هذه الحالات، تشكِّل تلك التي نجدها مفيدة من منظور «عين الطائر» (مثل أن يكون أحد الجسمين أسخن من الآخر، وهو ما يُترجَم إلى أن يكون متوسط سرعة الجزيئات في أحد الجسمين أعلى من متوسط سرعتها في الآخر) جزءًا صغيرًا جدًّا من الاحتمالات الممكنة، في حين تشكِّل كل الحالات الفوضوية أو غير المفيدة (التي لا تشمل فرقًا في درجات الحرارة، والتي يكون فيها متوسط السرعة في الجسمين واحدًا) الأغلبية العظمى من الاحتمالات. وبناءً عليه، فإنَّ أي اضطراب في النظام، سواء كان تقلقلًا عشوائيًّا في أجزائه أو ضربة من الخارج، سيدفع النظام إلى الفوضى أو العبث حسب قوانين الاحتمالات، ليس لأن الطبيعة تسعى إلى الفوضى، وإنما لأن الطرق إلى الفوضى أكثر كثيرًا من الطرق إلى الانتظام. إذا ابتعدت مثلًا عن قلعةٍ من الرمال، فلن تجدها مكانها في اليوم التالي، لأنّ الرياح والأمواج والنوارس والأطفال عندما يدفعون حبّات الرمال ويحركونها، فإن احتمالية أن يرتِّبوها بألف شكلٍ لا يشبه القلعة أكبر من احتمالية أن يرتِّبوها ببضعة أشكال تشبهها. سأشير غالبًا إلى الصيغة الإحصائية من القانون الثاني، الذي لا ينطبق بصفةٍ خاصة على معادلة الفروق في درجات الحرارة وإنما أيضًا على تبدد الانتظام، بـ «قانون الإنتروبيا».

ما صلة الإنتروبيا بالشؤون الإنسانية؟ تعتمد الحياة والسعادة على جزءٍ شديد الصغر من الترتيبات المنتظمة للمادة من بين عددٍ فلكي من الاحتمالات. إنَّ أجسامنا عبارة عن تجمعات مستبعدة للجزيئات، وتحافظ على ذلك الانتظام بمساعدة احتمالات مستبعدة أخرى، مثل: المواد الضئيلة التي تغذِّينا، وبضع الأدوات الضئيلة بأشكالها الضئيلة التي يمكنها أن تكسونا أو تأوينا أو تحرِّك الأغراض كما نحب. فترتيبات المادة الموجودة على الأرض والتي لا نفع منها لنا أكثر كثيرًا، لذا فعندما تتغير الأحوال دون تدخل العامل البشري بتوجيه

هذا التغيير، فإنها، على الأرجح، ستتغيّر إلى الأسوأ. ونحن نقر بقانون الإنتروبيا على نطاقٍ واسع في حياتنا اليومية بمقولاتٍ مثل: «الأمور بطبيعتها تنهار»، و«الصدأ لا يتوقف أبدًا»، و«الحياة مليئة بالخيبات»، و«كل مشكلة يحتمل أن تحدث، ستحدث»، وكما قال سام ريبورن (المشرّع من ولاية تكساس): «بإمكان أي حمار أن يهد الحظيرة، لكنّ بناءها يتطلّب نجّارًا».

يقدِّر العلماء أنَّ القانون الثاني أكبر من مجرد تفسير للمضايقات اليومية العادية، بل هو أساس فهمنا للكون ولمكاننا فيه. كتب الفيزيائي آرثر إدينجتون في عام 1928 ما يلي:

> *أعتقد أنَّ القانون الذي ينص على أن الإنتروبيا تزداد يحتل أعلى مكانة بين قوانين الطبيعة. إذا أشار أحد إلى أن نظريتك المفضَّلة عن الكون غير متفقة مع معادلات ماكسويل، فإنّ هذا أمر مؤسف لمعادلات ماكسويل إذًا، وإذا وُجِد أنها تناقض الملاحظات، فهؤلاء التجريبيون يخطؤون أحيانًا. ولكن إذا وُجِد أن نظريتك تعارض القانون الثاني للديناميكا الحرارية، فلا أمل لك، لا يوجد أمامها سوى الانهيار في أعماق الخزي.*

علَّق العالم والروائي تشارلز بيرسي سنو في محاضرة ريد الشهيرة التي عُقدت عام 1959 والمنشورة بعنوان **الثقافتان والثورة العلمية**، على ازدراء العلم بين البريطانيين المثقَّفين في عصره، قائلًا:

> *حضرتُ عدة مرات اجتماعات لأشخاص يُعَدون، بمقاييس الثقافة التقليدية، واسعي الثقافة، ويعبّرون عن شكِّهم في جهل العلماء. شعرت بالاستفزاز مرة أو اثنتين وسألتُ الذين معي كم منهم يستطيع وصف القانون الثاني للديناميكا الحرارية، كان الرد باردًا، وكان أيضًا سلبيًا. ومع ذلك فإن سؤالي ليس أكثر من المكافئ العلمي لسؤال: «هل قرأتَ أحد أعمال شكسبير؟»*

ويلمح الكيميائي بيتر أتكنز إلى القانون الثاني في عنوان كتابه «**أربعة قوانين تحرّك الكون**»، وعلى مقربة مني، وضع علماء النفس التطوريون جون توبي وليدا كوزمايدس وكلارك باريت لإحدى أوراقهم البحثية الحديثة عن أسس العلم المعني بالذهن العنوان التالي: «القانون الثاني للديناميكا الحرارية هو القانون الأول لعلم النفس».

ما سر هيبة القانون الثاني؟ من وجهة نظر شاملة عليا، فإنه يحدِّد مصير الكون والغرض النهائي من الحياة والذهن وسعي الإنسان: نشر الطاقة والمعرفة لصد تيار الإنتروبيا والاحتماء منها بالانتظام النافع. أما من وجهة نظر أرضية، فيمكننا أن نكون أكثر تحديدًا، ولكن قبل أن نصل إلى نقطةٍ مألوفة، يجب أن أعرض أولًا فكرتين تأسيسيتين.

قد يبدو قانون الإنتروبيا للوهلة الأولى وكأنه لا يسمح سوى بماضٍ محبط ومستقبل كئيب. بدأ الكون بحالةٍ من الإنتروبيا، الانفجار العظيم، بتركيزٍ هائل للطاقة على نحوٍ غير مفهوم، ومن هنا بدأ كل شيء في التدهور، فتبدد الكون –وسيواصل التبدد– مثل ثريدٍ من الجسيمات المنتشرة بالتساوي والمتناثرة في الفضاء. ليس الكون في الحقيقة كما نراه طبعًا ثريدًا عديم الشكل، وإنما هو مفعم بالحياة بالمجرات والكواكب والجبال والسحب ورقاقات الثلج وازدهار النباتات والحيوانات، بما فيها نحن البشر.

أحد أسباب امتلاء الكون بالكثير من الأمور المثيرة للاهتمام هو مجموعة من العمليات التي تُدعى التنظيم الذاتي، وهي تسمح بظهور مناطق منتظمة محاطة بحدودٍ. عندما تتدفق الطاقة إلى نظامٍ ما، ينشر النظام تلك الطاقة منزلقًا نحو الإنتروبيا، ويمكن أن يكون متوازنًا في شكلٍ جميل، مثل كرة أو حلزون أو شكل انفجار نجمي أو دوامة أو موجات متجعدة أو بلورة أو شكل هندسي متكرر.

وتشير حقيقة أننا نجد هذه الأشكال جميلة إلى أن الجمال ربما لا يكون في عين الرائي فحسب، فاستجابة العقل الجمالية قد تكون تقبُّلًا للأنماط غير الإنتروبية التي تنبع من الطبيعة.

ولكن هناك نوعٌ آخر من الانتظام في الطبيعة يجب تفسيره أيضًا، وهو ليس التناظر والإيقاع البديع في العالم الفيزيائي، وإنما التصميم الوظيفي في عالم الأحياء، فالكائنات الحية مكونة من أعضاء ذات أجزاء متباينة مشكَّلة ومرتبة على نحوٍ مدهش كي تقوم بوظائف للمحافظة على حياة الكائن (أي تواصل امتصاص الطاقة لمقاومة الإنتروبيا).

المثال التوضيحي المعتاد على التصميم البيولوجي هو العين، ولكني سأوضِّح نقطتي باستخدام ثاني الأعضاء المفضَّلة لديَّ. تحتوي أذن الإنسان على طبلة مرنة تهتز استجابةً لأقل نفخة هواء، ورافعة عظمية تضخم قوة الاهتزاز، ومكبس ينقل الاهتزاز إلى السائل الموجود في نفقٍ طويل (ملتف ليلائم جدار الجمجمة)، وغشاء مستدق على طول النفق يفصل الموجات إلى نغماتها المتوافقة، ومجموعة من الخلايا ذات الشعيرات الصغيرة التي تنحني إلى الأمام والخلف بفعل الغشاء المهتز، وترسل قطارًا من النبضات الكهربائية إلى المخ. من المستحيل تفسير ترتيب هذه الأغشية والعظام والسوائل والشعيرات بتلك الطريقة المستبعَدة للغاية دون الإشارة إلى أنَّ هذا الشكل يسمح للمخ بتسجيل الصوت بنمطٍ معين. وحتى الأذن الخارجية المكسوة باللحم –دون تماثل بين الجزء العلوي والسفلي، ولا بين الأمام والخلف، والمجعدة بالمرتفعات والأودية– مصمَّمة بطريقة تشكِّل الصوت القادم على نحوٍ يُعلِم المخ بمصدر الصوت، سواء كان من أعلى أم أسفل، من الأمام أم الخلف.

إنّ الكائنات الحية حافلة بأعضاء يصعب تنبؤ أن يكون تكونها تلقائيا مثل العين والأذن والقلب والمعدة، مما يقودنا للاستفسار عن نشأتها. قبل أن يقدِّم تشارلز داروين وألفريد راسل والاس تفسيرًا في عام 1859، كان من المنطقي اعتقاد أنها من صنع إله مصمِّم، وهذا كما أظن هو السبب في أنَّ كثيرًا من مفكِّري التنوير كانوا ربوبيين وليسوا ملحدين. نفى داروين ووالاس ضرورة وجود مصمِّم. عندما نتج عن عمليات التنظيم الذاتي في الفيزياء والكيمياء شكلٌ من أشكال المادة يمكنه تكرار نفسه، أصبحت النسخ تنسخ نفسها، وتنسخ النسخ الثانية نفسها، وهكذا، في انفجارٍ مطرد. تتنافس أنظمة التكرار على المادة كي تنتج نُسخًا وعلى الطاقة كي تحرِّك عملية التكرار. بما أن عملية النسخ ليست مثالية –ويضمن قانون الإنتروبيا ذلك– تقع بعض الأخطاء، ورغم أن معظم هذه الطفرات تنتقص من المكرِّر (بفعل الإنتروبيا أيضًا)، إلَّا أنَّ إحداها ربما تصبح أكثر كفاءةً في الاستنساخ بضربةٍ حظ عارضة، ويكتسح أسلافها المنافسة. مع تراكم أخطاء النسخ التي تحسِّن الاستقرار والتكرار على مر الأجيال، يبدو نظام التكرار –الذي نطلق عليه «الكائن»– وكأنَّه قد تم هندسته وتصميمه بغرض البقاء والتكاثر في المستقبل، رغم أنه حافظ فقط على أخطاء النسخ التي أدت إلى البقاء والتكاثر في الماضي.

يحرِّف أنصار نظرية الخَلق عادةً القانون الثاني للديناميكا الحرارية بادِّعاء أنَّ التطور البيولوجي، أي زيادة الانتظام بمرور الوقت، مستحيل فيزيائيًّا، إذ يحذفون من القانون الجزء الذي يقول «في نظام مغلق». إنّ الكائنات الحية أنظمة مفتوحة، فهي تلتقط الطاقة من الشمس أو الغذاء أو منافس المحيطات كي تشكِّل تجاويف مؤقتة من الانتظام في أجسامها وأعشاشها بينما تلقي بحرارتها ونفاياتها في البيئة لتزيد بذلك الفوضى في العالم بأكمله. إنَّ استخدام الكائنات الحية للطاقة من أجل الحفاظ على سلامتها من الإنتروبيا هو تفسير

حديث لمبدأ **الكوناتوس** (أي المجهود أو السعي) الذي عرَّفه سبينوزا بأنه «محاولة الفرد للاستمرار والازدهار بطبيعته»، والذي كان أساسًا لنظريات عديدة عن الحياة والذهن في حقبة التنوير.

يؤدي الشرط الصارم لامتصاص الطاقة من البيئة إلى إحدى مآسي الكائنات الحية، ففي حين أنَّ النباتات تمتص الطاقة الشمسية، وبعض الكائنات التي تسكن أعماق المحيطات تمتص المرق الكيميائي الفائض عن الشقوق الموجودة في هذه الأعماق، فإنّ الحيوانات تولد استغلالية: فهي تعيش على الطاقة المخزَّنة في أجسام النباتات والحيوانات الأخرى والتي حصلت عليها بصعوبة، عبر تناولها. كذلك تفعل الفيروسات والبكتيريا والطفيليات ومسبِّبات الأمراض الأخرى التي تنخر في الأجسام من الداخل، فكل ما ندعوه «غذاء»، باستثناء الفاكهة، هو أحد أعضاء جسم كائنٍ آخر أو مخزن طاقته، والذي قد يحتفظ بهذا الكنز لنفسه. الطبيعة حربٌ، وكثير مما يلفت انتباهنا في العالم الطبيعي هو سباق الأسلحة، فالفريسة تحمي نفسها بالصدف أو العمود الفقري أو المخالب أو القرون أو السم أو التمويه أو الفر أو الدفاع عن النفس، وأنسجة النباتات مشبعة بالأشواك والقشر واللحاء والمهيِّجات والسموم، فيما تطوّرِ الحيوانات أسلحة لاختراق تلك الدفاعات: فيتمتع آكلو اللحوم بالسرعة والبراثن والرؤية القوية مثل عين النسر، في حين يتمتع آكلو العشب بأسنانٍ طاحنة وكبد يزيل السموم الطبيعية.

نصل الآن إلى حجر الأساس الثالث، وهو المعلومات. يمكن اعتبار المعلومات انخفاضًا في الإنتروبيا، فهي المكوِّن الذي يميِّز النظام المنتظم المرتَّب عن بقية الأنظمة العشوائية غير المفيدة. تخيل صفحات من الحروف العشوائية التي كتبها قردٌ على آلةٍ كاتبة، أو ضوضاء بيضاء من المذياع غير المضبوط على محطة بعينها، أو شاشة ممتلئة باشكال شبيهه بقصاصات الورق نتيجة ملفٍ تالف على الكمبيوتر. قد يتخذ كلٌ من هذه الأشياء تريليون شكل مختلف، كل شكل أكثر مللًا من الآخر. لكن لنفترض الآن أنَّ الأجهزة تخضع لتحكم إشارة ترتِّب الحروف أو موجات الصوت أو وحدات البيكسل كي تشكِّل نمطًا يتناسب مع شيءٍ موجود في العالم، مثل إعلان الاستقلال أو ميزان مطلع أغنية **Hey, Jude**، أو قطة ترتدي نظارات شمسية. نقول في تلك الحالة إنَّ الإشارة ترسل **معلومات** عن إعلان الاستقلال أو الأغنية أو القطة.

تتوقف المعلومات التي يحتوي عليها نمطٌ ما على مدى دقة رؤيتنا للعالم، إذا كنا نهتم بالترتيب المضبوط للحروف فيما أنتجه القرد، أو بالفرق الدقيق بين صوتٍ وآخر من أصوات الضوضاء، أو بنمط وحدات البيكسل المحدد في إحدى الشاشات العشوائية، فسنقول إنَّ كلًّا من هذه الأنماط يحتوي على نفس مقدار المعلومات الذي تحتوي عليه الأنماط الأخرى. تحتوي الأنماط المثيرة للاهتمام بالطبع على معلومات **أقل** لأنك عندما تنظر إلى جزءٍ واحد (حرف الـ ق مثلًا)، فإنّ بإمكانك تخمين بقية الأجزاء (مثل الحرف التالي، ك) دون الحاجة إلى الإشارة. ولكننا غالبًا نجمع الأغلبية العظمى من الأشكال العشوائية سويًّا ونصفها بالملل بقدرٍ متساوٍ، ونفرِّق بينها جميعًا من جانب، وبين الأشكال القليلة التي ترتبط في أذهاننا بشيء آخر من جانب. من وجهة النظر تلك، تحتوي صورة القطة على معلومات أكثر مما تحتوي عليها قصاصات وحدات البيكسل، لأنها تستخدم رسالة فائضة التفاصيل لتحديد شكلٍ متناسق نادر من بين عددٍ هائل من الأشكال غير المتناسقة بنفس القدر. فالقول بأن الكون منتظمٌ ومتناسقٌ وليس عشوائيًّا يعني أنه يحتوي على المعلومات بهذا المعنى، وبعض الفيزيائيين يقدِّسون المعلومات بوصفها إحدى المكوِّنات الأساسية للكون، إضافةً إلى المادة والطاقة.

المعلومات هي ما يتراكم في الجينوم خلال التطور، يرتبط تتابع القواعد النووية في جزيء الحمض النووي بتتابع الأحماض الأمينية في البروتينات التي تشكِّل جسم الكائن، وقد نشأ هذا التتابع عبر تنظيم أسلاف الكائن –أي خفض الإنتروبيا– في الأشكال مستبعدة التكوين التي سمحت لهم بالحصول على الطاقة والنمو والتكاثر.

يجمع الجهاز العصبي الخاص بالكائن أيضًا المعلومات طوال حياته، فعندما تحوِّل الأذن الصوت إلى انبعاثات عصبية، تختلف العمليتان الفيزيائيتان –هز الهواء ونشر الأيونات– اختلافًا ضخمًا، ولكن بفضل الارتباط بينهما، يحمل نمط النشاط العصبي في مخ الحيوان معلومات عن الصوت الموجود في العالم. من هنا يمكن تحويل المعلومات من كهربائية إلى كيميائية والعكس عند مرورها بالمشابك العصبية التي تصل إحدى الخلايا العصبية بالتالية، وتظل المعلومات مرورًا بكل هذه التحويلات الفيزيائية محفوظةً.

من الاكتشافات بالغة الأهمية في علم الأعصاب النظري في القرن العشرين أنَّ الشبكات العصبونية لا تستطيع الاحتفاظ بالمعلومات فحسب، وإنَّما تستطيع أيضًا نقلها بطرقٍ تسمح لنا بتفسير كيف يمكن للمخ أن يكون ذكيًّا. يمكن توصيل خليتين عصبيتين مختصتين بالإدخال بخلية عصبية مختصة بالإخراج بطريقةٍ تجعل أنماط الانبعاث تتوافق مع العلاقات المنطقية مثل «و» و«أو» و«لا»، أو مع قرارٍ إحصائي يتوقف على حجم الأدلة القادمة. يمنح هذا للشبكات العصبونية القدرة على القيام بمعالجة المعلومات أو حسابها. وبشرط توافر شبكةٍ كبيرة بما يكفي قائمة على هذه الدوائر المنطقية والإحصائية (وبوجود مليارات العصبونات، يتسع المخ لكثيرٍ منها)، يمكن للمخ أن يجري عمليات حسابية معقدة، وهذا الشرط الأساسي للذكاء. يمكنه نقل المعلومات عن العالم التي تتلقاها من أعضاء الحواس بطريقةٍ تعكس القوانين التي تحكم العالم، وهو ما يسمح له بدوره بالاستدلال والتنبؤ. والصور التمثيلية الداخلية المرتبطة بأوضاع العالم، والتي تقوم باستدلالات التي تستنتج نتائج صادقة من مقدمات صادقة، يمكن أن نطلق عليها معرفة. يمكننا أن نقول إنَّ الشخص يعرف ما هو طائر أبو الحناء إذا فكَّر في «طائر أبو الحناء» كلما رآه، وإذا استطاع استنتاج أنه أحد أنواع الطيور، يظهر في الربيع ويستخرج الدود من الأرض.

نعود الآن إلى التطور. يستطيع المخ، الذي أهلته المعلومات الموجودة في الجينوم لإجراء الحسابات على المعلومات الداخلة إليه من الحواس، أن ينظِّم سلوك الحيوان بطريقةٍ سمحت له بالتقاط الطاقة ومقاومة الإنتروبيا، فاستطاع مثلًا تطبيق القاعدة التي تقول: «إذا أصدر الكائن صريرًا، فطارده، أما إذا نبح، فلُذ بالفرار منه».

ولكنَّ المطاردة والفرار ليسا مجرد متتالية من انقباضات العضلات، بل إنهما محددان بهدفٍ. قد تتضمن المطاردة الجري أو التسلُّق أو القفز أو نصب كمينٍ، حسب الظروف، طالما كانت تزيد من فرص تمزيق الفريسة. وقد يتضمن الفرار الاختباء أو التجمُّد أو اتخاذ مسلك متعرّج. ويطرح هذا فكرة أخرى بالغة الأهمية ظهرت في القرن العشرين، ويُطلق عليها التحكم الآلي أو التغذية الراجعة أو الضبط أحيانًا. تفسِّر هذه الفكرة كيف أنَّ نظامًا فيزيائيًّا قد يبدو غائيًّا، أي تحرِّكه أغراض أو أهداف، وكل ما يحتاج إليه هو طريقةٌ للإحساس بحالته وبيئته، وتمثيل للحالة المستهدفة (ما «يريده» وما «يحاول الوصول إليه»)، والقدرة على حساب الفرق بين الحالة الحالية والحالة المستهدفة، ومخزون من الإجراءات الموسومة بآثارها النمطية. إذا كان النظام مصمَّمًا بطريقةٍ تجعله يستحث إجراءات تقلل الفرق بين الحالة الحالية والحالة المستهدفة، فيمكن أن نقول إنه يقصد أهدافًا ما (وعندما يكون العالم قابلًا للتنبؤ بالقدر الكافي، يبلغ هذه

الأهداف). اكتُشف هذا المبدأ بفعل الانتخاب الطبيعي على هيئة الاستتباب أو الاتزان الداخلي، وهو عبارة عن ضبط أجسامنا درجات حرارتها بالارتجاف والتعرق. عندما اكتشفه البشر، طبقوه هندسيًّا في أنظمةٍ مثل منظِّم الحرارة (الترموستات) ومثبِّت السرعة، ثم في أنظمة رقمية مثل برامج لعب الشطرنج والروبوتات المستقلة.

تسد مبادئ المعلومات والحساب والضبط الفجوة بين العالم الفيزيائي القائم على السبب والنتيجة، والعالم العقلي القائم على المعرفة والذكاء والغرض، فعندما نقول إنَّ الأفكار تستطيع تغيير العالم، فهذا ليس مجرد تطلّع كلاميّ، وإنما هو حقيقة عن التكوين الفيزيائي للمخ. كانت لدى مفكِّري التنوير فكرةٌ مفادها أن الفكر قد يتكوَّن من أنماطٍ من المادة، فشبَّهوا الأفكار بطبعات الأسنان على الشمع، أو الاهتزازات في الأوتار، أو الموجات الناتجة عن حركة القارب. واقترح بعضهم، مثل هوبز، أنَّ «التعقُّل ليس سوى تقدير»، أي **حساب**. ولكن قبل اتضاح مفاهيم المعلومات والحساب، كان من المعقول أن يؤمن شخصٌ بثنائية العقل والجسد ويُعزي الحياة العقلية إلى روحٍ غير مادية (مثلما كان من المعقول قبل اتضاح مفهوم التطوُّر أن يكون المرء مؤمنًا بنظرية الخَلق ويُعزي التصميم في الطبيعة إلى مصمِّم كوني). وهذا سبب آخر كما أظن في أنَّ كثيرًا من مفكِّري التنوير كانوا ربوبيين.

من الطبيعي بالتأكيد أن تفكِّر فيما إذا كان هاتفك «يعرف» حقًّا أحد أرقامك المفضَّلة، أو إذا كان نظام تحديد المواقع GPS «يكتشف» حقًّا الطريق الأفضل إلى منزلك، أو إذا كانت المكنسة الآلية رومبا «تحاول» فعلًا تنظيف الأرضية. ولكن مع تطوُّر أنظمة معالجة المعلومات –بحيث يصبح تمثيلها للعالم أفضل وأغنى، وتترتب أهدافها بصورةٍ هرمية إلى أهداف فرعية ضمن أهداف فرعية، وتصبح إجراءاتها لبلوغ الأهداف أكثر تنوعًا وأقل قابلية للتنبؤ– يبدو الإصرار على أنها لا تتطور شكلًا من أشكال الشوفينية البشرية. (سأعود في الفصل الأخير إلى مسألة ما إذا كان الحساب يفسِّر **الوعي** إضافةً إلى المعرفة والذكاء والغرض).

يظل الذكاء البشري هو المقياس للذكاء الاصطناعي، وما يجعل **الإنسان العاقل** (*Homo Sapiens*) نوعًا فريدًا هو أنَّ أسلافنا استثمروا في أدمغة أكبر جمعَت معلومات أكثر عن العالم، وتعقَّلوا هذه المعلومات بطرقٍ أكثر تطورًا وتعقيدًا، وسخَّروا مجموعة متنوعة وأكبر من الإجراءات لتحقيق أهدافهم، فهم قد تخصصوا في التخصص المعرفي، الذي يسمَّى أيضًا التخصص الثقافي وتخصص الصيد وجمع الثمار. وقد استوعب هذا حزمة من وسائل التكيُّف الجديدة التي تشمل القدرة على التلاعب بالنماذج الذهنية عن العالم والتنبؤ بما قد يحدث لو جربنا أشياءَ جديدة، والقدرة على التعاون مع الآخرين، التي سمحت لفرقٍ من الناس بتحقيق ما لم يستطِع شخصٌ واحد تحقيقه، واللغة التي سمحت لهم بتنسيق أفعالهم وتجميع ثمار تجاربهم في مجموعات من المهارات والأعراف التي نسمّيها ثقافات. سمحت هذه الاستثمارات للبشر الأوائل بهزيمة وسائل دفاع مجموعةٍ هائلة من النباتات والحيوانات وحصد المكافأة على هيئة الطاقة،، التي أذكت أدمغتهم المتمددة، مما أمدهم بالمزيد من المعرفة وإمكانية الوصول إلى المزيد من الطاقة. تعدّ قبيلة هادزا في تنزانيا من القبائل المعاصرة التي تعيش على الصيد وجمع الثمار والتي خضعت لدراسة متعمقة، حيث تعيش هذه القبيلة في النظام البيئي الذي تطوَّر فيه الإنسان الحديث في البداية، وتحتفظ على الأرجح بقدرٍ كبير من نمط حياته، ويستهلك الفرد الواحد من هذه القبيلة 3000 سعرٍ حراري في اليوم من أكثر من 880 نوعًا من الأطعمة، ويعد قائمة طعامه بطرق علفٍ مبتكرة ينفرد بها البشر، مثل قطع الحيوانات

الكبيرة بأسهم ذات سنٍّ مسمومة، وطرد النحل بالدخان من خلاياه من أجل سرقة العسل، وزيادة القيمة الغذائية في اللحوم والدرنات النباتية بطهيها.

الطاقة التي توجهها المعرفة هي الإكسير الذي نتفادى به الإنتروبيا، والتقدُّم في التقاط الطاقة تقدمٌ في مصير الإنسان. ضاعف اكتشاف الزراعة منذ حوالي عشرة آلاف سنة من السعرات الحرارية المتاحة من النباتات المزروعة والحيوانات المستأنسة، وحرَّر جزءًا من السكان من متطلبات الصيد وجمع الثمار، ومنحهم في النهاية رفاهية الكتابة والتفكير وتراكم الأفكار. وفي حوالي سنة 500 قبل الحقبة الحالية*، فيما أطلق عليه الفيلسوف كارل ياسبرز العصر المحوري، انتقلت عدة ثقافات منفصلة من أنظمة الطقوس والتضحيات التي كان غرضها مجرد درء المصائب إلى أنظمة الاعتقاد الديني والفلسفي التي عزَّزت الإيثار ووعدت بالتسامي الروحي.

ظهرت كلٌّ من الطاوية والكونفوشية في الصين، والهندوسية والبوذية والجاينية في الهند، والزرادشتية (المجوسية) في بلاد فارس، ويهودية الهيكل الثاني في يهوذا، والدراما والفلسفة الإغريقية الكلاسيكية، بفاصل بضعة قرونٍ بعضها عن بعض. (كان كلٌّ من كونفوشيوس وبوذا وفيثاغورس وأسخيلوس وآخر نبي عبري يعيشون على وجه الأرض في الوقت نفسه). حدَّد مؤخرًا فريقٌ من الباحثين متعددي التخصصات السبب المشترك، لم يكُن السبب هو أنَّ كوكب الأرض قد حلَّت عليه هالةٌ من الروحانية، وإنما كان شيئًا أكثر عادية، وهو التقاط الطاقة. العصر المحوري هو الذي قدَّمت فيه التطورات الاقتصادية والزراعية دفعةً من الطاقة: أكثر من 20 ألف سعرٍ حراري للشخص يوميًّا من غذاءٍ وعلفٍ ووقودٍ وموادَ خام. وأتاحت هذه القفزة للحضارات سكنى المدن الأكبر، وظهور فئات الباحثين والكهنة، وإعادة توجيه أولوياتهم من البقاء قصير المدى إلى التناغم طويل المدى، أو كما صاغ بيرتولت بريخت الأمر بعد ألفيةٍ كاملة: «الطعام أولًا ثم الأخلاق».

فتحت الثورة الصناعية نافورةً من الطاقة الصالحة للاستخدام من فحمٍ وبترول وشلالات مياه، وفتحت بابًا للهروب من الفقر والمرض والجوع والأمية والوفاة المبكرة في الغرب أولًا، ثم في بقية العالم على نحوٍ متزايد (كما سنرى في الفصول من الخامس إلى الثامن). وتعتمد القفزة التالية في رفاهية الإنسان –نهاية الفقر المدقع وانتشار الوفرة، وكل فوائدهما الأخلاقية– على التقدُّم التكنولوجي الذي يوفِّر الطاقة بتكلفة اقتصادية وبيئية مناسبة للعالم بأكمله (الفصل العاشر).

الإنتروبيا والتطور والمعلومات، تعرِّف هذه المفاهيم قصة تطور الإنسان: المأساة التي وُلِدنا بها، ووسائلنا لتدبير معيشة أفضل.

كانت أول حكمة قدَّموها هي أنَّ المصائب قد لا تكون خطأ أي شخص، وكان من الطفرات الكبرى للثورة العلمية –ربما أكبر الطفرات التي أحدثتها– نفي الحدس البديهي الذي يقول إنَّ الكون مشبَّع بالأغراض والغايات. ففي هذا الفهم البدائي واسع الانتشار، لكل شيء سبب، فعندما تحدث أمور سيئة –مثل الحوادث أو المرض أو المجاعة أو الفقر– فلا بد أن يكون هناك فاعلٌ ما أراد حدوثها. وإذا أشير إلى شخصٍ بإصبع الاتهام في إحدى المصائب، فيمكن معاقبته أو ابتزازه لتعويض الأضرار. أما إذا لم يكن اختيار فردٍ واحد لمعاقبته ممكنًا، فقد يُلقى باللوم على أقرب أقلية إثنية أو دينية يمكن إعدام أفرادها دون محاكمةٍ، أو ارتكاب مذابح تجاههم.

*الحقبة الحالية أو C.E تُستخدَم في الكتابات العلمانية بديلًا عن .B.C أي قبل الميلاد و .A.D أي بعد الميلاد لتجنُّب استخدام تقويمٍ ديني خاص بدينٍ بعينه دونًا عن البقية – المترجمة.

وإذا صعُب اتهام أحد البشر الفانين اتهامًا يمكن تصديقه، فإنّ بالإمكان البحث عن الساحرات اللاتي يمكن حرقهن أو إغراقهن. وعند فشل كل هذه المحاولات، يشير المرء إلى الآلهة السادية، التي لا يمكن عقابها، ولكن يمكن استرضاؤها بالصلوات والتضحيات. ثم توجد القوى المجهولة مثل الكارما والقدر والرسائل الروحانية والعدالة الكونية وضمانات أخرى للحدس القائل بأن لكل شيء سببًا.

استبدل جاليليو ونيوتن ولابلاس بهذه اللعبة الأخلاقية الكونية كونًا ذا حركةٍ آلية تحدث فيه الأمور بفعل الظروف القائمة في الحاضر وليس بفعل أهدافٍ للمستقبل. لدى الناس أهداف بالطبع، ولكنّ إسقاط الأهداف على طرق عمل الطبيعة وهمٌ، فقد تحدث أمور دون أن يضع أي أحد في اعتباره أثرها في سعادة البشر.

تعمقت بصيرة الثورة العلمية والتنوير باكتشاف الإنتروبيا، إذا ليس الكون غير مهتم برغباتنا فحسب، بل يبدو في المسار الطبيعي للأمور كأنه يحبطها أيضًا، لأنَّ الطرق إلى حدوث المشاكل أكثر من الطرق إلى سير الأمور على ما يرام، فالمنازل تحترق، والسفن تغرق، والجيوش تُهزم في المعارك لأتفه الأسباب.

وتعمق وعينا بعدم اكتراث الكون بنا أكثر بفهمنا للتطور، فالكائنات المفترسة والطفيليات ومسببات الأمراض تحاول باستمرار أن تأكلنا، والآفات والكائنات المفسدة تحاول أن تأكل أغراضنا، وربما يجعلنا هذا تعساءَ، ولكن هذه ليست مشكلتهم!

والفقر أيضًا لا يحتاج إلى تفسير، فهو الحالة الافتراضية للبشرية في عالمٍ تحكمه الإنتروبيا والتطور، فالمادة لا ترتِّب نفسها على هيئة مأوى أو ملابس، والكائنات الحية تفعل كل ما بوسعها كي تتجنب أن تتحول إلى طعامٍ لنا. ومثلما أشار آدم سميث، فإنَّ ما يحتاج إلى تفسير هو الثروة. ولكن حتى اليوم، ما زال بعض الناس يؤمنون بأنَّ الحوادث أو الأمراض تحدث بفعل فاعلٍ، وتدور المناقشات عن الفقر غالبًا حول حجج متعلقة بمن يقع عليه اللوم في الفقر.

لا يُقصد بأي من هذا أنَّ العالم الطبيعي خالٍ من الضغائن والشرور، بل على العكس، يضمن التطور وجود الكثير منها. يقوم الانتخاب الطبيعي على التنافس بين الجينات التي ستتمثل في الجيل التالي، والكائنات التي نراها اليوم هي نسل الكائنات التي هزمت خصومها في المنافسة على الشركاء الجنسيين والغذاء والهيمنة. ولا يعني هذا أنَّ كل المخلوقات ضارية دائمًا، إذ تفسِّر نظرية التطور الحديثة كيف يمكن للجينات الأنانية أن تسفر عن نشأة كائنات غير أنانية، ولكن الكرم يخضع للقياس. فالبشر –على عكس خلايا الجسم أو الأفراد ضمن مستعمرات– متفردون جينيًّا، وراكم كلٌّ منهم وجمع مجموعة مختلفة من الطفرات التي ظهرت على مر أجيالٍ من التكرار المعرض للإنتروبيا في سلالته. تمنحنا الفردية الجينية احتياجات وأذواقًا مختلفة، وتمهِّد الطريق أيضًا للنزاعات، إذ تشتعل العلاقات بين الأسر والأزواج والأصدقاء والحلفاء والمجتمعات بتضاربات في المصالح، والتي تظهر في هيئة توتر وجدالات وأحيانًا عنف. من الآثار الأخرى لقانون الإنتروبيا إمكانية تعطيل نظامٍ معقد ككائن حي، لأن عمله يتوقف على تلبية شروط كثيرة مستبعدة الحدوث في وقتٍ واحد، فمجرد صخرة تضرب الرأس، أو يد تلتف حول العنق، أو سهم مسموم يصيب الهدف، يُعطِّل المنافس. ومن أكثر الوسائل إغراءً للكائن الذي يستخدم اللغة، التهديد بالعنف الذي قد يُستخدم في إجبار الخصم مما يفتح الباب للاضطهاد والاستغلال.

ترك لنا التطور عبئًا آخر، وهو أنَّ ملكاتنا المعرفية والعاطفية والأخلاقية تكيَّفت من أجل البقاء الفردي والتكاثر في بيئةٍ عتيقة وليس من أجل الازدهار في بيئةٍ حديثة. ولكي نقدِّر حجم هذا العبء، فليس علينا أن نصدِّق أننا رجال كهف يعيشون في زمنٍ غير زمنهم، وإنما علينا أن نصدق فقط أن التطور، الذي تقاس حدود سرعته بالأجيال، لم يستطع تكييف أدمغتنا مع المؤسسات والتكنولوجيا الحديثة. يعتمد البشر اليوم على الملكات المعرفية التي كانت ناجحة في المجتمعات التقليدية، ولكننا نراها الآن مليئة بالأخطاء.

الناس بطبيعتهم أميون وعاجزون عن الحساب، ويحددون الكميات في العالم بـ «واحد، اثنان، كثير» وبتخمينات وتقديرات تقريبية، ويفهمون أن الأشياء المادية لها جوهر خفي يطيع قوانين سحر التعاطف أو الفودو بدلًا من قوانين الفيزياء أو الأحياء، فالأغراض تستطيع عبور الزمان والمكان لتؤثر في أشياء تشبهها أو اتصلت بها في الماضي (تذكَّر معتقدات الرجل الإنجليزي قبل الثورة العلمية). يظنون أن الكلمات والآراء قد تعتدي على العالم المادي بالصلوات واللعنات، ويقلِّلون من مدى انتشار الصدفة. يعمِّمون نماذج ضئيلة، أي تجربتهم الخاصة، ويفكِّرون بأنماط سائدة، ويسقطون السمات النمطية لمجموعةٍ ما على أي فرد ينتمي إليها. يستنتجون السببية من الارتباط، ويفكِّرون تفكيرًا كليًّا، إما أبيض أو أسود، ويتعاملون مع الشبكات المجردة كأنها أشياء ملموسة. ليسوا علماءَ بالبداهة بقدر ما هُم محامون وساسة بالبداهة، يحشدون الأدلة التي تؤكد قناعاتهم في حين يستبعدون الأدلة التي تعارضها، ويبالغون في تقدير معرفتهم وفهمهم واستقامتهم وكفاءتهم وحظهم.

ويعمل الحس الأخلاقي للبشر أيضًا لغايات متقاطعة مع رفاهتنا، فالناس يشيطنون المختلفين عنهم، ويعزون اختلافهم في الآراء إلى الغباء والخيانة. عند كل مصيبة، يبحثون عن كبش الفداء، ويرون الأخلاق مصدرًا للأسس التي يدينون بناءً عليها خصومهم ويحشدون السخط تجاههم. قد تُبنى أسس الإدانة على أنَّ المتهمين قد آذوا الآخرين، ولكنها أيضًا قد تُبنى على استهزائهم بالتقاليد أو شكَّكوا في السُلطة أو قوَّضوا الوحدة القبَلية أو قاموا بممارسات غذائية أو جنسية نجسة. يرى الناس العنف أخلاقيًّا وليس العكس، ففي العالم كله على مر التاريخ، كان عدد من قُتِلوا لتحقيق العدالة أكثر ممن قُتِلوا بدافع الجشع.

ولكننا لسنا سيئين تمامًا، يأتي الإدراك البشري بخاصيتين يمنحانه وسيلةً لتجاوز حدوده: الأولى هي التجريد، إذ يستطيع الناس أخذ مفهومهم عن شيءٍ ما في مكانٍ ما واستخدامه في تصور كيانٍ في ظرفٍ ما، مثلما نستقبل نمط تفكير مثل «جرى الغزال من البحيرة إلى التل» ونسقطه على آخر مثل «تحولت حالة الطفل من المرض إلى الصحة». يمكنهم أخذ مفهوم عن فاعلٍ يبذل قوة جسدية ويستخدمونه في تصور أنواعٍ أخرى من السببية، مثل عندما نسقط الصورة في جملة «لقد أجبَرَت الباب على أن يُفتَح» على جملة «لقد أجبَرَت ليزا على الانضمام إليها» أو «لقد أجبَرَت نفسها على التعامل بأدب». تقدِّم هذه الصيغ للناس وسيلةً للتفكير في المتغير بقيمةٍ ما وفي السبب ونتيجته، وهذه بالتحديد هي الآلية المفاهيمية التي يحتاج إليها المرء كي يصوغ النظريات والقوانين. يمكنهم أن يفعلوا هذا، ليس مع عناصر الفكر فحسب، بل أيضًا مع التركيبات الأعقد، مما يتيح لهم التفكير بالمجاز والتشبيهات، مثل: الحرارة سائلة، أو الرسالة حاوية، أو المجتمع أسرة، أو الالتزامات قيود.

المرحلة الثانية في الإدراك هي قوته التركيبية التكرارية،إذ يمكن أن يضمر الذهن مجموعةً ضخمة من الأفكار عبر تجميع مفاهيم أساسية مثل الشيء والمكان والمسار والفاعل والسب والهدف في فرضيات، وليس ذلك فحسب، بل يمكنه أن يضمر فرضيات عن

الفرضيات وفرضيات عن الفرضيات عن الفرضيات، وهكذا. على سبيل المثال: (يحتوي الجسم على أخلاط. المرض هو خلل في توازن الأخلاط التي يحتوي عليها الجسم، لم أعُد أؤمن بالنظرية القائلة بأنَّ المرض هو خلل في توازن الأخلاط التي يحتوي عليها الجسم).

بفضل اللغة، لم تعُد الأفكار تخضع للتجريد والتجميع داخل رأس مفكِّرٍ واحد، بل أصبح من الممكن مشاركتها مع مجتمعٍ من المفكِّرين. شرح توماس جيفرسون قوة اللغة باستخدام تشبيهٍ، فقال: «مَن يتلقى مني فكرة، يتلقى الرسالة بنفسه دون أن تنتقص من فكرتي، كما أنَّ من يشعل شمعته من شمعتي، يحصل على الضوء دون أن يحيطني بالظلام». تضاعفت قوة اللغة بوصفها تطبيق المشاركة الأصلي مع اختراع الكتابة (ثم تكرَّر هذا في عصورٍ لاحقة مع الطباعة، ثم مع انتشار المعرفة بالقراءة والكتابة، ثم مع الإعلام الإلكتروني). نمت شبكات المفكِّرين المتواصلين بمرور الوقت ومع الزيادة السكانية، واختلطت وتركَّزت في المدن، وأتاح توافر الطاقة بقدرٍ أكبر من الحد الأدنى اللازم للبقاء للكثير منهم رفاهية التفكير والحديث.

عندما تتشكَّل مجتمعات كبيرة ومتصلة، يمكنها أن تتوصل إلى طرقٍ لتنظيم شؤونها تعمل للصالح المشترك لأفرادها. وعلى الرغم من أن الجميع يريد أن يكون محقًّا، إلَّا أنه بمجرد أن يبدأ الناس في عرض آرائهم المتضاربة، يتَّضح أنَّه لا يمكن أن يكون الجميع محقًّا بشأن كل شيء. وقد تتصادم رغبة المرء في أن يكون محقًّا برغبةٍ أخرى، وهي الرغبة في معرفة الحقيقة التي تحظى بالأولوية في أذهان المتفرجين على جدالٍ ليسوا مهتمين بفوز أي طرف من أطرافه. يمكن أن تتوصل المجتمعات بذلك إلى قواعد تسمح بنشأة معتقدات حقيقية من الجدالات غير المقيدة بنظامٍ ما، كأن يكون عليك تقديم أسباب لمعتقداتك، ويُسمح لك بالإشارة إلى العيوب في معتقدات الآخرين، ولا يُسمح لك بإسكات المختلفين معك عنوةً. إذا أضفت القاعدة التي تنص على أن عليك أن تدع العالم كله يبيِّن لك ما إذا كانت معتقداتك صحيحة أم خاطئة، فإن بإمكاننا أن نطلق على هذه القواعد علمًا. باستخدام القواعد المناسبة، يستطيع مجتمعٌ من المفكِّرين غير العقلانيين بالكامل أن يُنبِتوا أفكارًا عقلانية.

يمكن لحكمة الجماهير أيضًا أن تسمو بمشاعرنا الأخلاقية، فعندما تتباحث مجموعة كبيرة بالقدر المناسب من الناس في أفضل طريقة للتعامل بعضهم مع بعض، فستتجه المحادثة حتمًا في اتجاهاتٍ معينة. إذا كان عرضي المبدئي هو أنني «يحق لي أن أسرقك وأضربك وأستعبدك وأقتلك أنت وأمثالك، ولكن لا يحق لك أنت أن تسرقني أو تضربني أو تستعبدني أو تقتلني أنا وأمثالي»، فلا يمكن أن أتوقع أن توافق على الاتفاق أو أن تصدِّق عليه أي أطراف أخرى، لأنه لا يوجد سبب وجيه لأن أحصل أنا على امتيازات فقط لأنني أنا ولأنك لستُ مثلي. ولن نتفق على الأرجح على اتفاقٍ ينص على أنني «يحق لي أن أسرقك وأضربك وأستعبدك وأقتلك أنت وأمثالك، ويحق لك أنت أن تسرقني أو تضربني أو تستعبدني أو تقتلني أنا وأمثالي»، رغم تماثله، لأنَّ المساوئ التي سنعاني منها بسبب الأذى الواقع علينا تفوق بمقدارٍ هائل المميزات التي سيحصل عليها أيٌّ منَّا من إيذاء الآخر (وهو نتيجة أخرى لقانون الإنتروبيا، فالإصابة بالأذى أسهل ولها آثار سلبية أكثر مما لها من فوائد). سيكون من الحكمة أن نتفاوض على عقدٍ اجتماعي متبادل مفيد للطرفين، فلا يعطي لأيٍّ منَّا الحق في أن يؤذي الآخر ويشجِّع كلًّا منا على مساعدة الآخر.

إذًا رغم كل العيوب الموجودة في الطبيعة البشرية، إلَّا أنَّها تحتوي على بذور تطورها، طالما وصلت إلى أعرافٍ ومؤسسات توجِّه المصالح المحدودة إلى منافع عالمية. ومن بين تلك الأعراف حرية التعبير واللا عنف والتعاون والمواطنة العالمية (الكوزموبوليتانية) وحقوق

الإنسان والاعتراف بقابلية البشر للخطأ، ومن بين تلك المؤسسات العلم والتعليم والإعلام والحكومة الديمقراطية والمنظمات الدولية والأسواق، ولم تكُن مصادفةً كون هذه الأعراف والمؤسسات كانت بنات أفكار التنوير.

الفصل الثالث

الفكر المضاد للتنوير

من يمكنه أن يعادي العقل والعلم والنزعة الإنسانية والتقدُّم؟ تبدو الكلماتُ عذبةً، وتبدو المثُل ممتازة لا يمكن نقدها، إذ إنها تحدِّد مهام كل مؤسسات الحداثة، من مدارسٍ ومستشفيات وجمعيات خيرية ووكالات إخبارية وحكومات ديمقراطية ومنظمات دولية، فهل تحتاج هذه المثُل حقًّا إلى دفاعٍ؟

بالتأكيد تحتاج إليه، فمنذ ستينيات القرن الماضي، انخفضت مستويات الثقة في مؤسسات الحداثة، وشهد العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين ازدهار الحركات الشعبوية التي تتبرأ بشكلٍ سافر من مُثُل التنوير، وهي حركات ذات انتماء قبَلي وليس عالميًا، سلطوية وليست ديمقراطية، تحتقر الخبراء بدلًا من أن تحترم المعرفة، ولديها حنين للماضي الشاعري بدلًا من أن يكون لديها أمل في مستقبلٍ أفضل. ولكنَّ ردود الفعل هذه ليست قاصرة بأي شكلٍ على الشعبوية السياسية في القرن الحادي والعشرين (وهي حركة سنفحصها جيدًا في الفصلين العشرين والثالث والعشرين)، فازدراء العقل والعلم والنزعة الإنسانية والتقدُّم له ماضٍ قديم يعود إلى الثقافة الفكرية والفنية النخبوية، لا ينبع فقط من القواعد الشعبية، وليس مجرد تعبيرٍ عن غضب أعضاء حزب «لا أعرف شيئًا»*.

من الانتقادات الشائعة لمشروع التنوير أنَّه اختراع غربي غير ملائم للعالم بكل تنوعه واختلافاته، وهذا الانتقاد خاطئ تمامًا، فكل الأفكار تنشأ في مكانٍ ما، وليس لمنبعها أثرٌ في جدارتها. وعلى الرغم من التعبير عن كثيرٍ من أفكار التنوير بأوضح الصيغ وأكثرها تأثيرًا في أوروبا وأمريكا في القرن الثامن عشر، إلَّا أنَّ جذورها ترجع إلى العقل والطبيعة البشرية، لذا فإن أي إنسان عاقل يمكنه التفاعل معها، ولذا فإنّ التعبير عن مُثُل التنوير قد تحقّق في حضارات غير غربية عدة مرات على مر التاريخ.

إنّ رد فعلي الأساسي على الادعاء بأنَّ التنوير هو النموذج التوجيهي للغرب هو: ليته كان كذلك حقًّا! فسرعان ما تلا التنويرَ فكرٌ مضاد للتنوير، وظل الغرب منقسمًا منذ ذلك الحين. وبمجرد أن بدأ الناس يخطون نحو النور، أشار عليهم آخرون بأن الظلام ليس سيئًا جدًّا، وأن عليهم أن يتوقفوا عن التجرؤ على محاولة فهم الكثير، وأن الدوغما والقواعد تستحق فرصة ثانية، وأن مصير الطبيعة البشرية ليس التقدم، وإنما التدهور.

تصدت الحركة الرومانسية، على نحو خاص، لمثُل التنوير بقوة، فقد أنكر روسو ويوهان هردر وفريدريش شيلينج وغيرهم إمكانية فصل العقل عن العاطفة، وإمكانية النظر إلى الأفراد بصرف النظر عن ثقافتهم، وأنَّ على الأشخاص أن يقدِّموا أسبابًا لأفعالهم، وأنَّ القيم تنطبق على مختلف العصور والأماكن، وأنَّ السلام والرخاء غايات مرجوّة. الإنسان جزءٌ من كلٍّ عضوي –ثقافة أو عرق أو أمة أو دين أو روح جماعية أو قوة تاريخية– وعلى الناس أن يوجِّهوا الوحدة السامية التي ينتمون إليها بإبداعٍ، فالنضال البطولي، وليس حلّ المشكلات، هو الخير الأعظم، والعنف متأصّلٌ في الطبيعة ولا يمكن كبته دون انتزاع الحياة منها، وقد كتب شارل بودلير: «هناك ثلاث فئات جديرة بالاحترام، وهي: الكهنة، والمحاربون، والشعراء.. أن تعرف، وأن تقتل، وأن تُبدع».

---

*هو حزب أمريكي أنشئ في القرن التاسع عشر وأُطلق عليه هذا الاسم لأن أعضاءه كانوا يرفضون الإفصاح عن قواعد الحزب وتعليماته قائلين :لا أعرف شيئًا – المترجمة.

يبدو هذا جنونيًّا، ولكنَّ هذه المُثُل المضادة للتنوير ما زالت موجودة في القرن الحادي والعشرين وسط عدد مدهش من الحركات الفكرية والثقافية النخبوية. ويُعتبر التصور القائل أنَّ علينا تسخير عقلنا الجمعي في تشجيع الازدهار وتقليل المعاناة أحمق وساذجًا وجباناً وعتيقًا. دعني أطرح هنا بعض البدائل الشائعة للعقل والعلم والنزعة الإنسانية والتقدُّم، وسأعرضها ثانيةً في فصولٍ أخرى، وفي الجزء الثالث من الكتاب سأتناولها مباشرةً.

أبرز هذه البدائل وأوضحها هو الإيمان الديني، فأن تقبل شيئًا بإيمانٍ يعني أن تصدِّقه وتؤمن به دون سببٍ منطقي وجيه، فالإيمان بوجود كيانات خارقة للطبيعة –بطبيعته وحسب تعريفه– يتعارض مع العقل المنطقي، كما تتعارض الأديان عادةً أيضًا مع النزعة الإنسانية عندما تمنح "خيرًا أسمى ما" أهميةً أكبر من رفاهة البشر، مثل قبول مخلِّصٍ إلهي، أو التصديق على رواية مقدسة، أو فرض طقوسٍ أو محظورات معيّنة، أو تبشير الآخرين ليقوموا بنفس الأمور، وعقاب من لا يقبلون ذلك أو شيطنتهم. تصطدم الأديان مع النزعة الإنسانية أيضًا بإضفاء قيمة على **الروح** أكبر من **الحياة**، وهو ليس أمراً مبهجًا كما يبدو، فالإيمان بالحياة الآخرة يقتضي ألا تكون الصحة والسعادة مهمتين، لأن الحياة على الأرض لا تمثّل سوى جزء ضئيل من وجود المرء، كما يقتضي الإيمان أن يكون إجبار الناس على قبول الخلاص بمثابة معروف يُسدى إليهم، وأن يكون الاستشهاد أفضل شيء قد يحدث لك. أما عن عدم توافق الإيمان مع العلم، فهذه قصصٌ ترويها الأساطير كما تفعل الأحداث الجارية أيضًا، من جاليليو ومحاكمة القرد* إلى الأبحاث على الخلايا الجذعية والتغيُّر المناخي.

الفكرة الثانية من الأفكار المضادة للتنوير هي أن الإنسان خلية يمكن الاستغناء عنها من جسم كائن أكبر –عشيرة أو قبيلة أو مجموعة إثنية أو دين أو عرق أو طبقة أو أمة– وأن الخير الأسمى هو مجد هذه المجموعة، وليس رفاهة الأفراد الذين يشكِّلونها سويًّا. وتعدّ النزعة القومية من الأمثلة الواضحة على هذه الأفكار، إذ يكون الكائن الأكبر هو الدولة القومية، أي مجموعة إثنية لها حكومة، ونرى هذا الصدام بين النزعة القومية والنزعة الإنسانية في شعارات وطنية مرعبة مثل: "Dulce et decorum est pro patria mori" (كم هو جميل أن تموت في سبيل وطنك)، و«ياالهناء مَن عانق الموت والنصر بإيمانٍ ساطعٍ»، بل وحتى جملة جون الأقل رعبًا «لا تسأل ما الذي يستطيع بلدك أن يقدمه لك، بل اسأل ما الذي تستطيع أنت تقديمه لبلدك» توضِّح هذا التوتر بين النزعتين.

لا ينبغي الخلط بين النزعة القومية من جانب، والقيم المدنية والروح الجماعية والمسؤولية الاجتماعية والفخر الثقافي من جانبٍ آخر، فالإنسان كائن اجتماعي، وتعتمد رفاهة كل فرد على أنماط التعاون والتناغم التي تسود المجتمع. وعندما يُنظر إلى «الأمة» بوصفها عقدًا اجتماعيًا ضمنيًا بين مجموعة أفراد يتشاركون إقليميًا، كملكية مشتركة، فإنّ ذلك يكون وسيلة جوهرية لتقدم وازدهار أعضائها. ومن الجدير بالإعجاب طبعًا أن يضحي فردٌ ما بمصالحه الخاصة من أجل مصالح أفراد عدة، ولكنّ هذا يختلف عن إجبار شخص على التضحية الكبرى لصالح قائد مؤثر، أو قطعة قماش أو ألوان على خريطة، ولا يُعد من أجمل الأشياء وأصحها أن تعانق الموت من أجل منع انفصال مقاطعةٍ ما، أو توسيع دائرة النفوذ أو تنفيذ حملة صليبية وحدوية.

---

*هي محاكمة معلِّم المدرسة الثانوية جون توماس سكوبز عام 1925 ، وأُطلق عليها هذا الاسم لأنه كان متهمًا بتدريس نظرية التطور وهو ما كان غير قانونيًّا آنذاك- المترجمة.

الدين والنزعة القومية من الأسباب المميزة للمحافظة السياسية، وما زالا يؤثران في مصير مليارات الأشخاص في الدول الواقعة تحت نفوذهما. وقد شجَّعني كثيرٌ من الزملاء اليساريين عندما عرفوا أنني أؤلف كتاباً عن العقل والنزعة الإنسانية، متحمسين لاحتمالية أن أضمّن الكتاب ترسانةً محتملة من النقاط التي سأثيرها ضد اليمين، ولكن، حتى وقتٍ ليس بعيدًا، كان اليسار متعاطفًا مع النزعة القومية عندما كانت ملتحمة مع حركات التحرير الماركسية، وشجَّع كثيرٌ من اليساريين سياسيي هويات عرقية و ناشطي عدالة اجتماعية قللوا من أهمية الحقوق الفردية لصالح المساواة بين أوضاع الأعراق والطبقات والأجناس المختلفة، والذين يرون أنها يُزج بها في منافسة صفرية.

للدين أيضًا مدافعون من شتى الأطياف السياسية، وحتى الكتَّاب الذين يرفضون الدفاع عن المحتويات الحرفية للمعتقدات الدينية قد يصبحون مدافعين بشراسة عن الدين، ومعادين بشدة لفكرة أن يكون للعلم والعقل علاقة بالأخلاق (فليس لدى معظمهم علمٌ بوجود النزعة الإنسانية من الأساس). يصر المدافعون عن الإيمان الديني على أنَّ للدين امتيازًا حصريًا لمناقشة الأسئلة حول الأمور المهمّة، ويرون أنه حتى لو لم يكُن الأشخاص رفيعو المستوى مثلنا بحاجةٍ إلى الدين ليكونوا ذوي خُلق، فإنَّ الجموع الغفيرة تحتاج لذلك، أو أنه حتى لو كان حال الجميع سيبدو أفضل دون الإيمان الديني، فلا جدوى من الحديث عن وضع الدين في العالم، لأنَّ الدين جزء من الطبيعة البشرية، ولهذا فهو متماسك أكثر من أي وقتٍ مضى، هازئًا بآمال التنوير. سأنظر في كل هذه الادعاءات في الفصل الثالث والعشرين.

يميل اليسار إلى التعاطف مع حركةٍ أخرى تطوّع المصالح البشرية لكيانٍ أسمى هو النظام البيئي، حيث لا ترى الحركة البيئية الخضراء الرومانسية أنّ التقاطَ البشر للطاقة طريقةٌ لمقاومة الإنتروبيا وتحسين ازدهار البشرية، وإنما جريمةٌ سافرة في حق الطبيعة التي ستقتص منا بقوة في صورة حروب على الموارد، وتلوث في الهواء والمياه، وتغيّر مناخيّ سيفضي إلى القضاء على الحضارة. ويكمن خلاصنا في التوبة والتنصُّل من التكنولوجيا والنمو الاقتصادي، والرجوع إلى طريقة حياة أبسط وأقرب للطبيعة. لا يمكن بالطبع لأي شخصٍ مطلع أن ينكر أنَّ الضرر الواقع على النظم الطبيعية بفعل نشاط الإنسان مؤذٍ وأننا إذا لم نفعل شيئًا حياله سيصبح الضرر كارثيًّا، لكنّ السؤال الحقيقي هو ما إذا كان المجتمع المعقد، والمتقدم تكنولوجيًّا، محكوم عليه بالفعل بألَّا يفعل شيئًا حياله. سنستكشف في الفصل العاشر النزعة البيئية الإنسانية، وهي تنويرية أكثر منها رومانسية، ويُطلق عليها أحياناً الحداثة البيئية أو البرجماتية البيئية.

تحوِّل الأيديولوجيات السياسية اليسارية واليمينية أنفسها إلى أديان علمانية توفّر للأفراد مجتمعًا من الإخوة المتشابهين فكريًّا، كما توفّر لهم معتقدات مقدسة، وإمكانية دراسة شياطين الأيديولوجيات الأخرى، وثقةً مبهجة في صحة قضيتهم. وسنرى في الفصل الحادي والعشرين كيف تقوّض الأيديولوجية السياسية العقل المنطقي والعلم، فهي تشوِّش حكم الناس على الأمور، وتحرِّك العقلية القبَلية البدائية، وتشتِّتهم عن الفهم الأصح لكيفية تحسين العالم. إن ألد أعدائنا ليسوا خصومنا السياسيين، وإنَّما الإنتروبيا والتطور (في صورة الوباء والعيوب في الطبيعة البشرية)، وأهمها الجهل، أي القصور في معرفة كيفية حل مشاكلنا على أفضل نحوٍ.

تقع الحركتان الأخريان المضادتان للتنوير في المنتصف بين اليمين واليسار. أعلنت مجموعة متنوعة من الكتَّاب على مدار قرنين تقريبًا أنَّ الحضارة البشرية لا تتميّز بالتقدُّم، وإنما هي في تدهور مستمر وعلى حافة الانهيار، ويسرد المؤرخ آرثر هيرمان في كتابه The

Idea of Decline in Western Civilization (فكرة التدهور في الحضارة الغربية) تاريخ قرنين من المتشائمين الذين أطلقوا صافرة الإنذار بالاضمحلال العرقي أو الثقافي أو السياسي أو البيئي. يبدو أن العالم يشرف على الانتهاء منذ زمنٍ بعيد.

يتحسّر أحد أشكال النزعة القائلة بأنّ الحضارة تتدهور على لعبنا بالتكنولوجيا –كما لعب بروميثيوس بالنار– فبانتزاع النار من الآلهة، مُنح جنسنا البشري وسيلة القضاء على وجوده بنفسه، إن لم يكُن بتسميم بيئتنا، فبإطلاق الأسلحة النووية، وبالنانو تكنولوجي، والإرهاب الإلكتروني والإرهاب البيولوجي والذكاء الاصطناعي ومخاطر وجودية أخرى على العالم (الفصل التاسع عشر). وحتى إذا استطاعت حضارتنا التكنولوجية الهروب من الفناء الكامل، فهي في طريقها السريع نحو «ديستوبيا» من العنف والظلم: «عالم جديد شجاع» من الإرهاب، والطائرات بدون طيار، والمؤسسات الصناعية المستغلة، والعصابات، والإتجار بالبشر، واللاجئين، وغياب المساواة، والتنمر الإلكتروني، والاعتداء الجنسي، وجرائم الكراهية.

وتتألم مجموعة أخرى من أنصار النزعة القائلة بالتدهور من المشكلة المضادة، ليس أنَّ الحداثة قد جعلت الحياة قاسية وخطيرة، وإنما أنها جعلتها سارة وآمنة، فوفقًا لهؤلاء الناقدين، فإنّ الصحة والسلام والرخاء انحرافات برجوازية عن الأمور المهمة حقًّا في الحياة. وبتقديم هذه المتع غير الفكرية، حكمت الرأسمالية التكنولوجية على الناس بتيهٍ مشتت، منشق، استهلاكي، مادي، رتيب، ذي توجهات خارجية، وبلا جذور، ومنهك للروح. في هذا الوجود العبثي، يعاني الناس من الاغتراب والفزع وغياب المعايير الاجتماعية واللا مبالاة وسوء النية والسأم والتوعك والغثيان، فهُم «رجال مجوفون يتناولون غداءهم المكشوف في الأرض المقفرة في انتظار جودو (المخلص)». (سأنظر في هذه الادعاءات في الفص السابع عشر والثامن عشر). عند غروب حضارة مضمحلة متدهورة، لن تجد التحرر الحقيقي في العقلانية العقيمة ولا النزعة الإنسانية الضعيفة، وإنما في الوجود الحقيقي البطولي الكلي العضوي المقدس الحيوي في ذاته، وإرادة القوة. وفي حال كنت تتساءل عن ماهية هذه البطولة المقدسة، فإنّ فريدريك نيتشه –الذي صاغ مصطلح «إرادة القوة»– يوصي بالعنف الأرستقراطي الذي يشبه عنف «الوحوش التيوتونيين الشُقر»* والساموراي والفايكينج وأبطال هوميروس: عنف «قاسٍ بارد فظيع دون مشاعر ودون ضمير، يحطم كل شيء، ويلوث كل شيء بالدماء». (سنلقي نظرة عن كثب على هذه الأخلاق في الفصل الأخير).

يشير هيرمان إلى أنَّ المثقفين والفنانين الذين يتنبؤون بانهيار الحضارة يستجيبون إلى هذه النبوءة بطريقةٍ من اثنتين، فالمتشائمون التاريخيون يرعبهم الانهيار، ولكنهم ينوحون بأننا عاجزون عن منعه، والمتشائمون الثقافيون يرحِّبون به «بشماتةٍ وحشية»، يقولون إنَّ الحداثة مفلسة للدرجة التي تجعل تحسينها، فضلًا عن تجاوزها، مستحيلًا، ومن أنقاضها سيظهر نظامٌ جديد سيكون بكل تأكيد متفوقًا عليها.

أما آخر بدائل النزعة الإنسانية التنويرية فإنّه يدين تبنِّيها العلم، ويمكننا أن نطلق عليه الثقافة الثانية كما أسماه تشارلز بيرسي سنو، ويمثّل وجهة نظر كثيرين من المثقفين الأدباء والنقاد الثقافيين، في مقابل الثقافة الأولى أي ثقافة العلم. انتقد سنو الستار الحديدي الفاصل بين الثقافتين، ودعا إلى اندماج العلم أكثر في الحياة الفكرية. لم يكُن الأمر فقط أن العلم «بعمقه الفكري وتعقيده وألفاظه كان

---

*التيوتونيون قبائل جرمانية سكنت يوتلاند قديمًا- المترجمة.

أجمل وأروع عمل جمعي من إنتاج أذهان البشر»، وإنما كانت المعرفة بالعلم،كما قال، حتمية أخلاقية لأنها يمكن أن تقلل المعاناة على نطاق عالمي عبر علاج الأمراض وإطعام الجوعى وإنقاذ حياة الأطفال والأمهات والسماح للنساء بالتحكم في خصوبتهن.

رغم أنَّ حجة سنو تبدو اليوم متنبئة بالمستقبل، إلَّا أنَّها واجهت في عام 1962 تفنيدًا شهيرًا من الناقد الأدبي فرانك ريموند ليفيس، وكان انتقاد ليفيس مسيئًا للدرجة التي جعلت مجلة The Spectator تطلب من سنو أن يقطع وعدًا بعدم رفع دعوى قضائية بتهمة القذف قبل أن ينشروه. بعد أن أشار ليفيس إلى «عدم تحلي سنو بأي تمييز فكري.. وإلى أسلوبه المبتذل الذي يندى له الجبين»، استهزأ بنظام القيم الذي يكون المعيار الأهم فيه هو «المستوى المعيشي»، ويكون رفع هذا المستوى هو «الغاية النهائية». واقترح بديلًا هو أن «فهم الأدب العظيم والالتزام به هو ما يجعلنا نكتشف ما نؤمن به حقًّا من أعماقنا، ما الغرض؟ ما الغرض النهائي؟ ما الذي يتبعه الإنسان؟ تشير الأسئلة إلى ما يمكنني أن أطلق عليه عمق ديني في الفكر والإحساس». (ربما يتساءل أي شخص يمتد «عمق فكره وإحساسه» ليصل إلى امرأة في بلدٍ فقير عاشت لترى مولودها بسبب رفع مستواها المعيشي، ثم يضاعَف هذا التعاطف بمئات الملايين، لماذا يمكن أن يكون معيار «فهم الأدب العظيم والالتزام به» أسمى أخلاقيًّا من معيار «رفع المستوى المعيشي» لـ «ما نؤمن به حقًّا من أعماقنا»، أو لماذا ينبغي اعتبار أحدهما بديلًا عن الآخر من الأساس).

ربما نجد منظور ليفيس في مساحة كبيرة من «الثقافة الثانية» اليوم —كما سنرى في الفصل الثاني والعشرين– فكثيرٌ من المثقفين والناقدين يعبرون عن ازدراء العلم كأنه لا يمثِّل حلًّا للمشكلات العادية، ويكتبون وكأنَّ استهلاك فن النخبة هو الخير الأخلاقي الأسمى. لا تقوم منهجيتهم في البحث عن الحقيقة على إعداد الفرضيات وذكر الأدلة، وإنما على تعبيرات مستوحاة من سعة اطلاعهم وعاداتهم الحياتية المتمثلة في القراءة. وفي السياق نفسه تستنكر المجلات الثقافية عادةً «العلموية»، وهي إقحام العلم في مجال الإنسانيات مثل السياسة والفنون، ولا يُقدَّم العلم في كليات وجامعات كثيرة على أنه البحث عن تفسيراتٍ حقيقية، وإنما مجرد أسطورة أو رواية أخرى، كما يُلقى باللوم كثيرًا على العلم في العنصرية والإمبريالية والحروب العالمية والهولوكوست، ويُتهم بانتزاع السحر والجاذبية من الحياة وتجريد البشر من حريتهم وكرامتهم.

فالنزعة الإنسانية التنويرية إذًا هي أبعد ما تكون عن محاولة إرضاء الجماهير، ففكرة أنَّ الخير الأسمى هو استخدام المعرفة في تعزيز رفاهة البشر تُشعِر الناس بالفتور. لديك تفسيرات عميقة للكون وللكوكب وللحياة وللدماغ؟ إذا لم تكُن تتضمن السحر فلا نريد أن نسمعها! إنقاذ حياة مليارات البشر والقضاء على الأمراض وإطعام الجوعى؟ ياللملل! أشخاص يزيدون تعاطفهم ليشمل كل البشرية؟ ليس جيدًا بما يكفي، نريد أن تهتم بنا **قوانين الكون** نفسه! طول العمر والصحة والفهم والجمال والحرية والحب؟ لا بد وأن يكون في الحياة ما هو أكثر وأهم من ذلك!

ولكن فكرة التقدم هي التي تجعلهم يستشيطون غضبًا، وحتى أولئك الذين يظنون أن استخدام المعرفة في تعزيز رفاهة البشر فكرة جيدة من الناحية النظرية، ولكنهم يصرون أنها لن تنجح عمليًّا مطلقًا، فإنّ الأخبار اليومية تقدّم دعمًا هائلًا لتشاؤمهم: فهي تصور العالم كأنه وادٍ مليء بالدموع، وحكاية مليئة بالويلات، ووحل من اليأس. بما أنَّ الدفاع عن العقل المنطقي والعلم والنزعة الإنسانية لن

يكون مجديًا لو أنَّ حالنا الآن بعد مئتين وخمسين عامًا من عصر التنوير ليس أفضل من حال أسلافنا في العصور المظلمة، فلا بد إذًا أن تبدأ حجة دفاعنا من تقييم تقدُّم البشر.

الجزء الثاني:

التقدم

إذا كان عليك أن تختار أن تولد في لحظة تاريخية معينة، ولم تعرف مسبقًا من ستكون، لم تعرف ما إذا كنت ستولد لأسرةٍ ثرية أو لأسرةٍ فقيرة، في أي دولةٍ ستولد، ستكون رجلًا أم امرأة. إذا كان عليك أن تختار اختيارًا أعمى في أي لحظة تريد أن تولد، ستختار هذه اللحظة .الآن.

– باراك أوباما، 2016.

الفصل الرابع:

رهاب التقدُّم

يكره المثقفون التقدم، المثقفون الذين يطلقون على أنفسهم «تقدميين» يكرهون التقدم **حقًّا**، إنهم لا يكرهون **ثمار** التقدم، بل على العكس، يستخدم معظم المثقفين والناقدين وقراؤهم المحافظون الكمبيوتر بدلًا من الريشة والمحبرة في الكتابة، ويفضِّلون الخضوع للعمليات الجراحية تحت تأثير المخدر، ولكنّ ما يزعج الفئة الثرثارة هو فكرة التقدم نفسها، أي الاعتقاد التنويري بأن بإمكاننا تحسين الحالة البشرية عبر فهم العالم.

لقد ألفوا معجمًا كاملًا من الكلمات التي يسيئون استخدامها للتعبير عن استهزائهم، فإذا كنت تعتقد أنَّ المعرفة يمكن أن تساعد في حل المشاكل، فلديك «إيمان أعمى»، و«اعتقاد أشبه بالدين» بـ«الخرافة البالية» و«الوعد الزائف» بـ«أسطورة مسيرة التقدم الحتمي». أنت «مشجِّع» لـ«القدرة الأمريكية المبتذلة على تحقيق أي شيء» بروح «حماسية مغفَلة» لـ«أيديولوجية مجالس الإدارة»، و«وادي السيليكون» و«غرفة التجارة». وأنت ممارس لـ«منهج الأحرار* في تفسير التاريخ»، و«متفائل ساذج» و«بوليانا*». وبالطبع «بانجلوس»، وهو يشير إلى نسخةٍ عصرية من الفيلسوف الذي يحمل نفس الاسم في رواية Candide لفولتير، ويؤكد أنَّ «كل شيء يسير نحو الأفضل في أفضل العوالم الممكنة».

وللمصادفة، فإنَّ الأستاذ بانجلوس يمثل ما قد نطلق عليه اليوم متشائمًا، فالمتشائم العصري يؤمن بأنَّ العالم يمكنه أن يكون أفضل كثيرًا كثيرًا مما هو الآن. لم يكُن فولتير يهجو أمل الفكر التنويري في التقدم وإنما نقيضه، التبرير الديني للمعاناة الذي يُطلق عليه «العدالة الإلهية»، التي وفقًا لها ليس أمام الله خيارٌ سوى السماح بالأوبئة والمجازر لأن العالم دونهما مستحيل من الناحية الميتافيزيقية.

بغض النظر عن المسميات، فإن الفكرة القائلة بأن العالم أفضل مما كان وسيكون أفضل بعد ذلك أصبحت فكرة قديمة الطراز في أوساط أهل الفكر منذ فترة طويلة. يوضِّح آرثر هيرمان في كتاب The Idea of Decline in Western History أنَّ المتنبئين بالهلاك هُم نجوم تحفل بهم المقررات الفنية الليبرالية، ومنهم نيتشه وآرثر شوبنهاور ومارتن هيدجر وثيودور أدورنو ووالتر بنجامين وهربرت ماركوز وجان بول سارتر وفرانتز فانون وميشيل فوكو وإدوارد سعيد وكورنل وست وجوقة من المتشائمين بشأن البيئة. حصر هيرمان المشهد الثقافي في نهاية القرن العشرين، وتحسر على «التراجع الضخم» في عدد «الدعاة اللامعين» للنزعة الإنسانية التنويرية الذين كانوا مقتنعين بأنه «بما أن الناس يخلقون صراعات ومشكلات في المجتمع، فيمكنهم أيضًا حلها». واتفق مع هذا عالم الاجتماع روبرت نيسبت في كتاب History of the Idea of Progress (تاريخ فكرة التقدم): «نمت نزعة التشكُّك في التقدم الغربي التي كانت يومًا ما قاصرة على مجموعةٍ معدودة من المثقفين في القرن التاسع عشر وانتشرت، ليس قط بين أغلبية المثقفين في الربع الأخير من هذا القرن، وإنما بين ملايين الناس في الغرب».

---

*نسبةً إلى حزب الأحرار البريطاني The Whigs –المترجمة.

*نسبةً إلى بطلة الرواية التي تحمل نفس الاسم للروائية الأمريكية إليانور بورتر التي صدرت عام 1913 وأصبح هذا الاسم مرادفًا للشخص شديد التفاؤل -المترجمة.

أجل، ليس الذين يتمحور عملهم حول الثقافة والفكر هُم فقط من يظنون أن العالم سيحل به الخراب، بل يظن ذلك أيضًا الأشخاص العاديون الذين تتلبَّسهم حالة «المثقف». يعرف علماء النفس منذ وقتٍ طويل أن الناس يميلون إلى النظر إلى حياتهم بعدسة وردية، فهُم يظنون أن احتمالية أن يصبحوا ضحيةً للطلاق أو الفصل من العمل أو التعرُّض لحادثٍ أو مرض أو جريمة أقل من أي شخصٍ آخر، ولكن عندما تغير محور السؤال من **حياتهم** إلى **مجتمعهم**، يتحولون من بوليانا إلى حوّار*.

يطلق الباحثون المختصون بالرأي العام على هذا مسمّى فجوة التفاؤل، فلأكثر من عقدين مرورًا بالأوقات الجيدة والسيئة، عندما تم استطلاع آراء الأوروبيين حول ما إذا كان وضعهم الاقتصادي **الخاص** سيتحسن أم سيسوء خلال السنة التالية، أجاب أكثرهم بأنه سيتحسن، في حين عندما سُئلوا عن وضع **بلدهم** الاقتصادي، أجاب أكثرهم بأنه سيسوء. تظن أغلبية البريطانيين أنَّ الهجرة وحمل المراهقات والقمامة والبطالة والجريمة والتخريب والمخدرات مشاكل موجودة في المملكة المتحدة كلها، ولكنّ قليلين منهم يظنون أنها مشاكل موجودة في منطقتهم فقط. وكذلك يحكم الناس على جودة البيئة في معظم الدول بأنها أسوأ في بلدهم وليس في مجتمعهم المحيط فقط، وأسوأ في العالم كله وليس في بلدهم فقط. وقد قال أغلب الأمريكيين في استطلاعات الرأي في كل عامٍ تقريبًا منذ 1992 حتى 2015 إنَّ الجريمة في زيادة، في حين أنَّ معدل جرائم العنف قد انخفض في هذه الفترة، وفي أواخر عام 2015، قالت الأغلبية في إحدى عشرة دولة متقدمة إنَّ «العالم يتجه نحو أوضاعٍ أسوأ»، وفي أغلب السنوات الأربعين الماضية، قالت أغلبية الأمريكيين إنَّ أمريكا «تسير في الاتجاه الخاطئ».

هل هم محقون؟ هل التشاؤم صحيح؟ هل يمكن أن يغرق العالم أكثر وأكثر كالدوامة؟ تسهل معرفة سبب شعور الناس بهذا الأمر، فالوسائل الإخبارية تمتلئ كل يوم بأخبارٍ عن الحرب والإرهاب والجريمة والتلوث وغياب المساواة وتعاطي المخدرات والقمع، ولا أقصد عناوين الأخبار فقط، وإنما مقالات الرأي والمقالات الإخبارية الطويلة أيضًا. تنذرنا أغلفة المجلات بالثورات الفوضوية والطواعين والأوبئة والانهيارات وكثيرٍ من «الأزمات» (في الزراعة والصحة والتقاعد والرفاهة والطاقة والعَجْز) التي كان على المحرِّرين تصعيدها لمكانة «الأزمة الخطيرة».

وسواء كان وضع العالم يسوء فعلًا أم لا، فستتفاعل طبيعة الأخبار مع طبيعة الإدراك لتجعلنا نظن أنه يسوء حقًّا. تتحدث الأخبار عن الأمور التي تحدث، لا عن تلك التي لم تحدث، فلم نرَ قط صحافيًّا يقول أمام الكاميرا: «أحدثكم مباشرةً من بلدٍ لم تندلع فيه حربٌ»، أو من مدينة لم تتعرَّض لتفجيرٍ، أو مدرسة لم تتعرَّض لحادث إطلاق نيران. طالما لم تختفِ الأمور السيئة من على وجه الأرض، ستكون هناك دائمًا حوادث كافية لملء كل الوسائل الإخبارية، وخاصةً عندما حوَّلت مليارات الهواتف الذكية أصحابها إلى مراسلي جرائم وحروب.

ومن بين الأمور التي تحدث بالفعل، تتضح الأمور السلبية والإيجابية على فترات زمنية مختلفة، فالأخبار أبعد ما تكون عن «مسودة أولى للتاريخ»، وإنما هي أقرب إلى التعليق الرياضي لحظة بلحظة، فهي تركِّز على أحداث منفصلة، وتكون بشكل عام هي

*حوَّار أو إيور هو حمار كئيب وأزرق اللون وهو أحد شخصيات كارتون ويني الدبدوب ويعني هنا أنهم يتحوّلون من متفائلين إلى متشائمين – المترجمة.

الاحداث التي وقعت منذ آخر إصدار (في أوقات سابقة، أو في اليوم السابق، أو الآن منذ بضع ثوانٍ مثلًا). قد تحدث الأمور السيئة سريعًا، في حين لا تُبنى الأمور الجيدة في ليلةٍ وضحاها، وعندما تتضح وتتكشف لن تكون متوافقة مع دورة الأخبار. أشار الباحث في مجال السلام جون جالتونج إلى أنَّه إذا كانت إحدى الصحف تصدر كل خمسين سنة، فلن تكتب عن نصف قرنٍ من النميمة عن المشاهير أو الفضائح السياسية، وإنما ستكتب عن التغيرات العالمية بالغة الأهمية مثل زيادة متوسط العمر المتوقع.

تشوّه طبيعة الأخبار نظرة الناس للعالم بسبب عيب ذهني يطلق عليه عالما النفس عاموس تفيرسكي ودانييل كانمان «الحدس المبني على الإتاحة» (Availability heuristic) والذي يعني أن الناس يقدِّرون احتمالية وقوع حدثٍ ما أو معدل تكرار حدوث شيءٍ ما حسب مدى سهولة تفكيرهم في أحداث شبيهة، وهذه قاعدة عامة صالحة في مختلف مناحي الحياة. تترك الأحداث المتكررة آثارًا أقوى في الذاكرة، وهكذا فإنَّ الذكريات القوية تشير عمومًا إلى أحداث أكثر تكرارًا: فأنت تستند إلى أساسٍ متين عندما تخمّن أنَّ الحمام يتواجد في المدن أكثر من طيور الصفاري، رغم أنك تستند إلى ذكرياتك عن مقابلتهم وليس على إحصاء للطيور. ولكن عندما تظهر ذكرى ما في أعلى قائمة نتائج بحث عقلك لأسباب أخرى غير التكرار –إما لأنها حديثة أو واضحة أو دموية أو مميزة أو مزعجة– ، فإنّ الناس يبالغون في تقدير مدى احتمالية حدوثها في العالم. أي من الكلمات أكثر عددًا، تلك التي تبدأ بحرف k أم التي يكون ترتيب حرف k فيها الثالث؟ يجيب أكثر الناس بالاختيار الأول. إنَّ عدد الكلمات التي يكون حرف k فيها هو الثالث (مثل ankle، وask، وawkward، وbake، وcake، وmake، وtake...إلخ.) يبلغ ثلاثة أضعاف الكلمات التي تبدأ بحرف k، ولكننا نسترجع الكلمات بمطلعها، فتأتي كلمات مثل: keep، وkind، وkill، وkid، وking في بالنا أولًا عند الحاجة.

تمثِّل الأخطاء الناتجة عن الإتاحة مصدرًا شائعًا للحماقات في الاستدلال، فعلى سبيل المثال يفسّر طلاب السنة الأولى في كلية الطب كل طفحٍ جلدي بأنه أحد أعراض مرضٍ غريب، ويبتعد المصطافون عن البحر بعد أن يقرؤوا عن إحدى هجمات القرش أو يشاهدوا فيلم الفك المفترس، وتتصدر حوادث تحطم الطائرات الأخبار دائمًا، في حين لا تفعل حوادث السيارات تقريبًا، على الرغم من أنها تتسبب في قتل عددٍ أكبر كثيرًا من الناس، ومن غير المفاجئ إذًا أن كثيرًا من الناس يخشون الطيران في حين لا يخشى أحدٌ تقريبًا قيادة السيارات. يصنِّف الناس الأعاصير (التي تتسبب في قتل حوالي خمسين أمريكيًّا سنويًّا) بأنها سبب وفاة أكثر شيوعًا من الربو (الذي يتسبب في قتل أكثر من أربعة آلاف أمريكي سنويًّا)، وذلك على ما يبدو لأن الأعاصير تمثِّل أخبارًا شيقة للتليفزيون.

تسهل رؤية كيف قد يستحث «الحدس المبني على الإتاحة»، الذي تذكيه السياسة الإخبارية "If it bleeds, it leads" التي تشير إلى حصول الأخبار الدموية على الصدارة دائمًا، إحساسًا بالكآبة بشأن أوضاع العالم. يحصي بعض الباحثين في مجال الإعلام الأخبار بمختلف أنواعها، أو يعرضون على المحررين قائمة من الأخبار التي يمكن نشرها، ويرون أيها سيختارون وكيف سيعرضونها، وأكّدوا أن حراس البوابات الإعلامية يفضّلون تغطية الأخبار السلبية عن الإيجابية والإبقاء على تدفق الأحداث كعاملٍ ثابت. يوفِّر هذا بدوره معادلة سهلة للمتشائمين في الصفحة التحريرية: ضع قائمة بأسوأ الأمور التي تحدث في أي مكان في الكوكب ذلك الأسبوع، وستكون قضيتك بأنَّ الحضارة لم تواجه في تاريخها خطرًا أعظم ذات وقعٍ مذهل.

تكون تبعات الأخبار السلبية نفسها سلبية أيضًا، فبدلًا من أن يكون المتابعون الدائمون للأخبار على اطلاع أكبر، قد تصبح معاييرهم خاطئة. فهُم يقلقون أكثر بشأن الجريمة، حتى عندما تتراجع معدلاتها، وأحياناً ينفصلون عن الواقع تمامًا، إذ وجد استطلاع رأي أجري في عام 2016 على سبيل المثال أنَّ أغلب الأمريكيين يتابعون أخبار داعش عن كثب، ووافق 77 بالمئة منهم على أنَّ «الميليشيات الإسلامية في سوريا والعراق تمثِّل خطرًا حقيقيًّا على وجود الولايات المتحدة وبقائها»، وهو اعتقاد لا يمكن وصفه سوى بالوهمي. ومن غير المفاجئ أن يصبح متلقو الأخبار السلبية كئيبين، فذكرت مراجعة حديثة للدراسات السابقة أن نتائجها تكون:«سوء إدراك المخاطر، والقلق، والحالات المزاجية السيئة، والعجز المكتسب، والازدراء والعدائية تجاه الآخرين، وضعف الحساسية، وفي بعض الحالات.. التجنب التام للأخبار»، كما يصبح متلقوها مؤمنين بالجبرية فيقولون مثلًا: «لماذا عليَّ أن أدلي بصوتي؟ لن يفيد هذا بشيءٍ»، أو «قد أتبرع بالمال، لكن سيتضور طفلٌ آخر من الجوع الأسبوع التالي على أي حال».

بعدما رأينا كيف تُخرج العادات الصحافية والانحيازات المعرفية أسوأ ما فينا، كيف يمكننا تقييم وضع العالم على نحوٍ سليم؟ الإجابة هي **العدُّ**. كم عدد ضحايا العنف بالنسبة إلى عدد الأحياء؟ كم عدد المرضى؟ كم عدد الجوعى؟ كم عدد الفقراء؟ كم عدد المظلومين؟ كم عدد الأميين؟ وهل تزيد هذه الأعداد أم تنخفض؟ إنَّ العقلية الكمية، رغم هالة الهوس التي تحيط بها، هي في الحقيقة العقلية المستنيرة أخلاقيًّا، لأنها تتعامل مع حياة كل إنسان على أساس أنَّ لها قيمة مساوية لحياة الآخرين، ولا تميِّز الأشخاص الأقرب إليها أو الأجمل في الصور، وتحمل أملًا في قدرتنا على التعرُّف على أسباب المعاناة ومن ثم على معرفة أي إجراءات ستخففها على الأرجح.

كان هذا هو الهدف من كتابي «The Better Angels of Our Nature»، الذي عرض مئة رسم بياني وخريطة توضِّح مدى تراجع العنف والظروف التي تعززه على مدار التاريخ، وللتأكيد على حدوث هذا التراجع في أزمنة مختلفة لأسبابٍ مختلفة، عرضت أيضًا الأسماء. أنتجت عملية التهدئة وإرساء السلام انخفاضًا بخمسة أضعاف في معدل الوفيات الناتجة عن التناحر والغزو القبَلي، وهذه إحدى تبعات سيطرة الدول الفعالة على أقاليمٍ ما. وأنتجت عملية التمدين انخفاضًا بأربعين ضعفًا في معدل جرائم القتل وجرائم العنف الأخرى تلا إرساء حكم القانون وأعراف ضبط النفس في بداية الحداثة في أوروبا. ويُطلق اسم الثورة الإنسانية على ما حدث في عصر التنوير من إلغاء العبودية والاضطهاد الديني والعقوبات القاسية. ويستخدم المؤرخون مصطلح فترة السلام الطويلة للتعبير عن تراجع الحروب بين القوى العظمى وبين الدول بعد الحرب العالمية الثانية. وبعد نهاية الحرب الباردة، نَعِمَ العالمُ بسلام جديد إذ كانت الحروب الأهلية والإبادة العرقية والحكم الاستبدادي أقل، ومنذ خمسينيات القرن الماضي، اكتسح العالم فيضان من الثورات الحقوقية، مثل: حركات الحقوق المدنية، وحقوق المرأة، وحقوق المثليين، وحقوق الطفل، وحقوق الحيوان.

لا خلاف بين الخبراء الذين يألفون هذه الأرقام سوى على قلة قليلة من أمثلة هذا التراجع. فعلماء الجريمة التاريخية على سبيل المثال يتفقون على أنَّ معدل جرائم القتل انخفض بعد العصور الوسطى، ومن المألوف للباحثين في العلاقات الدولية أنَّ الحروب الكبرى قلَّت تدريجيًّا بعد عام 1945، ولكنَّ هذه الأمور تُعد مفاجأة لأغلب الناس على نطاق العالم.

ظننتُ أنَّ استعراض رسوم بيانية يمثِّل محورها الأفقي الزمن ويمثِّل محورها الرأسي عدد ضحايا العنف أو أي مقاييس أخرى للعنف، وأنَّ الخط المنحني من أعلى اليسار إلى أسفل اليمين قد يعالج الجمهور من الانحياز المبني على الإتاحة ويقنعهم بأنَّ العالم قد أحدث تقدُّمًا في هذا المجال على الأقل. ولكني عرفت من أسئلتهم واعتراضاتهم أنَّ مقاومة فكرة التقدم راسخة بعمقٍ يتجاوز المغالطات الإحصائية. تمثِّل أي مجموعة بيانات بالطبع انعكاسًا ناقصًا للواقع، لذا فالسؤال عن مدى دقة الأرقام وتعبيرها عن الواقع فعلًا هو سؤال مشروع، ولكن الاعتراضات لم تكشف عن تشكُّك في البيانات فحسب، بل عن عدم الاستعداد حتى لاحتمالية أن تكون الحالة البشرية قد تحسَّنت. يفتقر كثيرٌ من الناس إلى الأدوات المفاهيمية للتحقق مما إذا كان التقدم قد حدث فعلًا أم لم يحدث، فلا يمكنهم إجراء معالجة ذهنية لفكرة إمكانية تحسُّن الأوضاع. فيما يلي نُسَخٌ معدَّلة للحوارات التي أجريتها مع السائلين.

إذًا فالعنف قد تراجع خطيًّا منذ بداية التاريخ! يا للروعة!

كلا، لم يتراجع «خطيًّا»، فسيكون من المذهل أن ينخفض أي مقياس للسلوك البشري بكل تقلباته بمقدارٍ ثابتٍ لكل وحدة زمنية، عقدًا تلو الآخر وقرنًا تلو الآخر، وليس على وتيرةٍ واحدة أيضًا (وهو على الأرجح ما يدور في عقل السائل)، إذ سيعني هذا أنه في انخفاضٍ أو ثباتٍ دائم ولا يزداد مطلقًا. تتسم المنحنيات التاريخية الفعلية بتذبذباتٍ وزيادات وارتفاعات مفاجئة وأحيانًا تأرجح مقلق، ومن الأمثلة على ذلك الحربان العالميتان، وانتشار الجريمة في الدول الغربية منذ منتصف الستينيات حتى بداية التسعينيات في القرن الماضي، والزيادة المفاجئة في الحروب الأهلية في العالم النامي بعد إنهاء الاستعمار في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي. يتكون التقدم من اتجاهات في العنف تطرأ عليها هذه التقلبات، مثل انجرافٍ أو اندفاعٍ هابط، أو عودة من تضخُّمٍ مؤقت إلى خط أساس منخفض، فلا يمكن أن يسير التقدُّم على وتيرةٍ واحدة لأنَّ الحلول لبعض المشاكل تخلق مشاكل أخرى، ولكن يمكن استئناف التقدم عند حل المشاكل الجديدة بدورها.

وبالمناسبة، يقدم اختلاف وتيرة البيانات الاجتماعية معادلة سهلة للمنافذ الإخبارية لإبراز السلبيات، فإذا تجاهلت كل السنوات التي انخفض فيها مؤشر إحدى المشاكل، وأعلنت عن كل زيادة فيه (بما أنَّها تمثِّل خبرًا)، فسيتكون لدى القراء انطباع بأنَّ الحياة تزداد سوءًا حتى عندما تتحسَّن. في الستة أشهر الأولى من عام 2016، نفذت صحيفة نيويورك تايمز هذه الخدعة ثلاث مرات مع أرقام كلٍّ من الانتحار وطول العمر والوفيات الناتجة عن حوادث السيارات.

حسنًا، إذا كانت معدلات العنف ليست في انخفاضٍ دائم،فهذا يعني أنها دورية، أي أنها حتى لو كانت منخفضة الآن، فارتفاعها ثانيةً مجرد مسألة وقت.

كلا، ربما تكون التغييرات على مدارٍ زمني **إحصائية**، ذات تقلبات يمكن التنبؤ بها، دون أن تكون **دورية**، أي تتأرجح كبندول الساعة بين طرفي نقيض. يعني ذلك أنه حتى لو كان الانعكاس ممكنًا في أي وقت، فلا يعني هذا أن احتماليته تزداد بمرور الوقت. (خسر كثيرٌ من المستثمرين الكثير من المال برهانهم على «الدورة الاقتصادية» ذات التسمية الخاطئة التي تتكون في الواقع من تقلبات مفاجئة لا يمكن التنبؤ بها). يمكن أن يحدث التقدم عندما يقل معدل الانعكاسات المتجهة في اتجاهٍ إيجابي، أو تقل حدتها، أو تتوقف تمامًا في بعض الحالات.

كيف يمكنك أن تقول إن معدلات العنف انخفضت؟ ألم تقرأ عن حادث إطلاق النيران على المدرسة (أو عن التفجير الإرهابي أو القصف المدفعي أو حالات الشغب في مباريات كرة القدم أو حادث الطعن في الحانة) في الأخبار هذا الصباح؟

التراجع لا يعني الاختفاء (كما أنَّ عبارة س > ص مختلفة عن عبارة ص = 0). يمكن أن يقل شيءٌ ما كثيرًا دون أن يتلاشى تمامًا، مما يعني أنَّ مستوى العنف اليوم **لا صلة له مطلقًا** بالسؤال عما إذا كانت مستويات العنف قد تراجعت على مدار التاريخ. الطريقة الوحيدة للإجابة عن ذلك السؤال هو المقارنة بين مستوى العنف الآن ومستوى العنف في الماضي، وعندما تنظر إلى مستوى العنف في الماضي ستجد كثيرًا من العنف، حتى لو لم يكُن حيًّا في ذاكرتك بنفس قدر عناوين الأخبار التي قرأتها هذا الصباح.

لن تعني لك كل الإحصاءات المزخرفة عن قلة العنف شيئًا إذا كنت أحد الضحايا.

صحيح، ولكنها تعني أن احتمالية أن **تكون** ضحية أقل، ولذلك السبب، فهي تعني أن هنالك ملايين الأشخاص الذين ليسوا ضحايا، ولكن كان يمكن أن يكونوا من بين الضحايا لو أنّ معدلات العنف قد بقيت كما هي دون تغيير.

إذًا ما تقوله هو أن بإمكاننا جميعًا الاسترخاء وأنَّ العنف سينخفض بنفسه.

هذا غير منطقي يا أستاذ! إذا رأيتَ كومة الملابس المتسخة قد تناقصت، فلا يعني هذا أنَّ الملابس قد غسلت نفسها بنفسها، بل يعني أن شخصًا ما غسلها. إذا انخفض معدل أحد أنواع العنف، يعني هذا أنَّ تغييرًا ما في الوسط الاجتماعي أو الثقافي أو المادي كان سبب هذا الانخفاض. إذا استمرت الظروف كما هي، قد يظل مستوى العنف منخفضًا أو حتى يتراجع أكثر، ولكن إذا لم تستمر الظروف كما هي، فلن يظل العنف كما هو. يؤكد هذا على أهمية معرفة أسباب التراجع، كي نحاول تقويتها وتطبيقها على نطاقٍ أوسع لضمان استمرار تراجع العنف.

من السذاجة والعاطفية والمثالية والرومانسية الحالمة والتفاؤل على منهج حزب الأحرار والحلم باليوتوبيا والتشبه ببوليانا وبانجلوس أن تقول إن العنف قلَّ.

كلا، أن تنظر إلى البيانات التي توضِّح انخفاض مستوى العنف وتقول «مستوى العنف انخفض» فأنت بذلك تصف حقيقةً، أما أن تنظر إلى بيانات توضِّح انخفاض مستوى العنف وتقول «مستوى العنف ارتفع» فأنت بذلك تكون واهمًا، أما أن تتجاهل البيانات الخاصة بالعنف وتقول «مستوى العنف ارتفع» فأنت بذلك تكون من أنصار «لا أعرف شيئًا».

أما عن الاتهامات بالرومانسية الحالمة، فسأرد ببعض الثقة، فأنا مؤلف كتاب The Blank Slate: The Modern Denial of Human Nature، وهو كتاب غير رومانسي ومضاد لليوتوبيا بصورةٍ واضحة، وأوضحت فيه أن التطور أعد البشر بمجموعةٍ من الدوافع المدمرة مثل الجشع والشهوة والهيمنة والانتقام وخداع النفس، ولكنني أؤمن أيضًا أن لدى الناس حس التعاطف والقدرة على التأمل في مآزقهم وملكات للتفكير ومشاركة الأفكار الجديدة، وهذه هي الجوانب الملائكية من طبيعتنا البشرية كما قال أبراهام لينكولن. بمجرد النظر إلى الحقائق، يمكننا أن نعرف إلى أي مدى انتصرت جوانبنا الملائكية على شياطيننا الداخلية في أي زمانٍ ومكانٍ.

كيف يمكنك التنبؤ بانخفاض مستوى العنف؟ يمكن أن تندلع غدًا حربٌ وتدحض نظريتك.

التصريح بأنَّ أحد مقاييس العنف قد انخفض لا يُعد «نظرية» وإنما هو ملاحظة لحقيقة. أجل، هناك فرق بين الحقيقة التي تقول إن أحد المقاييس تغير مع الوقت، والتنبؤ بأنه سيواصل التغير بنفس الطريقة طوال الوقت للأبد. كما تقول إعلانات الشركات الاستثمارية، فالأداء السابق لا يضمن نتائج مستقبلية.

في تلك الحالة، فيمَ تفيد كل تلك الرسوم البيانية والتحليلات؟ ألا يفترض بالنظرية العلمية أن تقدم توقعات قابلة للاختبار؟

تقدم النظرية العلمية توقعاتها في **التجارب العملية** التي تُضبط فيها المؤثرات السببية، لا يمكن لأي نظرية أن تقدم توقعًا خاصًا بالعالم بأكمله، حيث ينشر سكانه الذين يبلغ عددهم سبعة مليارات شخص أفكارًا سريعة الانتشار في شبكات عالمية ويتفاعلون مع دورات الطقس والموارد الفوضوية. أن تُصرّح بما يحمله المستقبل في عالمٍ غير خاضع للضبط والتحكم، ودون تفسير لسبب وقوع الأحداث بهذه الطريقة أو تلك، لا يُعد توقعًا وإنما **نبوءة**، وكما قال ديفيد دويتش: «أهم القيود على صنع المعرفة هو أننا لا نستطيع التنبؤ، لا نستطيع توقع محتوى الأفكار التي لم تنشأ بعد، أو آثارها. وليست هذه القيود متماشية مع نمو المعرفة بقدرٍ غير محدود فحسب، إنما يستلزم هذا النمو تلك القيود».

إنّ عجزنا عن التنبؤ ليس رخصةً لتجاهل الحقائق بالطبع، فالتحسُّن في أحد مقاييس رفاهة الإنسان يشيرُ إلى أنَّ أمورًا كثيرة قد دفعته في الطريق الصحيح بدلًا من الطريق الخاطئ، ويعتمد توقّعنا عمّا إذا كان التقدّم سيستمر أم لا، على مدى معرفتنا بماهيّة القوى الدافعة له، وإلى أي وقت ستظل كما هي. سيختلف هذا من اتجاهٍ إلى آخر، قد يصبح بعضها مثل قانون مور (عدد الترانزستورات يتضاعف كل عامين) ويضع أساسًا للثقة (ولكن ليس لليقين) في أنَّ ثمار براعة البشر ستتراكم والتقدم سيستمر. في حين قد يشبه بعضها سوق الأسهم ويتكهن بتقلبات قصيرة المدى ولكنها ستحقق مكاسب على المدى البعيد. ربما يتحرك بعضها في توزيعٍ إحصائي «سميك الذيل»، لا يمكن فيه استبعاد الأحداث الحدية وإن كان احتمال حدوثها أقل. وربما يكون بعضها أيضًا دوريًّا أو فوضويًّا. في الفصلين التاسع عشر والحادي والعشرين سنلقي نظرةً على التوقع العقلاني في عالمٍ متقلب، أما الآن فعلينا أن نتذكر أنَّ الاتجاه الإيجابي يشير إلى (ولكنه لا يثبت) أننا فعلنا أمرًا صحيحًا، وأن علينا محاولة تحديد هذا الشيء ونكرره أكثر.

عندما تنفد كل هذه الاعتراضات، أرى أشخاصًا يعتصرون دماغهم ليجدوا طريقةً ما تجعل هذا الخبر ليس جيدًا كما تقترح البيانات. وليأسهم، يلجؤون إلى دلالات الألفاظ.

أليس التصيد الإلكتروني (Trolling) أحد أشكال العنف؟ أليس التعدين السطحي أحد أشكال العنف؟ أليس غياب المساواة أحد أشكال العنف؟ أليس التلوث أحد أشكال العنف؟ أليس الفقر أحد أشكال العنف؟ أليست الاستهلاكية أحد أشكال العنف؟ أليس الطلاق أحد أشكال العنف؟ أليست الدعاية أحد أشكال العنف؟ أليس إعداد الإحصاءات أحد أشكال العنف؟

برغم روعة المجاز كوسيلة تعبيرية كلامية، إلَّا أنه طريقة ضعيفة لتقييم وضع البشرية، يستلزم التعقُّل أو الاستدلال الأخلاقي تناسبًا، ربما يكون الأمر مزعجًا عندما يقول شخصٌ ما أشياء بغيضة على تويتر، ولكنه لا يماثل تجارة العبيد أو الهولوكوست. ويستلزم أيضًا التمييز بين الكلام والواقع، فالدخول باندفاعٍ إلى مركز معني بأزمات الاغتصاب والمطالبة بمعرفة ما الذي فعلوه بشأن اغتصاب البيئة

لا يفيد ضحايا الاغتصاب الفعلي ولا يفيد البيئة بشيء. وأخيرًا، يتطلَّب تحسين العالم فهمًا للسبب والنتيجة. رغم أنَّ الحدس الأخلاقي البدائي يميل إلى تجميع الأمور السيئة سويًّ وإلقاء اللوم فيها جميعًا على «الشرير»، إلَّا أنَّ «الأمور السيئة» ليست ظاهرة مترابطة يمكننا محاولة فهمها والقضاء عليها. (فالإنتروبيا والتطور ينتجان هذه الأمور السيئة بغزارة). فالحرب والجريمة والتلوث والفقر والمرض والهمجية شرور لا يجمعها قاسم مشترك، وإذا أردنا الحد منها، فلا يمكننا أن نلعب بالكلمات مما يجعل حتى مناقشة كلٍّ منها على حدة مستحيلًا.

لقد عرضت هذه الاعتراضات كي أمهد الطريق لعرض المقاييس الأخرى لتقدم البشرية. أقنعني رد الفعل المتشكِّك على كتاب **الجوانب الملائكية** بأنَّ الحدس المبني على الإتاحة ليس هو العامل الوحيد الذي يجعل الناس جبريين فيما يخص التقدم، ولا يمكن إلقاء اللوم في ولع الإعلام بالأخبار السيئة تمامًا على مطاردة العيون والنقرات. كلا، إنَّ الجذور النفسية لرهاب التقدُّم راسخة بعمقٍ أكبر.

أعمقها انحياز لخَّصه شعار يقول: «السيء أقوى من الجيد». تتضح الفكرة في مجموعةٍ من التجارب الفكرية التخيلية التي اقترحها تفيرسكي. إلى أي مدى تتخيل نفسك تشعر بأن حالك أفضل مما تشعر به الآن؟ إلى أي مدى تتخيل نفسك تشعر بأن حالك **أسوأ**؟ يمكننا جميعًا تخيل أن نمشي بخفةٍ أكثر أو تلمع أعيننا ردًّا على الفرضية الأولى، ولكن إجابتنا عن الثانية ستكون: دون حدود. يمكن تفسير هذا التباين في الحالة المزاجية بالتباين في الحياة (وهو لازمة منطقية لقانون الإنتروبيا). كم شيئًا قد يحدث اليوم ويجعل حالك أفضل كثيرًا؟ وكم شيئًا قد يحدث اليوم ويجعل حالك **أسوأ** كثيرًا؟ ومجددًا، يمكننا جميعًا أن نفكِّر في مكسبٍ مفاجئ غريب أو ضربة حظ سعيد ردًّا على السؤال الأول، ولكن ستكون الإجابة عن السؤال الثاني: أشياء لا نهائية. ولكن لا ينبغي أن نعتمد على تخيلاتنا، فالنصوص النفسية تؤكد أنَّ الناس يمقتون الخسائر أكثر مما يتطلعون إلى المكاسب، ويركِّزون على الإخفاقات أكثر مما يتلذذون بالحظ السعيد، ويؤلمهم الانتقاد أكثر مما يشجّعهم الثناء. (وبصفتي عالم لغويات نفسية، فأنا مضطر إلى أن أضيف أيضًا أنَّ اللغة الإنجليزية تحتوي على كلمات للتعبير عن المشاعر السلبية أكثر من المشاعر الإيجابية).

في ذاكرتنا الخاصة بحياتنا نجد استثناءً واحدًا للانحياز للسلبية، فرغم أننا نتذكر الأحداث السيئة كما نتذكر الجيدة، إلَّا أنَّ لون المصائب الداكن يبهت بمرور الوقت، وبالأخص المصائب التي حدثت لنا بشكلٍ شخصي. إنَّ الحنين إلى الماضي من طبيعتنا، ففي ذاكرة الإنسان، يشفي الزمن معظم جروحنا. ويضللنا وهمان آخران ويجعلاننا نظن أنَّ الأمور ليست كما كانت: فعندما تثقلنا أعباء النضج ومسؤوليات الأبوة والأمومة المتنامية نظن خطأً أنَّ العالم أصبح أقل براءةً، وعندما تتدهور قوانا نظن خطأً أنَّ الزمن هو الذي يتدهور. مثلما أشار كاتب المقالات فرانكلين بيرس آدامز «لا شيء مسؤول عن الأيام الخوالي أكثر من ضعف الذاكرة».

ينبغي أن تسعى الثقافة الفكرية نحو مقاومة انحيازاتنا المعرفية، ولكنها في الواقع تدعمها غالبًا. إنَّ علاج الحدس القائم على الإتاحة هو التفكير الكمي، ولكنَّ الباحث الأدبي ستيفن كونور أشار إلى أنَّ «هناك إجماعًا تامًا في مجال الفنون والإنسانيات على الرعب المفرط من الأرقام». يؤدي هذا الجهل بالرياضيات والإحصاء الذي مصدره أيديولوجي وليس عرضيًّا إلى أن يلاحظ الكُتَّاب أنَّ الحروب تندلع اليوم واندلعت في الماضي ويستنتجون أنَّه «لم يتغير شيءٌ»، عاجزين عن إدراك الفرق بين حقبةٍ اندلعت بها حفنةٌ من الحروب التي تسببت مجتمعةً في قتل الآلاف، وحقبة اندلعت فيها عشرات الحروب التي تسببت مجتمعةً في قتل الملايين، ويجعلهم ذلك غير مقدِّرين للعمليات المنهجية التي تهيئ لنا تراكم التطورات والتحسينات على المدى البعيد.

وليست الثقافة الفكرية مؤهلة لعلاج الانحياز للسلبية، فحذرنا من الأمور السلبية المحيطة بنا يفتح مجالًا لمحترفي سرعة الغضب والضيق الذين يلفتون انتباهنا إلى الأمور السيئة التي فاتتنا. أظهرت التجارب أنَّ الناس ينظرون إلى الناقد الذي ينتقد كتابًا ما بشدة بوصفه أكثر كفاءة من الناقد الذي يثني عليه، وربما ينطبق هذا أيضًا على النقاد المجتمعيين. قدَّم الموسيقي الهزلي توم ليرر نصيحة مفادها «توقَّع الأسوأ دائمًا، وسيهللون لك كأنك نبي». منذ زمن الأنبياء العبريين، الذين شابوا نقدهم الاجتماعي بتحذيرات من وقوع الكوارث، جرت مساواة التشاؤم بالجدية الأخلاقية. يعتقد الصحافيون أنَّهم يؤدون دورهم في المراقبة والتنقيب عن الفساد وفضحه وابتلاء المترفين، عبر إبراز السلبيات، ويعرف المثقفون أنَّهم يمكنهم أن يكتسبوا وقارًا فوريًّا عبر الإشارة إلى مشكلة لم تُحل بعد، والتنظير بأنها أحد أعراض المجتمع المريض.

والعكس صحيح أيضًا، إذ لاحظ الكاتب في الشؤون المالية مورجان هاوزل أنَّه في حين يبدو المتشائمون كأنهم يحاولون مساعدتك، فإنّ المتفائلين يبدون كأنهم يحاولون أن يبيعوا لك شيئًا. عندما يعرض عليك شخصٌ ما حلًّا لإحدى المشاكل، سيسارع المنتقدون بالإشارة إلى أنه ليس علاجًا شاملًا ولا علاجًا سريعًا ولا عصا سحرية ولا حلًّا يناسب الجميع، إنَّه مجرد مسكِّن أو حلٌ تكنولوجي سريع يعجز عن فهم الأسباب الجذرية وسيأتي بنتائج عكسية فيكون له آثار جانبية وعواقب غير مقصودة. وبالطبع، بما أنَّه لا يوجد علاج شامل ولكل شيء آثار جانبية (فلا يمكنك أن تفعل شيئًا منعزلًا عن البقية)، فإنَّ هذه المجازات تُعد رفضًا لتقبُّل إمكانية تحسُّن أي شيء على الإطلاق.

يمكن أن يكون التشاؤم في أوساط أهل الفكر أحد أشكال المزايدة، فالمجتمع الحديث عبارة عن رابطة من النخب السياسية والصناعية والمالية والتكنولوجية والعسكرية والفكرية، التي تتنافس جميعها على المكانة والنفوذ، ولكل منها مسؤوليات مختلفة تجاه إدارة المجتمع. قد تكون الشكوى من المجتمع الحديث طريقة غرضها الخفي تثبيط الخصوم، كأن يشعر الأكاديميون بأفضلية على رجال الأعمال، ويشعر رجال الأعمال بأفضلية على الساسة، وهكذا. مثلما ذكر توماس هوبز عام 1651: «ينتج التنافس على نيل المديح ميلًا إلى تبجيل الأقدميّة، لذلك فإن الناس يتنازعون مع الأحياء لا مع الموتى».

للتشاؤم بالتأكيد جانب مشرق، إذ تجعلنا دائرة التعاطف المتسعة مهتمين بالأضرار التي كانت ستمر علينا مرور الكرام في الأزمنة الأشدّ قسوةً، فنحن مثلًا ندرك اليوم أنَّ الحرب الأهلية السورية مأساة إنسانية، في حين نادرًا ما نتذكر حروب العقود السابقة مثل الحرب الأهلية الصينية وتقسيم الهند والحرب الكورية بنفس الطريقة، رغم أنَّها تسببت في قتل المزيد من الناس ونزوحهم. عندما كنتُ في مراحل النمو، كان التنمر يُعد جزءًا طبيعيًّا من الصبا، كان من الصعب تصديق أنَّ رئيس الولايات المتحدة قد يلقي يومًا ما خطبةً عن شرور التنمر، كما فعل باراك أوباما في 2011. عندما يزداد اهتمامنا بالإنسانية، نميل إلى أن نظن خطأً أنَّ الأضرار المحيطة بنا تمثِّل علامات على مدى الانحطاط الذي وصل إليه العالم، وليس على مدى ارتقاء معاييرنا.

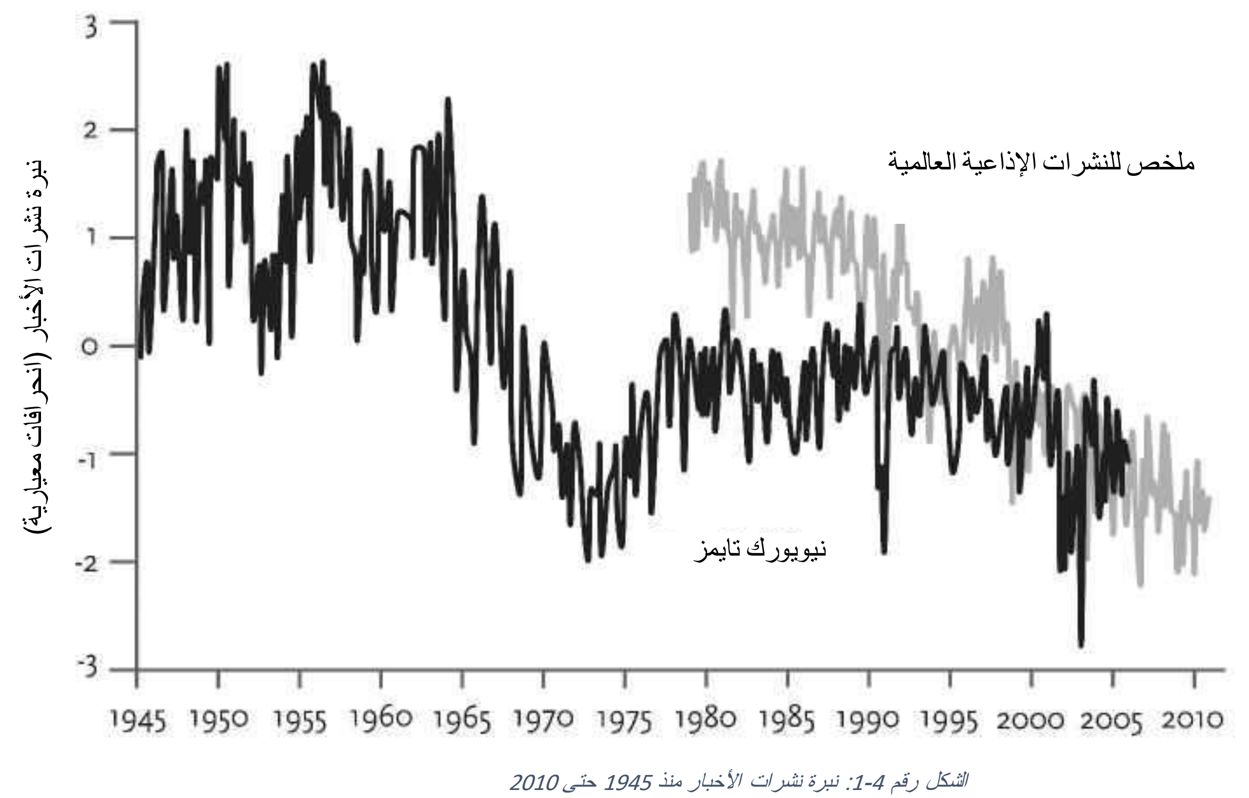
ولكن قد يكون للسلبية المتعنتة نفسها عواقب غير مقصودة، والتي بدأ بعض الصحافيين يشيرون إليها مؤخرًا، ففي أعقاب الانتخابات الأمريكية لعام 2016، تأمَّل ديفيد بورنشتاين وتينا روزنبرج، الكاتبان بصحيفة نيويورك تايمز، في دور الإعلام في نتيجتها الصادمة، كما يلي:

استفاد ترامب من الاعتقاد -الشائع في الصحافة الأمريكية- بأنَّ «الأخبار الجادة» يمكن تعريفها بـ «المشاكل التي تحدث».. مهَّد تركيز الصحافة المستمر طيلة عقود على المشاكل والأمراض التي تبدو كأنَّها ليس لها علاج الطريق الذي سمح بأن يزرع ترامب بذور الاستياء واليأس.. وأحد عواقب ذلك أنَّ كثيرًا من الأمريكيين اليوم يصعب عليهم تخيل الوعد بالتغيير المتزايد للنظام أو تقدير قيمته أو حتى تصديقه، مما يؤدي إلى فتح الشهية للتغيير الثوري بما يشبه حركة «تحطيم الآلات».

لا يلقي كلٌّ من بورنشتاين وروزنبرج باللوم على المذنبين المعتادين (التليفزيون ووسائل الإعلام الاجتماعي وبرامج الكوميديا المسائية) وإنَّما يربطانه بالتحول الذي حدث خلال حقبتي فييتنام ووترجيت من تمجيد القادة إلى التدقيق في سلطاتهم، بتطرفٍ في التشاؤم الساخر دون تفرقة، إذ أصبح كل شيء خاص بالجهات المدنية الأمريكية الفاعلة يستدعي هجومًا شرسًا.

إذا كانت جذور رهاب التقدُّم تكمن في الطبيعة البشرية، فهل يُعدّ اقتراحي بأنَّها تنمو وهمًا من صنع الانحياز المبني على الإتاحة؟ سننظر فيما يلي إلى مقياسٍ موضوعي، استباقًا للأساليب التي سأستخدمها في بقية الكتاب. طبَّق عالم البيانات كاليف ليتارو تقنيةً تُدعى التنقيب عن المشاعر أو تحليل المشاعر على كل مقال نشرته صحيفة نيويورك تايمز بين عامي 1945 و2005، وعلى أرشيف من النشرات الإذاعية والمقالات المترجمة من 130 دولة بين عامي 1979 و2010. يقيِّم تحليل المشاعر نبرة النص عبر جمع عدد الكلمات ذات الدلالات الإيجابية والسلبية، وسياقاتها، مثل **جيد**، و**لطيف**، و**فظيع**، و**مريع**. يوضِّح الشكل رقم 4-1 نتائج التحليل. بعد استبعاد كل الذبذبات والأمواج التي تعكس أزمات كل حين، نرى أنَّ الانطباع بأنَّ الأخبار ازدادت سلبيةً بمرور الوقت حقيقي. ازدادت صحيفة نيويورك تايمز كآبة في القرن الماضي منذ أوائل الستينيات حتى أوائل السبعينيات، وابتهجت قليلًا (قليلًا فقط) في الثمانينيات والتسعينيات، ثم غرقت في مزاجٍ أسوأ بصورةٍ تصاعدية في العقد الأول من القرن الجديد، وازدادت المنافذ الإعلامية في بقية العالم أيضًا كآبةً منذ أواخر سبعينيات القرن الماضي حتى يومنا هذا.

إذًا، هل العالم حقًّا في انحدارٍ مستمر طيلة هذه العقود؟ تذكَّر الشكل رقم 4-1 عندما نفحص حالة البشرية في الفصول التالية.



الشكل رقم 4-1: نبرة نشرات الأخبار منذ 1945 حتى 2010

المصدر: ليتارو 2011.

ما هو التقدم؟ ربما تظن أنَّ هذا السؤال ذاتي ونسبي جدًّا حسب الثقافة لذا لا يمكن الإجابة عنه أبدًا، لكنَّه في الحقيقة أحد أسهل الأسئلة التي يمكن الإجابة عنها.

يتفق معظم الناس على أنَّ الحياة أفضل من الموت، والصحة أفضل من المرض، وتوفر الرزق أفضل من الجوع، والوفرة أفضل من الفقر، والسلام أفضل من الحرب، والأمن أفضل من الخطر، والحرية أفضل من الاستبداد، والمعرفة أفضل من الجهل، والذكاء أفضل من تبلد الذهن، والسعادة أفضل من البؤس، وفرص الاستمتاع بالعائلة والأصدقاء والثقافة والطبيعة أفضل من الكدح والرتابة.

وكل هذه الأمور قابلة للقياس، إذا كانت قد تحسَّنت بمرور الوقت، فهذا هو التقدُّم.

بالطبع لن يتفق الجميع على هذه القائمة كما هي بالضبط، فالقيم إنسانية بصراحةٍ، وتتجاوز عن الفضائل الدينية والرومانسية والأرستقراطية مثل الخلاص واللطف والقدسية والبطولة والشرف والمجد والأصالة. ولكن قد يتفق الغالبية على أنَّها بداية ضرورية، فمن السهل تمجيد قيمٍ سامية مجردة، ولكنَّ أغلب الناس يمنحون الأولوية للحياة والصحة والأمن والمعرفة بالقراءة والكتابة والرزق والتحفيز لسببٍ واضحٍ هو أنَّ هذه الأمور الجيدة شروط لازمة لحدوث أي شيء آخر. إذا كنت تقرأ هذا الكتاب، فأنت لست ميتًا ولا تتضور جوعًا ولا معدمًا ولا محتضرًا ولا مفزوعًا ولا مستعبدًا ولا أميًّا، مما يعني أنَّ وضعك لا يسمح لك بالتعالي على هذه القيم أو إنكار أنَّ من حق الآخرين مشاركتك في حظك السعيد.

وللمفاجأة، لا يتفق العالم على هذه القيم، ففي عام 2000، اتفقت الدول الأعضاء جميعًا، وهي 189 دولة، إضافةً إلى ما يقرب من 25 منظمة دولية، على ثمانية أهداف إنمائية للألفية لعام 2015 تتداخل تمامًا مع هذه القائمة.

وإليك هذه الصدمة: **أحدث العالم تقدُّمًا مذهلًا في كل مقياس من مقاييس رفاهة الإنسان**، وإليك صدمة ثانية: **لا يعرف أحد تقريبًا بهذا الأمر**.

يسهل العثور على معلومات عن تقدُّم الإنسان، رغم غيابها عن المنافذ الإعلامية الكبرى والمنتديات الفكرية، فالبيانات ليست مدفونة في تقاريرٍ مملة وإنما معروضة في مواقع إلكترونية رائعة، وبالأخص موقع ماكس روزر Our World in Data وموقع ماريان توبي HumanProgress وموقع هانس روزلينج Gapminder. (اكتشف روزلينج أنَّ حتى ابتلاع سيفٍ خلال إحدى محاضرات تيد في عام 2007 ليس كافيًا للفت انتباه العالم). أقيمت هذه الحجة في كتبٍ رائعة، بعضها من تأليف كُتَّاب فائزين بجائزة نوبل، وتفخر عناوينها بالتقدُّم، ومنها: Progress، وThe Progress Paradox، وInfinite Progress، و The Infinite Resource، وThe Rational Optimist، وThe Case for Rational Optimism، و Utopia for Realists، وMass Flourishing، وAbundance، وThe Improving State of the World، وGetting Better، وThe End of Doom، وThe Moral Arc، وThe Big Ratchet، و The Great Escape، وThe Great Surge، و The Great Convergence. (لم يكافأ أيٌّ منها بجائزة كبرى، ولكن في الفترة التي ظهرت فيها هذه الكتب، حصلت أربعة كتب عن الإبادة العرقية وثلاثة عن الإرهاب واثنان عن السرطان واثنان عن العنصرية وكتاب واحد عن الانقراض على جائزة بولتزر عن فئة الأعمال غير الخيالية). وإلى من تستهويهم قراءة مقالات القوائم، نُشر في السنوات الأخيرة بعض منها مثل: Five Amazing Pieces of Good News Nobody Is Reporting، و Five Reasons Why 2013 Was the Best Year in Human History، و Seven Reasons the World Looks Worse Than It Really Is، و 26 Charts and Maps That Show the World Is Getting Much, Much Better، و40 Ways the World Is Getting Better، وقائمتي المفضلة هي: 50 Reasons Why We're Living Through the Greatest Period in World History. لنلقي نظرةً على بعضٍ من هذه الأسباب.

الفصل الخامس

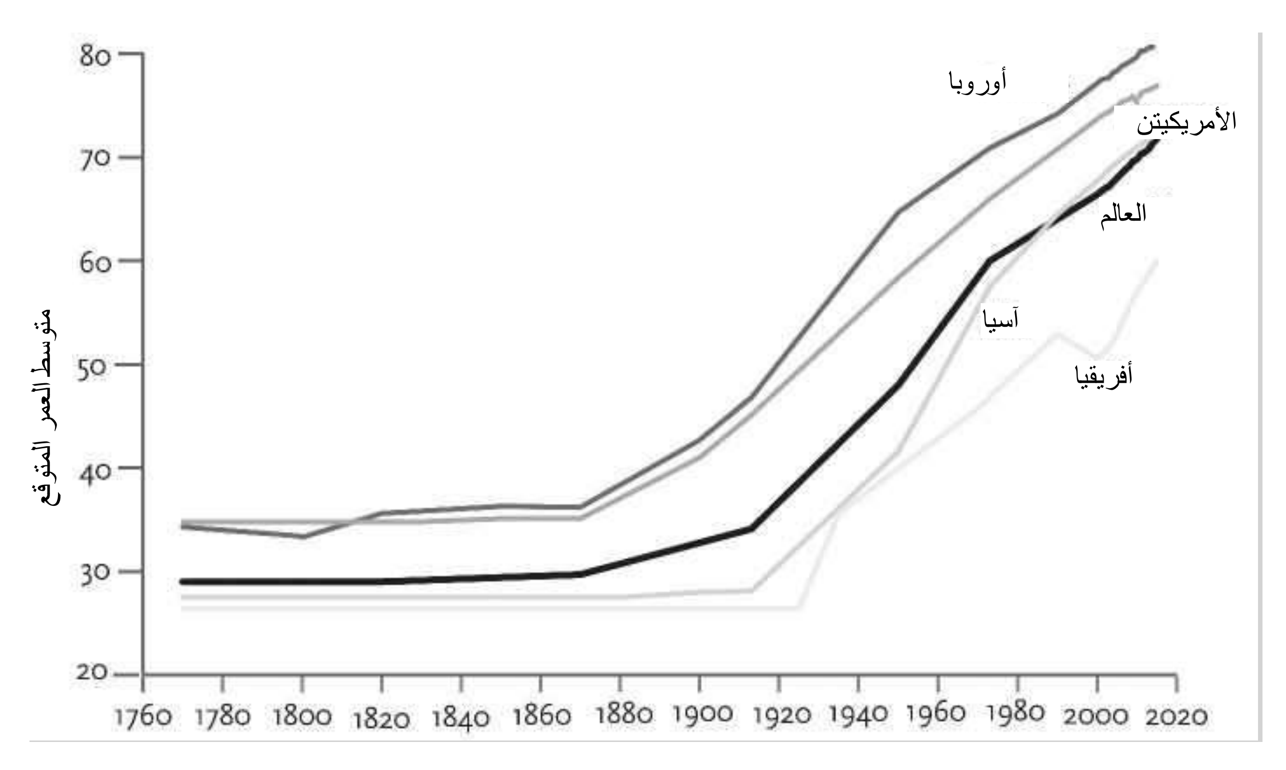
الحياة

إنَّ الصراع من أجل البقاء على قيد الحياة هو الدافع البدائي للكائنات الحية، وينشر الإنسان براعته وعزمه الواعي على تجنب الموت لأطول وقتٍ ممكن، وقد قال إله العهد القديم: «فَاخْتَرِ الْحَيَاةَ لِكَيْ تَحْيَا أَنْتَ وَنَسْلُكَ»، وناشد ديلان توماس بـ «الغضب، الغضب على احتضار النور»، فالعمر المديد هو النعمة الكبرى.

ما العمر المتوقع، في رأيك، أن يعيشه شخص عادي في هذا العالم اليوم؟ تذكَّر أنَّ المتوسط العالمي يتأثر سلبًا بحالات الوفاة المبكرة بفعل الجوع والمرض في الدول كثيفة السكان في العالم النامي، ويتأثر على نحو خاصّ بوفيات الأطفال، الذين يضيفون أصفاراً كثيرة إلى متوسط الأعمار.

في عام 2015، كانت الإجابة هي 71.4 عامًا، إلى أي مدى قارب تخمينك هذه الإجابة؟ في استطلاعٍ حديث أجراه هانس روزلينج، وجد أن أقل من شخصٍ واحد من بين كل أربعة سويديين خمَّنوا أنَّ متوسط العمر كان كبيرًا هكذا، وهذه النتيجة متوافقة مع نتائج استطلاعات الرأي على جنسيات متعددة أخرى بشأن كلٍّ من طول العمر والمعرفة بالقراءة والكتابة والفقر فيما أسماه روزلينج بمشروع الجهل. كان شعار المشروع هو حيوان الشمبانزي، لأنَّه كما فسَّر روزلينج: «لو كتبتُ اختيارات للإجابة عن كل سؤال على حبات موز، وطلبت من حيوانات الشمبانزي في حديقة الحيوان اختيار الإجابة الصحيحة، لكانت نتيجة إجاباتهم أفضل من المشاركين في الاستطلاعات». لم يكُن المشاركون، الذين كان من بينهم طلاب مجال الصحة العالمية وأساتذته، جاهلين بالحقائق بقدر ما كانوا متشائمين بصورةٍ مغلوطة.

في الشكل رقم 5–1، وهو مخطط للعمر المتوقع على مر القرون صنعه ماكس روزر، يظهر نمط عام في تاريخ العالم.



الشكل رقم 5-1: متوسط العمر المتوقع منذ 1771 حتى 2015
***المصدر:** موقع Our World in Data، روزر 2016n، بناءً على بيانات مستمدة من دراسة رايلي عام 2005 للأعوام قبل 2000، ومن منظمة الصحة العالمية والبك الدولي للأعوام التي تلتها، وبيانات محدثة قدمها ماكس روزر.*

كان متوسط العمر المتوقع في أوروبا والأمريكتين في زمن بداية هذا المخطط، أي في القرن الثامن عشر، حوالي 35 عامًا، وكان ثابتًا على ذلك الرقم منذ 225 عامًا لدينا بياناتهم قبل هذه النقطة الزمنية، إذ كان متوسط العمر المتوقع في العالم بأكمله 29 عامًا. تقع هذه الأرقام في نطاق المدى العمري المتوقع في أغلب مراحل تاريخ البشرية، فقد كان متوسط العمر المتوقع للبشر في مرحلة الصيد وجمع الثمار حوالي 32 عامًا ونصف، وتناقص على الأرجح لدى أول من عملوا بالزراعة بسبب نظامهم الغذائي المعتمد على النشويات والأمراض التي انتقلت إليهم من الماشية ومن الآخرين. ثمّ عاد العمر المتوقع إلى أوائل الثلاثينيات في العصر البرونزي وظل كذلك آلاف السنوات، مع بعض التقلبات الصغيرة في مختلف القرون والمناطق. يمكننا أن نطلق على هذه الفترة من تاريخ البشرية الحقبة المالتوسية، إذ كان أي تقدم في الزراعة أو الصحة يُلغى سريعًا بفعل الزيادة السكانية السريعة الناتجة، رغم أنَّ كلمة حقبة تبدو مصطلحًا غريبًا إذا أطلقناها على 99.9 بالمئة من زمن وجود نوعنا على الأرض.

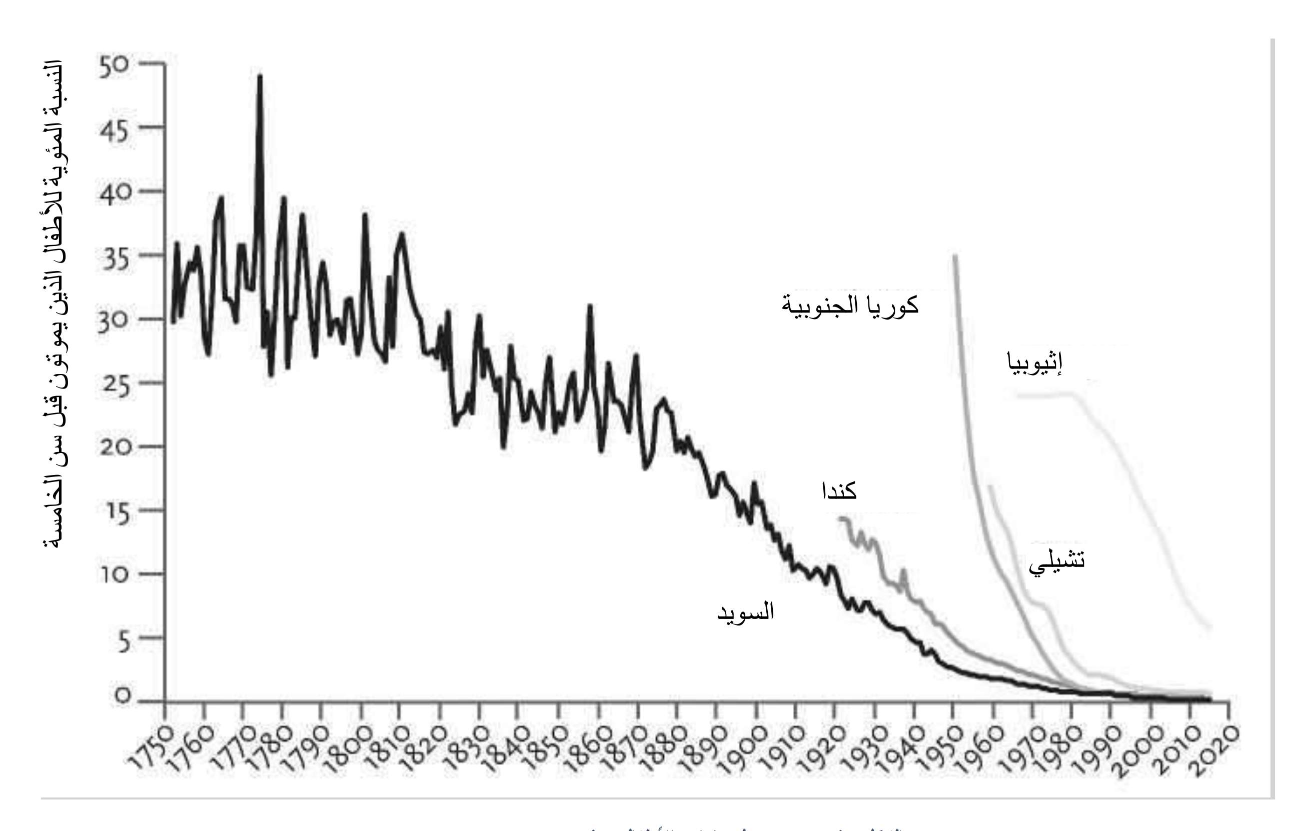
ولكن بدءًا من القرن التاسع عشر، انطلق العالم في رحلة الهروب الكبير، وهو المصطلح الذي استخدمه الاقتصادي آنجوس ديتون للتعبير عن تحرر البشرية من إرث الفقر والمرض والوفاة المبكرة. بدأ متوسط العمر المتوقع في الزيادة، وتسارع في القرن العشرين، ولا تظهر عليه أي علامات على التباطؤ. نميل، مثلما أشار المؤرخ الاقتصادي يوهان نوربيرج، إلى أن نقول لأنفسنا «إنَّنا مع كل عامٍ يمرر من عمرنا، نقترب إلى الموت بمقدار عامٍ، ولكن خلال القرن العشرين كان الشخص العادي يقترب إلى الموت بمقدار سبعة أشهرٍ فقط مع كل عامٍ يمر من عمره». ومن المثير أنَّ هِبَة العمر المديد تنتشر لتشمل البشرية جمعاء، بما يشمل الدول الأفقر في العالم، وبخطى أسرع من خطى انتشارها في الدول الغنية. إذ قال نوربيرج إنَّ: «متوسط العمر المتوقع في كينيا قد ازداد بمقدار عشرة أعوام تقريبًا ما بين عامي

2003 و2013. بعد أن عاش الشخص العادي في كينيا وأحب وكافح طيلة عقدٍ كامل، لم يفقد عامًا واحدًا من بقية حياته، فزاد عمر الجميع عشرة أعوام، ولم يقترب منهم الموت بمقدار خطوةٍ واحدة».

نتيجةً لذلك، فإنّ غياب المساواة في متوسط العمر المتوقع، الذي ظهر خلال مرحلة الهروب الكبير عندما انفصلت بضعة دول محظوظة عن البقية، يتضاءل الآن بانضمام بقية الدول إلى من سبقوها. في عام 1800، لم يكُن متوسط العمر المتوقع في أي دولةٍ في العالم أعلى من 40 عامًا، وبحلول عام 1950 كان قد بلغ حوالي 60 عامًا في أوروبا والأمريكتين، سابقين بذلك أفريقيا وآسيا كثيرًا. ولكن منذ ذلك الحين، زاد متوسط العمر المتوقع في آسيا بضعف المعدل الأوروبي، وفي أفريقيا بمقدار مرة ونصف أكثر منه. يُتوقع أن يعيش طفل أفريقي مولود اليوم عمرًا مساويًا لشخصٍ مولود في الأمريكتين في خمسينيات القرن الماضي أو في أوروبا في ثلاثينياته، ولولا نكبة الإيدز، التي سببت انخفاضًا فظيعًا في التسعينيات قبل أن تبدأ الأدوية المضادة للفيروسات الرجعية بالسيطرة على المرض، لكان المتوسط أعلى.

إنَّ منحدر الإيدز في أفريقيا بمثابة تذكير بأنَّ التقدم ليس سلّمًا متحركًا يزيد حتمًا رفاهة كل إنسان في كل مكان طوال الوقت، فهذا فعل السحر، والتقدم ليس نتيجةً للسحر وإنما لحل المشاكل. المشاكل حتمية، وقد عانت قطاعات خاصة من البشرية في بعض الأوقات من انتكاسات فظيعة، فبالإضافة إلى وباء الإيدز في أفريقيا، انخفض معدّل العمر بين صغار البالغين حول العالم خلال مرحلة تفشي الإنفلونزا الإسبانية في عامي 1918 و1919، وبين الأمريكيين البيض في منتصف العمر من أصل غير لاتيني/إسباني وغير الحاصلين على تعليمٍ جامعي في بداية القرن الحادي والعشرين. ولكنَّ المشاكل قابلة للحل، وتعني حقيقة الارتفاع المتواصل في الأعمار في كلٍّ من الديموغرافيات الغربية الأخرى أنَّ حلول المشكلات التي تواجه هذه الديموغرافية ممكنةٌ أيضًا.

يمتد متوسط المدى العمري بفعل الانخفاض في معدل وفيات المواليد والأطفال أكثر من أي سببٍ آخر، لأنَّ الأطفال يتسمون بالهشاشة ولأنَّ وفاة طفلٍ تخفِّض المتوسط أكثر مما تفعل وفاة مسنٍّ في الستين من عمره. يوضِّح الشكل رقم 5-2 ما حدث لمعدل وفيات الأطفال منذ عصر التنوير في خمس دول معبِّرة بصورةٍ أو بأخرى عن قاراتها.



الشكل رقم 5-2: معدل وفيات الأطفال منذ 1751 حتى 2013
***المصدر:** Our World in Data ، روزر 2016a، بناءً على تقديرات الأمم المتحدة لمعدل وفيات الأطفال المنشورة على موقع http://www.childmortality.org/، وقاعدة بيانات الوفيات البشرية Human Mortality Database على موقع http://www.mortality.org/.*

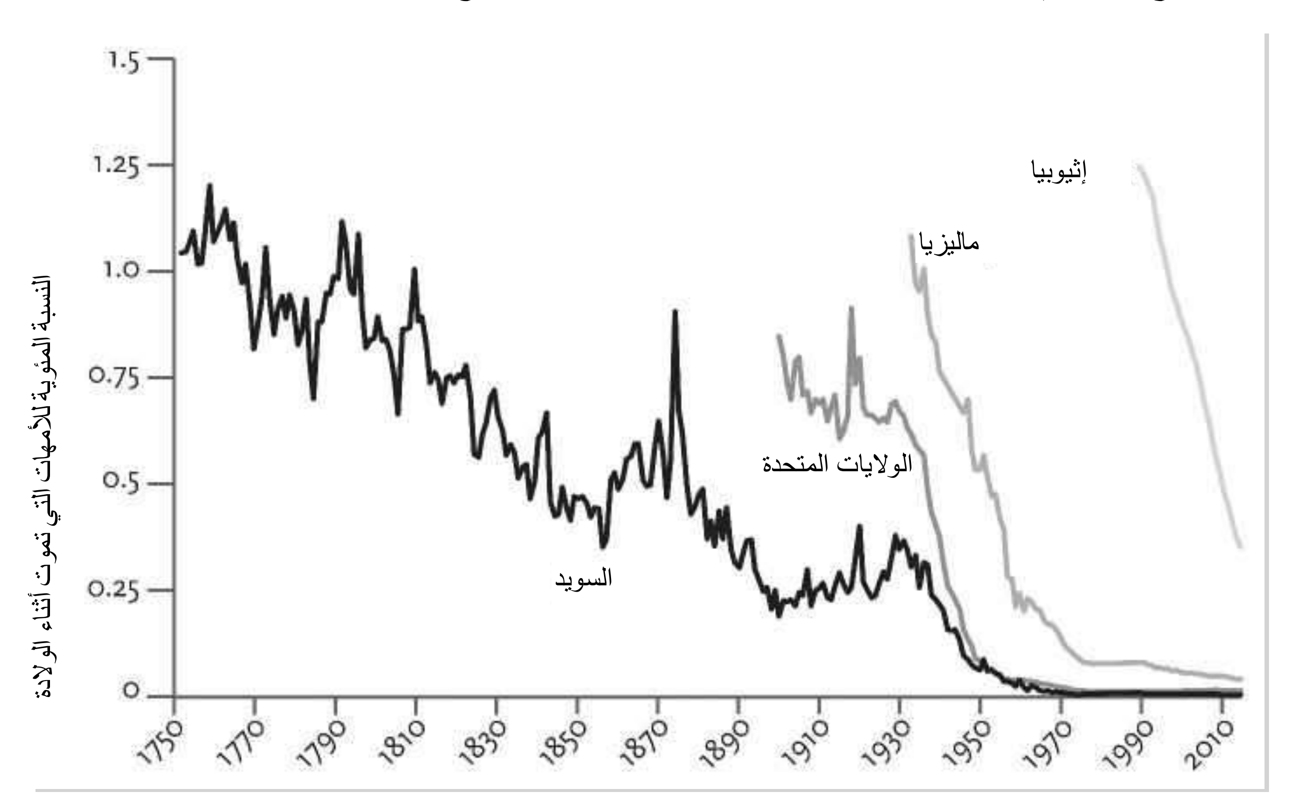
انظر إلى الأرقام على المحور الرأسي، إنَّها تشير إلى النسبة المئوية للأطفال الذين يموتون قبل أن يبلغوا عامهم الخامس من إجمالي الأطفال. أجل، حتى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر في السويد، إحدى أكثر دول العالم ثراءً، كانت نسبة تتراوح بين **الربع والثلث** من إجمالي الأطفال يتوّفون قبل عيد ميلادهم الخامس، وفي بعض السنوات بلغت هذه النسبة ما يقرب من النصف. يبدو أنَّ هذا أمر نمطي في تاريخ البشرية، إذ كان خُمس الأطفال في مرحلة الصيد وجمع الثمار يموتون في عامهم الأول، ونصفهم تقريبًا يموتون قبل بلوغ سن الرشد. لا تعكس هذه الارتفاعات الناتئة في المنحنى قبل القرن العشرين لغط البيانات فحسب، بل تعكس أيضًا طبيعة الحياة المحفوفة بالمخاطر، فقد يدق الوباء أو الحرب أو المجاعة الأبواب في أي وقتٍ بصحبة الموت. وحتى المترفين قد تلحق بهم المآسي، إذ فقد تشارلز داروين طفلين رضيعين ثم فقد ابنته العزيزة آني عندما كانت في العاشرة من عمرها.

ثم حدث أمرٌ لافت للنظر، هبط معدل وفيات الأطفال هبوطًا مفاجئًا بمقدار مئة مرة، ليبلغ كسرًا من نقطةٍ مئوية في الدول المتقدمة، وأصبح الهبوط عالميًّا. مثلما لاحظ ديتون في عام 2013: «لا توجد دولة واحدة في العالم لا يقل فيها معدل وفيات المواليد والأطفال اليوم عمَّا كان عليه في عام 1950». انخفض معدل وفيات الأطفال في منطقة أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى من حوالي طفلٍ من بين كل أربعة أطفال في ستينيات القرن الماضي إلى أقل من طفلٍ واحد من بين كل عشرة أطفال في عام 2015، وانخفض المعدل العالمي من 18 إلى 4 في المئة، وهي ما تزال نسبة مرتفعة، ولكنَّها ستقل بالتأكيد إذا استمرت قوة الدفع الحالية نحو تعزيز الصحة العالمية.

تذكّر حقيقتين تكمنان وراء هذه الأرقام، الأولى هي الديموغرافية: فعندما يموت أطفال أقل، يكون لدى الآباء أطفال أقل، بما أنهم لم يعُد عليهم تأمين رهانهم ضد فقدان أسرتهم بأكملها. وهكذا، على النقيض من القلق بشأن أنَّ إنقاذ حياة الأطفال سيفجِّر «قنبلة سكانية» (وهو هلع بيئي ضخم سيطر على الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، مما أدى إلى مطالبات بتقليل الرعاية الصحية في دول العالم النامي)، فإنَّ التراجع في معدل وفيات الأطفال قد أبطل هذه القنبلة.

والحقيقة الثانية شخصية، ففقدان طفل يُعد من بين أكثر التجارب تدميرًا للإنسان. تخيَّل هذه المأساة، ثم حاول تخيلها مليون مرة أخرى، هذا رُبع عدد الأطفال الذين **لم يموتوا العام الماضي فقط**، والذين كانوا ليموتوا لو كانوا قد وُلِدوا قبل خمسة عشر عامًا، ثم كرِّر العملية مئتي مرة تقريبًا، للأعوام وصولًا إلى بداية التراجع في معدل وفيات الأطفال. توضِّح الرسوم البيانية مثل الشكل رقم 5–2 انتصارًا للرفاهة البشرية لا يمكن للعقل أن يبدأ حتى في استيعاب مدى جسامته.

مما يصعب تقديره كذلك انتصار البشرية القريب على أحد أشكال قسوة الطبيعة الأخرى، وهو وفاة الأم أثناء الولادة، وقد قال إله العهد القديم، الرحيم، للمرأة الأولى: «تكثيرًا اكثّر أتعاب حبلك. بالوجع تلدين أولادًا». كانت نسبة واحد في المئة تقريبًا من الأمهات يمُتن أثناء هذه العملية حتى وقتٍ قريب، وفي حالة نساء أمريكا، كانت خطورة الحمل منذ قرنٍ أشبه بالإصابة بسرطان الثدي اليوم. يوضِّح الشكل رقم 5–3 مسار معدل وفيات الأمهات منذ عام 1751 في أربع دول تعبِّر كلٌّ منها عن منطقتها.



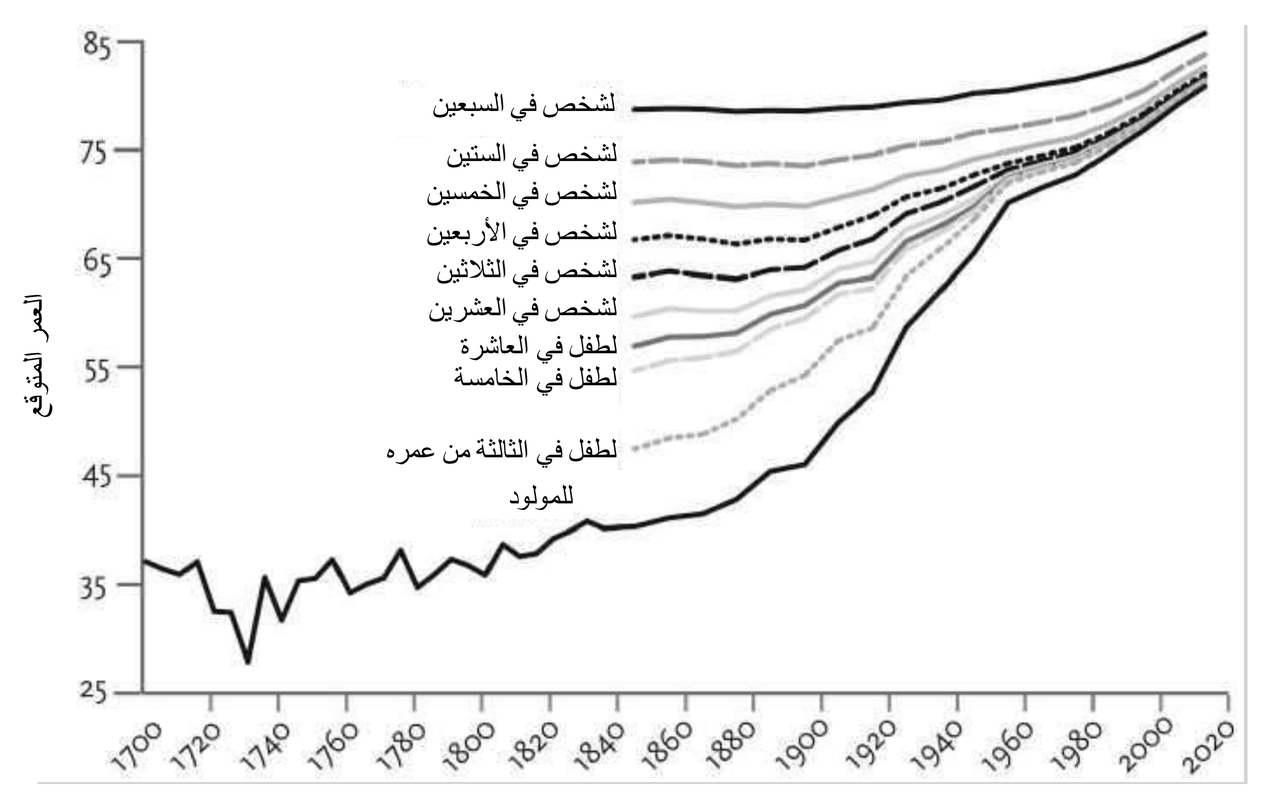
الشكل رقم 5-3: معدل وفيات الأمهات منذ 1751 حتى 2013

المصدر: *Our World in Data، روزر 2016p، بناءً على بيانات كلوديا هانسن من مؤسسة Gapminder بصورةٍ جزئية، https://www.gapminder.org/data/documentation/gd010/.*

ابتداءً من القرن الثامن عشر في أوروبا، انخفض معدل الوفيات بثلاثمئة ضعف، من 1.2 إلى 0.004 في المئة. انتشر هذا التراجع ليصل إلى بقية العالم، بما يشمل الدول الأفقر التي انخفض فيها معدل الوفيات على نحوٍ أسرع في وقتٍ أقصر بسبب بدايتها متأخرةً. يبلغ معدل الوفيات في العالم بأكمله، بعد انخفاضه بمقدار النصف تقريبًا خلال خمسة وعشرين عامًا فقط، حوالي 0.2 في المئة الآن، وهو تقريبًا المعدل الذي وصلت إليه السويد في عام 1941.

ربما تتساءل عمَّا إذا كان الانخفاض في معدل وفيات الأطفال يمكنه تفسير كل الزيادات في طول العمر الموضحة في الشكل رقم 5–1، هل نعيش حقًّا عمرًا أطول أم أننا ننجو فقط من مرحلة الرضاعة بأعدادٍ أكبر؟ ففي النهاية، لا تعني حقيقة كون متوسط العمر المتوقع للأشخاص الذين عاشوا في القرن التاسع عشر عند ولادتهم كان حوالي 30 عامًا أنَّ جميعهم مات فجأةً في أعياد ميلادهم الثلاثين، فالأطفال الكُثر الذين ماتوا كانوا يخفِّضون من المتوسط، مما ألغى أثر الأشخاص الذين ماتوا في سنٍّ كبيرة، وهؤلاء المسنون موجودون في كل مجتمع. في زمن العهد القديم، قيل إنَّ أيام عمرنا كانت حوالي سبعين عامًا، وهذا هو العُمر الذي توفي فيه سقراط قبل أوانه عام 399 قبل الحقبة الحالية، ليس نتيجة سببٍ طبيعي وإنما بفعل كأسٍ من شراب الشوكران السام. كان كثيرون من بين القبائل التي عاشت على الصيد وجمع الثمار في السبعينيات والثمانينيات من عمرهم، رغم أنَّ متوسط العمر المتوقع لامرأة من قبيلة الهادزا عند ولادتها كان 32.5 عامًا، إلَّا أنَّها لو تجاوزت الخامسة والأربعين، فيمكنها أن تتوقع أن تعيش 21 عامًا آخرين.

إذًا فهل يعيش من ينجون منَّا من مِحَن الإنجاب والطفولة اليوم عمرًا أطول من عمر الناجين في الحقب السابقة؟ أجل، أطول كثيرًا. يوضِّح الشكل رقم 5–4 متوسط العمر المتوقع في المملكة المتحدة عند الولادة، وفي أعمارٍ مختلفة تتراوح بين العام و70 عامًا، على مدار الثلاثة قرون الماضية.



الشكل رقم 5-4: متوسط العمر المتوقع في المملكة المتحدة منذ 1701 حتى 2013 المصدر: Our World in Data، روزر 2016n. بيانات الأعوام السابقة على 1845 تخص إنجلترا وويلز ومصدرها مشروع Clio Infra التابع لمنظمة التعاون والتنمية في الميدان الاقتصادي)، فان زاندن وآخرين، 2014. وبيانات الأعوام منذ 1845 تخص أعوام منتصف العقد فقط، ومصدرها Human Mortality Database، http://www.mortality.org/.

مهما كان عمرك، فأمامك الآن سنوات أكثر لتعيشها ممن كانوا في نفس عمرك في العقود والقرون السابقة، فالطفل الرضيع الذي نجا من السنة الأولى الحرجة من حياته، كان العمر المتوقع أن يعيشه 47 عامًا في 1845، و57 عامًا في 1905، و72 عامًا في 1955، و81 عامًا في 2011. والشخص الذي يبلغ ثلاثين عامًا كان من المتوقع أن يتطلع إلى ثلاثين عامًا آخر في 1845، و36 عامًا آخر في 1905، و43 عامًا آخر في 1955، و52 عامًا آخر في 2011. لو كان سقراط قد تعافى في عام 1905، لتوقَّع أن يحيا تسعة أعوام أخرى، وعشرة أعوام أخرى في 1955، و16 عامًا آخر في 2011. والشخص البالغ 80 عامًا في 1845 كان ما زال في عمره خمسة أعوام أخرى، في مقابل تسعة أعوام في عمر البالغ 80 عامًا في 2011.

وظهرت اتجاهات مشابهة، وإن كانت بأعدادٍ أقل (حتى الآن) في بقية أنحاء العالم، فالطفل الإثيوبي المولود عام 1950 والذي يبلغ عمره 10 سنوات كان من المتوقع أن يعيش 44 عامًا، في مقابل الطفل الإثيوبي الذي يبلغ 10 سنوات والمولود حاليًا الذي من المتوقع أن يعيش حتى 61 عامًا. أشار الاقتصادي ستيفن رادليت إلى أنَّ «التحسينات التي جرت في الصحة بين فقراء العالم خلال العقود القليلة الماضية كبيرة جدًّا ومنتشرة للغاية لدرجة أنَّها تُصنَّف ضمن أعظم الإنجازات في تاريخ البشرية. نادرًا ما تحسنت الرفاهة الأساسية لكثيرٍ من الناس حول العالم بهذه الدرجة الهائلة وهذه السرعة الكبيرة، ومع ذلك فلا يعي بحدوث هذا التحسن سوى قلة قليلة».

كلا، لن نقضي سنوات الشيخوخة الإضافية من عمرنا في كرسي هزاز، فبالطبع كلما طال عمرك، قضيت سنوات أكثر في مرحلة الشيخوخة، بآلامها وأوجاعها الحتمية، ولكنَّ الأجسام الأفضل في مقاومة الضربات القاضية أفضل أيضًا في مقاومة الاعتداءات الأقل خطورة كالمرض والإصابة والإنهاك. مع زيادة المدى العمري، يزداد أيضًا عنفواننا، حتى لو لم يكُن ذلك بنفس عدد السنوات. حاول مشروع بطولي يُدعى The Global Burden of Disease (عبء المرض العالمي) قياس هذا التحسُّن ليس فقط عبر حساب عدد الأشخاص الذين يموتون فجأة بفعل كلٍّ من الأمراض والإعاقات التي يبلغ عددها 291، وإنما أيضًا عبر حساب عدد السنوات التي يفقدونها من الحياة الصحية، مرجَّحة حسب درجة تهديد كلٍّ من الحالات المرضية لجودة حياتهم. قدَّر المشروع أنَّ 56.8 من أصل 67.5 عامًا من الحياة التي كان من المتوقع أن يعيشها شخص عادي في العالم في عام 1990 هي أعوام يتمتع فيها بالصحة، وفي الدول المتقدمة على الأقل، حيث توجد تقديرات متاحة لعام 2010 أيضًا، نعرف أنَّه 3.8 عامًا من بين الأعوام الإضافية المتوقعة لحياتنا التي تبلغ 4.7 عامًا والتي اكتسبناها خلال هذين العقدين، تمثِّل أعوامًا صحية. توضِّح هذه الأرقام أنَّ الناس يعيشون اليوم في صحةٍ مثاليةٍ سنوات أطول كثيرًا من مجموع ما عاشه أسلافهم من سنوات في الصحة والوهن سويًّا. يمثِّل الخَرَف الخوف الأكبر الذي تثيره احتمالية الحياة الطويلة لكثيرٍ من الناس، ولكنّ مفاجأة سارة أخرى ظهرت، فبين عامي 2000 و2012، تراجع معدل الإصابة به بين الأمريكيين الذين تتجاوز أعمارهم 65 عامًا بمعدل الربع، وارتفع متوسط سن تشخيص الإصابة به من 80.7 إلى 82.4 عامًا.

هناك المزيد من الأخبار السارة، فالمنحنيات الموضحة في الشكل رقم 5–4 ليست مجرد رسوم تزخرف حياتك وتُقاس بمصيرٍ من اثنين فقط وستنخفض يومًا ما بمقدار الثلث مثلًا، وإنما هي توقعات من إحصاءات حيوية حديثة مبنية على افتراض تجمُّد المعرفة الطبية في وضعها الحالي، لا يصدق أحد هذا الافتراض بالطبع، ولكن ليس أمامنا خيار آخر في غياب القدرة على استشفاف التقدم الطبي المستقبلي. يعني ذلك أنَّك ستعيش على الأرجح أطول –وربما أطول كثيرًا– مما تشير إليه الأرقام التي قرأتها على المحور الرأسي.

يشكو الناس كل شيء تقريبًا، ففي عام 2001 عيَّن جورج بوش مجلسًا للأخلاقيات البيولوجية تابعًا للرئيس بغرض التعامل مع الخطر المحدق الناتج عن التقدم في الطب البيولوجي الذي يَعِدُ بحياة أطول وتتسمُ بصحةٍ أفضل. قضى رئيس هذا المجلس، الفيزيائي والمفكِّر الجماهيري ليون كاس، بأنَّ «الرغبة في إطالة أمد الشباب تعبِّر عن أمنية طفولية ونرجسية غير متوافقة مع الاهتمام المخلص بالذرية، وأنَّ السنوات التي ستُضاف إلى عمر الآخرين لا تستحق أن يعيشوها (إذ سأل: «هل سيستمتع لاعبو التنس المحترفون حقًّا بلعب مباريات تنس أكثر بمقدار 25 في المئة؟»). يفضِّل معظم الناس أن يتخذوا هذه القرارات بأنفسهم، وحتى لو كان محقًّا في أنَّ «الفناء يجعل للحياة أهمية»، فطول العمر لا يعني الخلود. ولكنَّ حقيقة تكرار تحطُّم تأكيدات الخبراء بشأن الحد الأقصى الممكن لمتوسط العمر المتوقع (بعد نشرها بمتوسط خمس سنوات) تثير تساؤلًا عمَّا إذا كان طول العمر سيزداد دون حدٍّ ويتحرر يومًا ما من قيود الفناء تمامًا. هل علينا أن نقلق بشأن عالمٍ من المعمِّرين المثقَلين الذين سيقاومون ابتكارات المحدثين في التسعين من عمرهم وربما يمنعون إنجاب الأطفال المزعجين تمامًا؟

يحاول عدد من الحالمين في وادي السيليكون تقريب ذلك العالم إلينا، فقد موَّلوا مراكز بحثية لا تهدف إلى القضاء على الفناء بمحاربة مرضٍ تلو الآخر، وإنما إلى الهندسة العكسية لعملية الشيخوخة نفسها وترقية مكوناتنا الخلوية إلى نسخةٍ خالية من ذلك العيب.

ستكون النتيجة كما يأملون زيادةً في المدى العمري للإنسان إلى خمسين، أو مئة، بل وحتى ألف سنة، وقد تنبأ المخترع راي كورزوايل في كتابه الذي حقق أعلى المبيعات في عام 2006، The Singularity Is Near (اقتربت نقطة التفرد)، بأنَّ من سيصل منَّا إلى عام 2045 سيعيش إلى الأبد بفضل التقدم في علم الجينات والنانو تكنولوجي (مثل روبوتات النانو التي ستسير في مجرى الدم وتصلح أجسامنا من الداخل) والذكاء الاصطناعي الذين لن يكتشف فقط كيفية القيام بكل هذه الأمور، وإنَّما سيحسِّن ذكاءه الذاتي بصورةٍ متكررة دون حدود.

تبدو احتمالات الخلود مختلفة قليلًا لقرَّاء النشرات الإخبارية الطبية والمصابين بوسواس المرض. نحن نجد بالتأكيد تحسُّنًا متزايدًا جديرًا بالاحتفاء، مثل التراجع في معدلات الوفيات الناتجة عن السرطان على مدار الخمسة وعشرين عامًا الماضية بحوالي نقطة مئوية سنويًّا، وإنقاذ حياة مليون شخصٍ في الولايات المتحدة وحدها، ولكنَّ أملنا يخيب أيضًا بصورة متكررة بسبب العقارات السحرية التي لا تفيد أكثر من الدواء الوهمي، والعلاج الذي تكون آثاره الجانبية أسوأ من المرض نفسه، والفوائد المعلنة التي تختفي عند إجراء تحاليل ما بعد العلاج. إنَّ التقدم الطبي اليوم أشبه بمحنة سيزيف الابدية وبعيد عن الثبات.

مع افتقارنا إلى هِبة النبوءة، لا يمكن لأي شخص أن يعرف ما إذا كان العلماء سيجدون يومًا ما علاجًا للفناء، ولكنَّ التطوُّر والإنتروبيا يقللان من احتمالية حدوث هذا، فالهِرَم مترسخ في الجينوم الخاص بنا على كل مستويات ترتيبه، لأنَّ الانتخاب الطبيعي يفضِّل الجينات التي تجعلنا أكثر عنفواناً في صغرنا على الجينات التي تجعلنا نعيش أطول وقتٍ ممكن. يكمن فينا هذا الانحياز بسبب عدم التماثل الزمني، فهناك احتمالية غير مستحيلة لأن نلقى مصرعنا في أي لحظةٍ نتيجة حادثٍ لا يمكن تجنبه مثل صاعقة البرق أو الانهيار الأرضي، مما يجعل ميزة أي زيادة مكلِّفة في جين طول العمر مثار خلاف. سيضطر علماء الأحياء إلى إعادة برمجة آلاف الجينات أو المسارات الجزيئية، التي سيكون لكل منها أثر صغير وغير أكيد على طول العمر، كي يفتحوا الباب للقفزة نحو الخلود.

وحتى لو كنا مزودين بمكونات بيولوجية مصممة بإحكام، فإنَّ مسيرة الإنتروبيا ستهدمها، ومثلما أشار الفيزيائي بيتر هوفمان: «تحرِّض الحياة الأحياء والفيزياء على الصراع المميت»، فالجزيئات المتصارعة تصطدم باستمرارٍ بآليات خلايانا، التي تشمل الآليات التي تصد الإنتروبيا عبر تصحيح الأخطاء وإصلاح التلف. ومع تراكم التلف الواقع على أنظمة التحكُّم المتنوعة في التلف، تزيد خطورة الانهيار زيادةً تصاعدية، وتكتسح عاجلًا أم آجلًا أي طرق قدَّمها لنا الطب البيولوجي للوقاية من المخاطر المستمرة مثل السرطان وفشل الأعضاء.

إنَّ أفضل تصور في رأيي لنتيجة حربنا على الموت التي استمرت عدة قرون هو قانون شتاين الذي ينص على أنَّ «الأمور التي لا يمكن أن تستمر إلى الأبد، لا تستمر إلى الأبد»، وأصبح بعد تعديل ديفيس كورولاري: «الأمور التي لا يمكن أن تستمر إلى الأبد، يمكنها أن تستمر وقتًا أطول كثيرًا مما تظن».

الفصل السادس:
الصحة

كيف نفسّر هدية الحياة التي وُهِبت إلى أجيال أكثر وأكثر من بني البشر منذ نهاية القرن الثامن عشر؟ قد يعطينا التوقيت فكرةً ما. كتب ديتون في كتاب **الهروب الكبير** (*The Great Escape*): «منذ تمرد الناس على السلطة في ظل التنوير، وشرعوا يستخدمون قوة العقل في تحسين حياتهم، وجدوا طريقةً لفعل هذا، ومما لا شك فيه أنهم سيواصلون الانتصار على قوى الموت». إن مكاسبَ طول العمر التي احتفينا بها في الفصل السابق هي غنائم الانتصارات على العديد من تلك القوى –مثل الأمراض والمجاعات والحروب وجرائم القتل والحوادث–، وفي هذا الفصل والفصول التالية، سأقص عليك حكاية كلٍّ منها.

كانت أعنف قوى الموت على مدار أغلب مراحل تاريخ الإنسان هي الأمراض المعدية، وهي إحدى الخصائص البغيضة للتطور التي تتيح لكائنات صغيرة سريعة التكاثر أن تحيا على حسابنا وتتنقل من جسمٍ إلى آخر عبر الحشرات والدود والمخلفات الجسدية. كانت الأوبئة تقتل البشر بالملايين وتبيد حضارات بأكملها، ويحل بالبؤس المفاجئ على جماعات سكانية محلية. وأحد الأمثلة على ذلك الحمى الصفراء، وهو مرض فيروسي ينتقل عن طريق البعوض، وأُطلق عليه هذا الاسم لأنه كان يحيل لون ضحاياه إلى الأصفر قبل أن يموتوا من الألم. ووفقًا لرواية عن الوباء الذي اكتسح مدينة ممفيس عام 1878، فقد «زحف المرضى إلى حفرٍ وأجسامهم ملتوية، ولم تُكتشف جثثهم سوى بسبب الرائحة الكريهة الناتجة عن تحللها، [وعُثر على جثة أم] ممددة على الفراش، وحولها من كل جانب قيء أسود يشبه القهوة المطحونة، وأطفالها يتدحرجون على الأرض ويتأوهون».

ولم يسلم الأغنياء أيضًا، ففي عام 1836 توفي أغنى رجل في العالم آنذاك، ناثان ماير روثتشايلد، نتيجة خرّاج مصاب بالعدوى. كما لم يسلم أصحاب السلطة، فقد انتهت حياة كثيرٍ من حكام بريطانيا بفعل الزحار والجدري والالتهاب الرئوي والتيفوئيد والدرن والملاريا. وكان رؤساء أمريكا أيضًا معرضين للإصابة بالأوبئة، فمرِض ويليام هنري هاريسون بعد حفل تنصيبه بفترةٍ قصيرة في عام 1841 وتوفي نتيجةً صدمة إنتانية بعد 31 يومًا، ومات جايمس بولك متأثرًا بالكوليرا بعد ترك منصبه بثلاثة أشهر في عام 1849. وفي وقتٍ قريب، عام 1924، توفي ابن الرئيس الأمريكي آنذاك، كالفن كوليدج الابن، في السادسة عشرة من عمره إثر بثرة ملتهبة أصابته أثناء لعب التنس.

لطالما حارب الإنسان العاقل المبدع دائمًا المرض بصورٍ متنوعة من الدجل مثل الصلاة، والتضحية، والفصد، والحجامة، وإخراج المعادن السامة، والمعالجة المثلية، وإسالة دماء دجاجة على عضو الجسم المصاب حتى تموت، ولكن بدءا من اختراع اللقاحات في القرن الثامن عشر، وسرعة إنتاجها في القرن التاسع عشر مع قبول نظرية جرثوميةِ المرض، بدأت موازين المعركة تنقلب. فجاء الغسيل اليدوي وخدمات القبالة ومكافحة البعوض وحماية مياه الشرب عن طريق شبكات الصرف العامة ومعالجة مياه الصنبور بالكلور لينقذ حياة مليارات البشر. قبل القرن العشرين، كان الروث متراكمًا في المدن، والنفايات تملأ الأنهار والبحيرات، وسكان المدن يشربون سائلًا بنيًّا عفنًا ويغسلون به ملابسهم، وكان الناس يلقون اللوم في الأوبئة على الميازما –الهواء كريه الرائحة– حتى توصل جون سنو (وُلد عام 1813 وتوفي عام 1858م)، أول عالم أوبئة، إلى أنَّ المياه التي كان يتناولها سكان لندن المصابون بالكوليرا جاءت من ماسورة سحب من الصرف الصحي. وكان الأطباء أنفسهم يشكِّلون خطرًا صحيًّا هائلًا إذ كانوا ينتقلون بين تشريح الجثث وفحص المرضى مرتدين

معاطف سوداء مغطاة بالصديد والدم الجافين، ويفحصون جروح مرضاهم بأيادٍ متسخة، ويخيطونها بالخيوط الموجودة في عراوي أزرار ملابسهم، حتى جعلهم إيجنز سيملفيس (وُلد عام 1818 وتوفي عام 1865) وجوزيف ليستر (وُلد عام 1827 وتوفي عام 1912) يعقِّمون أياديهم ومعداتهم. جعلت المطهرات والتخدير ونقل الدم الجراحة تعالج المرضى بدلًا من أن تعذبهم وتشوههم، وصدّت المضادات الحيوية ومضادات السموم والتقدمات الطبية الأخرى التي لا تحصى هجمات الطاعون والوباء.

ربما لم تحتل خطيئة نكران الجميل قائمة الخطايا السبع المميتة (الذنوب الكاردينالية) في المسيحية، ولكنَّ مرتكبيها يقبعون في الدائرة التاسعة من الجحيم وفقًا لدانتي، وهناك قد تجد الثقافة الفكرية في حقبة ما بعد ستينيات القرن الماضي بسبب نسيانها التام لمن قضوا على الأمراض. لم يكُن الوضع دائمًا كذلك، فعندما كنتُ صبيًّا، كان من الأصناف الأدبية الرائجة للأطفال السير الذاتية البطولية للرواد في الطب مثل إدوارد جينر ولويس باستور وجوزيف ليستر وفريدريك بانتنج وتشارلز بست وويليام أولسر وأليكساندر فليمنج. في 12 من أبريل 1955، أعلن فريقٌ من العلماء أنَّ اللقاح الذي اكتشفه جون سالك ضد شلل الأطفال –المرض الذي تسبب في وفاة آلاف الأشخاص سنويًّا، وإصابة فرانكلين روزفلت بالشلل، وحبس العديد من الأطفال داخل الرئة الحديدية– ثبت كونه آمنًا. ووفقًا لتأريخ ريتشارد كارتر لهذا الاكتشاف، فالناس في ذلك اليوم «وقفوا دقيقة صمت، وقرعوا الأجراس والأبواق وأطلقوا صافرات المصانع وأطلقوا النيران في الهواء احتفالًا، واستراحوا من العمل بقية اليوم، وأغلقوا المدارس أو تجمعوا داخلها بحماسٍ، وشربوا الأنخاب، وعانقوا أطفالهم، وذهبوا إلى الكنائس، وابتسموا في وجوه الغرباء، وسامحوا أعداءهم». عرضت مدينة نيويورك تكريم سالك بموكبٍ تُنثر فيه الشرائط للاحتفال، وهو ما رفضه سالك بذوقٍ.

كم مرّة فكرت في كارل لاندشتاينر مؤخرًا؟ كارل مَن؟ إنَّه من أنقذ حياة مليار شخصٍ فقط باكتشاف فصائل الدم، وماذا عن هؤلاء الأبطال الآخرين؟

العالم	الاكتشاف	عدد الأفراد الذين أنقذ حياتهم
إيبل وولمان (1892–1982) ولين إنسلو (1892–1957)	معالجة المياه بالكلور	177 مليونًا
ويليام فيجي (مواليد 1936)	استراتيجية القضاء على الجدري	131 مليونًا
موريس هيلمان (1919–2005)	ثمانية لقاحات	129 مليونًا
جون إندرز (1897–1985)	لقاح الحصبة	120 مليونًا
هوارد فلوري (1898–1968)	البنسلين	82 مليونًا
جاستون رامون (1886–1963)	لقاحات الدفتيريا والتيتانوس	60 مليونًا
ديفيد نالين (مواليد 1942)	معالجة الجفاف عن طريق الفم	54 مليونًا
بول إيرليش (1854–1915)	ترياق الدفتيريا والتيتانوس	42 مليونًا
آندرياس جرونتسيش (1939–1985)	رأب الأوعية	15 مليونًا

جريس إلدرنج (1900–1988) وبيرل كيندريك (1890–1980)	لقاح السعال الديكي	14 مليوناً
جيترود إليون (1918–1999)	تصميم الأدوية	5 ملايين

وفق حسابات الباحثين الذين جمعوا هذه التقديرات المتحفظة، فإنَّ أكثر من خمسة مليارات شخص حتى الآن قد أُنقِذت حياتهم بفضل العلماء الذين اختاروهم في القائمة، والذين يبلغ عددهم حوالي مئة عالم. لا تعبِّر قصص الأبطال بالطبع عن الطريقة التي يعمل بها العلم بدقةٍ شديدة، فالعلماء يقفون على أكتاف عمالقة، ويتعاونون ضمن فرقٍ، ويكدحون دون أن يسمع أحدٌ بهم، ويجمعون الأفكار ويكدِّسونها في شبكاتٍ عالمية. ولكن سواء أكان ما يتعرض للتجاهل هو العلم أم العلماء، فإنَّ إهمال الاكتشافات التي غيَّرت الحياة للأفضل يُعد إدانةً لعدم تقديرنا للحالة البشرية الحديثة.

بصفتي عالم لغويات نفسية ألَّف كتاباً كاملاً عن الفعل الماضي، أستطيع أن أخص بالذكر مثالي المفضل في تاريخ اللغة الإنجليزية، وهو أول جملة في الصفحة الإنجليزية على موسوعة ويكيبيديا التي تقول:

> **Smallpox** was an infectious disease caused by either of two virus variants, *Variola major* and *Variola minor*.

أي: كان **الجدري** مرضًا معديًا ينتج عن الإصابة إما بفيروس الجدري الكبير أو فيروس الجدري الصغير.

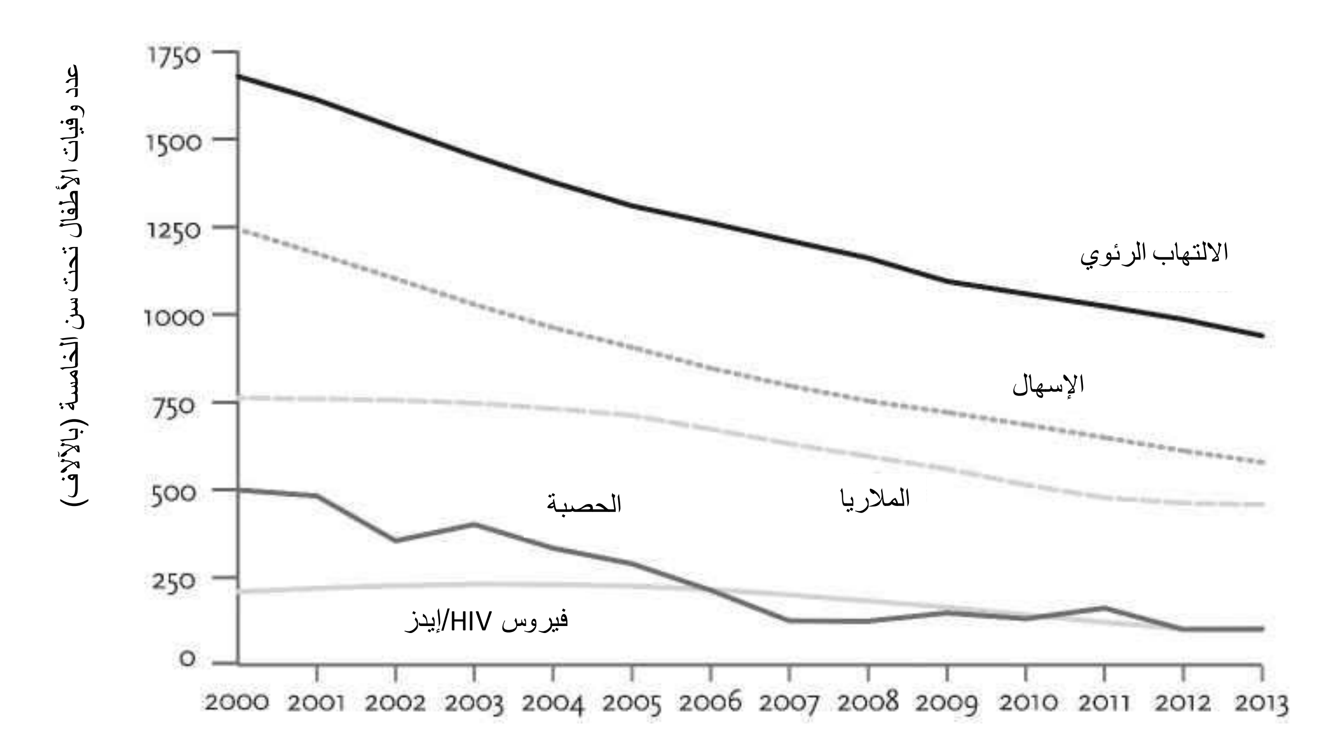
أجل، «كان الجدري»، فالمرض الذي استمد اسمه من البثور المؤلمة التي تغطي جلد الضحية وفمها وعينيها، والذي تسبب في وفاة أكثر من ثلاثمئة مليون شخص في القرن العشرين، لم يعُد له وجود. (تم تشخيص آخر حالة بهذا المرض في الصومال عام 1977). ويمكننا أن نشكر كلًّا من إدوارد جينر الذي اكتشاف اللقاح عام 1796، ومنظمة الصحة العالمية التي غامرت في عام 1959 بوضع هدف للقضاء على المرض، وويليام فيجي الذي اكتشف أنَّ تطعيم مجموعة قليلة، ولكن مختارة بعناية واستراتيجية، من الفئات الأكثر عرضة للإصابة سيؤدي الغرض، وغيرهم الكثير على هذا الانتصار المعنوي المذهل. يعلِّق الاقتصادي تشارلز كيني في كتاب **التعافي** (*Getting Better*) قائلًا:

> كانت التكلفة الإجمالية للبرنامج على مدار تلك السنوات العشرة حوالي 312 مليون دولار أمريكي، أي تقريبًا 32 سنتًا أمريكيًّا للشخص في البلدان المصابة بالمرض. لقد كلَّف برنامج القضاء على المرض نفس تكلفة صنع خمسة أفلام هوليوودية حديثة ضخمة الإنتاج والأرباح، أو جناح قاذفة القنابل B-2، أو اقل من عُشر تكلفة مشروع تطوير الطريق الأخير في بوسطن والذي يُطلق عليه «الحفر الكبير». وبقدر ما يعجب المرء بمشهد الضفة في بوسطن بعد تطويرها، وبشكل حواف القاذفة الشبحية، أو مهارات كيرا نايتلي في التمثيل في فيلم قراصنة الكاريبي أو مهارات الغوريلا في فيلم كينج كونج، يظل هذا البرنامج حدثاً جللًا، ورغم كوني أحد سكان ضفة النهر في بوسطن، إلَّا أنَّ عليَّ أن أتفق مع ذلك.

ولكنَّ هذا الإنجاز الضخم لم يكُن سوى البداية، تستخدم موسوعة ويكيبيديا بالإنجليزية الفعل الماضي أيضًا في تعريفها لطاعون البقر،

الذي تسبب في تفشي المجاعة بين ملايين المزارعين ورعاة البقر على مر التاريخ بسبب إبادة الماشية، ومن المقرر القضاء على أربعة مصادر أخرى للبؤس في الدول النامية. لم يمتد عمر جوناس سالك حتى يرى اقتراب المبادرة العالمية للقضاء على شلل الأطفال من بلوغ هدفها، ففي عام 2016 كانت نسبة الإصابة بالمرض قد انخفضت تمامًا لتصل إلى 37 حالة فقط في ثلاث دول (هي أفغانستان وباكستان ونيجيريا)، وهي أقل نسبة في التاريخ، وانخفض المعدل أكثر في 2017. دودة غينيا هي كائن طفيلي طوله ثلاثة أقدام، أي حوالي 90 سنتيمترًا، وتشق طريقها إلى الأطراف السفلية لضحيتها ثم تكوِّن بثرةً مؤلمة، وعندما يغمس المريض قدمه في المياه ليريحها قليلًا، تنفجر الدودة وتطلق آلاف اليرقات في المياه، التي يشرب منها أشخاص آخرون، فتتواصل دائرة الإصابة والعدوى. يتمثَّل العلاج الوحيد في استخراج الدودة على فترة تتراوح بين عدة أيام وأسابيع، ولكن بفضل حملة التوعية ومعالجة المياه التي قام بها مركز كارتر لمدة ثلاثة عقود، انخفض عدد الحالات من 3.5 مليون حالة في 21 دولة في عام 1986 إلى 25 حالة في ثلاث دول فقط في 2016 (وثلاث حالات فقط في دولةٍ واحدة في الربع الأول من عام 2017). وفي عام 2030، ربما نستطيع استخدام الفعل الماضي أيضًا في تعريف أمراضٍ مثل داء الفيل والعمى النهري والرمد الحبيبي المسبب للعمى، كما أنَّ الحصبة والحصبة الألمانية والداء العليقي ومرض النوم الطفيلي والدودة الشصية محط أنظار علماء الأوبئة أيضًا. (هل ستقابَل أي من هذه الانتصارات بدقائق من الصمت أو بقرع الأجراس والأبواق وابتسام الناس في وجوه الغرباء ومسامحة الأعداء؟)

وحتى الأمراض التي لم تندثر بعد يتم القضاء عليها بنسبةٍ كبيرة، فبين عامي 2000 و2015 مثلًا انخفض عدد الوفيات بفعل الملاريا (التي كانت تتسبب في الماضي في وفاة نصف الأشخاص الذين عاشوا على وجه الأرض) بنسبة 60 في المئة. تبنَّت منظمة الصحة العالمية خطة لخفض المعدل بنسبة 90 في المئة أخرى بحلول عام 2030، والحد منها في الدول التي تستوطنها اليوم والتي يتراوح عددها بين 35 و97 دولة (تمامًا كما حدث منها في الولايات المتحدة التي كانت تستوطنها حتى عام 1951)، وتبنَّت مؤسسة بيل وميليندا جيتس هدف القضاء عليها تمامًا. وكما رأينا في الفصل الخامس، كان فيروس نقص المناعة البشري المكتسب (HIV)/الإيدز في تسعينيات القرن الماضي في أفريقيا يمثِّل انتكاسة للتقدم الذي حققته الإنسانية في إطالة المدى العمري، ولكنَّ الموازين انقلبت في العقد التالي، وانخفض المعدل العالمي لوفيات الأطفال بمقدار النصف، ممَّا شجَّع الأمم المتحدة في عام 2016 على الموافقة على خطةٍ لإنهاء مرض الإيدز (وليس بالضرورة القضاء على الفيروس) بحلول عام 2030. يوضِّح الشكل رقم 6-1 أنَّ العالم شهد انخفاضًا ضخمًا بين عامي 2000 و2013 في عدد الأطفال الذين يموتون بفعل أكثر خمسة أمراض معدية فتكًا، واستطاعت مكافحة الأمراض المعدية إجمالًا منذ عام 1990 إنقاذ حياة أكثر من مئة مليون طفل.



الشكل رقم 6- 1: معدل وفيات الأطفال بفعل الأمراض المعدية منذ 2000 حتى 2013

المصدر: Child Health Epidemiology Reference Group of the World Health Organization, Liu et al. 2014, supplementary appendix.

وفي أكثر الخطط طموحًا على الإطلاق، وضع فريقٌ من خبراء الصحة بقيادة الاقتصاديان دين جايمسون ولورانس سامرز خريطة طريق «التقارب الكبير في الصحة العالمية» بحلول عام 2035، حيث يتوقّع أن تكونَ معدلات الوفيات الناتجة عن الأمراض المعدية، ووفيات الأمهات والأطفال، في كل مكانٍ في العالم، قد انخفضت إلى مستوياتها الموجودة اليوم في الدول متوسطة الدخل التي تتمتع بأفضل صحةٍ.

وبقدر ما هو الهجوم على الأمراض المعدية في أوروبا وأمريكا مذهل، فإنّ التقدم المتواصل في الدول الفقيرة على مستوى العالم أكثر إبهارًا، ويكمُن جزءٌ من السبب في التنمية الاقتصادية (الفصل الثامن)، لأنَّ العالم الأغنى عالمٌ أكثر صحة، ويكمُن جزءٌ آخر في دائرة التعاطف الممتدة، التي ألهمت قادة العالم مثل بيل جيتس وجيمي كارتر وبيل كلينتون لجعل الإرث الذي سيخلِّفونه هو صحة الفقراء في قاراتٍ بعيدة عوضًا عن مبانٍ برَّاقة في أوطانهم، وأثنى على جورج بوش الابن حتى أشد منتقديه بسبب سياسته في الإغاثة من الإيدز في أفريقيا، التي أنقذت حياة الملايين.

ولكنّ المساهم الأقوى هو العلم، وكما يقول ديتون: «المعرفة هي السر، أما الدخل –رغم أهميته لذاته ولكونه أحد مكونات الرفاهة أيضا– فليس هو السبب الأكبر في الرفاهة». لا تقتصر ثمار العلم على المستحضرات الدوائية عالية التقنية مثل اللقاحات والمضادات الحيوية ومضادات الفيروسات القهقرية وأقراص طرد الديدان، ولكنَّها تتكون أيضًا من أفكارٍ، أفكارٍ قد تبدو بأثر رجعي واضحة ويبدو تنفيذها منخفض التكلفة، ولكنّها أنقذت حياة الملايين، ومن الأمثلة على ذلك غلي المياه أو تنقيتها أو إضافة الكلور إليها، وغسل

الأيدي، وإعطاء مكملات اليود للحوامل، وإرضاع حديثي الولادة رضاعةً طبيعية واحتضانهم، والتغوط في المرحاض بدلًا من الحقول والشوارع والممرات المائية، وحماية الأطفال أثناء نومهم بناموسيات معالجة بالمبيدات الحشرية، وعلاج الإسهال بمحلولٍ من الملح والسكر المذابين في مياه نظيفة. وفي المقابل، قد ينتكس التقدم بفعل الأفكار السيئة، مثل نظرية المؤامرة التي نشرتها جماعتا طالبان وبوكو حرام، التي تقول إنَّ اللقاحات تعقِّم الفتيات المسلمات، أو التي نشرها النشطاء الأمريكيون المرفهون والتي تقول إنَّها تسبِّب التوحُّد، ويذكر ديتون أنَّه حتى الفكرة التي تقع في مركز مفهوم التنوير –أنَّ المعرفة تجعلنا أفضل– ربما تُمثِّل اكتشافًا في بعض أنحاء العالم حيث استسلم الناس لضعف صحتهم ولم يحلموا قط بأنَّ التغيير في مؤسساتهم وأعرافهم قد يحسِّنها.

الفصل السابع:
المعيشة

فضلاً عن الشيخوخة والولادة ومسبّبات الأمراض، فقد خدعنا كلٌّ من التطور والإنتروبيا خدعةً شريرةً أخرى، وهي حاجتنا غير المنقطعة إلى الطاقة. لطالما شكَّلت المجاعة جزءًا من الحالة البشرية، فالكتاب المقدس العبري يحكي عن «سبع سنينٍ من الجوع» –أي السنوات العجاف– في مصر، ويحكي الإنجيل المسيحي عن المجاعة بوصفها أحد فرسان الرؤيا الأربع. وحتى بعد وقتٍ طويل من بداية القرن التاسع عشر، كان فساد المحصول بإمكانه أن يجلب البؤس إلى أغنى أنحاء العالم، يقتبس يوهان نوربرج ذكرى طفولة أحد المعاصرين لأحد أسلافه في شتاء عام 1868 في السويد فيقول:

> "كنا كثيرًا ما نرى إحدى الأمّهات تبكي وحدها، وكان يعزُّ على أيّ أم ألا يكون لديها أي طعام تقدمه لأطفالها الجائعين، وكنا كثيرًا ما نرى الأطفال الجوعى الهزيلين ينتقلون من مزرعةٍ إلى أخرى يتسولون بضع لقيمات من الخبز. وقد جاء إلينا في أحد الأيام ثلاثة أطفال يبكون ويتسولون شيئًا لسد جوعهم، ومع الأسف، فقد اضطرت أمّنا، والدموع تملأ عينيها، إلى أن تخبرهم بأننا لا نملك سوى بضع لقيمات من الخبز وأننا نحتاج إليها. عندما رأينا نحن الأطفال الكَرَب في عيون الأطفال المجهولين المتوسلة، انفجرنا في البكاء وتوسّلنا إلى أمنا أن تقاسمهم الفتات الذي نملكه. انصاعت إلى طلبنا بعد ترددٍ، التهم الأطفال المجهولون الطعام ثم مضوا في طريقهم إلى المزرعة التالية، والتي كانت تبعد كثيرًا عن منزلنا، وفي اليوم التالي، عُثر على جثثهم الثلاثة في الطريق بين مزرعتنا والمزرعة التالية."

وثق المؤرخ فرناند براودل أنَّ أوروبا قبل الحداثة كانت تعاني من المجاعات كل بضعة عقود، وكان الفلاحون اليائسون يحصدون الحبوب قبل نضجها، ويأكلون الأعشاب أو لحم البشر، ويذهبون إلى المدن للتسول. وحتى في أوقات الرخاء، كان كثيرٌ منهم يحصلون على أغلب سعراتهم الحرارية من كمية قليلة من الخبز أو العصيدة، وفي كتابه **الهروب من الجوع والموت المبكر** (*The Escape from Hunger and Premature Death, 1700–2100*)، ذكر الاقتصادي روبرت فوجل (Robert Fogel) أنَّ «مقدار الطاقة في النظام الغذائي العادي في فرنسا عند بداية القرن الثامن عشر كان قليلًا لدرجةٍ تماثل ما كان عليه الوضع في النظام الغذائي العادي في رواندا في عام 1965، حيث كانت رواندا أسوأ الدول تغذيةً في ذلك العام». كان كثيرٌ ممن لا يتضورون جوعًا أضعف من أن يستطيعوا العمل، مما حكم عليهم بالفقر، وكان الأوروبيون الجائعون يداعبون مشاعرهم بخيالات مثيرة عن الطعام، كحكاياتٍ عن أرض كوكين التي تنمو فيها فطائر «البان كيك» على الأشجار، وتكون فيها الشوارع ممهدة بالمعجنات، وتتجول فيها الخنازير المشوية بسكاكينٍ في ظهورها ليسهل تقطيعها، ويقفز فيها السمك المطهي من الماء ليقع تحت أرجل البشر.

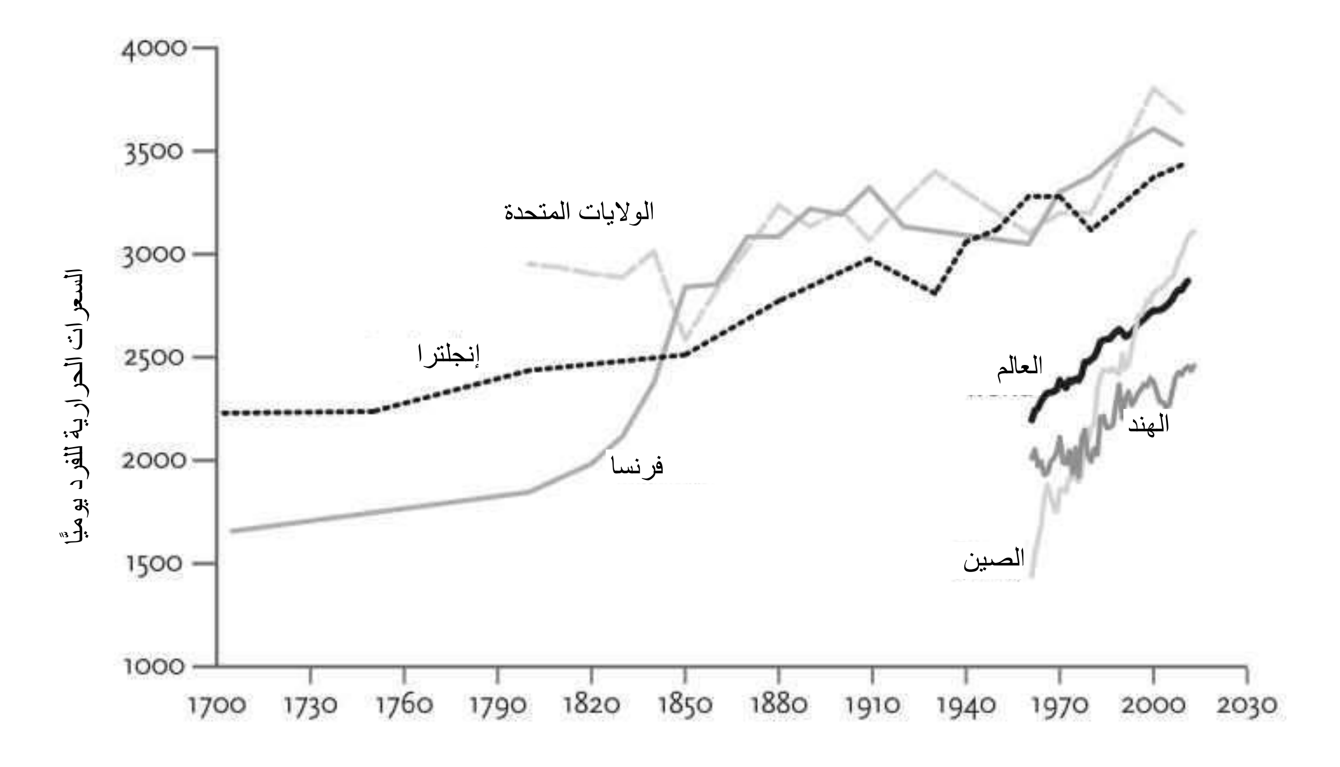
نحن نعيش اليوم في أرض كوكين، ولا تكمُن مشكلتنا في قلة السعرات الحرارية وإنما في وفرتها، فكما ذكر الممثل الكوميدي كريس روك: «هذا أول مجتمع في التاريخ يكون فيه الفقراء بدناء». يتذمر النقاد الاجتماعيون للمجتمع الحديث من وباء السمنة المفرطة بغضبٍ ربما يتناسب مع المجاعة على سبيل المثال، بنكران الجميل المعهود من العالم الأول (وهذا عندما لا يتذمرون من وصم البدناء، أو عارضات الموضة النحيفات، أو اضطرابات الأكل)، ورغم أنَّ السمنة المفرطة تُعد بالطبع مشكلة صحية عامة، ولكنها مشكلة جيدة بالنظر إلى

مقاييس التاريخ.

ماذا عن بقية العالم؟ إنَّ الجوع الذي يربطه كثيرٌ من الغربيين بأفريقيا وآسيا ليس ظاهرةً حديثة بأي شكلٍ من الأشكال، فلطالما كانت كلٌّ من الهند والصين عرضةً للمجاعات، لأنَّ ملايين الناس كانوا يقتاتون على الأرز الذي كان يُروى في مواسمٍ غير منتظمة أو بأنظمة ري هشة وكان يجب نقله مسافات كبيرة. يحكي براودل شهادة تاجر هولندي كان في الهند أثناء إحدى المجاعات في عامي 1630 و1631، فيقول:

«هجر الناس البلدات والقرى وهاموا على وجوههم عاجزين عن أي شيء، وكان يسهل إدراك حالتهم، فكانت أعينهم غائرة إلى الداخل، وشفاههم شاحبة ومغطاة بمادة لزجة، وجلدهم جاف، وعظامهم بارزة، وبطونهم ليست سوى جراباً فارغًا متدليًّا.. كان أحدهم يبكي وينوح جوعًا، ويتمدد الآخر جواره على الأرض محتضرًا بمأساوية». وكان يتبع ذلك كل المآسي الإنسانية المألوفة، فكان الآباء يهجرون الزوجات والأطفال، ويبيعون أطفالهم، وقد يبيعون أنفسهم بهدف النجاة، وكان الناس ينتحرون انتحارًا جماعيًّا.. ثم جاءت مرحلة شقَّ فيها الجائعون بطون الموتى أو المحتضرين «ونزعوا الأحشاء لملء بطونهم». «مات مئات الآلاف جوعًا، فكان البلد بأكمله مغطى بالجثث المتناثرة دون أن تُدفن، مما بعث رائحة نتنة في الجو لدرجةٍ ملأت الهواء كله وأصابته.. في قرية سوسونترا.. كان لحم البشر يُباع في السوق المفتوحة».

ولكنَّ العالم في الأزمنة الحديثة نَعِمَ بتقدُّمٍ جدير بالملاحظة، ولكنّه غير ملحوظ، فرغم أعداد سكان العالم النامي المتزايدة، إلا أنّه قادر على إطعام نفسه، ويتضح هذا أكثر في الصين، التي يستطيع كلٌّ من سكانها الذين يبلغ عددهم 1.3 مليار نسمة الحصول على متوسط 3100 سعر حراري في اليوم، وهو العدد الذي يحتاج إليه شابٌ شديد النشاط وفقًا لإرشادات الحكومة الأمريكية، بينما يحصل سكان الهند الذين يبلغ عددهم المليار نسمة على متوسط 2400 سعر حراري، وهو العدد الموصى به لشابةٍ شديدة النشاط أو رجل نشيط في منتصف العمر، ويتراوح الرقم الخاص بأفريقيا بين الاثنين بمتوسط 2600 سعر حراري. يظهر الشكل رقم 7–1، الذي يحدد بالرسم عدد السعرات الحرارية المتاحة لعيّنة تمثيلية من الدول المتقدمة والنامية وعن العالم كله، نمطًا مألوفًا يشبه الرسوم البيانية السابقة، حيث توجد مصاعب في كل مكان قبل القرن التاسع عشر، فيما يظهرُ تحسّنٌ سريع في أوروبا والولايات المتحدة على مدار العقدين التاليين له، ثم يلحق بهما بقية العالم في العقود الأخيرة.

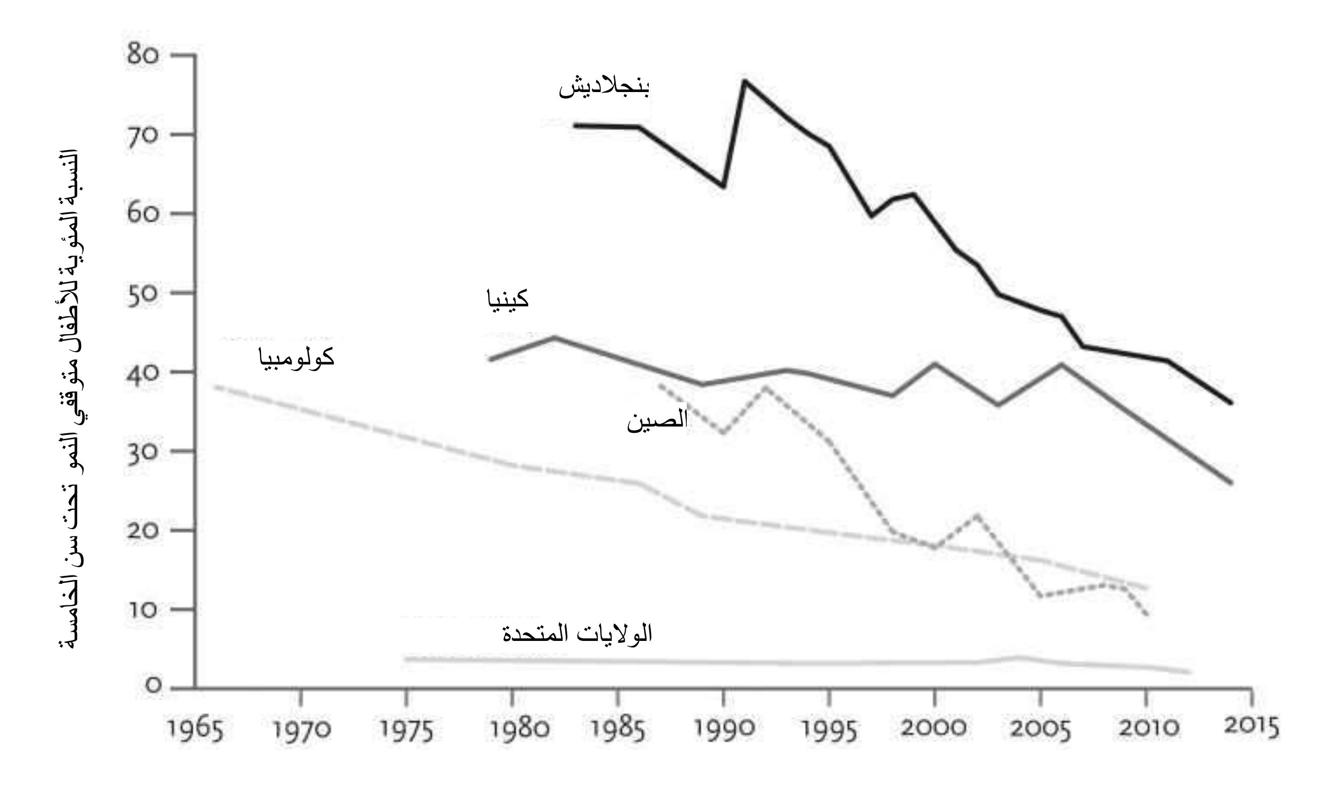


الشكل رقم 7– 1: السعرات الحرارية منذ 1700 حتى 2013

المصادر: لبيانات الولايات المتحدة وإنجلترا وفرنسا: *Our World in Data*، روزر d2016، بناءً على بيانات من فوجل 2004. لبيانات الصين والهند والعالم: منظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة (الفاو)، http://www.fao.org/faostat/en/#data.

إنّ الأرقام المحددة في الشكل رقم 7–1 هي متوسط القيم، وكانت ستكون مؤشرًا مُضللًا على الرفاهة لو أنها كانت تزيد بسبب استهلاك الأغنياء سعرات حرارية أكثر (وإذا لم يكُن أحدٌ يزداد وزنًا سوى ماما كاس*). ولكنَّ الأرقام، لحسن الحظ، تعكس زيادةً في السعرات الحرارية المتاحة ضمن هذا النطاق، بما يشمل أقل نقاطه. عندما تنقص تغذية الأطفال، يتوقف نموهم، ويكونون طوال حياتهم أكثر عرضة للإصابة بالأمراض والوفاة، ويوضِّح الشكل رقم 7–2 نسبة الأطفال الذين يتوقف نموهم في عينة تمثيلية من الدول التي لديها بيانات على مدار أطول فترات زمنية. ورغم أنَّ نسبة الأطفال متوقفي النمو في الدول الفقيرة مثل كينيا وبنجلاديش مؤسفة، إلَّا أنَّنا نرى أنَّ معدل توقف النمو قد انخفض بمقدار النصف خلال عقدين فقط، وقد كانت دولٌ أخرى مثل كولومبيا والصين أيضًا تعاني من معدلات مرتفعة من توقف النمو حتى وقتٍ قريب، واستطاعت تخفيضها أكثر من ذلك.

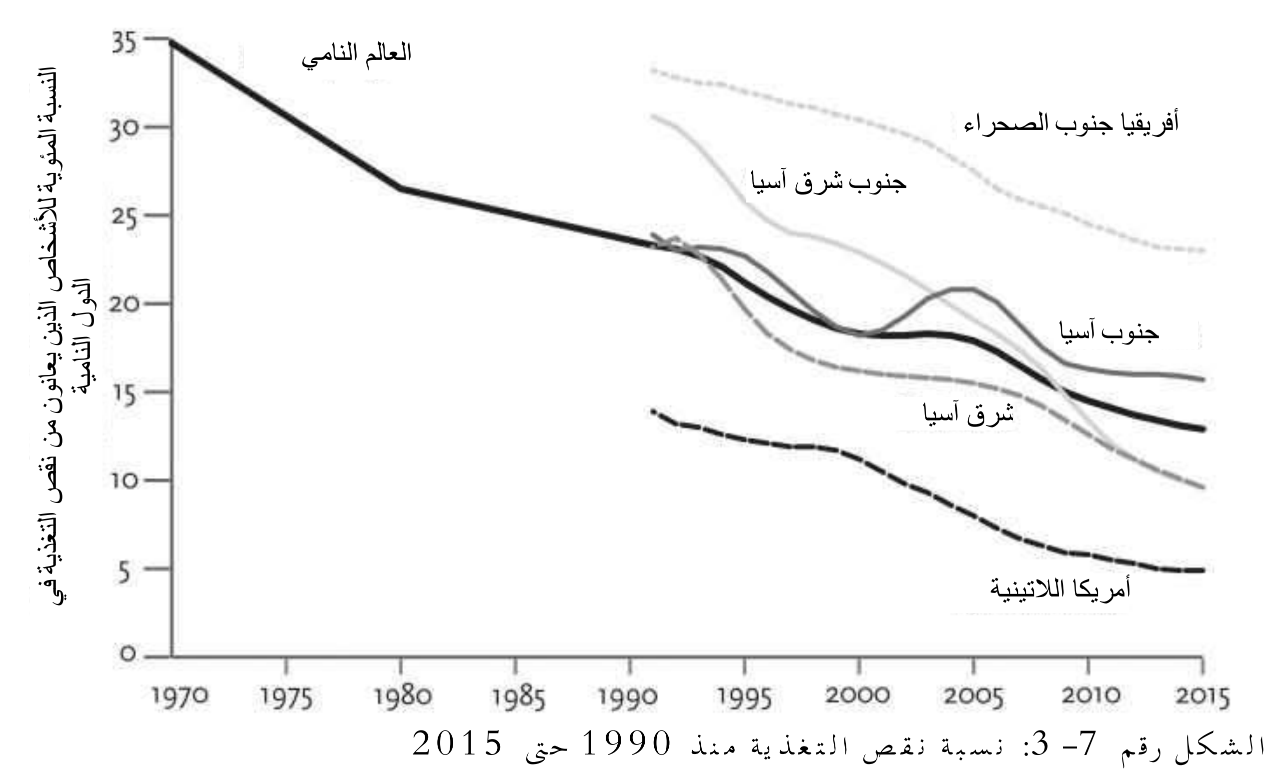
*ماما كاس (كاس إليوت) هي مطربة وممثلة أمريكية، واقتبس الكاتب عبارة من كلمات إحدى أغنياتها التي تقول فيها: No one’s getting fat except Mama Cass. - المترجمة



الشكل رقم 7- 2: نسبة توقف نمو الأطفال منذ 1966 حتى 2014

المصدر: *Our World in Data*، روزر 2016j، بناءً على بيانات من منظمة الصحة العالمية *Nutrition Landscape Information System*, http://www.who.int/nutrition/nlis/en/.

يقدم الشكل رقم 7-3 نظرةً أخرى على كيفية إطعام العالم للجائعين، ويوضح معدّل نقص التغذية (قضاء عامٍ أو أكثر على كميّة طعامٍ غير كافية) في الدول النامية في خمس مناطق، وفي العالم أجمع.

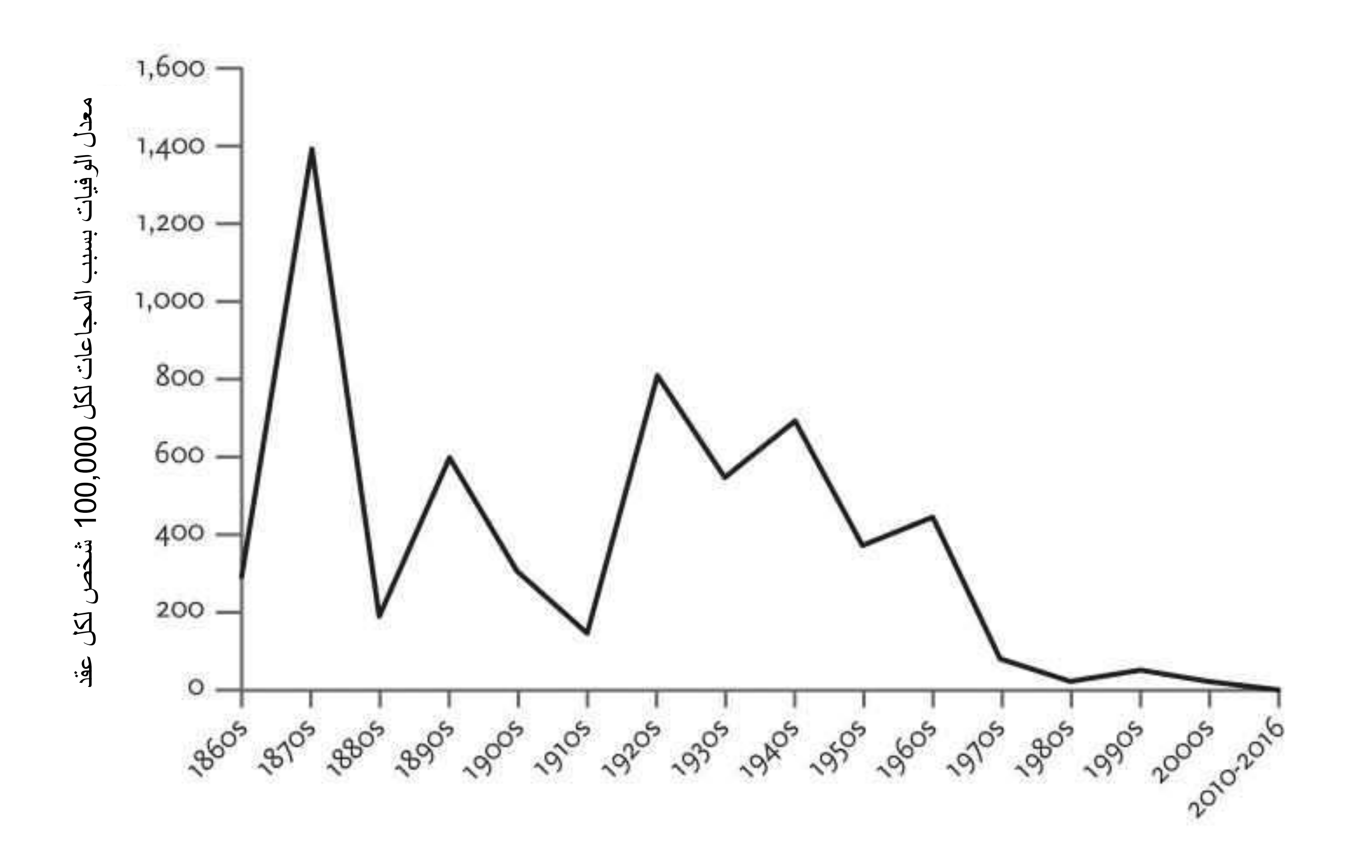


الشكل رقم 7- 3: نسبة نقص التغذية منذ 1990 حتى 2015

المصدر: *Our World in Data*، روزر 2016j، بناءً على بيانات من منظمة الأغذية والزراعة 2014، والمذكورة أيضًا في الرابط التالي http://www.fao.org/economic/ess/ess-fs/ess-fadata/en/.

كان معدل نقص التغذية في الدول المتقدمة، التي لا تشملها هذه التقديرات، أقل من 5 في المئة خلال هذه الفترة بأكملها، وهي نسبة لا تُذكر إحصائيًّا. ورغم أنَّ 13 في المئة من سكان العالم النامي يعانون من نقص التغذية، وهي نسبة كبيرة جدًّا، إلا أنها أفضل من 35 في المئة التي كانت نسبة الذين يعانون من نقص التغذية قبل خمسة وأربعين سنة، أو 50 في المئة التي كانت نسبتهم التقديرية في العالم بأكمله عام 1947 (وهذا العام غير مذكور في الرسم البياني). تَذكَّر أنَّ هذه الأرقام عبارة عن نسب، فقد زاد عدد سكان العالم بخمسة مليار شخصٍ تقريبًا خلال تلك السنوات السبعين، مما يعني أنَّ العالم بينما كان يخفِّض معدل الجوع، كان في الوقت نفسه يُطعم مليارات الأفواه الإضافية.

لم تتراجع معدلات نقص التغذية المزمنة فحسب، بل تراجعت أيضًا المجاعات الكارثية، وهي الكوارث التي تقتل الناس بأعدادٍ كبيرة وتتسبَّب في انتشار الهزال (وهي الحالة التي يكون فيها المرء أقل من وزنه المتوقع بمقدار قيمتي انحراف معياري) والكواشيوركور (مرض نقص البروتين الذي تسبَّب في انتفاخ بطون الأطفال في الصور التي أصبحت رمزًا للمجاعة). يوضِّح الشكل رقم 7-4 عدد الوفيات في المجاعات الكبرى في كل عقدٍ خلال المئة وخمسين عامًا الماضية، بالنسبة إلى تعداد سكان العالم في ذلك الوقت.



الشكل رقم 7- 4: معدل الوفيات بسبب المجاعات منذ 1860 حتى 2016

المصدر: *Our World in Data*، هاسل وروزر 2017، بناءً على بيانات من Devereux 2000، و Ó Gráda 2009، وWhite 2011، وEM-DAT، *The International Disaster Database* (قاعدة البيانات الدولية للكوارث)، /http://www.emdat.be، ومصادر أخرى. نعرِّف «المجاعة» كما يعرفها المصدر Ó Gráda 2009.

كتب الاقتصادي ستيفن ديفرو في عام 2000 يلخص التقدُّم الذي أحرزه العالم في القرن العشرين، فقال:

«يبدو أنه قد تم القضاء افتراضيًّا على إمكانية حدوث المجاعات في كل المناطق خارج أفريقيا.. ويبدو أنَّ مشكلة المجاعة بوصفها مشكلة مستوطنة في آسيا وأوروبا قد أصبحت في طيات التاريخ، فقد سقط لقب «أرض المجاعة» المقيت عن الصين وروسيا والهند وبنجلاديش، والتصق منذ سبعينيات القرن الماضي بإثيوبيا والسودان فقط.

إضافةً إلى ذلك، فقد انقطع الرابط بين فساد المحصول والمجاعة، إذ تمت مواجهة أزمات الطعام الأخيرة الناتجة عن الجفاف أو الفيضانات بمساعدات إنسانية محلية ودولية.

وإذا تواصل هذا الاتجاه، فسينتهي القرن العشرون وهو يحمل صفة القرن الأخير الذي مات فيه عشرات الملايين بسبب نقص الطعام.

وهذا الاتجاه حتى الآن في تواصل، ما زال هناك جوع حتى بين الفقراء في الدول المتقدمة أيضًا، وكانت هناك مجاعات في شرق أفريقيا عام 2011 وفي الساحل الأفريقي في 2012 وفي جنوب السودان في 2016، ومجاعات وشيكة في الصومال ونيجيريا واليمن،

ولكنها لم تتسبب في وفاة أشخاص بنفس قدر الكوارث التي كانت أحداثاً عادية في القرون السابقة.

لم يكُن من المفترض أن يحدث أيٌّ من هذا، ففي عام 1798 أوضح توماس مالتوس أنَّ المجاعات المتكررة في عصره كانت حتمية لا يمكن تجنبها وأنَّها ستزداد سوءًا لأنَّ «عدد السكان يتزايد عند تركه دون رقابة بمتوالية هندسية، في حين لا يتزايد «حد الكفاف» سوى بمتوالية حسابية (عددية). ستؤدي المعرفة البسيطة بالأرقام إلى فهم جسامة القوة الأولى مقارنةً بالثانية». يعني هذا ضمنًا أنَّ الجهود المبذولة لإطعام الجائعين لن تؤدي سوى إلى مزيدٍ من الشقاء، لأنهم سينجبون مزيدًا من الأطفال المحكوم عليهم بالجوع أيضًا بدورهم.

انتعش الفكر المالتوسي –نسبةً إلى توماس مالتوس– منذ وقتٍ قريب بحماسٍ شديد، ففي عام 1967 ألف كلٌّ من ويليام وبول بادوك (William and Paul Paddock) كتاب **المجاعة 1975** (*Famine 1975*)، وفي عام 1968 ألَّف عالم الأحياء بول إيرليش (Paul R. Ehrlich) كتاب **القنبلة السكانية**(*The Population Bomb*) الذي أعلن فيه أنَّ «معركة إطعام كل البشرية قد انتهت» وتنبأ أنَّ 65 مليون أمريكي و4 ملايين آخرين سيتضورون جوعًا حتى الموت بحلول الثمانينيات. عرف قراء مجلة نيويورك تايمز لأول مرة المصطلح المستخدم في المعارك **الفرز** (*triage*) وهو ممارسة تتم في حالات الطوارئ، إذ يتم فرز الجرحى من الجنود إلى قابلين للإنقاذ وهالكين، وعرفوا أيضًا حججًا فلسفية حول ما إذا كان من المقبول أخلاقيًّا الإلقاء بشخصٍ من مركب إنقاذ مزدحم لحمايته من الانقلاب والتسبب في غرق الجميع. دافع إيرليش ونشطاء بيئيون آخرون عن وقف المساعدات الغذائية عن الدول التي اعتبروها حالاتٍ ميؤوسًا منها. أحبط روبرت ماكنمارا، رئيس البنك الدولي منذ عام 1968 حتى 1981، فكرة تمويل الرعاية الصحية «إلا إذا ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بتنظيم السكان، لأنَّ المرافق الصحية تسهم عادةً في تراجع معدلات الوفيات، وبالتالي في الانفجار السكاني»، وأجبرت برامج تنظيم السكان في الهند والصين (وخاصةً في ظل سياسة الطفل الواحد التي اتبعتها الصين) النساء على الخضوع لعمليات التعقيم والإجهاض وزرع أجهزة اللولب الرحمي المؤلمة والمسببة لإنتان الدم.

أين أخطأ مالتوس في حساباته؟ بالنظر إلى أول منحنى ذكره، رأينا بالفعل أنَّ النمو السكاني لا يتزايد بالضرورة بمتوالية هندسية إلى ما لا نهاية، لأنَّ الناس عندما يزدادون غنى وينجو المزيد من صغارهم، ينجبون أطفالًا أقل. وفي المقابل، لا تؤدي المجاعات إلى خفض النمو السكاني لفترةٍ طويلة، فهي تقتل الأطفال والمسنين بشكلٍ غير متناسب، وعندما تتحسن الأوضاع، سرعان ما يعوِّض الناجون تعداد السكان، فكما قال هانس روزلينج: «لا يمكنك وقف النمو السكاني بترك الأطفال الفقراء يموتون».

وبالنظر إلى المنحنى الثاني، سنكتشف أنَّ الإمداد من الطعام يمكن أن ينمو بمتوالية هندسية عند تطبيق المعرفة في زيادة كمية الغذاء التي يمكن الحصول عليها من رقعة من الأرض. يقوم البشر بتعديل النباتات والحيوانات جينيًّا منذ نشأة الزراعة قبل عشرة آلاف سنة عن طريق القيام بالتناسل الانتقائي لتلك التي تحتوي على سعرات حرارية أكثر ومستوى سمّية أقل ويسهل زرعها وحصادها. كان السَلَف البري لنبات الذرة عشبًا له بضع بذور قوية، وكان شكل سَلَف الجزر وطعمه يشبه الهندباء البرية، وكانت أسلاف العديد من الفواكه مريرة ولاذعة وتغلب عليها البذور الصلبة بدلًا من اللب الطري، وتلاعب المزارعون الماهرون بالري والمحاريث والأسمدة العضوية، ولكنَّ مالتوس كان لديه القول الفصل دائمًا!

لم يعرف الناس كيف يوجِّهون هذا المنحنى إلى الأعلى سوى في عصر التنوير والثورة الصناعية في رواية جوناثان سويفت الصادرة عام 1726، قال ملك بروبدنجناج لجوليفر: «من يُنبِت عودين من الذرة بدلًا من عودٍ واحد أو ورقتين من النبات بدلًا من ورقة واحدة يستحق أفضل ما لدى البشرية، ويقدم لبلده خدمة حيوية أكثر مما يفعل الساسة كلهم مجتمعين». وكما يوضِّح لنا الشكل رقم 7–1،

فقد نبت بالفعل المزيد من أعواد الذرة، فيما أطلق عليه الثورة الزراعية البريطانية، وبعد تطبيق الدورة الزراعية للمحاصيل وإجراء تحسينات على المحاريث وآلات زرع البذور، ظهرت الميكنة، فحل الوقود الأحفوري محل العضلات البشرية والحيوانية. في منتصف القرن التاسع عشر، كان حصاد طن من الحبوب وطحنه يستغرق يومًا كاملًا من خمسة وعشرين رجلًا، أما اليوم فيمكن أن يفعل هذا شخصٌ واحد يشغِّل الحصَّادة في ست دقائق.

تحل الآلات أيضًا إحدى المشاكل الملازمة للغذاء، فكما يعرف أي شخص يزرع الكوسا في أغسطس، فإنّ الكثير من المحصول يصبح متوفرًا مرة واحدة، ثم سرعان ما يفسد أو تأكله الآفات، ولكنَّ توفر السكك الحديدية والقنوات والشاحنات ومستودعات الحبوب والتبريد وازن بين فترات ذروة العرض وفترات انخفاضه، وواءمها مع الطلب، ونسّقها بالمعلومات التي تعبر عنها الأسعار. ولكنَّ الدفعة الهائلة حقًّا جاءت من الكيمياء، يرمز حرف الـ N في الرمز SPONCH، وهو اختصار للعناصر الكيميائية التي تشكِّل الجزء الأكبر من أجسامنا، إلى النيتروجين، وهو أحد المكونات الرئيسية للبروتين والحمض النووي والكلوروفيل والأدينوسين ثلاثي الفوسفات ناقل الطاقة. توجد ذرات النيتروجين بوفرة في الجو ولكنَّها ترتبط في ثنائيات (ومن هنا جاءت الصيغة الكيميائية N_2) يصعب فصلها كي تستطيع النباتات استخدامها. أتقن كارل بوش في عام 1909 العملية التي اخترعها فريتز هاربر، التي استخدمت الميثان والبخار لاستخراج النيتروجين من الهواء وتحويله إلى سمادٍ على نطاقٍ صناعي، ليحل محل الكميات الهائلة من فضلات الطيور التي كانوا يحتاجون إليها قبل ذلك لإعادة النيتروجين إلى التربة المستنزفة. يأتي هذان الكيميائيان على قمة قائمة علماء القرن العشرين الذين أنقذوا حياة أكبر عدد من الناس في التاريخ، وهذا العدد هو 2.7 مليار شخص.

لذا انسَ المتوالية الحسابية، ففي القرن الماضي، ازدادت محاصيل الحبوب باندفاعٍ شديد بينما انخفضت الأسعار الفعلية انخفاضًا كبيرًا، فمقدار التوفير الذي حدث مذهل، ولو كان الغذاء المزروع اليوم قد زُرِع بتقنيات الزراعة التي سبقت النيتروجين، لكنا احتجنا إلى أرض بمساحة روسيا مثلًا. كان الأجر في الساعة في الولايات المتحدة في عام 1901 يعادل حوالي ثلاثة أرباع جالونٍ من الحليب (أي ما يقرب من 3 لترات)، وبعد قرنٍ، أصبح الأجر نفسه يعادل 15 لترًا. وتضاعف كذلك المقدار الذي يمكن شراؤه من أي غذاء آخر بأجر ساعةٍ من العمل، من رطل من الزبدة إلى خمسة أرطال، ومن دستة بيض إلى اثنتي عشرة دستة، ومن رطلين من لحم الخنزير إلى خمسة أرطال، ومن تسعة أرطال من الدقيق إلى تسعة وأربعين رطلًا.

تفوّق نورمان بورلوج، وهو واحد من الذين أنقذوا حياة الكثيرين، في الخمسينيات والستينيات، على التطور لإطلاق الثورة الخضراء في العالم النامي. تستثمر النباتات بطبيعتها كثيرًا من الطاقة والمواد الغذائية في سيقانها الخشبية التي تحمل أوراقها وزهورها وترفعها أعلى من ظل الحشائش المجاورة بعضها لبعض، ومثل الجمهور في حفلات الروك، يقف الجميع ولكن لا يرى أحدٌ أفضل من غيره. وهكذا يعمل التطور، فهو ينتقي بقصر نظرٍ لصالح المزايا الفردية، وليس للصالح العام للنوع، ولا لصالح الأنواع الأخرى، فمن وجهة نظر المزارع، لا تكتفي نباتات القمح الطويلة بإهدار الطاقة في السيقان الخشبية فحسب، بل وعندما تخصّبها الأسمدة فإنها تنهار بسبب وزن البذور الثقيل. تحكّم بورلوج في التطور، فهجَّن الآلاف من سلالات القمح، ثم انتقى النسل ذا السيقان القصيرة والغلال الكثيرة والمقاوم للصدأ والذي لا يتأثر بطول اليوم، وبعد عدة سنوات من هذا العمل الممل المجهد للذهن، طوَّر بورلوج سلالات من القمح (ثم الذرة والأرز) تنتج غلالًا أكثر من أسلافها بعدة أضعاف. وعبر جمع هذه السلالات بالتقنيات الحديثة في الري والتسميد وإدارة المحاصيل، حوَّل بورلوج المكسيك ثم الهند وباكستان ودولًا أخرى كانت عُرضة للمجاعات، إلى دول مصدِّرة للحبوب بين ليلةٍ وضحاها. تواصلت الثورة الخضراء –التي أشير إليها بأنها السر الأفريقي الدفين– مدفوعةً بالتحسينات التي تجرى على السورغم والدُّخن والكسافا والدرنات.

بفضل الثورة الخضراء، أصبح العالم يحتاج إلى مساحة من الأرض أقل بمقدار الثُلث من المساحة التي كان يحتاج إليها من قبل لإنتاج مقدارٍ ما من الغذاء، وللتعبير بطريقةٍ أخرى عن تلك النعمة يمكن أن نقول إنَّ مساحة الأرض المستخدمة لزراعة الأغذية زادت بين عامي 1961 و2009 بنسبة 12 في المئة، ولكنَّ مقدار الغذاء الذي تمت زراعته زاد بنسبة 300 في المئة. إضافةً إلى هزيمة الجوع، فإنَّ القدرة على زراعة المزيد من الغذاء باستهلاك مساحات أقل من الأرض كانت مفيدة للكوكب على وجه العموم. فعلى الرغم من السحر الريفي في المزارع، إلَّا أنَّها صحارى حيوية تزحف على المناظر الطبيعية على حساب الغابات والمروج الطبيعية، والآن بعد انحسار المزارع في بعض أنحاء العالم، بدأت الغابات المعتدلة في معاودة الظهور، وهي ظاهرة سنعود إليها في الفصل العاشر. لو كانت الكفاءة الزراعية قد ظلت في نفس مستواها على مدار الخمسين عامًا الماضية مع زراعة العالم مقدار الغذاء نفسه، لكنا اضطررنا إلى إجلاء مساحةٍ بحجم الولايات المتحدة وكندا والصين مجتمعات، وحرثها. وفق تقديرات عالم البيئة جيسي أوزوبيل، فالعالم قد بلغ ذروة الأراضي الزراعية، وربما لا نحتاج إلى مقدار ما نستخدمه اليوم من الأراضي الزراعية مطلقًا.

تعرضت الثورة الخضراء فور بدايتها إلى الهجوم مثل كل صور التقدّم التي أحرزتها البشرية، فقال المنتقدون إنَّ الزراعة عالية التقنية تستهلك وقودًا أحفوريًّا ومياهًا جوفية، وتستخدم مبيدات الأعشاب ومبيدات حشرية، وتخلّ بزراعة الكفاف التقليدية، وإنَّها غير طبيعية من الناحية الحيوية، وتولِّد أرباحًا للشركات. بالنظر إلى أنَّها أنقذت حياة مليار شخص وساعدت في الإلقاء بالمجاعات الكبرى في «مزبلة التاريخ»، فإنّ هذا الثمن يبدو لي مقبولًا، والأهم من ذلك، أنَّنا لن ندفع بالضرورة هذا الثمن إلى الأبد، فجمال التقدم العلمي يكمُن في أنَّه لا يتوقف بنا عند تكنولوجيا معينة، ولكنه يطور تكنولوجيات جديدة ذات مشاكل أقل من القديمة (وهي دينامية سنعود إليها في الفصل العاشر).

تستطيع الهندسة الوراثية الآن أن تحقق خلالَ أيام ما حققه المزارعون التقليديون في ألفيةٍ وما حققه بورلوج في سنوات من العمل «الممل المجهد للذهن»، إذ يجري تطوير محاصيل معدلة وراثيًّا لتنتج غلالًا أكثر وتحتوي على فيتامينات منقذة وتتحمل الجفاف والملوحة وتقاوم الأمراض والآفات والعطب وتقلل الحاجة إلى الأراضي والأسمدة والحرث، وشهدت مئات الدراسات وكل المنظمات العلمية والصحية الكبرى وأكثر من مئة فائز بجائزة نوبل على سلامتها (وهو أمر غير مفاجئ بما أنَّه لا وجود لمحاصيل غير معدلة جينيًّا). ومع ذلك شنَّت المجموعات البيئية التقليدية حملة شرسة تشبه الحملات الصليبية، فيما أطلق عليه الكاتب في الإيكولوجيا ستيوارت براند «لا مبالاة بالمجاعة»، من أجل منع المحاصيل المعدلة جينيًّا عن الناس، وليس عن محلات الذواقة التي تبيع الأغذية الكاملة في الدول الغنية فحسب، بل وعن المزارعين الفقراء في الدول النامية. تنطلق معارضتهم من التزامٍ بقيمةٍ مقدسة، وإن لم يكُن لها معنى في الحقيقة، وهي قيمة «الطبيعية»، وتدفعهم نحو استنكار «التلوث الجيني» و«التلاعب بالطبيعة» وترويج «الغذاء الحقيقي» القائم على «الزراعة الإيكولوجية»، واستغلوا الحدس البدائي بالماهية والتلوث لدى العامة غير المثقفة علميًّا. أظهرت دراسات محبطة أنَّ حوالي نصف العامة يعتقدون أنَّ الطماطم العادية لا تحتوي على جينات بينما تحتوي عليها الطماطم المعدلة وراثيًّا، وأنَّ الجين المضاف إلى الغذاء قد ينتقل إلى جينوم الأشخاص الذين يأكلونه، وأنَّ جين السبانخ عند إضافته إلى برتقالةٍ يجعل طعمها يشبه طعم السبانخ، وأيد 80 في المئة منهم إقرار قانون يلزم بوضع ملصقات على كل الأغذية التي «تحتوي على حمضٍ نووي». وكما قال براند: «أظن أنَّ الحركة البيئية قد تسببت بمعارضتها للهندسة الوراثية في أذى أكثر من أي شيء آخر أخطأنا بشأنه، فقد تسببنا في تجويع الناس، وإعاقة العلم، وأذى البيئة الطبيعية، وحرمنا ممارسي العلم من أداة ضرورية».

أحد أسباب قسوة حكم براند هو أنَّ معارضة المحاصيل المعدلة وراثيًّا كانت فعالة بصورةٍ مهلكة في أكثر جزءٍ من العالم يمكنه

الاستفادة منها، فقد ألقت الطبيعة على أفريقيا جنوب الصحراء لعنة التربة الرقيقة، وسقوط الأمطار بنمطٍ متقلب، وندرة الموانئ والأنهار الصالحة للملاحة، ولم تطور هذه المنطقة شبكة شاملة من الطرق أو السكك الحديدية أو القنوات، ومثل كل الأراضي المزروعة، استُنزفت تربتها، ولكن على عكس تلك الأراضي في بقية العالم، لم تُجدد أراضي أفريقيا بأسمدة صناعية. قد يتيح تبني المحاصيل المعدلة جينيًّا المستخدمة بالفعل وأيضًا المصممة خصيصًا لأفريقيا والتي تُزرع بأساليب حديثة أخرى مثل الزراعة بدون حرث والري بالتنقيط، لأفريقيا تجاوز الأساليب الأكثر انتشارًا التي ترجع إلى الثورة الخضراء الأولى والقضاء على ما تبقى لديها من نقص التغذية.

رغم أهمية العلوم الفلاحية، إلَّا أنَّ الأمن الغذائي لا يتعلق بالزراعة فحسب، إذ لا تحدث المجاعات فقط عندما يندر الغذاء، ولكنها تحدث أيضًا عندما لا يستطيع الناس تحمل تكلفته، أو عندما تمنع الجيوش الناس من الحصول عليه، أو عندما لا تهتم حكوماتهم بمقدار ما يحصلون عليه منه. يوضِّح الشكل رقم 7–4 أنَّ الانتصار على المجاعات لم يكُن عبارة عن تحقيق مكتسبات في الكفاءة الزراعية على وتيرة منتظمة، كانت المجاعات في القرن التاسع عشر ناجمة عن الجفاف ولفحات النبات المعتادة، ولكنها كانت تتفاقم في الهند وأفريقيا في حقبة الاستعمار بسبب الجمود والفشل والسياسات المتعمدة أحيانًا التي كان يطبقها المسؤولون الذين لم يهتموا برفاهة رعاياهم. وفي بداية القرن العشرين كانت السياسات الاستعمارية قد أصبحت أكثر تجاوبًا مع الأزمات الغذائية وكان التقدم المحرز في الزراعة قد اقتطع قسمًا كبيرًا من الجوع، ولكنَّ الكوارث السياسية المرعبة التالية تسببت في مجاعات متفرقة على مدار بقية القرن، فمن بين السبعين مليون شخصٍ الذين ماتوا خلال مجاعات القرن العشرين الكبرى، كان 80 في المئة منهم ضحايا سياسات الزراعة الجماعية الإجبارية والمصادرة الجزائية والتخطيط المركزي الشمولي التي طبقتها الأنظمة الشيوعية. ويشمل هذا المجاعات في الاتحاد السوفييتي في أعقاب الثورة الروسية والحرب الأهلية الروسية والحرب العالمية الثانية، والمجاعة الكبرى (هولودومور) التي أصابت أوكرانيا في عهد ستالين في عامي 1932 و1933، وقفزة ماو الكبرى إلى الأمام بين عامي 1958 و1961، وسنة الصفر التي أعلنها بول بوت بدءًا من 1975 حتى 1979، ومجاعة "مارس العصيب" في كوريا الشمالية في عهد كيم جونغ إل في أواخر التسعينيات، أي منذ وقتٍ قريب. طبَّقت الحكومات الأولى في حقبة ما بعد الاستعمار في أفريقيا وآسيا سياسات مسايرة للأيديولوجيات المتّبعة ولكنها كارثية من الناحية الاقتصادية، مثل الزراعة الجماعية، والقيود على الاستيراد لتعزيز «الاكتفاء الذاتي»، وتخفيض أسعار الغذاء بما يفيد سكان المدن ذوي النفوذ السياسي على حساب المزارعين. وعندما نشبت في هذه الدول حربٌ أهلية، كما حدث في أغلبها، لم ينتج عن ذلك خللٌ في توزيع الغذاء فحسب، بل كان الطرفان يستخدمان الجوع سلاحًا، بالتواطؤ أحيانًا مع رعاة الحرب الباردة.

لحسن الحظ، فمنذ التسعينيات، بدأت المتطلبات الضرورية لتحقيق الرخاء تتضح في أنحاء أكثر من العالم، وبمجرد الكشف عن أسرار زرع الغذاء بوفرةٍ وتوافر البنية التحتية اللازمة لنقله، يصبح تراجع المجاعات معتمدًا على تراجع معدلات الفقر والحرب والاستبداد. لننتقل إلى التقدم المحرز فيما يخص كلًّا من هذه المصائب.

الفصل الثامن:
الثروة

كتب الاقتصادي بيتر باور يقول: «ليس للفقر أسباب، أمَّا الثروة فلها أسبابها». في عالمٍ تحكمه الإنتروبيا والتطور، لا تُمهَّد الطرقُ بالمعجنات، ولا يقفز السمك المطهي ليقع تحت أرجلنا، ولكنّنا ننسى هذه البديهيات بسهولة، ونظن أن الثروة لطالما كانت مصاحبة لنا. إنّ التاريخ لا يكتبه المنتصرون، وإنما المترفون، تلك القلّة من البشر من ذوي الرفاهية والتعليم التي تسمح لهم بذلك، فكما أشار الاقتصادي ناثان روزنبرج والباحث القانوني إل. إي. بيردزل: «يدفعنا أحياناً إلى نسيان الشقاء المهيمن على الأزمنة الأخرى رونقُ الأدب والشعر والرومانسية والأساطير التي تحتفي بمن عاشوا في يُسرٍ في تلك الأزمنة ونسيت من عاشوا في صمت الفقر. فقد تم تحويل حقب الشقاء إلى أساطير خيالية وربما نتذكرها حتى بأنها عصور ذهبية من البساطة الريفية، ولكنها لم تكُن كذلك».

واستنادًا إلى ما قاله براودل، يعرض يوهان نوربرج صورًا موجزة لحقبة الشقاء، عندما كان تعريف الفقر بسيطًا: «إذا كنت تستطيع تحمّل تكلفة شراء الخبز لتحيا يومًا آخر، فإنّك لم تكُن فقيرًا».

> كان الفقراء يبيعون أنفسهم عبيدًا لاستخدامهم في التجديف في مدينة جنوة الثرية كل شتاء، وفي باريس كان شديدو الفقر يقيَّدون معًا بالسلاسل في أزواجٍ ويجبرون على عملٍ شاق كتنظيف المصارف، وفي إنجلترا كان الفقراء يضطرون إلى العمل في الإصلاحيات من أجل الحصول على الإعانات، فكانوا يعملون ساعات طويلة مقابل لا شيء تقريبًا، وكان بعضهم يؤمر بتحطيم عظام الكلاب والخيول والماشية لاستخدامها كأسمدة، حيث اتضح من تفتيشٍ على إحدى الإصلاحيات في عام 1845 أنَّ الفقراء المعدمين كانوا يتقاتلون على العظام المتعفنة كي يمتصوا نخاعها.

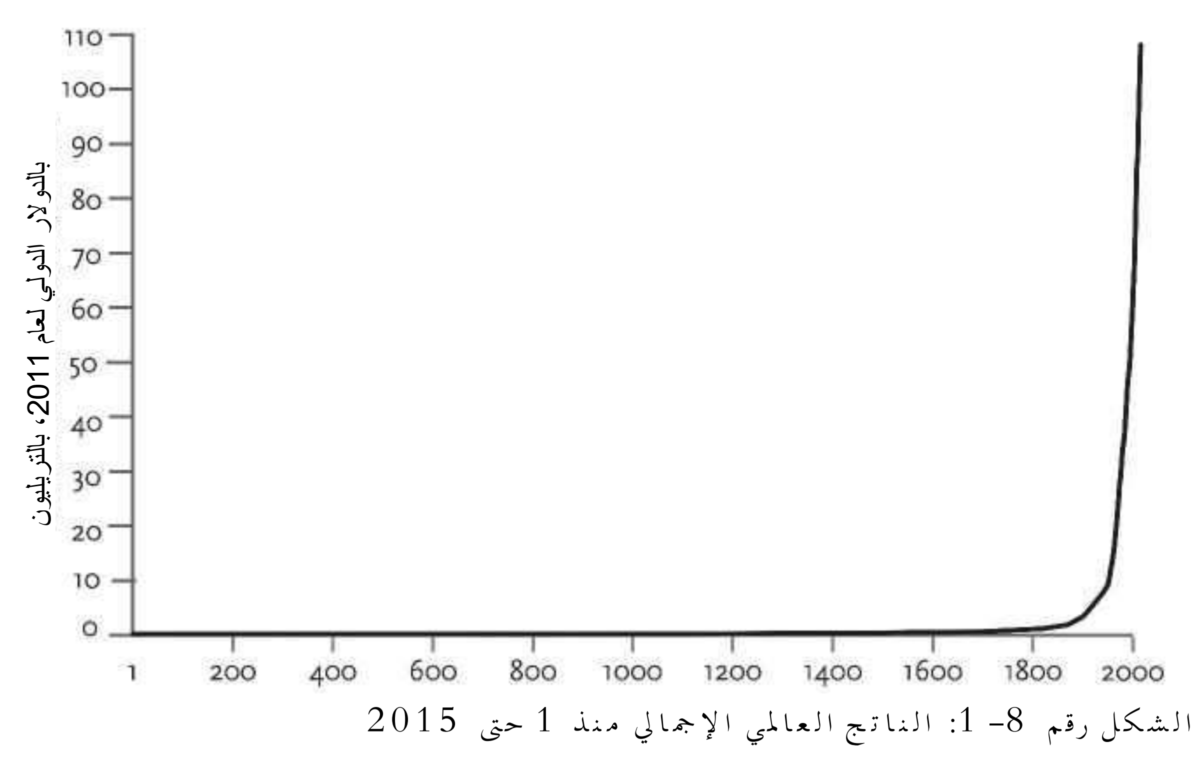
أشار كارلو تشيبولا، وهو مؤرخ آخر، إلى أنَّه:

> في أوروبا قبل الثورة الصناعية، كان شراء ثوبٍ أو القماش اللازم لصنع ثوبٍ ما زال يُعد رفاهية لا يستطيع عامة الناس تحمل تكلفتها سوى بضع مرات في حياتهم كلها. كانت إحدى الشواغل الرئيسية لإدارة المستشفيات ضمان عدم الاستيلاء على ملابس المتوفين ومنحها للورثة الشرعيين. وخلال فترة انتشار وباء الطاعون، كانت السلطات المحلية تكافح من أجل مصادرة ملابس الموتى وحرقها، فالناس كانوا ينتظرون موت الآخرين من أجل الاستيلاء على ملابسهم، وهو الأمر الذي كان يتسبب عمومًا في نشر الوباء.

مما يصعِّب الحاجة إلى شرح تكوين الثروة أكثر النقاشات السياسية داخل المجتمعات الحديثة حول ضرورة توزيع الثروة، وهو ما يفترض مسبقًا أنَّ هناك ثروة يمكن توزيعها أصلاً، فيتحدث الاقتصاديون عن «مغالطة الكتلة الإجمالية» أو «مغالطة المادية» التي تقول بوجود مقدار محدود من الثروة منذ بدء التاريخ، كعروق الذهب مثلًا، ويتقاتل الناس منذ ذلك الحين على كيفية تقسيمها. من بين بنات أفكار التنوير، إدراك أنَّ الثروة تُخلق، وهي تُخلق بالأساس بالمعرفة والتعاون، إذ يعمل الناس في شبكاتٍ على تنظيم المادة في أشكالٍ حدوثها من تلقاء نفسها مستبعد، ولكنها مفيدة، ويجمعون ثمار براعتهم وعملهم، والنتيجة المنطقية الجوهرية أيضًا أننا نستطيع اكتشاف

كيفية صنع المزيد منها.

يمكن التعبير عن تحمل الفقر والتحول إلى اليُسر في العصر الحديث في رسم بياني بسيط ومذهل، وهو يحدد مقياسًا معياريًا لتكوين الثروة على مدار الألفي عامٍ الماضية، وهو الناتج العالمي الإجمالي، مقيسًا بسعر الدولار الدولي لعام 2011. (الدولار الدولي هو وحدة افتراضية لعملة تعادل الدولار الأمريكي في سنة مرجعية محددة، وهو معدَّل لمراعاة التضخم وتعادل القوة الشرائية، التي تعوِّض عن الفروق في أسعار الخدمات والبضائع المتماثلة في أماكن مختلفة، مثل أنَّ سعر قصة الشعر في دكا أقل من سعرها في لندن).



الشكل رقم 8- 1: الناتج العالمي الإجمالي منذ 1 حتى 2015

المصدر: *Our World in Data*، Roser 2016c، بناءً على بيانات من البنك الدولي ومن آنجس ماديسون ومشروع ماديسون 2014.

إنَّ قصة نمو الرخاء في تاريخ البشر والتي يصوِّرها الشكل رقم 8-1 تقترب من اللا شيء.. لا شيء.. لا شيء.. (كررها لبضع آلاف من السنوات).. بوم! بعد ألف عامٍ من بدء الحقبة الحالية، لم يصبح العالم أغنى مما كان في عهد يسوع تقريبًا، استغرق البشر نصف ألفية أخرى لمضاعفة الدخل، وتمتعت بعض المناطق بنموّ مفاجئ من آنٍ لآخر، ولكنه لم يؤدِّ إلى نموٍ تراكمي مستمر. بدءًا من القرن التاسع عشر، تحولت هذه الزيادات البسيطة إلى طفرات بسرعة البرق، وازداد دخل العالم ثلاثةَ أضعاف بين عامي 1820 و1900، وازداد ثلاثةَ أضعاف مرة ثانية خلال أكثر من خمسين عامًا بقليل، ولم تستغرق زيادته ثلاثةَ أضعاف للمرة الثالثة سوى خمسة وعشرين عامًا، وللمرة الرابعة سوى ثلاثة وثلاثين عامًا. نما الناتج العالمي الإجمالي ليبلغ اليوم تقريبًا مئة ضعفِ ما كان عليه في زمن الثورة الصناعية عام 1820، ومئتي ضعف تقريبًا منذ بداية التنوير في القرن الثامن عشر. تقارن النقاشات حول توزيع الثروة والنمو بين تقسيم الكعكة وبين صنع كعكة أكبر (كما قال جورج بوش الابن). لو كانت الكعكة التي كنا نقتسمها عام 1700 مخبوزة في صينية متوسطة الحجم، إذًا فحجم الكعكة اليوم أكبر منها بأكثر من عشرة أضعاف، إذا اقتطعنا بعناية أقل قطعة ممكنة –لنقل مثلًا قطعة قطرها 5 سنتيمترات،

فستكون هذه القطعة في حجم كعكة عام 1700 كلها.

إنَّ الناتج العالمي الإجمالي هو بالتأكيد تقليل من قيمة انتشار الرخاء، فكيف يحسب المرء وحدات عملة مثل الجنيه أو الدولار عبر القرون كي يستطيع رسمها على خطٍّ واحد؟ هل المئة دولار في عام 2000 أكثر أم أقل من دولار واحد في عام 1800؟ إنَّها مجرد أوراق عليها أرقام، تعتمد قيمتها على ما يستطيع الناس شراءه بها في ذلك الوقت، وهو ما يتغير مع التضخم ورفع القيمة، فالطريقة الوحيدة لمقارنة الدولار في عام 1800 بالدولار في عام 2000 هو البحث عن مقدار ما يجب على المرء دفعه مقابل شراء سلة سلع قياسية من السوق، أي كمية ثابتة من الغذاء أو الملابس أو الرعاية الصحية أو الوقود، وهكذا. وهكذا يتم تحويل الأرقام في الشكل رقم 8-1 وفي الرسوم البيانية الأخرى المقيَّمة بالدولار أو الجنيه إلى مقياس واحد مثل «الدولار الدولي لعام 2011».

المشكلة هي أنَّ التقدم التكنولوجي يفنّد فكرة سلة السلع الثابتة، فجودة السلع في السلة تتحسَّن بمرور الوقت، فقطعة «الملابس» في عام 1800 قد تكون رداءً واقيًا من المطر مصنوعًا من القماش المشمع الجامد الثقيل ولكنه لا يمنع التسرب، وفي عام 2000 قد تكون معطفًا واقيًا من المطر مزودًا بسحابٍ ومصنوعًا من قماش اصطناعي خفيف مسامي يسمح بمرور الهواء. والرعاية الطبية بالأسنان كانت في عام 1800 تعني زردية الأسنان وأطقم الأسنان الخشبية، أما في عام 2000 فكانت تعني مخدر نوفوكين وزرع الأسنان. إذاً فأن نقول إنَّ الـ 300 دولارٍ أمريكي التي يمكن شراء كمية معينة من الملابس والرعاية الصحية بها في عام 2000 تعادل الـ 10 دولارات التي كان يمكن شراء «الكمية نفسها» بها في عام 1800 يُعد تضليلًا.

إضافةً إلى أنَّ التكنولوجيا لا تطور الأشياء القديمة فحسب، بل تخترع أشياءَ جديدة أيضًا. ففي عام 1800، كم كانت تكلفة شراء ثلاجة أو تسجيل موسيقي أو دراجة أو هاتف خلوي أو موسوعة ويكيبيديا أو صورة من طفولتك أو لابتوب أو طابعة أو حبوب منع العمل أو جرعة من المضادات الحيوية؟ الإجابة: لا تكفي أموال العالم كلها. إنَّ هذا المزيج من المنتجات الأفضل والمنتجات الجديدة يجعل تتبع الرفاهة المادية عبر العقود والقرون شبه مستحيل.

وانخفاض الأسعار يعقِّد الأمور أكثر، فالثلاجة سعرها اليوم حوالي 500 دولارٍ أمريكي، كم ستقبل ثمنًا مقابل التخلي عن التبريد؟ أكثر كثيرًا من 500 دولارٍ بالتأكيد! أطلق آدم سميث على هذه الحالة اسم مفارقة القيمة: عندما تصبح سلعة مهمة متوافرة بكثرة، فإنّ ثمنها يصبح أقل كثيرًا مما قد يكون الناس مستعدين لدفعه مقابلها، ويسمى الفرق فائض المستهلك، ويستحيل جدولة انفجار هذا الفائض عبر الزمن. وعلماء الاقتصاد هم أول من يشير إلى أنَّ مقاييسهم، على رأي أوسكار وايلد، «تعرف سعر كل شيء، ولكنها لا تعرف قيمة أي شيء».

لا يعني هذا أنَّ المقارنات فيما يخص الثروة بين مختلف الأزمنة والأماكن بعملةٍ معدَّلة لمراعاة التضخم والقوة الشرائية أمرٌ غير مجدٍ –فهي أفضل من الجهل أو التخمينات التقديرية–، ولكنَّه يعني أنَّها تخدع حساباتنا للتقدم. إنّ الشخص الذي تحتوي محفظته اليوم على ما يعادل مئة دولارٍ دولي لعام 2011 أغنى بشكلٍ خيالي من سلفه الذي كانت محفظته تحتوي على ما يعادل نفس المبلغ منذ مئتي عام، ويؤثر هذا، كما سنرى، على تقييمنا للرخاء في العالم النامي (في هذا الفصل)، ولغياب المساواة في الدخل في العالم النامي (في الفصل التالي)، ولمستقبل النمو الاقتصادي (في الفصل التاسع عشر).

ما الذي تسبب في الهروب الكبير؟ السبب الأوضح هو تطبيق العلم لتحسين جودة الحياة المادية، مما أدى إلى ما أطلق عليه المؤرخ الاقتصادي جويل موكير «الاقتصاد المستنير»، إذ استطاعت آلات الثورة الصناعية ومصانعها، ومزارع الثورة الزراعية المنتجة، وأنابيب المياه الناتجة عن ثورة الصحة العامة، أن تقدِّم للناس من الملابس والأدوات والمركبات والكتب والأثاث والسعرات الحرارية والمياه النظيفة والأشياء الأخرى التي يريدها الناس أكثر مما استطاع الحرفيون والمزارعون في القرن السابق تقديمه. خرجت كثيرٌ من أوائل الابتكارات مثل المحركات البخارية والأنوال وأطر الغزل ومسابك المعادن والطواحين من ورش العمال الذين لم يدرسوا هذه الأمور نظرياً ومن ساحاتهم الخلفية، ولكنَّ التجربة والخطأ يُعدان شجرة متفرعة من الاحتمالات التي لا يؤدي معظمها إلى شيء، ويمكن تقليم هذه الشجرة بتطبيق العلم ممَّا يسرّع معدل الاكتشافات. وكما أشار موكير: «بعد عام 1750، بدأت القاعدة الإبستمولوجية للتكنولوجيا تتوسع ببطء، فلم تظهر منتجات وتقنيات جديدة فحسب، بل أصبح هناك فهم أفضل لسبب نجاح المنتجات والتقنيات القديمة وكيفية عملها أيضًا، ومن ثم أصبح من الممكن تعديلها وتصحيح الأخطاء فيها وتحسينها وجمعها مع غيرها بطرقٍ جديدة وتكييفها لتناسب استخدامات جديدة». أدى اختراع البارومتر في عام 1643، الذي أثبت وجود الضغط الجوي، في النهاية إلى اختراع المحركات البخارية، التي كانت تُعرف آنذاك بـ «المحركات الجوية»، وشملت الطرق التبادلية الأخرى التي سلكها العلم والتكنولوجيا تطبيق الكيمياء في تصنيع الأسمدة، بعد أن يسَّر ذلك اختراع البطارية، وتطبيق نظرية جرثومية المرض –التي نشأت بسبب وجود الميكروسكوب– في تخليص مياه الشرب وأيادي الأطباء وأدواتهم من مسببات الأمراض.

لم يكُن العلماء التطبيقيون ليتحفزوا لاستخدام براعتهم في تخفيف آلام الحياة اليومية، وكانت أجهزتهم ستظل حبيسة مختبراتهم ومرائبهم لولا وجود ابتكارين آخرين.

أحدهما هو تطوير المؤسسات التي سهَّلت تبادل السلع والخدمات والأفكار، وهي الدينامية التي اعتبرها آدم سميث وحدها مولِّد الثروة. يقول الاقتصاديون دوجلاس نورث وجون واليس وباري واينجاست إنَّ أكثر الطرق التي تؤدي بها الدولة وظائفها طبيعيةً في التاريخ وفي أنحاءٍ كثيرة من العالم اليوم هي أن تتفق النخبة على ألا ينهب أو يقتل بعضهم بعضًا، في مقابل أن يكافَئوا بإقطاعية أو رخصة أو امتياز أو احتكار أو سيطرة على إحدى المناطق، أو شبكة محسوبية تسمح لهم بالتحكم في أحد قطاعات الاقتصاد والتكسب من الريع (بالمعنى الاقتصادي الذي يشير إلى الدخل المتحصل من الحق الحصري في الوصول إلى أحد الموارد). أفسحت هذه المحسوبية في إنجلترا في القرن الثامن عشر المجال أمام الاقتصادات المفتوحة التي يستطيع أي شخص أن يبيع أي شيء لأي شخص آخر في إطارها، ويحمي تعاملاتهم حكمُ القانون وحقوق الملكية والعقود النافذة ومؤسسات مثل البنوك والشركات والوكالات الحكومية التي تحكمها الواجبات الائتمانية وليس الصلات الشخصية. يمكن أن يطرح شخصٌ مغامر الآن نوعًا جديدًا من المنتجات في السوق، أو يبيع منتجًا ما بسعرٍ أقل من التجار الآخرين، أو يقبل نقودًا الآن مقابل شيء سيسلِّمه لاحقًا، أو يستثمر في معدات أو أراضٍ ربما لا تدر ربحًا سوى بعد بضع سنوات. من المسلَّم به الآن لي أنَّني إذا أردت بعض الحليب، فإنّ بإمكاني أن أدخل أي متجر صغير وسأجد كثيرًا منه على الرفوف ولن يكون مخففًا ولا ملوثاً وسيكون بسعرٍ أستطيع دفعه، وسيتركني صاحب المتجر أخرج منه بعد تمرير بطاقةٍ صغيرة، رغم أننا لم نلتقِ من قبل قط، وربما لن نلتقي مجددًا مطلقًا وليس بيننا أي أصدقاء مشتركين يمكن أن يشهدوا على حسن نوايانا، ومرورًا ببضعة متاجر أخرى، يمكنني أن أكرر العملية نفسها عند شراء بنطلون جينز أو مثقب كهربائيّ أو كمبيوتر أو سيارة. يجب أن تتمتع مؤسسات كثيرة بالاستقرار كي يمكن إتمام هذه التعاملات والملايين غيرها من ملايين التعاملات الأخرى مجهولة الهوية التي تشكِّل الاقتصاد الحديث بسهولةٍ شديدة.

والابتكار الثالث بعد العلم والمؤسسات هو تغيير القيم، أي قبول ما يطلق عليه المؤرخ الاقتصادي ديردري ماك كلوسكي «الفضيلة البرجوازية». لطالما تعالت الثقافات الأرستقراطية والدينية والعسكرية على التجارة لكونها في نظرهم رخيصة وقائمة على الرشوة، ولكن في إنجلترا وهولندا في القرن الثامن عشر، أصبح يُنظر إلى التجارة باعتبارها أخلاقية وتنهض بالأوضاع، وقدَّر فولتير وفلاسفة التنوير الآخرون قيمة روح التجارة لقدرتها على تبديد الضغائن الطائفية.

> لننظر إلى البورصة الملكية في لندن، وهي مكان أكثر مهابةً من كثيرٍ من قاعات المحاكم، حيث يلتقي ممثلون عن كل الدول لأجل منفعة البشرية، ففيها يتعامل اليهود والمحمديون والمسيحيون سويًّا وكأنَّهم جميعًا يدينون بالأديان نفسها، ولا يطلقون لقب الكافر سوى على المفلسين، وفيها قد يضع أتباع الكنيسة المشيخية ثقتهم في أتباع حركة تجديدية العماد، ويعتمد الكهنة على كلام أعضاء جمعية الكويكرز.. ويكون الجميع راضيًا.*

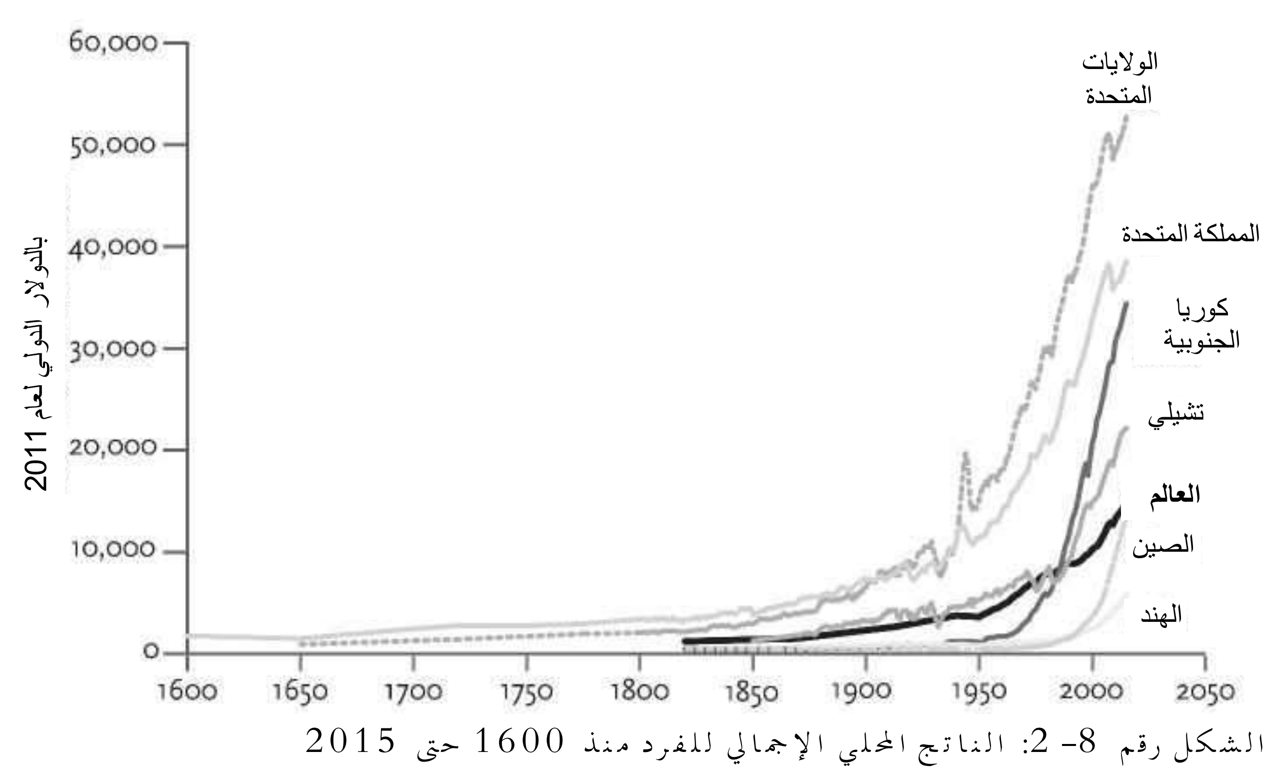
علَّق المؤرخ روي بورتر على هذا النص قائلًا إنَّه «عبر تصوير البشر بأنَّهم سعداء، وسعداء لكونهم سعداء –مختلفون ولكنهم متفقون على الاختلاف–، أشار الفيلسوف إلى ضرورة إعادة النظر في الخير الأسمى، أي تحويله من التقوى إلى فردية موجهة نحو الاحتياجات النفسية. وبالتالي فإنَّ التنوير قد ترجم سؤال: كيف يمكن أن أجد الخلاص؟ إلى السؤال البرجماتي: كيف يمكن أن أجد السعادة؟ مبشِّرًا بتطبيقٍ جديد للتكيف الاجتماعي والشخصي». شمل هذا التطبيق أعراف اللياقة والتدبير وضبط النفس والتوجه نحو المستقبل بدلًا من الماضي وتقدير التجار والمبتكرين بمكانةٍ ومنزلةٍ رفيعة بدلًا من الجنود والكهنة والحاشية الملكية فقط. كان نابليون، الداعي إلى المجد العسكري، يزدري إنجلترا لكونها «أمة من أصحاب الدكاكين»، ولكنَّ البريطانيين في ذلك الوقت كانوا يجنون أكثر مما يفعل الفرنسيون بنسبة 83 في المئة، وكانوا يتمتعون بتناول سعرات حرارية أكثر منهم بمقدار الثلث، ونعرف جميعًا ما حدث في معركة واترلو*.

سرعان ما لحق بالهروب الكبير في بريطانيا وهولندا هروبٌ في الدول الجرمانية والشمالية الأوروبية والمستعمرات البريطانية في أستراليا ونيوزيلندا وكندا والولايات المتحدة، وفي عام 1905، أشار عالم الاجتماع ماكس فيبر إلى أنَّ الرأسمالية تعتمد على «الأخلاق البروتستانتية» (وهي فرضية مثيرة تتنبأ بأنَّ اليهود يعانون في ظل المجتمعات الرأسمالية، وخاصةً في مجالي المال والأعمال). وسرعان ما خرجت الدول الكاثوليكية في أوروبا أيضًا من حيز الفقر، ثم بدأت سلسلة تالية من الهروب كما يوضِّح الشكل رقم 8–2 مما أثبت كذب النظريات المتنوعة التي تفسِّر عدم توافق البوذية أو الكونفوشية أو الهندوسية أو القيم «الآسيوية» أو «اللاتينية» العامة مع اقتصادات السوق الحركية.

---

*الكنيسة المشيخية هي نظام كنسي يتبع البروتستانتية وهذا الاسم نسبةً إلى مجالس الشيوخ التي تحكم هذه الكنائس، وتجديدية العماد هي حركة مسيحية إصلاحية تؤمن بتعميد البالغين أو تجديد معموديتهم في مقابل تعميد الأطفال. جمعية الكويكرز أو جمعية الأصدقاء الدينية هي حركة دينية تؤمن بوجود روح الله في كل إنسان وبأنَّ العلاقة مع الله روحانية وليست شعائرية وأنَّه لا ضرورة للكهنة والطقوس الدينية. -المترجمة

*معركة واترلو هي معركة وقعت عام 1815 وانهزم فيها الجيش الفرنسي بقيادة نابليون بونابرت وكانت آخر معاركه. -المترجمة



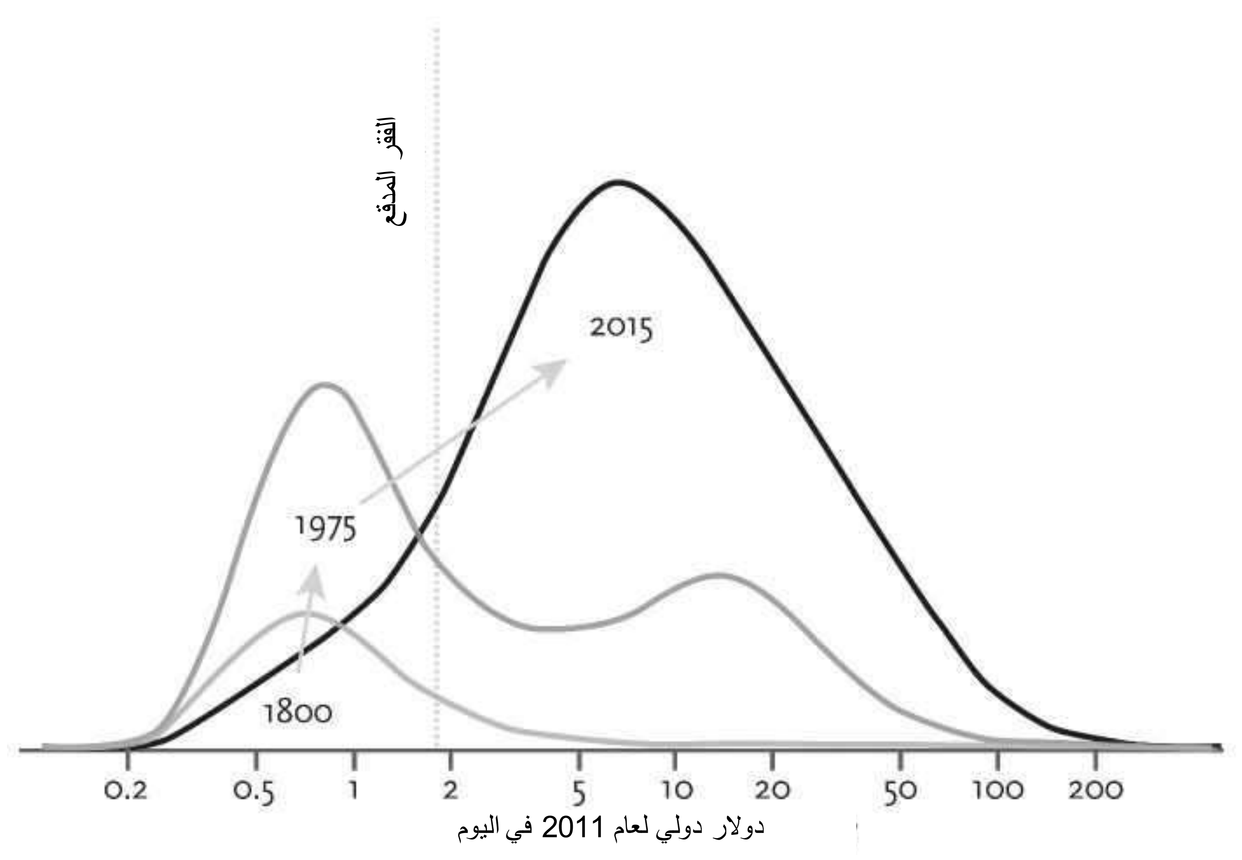
الشكل رقم 8- 2: الناتج المحلي الإجمالي للفرد منذ 1600 حتى 2015

المصدر: *Our World in Data*، Roser 2016c، بناءً على بيانات من البنك الدولي ومن مشروع ماديسون 2014.

تعبِّر المنحنيات غير البريطانية في الشكل رقم 8-2 عن فصلٍ ثانٍ مذهل في قصة الرخاء، فبدءًا من أواخر القرن العشرين، بدأت الدول الفقيرة تهرب بدورها من الفقر، وبدأ الهروب الكبير يتحول إلى التقارب الكبير، فهناك دول كانت شديدة الفقر حتى وقتٍ قريب، أصبحت غنية موسرة مثل كوريا الجنوبية وتايوان وسنغافورة. (تذكر حماتي السابقة السنغافورية عشاء أحد أيام طفولتها حين قسمت أسرتها بيضةً واحدة على أربعة أشخاص). منذ عام 1995، أصبحت ثلث دول العالم النامية التي يبلغ عددها 109 دول تشمل دولًا متنوعة بقدرٍ كبير مثل بنجلاديش والسلفادور وإثيوبيا وجورجيا ومنغوليا وموزمبيق وبنما ورواندا وأوزبكستان وفييتنام تتمتّع بمعدلات نمو اقتصادي تصل إلى درجة يتضاعف معها الدخل كل ثمانين عامًا، وتمتعت أربعون دولة أخرى بمعدلات تضاعف الدخل كل خمسة وثلاثين عامًا، وهو ما يمكن مقارنته بمعدل النمو التاريخي للولايات المتحدة، فمن اللافت للنظر أن نجد أنَّ نصيب الفرد من الدخل في الصين والهند في عام 2008 يساوي نصيب الفرد من الدخل في السويد في عامي 1950 و1920 على التوالي، ولكن ما يلفت نظرنا أكثر أن نتذكر عدد الأفراد الذي قُسم عليهم هذا الدخل: 1.3 و1.2 مليون نسمة. في عام 2008، كان متوسط نصيب الفرد، من سكان العالم البالغ عددهم 6.7 مليار نسمة، يساوي نصيب الفرد في غرب أوروبا في عام 1964، ولم يكُن ذلك لأنَّ الأغنياء يزدادون غنى (رغم أنَّهم يفعلون ذلك بالتأكيد، وهو موضوع سننظر فيه في الفصل التالي). يجري القضاء على الفقر المدقع، ويصبح العالم مكونًا من الطبقة الوسطى.

عرض أولا روزليند (ابن هانس) توزيع الدخل على مستوى العالم على هيئة مدرجات تكرارية، يشير فيها ارتفاع المنحنى إلى نسبة الأشخاص ذوي مستوى دخل ما، في ثلاث فترات تاريخية مختلفة (الشكل رقم 8-3). في عام 1800، عند بزوغ فجر الثورة الصناعية، كان معظم الناس في كل مكانٍ فقراءَ، وكان متوسط الدخل معادلًا لمتوسط دخل أفقر دول أفريقيا اليوم (حوالي 500 دولارٍ دولي

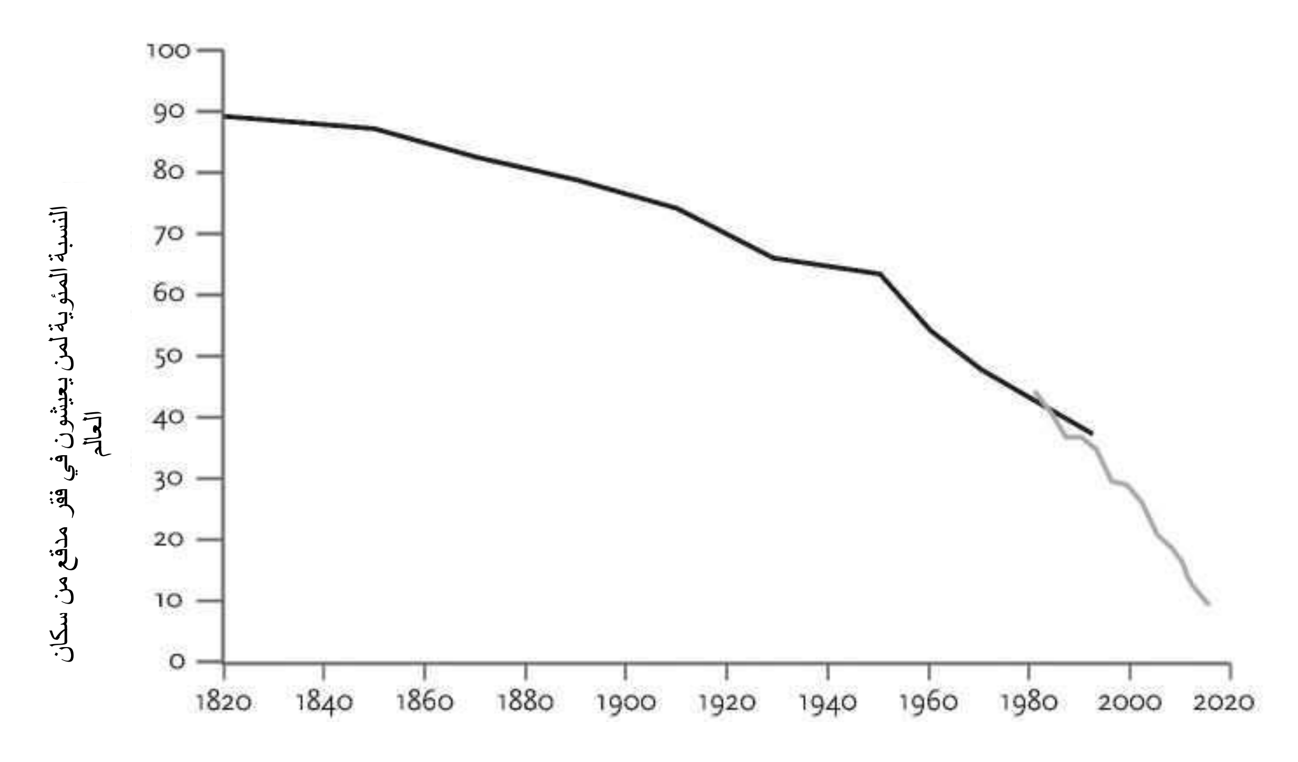
سنويًّا)، وكان 95 في المئة من سكان العالم تقريبًا يعيشون فيما يُعد اليوم «فقرًا مدقعًا» (أي على أقل من 1.90 دولار في اليوم). وبحلول عام 1975، كانت أوروبا وفروعها قد انتهت من الهروب الكبير، مخلِّفةً وراءها بقية العالم، الذي أصبح دخله عُشر دخلها عند ذلك المنحنى السفلي الذي يشبه سنام الجمل، ثم أصبح الجمل في القرن الحادي والعشرين وحيد السنام وانتقل هذا السنام نحو اليمين، أما الذيل إلى اليسار فقد انخفض كثيرًا، أي أصبح العالم أغنى ويتمتع بمساواةٍ أكبر.



الشكل رقم 8- 3: توزيع الدخل العالمي في 1800 و 1975 و 2015

المصدر: *Gapminder*، أولا روزلينج، http://www.gapminder.org/tools/mountain. المقياس بالدولار الدولي لعام 2011.

تستحق الشرائح إلى يسار الخط المنقَّط تخصيص صورة لها. يوضِّح الشكل رقم 8-4 نسبة من يعيشون في «فقرٍ مدقع» من سكان العالم، لا يمكن إنكار أنَّ تحديد النقطة الفاصلة لذلك الوضع سيكون اعتباطيًّا، ولكنَّ الأمم المتحدة والبنك الدولي يبذلان كل ما بوسعهما عبر جمع بيانات خطوط الفقر الوطنية من عينةٍ من الدول النامية، والتي تستند بدورها على دخل الأسرة العادية التي تحاول إطعام أفرادها. في عام 1996، كان خط الفقر هو «دولار في اليوم» للفرد الواحد، أما حاليًا فهو محدد بـ 1.90 دولار دولي لعام 2011 في اليوم. (إنَّ المنحنيات ذات النقط الفاصلة الأكثر أعلى وأقصر ولكنَّها تنزلق أيضًا إلى أسفل). لاحظ شكل المنحنى، ومدى انخفاضه، فقد انخفض وصولًا إلى 10 في المئة، وهبط معدل الفقر المدقع في العالم خلال مئتي عام من 90 في المئة إلى 10 في المئة، وحدث نصف هذا التراجع تقريبًا خلال الأعوام الخمسة والثلاثين الماضية.

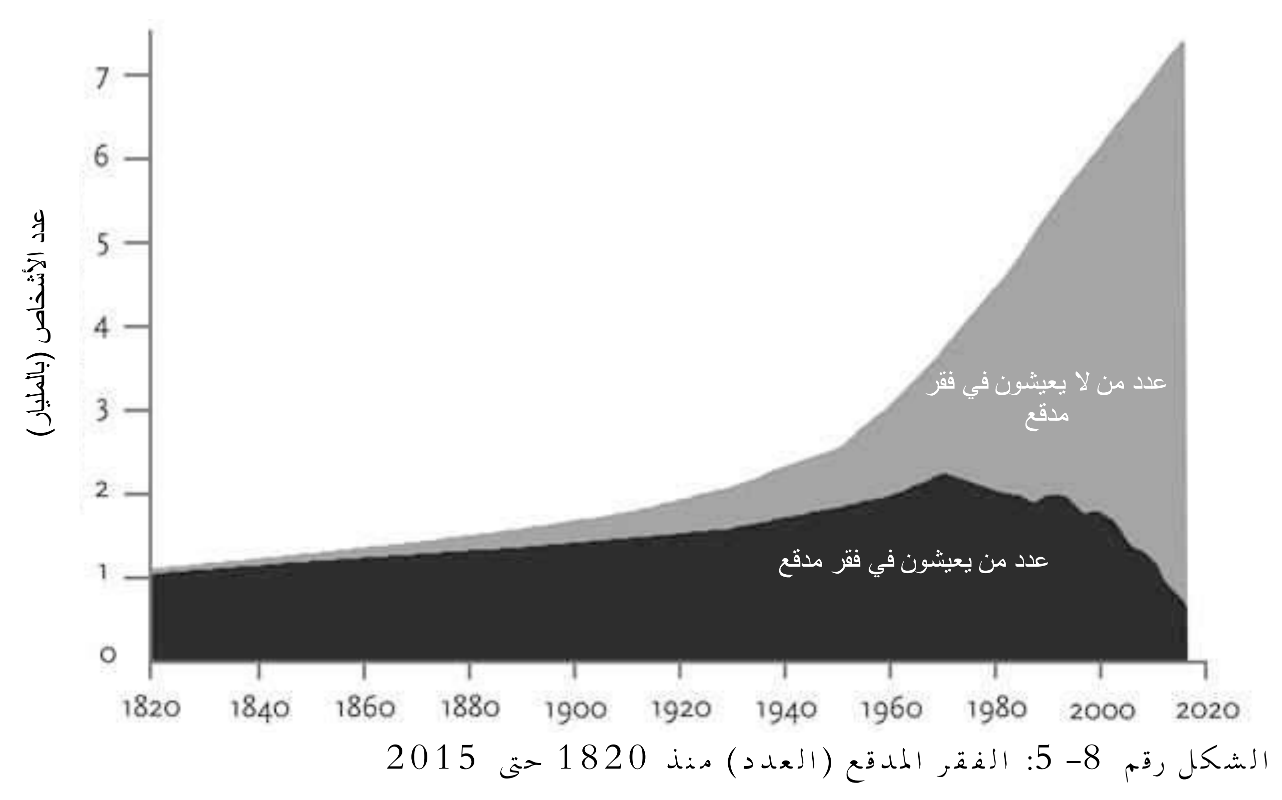


الشكل رقم 8- 4: الفقر المدقع (النسبة) منذ 1820 حتى 2015

المصدر: *Our World in Data*، Roser & Ortiz-Ospina 2017، بناءً على بيانات من Bourguignon & Morrison 2002 (1820–1992)، مع حساب نسب متوسط «الفقر المدقع» والنسب المئوية «للفقر» في بياناتهم للمقايسة مع بيانات الفترة من 1981 حتى 2015 من البنك الدولي 2016g حول «الفقر المدقع» (أقل من 1.90 دولار دولي لعام 2011 في اليوم).

يمكننا أن نقدِّر قيمة التقدم بطريقتين، الأولى أنَّ النسب ومعدلات دخل الفرد التي أشرت إليها بالرسوم البيانية تُعد المقياس الأخلاقي للتقدم، لأنها تتناسب مع تجربة جون رول الفكرية التي كانت تهدف إلى تعريف المجتمع العادل: اذكر عالَمًا تقبلُ أن تتجسد فيه في هيئة مواطن عادي خلف ستار من الجهل بظروف ذلك المواطن، فالعالم الذي يشمل نسبة أكبر من الناس الذين يعيشون طويلًا وبصحةٍ ويتغذون جيدًا ويعيشون في رفاهة هو عالم يفضل المرء أن يغامر بميلاده فيه. والثانية هي أنَّ الأرقام المطلقة مهمة أيضًا، فكل شخص إضافي يعيش طويلًا وبصحةٍ ويتغذى جيدًا ويعيش في رفاهة هو كائن حساس قادر على الشعور بالسعادة وسيكون العالم مكاناً أفضل بوجود المزيد من أمثاله، وكل زيادة في عدد الأشخاص الذين يستطيعون تحمل طحن الإنتروبيا وصراع التطور تشهد على ضخامة حجم القوى الخيِّرة التي يتمتع بها كلٌّ من العلم والأسواق والحكم الجيد والمؤسسات الحديثة الأخرى. في الرسم البياني ذي الطبقات المكدسة في الشكل رقم 8–5، يمثل سمك اللوح السفلي عدد الأشخاص الذين يعيشون في فقر مدقع، ويمثل سمك اللوح العلوي عدد الأشخاص الذين لا يعيشون في فقرٍ، ويمثل ارتفاع الطبقات المكدسة عدد سكان العالم، ويوضِّح الشكل أنَّ عدد الأشخاص الفقراء قد تراجع مع انفجار عدد السكان الإجمالي من 3.7 مليار نسمة في عام 1970 إلى 7.3 مليار نسمة في عام 2015. (يشير ماكس روزر إلى أنَّ المنافذ الإخبارية لو كانت تُخبِر الناس حقًّا بحالة العالم المتغيرة، لكانت عرضت عنواناً رئيسيًّا يقول انخفاض عدد الأشخاص الذين يعيشون في فقر مدقع بمقدار 137,000 شخص منذ الأمس كل يوم على مدار الخمسة والعشرين عامًا الماضية). نحن نعيش في

عالمٍ لا يشمل نسبةً أقل من الأشخاص شديدي الفقر فحسب، بل يشمل عددًا أقل منهم، ويشمل 6.6 مليار شخص لا يعيشون في فقر مدقع.



الشكل رقم 8- 5: الفقر المدقع (العدد) منذ 1820 حتى 2015

المصدر: *Our World in Data*، Roser & Ortiz-Ospina 2017، بناءً على بيانات من Bourguignon & Morrison 2002 (1820–1992) والبنك الدولي g2016 (1981–2015).

إنَّ معظم المفاجآت التي حدثت في التاريخ كانت مفاجآت غير سارة، ولكنَّ هذا الخبر يفاجئ الجميع، حتى المتفائلين، بصدمة سارة. وضعت الأمم المتحدة في عام 2000 ثمانية أهداف إنمائية للألفية، ويرجع تاريخ بداية العمل على هذه الأهداف إلى عام 1990، واستهان المراقبون المتشائمون لتلك المنظمة التي كان أداؤها ضعيفًا في ذلك الوقت بهذه الغايات باعتبارها لا تعدو كونها نصًّا نموذجيًّا طموحًا. خُفِّضَ معدل الفقر العالمي بمقدار النصف، وأُخرج مليار شخص من حيز الفقر خلال خمسة وعشرين عامًا؟ أجل، أجل. ولكنَّ العالم حقَّق هذا الهدف قبل الميعاد المحدد له بخمس سنوات، وما زال خبراء التنمية يدعكون أعينهم ليصدقوا أنَّ ما يرونه حقيقة. كتب ديتون يقول: «ربما تكون هذه أهم حقيقة عن الرفاهة في العالم منذ الحرب العالمية الثانية»، وقال الاقتصادي روبرت لوكاس (الفائز بجائزة نوبل مثل ديتون): «إنَّ عواقب التنمية الاقتصادية السريعة على رفاهة البشر صاعقة ببساطة، فبمجرد أن يبدأ المرء في التفكير فيها، يصعب عليه التفكير في أي شيءٍ آخر».

دعنا لا نتوقف عن التفكير في الغد. رغم أنَّ استقراء المنحنيات التاريخية دائمًا ما يكون أمرًا خطيرًا، لكن ماذا سيحدث عندما نحاول ذلك؟ إذا وضعنا مسطرة بمحاذاة بيانات البنك الدولي في الشكل رقم 8–4، فسنجد أنَّها تتقاطع مع محور السينات (مما يشير إلى معدل فقر يساوي صفرًا) في عام 2026. أتاحت الأمم المتحدة لنفسها مساحةً احتياطية في أهداف التنمية المستدامة لعام 2015

(خليفة الأهداف الإنمائية للألفية) وحددت غاية هي: «القضاء على الفقر المدقع لكل الناس في كل مكان» بحلول عام 2030. القضاء على الفقر المدقع لكل الناس في كل مكان! أتمنى أن أعيش لأرى هذا اليوم. (حتّى يسوع لم يكُن بهذا التفاؤل، إذ قال لتلاميذه: «لأنَّ الفقراء معكم في كل حين».)

هذا اليوم بعيد جدًّا بالطبع، فمئات الملايين من الناس ما زالوا في فقر مدقع، وسيتطلب الوصول إلى الصفر جهدًا أعظم من مجرد الاستقراء باستخدام مسطرة، فرغم أنَّ الأرقام في دولٍ مثل الهند وإندونيسيا في تناقص، إلَّا أنَّها تزداد في أفقر الدول الفقيرة مثل الكونغو وهايتي والسودان، وسيكون القضاء على مراكز الفقر الأخيرة هو الأصعب. ومع اقترابنا من تحقيق الهدف، فإنّ علينا أن نغيِّر أهدافنا بما أنَّ الفقر غير المدقع ما زال فقرًا أيضًا. لقد حذرت عند طرح مفهوم التقدم من الخلط بين تقدُّم للأمام تحقق بشق الأنفس، وعملية تحدث من تلقاء نفسها بعصا سحرية، وليس الغرض من لفت الانتباه إلى التقدُّم هو تهنئة أنفسنا وإنَّما معرفة الأسباب التي أدت إليه كي نكثر من القيام بما ينجح، وبما أنَّنا نعرف أنَّ شيئًا ما قد نجح، فمن غير اللازم أن نواصل تصوير العالم النامي بأنَّه حالة ميؤوس منها كي نيقظ الناس من لا مبالاتهم، مع المخاطرة بأن يظنوا أنَّ أي دعم إضافي سيكون بمثابة إلقاء النقود في الأرض.

إذًا ما الشيء الصحيح الذي فعله العالم؟ تحدث أمور كثيرة جيدة في وقتٍ واحد وتعزِّز بعضها بعضًا كما في معظم أشكال التقدم، لذا يصعب تحديد أول قطعة دومينو أثَّرت في كل ما تلاها. خضعت التفسيرات التشاؤمية –مثل التي تقول إنَّ الإثراء هو ربح عارض ناتج عن الارتفاع المفاجئ لسعر النفط والسلع الأخرى، أو إنَّ الإحصاءات متضخمة بسبب نهوض الصين كثيفة السكان–للفحص وتعرضت للرفض. يشير رادليت وخبراء تنمية آخرون إلى خمسة أسباب.

فقد كتب: «في عام 1976، غيَّر ماو بمفرده مسار الفقر العالمي تغييرًا هائلًا بفعلٍ واحدٍ بسيط: أنَّه مات»، رغم أن نهوض الصين لم يكُن مسؤولًا وحده عن التقارب الكبير، إلَّا أنَّه مع ضخامة حجمها، كان من الحتمي أن تتغير الأعداد الإجمالية، وتنطبق تفسيرات تقدمها على مكانٍ آخر، فوفاة ماو تسي تونج رمز لثلاثةٍ من الأسباب الرئيسية للتقارب الكبير.

أولها هو تراجع الشيوعية (والاشتراكية التدخلية)، إذ تستطيع اقتصادات السوق توليد الثروة بمقدارٍ ضخم لأسبابٍ ذكرناها سابقًا في حين تفرض الاقتصادات الشمولية المخططة الندرة والركود، بل وغالبًا المجاعة. إضافةً إلى أنَّ اقتصادات السوق تجني ثمار التخصص وتُقدِّم حوافز للأشخاص الذين ينتجون ما يريده أشخاص آخرون، فهي تحل مشكلة تنسيق جهود مئات الملايين من الناس باستخدام الأسعار لنشر معلومات عن الحاجة والتوافر على نطاقٍ واسع، وهي مشكلة حسابية لا يوجد مُخَطِّط بارع بما يكفي لحلها من مكانه في مكتبٍ مركزي. حدث التحول من الزراعة الجماعية والتحكم المركزي والاحتكار الحكومي وبيروقراطية التصاريح الخانقة (التي كان يطلق عليها في الهند «أحكام التراخيص») إلى الاقتصادات المفتوحة على عددٍ من الجبهات بدءًا من ثمانينيات القرن الماضي، وشمل ذلك تبني دينج شياو بنج الرأسمالية في الصين، وانهيار الاتحاد السوفييتي وانتهاء هيمنته على أوروبا الشرقية، وتحرير اقتصادات الهند والبرازيل وفييتنام ودول أخرى.

رغم أنَّ المثقَّفين ربما يبصقون ما في أفواههم من الدهشة عند قراءة دفاعٍ عن الرأسمالية، إلَّا أنَّ مزاياها الاقتصادية واضحة للغاية لدرجة أنَّها لا تحتاج إلى إثباتها بالأرقام، إذ يمكن رؤيتها من الفضاء حرفيًّا، حيث تُظهر صورة التقطت بالقمر الصناعي لكوريا الجنوبَ الرأسمالي متوهجًا والشمالَ الشيوعي مظلمًا قليلًا، وتبيِّن تلك الصورة بوضوحٍ التناقض بين النظامين الاقتصاديين في القدرة على توليد الثروات، مع ثبات عوامل أخرى مثل الجغرافيا والتاريخ والثقافة. وهناك ثنائيات أخرى مطابقة بها مجموعة تجريبية ومجموعة ضابطة وتؤدي

إلى الاستنتاج نفسه، ومنها: ألمانيا الشرقية والغربية عندما كانتا مقسَّمتين بالستار الحديدي، وبوتسوانا وزيمبابوي تحت حكم روبرت موجابي، وتشيلي وفنزويلا تحت حكم هوجو تشافيز ونيكولاس مادورو، فكانت تلك الأخيرة دولةً ثرية وغنية بالنفط، والآن أصبحت تعاني من انتشار الجوع ونقص خطير في الرعاية الطبية. من المهم أن نضيف أنَّ اقتصادات السوق التي ازدهرت في الأنحاء الأوفر حظًّا من العالم النامي لم تكُن أناركية مبدأ «دعه يعمل، دعه يمر» الذي يمثِّل حلمًا في خيال اليمين وكابوسًا لليسار، وإنَّما استثمرت حكوماتهم بدرجاتٍ متفاوتة في التعليم والصحة العامة والبنية التحتية والتدريب الزراعي والوظيفي وبرامج التأمينات الاجتماعية والحد من الفقر.

وتفسير رادلت الثاني للتقارب الكبير هو القيادة. فرض ماو على الصين ما هو أكثر من الشيوعية، فقد كان مصابًا بجنون العظمة سريع التقلب يزج بالبلاد في مخططات مخبولة مثل القفزة الكبرى إلى الأمام (بكميوناتها الهائلة، وأماكن صهر المعادن في الباحات الخلفية، والممارسات الزراعية الحمقاء) والثورة الثقافية (التي حوَّلت الجيل الأصغر إلى عصاباتٍ من الخارجين على القانون الذين أرهبوا المعلِّمين والمديرين وأبناء «الفلاحين الأغنياء»). خلال عقود الركود منذ سبعينيات القرن الماضي حتى أوائل التسعينيات، استولى على دولٍ نامية أخرى عديدة زعماء سيكوباتيون ذوو أجندات أيديولوجية أو دينية أو قبلية أو قائمة على الارتياب أو تعظيم الذات بدلًا من ولاية تعزز رفاهة مواطنيها، وتلقوا الدعم إما من الاتحاد السوفييتي أو الولايات المتحدة على حسب تعاطفهم مع الشيوعية أو بغضهم لها، تحت مبدأ «ربما يكون ابن عاهرة، ولكنه ابن العاهرة التابع لنا». شهدنا في التسعينيات وأوائل الألفية انتشار الديمقراطية (في الفصل الرابع عشر) وظهور زعماء متزني الرأي ويتسمون بالنزعة الإنسانية، وليس فقط على مستوى نساء الدولة ورجالها الوطنيين مثل نيلسون مانديلا وكورازون أكينو وإلين جونسون سيرليف، وإنَّما على مستوى القادة الدينيين وقادة المجتمع المدني المحليين الذين يحاولون تحسين حياة المواطنين.

والسبب الثالث هو نهاية الحرب الباردة، إذ لم تسحب السجادة من تحت عددٍ من الدكتاتوريين الرديئين فحسب، بل أخمدت العديد من الحروب الأهلية التي كانت قد دمَّرت الدول النامية منذ حصولها على الاستقلال في الستينيات. تمثِّل الحرب الأهلية أزمة إنسانية واقتصادية أيضًا، إذ تتدمر المرافق، ويتحول توجه الموارد، ويخرج الأطفال من المدارس، ويُبعَدُ المديرون والعاملون عن عملهم أو يتمّ قتلهم. قدَّر الاقتصادي بول كولير، الذي يقول عن الحرب إنَّها «عكس التنمية»، تكاليف الحرب الأهلية النمطية على الدولة الواحدة بـ 50 مليار دولار.

والسبب الرابع هو العولمة، وبالأخص الانفجار في التجارة الذي أتاحته سفن الحاويات والطائرات النفاثة وتحرير الرسوم الجمركية والعوائق الأخرى أمام الاستثمار والتجارة. يتفق الاقتصاديون الكلاسيكيون والعرف العام على أنَّ وجود شبكة تجارة أكبر سيجعل الجميع أفضل حالًا، ومع تخصص بعض الدول في خدمات وبضائع مختلفة، فإنّ بإمكانها إنتاجها بكفاءةٍ أكبر، ولن يكلِّفها عرض المزيد من سلعها على مليارات الناس بدلًا من الآلاف أكثر كثيرًا، وفي الوقت نفسه، سيتمكن المشترون الذين سيتسوقون بحثًا عن السعر الأفضل في بازارٍ عالمي من الحصول على المزيد مما يريدونه. (لا يقدِّر العرف العام كثيرًا النتيجة المنطقية التي يطلق عليها الميزة النسبية، التي تتنبأ أنّه في المتوسط سيكون الجميع أفضل حالًا عندما تبيع كل دولة البضائع والخدمات التي تستطيع إنتاجها بأكبر كفاءةٍ ممكنة حتى لو استطاع المشترون إنتاجها بأنفسهم بكفاءةٍ كبيرة أيضًا). بخلاف ما تبثه الكلمة من رعب في كثيرٍ من الأطياف السياسية، لكنَّ العولمة كما يتفق المحللون في مجال التنمية كانت طفرة من الرخاء للفقراء، ويقول ديتون: «يقول البعض إنَّ العولمة مؤامرة نيو ليبرالية مصممة لإثراء القلة على حساب الأكثرية، لو كانت كذلك، فإنَّ هذه المؤامرة قد فشلت فشلًا ذريعًا، أو على الأقل ساعدت أكثر من مليار شخص عن غير عمد، ليت العواقب غير المتعمدة تعمل دائمًا على هذا النحو الإيجابي».

بالطبع أنتج التحول الصناعي للعالم النامي، كما فعلت الثورة الصناعية قبله بقرنين، ظروف عمل قاسية بمعايير الدول الحديثة الغنية وأثار استنكارًا مريرًا، فكانت الحركة الرومانسية في القرن التاسع عشر بصورةٍ جزئية رد فعل على «الطواحين الشيطانية المظلمة» (كما أطلق عليها الشاعر ويليام بليك)، ومنذ ذلك الحين، ظلَّ الاشمئزاز من الصناعة قيمة مقدَّسة لدى «الثقافة الثانية» حسب تعبير تشارلز بيرسي سنو، أي ثقافة المثقفين الأدباء. لم يكُن هناك في مقالة سنو ما أغضب مهاجمه فرانك ريموند ليفيس بقدر هذه الفقرة:

> «من الجيد أن نستطيع الجلوس بارتياحٍ شديد لنفكِّر في أنَّ المعايير المادية للمعيشة ليست مهمة للغاية، من الجيد أن يتمكن شخصٌ من اتخاذ قرار شخصي برفض التحول الصناعي، اذهب للعيش في الغابة كما في كتاب **والدن** (Walden) إذا أردت، وإذا عشت دون كثيرٍ من الغذاء، ورأيت أطفالك يموتون وهم رُضَّع، ونفرت من راحة المعرفة بالقراءة والكتابة، وقبلت اقتطاع عشرين عامًا من عمرك، إذًا فسأحترمك لقوة نفورك الحسِّي، ولكنِّي لن أُكِنّ لك ذرة من الاحترام إذا حاولت –حتى لو بطريقةٍ سلبية– فرض الخيار نفسه على الآخرين الذين لا يتمتعون بحرية الاختيار، ونحن في الحقيقة نعرف ماذا سيكون اختيارهم لو استطاعوا الاختيار، لأنَّه في أي بلدٍ سنحت الفرصة للفقراء فيه بالذهاب إلى المصانع، ذهبوا بسرعةٍ بقدر ما اتسعت لهم المصانع.

كان سنو كما رأينا دقيقًا في ادعاءاته عن التقدم في الحياة والصحة، وكان محقًّا أيضًا في أنَّ المعيار الملائم للنظر في محنة الفقراء في الدول الصناعية هو مجموعة البدائل المتاحة أمامهم في الزمان والمكان الذي يعيشون فيه. يردِّد حجة سنو بعد خمسين عامًا خبراء التنمية مثل رادلت، الذي لاحظ أنَّه «رغم أنَّ العمل في منصات المصانع يُشار إليه غالبًا بالعمل الاستغلالي، إلَّا أنَّه أفضل كثيرًا من منشأ كل الأعمال الاستغلالية، وهو العمل في الحقول كعامل زراعي بأجرٍ يومي».

> عندما كنتُ مقيمًا في إندونيسيا في بداية التسعينيات، وصلتُ إليها محمَّلًا بنظرة رومانسية إلى حدٍّ ما لجمال العمل في حقول الأرز، مع تحفظات على سرعة زيادة الوظائف في المصانع، وكلما طالت إقامتي هناك، أدركتُ أكثر مدى شدة صعوبة العمل في حقول الأرز، فهي مطحنة مضنية، ويدبر الناس أقل القليل من الرزق عبر ثني ظهورهم لساعاتٍ طويلة في حرارة الشمس لتقسيم الحقول إلى مدرجات وزراعة البذور وإزالة الحشائش ونقل الشتلات ومطاردة الآفات وحصاد الحبوب، يتسبب الوقوف في بِرك المياه في الإصابة بالعلقات، وفي خطر الإصابة بالملاريا والتهاب الدماغ وأمراض أخرى، والجو بالطبع حار طوال الوقت. إذًا، لم يكُن من المفاجئ أنَّ مئات الأشخاص سارعوا بالاصطفاف أمام المصانع عندما فتحت أبوابها عارضةً دولارين كأجرٍ في اليوم، فقط للحصول على فرصةٍ في التقدُّم إلى الوظائف.

تمتد مزايا العمل الصناعي إلى ما هو أكثر من المعايير المادية للمعيشة، فقد يُعد تحرُّرًا للنساء اللاتي يحصلن على هذه الوظائف. تحكي تشيلسيا فوليت (مديرة تحرير *HumanProgress*) في مقالها «الجانب النسوي للمؤسسات الصناعية المستغلة» أنَّ العمل في المصانع في القرن التاسع عشر قدَّم للنساء مهربًا من الأدوار الاجتماعية التقليدية في حياة القرية والمزرعة، ولذا اعتبره بعض الرجال آنذاك «كافيًا لجعل أكثر الفتيات صلاحًا وفضيلةً سيئات السمعة». لم تنظر الفتيات أنفسهن للأمر بتلك الطريقة في كل الأحوال، إذ كتبت إحدى العاملات في مصنع نسيج في لويل في ماساتشوستس في عام 1840:

يتم جمعنا كي نجني أكبر قدرٍ من المال في أسرع وقتٍ ممكن.. من الغريب أن تُرفض إحدى أكثر الوظائف ربحًا للنساء في نيو إنجلاند المحبة للمال لأنَّها شاقة أو لأنَّ بعض الناس متحيزون ضدها، ففتيات الشمال الأمريكي يتمتعن بالكثير من الاستقلالية التي تمنعهن من ذلك.

كانت تلك التجارب خلال الثورة الصناعية تنبئ بالتجارب التي يمر بها العالم النامي اليوم، قالت كافيتا رامداس، رئيسة الصندوق العالمي للنساء، في عام 2001 إنَّه في القرى الهندية «كل ما يُتاح للمرأة فعله أن تطيع زوجها وأقرباءها، وتطحن حبوب الدَّخن، وتغني. فإذا انتقلت إلى البلدة، يمكنها أن تحصل على وظيفة، وتنشئ عملًا تجاريًّا، وتسمح لأطفالها بتلقي التعليم»، وأكَّد محلل في بنجلاديش أنَّ النساء اللاتي يعملن في صناعة الملابس (كما فعلت جدَّتي في كندا في الثلاثينيات) كُنَّ يتمتعن بارتفاع الأجور وتأخر سن الزواج وإنجاب أطفالٍ أقل يحصلون على تعليمٍ أفضل. وخلال جيلٍ واحد، يمكن أن تتشكَّل الأحياء الفقيرة والضواحي الفقيرة والأحياء العشوائية لتصبح ضواحي راقية ويمكن أن تصبح الطبقة العاملة طبقةً متوسطة.

ليس على المرء أن يقبل وحشية التحول الصناعي كي يكون مقدِّرًا لمزاياه طويلة الأمد، إذ يستطيع المرء تخيل تاريخ بديل للثورة الصناعية، يكون فيه البشر قد طبَّقوا حساسيتهم الحديثة في وقتٍ أبكر، وتعمل فيه المصانع دون أطفال وتوفِّر ظروف عمل أفضل للعمال البالغين. يوجد اليوم في العالم النامي بلا شك مصانع تستطيع توفير نفس العدد من الوظائف وتعامل عمالها برفق، وتجني ربحًا أيضًا، فقد تسبَّب الضغط الذي قامت به مفاوضات التجار ومظاهرات المستهلكين الاحتجاجية في تحسين ظروف العمال في العديد من الأماكن بقدرٍ ملموس، وهو تقدم طبيعي مصاحب لزيادة الدول غنى واندماجًا في المجتمع الدولي (كما سنرى في الفصل الثاني عشر عندما ننظر إلى تاريخ السلامة في مواقع العمل في مجتمعنا). لا يقوم التقدم على قبول كل تغيير ضمن حزمة متكاملة، وكأنَّ علينا أن نتخذ خيارًا بالإيجاب أو بالسلب بشأن ما إذا كانت الثورة الصناعية أو العولمة كما حدثت أي منهما تمامًا بتفاصيلها أحداث جيدة أو سيئة، وإنَّما يشتمل التقدم على تفكيك خصائص أي عملية اجتماعية بقدر الإمكان بهدف مضاعفة المزايا المفيدة للبشر مع تقليل الأضرار.

العامل الأخير –والأهم في العديد من التحليلات– الذي أسهم في التقارب الكبير هو العلم والتكنولوجيا، فتكلفة الحياة تقل باستمرار، وهو أمر جيد، وبفضل التطورات في المعارف العملية، أصبح من الممكن بأجر ساعة واحدة من العمل شراء غذاءٍ ورعاية صحية وتعليم وملابس ومواد بناء وضرورات بسيطة ورفاهيات أكثر مما كان من الممكن شراؤه بها من قبل. لم يعُد الناس يتناولون طعامًا أرخص وأدوية أرخص فحسب، بل أصبح بإمكان الأطفال ارتداء صنادل بلاستيكية رخيصة بدلًا من السير حفاة، وبإمكان البالغين قضاء الوقت سويًّا أثناء تصفيف الشعر في الصالون أو مشاهدة مباراة كرة قدم باستخدام أجهزة وألواح شمسية رخيصة. أمَّا النصائح الجيدة بشأن الصحة أو الزراعة أو الأعمال التجارية، فهي أفضل من «رخيصة»، إنَّها مجانية.

يمتلك اليوم حوالي نصف الأشخاص البالغين في العالم هواتف ذكية، وأغلبهم مشتركون في الخدمات الهاتفية، ففي أنحاء العالم التي لا توجد بها طرق ولا خطوط هاتفية أرضية ولا خدمات بريدية ولا صحف ولا بنوك، لا تكون الهواتف المحمولة مجرد طريقة للنميمة ومشاركة صور القطط، بل تكون أيضًا مولِّدًا رئيسيًّا للثروة، فهي تسمح للناس بتحويل الأموال وطلب الأدوات والإمدادات ومتابعة الطقس والأسواق والعثور على وظيفة نهارية والحصول على نصائح بشأن الممارسات الصحية والزراعية، بل وحتى تلقي التعليم الأساسي. وضَّح تحليلٌ أجراه الاقتصادي روبرت جنسن تحت عنوان فرعي هو «اقتصاديات المعلومات الصغيرة والخاصة بسمك الأسقمري (الماكريل)» كيف زاد صغار الصيادين في جنوب الهند من دخلهم وخفضوا السعر المحلي للسمك باستخدام هواتفهم المحمولة في البحر

لمعرفة السوق التي تعرض أفضل سعر في ذلك اليوم، مما وفَّر عليهم عناء تفريغ صيدهم سريع التلف في بلدات متخمة بالسمك في الوقت الذي تخلو بلدات أخرى منه تمامًا. تتيح الهواتف المحمولة بهذه الطريقة لمئات الملايين من صغار المزارعين والصيادين أن يصبحوا فاعلين عقلانيين ذوي علمٍ في الأسواق المثالية غير الاحتكاكية كما تصفها كتب الاقتصاد. وفقًا لأحد التقديرات، يضيف كل هاتف خلوي 3000 دولار إلى الناتج المحلي الإجمالي لأي دولةٍ نامية.

لقد أعادت قوة المعرفة المفيدة كتابة قواعد التنمية العالمية. ويختلف خبراء التنمية حول مدى حكمة المعونات الأجنبية، فيقول بعضهم إنَّها تضر أكثر مما تنفع عبر إثراء الحكومات الفاسدة ومنافسة التجارة المحلية، ويذكر آخرون أرقامًا حديثة تشير إلى أنَّ المعونات المخصصة بحكمةٍ قد حققت نفعًا هائلًا بالفعل، وفي حين أنَّهم يختلفون على آثار التبرع بالغذاء والمال، لكنَّهم يتفقون جميعًا على أنَّ التبرع بالتكنولوجيا –مثل الأدوية والإلكترونيات وأنواع مختلفة من المحاصيل وأفضل الممارسات في الزراعة والأعمال التجارية والصحة العامة– هِبةٌ خالصة. (كما قال جيفرسون: من يتلقى مني فكرة، يتلقى الرسالة بنفسه دون أن تنتقص من فكرتي). ورغم التشديد على أهمية نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي، إلَّا أنَّ قيمة المعرفة جعلت هذا المقياس أقل صلةً بما نهتم به حقًّا، وهو جودة الحياة. لو كنت ضمَّنت خطًّا يمثِّل أفريقيا في الركن الأيمن السفلي من الشكل رقم 8–2، كان سيبدو عاديًّا، وكان المنحنى سيتجه إلى الأعلى بالتأكيد، ولكن دون الانطلاق المطّرد الذي حدث للخطوط الممثلة لأوروبا وآسيا. يؤكِّد تشارلز كيني أنَّ تقدم أفريقيا الفعلي يكذِّب المنحدر السطحي لأنَّ الصحة وطول العمر والتعليم أقل تكلفةً مما كانا من قبل، ورغم أنَّ سكان الدول الأغنى يعيشون أطول عمومًا (وهي علاقة يُطلق عليها منحنى بريستون، نسبةً إلى الاقتصادي الذي اكتشفه)، إلَّا أنَّ المنحنى يندفع صعودًا، أي يعيش الجميع أطول بغض النظر عن الدخل. كان متوسط العمر المتوقع في أغنى دولة منذ قرنين (هولندا) أربعين عامًا فقط، ولم يكُن أعلى من خمسة وأربعين عامًا في أي دولة أخرى، أمَّا اليوم فمتوسط العمر المتوقع في أفقر دولة في العالم (جمهورية أفريقيا الوسطى) أربعة وخمسون عامًا، ولا يقل في أي دولةٍ عن خمسة وأربعين عامًا.

رغم سهولة السخرية من الدخل القومي باعتباره مقياسًا سطحيًّا وماديًّا، إلَّا أنَّه يرتبط بكل مؤشرات الازدهار، كما سنرى مرارًا وتكرارًا في الفصول التالية، فمن الأمور شديدة الوضوح أنَّ نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي يرتبط بطول العمر والصحة والتغذية، ومن الأمور الأقل وضوحًا أنَّه يرتبط بقيمٍ أخلاقية أسمى مثل السلام والحرية وحقوق الإنسان والتسامح. فالدول الأغنى –في المتوسط– تخوض حروبًا بعضها مع بعض بمعدلٍ أقل من غيرها (في الفصل الحادي عشر)، وهي أقل ميلًا إلى أن تمزقها الحروب الأهلية (الفصل الحادي عشر)، وأكثر ميلًا إلى أن تصير ديمقراطية وتظل كذلك (الفصل الرابع عشر)، وتتميز باحترام أكبر لحقوق الإنسان (الفصل الثاني عشر: في المتوسط، أي أنَّ دول النفط العربية غنية ولكنَّها قمعية). يَكنُّ مواطنو الدول الأغنى احترامًا أكبر للقيم «التحررية» أو الليبرالية مثل تمتُّع النساء بالمساواة وحرية التعبير وحقوق المثليين والديمقراطية التشاركية وحماية البيئة (الفصل العاشر والرابع عشر)، فمن غير المفاجئ أن تزداد الدول سعادةً كلما ازدادت غنى (الفصل الثامن عشر)، ولكن المفاجئ أنَّها كلما ازدادت غنى، ازدادت ذكاءً! (الفصل السادس عشر).

وعند تفسير متسلسلة «من الصومال إلى السودان» هذه، حيث تقع الدول الفقيرة العنيفة القمعية غير السعيدة على أحد الطرفين، وتقع الدول الغنية المسالمة الليبرالية السعيدة على الطرف الآخر، لا بد أن نذكر أنَّ الارتباط لا يعني السببية، وأنَّ هناك عوامل أخرى مثل التعليم والجغرافيا والتاريخ والثقافة قد يكون لها دور في الأمر، ولكن عندما يحاول المحللون الكميون المقارنة بينهما، يجدون أنَّ التنمية الاقتصادية تبدو وكأنَّها محرِّك رئيسي لرفاهة الإنسان. تقول نكتة أكاديمية قديمة إنَّ هناك عميد كلية يرأس اجتماعًا لأعضاء هيئة التدريس،

وفجأة ظهر جنِّي وعرض عليه تحقيق أمنية واحدة من بين ثلاث أمنيات: إمَّا المال أو الشهرة أو الحكمة، فأجاب العميد وقال: «هذا سهل جدًّا، أنا باحث، وكرَّستُ حياتي للفهم، سأختار الحكمة بالتأكيد». لوَّح الجني بيده واختفى وسط الدخان، ثم انقشع الدخان وظهر العميد واضعًا رأسه بين يديه، غارقًا في فكره، مرت دقيقة، ثم عشر دقائق، ثم خمس عشرة دقيقة، وأخيرًا قال أحد الأساتذة: «ماذا بعد؟ ماذا بعد؟» فتمتم العميد وقال: «كان لا بد أن أختار المال».

الفصل التاسع:
انعدام المساواة

«ولكن هل يذهب كل شيء إلى جيوب الأغنياء؟» هذا سؤال من الطبيعي أن يُطرح في الدول المتقدمة في العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، مع الهوس بانعدام المساواة الاقتصادية، إذ أطلق عليها البابا فرانسيس «أصل الشرور الاجتماعية»، ودعاها باراك أوباما بـ «التحدي الفارق في عصرنا»، وازدادت نسبة المقالات المنشورة في نيويورك تايمز التي تشمل كلمة انعدام المساواة بين عامي 2009 و2016 عشرة أضعاف، إذ بلغت 1 من بين كل 73 مقالًا. أصبحت الحكمة السائدة الجديدة هي أنَّ القلة الغنية التي تمثِّل نسبة 1% من الناس قد استحوذت على كل النمو الاقتصادي خلال العقود الأخيرة، وكل من سواهم يغرق ببطءٍ أو يصارع المياه في محاولةٍ للنجاة. لو كان هذا ما حدث، لما كان انفجار الثروة الذي وثقناه في الفصل السابق يستحق الاحتفاء، بما أنه لم يكُن ليظل مسهمًا في رفاهة البشر عمومًا.

لطالما كان انعدام المساواة الاقتصادية قضية مميّزة لليسار الذي اختص بها، ثم اكتسبت أهمية بارزة بعدما بدأ الكساد الكبير في عام 2007، فأشعلت حركة «احتلوا وول ستريت» في عام 2011، وترشح بيرني ساندرز للرئاسة في عام 2016، وهو الذي يعرِّف نفسه بأنه اشتراكي والذي صرَّح بأنَّ «الأمة لن تنجو أخلاقيًّا ولا اقتصاديًّا طالما تمتلك قلةٌ قليلة الكثير، بينما لا تمتلك الأكثرية سوى القليل جدًّا». ولكنَّ الثورة أكلت أبناءها في ذلك العام ودفعت نحو ترشح دونالد ترامب الذي زعم أنَّ الولايات المتحدة قد أصبحت «دولة عالم ثالث» ولم يُلقِ باللوم في تناقص ثروات الطبقة العاملة على وول ستريت والـ 1%، وإنَّما على الهجرة والتجارة الخارجية. التقى طرفا الطيف السياسي، اليمين واليسار، ولكلٍّ منهما أسبابه المختلفة للغضب من انعدام المساواة الاقتصادية، وساعد تشاؤمهما المشترك بشأن الاقتصاد الحديث في انتخاب أكثر رؤساء أمريكا تطرفًا في العصور الحديثة.

هل أشقى انعدام المساواة حقًّا أغلبية المواطنين؟ لا شك أنَّ انعدام المساواة قد زاد في معظم الدول الغربية منذ وصوله إلى أدنى مستوى له حوالي عام 1980، وخاصةً في الولايات المتحدة ودول أخرى متحدثة بالإنجليزية، لا سيّما في التفاوت بين الأغنى وبين كل من سواهم. يُقاس انعدام المساواة عادةً بمعامل جيني، وهو رقم يتراوح بين 0 الذي يعني أن ما يمتلكه الجميع متساوٍ، و1 الذي يعني أنَّ شخصًا واحدًا لديه كل شيء بينما لا يمتلك سواه شيئًا. (تتنوع قيم جيني عمومًا من 0.25 وهو ما يشير إلى توزيع الدخل الأكثر مساواةً، مثلما هو في البلدان الإسكندنافية بعد الضرائب والاستحقاقات، إلى 0.7 وهو ما يشير إلى توزيع غير متساوٍ بدرجةٍ هائلة مثلما هو في جنوب أفريقيا). ارتفع مؤشر جيني لدخل السوق (قبل الضرائب والاستحقاقات) في الولايات المتحدة من 0.44 في عام 1984 إلى 0.51 في عام 2012. يمكن قياس انعدام المساواة أيضًا بنسبة إجمالي الدخل الذي يجنيه جزءٌ ما (تقسيم كمي) من السكان. نمت حصة الدخل المتجه إلى الفئة الأغنى من سكان الولايات المتحدة، التي تمثل 1 في المئة، من 8 في المئة في عام 1980 إلى 18 في المئة في عام 2015، في حين نمت الحصة المتجهة إلى العُشر الأغنى من بين هؤلاء الذين يمثلون 1 في المئة، من 2 في المئة لتصل إلى 8 في المئة.

لا شك أنَّ بعض الظواهر التي تندرج تحت عنوان انعدام المساواة (هناك الكثير من تلك الظواهر) خطيرة ويجب تناولها، وإن كان ذلك فقط بغرض تعطيل الأجندات الهدَّامة التي تحرِّض عليها مثل ترك اقتصادات السوق والتقدم التكنولوجي والتجارة الخارجية. إنَّ تحليل انعدام المساواة شديد التعقيد (في سكان يبلغ عددهم مليون نسمة، توجد 999,999 طريقةً يمكن بها أن تنعدم المساواة بينهم)، وقد ملأ هذا الموضوع كتبًا عديدة، وسأحتاج إلى فصلٍ عن هذا الموضوع لأنَّ كثيرًا من الناس تأثروا تمامًا بالخطاب الديستوبي اليائس وأصبحوا يرون انعدام المساواة علامةً على إخفاق الحداثة في تحسين الحالة البشرية، وهذا كما سنرى خطأ لأسبابٍ كثيرة.

إن نقطة البداية لفهم انعدام المساواة في سياق تقدم البشر هو إدراك أنَّ انعدام المساواة في الدخل ليس مكوِّنًا أساسيًّا من مكوِّنات الرفاهة، فهو ليس كالصحة والرخاء والمعرفة والأمن والسلام ومجالات التقدم الأخرى التي أنظر فيها في هذه الفصول، والسبب في ذلك عبَّرتْ عنه نكتة قديمة من عهد الاتحاد السوفييتي وهي: كان إيجور وبوريس فلاحين معدمين يحصدان من أرضيهما الصغيرتين بالكاد ما يكفي لإطعام أسرتيهما، وكان الفرق الوحيد بينهما أنَّ بوريس كان يمتلك عنزة هزيلة. وفي أحد الأيام، رأى إيجور جنيةً أخبرته أن يتمنى أمنية وستحققها له، فقال إيجور: «أتمنى أن تموت عنزة بوريس».

والمقصود بهذه النكتة بالطبع أنَّهما أصبحا متساويين ولكنّ أيًّا منهما لم يصبح أيسر حالًا، وإن كان إيجور قد أرضى حسده الخبيث. عبَّر الفيلسوف هاري فرانكفورت (Harry Frankfurt) في كتابه **عن انعدام المساواة** *(On Inequality)* الصادر عام 2005 عن هذه النقطة أيضًا مع فارقٍ كبير، فقال فرانكفورت إنَّ انعدام المساواة ليس مستهجنًا من جانبٍ أخلاقي في ذاته، فالمستهجن هو الفقر، إذا عاش المرء حياةً طويلة مفعمة بالصحة والمتعة والحماس، فلن يكون من المهم من جانبٍ أخلاقي كم يجني جيرانك الأثرياء ولا حجم منزلهم ولا عدد سياراتهم. كتب فرانكفورت: «من وجهة نظرٍ أخلاقية، ليس من المهم أن يمتلك الجميع نفس الأشياء، فالمهم من الناحية الأخلاقية أن يمتلك الجميع ما يكفي». قد يكون التركيز ضيق الأفق على انعدام المساواة الاقتصادية هدَّامًا بالطبع إذا ألهانا وجعلنا نقتل عنزة بوريس بدلًا من اكتشاف كيف يمكن أن يحصل إيجور على عنزة أخرى.

ينبع الخلط بين الفقر وانعدام المساواة مباشرةً من مغالطة الكتلة الإجمالية، وهي العقلية التي تنظر إلى الثروة باعتبارها موردًا محدودًا كجثة حيوان يجب تقسيمها بمعادلة صفرية، فإذا حصل بعض الأفراد على مقدار أكثر، فإنّ الآخرين يحصلون بالضرورة على مقدارٍ أقل. والثروة كما رأينا ليست كذلك، فمنذ الثورة الصناعية ازدادت الثروة ازديادًا مطردًا، ويعني هذا أنَّه عندما يزداد الأغنياء غنى، فإنّ الفقراء يمكن أن يغتنوا أيضًا. وحتى الخبراء يردِّدون مغالطة الكتلة الإجمالية، من منطلق حماسة بلاغية على ما يبدو وليس من منطلق خلطٍ مفاهيمي، كتب توماس بيكيتي (Thomas Piketty)، الذي أصبح كتابه **رأس المال في القرن الحادي والعشرين** *(Capital in the Twenty-First Century)*، الصادر عام 2014 والذي حقق أعلى المبيعات، طلسم الحظ للضجة المثارة حول انعدام المساواة، وقال: «إنَّ النصف الأفقر من السكان اليوم في نفس مستوى الفقر الذي كان فيه في الماضي، إذ يمتلك بالكاد 5 في المئة من الثروة الإجمالية في عام 2010، تمامًا كما كان يمتلكه في عام 1910»، ولكنَّ الثروة الإجمالية اليوم أكثر مما كانت في عام 1910 بقدرٍ هائل، إذًا، لو كان النصف الأفقر يمتلك نفس النسبة، فهو أغنى كثيرًا وليس «في نفس مستوى الفقر».

من عواقب مغالطة الكتلة الإجمالية الأكثر ضررًا هو الاعتقاد بأنَّه إذا اغتنى بعض الناس، فلا بد أن يكونوا قد سرقوا من الآخرين أكثر من نصيبهم، وهذا خطأ، ويتضح سبب خطئه في مثالٍ شهير تصوره الفيلسوف روبرت نوزيك، ولكننا حدَّثناه ليلائم القرن الحادي والعشرين: يشمل مليارديرات العالم جي كي رولينج، مؤلفة سلسلة روايات هاري بوتر، التي بيعت منها أكثر من 400 مليون نسخة وتم تحويلها إلى سلسلة أفلام شاهدها عدد مقارب من المشاهدين. لنفترض أنَّ هناك مليار شخص، دفع كلٌّ منهم 10 دولارات للاستمتاع

بنسخة ورقية من إحدى روايات هاري بوتر أو بتذكرة سينما لمشاهدة أحد أفلام السلسلة، وذهب عُشر الأرباح للمؤلفة، فأصبحت مليارديرة، مما يزيد من نسبة انعدام المساواة، ولكنَّها جعلت الناس أفضل حالًا لا أسوأ (لا يعني هذا أنَّ كل شخص من الأغنياء قد جعل الناس أفضل حالًا)، ولا يعني هذا أنَّ ثروتها مستحقة نتيجة جهودها أو مهاراتها، ولا مكافأة على المعرفة والسعادة التي أضافتها إلى العالم، ولم تصدر لجنةٌ ما حكمًا باستحقاقها أن تكون بتلك الدرجة من الثراء، وإنما نتجت ثروتها عن قرارات طوعية اتخذها مليارات مشتري الكتب ومرتادي قاعات السينما.

ربما توجد بالتأكيد أسباب للقلق بشأن انعدام المساواة في ذاته وليس بشأن الفقر فقط، فقد يكون أغلب الناس مثل إيجور وتتحدَّد سعادتهم بالفرق بينهم وبين المواطنين الآخرين وليس بمدى جودة حالهم في المطلق. عندما يصبح الأغنياء شديدي الغنى، يشعر كل من سواهم بالفقر، لذا فإنَّ انعدام المساواة يقلِّل من الرفاهة حتى لو أصبح الجميع أغنى، وهذه فكرة قديمة في علم النفس الاجتماعي، ويُطلق عليها أسماء مختلفة مثل نظرية المقارنة الاجتماعية، أو الجماعات المرجعية، أو قلق السعي إلى المكانة، أو الحرمان النسبي، ولكن يجب أن نضع الفكرة في نصابها الصحيح. تخيل معي امرأة جاهلة اسمها «سيما» تعيش في بلدٍ فقير مقيَّدة بحدود قريتها، وفقدت نصف أطفالها بفعل المرض، وستموت في عمر الخمسين، كما سيحدث لأغلب من تعرفهم، والآن تخيل «سالي»، وهي امرأة متعلِّمة في بلدٍ غني وزارت عدة مدن وحدائق وطنية، وشهدت نمو أطفالها، وستعيش حتى عمر الثمانين، ولكنَّها عالقة في الطبقة الوسطى الدُنيا. من الجائز ألا تكون «سالي» سعيدة، لإحباطها بسبب الثروة الظاهرية التي لن تحصل عليها مطلقًا، وربما تكون حتى أتعس من «سيما» التي تشعر بالامتنان على النعم البسيطة، ومع ذلك، فمن الجنون افتراض أنَّ «سالي» لم تكُن أفضل حالًا، ومن الضلال أن نتوصل إلى أننا من الأفضل ألا نحاول تحسين حياة «سيما» لأنَّ هذا قد يحسِّن حياة جيرانها أكثر مما لا يجعلها أسعد.

وهذه التجربة الفكرية جدلية على أي حال، لأنَّ «سالي» في الحياة الواقعية أسعد بكل تأكيد. وعلى عكس الاعتقاد السابق بأنَّ الناس واعون بالمواطنين الآخرين الأغنى منهم لدرجة أنهم يواصلون إعادة ضبط مقياس سعادتهم الداخلية على هذا الأساس مهما كان مستواهم، فسنرى في الفصل الثامن عشر أنَّ الأشخاص الأغنى والأشخاص الذين يعيشون في دولٍ أغنى أسعد (في المتوسط) من الأشخاص الأفقر والأشخاص الذين يعيشون في دولٍ أفقر.

ولكن حتى لو صار الناس أسعد عندما يصبحون أغنى وتصبح بلدانهم أغنى، فهل يمكن أن يصيروا أكثر بؤسًا إذا ظل المحيطون بهم أغنى منهم مع زيادة نسبة انعدام المساواة الاقتصادية؟ يدَّعي اختصاصيا الوبائيات ريتشارد ويلكينسون (Richard Wilkinson) وكيت بيكيت (Kate Pickett) في كتابهما الشهير **مستوى الروح** *(The Spirit Level)* أنَّ الدول ذات المستويات الأعلى من انعدام المساواة في الدخل بها مستويات أعلى أيضًا من جرائم القتل والسجن وحمل المراهقات ووفيات الأطفال الرُضَّع والأمراض الجسدية والنفسية وغياب الثقة الاجتماعية والسمنة المفرطة وتعاطي المواد المخدرة، فانعدام المساواة الاقتصادية يتسبب في الأمراض كما يقولون: تجعل المجتمعات التي تغيب فيها المساواة الناسَ يشعرون بأنَّهم يُزج بهم في منافسة على السيطرة يحصل فيها الفائز على كل شيء، ويجعلهم التوتر والضغط مرضى ويدمِّرون أنفسهم.

أُطلق على نظرية مستوى الروح «نظرية اليسار الجديدة عن كل شيء»، وهي إشكالية كأي نظرية أخرى تقفز من ارتباطات متشابكة إلى تفسيرٍ أحادي السبب، فأولًا، ليس من الواضح أنَّ الناس يصابون بقلق المنافسة نتيجة وجود جي كي رولينج وسيرجي برين خلافًا لمنافسيهم المحليين على النجاح الاجتماعي أو العاطفي أو المهني، وتختلف الدول الأكثر مساواةً من الناحية الاقتصادية مثل السويد

وفرنسا عن الدول غير المتوازنة مثل البرازيل وجنوب أفريقيا في جوانبَ عديدة أخرى غير توزيع الدخل، فالدول الأكثر مساواةً تتسم بكونها أغنى وبتعليمٍ أفضل وإدارةٍ أفضل وبأنَّها أكثر تجانسًا من الناحية الثقافية، ولذا فالربط الأولي بين انعدام المساواة والسعادة (أو أي صورةٍ أخرى من صور الخير الاجتماعي) لا يُظهر سوى وجود عدة أسباب لكون الحياة في الدانمارك أفضل من الحياة في أوغندا. كانت عينة ويلكينسون وبيكيت قاصرة على الدول المتقدمة، ولكنَّ الارتباطات حتى في نطاق تلك العينة كانت عابرة، تظهر وتختفي بناءً على اختيار الدول التي ستشملها العينة، فالدول الثرية، ولكن المتّسمة بانعدام المساواة، مثل سنغافورة وهونج هونج، تتمتع بصحةٍ اجتماعية أفضل غالبًا من الدول الأفقر المتّسمة بمساواةٍ أكبر، مثل دول شرق أوروبا التي كانت شيوعية سابقًا.

قطع عالما الاجتماع جوناثان كيلي وماريا إيفانز الرابط السببي بين انعدام المساواة والسعادة في دراسةٍ أجرياها على مئتي ألف شخصٍ في ثمانية وستين مجتمعًا على مدار ثلاثة عقود، (وسننظر في كيفية قياس السعادة ومستوى الرضا عن الحياة في الفصل الثامن عشر)، كانت العوامل الثابتة في دراسة كيلي وإيفانز هي العوامل الكبرى التي من المعروف أنها تؤثر في السعادة ومنها: نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي، والعُمر، والنوع، والمستوى التعليمي، والحالة الاجتماعية، والمواظبة على الطقوس الدينية، ووجدت الدراسة أنَّ النظرية القائلة بأنَّ انعدام المساواة يتسبب في التعاسة قد «تحطمت على صخرة الحقيقة». ليس انعدام المساواة في الدول النامية محطمًا للمعنويات، بل مشجِّعًا، فالناس في المجتمعات الأقل مساواةً كانوا أسعد، إذ يشير الباحثان إلى أنَّ الأمل يطغي على ما يشعر به الناس في الدول الفقيرة التي تغيب فيها المساواة من حسدٍ أو قلق بشأن السعي إلى المكانة أو حرمانٍ نسبي، فيُنظر إلى انعدام المساواة باعتباره بشرى بوجود الفرص، وعلامة على أنَّ التعليم والطرق الأخرى للحراك الاجتماعي الصاعد قد تؤتي ثمارها لهم ولأطفالهم. وفي الدول المتقدمة (عدا الدول الشيوعية سابقًا)، لم يصنع انعدام المساواة أي فرق بأي شكل. (ولكن في الدول الشيوعية سابقًا، كانت آثاره ملتبسة قليلًا، فانعدام المساواة أضر بجيل كبار السن الذين نشؤوا في ظل الشيوعية، ولكنَّه إما ساعد الأجيال الأصغر أو لم يصنع فرقًا في حياتهم).

تثير آثار انعدام المساواة المتقلّبة على الرفاهية خلطًا شائعًا آخر في هذه النقاشات، وهو ربط انعدام المساواة بغياب العدل. أظهرت دراسات عديدة في علم النفس أنَّ الناس –بما يشمل الأطفال– يفضِّلون تقسيم المكاسب بالتساوي بين المشاركين حتى لو حصل الجميع في النهاية على مقدارٍ أقل، وأدَّى هذا ببعض علماء النفس إلى افتراض وجود متلازمة يُطلق عليها «النفور من عدم المساواة»: وهي الرغبة الظاهرة في توزيع الثروة. ولكنَّ علماء النفس كريستينا ستارمانز ومارك شيسكين وبول بلوم ألقوا نظرة ثانية على هذه الدراسات في مقالٍ حديث بعنوان «لماذا يفضِّل الناس المجتمعات غير المتساوية؟»، ووجدوا أنَّ الناس –الذين يشملون زملاءهم في المختبر ومواطنين آخرين من بلدهم– يفضِّلون التوزيع غير المتساوي طالما شعروا أنَّ التقسيم عادل: أي أنَّ العلاوات ذهبت إلى العاملين بجدٍّ أكثر، أو المساعدين الأكرم، أو حتى الفائزين المحظوظين بيانصيبٍ نزيه. توصل الباحثون في النهاية إلى أنَّه «لا يوجد دليل حتى الآن على أنَّ الأطفال أو البالغين يشعرون بأي نفورٍ من عدم المساواة»، فالناس يرضون بانعدام المساواة الاقتصادية طالما شعروا بأنَّ البلد تقوم على أساس الجدارة، ويغضبون عندما يشعرون بغير ذلك. إنَّ التصورات حول أسباب انعدام المساواة تدور في عقول الناس أكثر مما تفعل حقيقة انعدام المساواة. يخلق هذا ثغرة للساسة كي يثيروا عواطف الناس بالاستفراد «بالغشاشين» الذين يأخذون أكثر من حصتهم العادلة مثل: المتربحات من الشؤون الاجتماعية، والمهاجرين، والدول الأجنبية، والمصرفيين، والأغنياء الذين ينتمون إلى أقلية عرقية.

إضافةً إلى آثار انعدام المساواة فيما يخص علم النفس الفردي، فقد ارتبط بأنواع عديدة من الاختلالات على النطاق المجتمعي، بما فيها الركود الاقتصادي، والاضطراب المالي، والثبات الاجتماعي بين الأجيال، واستغلال النفوذ السياسي. يجب أن نأخذ هذه الأضرار

على محمل الجد، ولكن لا يجب أن نقفز من الارتباط إلى السببية في هذه النقطة أيضًا، وفي الحالتين، أظن أنَّ توجيه إصبع الاتهام إلى مؤشر جيني بكونه السبب الجذري العميق لكثيرٍ من الأمراض الاجتماعية أقل فعاليةً من تركيز الانتباه على الحلول لكلٍّ من هذه المشكلات، مثل: الاستثمار في الأبحاث والبنية التحتية من أجل الهروب من الركود الاقتصادي، وتنظيم القطاع المالي للحد من الاضطراب، وتوسيع فرص الحصول على التعليم والتدريب على الوظائف من أجل تسهيل الحراك الاقتصادي، والشفافية الانتخابية وإصلاح نظام التمويلات للقضاء على استغلال النفوذ بطريقة غير شرعية، وهكذا. إنَّ أثر المال في السياسة خبيثٌ بصورةٍ خاصة لأن بإمكانه تشويه كل سياسات الحكومة، ولكنه لا يساوي انعدام المساواة في الدخل، فهذه مشكلة أخرى، ففي ظل عدم القيام بإصلاح النظام الانتخابي، سيتمكّن الداعمون الأغنى من التأثير في الساسة سواء كانوا يجنون 2 أم 8 في المئة من الدخل القومي.

فانعدام المساواة الاقتصادية إذًا ليس أحد أبعاد رفاهة البشرية في ذاته، ولا يجب خلطه مع الفقر أو غياب العدل. لننتقل الآن من الدلالة الأخلاقية لانعدام المساواة إلى السؤال عن سبب تغيره بمرور الوقت.

إنَّ الرواية التاريخية الأبسط عن انعدام المساواة أنَّه جاء مصاحبًا للحداثة، لا بد أنَّنا قد بدأنا في حالةٍ أصلية من المساواة، لأنَّه عندما لم تكُن هناك ثروة، كان لدى الجميع حصص متساوية من اللا شيء، ثم عندما صُنِعت الثروة، استطاع بعض الناس أن يحصلوا على نصيب أكثر من الآخرين. فانعدام المساواة وفق هذه القصة قد بدأ من مستوى الصفر، ومع تزايد الثروة بمرور الوقت، زاد مستوى انعدام المساواة أيضًا، ولكنَّ هذه القصة ليست صحيحة تمامًا.

إنَّ البشر الذين يعيشون على الصيد وجمع الثمار يبدو أنهم يتمتعون بقدرٍ كبير من المساواة، وهي الحقيقة التي ألهمت ظهور نظرية ماركس وإنجلز عن «الشيوعية البدائية»، ولكنَّ علماء الإثنوغرافيا يشيرون إلى أنَّ تلك الصورة عن المساواتية لدى العلافين مضللة. فأولًا: لا تمثّل جماعات الصيد وجمع الثمار الموجودة حتى اليوم والتي يمكننا دراستها طريقة الحياة التي عاشها أسلافنا، لأنَّ هذه الجماعات قد دُفِعت نحو العيش في أراضٍ حدية ويعيشون حياة بدوية تجعل تراكم الثروة مستحيلًا، كما أنَّ نقلها من مكانٍ لآخر كان سيصبح أمرًا مزعجًا. ولكنَّ جماعات الصيد وجمع الثمار المستقرة، مثل السكان الأصليين لشمال غرب المحيط الهادئ، الذي يفيض بسمك السلمون والتوت والحيوانات ذات الفرو، لم تكن تحقق المساواة، بل ونشأت فيها طبقة من النبلاء بالوراثة تمتلك عبيدًا وتكتنز وسائل الترفيه وتتفاخر بثروتها في احتفالات البوتلاتش المبهرجة*. وفي حين أنَّ جماعات الصيد وجمع الثمار البدوية تتشارك في اللحوم، بما أنَّ الصيد يتوقَّف على الحظ غالبًا وأنَّ مشاركة المكسب يؤمِّن الجميع ضد الأيام التي يعودون فيها خاليي الوفاض، لكنَّ احتمالية أن يتشاركوا غذائهم المكون من نباتات أقل، بما أنَّ جمع الثمار يتوقَّف على المجهود، وأنَّ المشاركة دون تمييز ستسمح بالانتفاع المجاني. إذًا فانعدام المساواة بدرجةٍ ما أمرٌ عام في مختلف المجتمعات، وكذلك الوعي بانعدامها. وجد بحث حديث عن انعدام المساواة في أشكال الثروة التي يمكن صنعها في مجتمعات الصيد وجمع الثمار (مثل الأحصنة والقوارب وعائدات الصيد والعَلْف) أنَّ هذه المجتمعات أبعد ما تكون عن «الشيوعية البدائية»، فكان متوسط قيم جيني لهذه المجتمعات 0.33، وهو ما يقرب من قيمة الدخل المتاح للإنفاق في الولايات المتحدة في عام 2012.

ماذا يحدث عندما يبدأ أحد المجتمعات في توليد ثروة وافرة؟ تكون زيادة انعدام المساواة المطلقة (أي الفرق بين الأغنى والأفقر) ضرورةً رياضية تقريبًا، ففي ظل غياب هيئة توزيع الدخل التي توزّع حصصًا متطابقة، يكون من الحتمي أن ينتهز بعض الناس الفرص

---

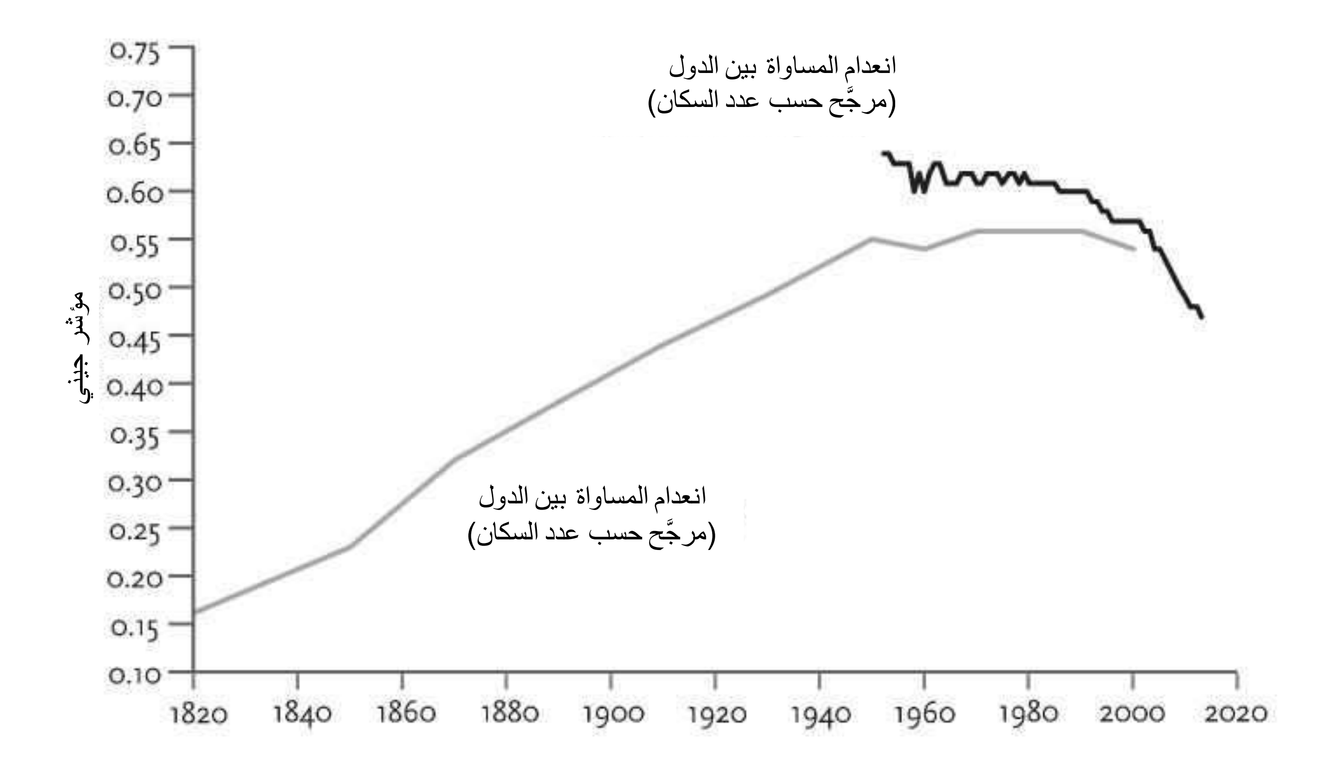
*هو احتفال عند السكان الأصليين للشمال الغربي من كندا والولايات المتحدة تُقدم فيه الهدايا. -المترجمة.

الجديدة أكثر من غيرهم، سواء أكان ذلك بالحظ أم بالمهارات أم بالمجهود، وسيحصدون عوائد غير متناسبة مع ما يحصده الآخرون.

وليست الزيادة في انعدام المساواة النسبية (التي تُقاس بمؤشر جيني أو بالحصص من الدخل) ضرورةً رياضية، ولكن من المحتمل جدًّا حدوثها، وفقًا لفرضية الاقتصادي سيمون كوزنتس، فإنّه مع ازدياد غنى الدولة، لا بد أن تقل فيها المساواة، لأنَّ بعض الناس يتركون الزراعة ويتجهون إلى أعمال ذات أجر أعلى في حين يظل البقية في بؤس الريف. ولكن في النهاية، يرفع التيار كل القوارب معًا، فكلما زاد عدد السكان الذين يتجهون إلى الاقتصاد الحديث، فإنّ انعدام المساواة لا بد أن يتراجع، مشكّلِا حرف U، ويُطلق على القوس الافتراضي لمستوى انعدام المساواة عبر الأزمنة منحنى كوزنتس.

رأينا في الفصل السابق ملامح من منحنى كوزنتس لانعدام المساواة بين الدول. بينما اشتد عود الثورة الصناعية، قامت الدول الأوروبية بالهروب الكبير من الفقر العالمي، مخلّفةً وراءها الدول الأخرى، وكما قال ديتون: «العالم الأفضل يصنع عالما مليء بالاختلافات، أما الهروب فيتسبب في انعدام المساواة». ثم مع استمرار العولمة ونشر المعارف العملية المولِّدة للثروة، بدأت الدول الفقيرة تلحق بمن سبقتها فيما يُطلق عليه التقارب الكبير. ورأينا ملامح انخفاض مستوى انعدام المساواة العالمية في انطلاق الناتج المحلي الإجمالي في الدول الآسيوية (الشكل رقم 8–2)، وفي تغير شكل توزيع الدخل العالمي من قوقعة صغيرة إلى جملٍ ذي سنامين، إلى جملٍ وحيد السنام (الشكل رقم 8–3)، وفي انخفاض نسبة الأشخاص الذين يعيشون في فقرٍ مدقع (الشكل رقم 8–4) وعددهم (الشكل رقم 8–5).

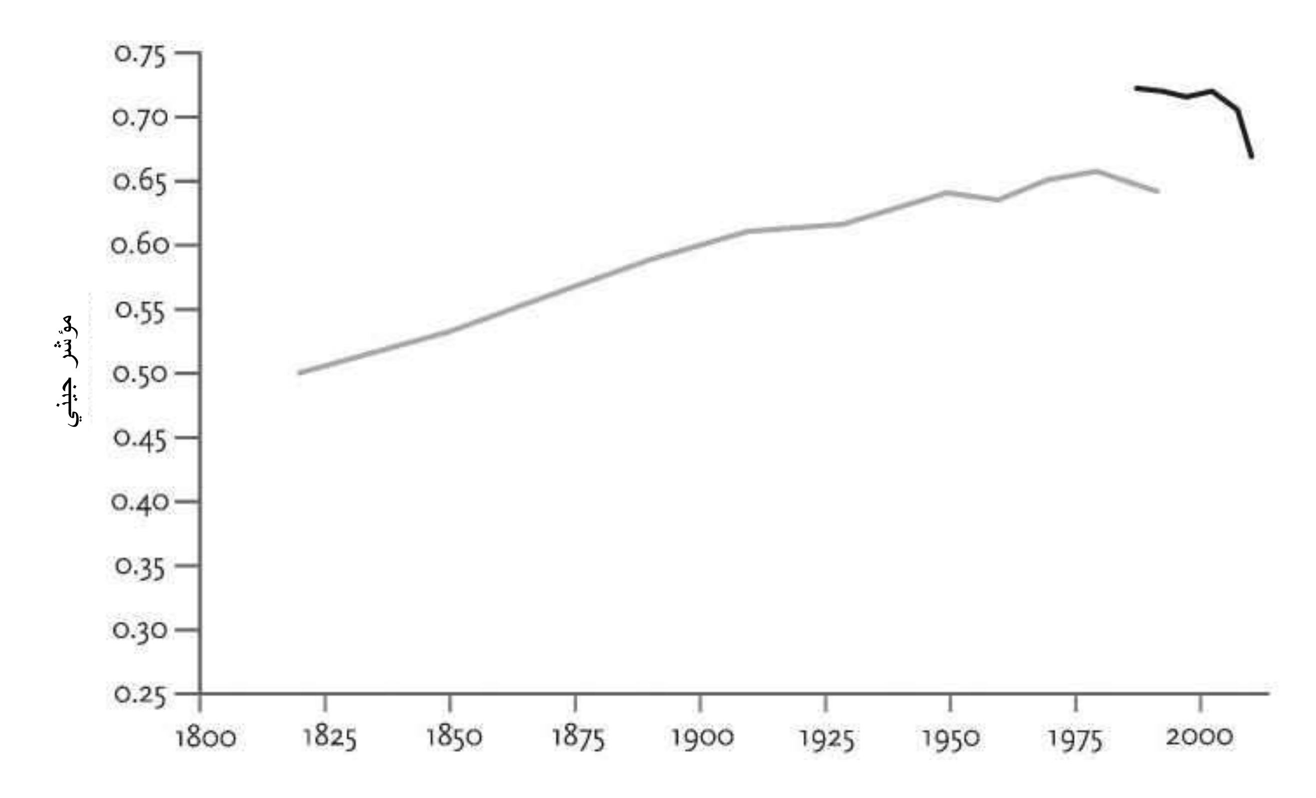
ولإثبات أنَّ هذه المكاسب تشكِّل حقًّا تراجعًا في مستوى انعدام المساواة –أي أنَّ الدول الفقيرة تغتني أسرع مما تفعل الدول الغنية– فنحن بحاجةٍ إلى مقياسٍ واحد يجمعهما سويًّا، أي مؤشر «جيني» دولي يعامل كل دولة كأنَّها شخص. يوضِّح الشكل رقم 9–1 أنَّ مؤشر جيني الدولي قد ارتفع من قيمة 0.16 المنخفضة في عام 1820 عندما كانت كل الدول فقيرة، إلى قيمة 0.56 في عام 1970 عندما كانت بعضها غنية، ثم استقر وبدأ يهبط في الثمانينيات كما تنبَّأ كوزنتس، ولكنَّ مؤشر جيني الدولي مضلِّل إلى حدٍّ ما، لأنَّه يحسب التحسُّن في مستويات معيشة مليار مواطن صيني كأنه مساوٍ للتحسُّن في مستويات معيشة 4 مليون مواطن بنمي على سبيل المثال. يوضح الشكل رقم 9–1 مؤشر «جيني» دولي حسبه الاقتصادي برانكو ميلانوفيتش، وفيه يتم حساب كل دولة بالنسبة لعدد سكانها، مما يجعل أثر البشر على الانخفاض في مستوى انعدام المساواة أوضح.



الشكل رقم 9- 1: انعدام المساواة بين الدول منذ 1820 حتى 2013

المصادر: International inequality: OECD Clio Infra Project, Moatsos et al. 2014، البيانات خاصة بدخل الأسرة في مختلف الدول. Population-weighted international inequality: Milanović 2012، البيانات الخاصة بعامي 2012 و2013 مقدَّمة من برانكو ميلانوفيتش عن طريق التواصل الشخصي.

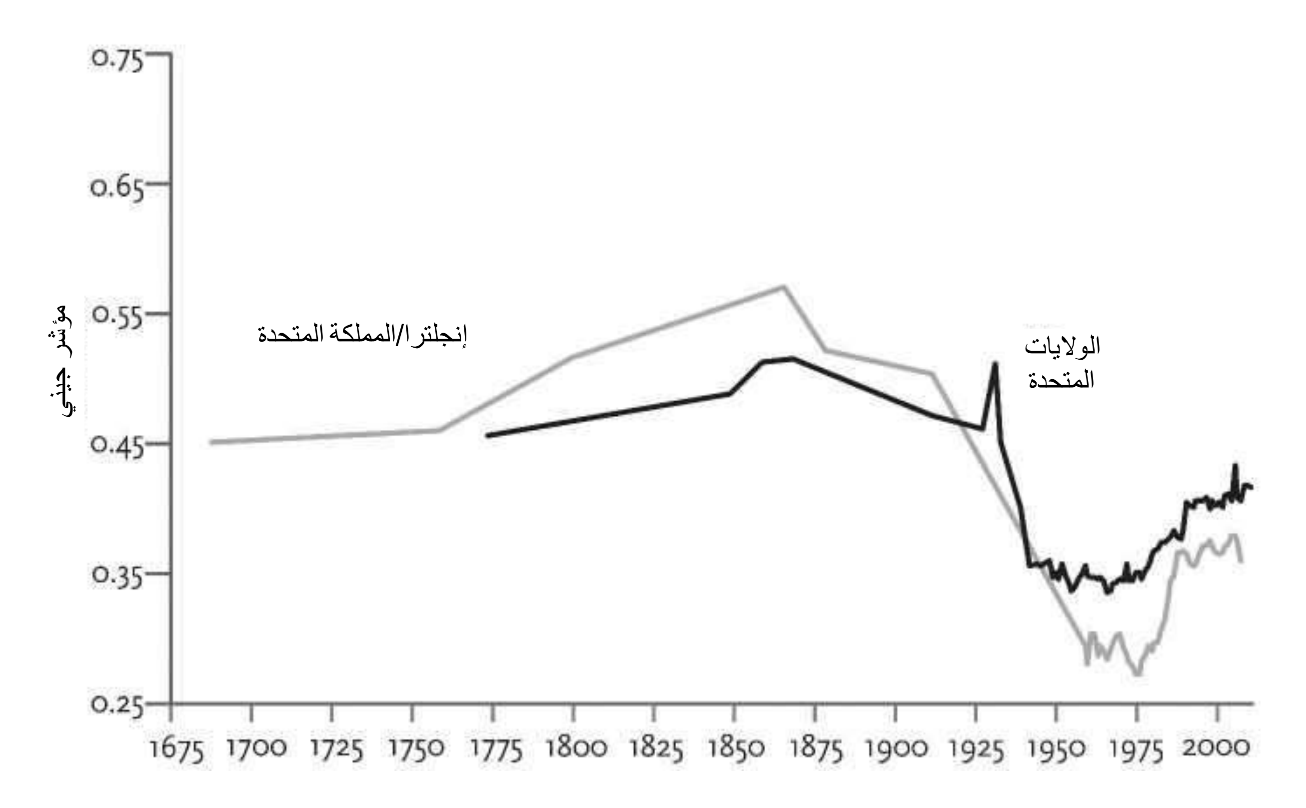
ولكن مؤشر «جيني» الدولي يعامل كل الصينيين كأنَّهم يجنون نفس القدر من المال، وكل الأمريكيين كأنَّهم يجنون متوسط الدخل الأمريكي، وهكذا، ونتيجةً لذلك فهو يقلِّل من تقدير مستوى انعدام المساواة لدى الجنس البشري بمختلف جنسياته. ويصعب أكثر حساب مؤشر «جيني» العالمي الذي يُحتسب فيه كل شخص بنفس القيمة بغض النظر عن بلده، لأنَّه يستلزم مزج دخول أشخاص من دولٍ متباينة سويًّا، ولكننا نظهر في الشكل رقم 9-2 تقديرين مختلفين. يطفو الخطَّان على ارتفاعات مختلفة لأنَّهما قد تم معايرتهما بالدولار وتعديلهما لمراعاة تعادل القوة الشرائية في أعوام مختلفة، ولكنَّ ميلهما يشكِّل منحنى كوزنتس بدرجةٍ ما، فبعد الثورة الصناعية، زاد مستوى انعدام المساواة العالمية بمعدلٍ ثابت حتى حوالي العام 1980، ثم بدأ في الهبوط. يوضِّح منحنيا «جيني» الدولي والعالمي أنَّه على الرغم من القلق بشأن ارتفاع مستوى انعدام المساواة بين الدول الغربية، إلَّا أنَّ مستوى انعدام المساواة في العالم في تراجع. ولكنَّ هذه طريقة ملتوية للتعبير عن حالة التقدم، فالأمر المهم في تراجع مستوى انعدام المساواة هو أنَّه يعني التراجع في مستويات الفقر.



الشكل رقم 9- 2: انعدام المساواة بين الدول منذ 1820 حتى 2013

المصدر: Milanović 2016, fig. 3.1. يوضِّح المنحنى الأيسر الدخل المتاح للإنفاق للفرد بالدولار الدولي لعام 1990، ويوضِّحه المنحنى الأيمن بالدولار الدولي لعام 2005، ويجمع المسوح التي أجريت على الأسر على الدخل المتاح للإنفاق للفرد واستهلاكه.

كان ما أطلق جرس الإنذار مؤخرًا هو انعدام المساواة بين الدول المتقدمة مثل الولايات المتحدة والمملكة المتحدة، وسنعرض قيم هاتين الدولتين حسب مؤشر جيني لسنوات طويلة في الشكل رقم 9–3. حتى وقتٍ قريب، كانت الدولتان تشكِّلان قوس كوزنتس، ثم ارتفع مستوى انعدام المساواة خلال الثورة الصناعية، ثم بدأ يهبط تدريجيًّا في البداية في أواخر القرن التاسع عشر، ثم هبط بحدة في منتصف القرن العشرين، وفي 1980 تقريبًا ارتد مستوى انعدام المساواة ليرتفع في شكلٍ مختلف عن منحنى كوزنتس. لنفحص كل جزءٍ تباعًا.



الشكل رقم 9- 3: انعدام المساواة في المملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية منذ 1688 حتى 2013

المصدر: Milanović 2016, fig. 2.1، الدخل المتاح للإنفاق للفرد.

يعكس ارتفاع مستوى انعدام المساواة وانخفاضه في القرن التاسع عشر توسع الاقتصاد وفق افتراض كوزنتس، مما يجذب مزيدًا من الناس إلى مهنٍ حضرية تلزمها المهارات، ومن ثم فهي ذات أجور أعلى، ولكن كانت هناك أسباب مفاجئة للهبوط الشديد في القرن العشرين –الذي أُطلق عليه التسوية الكبرى أو الضغط الكبير–، إذ يتداخل هذا الهبوط مع الحربين العالميتين، ولا تُعد هذه مصادفة، فالحروب الكبرى تساوي توزيع الدخل غالبًا، وتدمِّر الحروب رأس المال المولِّد للثروة، وتضخِّم أصول الدائنين، وتحث الأغنياء على تحمل الضرائب الأعلى، التي تعيد الحكومة توزيعها على رواتب الجنود وعمال الذخيرة، مما زاد بدوره من الطلب على العمالة في بقية قطاعات الاقتصاد.

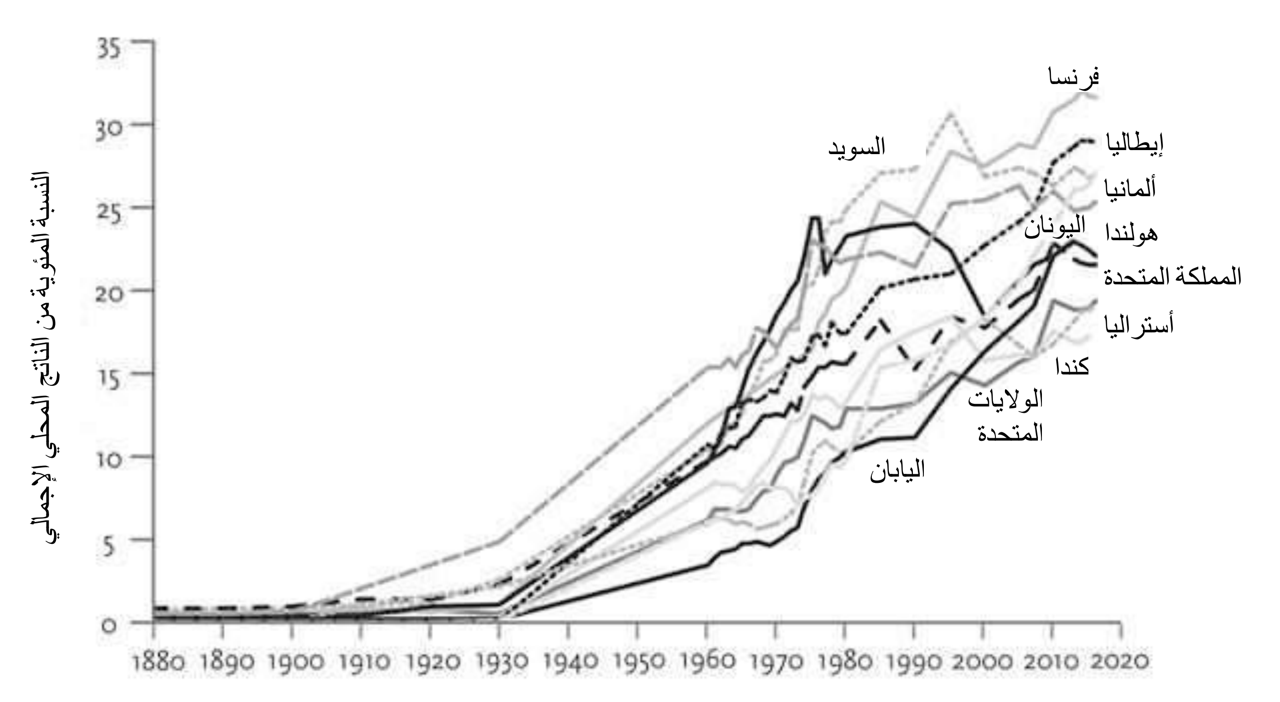
تُعد الحروب شكلًا واحدًا فقط من أشكال الكوارث التي يمكنها خلق المساواة بمنطق إيجور وبوريس، فيحدد المؤرخ والتر شايدل «فرسان التسوية الأربعة»، وهُم حروب التعبئة الشعبية، والثورات التحولية، وانهيار الدول، والأوبئة الفتاكة. تسبب هؤلاء الفرسان الأربعة في إبادة الثروة (وكذلك الأشخاص الذين كانوا يملكونها في الثورات الشيوعية)، فضلًا عن خفض مستويات انعدام المساواة عبر قتل أعداد كبيرة من العمال، مما نتج عنه زيادة أجور الناجين. يخلُص شايدل إلى أنَّ: «من الأفضل أن يتذكر كل من يقدِّر المزيد من المساواة الاقتصادية أنَّها لم تأتِ دون أسى إلا في بعض الاستثناءات النادرة للغاية، فاحذر ما تتمناه».

ينطبق تحذير شايدل على مدى التاريخ، ولكنَّ الحداثة قد أنتجت طرقًا أقل خطرًا لخفض مستويات انعدام المساواة، فكما رأينا

مثلًا فإنّ اقتصاد السوق هو البرنامج الأفضل الذي نعرفه لخفض مستوى الفقر في دولةٍ بأكملها، ولكنَّه ليس معدًّا للإنفاق على الأفراد في تلك الدولة ممن ليس لديهم ما يقدِّمونه في المقابل مثل: الصغار، والمسنين، والمرضى، وقليلي الحظ، والآخرين الذين لا يتمتعون بالمهارات والعمل القيّم للآخرين بما يحقِّق لهم دخلًا كريمًا في المقابل. (وبعبارةٍ أخرى، فإنَّ اقتصاد السوق يضاعف المتوسط، ولكننا نهتم أيضًا بالتباين والمدى). مع توسع دائرة التعاطف لتتجاوز الفقراء (ومع رغبة الناس في تأمين أنفسهم في حالة إذا أصبحوا فقراء في أي وقتٍ)، أصبح الناس يخصِّصون جزءًا من مواردهم الجماعية –أي الأموال الحكومية– للتخفيف من حدة ذلك الفقر. لا بد أن تأتي تلك الموارد من مكانٍ ما، ربما تأتي من ضرائب على المبيعات أو على الشركات، أو من صناديق الثروة السيادية، ولكنَّها في أغلب الدول تأتي من ضرائب الدخل المتدرجة، التي يدفع وفقها المواطنون الأغنى نسبة أعلى لأنَّهم لا يشعرون بالخسارة بحدة كالآخرين. النتيجة النهائية هي «إعادة التوزيع»، ولكنَّ هذا خطأ في التسمية، لأنَّ الهدف هو رفع القاعدة وليس خفض القمة، حتى إذا انخفضت القمة عمليًّا.

أولئك الذين يدينون المجتمعات الرأسمالية الحديثة بسبب قسوتها على الفقراء لا يعون على الأرجح مدى قلة ما كانت تنفقه المجتمعات قبل الرأسمالية في الماضي على إغاثة الفقراء، لم يقتصر الأمر على أنَّهم كانوا يمتلكون مقدارًا متاحًا للإنفاق على الفقراء أقل في المطلق، وإنما أيضًا كانوا ينفقون نسبةً أقل من ثروتهم، نسبةً أقل كثيرًا: إذ أنفقت الدول الأوروبية من عصر النهضة حتى بداية القرن العشرين متوسط 1.5 في المئة من ناتجها المحلي الإجمالي على إغاثة الفقراء والتعليم والتحويلات الاجتماعية، وفي كثيرٍ من الدول والفترات الزمنية، لم ينفقوا أي شيء على الإطلاق.

ومن الأمثلة الأخرى على التقدم، ما يُطلق عليه أحيانًا الثورة المساواتية، وهو أنَّ المجتمعات الحديثة تخصِّص الآن قسمًا كبيرًا من ثروتها للصحة والتعليم ومعاشات التقاعد وإعانات الدخل. يوضِّح الشكل رقم 9–4 أنَّ الإنفاق الاجتماعي قد بدأ في منتصف القرن العشرين (في الولايات المتحدة ببرنامج «الصفقة الجديدة» في الثلاثينيات، وفي الدول المتقدمة الأخرى مع نهوض «دولة الرفاه» بعد الحرب العالمية الثانية)، ويحتل الإنفاق الاجتماعي الآن متوسط 22 في المئة من الناتج المحلي الإجمالي.



الشكل رقم 9- 4: الإنفاق الاجتماعي في دول منظمة التعاون والتنمية في الميدان الاقتصادي منذ 1880 حتى 2016

المصدر: *Our World in Data*، Ortiz-Ospina & Roser 2016b، بناءً على بيانات من Lindert 2004 ومنظمة التعاون والتنمية في الميدان الاقتصادي (OECD) 1985 و2014، و2017. تشمل منظمة التعاون والتنمية في الميدان الاقتصادي خمسًا وثلاثين دولة ديمقراطية تتبع نظام اقتصاد السوق.

أعاد انطلاق الإنفاق الاجتماعي تحديد مهمة الحكومة، من القتال وحفظ الأمن والنظام إلى الرعاية، وخضعت الحكومات لهذا التحول لأسباب عدة، فالإنفاق الاجتماعي يلقِّح المواطنين ضد إغواء الشيوعية والفاشية، وبعض المنافع مثل التعليم العالمي والصحة العامة تمثِّل خيرًا عامًا يستفيد منه الجميع وليس المنتفعون المباشرون فحسب. توجد برامج كثيرة تؤمِّن المواطنين ضد الأضرار التي لا يستطيعون أو لا يريدون تأمين أنفسهم ضدها (ومن هنا جاءت الكناية «شبكة الأمان الاجتماعي»)، وترضي مساعدة المحتاجين ضمير الإنسان المعاصر، الذي لا يمكنه تحمل فكرة أن تتجمد «بائعة الثقاب الصغيرة»* حتى الموت، أو أن يُسجن جان فالجان* لأنَّه سرق الخبز لينقذ أخته الجائعة، أو أن يدفن جود جده على جانب الطريق رقم 66.*

بما أنَّه من غير المنطقي أن يرسل الجميع مالًا إلى الحكومة ثم يُرد إليهم (بعد اقتطاع حصة السلطة البيروقراطية)، فالإنفاق الاجتماعي مُصمم بطريقة تجعله يساعد الناس الذين يمتلكون قدرًا أقل من المال، على حساب الأشخاص الذين يمتلكون قدرًا أكثر من المال، وهذا هو المبدأ المعروف بإعادة التوزيع، أو دولة الرفاه أو الديمقراطية الاجتماعية أو الاشتراكية (وهي تسمية مضللة لأنَّ رأسمالية السوق الحر تتوافق مع أي قدر من الإنفاق الاجتماعي). سواء أكان الإنفاق الاجتماعي مصممًا بطريقة تخفِّض مستوى انعدام المساواة أم لا، فهذا أحد آثارها، ويفسِّر زيادة النفقات الاجتماعية منذ الثلاثينيات حتى السبعينيات جزءًا من أسباب تراجع مؤشر جيني.

يظهر الإنفاق الاجتماعي جانبًا غريبًا من التقدم سنقابله مجددًا في الفصول اللاحقة. رغم أنَّني أخشى أي تصور للحتمية التاريخية أو القوى الكونية أو «أقواس العدالة» الصوفية، إلَّا أنَّ بعض أنواع التغيرات الاجتماعية تبدو فعلًا وكأنَّها بفعل قوة خارقة عنيدة، ومع استمرار هذه التغيرات، تعارضها بعض الفصائل المحددة بقوة شديدة، ولكن يتضح أنَّ المقاومة عبثية. والإنفاق الاجتماعي مثال على ذلك، تشتهر الولايات المتحدة بمقاومة أي شيء يُنذر بإعادة التوزيع، ومع ذلك فهي تخصِّص 19 في المئة من ناتجها المحلي الإجمالي للخدمات الاجتماعية، ورغم بذل المحافظين والتحرريين قصارى جهودهم، إلَّا أنَّ الإنفاق استمر في الزيادة والتوسع، وأحدث هذه التوسعات برنامج إعانة الأدوية الموصوفة الذي طرحه جورج بوش الابن، وخطة التأمين الصحي «أوباما كير» المسمَّاة تيمنًا بأوباما الذي طرحها.

إنَّ الإنفاق الاجتماعي في الولايات المتحدة بالتأكيد أعلى مما يبدو عليه، لأنَّ كثيرًا من الأمريكيين يُجبرون على دفع مقابل الرعاية الصحية والتقاعد وإعانات العجز من خلال جهة عملهم وليس الحكومة، وعند إضافة هذا الإنفاق الاجتماعي ذي الإدارة الخاصة إلى العام، تنتقل الولايات المتحدة من المرتبة الرابعة والعشرين إلى المرتبة الثانية من بين دول منظمة التعاون والتنمية في الميدان الاقتصادي، بعد فرنسا.

---

*بائعة الثقاب الصغيرة (Little Match Girl) قصة قصيرة من تأليف الكاتب الدانماركي هانس كريستيان أندرسن. -المترجمة.
*جان فالجان هو بطل رواية فيكتور هوجو الشهيرة «البؤساء». -المترجمة.
*جود هو بطل رواية «عناقيد الغضب» (The Grapes of Wrath) للكاتب الأمريكي جون ستاينبيك. -المترجمة.

رغم كل احتجاجات الناس على الحكومة الضخمة والضرائب المرتفعة، إلَّا أنَّهم يحبون الإنفاق الاجتماعي، فقد أُطلق على الضمان الاجتماعي «القضيب الثالث» لقطار السياسة الأمريكية، لأنَّ الساسة إذا اقتربوا منه ماتوا. قيل في الأساطير إنَّ أحد الناخبين الغاضبين حذر ممثِّليه في أحد اجتماعات مجلس البلدية قائلًا: «كفوا أيدي حكومتكم عن برنامج الرعاية الطبية» (مشيرًا إلى برنامج الحكومة للتأمين الصحي لكبار السن). بمجرد تمرير برنامج «أوباما كير»، جعل الحزب الجمهوري إلغاءه قضيتهم المقدسة، ولكنَّ كل هجماتهم عليه بعد الحصول على الرئاسة في عام 2017 صدها المواطنون الغاضبون في اجتماعات مجالس البلدية والمشرِّعون الخائفون من حنقهم. إنَّ أبرز نشاطين للتسلية في كندا (بعد الهوكي) هما الشكوى من نظام الرعاية الصحية والتفاخر بنظام الرعاية الصحية.

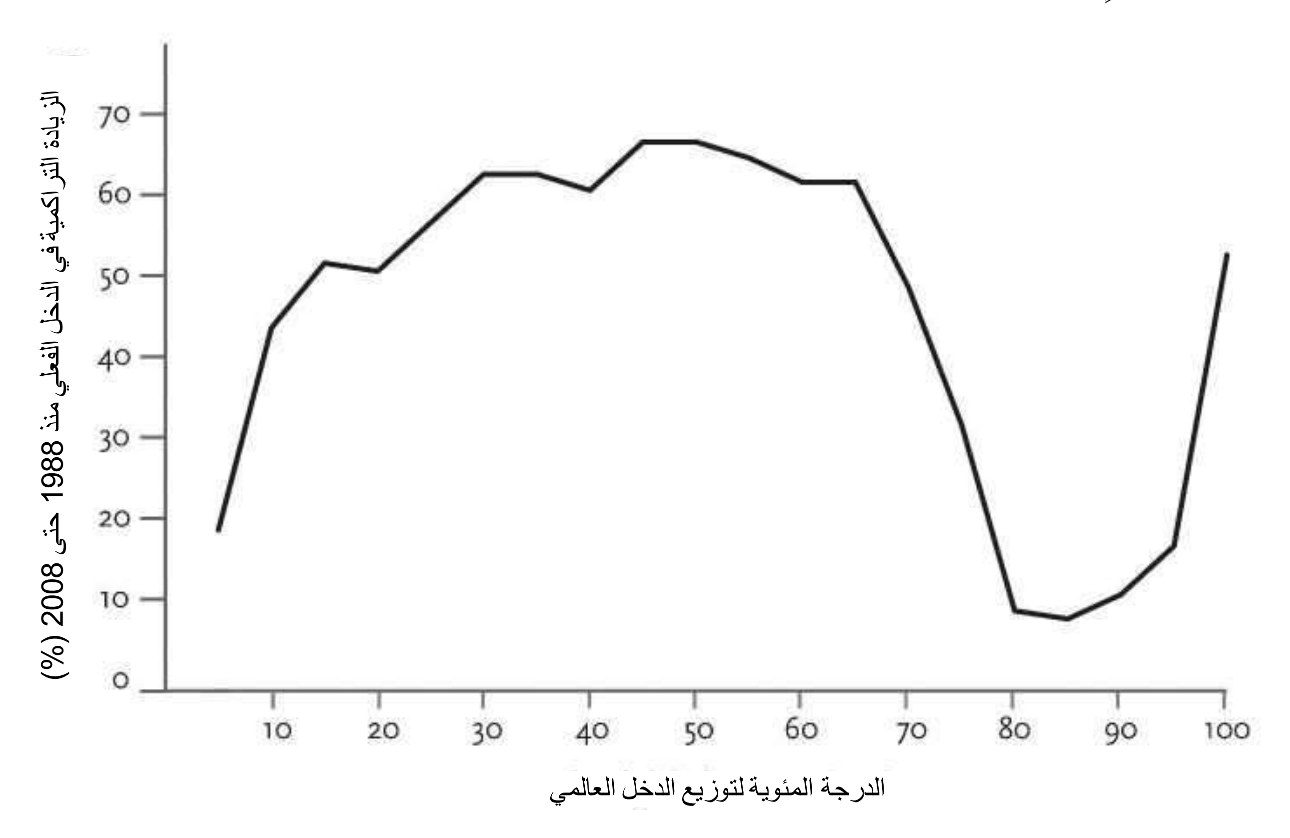
تبخل الدول النامية اليوم، كما كانت تفعل الدول المتقدمة منذ قرنٍ، على الإنفاق الاجتماعي، فإندونيسيا على سبيل المثال تنفق عليه 2 في المئة من ناتجها المحلي الإجمالي، وتنفق الهند 2.5 في المئة، في حين تنفق الصين 7 في المئة، ولكن كلَّما ازدادت الدول غنى، ازدادت سخاءً، وهي ظاهرة اسمها قانون فاجنر. بين عامي 1985 و2012، ضاعفت المكسيك نسبة إنفاقها الاجتماعي بخمسة أضعاف، والنسبة في البرازيل الآن 16 في المئة، يبدو أنَّ قانون فاجنر ليس حكاية تحذيرية من تغطرس الحكومة وتضخم البيروقراطية، وإنَّما تعبير عن التقدم. وجد الاقتصادي ليوناردو برادوس دي لا إسكوسورا صلةً قوية بين النسبة المئوية من الناتج المحلي الإجمالي التي خصّصتها إحدى دول منظمة التعاون والتنمية في الميدان الاقتصادي للتحويلات الاجتماعية بين عامي 1800 و2000 ونتيجتها على مقياس مركَّب للرخاء والصحة والتعليم. إنَّ عدد الدول التي تعيش في جنة التحرريين في العالم –أي دول متقدمة دون إنفاق اجتماعي يُذكر– صفر، ولهذا دلالة بالطبع.

تظل الصلة بين الإنفاق الاجتماعي والرفاهة الاجتماعية قوية حتى نقطة معينة، فيستقر المنحنى عند حوالي 25 في المئة وقد يهبط مع ارتفاع النسب، فالإنفاق الاجتماعي له جوانب سلبية مثل كل شيء آخر، إذ قد يصنع كل هذا التأمين «خطرًا أخلاقيًّا» كأن يتراخى المؤمَّن عليهم أو يخاطروا بحماقةٍ، معتمدين على أن تنقذهم جهة التأمين إذا فشلوا، وبما أنَّ أقساط التأمين يجب أن تغطي المدفوعات، فإذا أخطأ الخبراء الأكتواريون في الأرقام أو تغيرت الأرقام بما يؤدي إلى دفع أموال أكثر من الأقساط المدفوعة، فإنّ النظام يمكن أن ينهار. لا يكون الإنفاق الاجتماعي في الواقع مثل التأمين تمامًا، وإنَّما يكون مزيجًا من التأمين والاستثمار والصدقة، ومن ثم يعتمد نجاحه على مدى شعور المواطنين بكونهم جزءًا من مجتمعٍ واحد، ويمكن أن يتأزم هذا الشعور بالزمالة عندما يكون المنتفعون به من المهاجرين أو الأقليات العرقية بقدرٍ غير متناسب. تشكِّل هذه التوترات جزءًا أصيلًا من الإنفاق الاجتماعي وستظل دائمًا محل نزاع سياسي، ورغم عدم الاتفاق على «قدرٍ صحيح»، إلَّا أنَّ كل الدول المتقدمة قررت أنَّ منافع التحويلات الاجتماعية تتجاوز تكاليفها، واستقرت على قدرٍ كبير بدرجةٍ ما، مستندةً إلى ثروتها الهائلة.

لنكمل جولتنا في تاريخ انعدام المساواة بالانتقال إلى الجزء الأخير من الشكل رقم 9–3، وهو ظهور انعدام المساواة في الدول الثرية، الذي بدأ في حوالي العام 1980. هذه هي التنمية التي أوحت للناس بأنَّ الحياة قد أصبحت أسوأ للجميع عدا أغنى الأغنياء، يخالف هذا الارتداد منحنى كوزنتس، الذي كان من المفترض وفقه أن يستقر مستوى انعدام المساواة في توازنٍ عند نقطة منخفضة، وتم تقديم تفسيرات كثيرة لهذه المفاجأة. كانت القيود المفروضة في زمن الحرب على التنافس الاقتصادي متماسكة لدرجة أنَّها تجاوزت زمن الحرب العالمية الثانية، ولكنَّها تلاشت أخيرًا، ممَّا منح الأغنياء الحرية في أن يزدادوا غنى من دخلهم من الاستثمارات، وأن يفتحوا ساحة دينامية للتنافس الاقتصادي يحصل فيها الفائز على كل الأرباح. وأبطأ التحول الأيديولوجي المرتبط برونالد ريجان ومارجريت ثاتشر الحركة المتجهة نحو إنفاقٍ اجتماعي أكبر ممول بضرائب مفروضة على الأغنياء وأسهم في تآكل الأعراف الاجتماعية المناهضة للرواتب الباهظة والثروة

الظاهرة للعيان. ومع زيادة العزوبية والطلاق، في الوقت الذي يجني فيه أزواج كثرٌ راتبين كبيرين، أصبح من الحتمي أن يزيد التباين في الدخل بين أسرةٍ وأخرى، حتى لو كانت الرواتب ظلّت كما كانت. أعادت «الثورة الصناعية الثانية» المدفوعة بالتكنولوجيا الإلكترونية الارتفاع «الكوزنتسي» عبر خلق طلبٍ على المهنيين ذوي المهارات العالية، الذين ابتعدوا عن الأشخاص ذوي المستوى التعليمي الأقل، في نفس الوقت الذي قضت فيه الأتمتة على الوظائف التي تتطلب مستوى تعليميًا أقل. أتاحت العولمة للعمال في الصين والهند وأماكن أخرى أن يقدِّموا أسعارًا أقل من نظرائهم الأمريكيين في سوق عمالة على نطاقٍ عالمي، وانهزمت الشركات المحلية التي لم تستطِع استغلال فرص العمالة الخارجية في المنافسة على الأسعار. وفي الوقت نفسه، أصبح الناتج الفكري لأنجح المحللين ورواد الأعمال والمستثمرين والمبدعين متاحًا بصورةٍ متزايدة في سوق ضخمة عالمية. يُسرَّح العامل في شركة بونتياك بينما تصبح جي كي رولينج مليارديرة.

جمع ميلانوفيتش بين الاتجاهين في انعدام المساواة خلال الثلاثين عامًا الماضية –تراجع مستويات انعدام المساواة على مستوى العالم، وارتفاع مستويات انعدام المساواة بين الدول الغنية– في رسمٍ بياني واحد على شكل فيلٍ (الشكل رقم 9–5). يقسِّم «منحنى النمو» هذا سكان العالم إلى عشرين تقسيمًا كميًّا أو مجموعة عددية، من الأفقر إلى الأغنى، ويوضِّح بالرسم مقدار ما حقَّقته كل مجموعة أو خسرته من دخلٍ للفرد بين عامي 1988 (قبل سقوط جدار برلين مباشرةً) و2008 (قبل الكساد الكبير مباشرةً).



الشكل رقم 9- 5: زيادة الدخل منذ 1988 حتى 2008

المصدر: Milanović 2016, fig. 1.3.

الفكرة المبتذلة عن العولمة هي أنَّها تصنع رابحين وخاسرين، ويعرضهم المنحنى على شكل الفيل على هيئة «قمم» و«أودية»، وهو

يكشف أنَّ الرابحين هم أغلب البشر. يتكون الفيل (جسمه ورأسه)، الذي يشمل حوالي سبعة أعشار سكان العالم، من «الطبقة الوسطى العالمية الناشئة»، وهي بالأساس في آسيا، إذ شهدت على مدار هذه الفترة زيادات تراكمية بنسبة تتراوح بين 40 و60 في المئة في دخلها الفعلي. ويتكون طرف خرطوم الفيل من أغنى سكان العالم الذين يشكلون نسبة 1 في المئة، والذين ارتفع دخلهم أيضًا ارتفاعًا كبيرًا، أما بقية الخرطوم الذي يشمل الفئة التي تليهم وتشكِّل نسبة 4 في المئة، فيُظهر أن هذه الفئة قد أبلت حسنًا أيضًا، بينما نرى عند ثنية الخرطوم عند حوالي الدرجة المئوية 85 «الخاسرين» في لعبة العولمة: وهُم الطبقة الوسطى الدنيا من العالم الغني، التي ربحت أقل من 10 في المئة، وهي التي تركز عليها المخاوف الجديدة بشأن انعدام المساواة: «الطبقة الوسطى المجوفة»، أنصار ترامب، الأشخاص الذين خلَّفتهم العولمة وراءها.

لم أستطِع أن أقاوم رسم أبرز فيلٍ من قطيع ميلانوفيتش، لأنَّه يمثِّل تذكرة واضحة بآثار العولمة (وهو يُكوِّن حديقة حيوان جميلة مع الجمل والجمل وحيد السنام في الشكل رقم 8-3). ولكنَّ المنحنى يصوِّر العالم كأنَّه أقل مساواةً مما هو عليه بالفعل، ويرجع هذا لسببين، الأول هو أنَّه من الآثار الغريبة للأزمة المالية في عام 2008، التي حدثت في تاريخٍ لاحق لهذا الرسم البياني، موازنة العالم. يشير ميلانوفيتش إلى أنَّ الكساد الكبير كان في الحقيقة كسادًا في دول شمال الأطلسي، فنقص دخل أغنى سكان العالم الذين يشكِّلون 1 في المئة، ولكنَّ دخل العاملين في أماكن أخرى ارتفع ارتفاعًا كبيرًا (وتضاعف في الصين)، وبعد ثلاث سنوات من الازمة ما زلنا نرى هذا الفيل، ولكنَّه قد خفض طرف خرطومه قليلًا بينما قوَّس ظهره لأعلى بمقدار الضِعف.

الأمر الآخر الذي يشوِّه شكل الفيل هو نقطة مفاهيمية تضلل كثيرًا من النقاشات عن انعدام المساواة، ما الذي نعنيه عندما نقول «الخُمس الأفقر» أو «الـ 1 في المئة الأغنى»؟ تستخدم أغلب توزيعات الدخل ما يطلق عليه الاقتصاديون البيانات المجهَّلة، أي تتبَّع المدى الإحصائي وليس الأشخاص الحقيقيين. لنفترض أنني قلت لك إنَّ عُمر المواطن الأمريكي المتوسط تراجع من 30 عامًا في عام 1950 إلى 28 عامًا في 1970، لو كانت أول فكرة خطرت ببالك هي «ياللعجب! كيف أصبح هذا الرجل أصغر؟» فقد خلطتَ بين أمرين، فالمتوسط مرتبة وليست شخصًا. يرتكب القراء نفس المغالطة عندما يقرؤون أنَّ «الـ 1 في المئة الأغنى في عام 2008» كانت رواتبهم أعلى بنسبة 50 في المئة من رواتب «الـ 1 في المئة الأغنى في عام 1988»، ويستنتجون أنَّ مجموعة من الأشخاص الأغنياء ازدادت غنى ثانيةً بمقدار النصف. يدخل الناس شرائح الدخل المختلفة ويخرجون منها، ويتغير الترتيب، لذا فإننا لا نتحدث بالضرورة عن نفس الأفراد، وينطبق الأمر نفسه على «الخُمس الأفقر» وكل المجموعات الإحصائية الأخرى.

ليست البيانات غير المجهَّلة أو الطولية، التي تتبَّع أشخاصًا على فتراتٍ زمنية، متاحة في معظم الدول، لذا فعل ميلانوفيتش ثاني أفضل شيء يمكنه فعله وتتبَّع تقسيمات كمية فردية في دولٍ محددة، كي لا تتم المقارنة مثلًا بين فقراء الهند في عام 1988 بفقراء غانا في عام 2008، ومع ذلك حصل أيضًا على نتيجة على شكل فيل، ولكنَّه كان بذيل وفخذ أكثر ارتفاعًا، لأنَّ الطبقات الأفقر في دولٍ عديدة خرجت من الفقر المدقع. يظل النمط كما هو -أي أنَّ العولمة أفادت الطبقتين الدُنيا والوسطى في الدول الفقيرة، والطبقة العليا في الدول الغنية، أكثر مما أفادت الطبقة الوسطى الدُنيا في الدول الغنية- ولكنَّ الاختلافات أقل حدة.

والآن بعد أن اطلعنا على تاريخ انعدام المساواة ورأينا القوى التي تحركه، يمكننا تقييم الادعاء القائل بأَّن زيادة مستويات انعدام المساواة خلال العقود الثلاث الماضية تعني أنَّ وضع العالم يزداد سوءًا، وأنَّ الأغنياء فقط هُم من ازدهروا، في حين أنَّ جميع من سواهم في حالة ركودٍ أو معاناة. ازدهر الأغنياء بالتأكيد أكثر من أي فئة أخرى، وربما أكثر مما كان ينبغي لهم، ولكنَّ الادعاء الخاص بالفئات الأخرى

كلها ليس دقيقًا، لمجموعةٍ من الأسباب، أبرزها أنَّه خطأ بشأن العالم ككل، فأغلبية الجنس البشري أصبحت أفضل حالًا، وتحول الجمل ذو السنامين إلى جملٍ ذي سنامٍ واحد، وحجم الفيل يساوي حجم فيلٍ حقيقي، ومعدل الفقر المدقع انخفض انخفاضًا شديدًا وربما يختفي، ومعامل انعدام المساواة العالمي وبين الدول في تراجعٍ. من الصحيح أنَّ فقراء العالم قد ازدادوا غنى على حساب الطبقة الوسطى الدُنيا الأمريكية بقدرٍ ما، ولو كنتُ سياسيًّا أمريكيًّا، ربما كنتُ لأصرّح علنًا بأنَّ هذه المبادلة لا تستحق، ولكنَّ بما أنَّنا مواطنون عالميون نفكِّر في البشرية ككل، فعلينا أن أنقول إنَّ هذه المبادلة تستحق.

ولكن حتى في الطبقة الدنيا والطبقة الوسطى الدُنيا في الدول الغنية، فإنّ زيادات الدخل المعتدلة ليست مماثلة للتراجع في مستويات المعيشة. تقارن النقاشات الحالية لانعدام المساواة غالبًا الحاضر بعصرٍ ذهبي كانت فيه وظائف العمالة اليدوية المحترمة ذات الأجور المجزية التي ألغتها الأتمتة والعولمة. تتوارى هذه الصورة الشاعرية خلف التصوير المعاصر لقسوة حياة الطبقة العاملة في تلك الحقبة، في كلٍّ من «الفضائح» الصحافية مثل كتاب **أمريكا الأخرى** *(The Other America)* المنشور عام 1962 لمايكل هارينجتون (Michael Harrington)، والأفلام الواقعية مثل **على ضفة النهر**(On the Waterfront)، و **الياقة الزرقاء** (*Blue Collar)*، و **إبنة عامل المنجم** *(Coal Miner's Daughter)*، و **نورما راي** (Norma Rae). تواجه المؤرخة ستيفاني كونتز (Stephanie Coontz)، التي تكشف زيف الحنين إلى الخمسينيات، هذه التصورات بالأرقام:

> كان 25 في المئة، أي ما بين 40 و50 مليون شخص، من الأمريكيين فقراءَ في منتصف الخمسينيات، وفي ظل غياب قسائم الطعام وبرامج الإسكان، كان هذا الفقر قاسيًا جدًّا، وحتى في نهاية الخمسينيات، كان ثُلث الأطفال الأمريكيين فقراء. كان دخل ستين في المئة من الأمريكيين الأكبر من 56 عامًا أقل من 1000 دولارٍ في عام 1958، أي أقل كثيرًا من المستوى الذي يُعد معبِّرًا عن حالة الطبقة الوسطى وهو ما بين 3000 و10000 دولارٍ. ولم يكُن لدى أغلبية المسنين أيضًا تأمينٌ صحيٌّ، وفي عام 1959 لم يكُن لدى نصف السكان مدخرات، ولم يكُن لدى ربع السكان أي أصول سائلة على الإطلاق، وحتى عندما لا نأخذ في الاعتبار سوى الأسر أمريكية المولد ومن ذوي البشرة البيضاء، فلم يكُن ثُلثها يستطيع تدبير أموره اعتمادًا على دخل رب الأسرة.

كيف نوفِّق بين التحسن الواضح في مستويات المعيشة في العقود الأخيرة والحكمة السائدة الناتجة عن الركود الاقتصادي؟ يشير الاقتصاديون إلى أربع طرق يمكن أن ترسم الإحصاءات عن المساواة بها صورة مضللة للطريقة التي يعيش بها الناس حياتهم، وتعتمد كلٌّ منها على تفاوتٍ نظرنا فيه من قبل بالفعل.

الأولى هي الفرق بين الرخاء النسبي والمطلق، فكما أنَّه لا يمكن أن يكون كل الأطفال فوق المتوسط، فإنَّ الحصة التي يجنيها الخُمس الأفقر من الدخل إذا لم تزداد بمرور الوقت، فإنّ هذا لا يُعد علامةً على الركود، فالأمر المتصل بالرفاهة هو مقدار ما يجنيه الأشخاص، لا مدى ارتفاع مراتبهم. قسَّمت دراسة حديثة أجراها الاقتصادي ستيفن روز الشعب الأمريكي إلى فئات بنقاط ثابتة بدلًا من التقسيمات الكمية، فعرَّف «الفقراء» بالأسرة المكوَّنة من 3 أفراد التي يتراوح دخلها بين 0 و30000 دولار (لعام 2014)، و«الطبقة الوسطى الدُنيا» بدخلٍ يتراوح بين 30000 و50000 دولار، وهكذا. وجدت الدراسة أنَّ الأمريكيين في اتجاهٍ صاعد مطلق، فبين عامي 1979 و2014، انخفضت نسبة الفقراء من الأمريكيين من 24 إلى 20 في المئة، وانخفضت نسبة الطبقة الوسطى الدُنيا من 24 إلى 17 في المئة، وانكمشت نسبة الطبقة الوسطى من 32 إلى 30 في المئة. أين ذهبوا؟ وصل كثيرٌ منهم إلى الطبقة الوسطى العليا (بدخلٍ

يتراوح بين 100000 و350000 دولار)، التي ازدادت نسبتها من 13 إلى 30 في المئة من السكان، وإلى الطبقة العليا التي ازدادت نسبتها من 0.1 إلى 2 في المئة. يرجع كون الطبقة الوسطى أصبحت مجوّفة جزئيًّا إلى أنَّ كثيرًا من الأمريكيين يزدادون سعةً، وقد ازداد مستوى انعدام المساواة بلا شك –أي اغتنى الأغنياء أسرع مما فعل الفقراء والطبقة الوسطى– ولكنَّ الجميع (في المتوسط) أصبح أغنى.

والخلط الثاني هو الحاصل بين البيانات المجهَّلة والطولية، لنفترض أنَّ الخُمس الأفقر من الشعب الأمريكي لم يحرز أي تقدم خلال عشرين عامًا، لا يعني هذا أنَّ جو السباك حصل في عام 2008 على نفس الراتب الذي حصل عليه في عام 1998 (أو أعلى منه قليلًا، بسبب زيادة تكاليف المعيشة). يجني الناس مالًا أكثر مع كبر سنهم وزيادة خبرتهم، أو ينتقلون من وظيفة ذات راتبٍ قليل إلى وظيفة ذات راتبٍ أعلى، لذا فربما يكون جو قد انتقل من الخُمس الأفقر إلى الخُمس المتوسط مثلًا، وأخذ مكانه في الخُمس الأفقر شابٌ صغير أو شابة أو مهاجر. ليس معدل الدوران قليلًا على الإطلاق، إذ أوضحت دراسة حديثة تستخدم البيانات الطولية أنَّ نصف الأمريكيين يجدون أنفسهم ضمن العُشر الأعلى من أصحاب الدخل لعامٍ واحد على الأقل من حياتهم المهنية، وواحد من كل 9 منهم نفسه في الـ 1 في المئة الأعلى (رغم أنَّ معظمهم لا يظل في هذا المكان طويلًا). ربما يكون هذا أحد أسباب كون الآراء الاقتصادية تخضع لفجوة التفاؤل (أي الانحياز المبني على الافتراض التالي: «أنا بخير، أما هُم فلا»): تعتقد أغلبية الأمريكيين أنَّ مستوى معيشة الطبقة الوسطى قد تراجع في السنوات الأخيرة ولكنَّ مستوى معيشتهم قد تحسَّن.

والسبب الثالث في أنَّ زيادة مستويات انعدام المساواة لم يجعل حال الطبقات الدُنيا أسوأ هو أنَّ التحويلات الاجتماعية قد خفَّفت أزمة الدخل المنخفض. رغم أيديولوجية الولايات المتحدة الفردانية، إلَّا أنَّها تعمل كثيرًا وفق مبدأ إعادة التوزيع، فما زالت ضرائب الدخل متدرجة، وتُخفِّف «دولة الرفاه الخفية» مشكلة الدخل المنخفض بما يشمل التأمين ضد البطالة، والضمان الاجتماعي، والرعاية الطبية (ميديكير وميديك إيد)، والمساعدة المؤقتة للأسر المحتاجة، وقسائم الطعام، وائتمان ضريبة الدخل المكتسب، وهي أحد أنواع ضرائب الدخل السلبية التي تعزز بها الحكومة دخل أصحاب الدخل المنخفض. إذا جمعت هذه الأمور كلها سويًّا، ستجد أنَّ أمريكا أصبحت أكثر مساواةً بقدرٍ كبير جدًّا. كان مؤشر جيني لدخل السوق الأمريكي في عام 2013 (قبل الضرائب والتحويلات) 0.53 وهو رقم مرتفع، وللدخل المتاح للإنفاق (بعد الضرائب والتحويلات) كان 0.38 وهو رقم معتدل. لم تبلغ الولايات المتحدة ما بلغته دول مثل ألمانيا وفنلندا، اللتان انطلقتا بتوزيع مشابه لدخل السوق ولكنَّهما تساويانه بحزمٍ أكبر، فخفَّضتا مؤشر جيني إلى 0.2 وهو رقم مرتفع، متجاوزتين ارتفاع مستويات انعدام المساواة الذي انتشر في مرحلة ما بعد الثمانينيات. سواء كانت دولة الرفاه الأوروبية الكريمة مستدامة على المدى البعيد ويمكن نقلها إلى الولايات المتحدة أم لا، فإنَّ دولة الرفاه موجودة بشكلٍ أو بآخر في كل الدول المتقدمة، وهي تقلِّل مستوى انعدام المساواة حتى وهي خفية.

لم تقلِّل هذه التحويلات مستوى انعدام المساواة في الدخل فحسب (وهو إنجاز مشكوك فيه) وإنَّما أنعشت أيضًا دخول غير الأغنياء (وهو إنجاز حقيقي). أظهر تحليل أجراه الاقتصادي جاري بورتليس أنَّ الدخل المتاح للإنفاق لأفقر أربعة تقسيمات للدخل نمى بين عامي 1979 و2010 بنسبة 49 و37 و36 و45 بالمئة على التوالي، وكان هذا قبل التعافي –الذي تأخر كثيرًا– من الكساد الكبير، فبين عامي 2014 و2016، قفزت الأجور المتوسطة وارتفعت ارتفاعًا غير مسبوق،

والأكثر أهمية ما حدث في قاعدة هذا المقياس. لطالما عبَّر كلٌّ من اليسار واليمين عن نظرتهما التشاؤمية لبرامج مكافحة الفقر، كما قال رونالد ريجان في مزحته الشهيرة: «منذ بضع سنوات، أعلنت الحكومة الفيدرالية الحرب على الفقر، وانتصر الفقر»، ولكنَّ الفقر

في الواقع مهزوم. أجرى عالم الاجتماع كريستوفر جينكس حسابات تشير إلى أنَّه عند جمع إعانات دولة الرفاه الخفية، وعند تقدير تكلفة المعيشة بطريقةٍ تضع في حساباتها تحسُّن جودة السلع الاستهلاكية وهبوط أسعارها، نجد أنَّ معدل الفقر قد انخفض خلال الخمسين عامًا الماضية بمقدار أكثر من ثلاثة أرباع، وكان ثابتًا في عام 2013 عند نسبة 4.8 في المئة. وتوصَّلت ثلاثة تحليلات أخرى إلى الاستنتاج نفسه، ويوضِّح الخط العلوي في الشكل رقم 9-6 بيانات أحد هذه التحليلات الذي أجراه الاقتصاديان بروس ماير وجيمس سوليفان. ركد التقدم في فترة الكساد الكبير، ولكنَّه استرد عافيته في عامي 2015 و2016 (وهما غير موضحتين في الرسم البياني)، عندما حقق دخل الطبقة الوسطى رقمًا قياسيًّا مرتفعًا وشهد معدل الفقر أكبر انخفاض له منذ عام 1999. وحدث إنجاز آخر لا يتغنى به أحد، وهو أنَّ نسبة أفقر الفقراء -أي المشرَّدين دون مأوى- انخفضت بين عامي 2007 و2015 بمقدار الثُلث تقريبًا رغم الكساد الكبير.



الشكل رقم 9- 6: الفقر والدخل المنخفض في الولايات المتحدة منذ 1960 حتى 2014

المصدر: Meyer & Sullivan 2012، البيانات الإضافية للأعوام من 2010 إلى 2014 مقدمة من بروس ماير. «الدخل المتاح للإنفاق في المستوى العاشر الأقل» هو الدرجة المئوية العاشرة من «الدخل بعد اقتطاع الضرائب إضافةً إلى الإعانات غير النقدية» (مثل قسائم الطعام والوجبات المدرسية والإعانات السكنية)، معدَّل لمراعاة التضخم باستخدام سلسلة الأبحاث عن مؤشر أسعار المستهلك في المناطق الحضرية (CPI-U-RS)، ويمثِّل أسرة تتكون من فردين بالغين وطفلين. يشير «الاستهلاك» إلى «استهلاك الأسرة المقيس بدقة»، ويشمل الغذاء الذي يتناولونه في المنزل، والإيجار أو ما يعادله، ونفقات السيارة أو المواصلات. أما «الفقر» فهو يطابق تعريف مكتب تعداد الولايات المتحدة له لعام 1980، معدَّل لمراعاة التضخم. للمزيد من التفاصيل، انظر Meyer & Sullivan 2016.

ويسلِّط الخط السفلي في الشكل رقم 9-6 الطريقة الرابعة التي تقلل بها المقاييس التي تقيس مستوى انعدام المساواة من قدر التقدم

الذي حققته الطبقتان الدُنيا والوسطى في الدول الغنية. الدخل هو مجرد وسيلة لغاية، أي طريقة للدفع مقابل الأغراض التي يحتاج إليها الناس أو يريدونها أو يحبونها، أو ما يطلق عليه الاقتصاديون «الاستهلاك». عندما يتم تعريف الفقر حسب ما يستهلكه الأشخاص بدلًا مما يجنونه، نجد أنَّ معدل الفقر الأمريكي قد تراجع بنسبة تسعين في المئة منذ عام 1960، أي من 30 في المئة من السكان إلى 3 في المئة منهم فقط. والقوتان اللتان تسببتا في زيادة مستوى انعدام المساواة في الدخل قد تسببتا في الوقت نفسه في خفض مستوى انعدام المساواة في الأمور المهمة، الأولى هي العولمة، التي ربما تصنع رابحين وخاسرين في الدخل، ولكنَّها تجعل الجميع تقريبًا رابحًا في الاستهلاك، فالمصانع الآسيوية وسفن الحاويات وتجارة التجزئة الفعالة تجلب إلى الجماهير سلعًا كانت تُعد سابقًا رفاهيات للأغنياء فقط. (في عام 2005، قدَّر الاقتصادي جيسون فورمان أنَّ متجر وول مارت قد وفَّر على الأسرة الأمريكية النموذجية 2300 دولار في السنة). القوة الثانية هي التكنولوجيا، التي تواصل إحداث ثورة في معنى الدخل (كما رأينا في النقاش حول مفارقة القيمة في الفصل الثامن)، فالدولار الواحد اليوم، مهما عدَّلناه لمراعاة التضخم، يستطيع شراء أغراضٍ تحسِّن جودة الحياة أكثر مما كان يستطيع الدولار الواحد أمس شراءه، فهو يشتري أشياءَ لم تكُن موجودة من قبل، مثل التبريد والكهرباء والمراحيض واللقاحات والهواتف ووسائل منع الحمل والسفر عبر الجو، ويغيِّر الأمور الموجودة بالفعل، مثل تحويل خطوط الهاتف العمومية المشتركة التي يصلها عامل تحويل المكالمات بعضها ببعض إلى هاتف ذكي يمكن استخدامه في التحدث مع الآخرين دون حدود زمنية.

غيَّرت العولمة والتكنولوجيا سويًّا معنى أن يكون المرء فقيرًا، على الأقل في الدول المتقدمة، كانت الصورة النمطية القديمة عن الفقر تتمثَّل في صعلوكٍ هزيل يرتدي خرقًا بالية، أما الآن فمن الممكن أن يكون الفقراء زائدي الوزن مثل رؤسائهم في العمل، ويرتدون نفس الملابس الصوفية والحذاء الرياضي وسروال الجينز. كان يُطلق على الفقراء «من لا يملكون شيئًا، في حين كان أكثر من 95 في المئة من الأسر الأمريكية التي تقع تحت خط الفقر في عام 2011 تمتلك الكهرباء والمياه والمراحيض المزودة بنظام الشطف وثلاجة وموقد (بوتاجاز) وتليفزيوناً ملوناً. (لم يكُن لدى أي من عائلات روثتشايلد ولا أستور ولا فاندربيلت أيٌّ من هذه الأشياء منذ قرنٍ ونصف القرن). كان لدى نصف الأسر التي تقع تحت خط الفقر تقريبًا غسالة أطباق، ولدى 60 في المئة منهم حاسب آلي، ولدى حوالي الثلثين منهم غسالة ملابس ومجفف ملابس، ولدى أكثر من 80 في المئة منهم مكيِّف هواء وجهاز تسجيل الفيديو وهاتف خلوي. في عصر المساواة الاقتصادية الذهبي الذي نشأتُ فيه، كانت الفئات «المقتدرة» من الطبقة الوسطى لا تمتلك سوى بعض هذه الأشياء أو لا تمتلك أيًّا منها مطلقًا. نتيجةً لذلك، فإنَّ الموارد الأثمن من أي شيء –أي الوقت والحرية والتجارب القيِّمة– في تصاعدٍ لدى الجميع، وهو موضوع سننظر فيه في الفصل السابع عشر.

ازداد الأغنياء غنى، ولكنَّ حياتهم لم تصبح أفضل لهذه الدرجة، فربما يمتلك وارن بافيت مكيِّفات هواء أكثر أو أفضل من معظم الناس، ولكن وفق المعايير التاريخية، فإنَّ كون أغلبية الأمريكيين الفقراء لديهم مكيِّفات هواء من الأساس هي حقيقة مذهلة. عند حساب مؤشر جيني للاستهلاك بدلًا من الدخل، نجده قد ظلَّ مسطحًا أو مستويًا. وتراجع في الحقيقة مستوى انعدام المساواة في السعادة المعلنة عبر التقرير الذاتي بين الشعب الأمريكي، ورغم أنَّني أجد الاحتفاء بتراجع أرقام مؤشر جيني الخاصة بالحياة والصحة والتعليم (كأنَّ قتل الأصحاء وطرد الأذكياء من المدارس قد يفيد البشرية) أمرًا بغيضًا وربما حتى غريبًا، ولكنَّها تراجعت في الواقع لأسباب جيدة، إذ تحسَّنت حياة الفقراء أسرع ممَّا فعلت حياة الأغنياء.

إن الإقرار بأن حياة الطبقات الدنيا والوسطى في الدول المتقدمة قد تحسنت في العقود الأخيرة لا يعني إنكار المشكلات الجسيمة التي تواجهها اقتصادات القرن الحادي والعشرين، ومع أن الدخل المتاح للإنفاق زاد لكنَّ معدل زيادته بطيء، وقد يؤدي نقص طلب

المستهلك الناتج عن ذلك إلى تراجع الاقتصاد ككل. إن الصعوبات التي يواجهها قطاعٌ واحد من السكان (أي الأمريكيين البيض في منتصف العمر ذوي المستوى التعليمي الأقل الذين يسكنون المناطق غير الحضرية) حقيقية ومأساوية وتتجلى في ارتفاع معدلات تناول جرعة زائدة من المخدرات (الفصل الثاني عشر) والانتحار (الفصل الثامن عشر). يهدد التقدم في علم الروبوت بإلغاء ملايين الوظائف الإضافية، فعلى سبيل المثال يشغل سائقو الشاحنات المهنة الأكثر شيوعًا في معظم الولايات وربما تُسرحهم السيارات ذاتية القيادة من عملهم مثلما حدث مع الكتاب العموميين وصُناع العجلات الخشبية وعمال تحويل المكالمات. ولا يستطيع التعليم، وهو أحد المحركات الأساسية للحراك الاقتصادي، مواكبة متطلبات الاقتصادات الحديثة: فقد ارتفعت تكلفة التعليم الجامعي ارتفاعًا كبيرًا (بخلاف كل السلع الأخرى تقريبًا)، وتدنّ مستوى التعليم الابتدائي والثانوي في الأحياء الأمريكية الفقيرة بشكل غير معقول. وتعتبر جوانب عديدة من النظام الضريبي رجعية، ويشتري المال كثيرًا من النفوذ السياسي. وربما يكون الأمر الأكثر ضررًا هو أنّ الانطباع عن الاقتصاد الحديث، بأنَّه قد أضر بمعظم الناس، يشجع على انتهاج سياستي إفقار الجار وتحطيم الآلات مما يجعل الجميع في وضعٍ أسوأ.

ومع ذلك فإنَّ التركيز على انعدام المساواة في الدخل والحنين إلى الضغط الكبير الذي حدث في منتصف القرن العشرين هو تركيزٌ في غير محله. يمكن أن يستمر العالم الحديث في التحسن حتى إذا ظلَّ كلٌّ من مؤشر جيني وحصة ذوي الدخل الأعلى مرتفعين، وهو ما قد يحدث لأن القوى التي أدّت لارتفاعهما لن تزول. لا يمكن إجبار الأمريكيين على شراء سيارات بونتياك بدلًا من بريوس، ولن يتم إبعاد كتب هاري بوتر عن متناول أطفال العالم لمجرد أنَّهم يجعلون جي كي رولينج مليارديرة. ومن غير المنطقي أن نجعل عشرات الملايين من الأمريكيين الفقراء يدفعون أكثر في مقابل الملابس من أجل إنقاذ عشرات الآلاف من الوظائف في صناعة الملابس، وليس من المنطقي على المدى البعيد أن نجعل أشخاصًا يقومون بوظائف مملة وخطيرة يمكن أن تنفذها الآلات بفعاليةٍ أكبر فقط من أجل تقديم عملٍ مجزٍ لهم.

بدلًا من محاربة انعدام المساواة في حد ذاته، ربما يكون من الأجدى أن نستهدف المشكلات المحددة المصاحبة له. من الأولويات الواضحة تعزيز معدل النمو الاقتصادي، بما أنَّه سيزيد حصة الجميع من الكعكة ويوفِّر كمية أكبر من الكعك الذي يمكن إعادة توزيعه. تشير اتجاهات القرن الماضي، إضافةً إلى مسحٍ لدول العالم، إلى أنَّ الحكومات تلعب دورًا متزايدًا في كلا الأمرين، فهي مؤهلة بصورةٍ فريدة للاستثمار في التعليم والأبحاث الأساسية والبنية التحتية وضمان المخصصات للصحة وللتقاعد (تخليص الشركات الأمريكية من الأعباء المحبطة المتمثلة في تقديم خدمات اجتماعية)، ودعم الدخول لتصل إلى مستوى أعلى من أسعار السوق، التي قد تتراجع أكثر لملايين الناس مع زيادة الثروة الإجمالية.

ربما تكون الخطوة التالية في الاتجاه التاريخي نحو إنفاقٍ اجتماعي أكبر توفير دخل أساسي عالمي (أو ابنة عمه: ضريبة الدخل السلبية)، أشيعت الفكرة منذ عقودٍ، وربما تكون في طريقها إلى التطبيق، ورغم نزعتها الاشتراكية، إلَّا أنَّها حصلت على تأييد اقتصاديين (مثل ميلتون فريدمان) وساسة (مثل ريتشارد نيكسون) وولايات (مثل ألاسكا) يرتبطون باليمين السياسي، ويقلِّب محلِّلون كثر اليوم من مختلف الأطياف السياسية هذه الفكرة في رؤوسهم. رغم أنَّ تطبيق الدخل الأساسي العالمي أبعد ما يكون عن البساطة والسهولة (فيجب أن تكون الأعداد منطقية ومتوافقة، ويجب تأمين الحوافز للتعليم والعمل والمخاطرة)، إلَّا أنَّه لا يمكن تجاهل ما يبشِّر به، فقد يُحدث ثورة في الخليط غير المتناسق المتمثِّل في دولة الرفاه الخفية، وقد يحوِّل كارثة إحلال الروبوتات محل العمال التي تحدث بالتصوير البطيء إلى

«قرن الوفرة».* إنَّ كثيرًا من الوظائف التي ستتولاها الروبوتات هي وظائف لا يستمتع الناس بأدائها، وقد يكون الربح الناتج من إنتاجيةٍ وأمانٍ ورفاهية نعمةً للبشرية طالما شاركه البشر على نطاقٍ واسع. إنَّ شبح غياب المعايير الاجتماعية وفقدان المعنى والجدوى مبالغ فيه على الأرجح (وفقًا لدراسات على المناطق التي جرَّبت الدخل المضمون)، ويمكن مواجهته بوظائفٍ عامة لا تدعمها الأسواق ولا تستطيع الروبوتات أداءها، أو بفرصٍ جديدة في وظائف تطوع مجدية وأشكال أخرى من الإيثار الفعال. ربما يكون الأثر النهائي هو تقليل مستوى انعدام المساواة، ولكنَّ هذا سيكون أثرًا جانبيًّا لرفع مستوى معيشة الجميع، ولا سيّما الضعفاء من الناحية الاقتصادية.

خلاصة القول أنَّ انعدام المساواة في الدخل ليس مثالًا معاكسًا لتقدم البشر، ونحن لا نعيش في ديستوبيا ينهار فيها الدخل وتعكس ما تحقق من زيادة الرخاء في القرون الطويلة الماضية، ولا يدعو إلى تحطيم الروبوتات، أو رفع الجسر المتحرك كي يسقط الأعداء، ولا تحويل النظام إلى الاشتراكية، ولا إعادة زمن الخمسينيات. دعني ألخِّص قصتي المعقدة حول موضوعٍ معقد.

إنَّ انعدام المساواة لا يعني الفقر، وهو ليس بُعدًا أساسيًّا من أبعاد ازدهار البشرية، وبالمقارنة بين مختلف الدول في الرفاهة، نجده باهتًا وأقل أهمية في مقابل الثروة الإجمالية. ليست زيادة مستويات انعدام المساواة أمرًا سيئًا بالضرورة، فمع هروب المجتمعات من الفقر العالمي، فإنّ من الحتمي أن يزداد مستوى انعدام المساواة فيها، وربما يتكرَّر هذا الاندفاع المتفاوت عندما يكتشف أحد المجتمعات مصدرًا جديدًا للثروة. كما أنَّ زيادة مستويات انعدام المساواة لا تُعد دائمًا أمرًا جيدًا، فالعوامل الأكثر فعالية في تسوية التفاوتات الاقتصادية هي الاوبئة والحروب الكبرى والثورات العنيفة وانهيار الدول.

رغم كل ذلك، فإنَّ الاتجاه المستمر في التاريخ منذ التنوير هو زيادة ثروات الجميع، وقد ولَّدت المجتمعات الحديثة مقدارًا هائلًا من الثروة، وإضافةً إلى ذلك، كرَّست حصةً متزايدة من تلك الثروة لإعانة الأسوأ حالًا.

وكما أنَّ العولمة والتكنولوجيا قد أخرجت مليارات الناس من دائرة الفقر وصنعت طبقة وسطى عالمية، فقد تناقصت مستويات انعدام المساواة الدولية والعالمية، في الوقت الذي أغنتا فيه النخبة التي يصل أثرها التحليلي أو الإبداعي أو المالي إلى العالم كله. لم يتحسن حظ الطبقات الدُنيا في الدول المتقدمة بنفس القدر، ولكنَّه تحسَّن، ويرجع هذا غالبًا إلى ارتقاء أفرادها إلى الطبقات العليا، وتتعزز هذه التحسينات بفعل الإنفاق الاجتماعي، وهبوط الأسعار وزيادة جودة الأشياء التي يريدها الناس. أصبح العالم بطريقةٍ أو بأخرى أقل مساواةً، ولكنَّ سكان العالم أصبحوا أفضل حالًا بطرقٍ أكثر.

*هو رمز من الأساطير القديمة على الوفرة والغذاء. -المترجمة.

الفصل العاشر:
البيئة

ولكن هل التقدم مستدام؟ من الردود الشائعة على الأخبار السعيدة عن الصحة والثروة والمعيشة أنَّ هذه الأمور لا يمكن أن تستمر، فنحن نكتسح العالم بأعدادنا الغفيرة، ونبالغ في تجرع نِعَم الأرض متغافلين عن محدوديتها، ونُفسد أعشاشنا بالتلوث والنفايات، ونعجِّل بيوم الحساب «البيئي»، وإذا لم تقضِ علينا الزيادة السكانية واستنزاف الموارد والتلوث، سيقضي علينا التغير المناخي.

ولن أدَّعي كما في فصل انعدام المساواة أنَّ كل الاتجاهات إيجابية أو أنَّ المشكلات التي تواجهنا صغيرة، ولكنَّني سأعرض طريقة تفكير في هذه المشكلات تختلف عن الحكمة السائدة الكئيبة وتقدِّم بديلًا بنَّاءً عن الراديكالية أو الجبرية التي تشجِّع عليها. الفكرة الرئيسية هي أنَّ المشكلات البيئية قابلة للحل مثل أي مشكلات أخرى بشرط توفر المعرفة المناسبة.

لا يمكن بالتأكيد التسليم بفكرة وجود مشاكل بيئية بالفعل، فمن وجهة نظر الفرد، تبدو الأرض غير محدودة ويبدو أثرنا فيها غير مهم ولا يُذكر، ومن وجهات نظر العلم، فالرؤية أكثر مدعاةً للقلق. وتكشف وجهة النظر الدقيقة عن الملوِّثات التي تسمِّمنا بخبثٍ وتسمِّم أنواع الكائنات التي نحبها ونعتمد عليها، وتكشف وجهة النظر العيانية عن آثارٍ على النظم البيئية ربما تكون غير ملحوظة عند إجراء كل فعلٍ على حدة، ولكنَّها تتراكم لتُحدِث دمارًا مأساويًّا. بدءًا منذ ستينيات القرن الماضي، نشأت الحركة البيئية من رحم المعرفة العلمية (من الإيكولوجيا والصحة العامة وعلوم الأرض والغلاف الجوي) والتبجيل الرومانسي للطبيعة، وجعلت هذه الحركة صحة الكوكب أولويةً دائمةً على جدول أعمال البشرية، وكما سنرى، فهي تستحق الثناء على إنجازاتٍ مهمة وكبيرة، وهذا أحد الأشكال الأخرى لتقدم البشرية.

من سخرية القدر أنَّ كثيرًا من الأصوات في الحركة البيئية التقليدية ترفض الاعتراف بذلك التقدم، أو حتى بأنَّ تقدم البشر طموحٌ وجيه. سأعرض في هذا الفصل مفهومًا أجدد للنزعة البيئية، يتشارك في هدف حماية الهواء والماء وأنواع الكائنات والنظم البيئية ولكنه يستند إلى التفاؤل التنويري وليس إلى نزعة التراجع الرومانسية.

بدءًا منذ السبعينيات، تعلقت الحركة البيئية السائدة بأيديولوجية شبه دينية، وهي المذهب الأخضر، الذي نجده في بيانات نشطاء مختلفين ومتنوعين مثل آل جور، و«مفجِّر الجامعات والطائرات»، والبابا فرانسيس. تنطلق الأيديولوجية الخضراء من صورةٍ للأرض البريئة البكر التي دنَّستها ضراوة البشر، وكما قال فرانسيس في رسالته البابوية *Laudato Si* (كُن مُسَبَّحًا) في عام 2015: «إنَّ بيتنا المشترك كأختٍ نشاركها حياتنا.. ولكنها تصرخ بسبب الأذى الذي سببناه لها». والأذى يزداد سوءًا حسب هذه الرواية، فـ «الأرض، بيتنا، بدأت تشبه كومةً ضخمة من الوسخ». والسبب الجذري هو الالتزام النابع من الفكر التنويري بالعقل والعلم والتقدم: فيقول فرانسيس: «لا يمكن مساواة التقدم العلمي والتكنولوجي بتقدم البشرية والتاريخ، إذ يكمُن الطريق نحو مستقبلٍ أفضل في مكانٍ آخر» أي تقدير «شبكة العلاقات الغامضة بين الأشياء» و(بالطبع) «كنز التجربة الروحانية المسيحية». لو لم نتُب ونندم على خطايانا بتراجع النمو

وتراجع التصنيع ورفض الآلهة المزيفة ويُقصد بها العلم والتكنولوجيا والتقدم والنزعة الإنسانية، فسنواجه حساباً عسيراً في يوم القيامة البيئي.

وككثيرٍ من الحركات المنذرة بنهاية العالم، فإنَّ المذهب الأخضر ممزوج ببغض البشرية، بما يشمل لا مبالاة بالجوع، وانغماسًا في الخيالات الوحشية عن كوكبٍ خالٍ من السكان، ومقارنات شبه نازية بين البشر من جانبٍ والآفات ومسببات الأمراض والسرطان من جانبٍ آخر. كتب بول واتسون، جمعية راعي البحار للحفاظ على البحار (Society Sea Shepherd Conservation) على سبيل المثال ما يلي: «نحن بحاجةٍ إلى خفض أعداد البشر بشكلٍ ذكي وجذري إلى أقل من مليار نسمة.. يتطلب علاج جسم شخصٍ ما من السرطان علاجًا تدخليًّا وجذريًّا، وبالتالي فإنَّ علاج المجال الحيوي الخاص بفيروس البشر سيتطلب أيضًا نهجًا تدخليًّا وجذريًّا».

يوجد منهج بديل حديث لحماية البيئة يدعمه كلٌّ من جون أسافو أدجي، وجيسي أوزوبيل، وآندرو بالمفورد، وستيوارت براند، وروث ديفرايز، ونانسي نولتون، وتيد نوردهاوس، ومايكل شيلينبرجر، وغيرهم. ويُطلق عليه الحداثة البيئية، أو البرجماتية البيئية، أو التفاؤل الأرضي، أو الحركة الخضراء/الزرقاء (أو الفيروزية)، رغم أنَّنا يمكن أن ننظر إليها كنزعة بيئية تنويرية أو إنسانية.

تنطلق الحداثة البيئية من إدراك أنَّ التلوث بدرجةٍ ما يمثّل أحد العواقب الحتمية للقانون الثاني للديناميكا الحرارية، فعندما يستخدم الناس الطاقة لخلق منطقة نظامٍ في أجسامهم وفي منازلهم، فإنهم يزيدون بالضرورة الإنتروبيا في مكانٍ آخر في البيئة على هيئة نفايات وتلوث وأشكال أخرى من الفوضى. لطالما كان الجنس البشري بارعًا في ذلك –وهذا ما يميزنا عن بقية الثدييات– ولم يعِش في تناغمٍ مع البيئة قط، فعندما كانت أقدام البشر نظامًا بيئيًّا ما، كانوا عادةً يصطادون حيوانات كبيرة حتى الانقراض، وكانوا غالبًا يحرقون مساحات شاسعة من الغابات ويخلونها تمامًا. من الأسرار الخفية لحركة الحفاظ على البيئة أنَّ محميات الحياة البرية لا تنشأ سوى بعد إهلاك السكان الأصليين أو نقلهم منها قسرًا، وينطبق ذلك على الحدائق الوطنية في الولايات المتحدة ومتنزه سيرينجيتي في شرق أفريقيا، فالبرية كما كتب المؤرخ البيئي ويليام كرونون ليست ملاذاً بكرًا، وإنَّما هي نفسها إحدى منتجات الحضارة.

عندما عمل البشر بالزراعة، أصبحوا أكثر تدميراً أيضًا، وحسب ما يقول عالم المناخ القديم ويليام روديمان، فإنَّ تبني زراعة الأرز في الحقول الرطبة في آسيا منذ حوالي خمسة آلاف عام ربما قد يكون تسبب في إطلاق كثيرٍ من غاز الميثان في الغلاف الجوي بسبب النباتات المتعفِّنة مما غيَّر المناخ، ويقول إنَّه «من الممكن أن نقول إنَّ الناس الذين عاشوا في العصر الحديدي، بل وحتى في أواخر العصر الحجري، كان أثر الفرد الواحد منهم على المناظر الطبيعية على الأرض أكثر من أثر الشخص المعاصر العادي». وكما أشار براند (في الفصل السابع)، فإنَّ «الزراعة الطبيعية» تشمل تعارضًا في المصطلحات، فعندما يسمع كلمتي الطعام الطبيعي، فإنّ ذلك يغريه بأن يسب ويقول:

> لا يرى أي عالم إيكولوجيا أي منتج من منتجات الزراعة طبيعيًّا ولو بقدرٍ ضئيل! فأنت تأخذ هذا النظام البيئي المعقد الجميل وتقطِّعه إلى مستطيلات، وتخليه تمامًا حتى لا يكون فيه شيء سوى الأرض، وطرقه حتى يحدث التعاقب المبكِّر المستمر! وتُفسد أعشابه وتسوّي سطحه تمامًا وتغمره بكميات هائلة متواصلة من المياه! ثم تعمِّره بمحاصيل موحدة من نباتاتٍ تالفة بشكلٍ كبير وغير قادرة على الحياة وحدها دون مساعدة! فكل نباتٍ من النباتات الغذائية متخصص بدقة في مهارةٍ واحدة، وخضع للتوالد الداخلي لآلاف السنوات حتى وصل إلى حالة من البلاهة الجينية، فتلك النباتات هشة للغاية، واضطرت إلى ترويض البشر كي يعتنوا بها إلى ما لا نهاية!

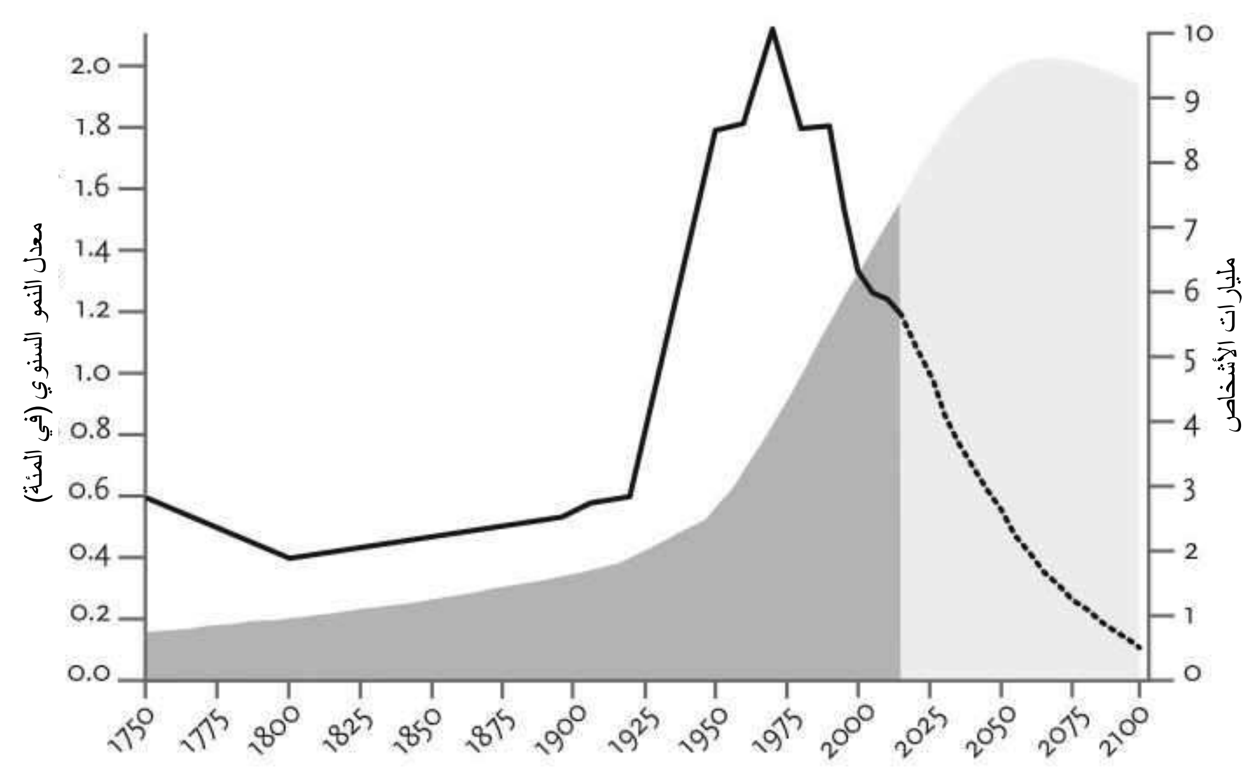
من الأمور الأخرى التي أدركتها حركة الحداثة البيئية أنَّ التحول الصناعي كان مفيدًا للبشرية، فقد أطعم المليارات من الناس وضاعف المدى العمري لهم وخفض معدل الفقر المدقع بشدة، وسهَّل إنهاء العبودية وتحرير النساء وتعليم الأطفال (الفصل السابع، والسادس عشر، والسابع عشر) بسبب حلول الآلات محل العضلات. لقد سمح للناس بالقراءة ليلًا والعيش حيثما أرادوا، والتدفئة في الشتاء، ورؤية العالم، ومضاعفة التواصل البشري، ويجب حساب أي تكلفة من تلوثٍ وفقدان المواثل الطبيعية في مقابل هذه النعم. وكما يقول الاقتصادي روبرت فرانك، فإنّ هناك مقدارًا مناسبًا من التلوث في البيئة، مثلما يوجد مقدار مناسب من الأتربة في منزلك، كلما كان أنظف، كان الوضع أفضل بالطبع، ولكن ليس على حساب كل شيء آخر في الحياة.

والمقدمة المنطقية الثالثة هي أنَّ تلك المبادلة التي تضع رفاهة البشر في مواجهة مع الأضرار البيئية يمكن أن تعيد التكنولوجيا التفاوض فيها. فمن المشكلات التكنولوجية السؤال التالي: كيف نستمتع بالمزيد من السعرات الحرارية ووحدات التدفق الضوئي والوحدات الحرارية البريطانية ووحدات تخزين المعلومات (البت) والأميال مع إنتاج تلوث أقل وباستخدام مساحات أقل من الأرض؟ وهي مشكلة يحلها العالم يومًا بعد يوم. يتحدث الاقتصاديون عن منحنى كوزنتس البيئي، وهو نظير قوس انعدام المساواة على شكل حرف U، بوصفه دالة للنمو الاقتصادي، فعندما تنمو الدول في البداية، يسبق النمو في أولوياتها النقاء البيئي، ولكن مع ازديادها غنى، تتجه أفكارها نحو البيئة. إذا لم يكن الناس يستطيعون تحمل تكلفة الكهرباء سوى بوجود بعض الضباب الدخاني، فسيتعايشون مع الضباب الدخاني، ولكن عندما يستطيعون تحمل تكلفة كلٍّ من الكهرباء والهواء النقي، سيدفعون ثمن الهواء النقي. قد يحدث هذا بسرعةٍ كبيرة، فالتكنولوجيا تجعل السيارات والمصانع ومحطات توليد الكهرباء أنظف، وبالتالي تجعل الهواء النظيف أقل تكلفةً.

يثني النمو الاقتصادي منحنى كوزنتس البيئي عبر إحداث تقدم، ليس فقط في التكنولوجيا، وإنَّما في القيم أيضًا. بعض المخاوف البيئية عملية تمامًا، إذ يشتكي الناس من الضباب الدخاني في مدنهم أو من رصف المساحات الخضراء، ولكنَّ هناك مخاوف أخرى أكثر روحانية. إنَّ مصير وحيد القرن الأسود ورفاهة نسلنا في العام 2025 على سبيل المثال تُعد مخاوف معنوية مهمة، ولكنَّ القلق بشأنها الآن يُعد رفاهية إلى حدٍّ ما، فعندما تزداد المجتمعات غنى، ولا يعود الناس يفكرون في توفير القوت والمأوى، تصعد قيمهم هرم الاحتياجات ويتوسع منظور مخاوفهم عبر المكان والزمان. وجد كلٌّ من رونالد إنجلهارت وكريستيان ويلزيل، باستخدام بيانات من مسح القيم العالمية، أنَّ أصحاب القيم التحررية الأقوى –التسامح والمساواة وحرية الفكر والتعبير– الملازمة غالبًا لليُسر والتعليم، يميلون أكثر أيضًا إلى إعادة تدوير النفايات والضغط على الحكومات والأعمال التجارية من أجل حماية البيئة.

يرفض المتشائمون فيما يخص البيئة عادةً هذه الطريقة في التفكير بأنَّها «إيمان بأنَّ التكنولوجيا ستنقذنا»، وهذا في الحقيقة تشككٌ وظن بأنَّ الوضع الراهن سيُهلكنا، وأنَّ المعرفة ستتجمد في حالتها الراهنة، وسيستمر الناس في سلوكياتهم بصورةٍ آلية بغض النظر عن الظروف. أدَّى الإيمان الساذج بالثبات بكل تأكيد من قبل إلى نبوءات لم تتحقق بيوم قيامةٍ بيئي،كانت أولى هذه النبوءات «القنبلة السكانية» التي (كما رأينا في الفصل السابع) أبطلت نفسها. عندما تصبح الدول أغنى وذات تعليمٍ أفضل، تمر بما يطلق عليه الديمغرافيون (علماء السكان) التحول الديموغرافي، فأولًا: تتراجع معدلات الوفيات مع تحسن التغذية والصحة، يتسبب هذا في تضخم السكان، ولكنَّ هذا أمر لا يستحق البكاء عليه، فهو لا يحدث كما أشار يوهان نوربرج لأنَّ سكان الدول الفقيرة يبدؤون في التكاثر كالأرانب، وإنَّما لأنَّهم يتوقفون عن الموت كالذباب. وهذه الزيادة مؤقتة على أي حال، فمعدلات المواليد تصل إلى الذروة ثم تتراجع، لسببين على الأقل،

فالآباء يتوقفون عن إنجاب أنسال كثيرة كضمانٍ في حالة وفاة بعض أطفالهم، وعندما تتلقى النساء تعليمًا أفضل، يتزوجن لاحقًا ويؤجلن إنجاب الأطفال. يوضِّح الشكل رقم 10–1 أنَّ معدل نمو سكان العالم بلغ ذروته وهي نسبة 2.1 في المئة سنويًّا في عام 1962، ثم هبط ليصل إلى 1.2 في المئة في عام 2010، وسينخفض أكثر على الأرجح ليصل إلى 0.5 بحلول عام 2050، ويقترب من الصفر في حوالي العام 2070 حسب التوقع بأنَّ تعداد السكان في ذلك الوقت سيستقر ثم سيتراجع. انخفضت معدلات الخصوبة بشكلٍ ملحوظٍ للغاية في المناطق المتقدمة مثل أوروبا واليابان، ولكنَّها قد تنهار فجأة في أجزاءٍ أخرى من العالم بما سيفاجئ الديموغرافيين. رغم الاعتقاد الشائع بأنَّ المجتمعات المسلمة مقاومة للتغيرات الاجتماعية التي حوَّلت الغرب تمامًا وستهزها زلازل الشباب في وقتٍ غير معلوم، إلَّا أنَّ الدول المسلمة قد شهدت تراجعًا في معدل الخصوبة بنسبة 4 في المئة على مدار العقود الثلاث الماضية، وتشمل هذه النسبة هبوطًا بنسبة 70 في المئة في إيران، وبنسبة 60 في المئة في بنجلاديش وسبع دول عربية.



الشكل رقم 10– 1: السكان والنمو السكاني منذ 1750 حتى 2015 والنمو المتوقع حتى عام 2100

المصادر: .Ortiz-Ospina & Roser 2016d ,*Our World in Data* البيانات للأعوام من 1750 حتى 2015: شعبة السكان بالأمم المتحدة وقاعدة البيانات التاريخية للبيئة العالمية ((HYDE، وPBL (وكالة التقييم البيئي الهولندية) (غير محددة التاريخ). التوقعات لما بعد 2015: معدل النمو السنوي، نفس المعدل في الأعوام من 1750 حتى 2015. مليارات الأشخاص، تحليل المعهد الدولي للأنظمة التطبيقية، توقع متوسط (مجموع التقديرات الخاصة بكل دولة، مع أخذ التعليم في الحسبان)، .Lutz, Butz, & Samir 2014

الخوف الآخر الموجود منذ ستينيات القرن الماضي هو أن تنفد موارد العالم، ولكنَّ الموارد تأبى أن تنفد، إذ جاءت الثمانينيات ومضت دون المجاعات التي كان من المفترض أن تجوّع عشرات الملايين من الأمريكيين ومليارات الأشخاص حول العالم، ثم مضى عام

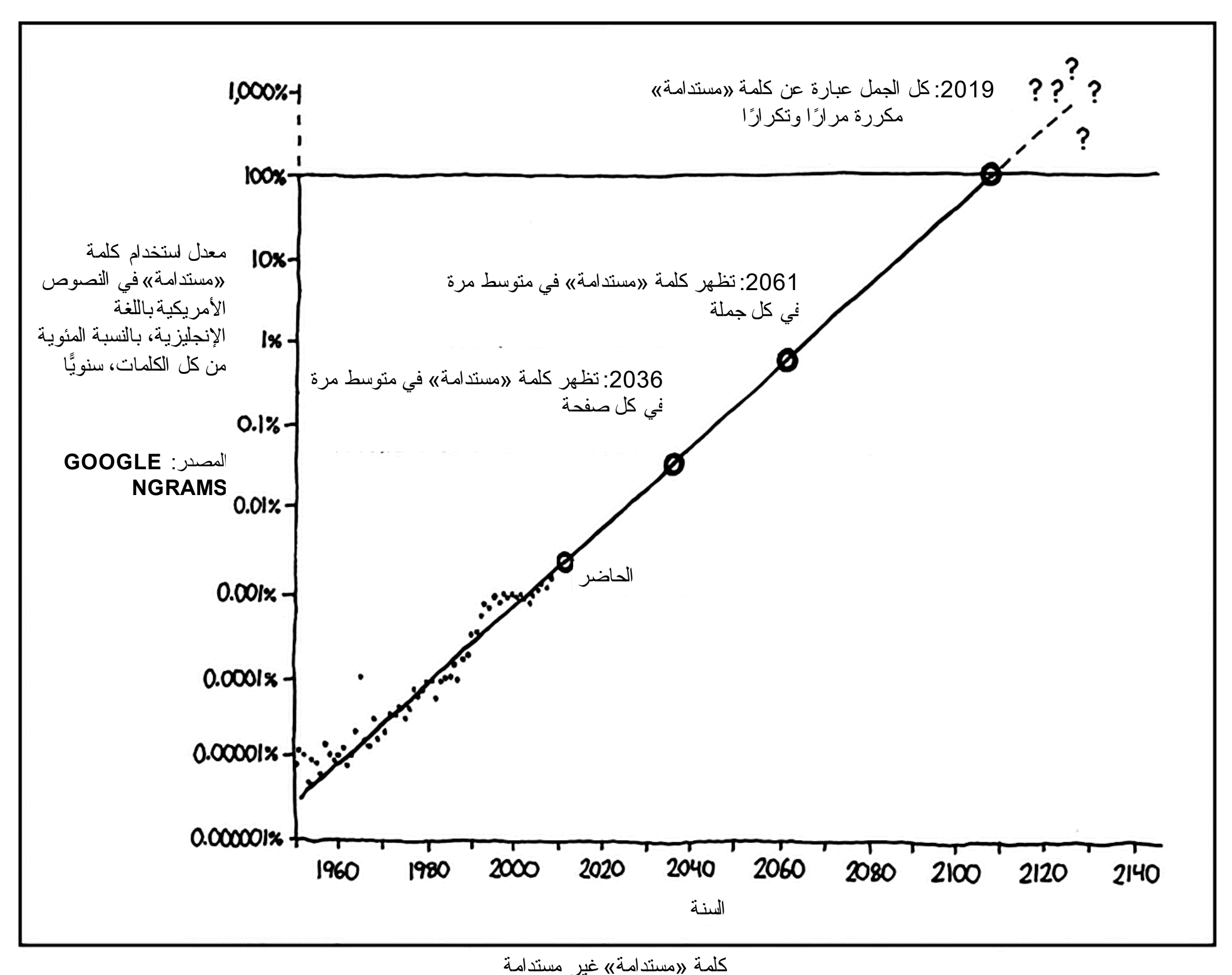
1992، وعلى عكس توقعات الكتاب الذي حقق أعلى المبيعات في عام 1972، **حدود النمو** (*The Limits to Growth*)، والخطابات المشابهة شديدة اللهجة، فلم يستنزف العالم كل ما فيه من ألومنيوم أو نحاس أو كروم أو ذهب أو نيكل أو قصدير أو تنجستن أو زنك. (راهن إيرليش في عام 1980 الاقتصادي جوليان سيمون رهاناً شهيراً على أنَّ خمسة من هذه المعادن ستصبح أندر، وبالتالي أغلى، بحلول نهاية العقد، وخسر الرهانات الخمس كلها. ولكنَّ معظم المعادن أرخص اليوم بالتأكيد مما كانت عليه في عام 1960). منذ نهاية السبعينيات حتى بداية الألفينيات، كانت أغلفة المجلات الإخبارية تصوِّر الأخبار عن إمداد العالم من النفط بمؤشر وقود يشير إلى كون خزان الوقود فارغًا، ولكن في عام 2013 نشرت مجلة **الاتلانتك** *The Atlantic* خبرًا عن ثورة التكسير الهيدروليكي بعنوان «لن ينفد النفط مطلقًا».

وتوجد عناصر أرضية نادرة مثل الإتريوم والسكانديوم واليوروبيوم واللانثانوم، ربما تتذكر هذه العناصر الكيميائية من الجدول الدوري الذي درسته في حصة الكيمياء أو من أغنية «العناصر» التي غناها توم لهرر، وتُعد هذه المعادن مكوِّنات بالغة الأهمية للمغناطيس والأضواء الفلورية وشاشات عرض الفيديوهات والمواد الحفَّازة وأجهزة الليزر والمكثفات الكهربائية وزجاج البصريات وتطبيقات أخرى ذات تكنولوجيا عالية. تم تحذيرنا بأنَّه عندما تبدأ هذه المعادن في النفاد، سنعاني من نقص حرج وانهيار في صناعة التكنولوجيا وربما حرب مع الصين، وهي مصدر 95 في المئة من إمداد العالم منها، وكان هذا ما أدى إلى أزمة اليوروبيوم الكبرى في أواخر القرن العشرين، عندما نفد العالم من المكوِّنِ الحاسم لنقاط الفوسفور الحمراء في أنابيب أشعة المهبط (الكاثود) في التليفزيونات الملونة وشاشات الكمبيوتر، وانقسم العالم إلى المقتدرين الذين أخذوا يكتنزون آخر أجهزة تليفزيون صالحة، ومن لا يملكون شيئًا الذين اضطروا إلى تدبر أمورهم بالأبيض والأسود. ماذا؟ ألم تسمع عن هذه الأزمة قط؟ من بين أسباب عدم نشوب هذه الأزمة من الأساس أنَّ لوحات العرض البلوري السائل المصنوعة من العناصر الشائعة قد حلَّت محل أنابيب أشعة المهبط. وماذا عن الحرب على العناصر النادرة؟ في الواقع، عندما قلَّصت الصين صادراتها في عام 2010 (ليس بسبب النقص وإنما كسلاح جيوسياسي وتجاري)، بدأت الدول الأخرى في استخراج عناصر أرضية نادرة من مناجمها الخاصة، وأعادت تدويرها من النفايات الصناعية، وأعادت تصميم المنتجات كي لا تحتاج إلى هذه العناصر ثانيةً.

عندما لا تتحقق التنبؤات المنذرة بنهاية العالم بسبب نقص الموارد مرارًا وتكرارًا، فإنّ المرء لا بد أن يستنتج إما أنَّ البشرية قد نجت بأعجوبة من موتٍ محقق مرة تلو الأخرى كبطل هوليوودي أو أنَّ هناك عيبًا في طريقة التفكير التي تتنبأ بنقص الموارد الذي سينهي العالم. وقد تمت الإشارة إلى هذا العيب مرات عدة، فالبشرية لا تمتص الموارد من الأرض كما تمتص الماصة مخفوق الحليب حتى يخبرها صوتٌ ما بأنَّ المشروب قد نفد، بل كلما أصبح حتى أسهل الموارد استخراجًا أندر، ارتفع سعره، مما يشجع الناس على الاحتفاظ به، أو الوصول إلى الرواسب التي يصعب الوصول إليها أكثر، أو العثور على بدائل أرخص ووافرة.

من المغالطة بالطبع اعتقاد أنَّ الناس «يحتاجون إلى الموارد» من الأساس، فهُم يحتاجون إلى طرقٍ لزرع الغذاء، والانتقال، وإضاءة منازلهم، وعرض المعلومات، ومصادر الرفاهة الأخرى، وهُم يلبون هذه الاحتياجات بالأفكار: بالوصفات والصيغ والتقنيات والمخططات والخوارزميات من أجل التلاعب بالعالم المادي كي يقدِّم لهم ما يريدونه. إنَّ العقل البشري بقوته التركيبية التكرارية يمكنه استكشاف مساحة لا نهائية من الأفكار، ولا يتقيد بكمية أي نوعٍ محدد من المواد الموجودة في الأرض، فعندما لا تنجح فكرة ما، تحل محلها فكرةٌ أخرى، ولا يتحدى هذا قوانين الاحتمالات وإنَّما ينصاع لها. لماذا قد تسمح قوانين الطبيعة بطريقة واحدة فقط ممكنة لتلبية رغبة بشرية ما، لا أكثر ولا أقل؟

لا يمكن إنكار أنَّ هذه الطريقة في التفكير لا تتوافق مع أخلاقيات «الاستدامة»، ويوضِّح رسَّام الكاريكاتير راندال مونرو في الشكل رقم 10–2 المشكلة في هذه الكلمة الدارجة والقيمة المقدسة.



الشكل رقم 10– 2: الاستدامة منذ 1955 حتى 2109

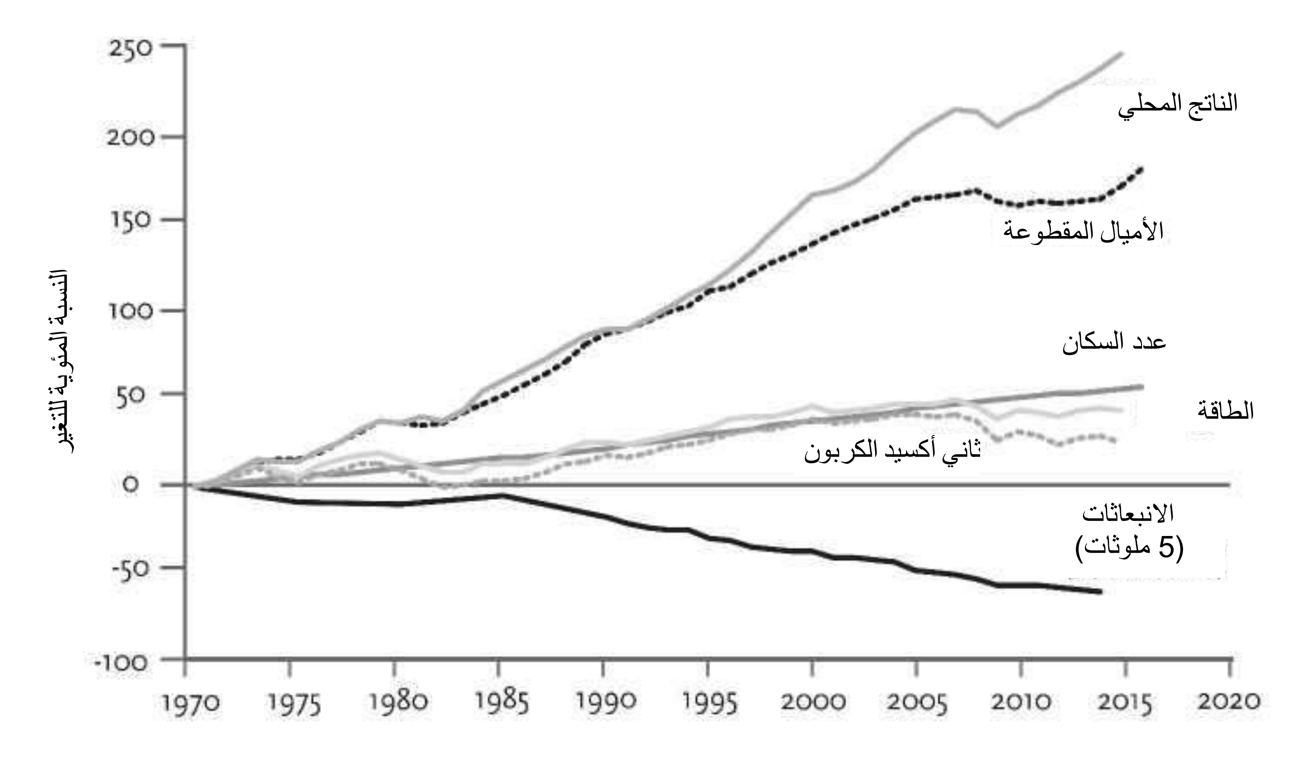
المصدر: راندال مونرو، *XKCD*، http://xkcd.com/1007/.

حقوق الصورة: راندال مونرو، xkcd.com.

تفترض عقيدة الاستدامة أنَّ المعدل الحالي لاستخدام أحد الموارد يمكن أن يمتد في المستقبل حتى يصطدم في سقفٍ، والمغزى الضمني أنَّ علينا الانتقال إلى استخدام مورد متجدد يمكن تجديده بنفس معدل استخدامنا، أي إلى أجلٍ غير مسمى. في الواقع، لطالما كانت المجتمعات تهجر المورد وتذهب إلى موردٍ أفضل قبل استنزاف القديم بوقتٍ طويل، ويُقال كثيرًا إنَّ العصر الحجري لم ينتهِ لأنَّ العالم نفد من الأحجار، وينطبق هذا على الطاقة أيضًا. ويشير أوزوبيل إلى أنَّه: «كان هناك كثيرٌ من الأخشاب والقش المتبقية والمتاحة للاستغلال عندما انتقل العالم إلى استخدام الفحم، وعندما ظهر النفط فاض الفحم، والآن سيفيض النفط مع ظهور الميثان (الغاز الطبيعي)». وكما سنرى، ربما تحل مصادر طاقة ذات كربون أقل محل الغاز أيضًا قبل أن يشتعل آخر قدم مكعب منه بلهبٍ أزرق.

لقد نما الإمداد من الغذاء أيضًا نموًا مطردًا (كما رأينا في الفصل السابع) رغم أنَّه لم يكُن هناك قط أي أسلوب مستدام من أساليب زراعته. في كتاب **السقاطة الكبرى: كيف تزدهر البشرية في وجه الكوارث الطبعية** (*The Big Ratchet: How Humanity Thrives in the Face of Natural Crisis*)، وصفت عالمة الجغرافيا روث ديفرايز (Ruth DeFries) التسلسل كما يلي: «السقاطة–البلطة–الدوران»، أي يكتشف الناس طريقةً لزراعة المزيد من الطعام، فيجري كل الناس في اتجاه واحدٍ نحوه كالسقاطة، ثم يفشل هذا الأسلوب في مواكبة الطلب أو تظهر آثار جانبية مزعجة له، فتسقط البلطة، ثم يدور الناس في اتجاهٍ آخر نحو أسلوبٍ جديد. قام المزارعون بهذا الدوران في أوقاتٍ مختلفة في اتجاه البستنة القائمة على القطع والحرق، والسماد البشري (أي الغائط البشري)، والدورة الزراعية للمحاصيل، وفضلات الطيور، ونترات البوتاسيوم، وعظام جواميس البيسون المطحونة، والمخصبات الكيميائية، والمحاصيل الهجينة، والمبيدات الحشرية، والثورة الخضراء. ربما يشمل هذا الدوران في المستقبل الكائنات المعدلة جينيًّا والزراعة في الماء، والزراعة الهوائية، والمزارع الرأسية الحضرية، والحصاد الآلي، واللحوم المزروعة في الأنابيب، وخوارزميات الذكاء الاصطناعي التي يغذيها نظام تحديد المواقع العالمي (GPS) والمجسات الحيوية، واسترداد الطاقة والمخصبات من شبكات الصرف الصحي، والزراعة المائية بأسماكٍ تأكل التوفو بدلًا من الأسماك الأخرى، ومن يعرف ما الذي يمكن أن يفعله الناس غير ذلك طالما كان مسموحًا لهم إطلاق العنان لبراعتهم؟ رغم أنَّ المياه أحد الموارد التي لن يبتعد عنها الناس مطلقًا، إلَّا أنَّه باستطاعة المزارعين توفير قدرٍ ضخمٍ منها إذا انتقلوا إلى الزراعة الدقيقة على الطراز الإسرائيلي، وإذا طوَّر العالم مصادر طاقة وفيرة خالية من الكربون (وهو موضوع سنستكشفه لاحقًا)، فيمكنه أن يحصل على ما يحتاج إليه عبر تحلية مياه البحار.

لم يقتصر الأمر على عدم تحقق الكوارث التي تنبأت بها الحركة الخضراء في السبعينيات، وإنَّما تحققت بالفعل أيضًا التطورات التي عدَّتها مستحيلة، فمع ازدياد العالم غنى ووصول المنحنى البيئي إلى ذروته، بدأت الطبيعة في الانتعاش. تعبِّر «الكومة الضخمة من الوسخ» عن رؤية شخصٍ استيقظ متخيلًا أننا في عام 1965، حقبة المداخن النفاثة، وشلالات الصرف الصحي، واندلاع النيران في الأنهار، والنكات عن أنَّ سكان نيويورك لا يحبون تنفس هواءٍ لا يرونه. يوضِّح الشكل رقم 10–3 أنَّ الولايات المتحدة قد خفَّضت انبعاثاتها من خمسةٍ من ملوثات الهواء بحوالي الثلثين منذ عام 1970، عندما أُنشِئت وكالة حماية البيئة، وخلال نفس تلك الفترة، نما عدد السكان بنسبة أكثر من 40 في المئة، وأصبح هؤلاء السكان يقودون سياراتهم لمسافات تُقدر بضعف عدد الأميال، وأصبحوا أغنى بمقدار الضعفين والنصف، واستقر استخدام الطاقة، وحتى انبعاثات ثاني أكسيد الكربون قد تجاوز منعطفًا صعبًا، وهي نقطة سنعود إليها فيما بعد. لا يعكس هذا التراجع إلقاء عبء الصناعات الثقيلة على العالم النامي، لأنَّ الجزء الأعظم من استخدام الطاقة والانبعاثات ينبع من النقل والتدفئة وتوليد الكهرباء، وهي مهام لا يمكن الاستعانة بمصادرٍ خارجية في تنفيذها، وإنَّما يعكس بالأساس المكاسب المحققة في الكفاءة والتحكم في الانبعاثات. تنفي هذه المنحنيات المتفرقة كلًّا من ادعاء الحركة الخضراء المتشددة بأنَّه لا يمكن سوى لتراجع النمو أن يحد من التلوث، وادعاء الجناح اليميني المتشدد بأنَّ حماية البيئة لا بد أن تهدم النمو الاقتصادي ومستوى معيشة الناس.



الشكل رقم 10- 3: التلوث والطاقة والنمو في الولايات المتحدة منذ 1970 حتى 2015

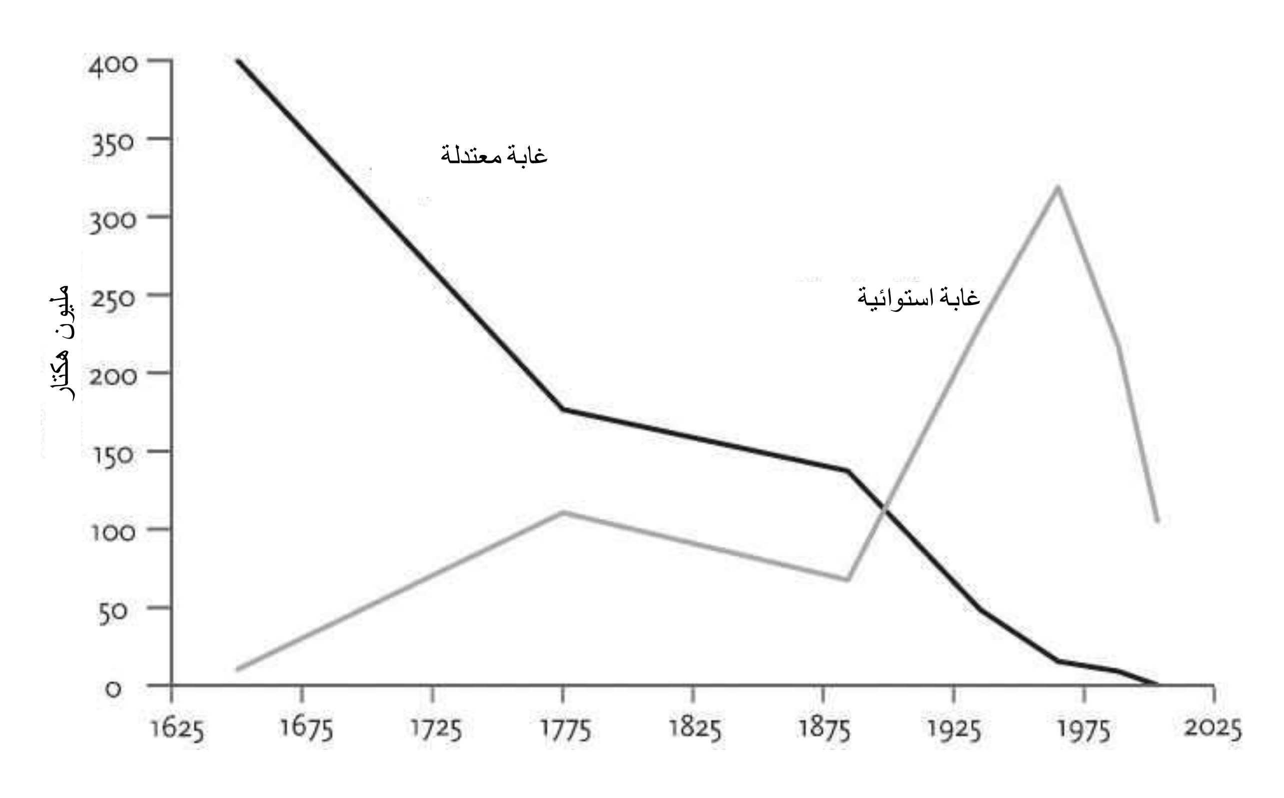
المصادر: وكالة حماية البيئة الأمريكية 2016، استنادًا إلى المصادر التالية. الناتج المحلي الإجمالي: مكتب التحليل الاقتصادي الأميال المقطوعة بالمركبات: الإدارة الفيدرالية للطرق السريعة. عدد السكان: مكتب تعداد الولايات المتحدة. الاستهلاك من الطاقة: وزارة الطاقة الأمريكية. ثاني أكسيد الكربون: تقرير الجرد الأمريكي للغازات الدفيئة. الانبعاثات (أول أكسيد الكربون، وأكاسيد النيتروجين، والمواد الجسيمية الأصغر من 10 مايكرومتر، وثاني أكسيد الكبريت، والمركبات العضوية المتطايرة): وكالة حماية البيئة الأمريكية، https://www.epa.gov/air-emissions-inventories/air-pollutant-emissions-trends-data.

يمكن رؤية كثير من هذه التطورات بالعين المجردة، إذ أصبحت المدن غالبًا أقل امتلاءً بالشبورة الأرجوانية البنية، ولم تعُد لندن مليئة بالضباب –وهو في الحقيقة الدخان الناتج عن الفحم– الذي خلَّدته اللوحات الانطباعية والروايات القوطية وأغنية جيرشوين* وماركة المعاطف الواقية من المطر.* عادت الأسماك والطيور والثدييات المائية وأحيانًا السبَّاحون إلى الممرات المائية الحضرية –بما فيها لسان بيوجت ساوند وخليج تشيزبيك وميناء بوسطن وبحيرة إيري وأنهار هدسون وبوتوماك وشيكاغو وتشارلز والسين والراين والتايمز (ووصف دزرائيلي هذا الأخير بأنَّه «مسبح جهنمي تنبعث منه روائح وأهوال لا توصف ولا تُحتمل»). ويرى سكان الضواحي الذئاب والثعالب والدببة وقطط الوشق الأحمر وحيوانات الغرير والغزلان وطيور العقاب النساري والديوك الرومية البرية والنسور الصلعان. عندما تصبح الزراعة أكثر كفاءة (الفصل السابع)، تعود الأراضي الزراعية إلى طبيعتها كغابة معتدلة المناخ، كما يعرف أي متنزِّه وجد أمامه جدارًا من الأحجار المتباينة التي تمتد بطول أراضي نيو إنجلاند المشجرة، ورغم أنَّ الأشجار في الغابات الاستوائية ما زالت تتعرض للقطع على نحوٍ مقلق، إلَّا أنَّ معدل قطعها انخفض بمقدار الثلثين بين منتصف القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين (الشكل رقم 10–4). بلغ معدل

---

*أغنية للمطرب جورج جيرشوين عنوانها A Foggy Day in London (يوم ضبابي في لندن). -المترجمة.
*اسمها London Fog (ضباب لندن). -المترجمة.

إزالة أكبر الغابات الاستوائية في العالم، وهي غابة الأمازون، إلى ذروته في عام 1995، ثم انخفض بمقدار أربعة أخماس منذ عام 2004 حتى 2013.



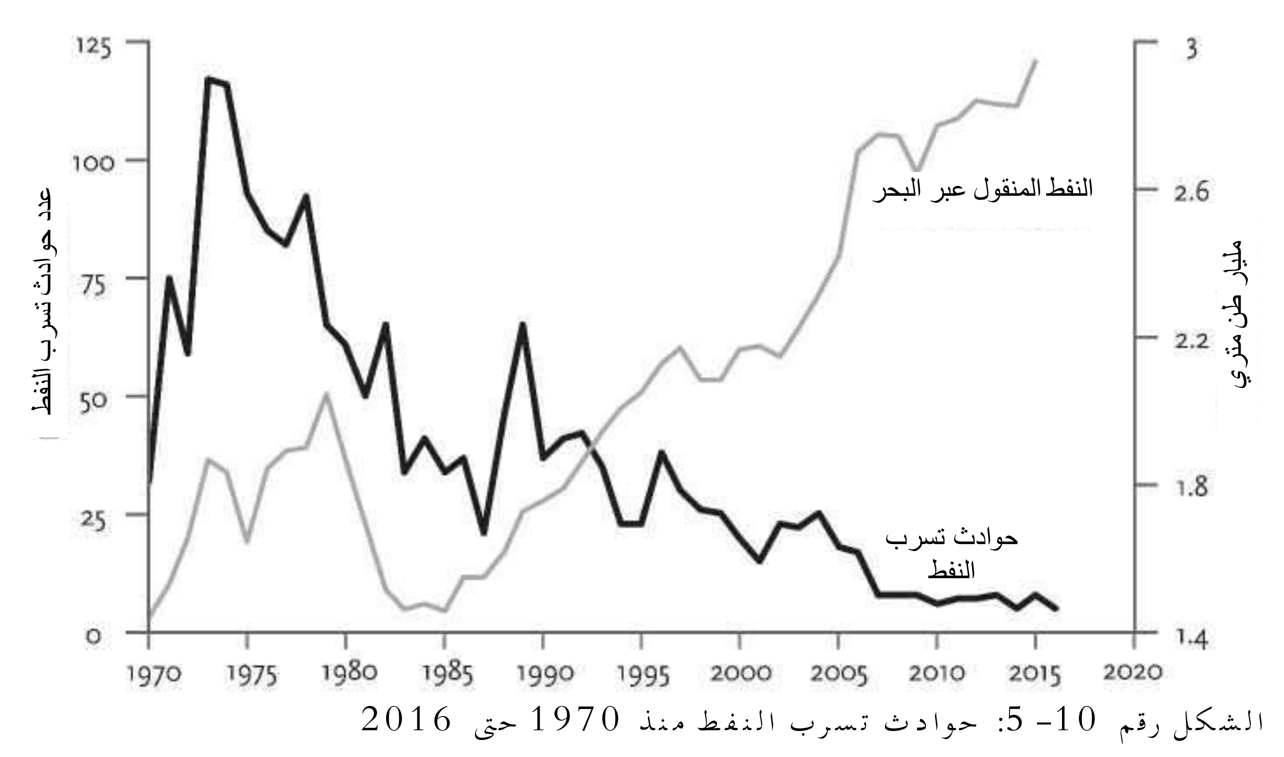
الشكل رقم 10- 4: معدل إزالة الغابات منذ 1700 حتى 2010

المصدر: منظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة، 2012، ص.9 تمثِّل هذه الخطوط الإجمالي على مدار فترات مختلفة، وليست معدلات سنوية، وبالتالي فهي ليست متناسبة بشكلٍ مباشر.

إنَّ التراجع المتأخر في معدل إزالة الغابات الاستوائية أحد العلامات على انتشار حماية البيئة من الدول المتقدمة إلى بقية العالم، فيمكن تتبع تقدم العالم في بطاقة تقرير يُطلق عليها مؤشر الأداء البيئي، وهو مركَّب من مؤشرات لجودة الهواء والماء والغابات ومصايد الأسماك والمزارع والموائل الطبيعية. ظهر التحسن على كل الدول التي تم تتبعها لمدة عقدٍ أو أكثر، وعددها 180 دولة، ما عدا دولتين فقط، وفي المتوسط، كلما زاد ثراء الدولة، زادت نظافة بيئتها، فكانت دول شمال أوروبا هي الأنظف، في حين كانت أفغانستان وبنجلاديش وعدة دول من منطقة أفريقيا جنوب الصحراء هي الأكثر تعرضًا للخطر. إنَّ اثنين من أكثر أشكال التلوث فتكًا –مياه الشرب الملوثة والدخان الناتج عن الطهي في الأماكن المغلقة– من الابتلاءات التي أصيبت بها الدول الفقيرة، ولكن مع ازدياد الدول الفقيرة غنىً خلال العقود الأخيرة، فهي تهرب من هذه الآفات، فقد انخفضت نسبة سكان العالم الذين يشربون مياهًا ملوثة بمقدار خمسة أثمان، ونسبة سكان العالم الذين يستنشقون الدخان الناتج عن الطهي بمقدار الثُلث. وكما قالت إنديرا غاندي: «الفقر هو أكبر مصدر تلوث».

الصورة المصغرة للأضرار البيئية هي حوادث تسرب النفط من الناقلات البحرية، الذي يغطي الشواطئ البكر برواسب سوداء سامة

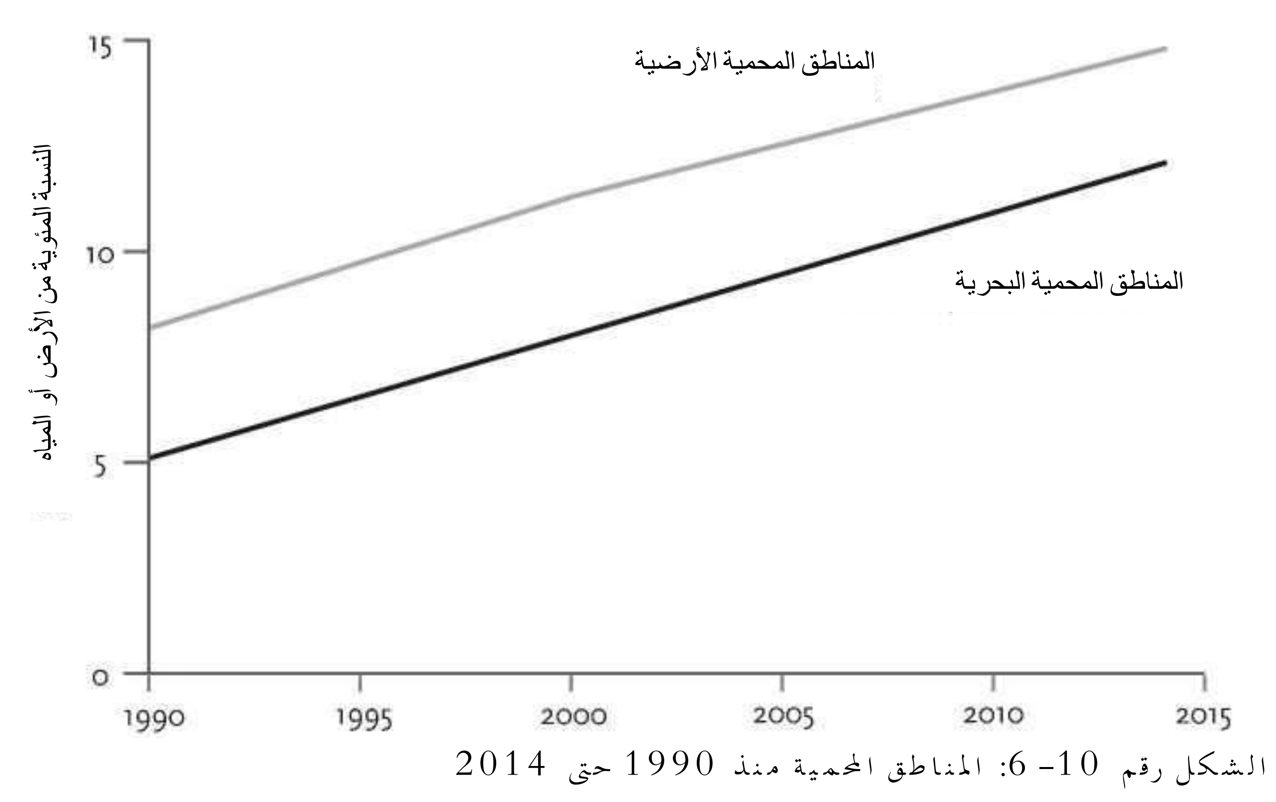
ويلوث ريش الطيور البحرية وفراء كلاب الماء والفقمات، وتبقى في ذاكرتنا الجمعية أشهر الحوادث السيئة مثل تحطم الناقلة توري كانيون في عام 1967 والناقلة إيكسون فالديز في عام 1989، ولا يعي سوى القليل من الناس أنَّ وسائل نقل النفط البحرية أصبحت أكثر أماناً بكثيرٍ. يوضِّح الشكل رقم 10–5 أنَّ العدد السنوي لحوادث تسرب النفط قد انخفض من تسعين حادثة في عام 1973 إلى خمس حوادث فقط في عام 2016 (وانخفض عدد حوادث التسرب الضخمة من اثنين وثلاثين حادثة في عام 1978 إلى حادثة واحدة في عام 2016)، ويوضِّح الشكل أيضًا أنَّه رغم تسرب كمية أقل من النفط، إلَّا أنَّه قد تم نقل كمية أكبر منه، ويقدِّم هذان المنحنيان المتقاطعان دليلًا إضافيًا على تماشي الحماية البيئية مع النمو الاقتصادي. لا عجب أنَّ شركات النفط تريد تقليل عدد حوادث الناقلات، لأنَّ مصالحها تتفق مع مصالح البيئة، فحوادث تسرب النفط كارثة في العلاقات العامة (وخاصةً عندما يزين اسم الشركة سفينةً متصدعة)، وتتسبَّب في دفع غرامات باهظة، وتهدر بالطبع النفط القيِّم. من الأمور الأكثر إثارة للاهتمام أنَّ الشركات قد نجحت في ذلك بدرجةٍ كبيرة، فالتكنولوجيا تسير في منحنى التعلم وتصبح أقل خطرًا بمرور الوقت واستبعاد الباحثون التقنيون في تصميماتهم الثغرات الأخطر (وهي النقطة التي سنعود إليها في الفصل الثاني عشر)، ولكنَّ الناس يتذكرون هذه الحوادث ولا يعون التطورات المتزايدة. تظهر أشكال التكنولوجيا المختلفة على مدار جداول زمنية مختلفة، ففي عام 2010 عندما كانت حوادث تسرب النفط في الناقلات البحرية قد انخفضت إلى أقل مستوى لها على الإطلاق، حدث ثالث أسوأ تسرب نفطي من أبراج الحفر الثابتة، وأدت حادثة منصة *Deepwater Horizon* في خليج المكسيك بدورها إلى إرساء لوائح جديدة لموانع الانفجار، وتصميم الآبار، والمراقبة، والاحتواء.



الشكل رقم 10– 5: حوادث تسرب النفط منذ 1970 حتى 2016

المصدر: *Our World in Data*، Roser 2016r، استنادًا إلى بيانات (محدثة) من الاتحاد الدولي المحدود لمالكي الناقلات المعني بالتلوث، http://www.itopf.com/knowledge-resources/data-statistics/statistics/. تشمل حوادث تسرب النفط كل تلك الحوادث التي ينتج عنها فقدان 7 أطنان مترية من النفط على الأقل. يتكون النفط المنقول من «النفط الخام، والمنتجات البترولية والغاز المحمل».

أحد مظاهر التقدم الأخرى التي حدثت، تمثّل في خضوع مساحات بأكملها من الأراضي والمحيطات للحماية من استخدام البشر تمامًا، ويُجمع خبراء الحفاظ على البيئة على تقييمهم للمناطق المحمية بأنَّها ما زالت غير كافية، ولكنّ الزخم مذهل. يوضِّح الشكل رقم 10-6 أنَّ نسبة الأراضي المخصصة من كوكب الأرض للحدائق الوطنية ومحميات الحياة البرية والمناطق المحمية الأخرى قد نمت من 8.2 في المئة في عام 1990 إلى 14.8 في المئة في عام 2014، وهي مساحة تبلغ ضعف حجم الولايات المتحدة. ونمت المحميات البحرية أيضًا بمقدار أكثر من الضعف خلال هذه الفترة وهي تحمي الآن أكثر من 12 في المئة من محيطات العالم.



الشكل رقم 10- 6: المناطق المحمية منذ 1990 حتى 2014

المصدر: البنك الدولي 2016h و2017، استنادًا إلى بيانات من برنامج الأمم المتحدة للبيئة والمركز العالمي لرصد حفظ البيئة والتي جمعها معهد الموارد العالمية.

بفضل جهود حماية الموائل الطبيعية والجهود الموجهة نحو الحفاظ على البيئة، تم إنقاذ كثيرٍ من أنواع الحيوانات والطيور التي كانت على وشك الانقراض، مثل: طائر القطرس، وطائر الكندور، والمها، والباندا، ووحيد القرن، وشيطان تسمانيا، والنمر. وقد انخفض معدل انقراض الطيور بنسبة 75 في المئة وفق ما قال عالم الإيكولوجيا ستيوارت بيم. ورغم أنَّ كثيرًا من الأنواع ما زالت في مأزق خطير، إلَّا أنَّ عددًا من علماء الإيكولوجيا والمستحاثات يعتقدون أنَّ الادعاء بأنَّ البشر يتسبَّبون في حدوث انقراض جماعي كالذي حدث في العصر البرمي والعصر الطباشيري مبالغٌ فيه، وكما يشير براند قائلًا: «يظل أمامنا كثيرٌ من المشاكل الخاصة بالحياة البرية التي تحتاج إلى حل، ولكنَّ وصفها كثيرًا بأنَّها أزمات انقراض أدى إلى ذعرٍ عام من أن تكون الطبيعة هشة للغاية أو قد تلفت بالفعل تمامًا بلا أمل في إصلاحها، وهذا أبعد ما يكون عن الوضع الفعلي، فالطبيعة ككل قوية كما كانت طوال عمرها، بل وربما أقوى... وعن طريق التعامل مع هذه القوة يتم تحقيق أهداف الحفاظ على البيئة».

وحدثت تطورات وتحسينات أخرى على نطاقٍ عالمي، ففي عام 1963 قضت المعاهدة التي تحظر التجارب النووية في الغلاف

الجوي على أكثر أشكال التلوث ترويعًا على الإطلاق، وهو الغبار الذري المشع، وأثبتت أنَّ دول العالم يمكن أن تتفق على إجراءاتٍ لحماية الكوكب حتى في ظل عدم وجود حكومة عالمية. ومنذ ذلك الحين، تمكن التعاون العالمي من مواجهة تحديات أخرى عديدة، فقد ساعدت المعاهدات الدولية بشأن الحد من انبعاثات الكبريت والأشكال الأخرى من «التلوث الجوي بعيد المدى عبر الحدود» التي تم توقيعها في الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي في القضاء على الفزع من سقوط الأمطار الحمضية، وبفضل حظر الفلوروكلوروكربونات في عام 1987 الذي صدقت عليه 197 دولةً، فمن المتوقع تعافي طبقة الأوزون في منتصف القرن الحادي والعشرين. تمهِّد هذه النجاحات الطريق كما سنرى لاتفاقية باريس بشأن التغير المناخي التاريخية التي انعقدت في عام 2015.

تُقابل التقارير عن تحسن حالة البيئة غالبًا بمزيجٍ من الغضب واللا منطقية ككل المظاهر الأخرى الدالة على التقدم. إنَّ مواصلة تحسُّن مقاييس عديدة للجودة البيئية لا يعني بالضرورة أنَّ كل شيء على ما يرام، أو أنَّ البيئة تتحسن من تلقاء نفسها أو أنَّ بإمكاننا الاسترخاء دون فعل أي شيء. علينا أن نشكر النقاشات والنشاطات والتشريعات والقواعد المنظمة والمعاهدات والبراعة التكنولوجية لدى من سعوا إلى تحسين البيئة في الماضي على البيئة الأنظف التي نتمتع بها اليوم، وسنحتاج إلى المزيد من كل هذه الأمور لمواصلة التقدم الذي حققناه، ونمنع انعكاسه (وخاصةً في ظل رئاسة ترامب)، وتوسيع نطاقه ليشمل المشاكل الخبيثة التي ما زالت تواجهنا مثل صحة المحيطات والغازات الدفيئة في الغلاف الجوي كما سنرى فيما بعد.

ولكنَّ الوقت قد حان للتخلي عن اللعبة الأخلاقية التي يكون البشر فيها عرقًا خسيسًا مليئًا باللصوص والنهَّابين الذين سيعجِّلون بنهاية العالم لو لم يتراجعوا عن الثورة الصناعية وينبذون التكنولوجيا ويعودون إلى التناغم الزاهد مع الطبيعة. وبدلًا من ذلك، يمكننا أن نتعامل مع حماية البيئة بوصفها مشكلة يجب حلها، كيف يمكن أن يحيا الناس حياة آمنة ومريحة ومحفِّزة مع التسبُّب في أقل قدرٍ ممكن من التلوث وفقدان الموائل الطبيعية؟ يشجِّعنا التقدم الذي حققناه حتى الآن في حل هذه المشكلة على السعي وراء تحقيق المزيد لا السماح بالقناعة بالوضع الراهن، ويشير أيضًا إلى القوى التي سيَّرت هذا التقدم.

أحد مفاتيح حل هذه المشكلة هو فصل الإنتاجية عن الموارد، أي تحقيق البشر انتفاعًا أكبر بكميات أقل من المادة والطاقة، ويضفي هذا قيمة كبير على الكثافة. ولأنَّ الزراعة أصبحت مكثَّفة عبر زراعة محاصيل مهجَّنة أو معدَّلة لإنتاج المزيد من البروتين والسعرات الحرارية والألياف باستخدام مساحاتٍ أقل من الأراضي وكمياتٍ أقل من المياه والأسمدة، تم الاستغناء عن جزءٍ كبير من الأراضي الزراعية ويمكن أن يتغير شكلها لتعود موائلَ طبيعية مرة أخرى. (يشير أنصار حركة الحداثة البيئية إلى أنَّ الزراعة العضوية، التي تحتاج إلى مساحاتٍ أكبر كثيرًا من الأرض لإنتاج كيلوجرام واحد من الغذاء، ليست خضراءً ولا مستدامةً). مع انتقال الناس إلى المدن، لا يفسحون مساحات أكبر من الأراضي في الريف فحسب، بل يستلزمون أيضًا موارد أقل للتجوال والبناء والتدفئة، لأنَّ ما يمثِّل سقفًا لأحد الأفراد يمثِّل أرضيةً لفردٍ آخر. ومع حصد محاصيل أشجار المزارع الكثيفة، التي تتمتَّع بخمسة إلى عشرة أضعاف الغلة الناتجة عن الغابات الطبيعية، يتم الاستغناء عن أراضي الغابات وسكانها من ذوي الريش والفرو والحراشف.

ويسهِّل كل هذه العمليات صديقٌ آخر للأرض وهو الحد من استخدام المواد (*Dematerialization*)، فالتقدم في التكنولوجيا يتيح لنا القيام بالمزيد من الأمور باستخدام أغراضٍ أقل، إذ كان وزن علبة المياه الغازية المكونة من الألومنيوم على سبيل المثال

3 أوقيات –أي 85 جرامًا– ولكنَّ وزنها اليوم أقل من نصف أوقية –أي 14 جرامًا–، ولم تعُد الهواتف المحمولة بحاجةٍ إلى أعمدة وأسلاك تمتد لأميالٍ. تحد الثورة الرقمية من استخدام المواد في العالم أمام أعيننا إذ تحل وحدات البت محل الذرات، فالياردات المكعبة من الفينيل التي كانت قديمًا تمثِّل مجموعة أقراصي الموسيقية استسلمت للبوصات المكعبة من الأقراص المدمجة، ثم لصيغة الـ MP3 التي لا وزن لها من الأساس، وأوقف جهاز الأيباد تدفق نهر أوراق الصحف في شقتي، ومع سعة التخزين على جهاز اللابتوب التي تبلغ تيرابايت، لم أعُد أشتري صناديق الورق التي يحتوي الواحد منها على عشر رزم. فكِّر في كل البلاستيك والمعدن والورق الذي لم يعُد يدخل في تصنيع أكثر من أربعين منتجًا للمستهلك الواحد يمكن أن يحل محلها جميعًا هاتفٌ ذكي واحد، وتشمل هذه المنتجات مثلًا الهاتف وجهاز الرد الآلي ودفتر الهاتف والكاميرا ومسجِّل الفيديو ومسجِّل الصوت والراديو والمنبه والآلة الحاسبة والقاموس وحافظة البطاقات (رولودكس) والتقويم وخريطة الشوارع والمصباح اليدوي والفاكس والبوصلة، بل وحتى بندول الإيقاع ومقياس درجة الحرارة في الخارج وميزان التسوية.

تحد التكنولوجيا الرقمية من استخدام المواد في العالم أيضًا عبر إتاحة اقتصاد المشاركة، مما يجعل من غير الضروري صناعة السيارات والأدوات وغرف النوم مثلًا بأعداد ضخمة تظل بعد ذلك غير مستخدمة أغلب الوقت. أشار المحلل في مجال الدعاية روري ساذرلاند إلى أنَّ التغييرات في معايير المكانة الاجتماعية أيضًا تسهِّل الحد من استخدام المواد، فأغلى الأراضي العقارية في لندن اليوم ربما كانت لتبدو مزدحمةً للغاية بأغنياء العصر الفيكتوري، ولكنَّ وسط المدينة الآن أكثر رواجًا من الضواحي الراقية. شجَّعت وسائل التواصل الاجتماعي الشباب على التباهي بتجاربهم بدلًا من سياراتهم وملابسهم، وتحول الشباب إلى «هيبسترز» يجعلهم يميِّزون أنفسهم عن الآخرين بذوقهم في البيرة والقهوة والموسيقى، وانتهت الحقبة التي مثَّلتها فرقة ذا بيتش بويز وفيلم *American Graffiti*، إذ إنَّ نصف الشباب الأمريكي البالغ من العمر 18 عامًا الآن لا يمتلك رخصة قيادة.

يشير تعبير «الذروة النفطية»، الذي اشتهر بعد أزمات الطاقة في السبعينيات، إلى العام الذي سيبلغ فيه العالم الحد الأقصى من معدل إنتاج البترول. يشير أوزوبيل إلى أنَّه بسبب التحول الديموغرافي وزيادة الكثافة والحد من استخدام المواد، ربما نكون قد بلغنا ذروة الأطفال وذروة الأراضي الزراعية وذروة الأخشاب وذروة الورق وذروة السيارات. ربما نبلغ بالفعل «ذروة الأشياء»، فمن بين مئة سلعة درسها أوزوبيل ورسمها بيانيًّا، وصلت ستٌّ وثلاثون سلعة إلى ذروة استخدامها في الولايات المتحدة، وقد تكون ثلاثٌ وخمسون سلعة أخرى في طريقها للانخفاض (بما فيها المياه والنيتروجين والكهرباء)، مما يترك إحدى عشرة سلعة فقط ما زالت في نموٍ مستمر. وصل البريطانيون أيضًا إلى ذروة الأشياء، إذ انخفض استهلاكهم السنوي من المواد من 15.1 طن متري للفرد في عام 2001 إلى 10.3 طن متري للفرد في عام 2013.

لم تستلزم هذه الاتجاهات الملحوظة أي إجبار أو تشريع أو وعظ أخلاقي، بل حدثت بعفويةٍ مع اتخاذ الناس قرارات بشأن طريقة عيش حياتهم. لا توضح هذه الاتجاهات بالتأكيد أنَّ التشريعات البيئية غير ضرورية، فقد كان لوكالات حماية البيئة والمعايير المقررة للطاقة وحماية الأنواع المهددة بالانقراض والقوانين الوطنية والدولية للمياه النظيفة والهواء النظيف آثارٌ مفيدة للغاية، ولكنَّ هذه الاتجاهات تشير إلى أنَّ تيار الحداثة لا يكتسح البشرية مسرعًا باتجاه زيادة الاستخدام غير المستدام للموارد. تشمل طبيعة التكنولوجيا، وخاصةً تكنولوجيا المعلومات، شيئًا ما يعمل على فصل ازدهار البشرية عن استغلال الأشياء المادية.

كما علينا ألَّا نقبل الرواية التي تقول إنَّ البشرية تنهب وتفسد كل جزء من البيئة، علينا أيضًا ألَّا نقبل الرواية التي تقول إنَّ كل أجزاء البيئة ستتعافى في ظل ممارساتنا الحالية. على أي نزعة بيئية مستنيرة أن تواجه الحقائق، مبشِّرة كانت أم منذرة، ومن الحقائق المنذرة بالخطر بلا شك أثر الغازات الدفيئة على مناخ الأرض، فكلما حرقنا الخشب أو الفحم أو النفط أو الغاز، يتأكسد الكربون الموجود في الوقود ليكوِّن ثاني أكسيد الكربون (CO_2) الذي ينتقل في الجو. رغم أنَّ بعض جزيئات ثاني أكسيد الكربون تتفكك في المحيط، أو ترتبط كيميائيًّا مع الصخور، أو تمتصها النباتات التي تقوم بعملية البناء الضوئي، إلَّا أنَّ هذه المصارف الطبيعية لا يمكنها مواكبة مقدار ما نخلِّفه في الجو كل عام وهو ما يعادل 38 مليار طنٍ. ومع احتراق جيجات الأطنان من الكربون الذي تركه العصر الكربوني، ارتفعت نسبة تركيز ثاني أكسيد الكربون في الجو من حوالي 270 جزءًا في المليون قبل الثورة الصناعية إلى أكثر من 400 جزءٍ في المليون اليوم. بما أنَّ ثاني أكسيد الكربون يحبس الحرارة المنبعثة من سطح الأرض كما يفعل الزجاج في الصوبة الزجاجية (البيت الزجاجي)، فإنَّ المتوسط العالمي لدرجات الحرارة قد ارتفع أيضًا بحوالي 0.8 درجة مئوية (1.4 درجة فهرنهايت)، وكان عام 2016 هو الأكثر حرارةً على الإطلاق وتلاه عام 2015، ثم 2014. ومما زاد الجو احترارًا أيضًا إزالة الغابات التي تمتص الكربون، وإطلاق الميثان (وهو أحد الغازات الدفيئة الأقوى) من آبار الغاز بسبب التسرُّب، وذوبان الجليد في التربة الصقيعية، وغاز الميثان الذي يخرج من الماشية والأبقار. قد يزداد الاحترار أكثر وندور في حلقةٍ مفرغة إذا حلَّت المياه واليابسة الداكنة الماصة للحرارة محل الثلج والجليد الأبيض العاكس للحرارة، وإذا تسارع ذوبان جليد التربة الصقيعية، وإذا تصاعد إلى الهواء مزيدٌ من بخار الماء (وهو أيضًا أحد الغازات الدفيئة).

إذا استمرت انبعاثات الغازات الدفيئة، فسيرتفع متوسط درجات حرارة الأرض بحلول نهاية القرن الحادي والعشرين أعلى من مستوى ما قبل الحقبة الصناعية بمقدار 1.5 درجة مئوية (2.7 درجة فهرنهايت) على الأقل، وربما حتى بمقدار 4 درجات مئوية (7.2 درجة فهرنهايت) أو أكثر. سيتسبَّب هذا في مزيد من الموجات الحارة الأكثر حدة وتكرارًا، ومزيد من الفيضانات في المناطق الرطبة، والجفاف في المناطق الجافة، وعواصف أشد، وأعاصير أعنف، وقلة غلات المحاصيل في المناطق الدافئة، وانقراض المزيد من الأنواع، وفقدان الشعاب المرجانية (لأنَّ المحيطات ستكون أكثر حرارةً وحامضيةً)، وارتفاع متوسط مستوى سطح البحر بمقدار يتراوح بين 0.7 متراً و1.2 متراً (قدمين و4 أقدام) بسبب كلٍّ من ذوبان الجليد على اليابسة وتمدد مياه البحر. (ارتفع مستوى سطح البحر بالفعل بمقدار 8 بوصة تقريبًا منذ عام 1870، ويبدو أنَّ معدل الارتفاع متسارع). ستغرق المناطق المنخفضة بفعل الفيضانات، وستختفي الدول الجزرية أسفل الأمواج، ولن تظل مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية صالحة للزراعة، وسينزح ملايين البشر، وقد تزداد الآثار سوءًا في القرن الثاني والعشرين وما بعده، ونظريًّا، قد تحدث اضطرابات مثل انحراف تيار الخليج الدافئ (وهو ما قد يحيل أوروبا إلى ما يشبه سيبيريا) أو انهيار الصفائح الجليدية في القطب الجنوبي. يُعد الارتفاع بمقدار درجتين مئويتين هو أكثر ما قد يستطيع العالم التكيُّف معه، وحسبما ذكر أحد تقارير البنك الدولي الصادر عام 2012، فإنَّ الارتفاع بمقدار 4 درجات مئوية «لا يجب السماح به من الأساس»،

وللحفاظ على مستوى الارتفاع بمقدار درجتين مئويتين أو أقل، ينبغي على العالم أن يخفِّض انبعاثاته من الغازات الدفيئة بمقدار النصف أو أكثر بحلول منتصف القرن الحادي والعشرين والتخلص منها تمامًا قبل بداية القرن الثاني والعشرين، فالتحدي أمامنا جسيم. يُنتج الوقود الأحفوري 86 في المئة من طاقة العالم، فهو يشغِّل تقريبًا كل سيارة وشاحنة وقطار وطائرة وسفينة وجرار وفرن ومصنع على الكوكب، إضافةً إلى أغلب محطات توليد الكهرباء. لم تواجه البشرية مشكلةٍ كهذه قط.

من الاستجابات لاحتمالية تغير المناخ إنكار حدوثها أو زعم أنَّ النشاط البشري هو السبب. من المقبول تمامًا بالطبع الاحتجاج على فرضية التغير المناخي الناتج عن الأنشطة البشرية على أسس علمية، وخاصةً بالنظر إلى الإجراءات الصارمة التي ستستلزمها إذا

كانت حقيقية. تتمثَّل فضيلة العلم الكبرى في أنَّ الفرضية الصحيحة ستصمد على المدى البعيد أمام محاولات تفنيدها. إنَّ التغير المناخي الناتج عن الأنشطة البشرية هو أكثر الفرضيات العلمية تعرُّضًا للاحتجاج بقوةٍ في التاريخ، وحتى الآن تم تفنيد كل الاحتجاجات الكبرى –أنَّ درجات الحرارة العالمية توقفت عن الارتفاع، أو أنَّها تبدو كأنَّها ترتفع بسبب قياسها في الجزر الحرارية الحضرية، أو أنَّها ترتفع حقًّا ولكن بسبب زيادة حرارة الشمس– بل واقتنع حتى كثيرٌ من المتشكِّكين. وجد مسح حديث أنَّ 4 من بين كل 69,406 باحثين من كتاب المقالات التي تخضع لمراجعة الأقران في المنشورات العلمية رفضوا فرضية الاحترار العالمي (الاحتباس الحراري) الناتج عن الأنشطة البشرية وأنَّ «المؤلفات العلمية الخاضعة لمراجعة الأقران لا تحتوي على أي دليل مقنع على خطأ [الفرضية]».

ولكنَّ إحدى الحركات التي تنتمي إلى اليمين السياسي الأمريكي، مدعومة بقوةٍ من جماعات مصالح الوقود الأحفوري، قد شنت حملة متعصبة وكاذبة لإنكار تسبُّب الغازات الدفيئة في احترار الكوكب، وبذلك رسَّخت نظرية المؤامرة التي تقول إنَّ المجتمع العلمي مصابٌ بداء اللباقة السياسية القاتل وملتزم أيديولوجيًّا تجاه استيلاء الحكومة على الاقتصاد. ولكوني شخصًا يعتبر نفسه مراقبًا لدوغما اللباقة السياسية في البيئة الأكاديمية، فيمكنني أن أقول إنَّ هذا هراء، فليس لدى العلماء الفيزيائيين أي أجندة، والأدلة واضحة للجميع. (وبسبب تحدياتٍ كهذه بالتحديد يقع على عاتق الباحثين في كل المجالات واجب ضمان مصداقية المؤسسات العلمية عبر عدم فرض أي معتقدات سياسية).

هناك بالتأكيد بعض المتشكِّكين الحكماء في التغير المناخي، ويُطلق عليهم أحياناً «الفاترين»، الذين يقبلون بالعلم السائد في هذا الشأن، ولكنهم يؤكِّدون على الإيجابيات، فهُم ينحازون إلى احتمالات الارتفاع البطيء في درجات الحرارة، ويشيرون إلى أنَّ أسوأ السيناريوهات الممكنة في حالة الحلقة المفرغة هي سيناريوهات افتراضية، ويشيرون أيضًا إلى أنَّ نسبة ثاني أكسيد الكربون ودرجات الحرارة الأعلى قليلًا لها فوائد فيما يخص غلات المحاصيل وهي مبادلة عادلة في مقابل تكلفة هذه الزيادة، ويقولون إنَّه إذا تم السماح للدول بأن تحقق أعلى درجة ممكنة من الثراء (دون فرض قيود معيقة للنمو على الوقود الأحفوري) فستكون هذه الدول مؤهلة أكثر للتكيف مع التغير المناخي الذي يحدث بالفعل. ولكنَّ هذه مقامرة متهورة كما يشير الاقتصادي ويليام نوردهاوس فيما يطلق عليه «كازينو المناخ». لنقل إنَّ الوضع الراهن ينبئ بتساوي الفرص بين أن يزداد وضع العالم سوءًا بقدرٍ هائل أو لا، وباحتمالية 5 في المئة أن يمر العالم بمرحلة حرجة ويواجه كارثة، فسيكون من الحكمة اتخاذ إجراءات وقائية حتى لو كانت النتيجة الكارثية غير أكيدة، مثلما نشتري مطافئ الحريق ووثائق التأمين على منازلنا ولا نترك عبوات البنزين مفتوحة في مرائب سياراتنا. وبما أنَّ التعامل مع مسألة التغير المناخي سيكون ببذل جهودٍ على مدار عدة عقود، فأمامنا كثير من الوقت للتراجع إذا توقفت درجات الحرارة ومستوى سطح البحر وحامضية المحيط عن الزيادة، وهو ما سيسعدنا جميعًا.

من الاستجابات الأخرى للتغير المناخي استجابة أقصى اليسار السياسي والتي تبدو كأنَّها مصممة لتبرير نظريات المؤامرة التي يقول بها أقصى اليمين السياسي، فوفق حركة «العدالة المناخية» التي نشرتها الصحافية ناعومي كلاين (Naomi Klein) في كتابها الصادر عام 2014 والذي حقق أعلى المبيعات **هذا يغير كل شيء: الرأسمالية بمواجهة المناخ** (*This Changes Everything: Capitalism vs. the Climate*)، لا يجب أن نتعامل مع خطر التغير المناخي باعتباره تحديًّا بمنع التغير المناخي، بل يجب أن نتعامل معه باعتباره فرصةً لإلغاء الأسواق الحرة وإعادة هيكلة الاقتصاد العالمي وتجديد نظامنا السياسي. في أحد أكثر الأحداث سرياليةً في تاريخ السياسة البيئية، انضمت ناعومي كلاين إلى ديفيد وتشارلز كوك –رجلي الأعمال المليارديرين في صناعة النفط، ومموِّلي حملات إنكار التغير المناخي– من أجل المساعدة في إحباط مبادرة طرحتها ولاية واشنطن للتصويت في عام 2016 كانت ستطبق أول ضريبة

على الكربون في البلاد، وهو الإجراء السياسي الذي يؤيده كل المحللين تقريبًا ويعتبرونه شرطًا أساسيًّا للتعامل مع التغير المناخي، لماذا؟ لأنَّ هذا الإجراء كان «صديقًا لليمين السياسي»، ولم يجعل «صانعي التلوث يدفعون الثمن، ويشغِّل أرباحهم الفاسدة في إصلاح التلف الذي أحدثوه رغم علمهم به». بل وعارضت ناعومي في حوارٍ لها عام 2015 أيضًا تحليل التغير المناخي بصورةٍ كمية:

> فنحن لن نفوز في هذه المعركة بإجراء بعض الحسابات، لا يمكننا هزيمة «المحاسبين» في مجالهم، بل سنفوز في هذه المعركة لأنَّ هذه مسألة قيمٍ وحقوق إنسان، وصواب وخطأ. لدينا هذه الفترة القصيرة التي علينا أن نجمع خلالها أيضًا بعض الإحصاءات الجيدة التي يمكننا استخدامها، ولكن لا ينبغي أن يغيب عن نظرنا أنَّ ما يحرِّك قلوب الناس حقًّا هو الحجج المبنية على قيمة الحياة.

ليس تجاهل التحليل الكمي ووصفه بأنَّه مجرد «إجراء بعض الحسابات» معاداة للفكر العقلاني فحسب، بل يخالف أيضًا «القيم، وحقوق الإنسان، والصواب والخطأ»، فمن يقدِّر حياة الإنسان سيؤيد السياسات التي تقدم فرصة أكبر لإنقاذ الناس من النزوح أو الجوع مع تقديم الوسائل اللازمة لعيش حياة صحية ومُرضية. وفي كونٍ تحكمه قوانين الطبيعة بدلًا من السحر والأعمال الشيطانية، يتطلَّب هذا «إجراء بعض الحسابات». حتى عندما يتعلَّق الأمر بالتحدي البلاغي بـ «تحريك قلوب الناس»، فالفعالية مهمة، إذ إن الناس يميلون إلى قبول حقيقة الاحترار العالمي عندما يُقال لهم إنَّ المشكلة قابلة للحل بالابتكارات التكنولوجية والسياسية أكثر مما يقبلون بها عندما تُقدم لهم تحذيرات مخيفة من مدى بشاعته.

يعبر الجواب التالي الذي أتلقى مثله كل فترة عن شعورٍ شائع آخر تجاه كيفية منع التغير المناخي:

> عزيزي الأستاذ بينكر،
>
> علينا أن نفعل شيئًا بشأن الاحترار العالمي، لماذا لا يوقِّع العلماء الفائزون بجائزة نوبل عريضةً؟ لماذا لا يقولون الحقيقة الصريحة وهي أنَّ الساسة خنازير لا يهتمون بعدد من ستقتلهم الفيضانات والجفاف؟
>
> لماذا لا تنشئ أنت وبعض أصدقائك حركةً على الإنترنت لدفع الناس إلى توقيع عريضةً تطالب ببذل تضحيات حقيقية لمكافحة الاحترار العالمي؟ لأنَّ هذه هي المشكلة، لا أحد يريد التضحية. يجب أن يتعهد الناس بعدم ركوب الطائرات سوى في حالات الطوارئ القصوى، لأنَّ الطائرات تحرق كثيرًا من الوقود، ويجب أن يتعهد الناس بعدم تناول اللحوم ثلاثة أيام على الأقل في الأسبوع لأنَّ عملية إنتاج اللحوم تعبئ الجو بكثيرٍ من الكربون، ويجب أن يتعهد الناس بعدم شراء المجوهرات على الإطلاق لأنَّ تكرير الذهب والفضة يستخدم الطاقة بكثافة. علينا أن نلغي صناعة الفخار لأغراضٍ فنية لأنَّه يحرق كثيرًا من الكربون، يجب أن يتقبل صناع الفخار في أقسام الفنون بالجامعات أنَّنا لا يمكن أن نستمر بهذا الوضع.

سامحوني على الحسابات التي سأجريها الآن، ولكن حتى لو تخلى الجميع عن مجوهراتهم، لن يُحدث هذا أقل أثر في انبعاثات العالم من الغازات الدفيئة، التي تحتل أغلبها الصناعات الثقيلة (بنسبة 29 في المئة)، والمباني (18 في المئة)، والنقل (15 في المئة)، وتغيير استخدامات الأراضي (15 في المئة)، والطاقة اللازمة للإمداد بالطاقة (13 في المئة). (الماشية مسؤولة عن 5.5 في المئة، وينبعث منها

على الأغلب الميثان وليس ثاني أكسيد الكربون، والطيران مسؤول عن 1.5 في المئة). لم تقترح صاحبة الجواب بالطبع التخلي عن المجوهرات والفخار بسبب أثر ذلك وإنَّما بسبب التضحية، ومن غير المفاجئ أنَّها استبعدت استخدام المجوهرات تمامًا، فهي المثال النموذجي على الرفاهية. ذكرت اقتراحها البسيط لتوضيح عائقين نفسيين نواجههما عند التعامل مع التغير المناخي.

العائق الأول معرفي، فالناس يواجهون صعوبة في التفكير في نطاق المشكلة، فلا يفرِّقون بين الأفعال التي ستخفِّض انبعاثات ثاني أكسيد الكربون بآلاف الأطنان أو ملايين الأطنان أو مليارات الأطنان، ولا يفرِّقون بين المستوى والمعدل والتسارع والمشتقات العليا، أي بين الأفعال التي ستؤثر في معدل زيادة انبعاثات ثاني أكسيد الكربون، والتي ستؤثر في معدل انبعاثات ثاني أكسيد الكربون، والتي ستؤثر في مستوى ثاني أكسيد الكربون في الجو، والتي ستؤثر في درجات الحرارة العالمية (التي سترتفع حتى لو ظل مستوى ثاني أكسيد الكربون ثابتًا). لا يهم من هذه الأمور سوى الأخير، ولكن إذا لم يفكِّر المرء في نطاق المشكلة والتغيير، فقد يرضى بسياسات لا تحقق شيئًا.

العائق الثاني أخلاقي. وكما ذكرت في الفصل الثاني، ليس الحس الأخلاقي للبشر أخلاقيًّا تمامًا، فهو يشجِّع على التجريد من الإنسانية («الساسة خنازير») والعدائية الجزائية (جعل «صانعي التلوث يدفعون الثمن»). وبالخلط بين التبذير والشر، وبين الزهد والفضيلة، قد يقدس الحس الأخلاقي مظاهر التضحية عديمة الجدوى. يتفاخر الناس باستقامتهم في ثقافاتٍ عديدة عبر النذور بالصيام والعفة ونكران الذات وحرق متاع الدنيا والتضحية بالحيوانات (أو البشر أحيانًا)، وحتى في المجتمعات الحديثة –وفق دراسات أجريتها مع علماء النفس جيسون نيميرو وماكس كراسنو وريا هوارد– يحترم الناس الآخرين على أساس مقدار الوقت أو المال الذي يبدِّدونه في أفعالهم الإيثارية بدلًا من مقدار الخير الذي يحقِّقونه بالفعل.

تتضمن أغلب الأحاديث العامة عن الحد من التغير المناخي تضحيات طوعية مثل إعادة التدوير أو خفض عدد الأميال المقطوعة لنقل الغذاء أو فصل الشاحن عن الكهرباء وهكذا. (شاركتُ بنفسي في صور لملصقات في العديد من هذه الحملات التي يقودها طلاب جامعة هارفرد). ولكن مهما شعرنا بأنَّ هذه المظاهر فاضلة، فهي تشتِّتنا عن التحدي الضخم الذي يواجهنا، والمشكلة أنَّ انبعاثات الكربون هي مثال كلاسيكي على لعبة المصالح العامة، التي تُعرف أيضًا بمأساة المشاع (أي مأساة الموارد العامة المشتركة)، فينتفع الأفراد من تضحيات الآخرين ويعانون من تضحياتهم، لذا يكون لدى الجميع حافز لأن ينتفع بالمجان ويدع الآخرين يقومون بالتضحية، فيعاني الجميع. من طرق العلاج القياسية لمعضلات المصالح العامة السُلطة القسرية التي يمكنها معاقبة المنتفعين مجانًا، ولكنَّ أي حكومة تتمتع بالسلطة الشمولية لإلغاء صناعة الفخار لأغراض فنية لن تقصر على الأرجح استخدام تلك السلطة على زيادة المصلحة المشتركة. بدلًا من ذلك، يمكن أن يحلم المرء بأن تكون قوة الإقناع الأخلاقي كبيرة بما يكفي لحثِّ الجميع على بذل التضحيات الضرورية، ولكن بينما لدى البشر بالفعل مشاعر عامة، فمن غير الحكمة أن نترك مصير الكوكب معلقًا على أمل أن يتطوع مليارات الأشخاص بالتصرف ضد مصالحهم الشخصية في نفس الوقت. والأهم من ذلك، أنَّ التضحية اللازمة لخفض انبعاثات الكربون بمقدار النصف ثم بالكامل وصولًا إلى الصفر أعظم كثيرًا من التخلي عن المجوهرات، إذ ستتطلَّب التخلي عن الكهرباء والتدفئة والأسمنت والفولاذ والورق والسفر إضافةً إلى الأغذية والملابس ميسورة التكلفة.

يدعو المحاربون من أجل العدالة المناخية إلى نظام «التنمية المستدامة»، وهم منغمسون في الوهم بأنَّ العالم النامي سيفعل ذلك، وهو ما ينتقده شيلينبرجر وتيد نوردهاوس قائلين إنَّ هذه التنمية ستتكون من «تعاونيات صغيرة في غابة الأمازون حيث سيجمع المزارعون الفلاحون والهنود المكسرات والتوت من أجل بيعها إلى شركة بين آند جيري لتصنع الآيس كريم بنكهة (القرمشة الاستوائية)». سيُسمح

لهم باقتناء الألواح الشمسية التي تستطيع تشغيل شاشة LED أو شحن الهاتف الخلوي، لا أكثر. ولا داعي لأن نقول إنَّ من يعيشون بالفعل في تلك الدول لديهم فكرة مختلفة عن هذا، فالهروب من الفقر يحتاج إلى طاقة وفيرة. يشير ماريان توبي، صاحب موقع *HumanProgress*، إلى أنَّ بوتسوانا وبوروندي كانتا معدمتين بنفس القدر في عام 1962، فكان دخل الفرد السنوي في كلٍّ منهما 70 دولارًا، ولم تنبعث من أيٍّ منهما كمية كبيرة من ثاني أكسيد الكربون، وبحلول عام 2010 كان مواطنو بوتسوانا يجنون 7,650 دولارًا سنويًّا، وهو ما يعادل 32 ضعف ما يجنيه مواطنو بوروندي الذين ما زالوا فقراء، وتعادل انبعاثات ثاني أكسيد الكربون لديهم 89 ضعف انبعاثات بوروندي منه.

عند مواجهة المحاربين من أجل العدالة المناخية بهذه الحقائق، يجيبون بأنَّ علينا أن نُفقر الدول الغنية بدلًا من إثراء الدول الفقيرة، أن نعيدها مثلًا إلى «الزراعة كثيفة العمال» (والرد الوحيد الملائم على هذا هو: ابدؤوا بأنفسكم أولًا). يشير كلٌّ من شيلينبرجر ونوردهاوس إلى مدى تطور السياسة التقدمية عن الأيام التي كان فيها تزويد المناطق الريفية بالكهرباء والتنمية الاقتصادية ضمن مشروعاتها المميزة، فيقولون: «إنَّها تقدِّم الآن لفقراء العالم باسم الديمقراطية ليس ما يريدونه فقط –أي الكهرباء الرخيصة–، بل تقدِّم لهم المزيد مما لا يريدونه حقًّا، أي الطاقة المتقطعة والمكلِّفة».

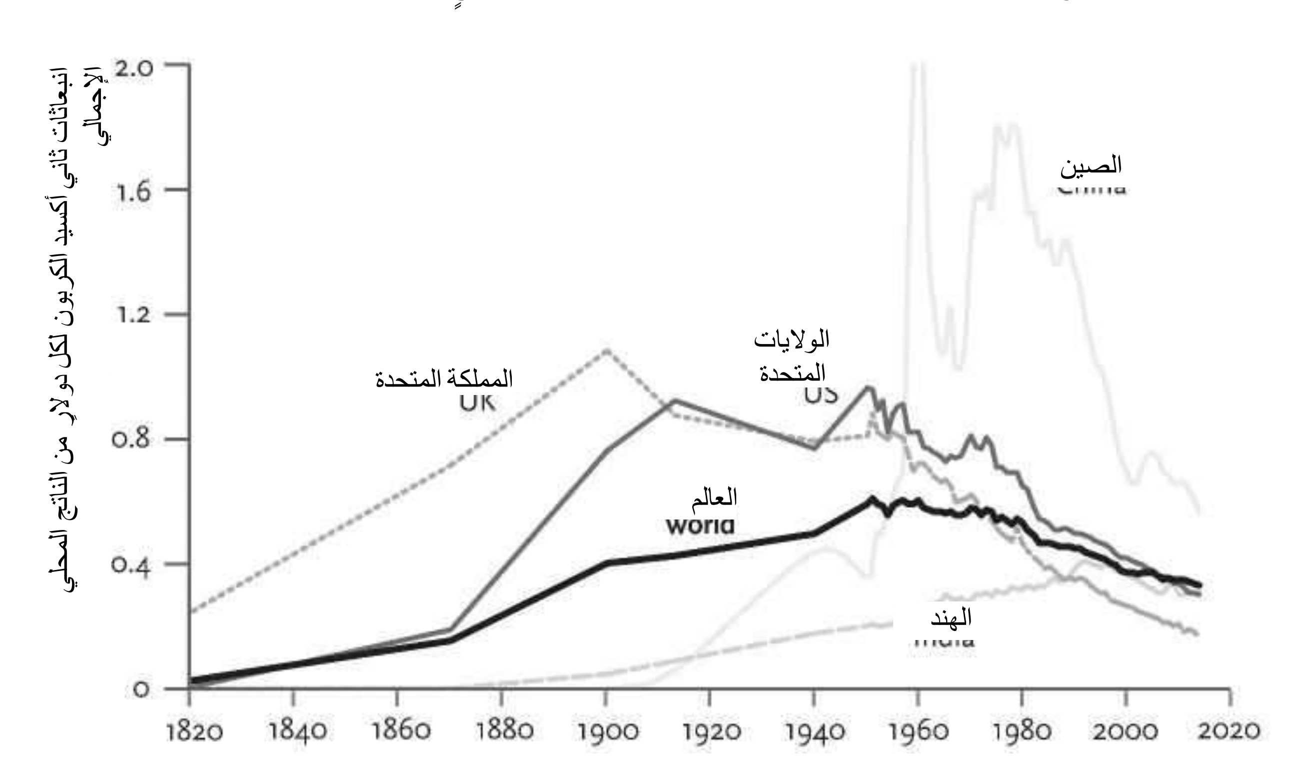
إنَّ التقدم الاقتصادي حتمي في الدول الغنية والفقيرة على حد سواء، لأنَّنا سنحتاج إليه للتكيف مع التغير المناخي الذي يحدث بالفعل. ويرجع الفضل جزئيًّا إلى الرخاء في أنَّ صحة البشر قد تحسَّنت (الفصل الخامس والسادس)، وأنَّهم أصبحوا يتغذون على نحو أفضل (الفصل السابع)، وينعمون بسلامٍ أكثر (الفصل الحادي عشر)، ويخضعون لحمايةٍ أكبر من الكوارث والأخطار الطبيعية (الفصل الثالث عشر)، وقد جعلت هذه التطورات البشرية أكثر مرونةً في مواجهة التهديدات الطبيعية وتلك التي من صنع البشر، فلم يعُد تفشي الأمراض يتحول إلى أوبئة، وفساد المحصول في إحدى المناطق يخفف وطأته الفائض في منطقة أخرى، وتُخمد المناوشات المحلية قبل أن تؤدي إلى اندلاع حرب، ويخضع السكان لحمايةٍ أفضل من العواصف والفيضانات والجفاف. يجب أن تشمل استجابتنا للتغير المناخي ضمان استمرار هذه المكاسب في المرونة في تجاوز التهديدات التي سيأتي بها الكوكب الذي يزداد احترارًا. في كل عام تزداد فيه الدول النامية غنى، ستتمتع بالمزيد من الموارد اللازمة لبناء الأسوار البحرية والخزانات، وتحسين خدمات الرعاية الصحية العامة، ونقل السكان بعيدًا عن مناطق البحار المرتفعة، ولذلك لا يجب إبقاء هذه الدول في فقرٍ من الطاقة، ولكن من غير المنطقي أيضًا أن تزيد هذه الدول الدخل بحرق الفحم بكمياتٍ هائلة مما سيغرق الجميع فيما بعد في كوارث جوية.

كيف إذًا علينا أن نتعامل مع التغير المناخي؟ إذ يجب علينا التعامل معه، فأنا أتفق مع البابا فرانسيس والمحاربين من أجل العدالة المناخية في أنَّ منع التغير المناخي قضية أخلاقية لأنَّه يستطيع إيذاء مليارات الأشخاص، وبالأخص فقراء العالم، ولكنَّ الأخلاقية مختلفة عن الوعظ الأخلاقي، وكثيرًا ما يضر هذا الوعظ الأخلاقية. (إذ أتت الرسالة البابوية بنتيجةٍ عكسية، فتسببت في قلة الاهتمام بالتغير المناخي في أوساط الكاثوليك المحافظين الذين كانوا على وعيٍ به). ربما يكون من المرضي لنا أن نشيطن شركات الوقود الأحفوري التي تبيع لنا الطاقة التي نريدها، أو التدليل على فضيلتنا ببذل تضحيات ظاهرية، ولكنَّ صكوك الغفران هذه لن تمنع التغير المناخي المدمِّر.

إنَّ الاستجابة المستنيرة للتغير المناخي هي اكتشاف كيفية الحصول على أكبر قدر ممكن من الطاقة بأقل قدر ممكن من انبعاثات

الغازات الدفيئة. توجد بالطبع رؤية مأساوية للحداثة تكون فيها هذه الاستجابة مستحيلة، وتقوم هذه الرؤية على أنَّ المجتمع الصناعي الذي يعمل بالكربون المشتعل يحتوي على عوامل تدميره، ولكنَّ هذه الرؤية المأساوية غير صحيحة، إذ يشير أوزوبيل إلى أنَّ العالم الحديث يقلِّل تدريجيًّا من استخدام الكربون.

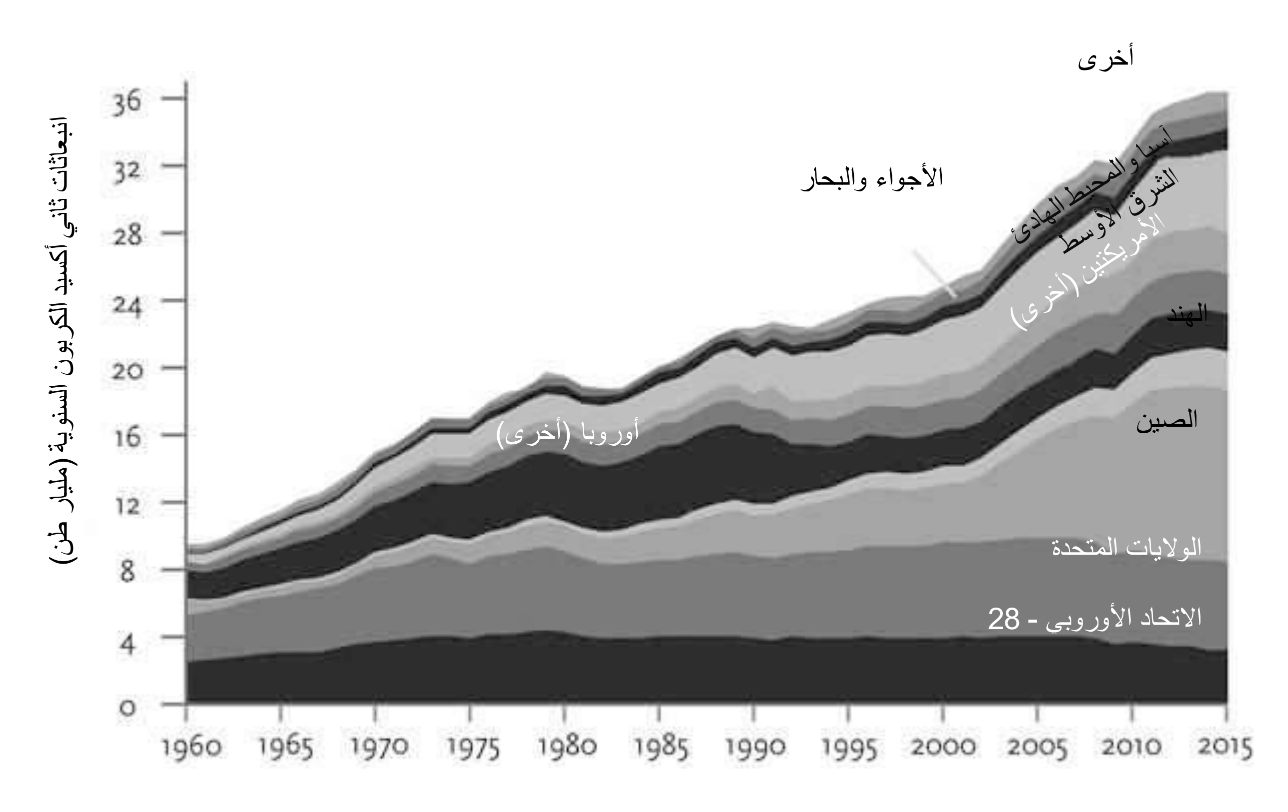
تتكوَّن الهيدروكربونات الموجودة في الأشياء التي نحرقها من الهيدروجين والكربون اللذين يصدران الطاقة عندما يجتمعان مع الأوكسجين ليكوّنا الماء H_2O وثاني أكسيد الكربون CO_2. إنَّ النسبة في الخشب الجاف، وهو أقدم وقود هيدروكربوني، بين ذرات الكربون القابلة للاشتعال وذرات الهيدروجين هي حوالي 10 إلى 1، أمَّا الفحم الذي حل محله خلال الثورة الصناعية فمتوسط نسبة الكربون إلى الهيدروجين فيه 2 إلى 1، وقد تكون النسبة في الوقود المشتق من البترول مثل الكيروسين 1 إلى 2، ويتكون الغاز الطبيعي بالأساس من الميثان، وصيغته الكيميائية CH_4، فتكون النسبة فيه 1 إلى 4. إذاً فبينما تسلَّق العالم الصناعي سلم الطاقة من الخشب إلى الفحم إلى النفط إلى الغاز (وتسارع هذا التحول الأخير في القرن الحادي والعشرين بسبب وفرة الغاز الصخري الناتج عن عمليات التكسير الهيدروليكي)، انخفضت نسبة الكربون إلى الهيدروجين في مصادر الطاقة بمعدل ثابت، كما انخفضت كمية الكربون اللازم حرقها لإنتاج وحدة من الطاقة (من 30 كجم من الكربون لكل جيجا جول في عام 1850 إلى حوالي 15 كجم اليوم). يوضح الشكل رقم 10-7 أنَّ انبعاثات الكربون تتبع قوس كوزنتس، أي عندما بدأت الدول الغنية مثل الولايات المتحدة والمملكة المتحدة في التحول الصناعي، فإنّ انبعاثاتها من ثاني أكسيد الكربون لإنتاج دولارٍ واحد من الناتج المحلي الإجمالي كانت تستمر في الزيادة، ولكن في الخمسينيات من القرن العشرين تجاوزت هذه الدول هذا المنعطف وأصبحت انبعاثاتها من ثاني أكسيد الكربون في انخفاضٍ منذ ذلك الحين. تسير كلٌّ من الصين والهند على نفس النهج، إذ بلغتا الذروة من الانبعاثات في أواخر السبعينيات ومنتصف التسعينيات على التوالي. (تجاوزت الصين كل الحدود في أواخر الخمسينيات بسبب مخططات ماو الغبية مثل مصاهر الحديد في الباحات الخلفية ذات الانبعاثات الغزيرة والناتج الاقتصادي المنعدم). إنَّ كثافة الكربون في العالم بأكمله في تراجعٍ منذ نصف قرنٍ.



الشكل رقم 10- 7: كثافة انبعاثات الكربون (انبعاثات ثاني أكسيد الكربون لكل دولارٍ من الناتج المحلي الإجمالي) منذ 1820 حتى 2014

المصدر: Ritchie & Roser 2017، بناءً على بيانات من مركز تحليل معلومات ثاني أكسيد الكربون، http://cdiac.ornl.gov/trends/emis/tre_coun.html. الناتج المحلي الإجمالي بالدولار الدولي لعام 2011، والناتج المحلي الإجمالي للأعوام قبل 1990 من مشروع ماديسون 2014.

إنَّ الحد من انبعاثات الكربون هو نتيجة طبيعية لتفضيلات الناس، فكما يوضح أوزوبيل: «الكربون يسوِّد رئات عمال المناجم، ويعرِّض هواء الحضر للخطر، ويهدد بالتغير المناخي، أما الهيدروجين فهو بريء تمامًا، إذ يمنع الاشتعال بتكوين الماء». يريد الناس أن تكون طاقتهم كثيفة ونظيفة، ومع انتقالهم إلى المدن لا يقبلون سوى الكهرباء التي تصل إلى غرف نومهم والغاز الذي يصل إلى البوتاجاز. ومن الجدير بالذكر أنَّ هذا التطور الطبيعي قد وصل بالعالم إلى «ذروة الفحم»، بل وربما حتى «ذروة الكربون»، وكما يوضح الشكل رقم 10-8 فإنَّ الانبعاثات في العالم قد استقرت منذ 2014 إلى 2015 ثم انخفضت في المناطق صاحبة أكبر نسبة انبعاثات، وهي الصين والاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة. (كما رأينا فيما يخص الولايات المتحدة في الشكل رقم 10-3 فإنَّ انبعاثات الكربون استقرت بينما ازداد الرخاء، فبين عامي 2014 و2016 نما الناتج العالمي الإجمالي بنسبة 3 في المئة سنويًّا). انخفض بعضٌ من نسبة الكربون بفعل نمو طاقة الرياح والطاقة الشمسية، ولكنَّ أغلبها انخفض بفعل استخدام الغاز CH_4 بديلًا عن الفحم $C_{137}H_{97}O_9NS$، وخاصةً في الولايات المتحدة.



الشكل رقم 10- 8: انبعاثات ثاني أكسيد الكربون منذ 1960 حتى 2015

المصدر: *Our World in Data*، Ritchie & Roser 2017 و https://ourworldindata.org/grapher/annual-co2-

emissions-by-region بناءً على بيانات من مركز تحليل معلومات ثاني أكسيد الكربون، /http://cdiac.ornl.gov/CO2_Emission، و Le Quéré et al. 2016. يشير مصطلح «الأجواء والبحار الدولية» إلى وسائل النقل الجوية والبحرية، ويقابلها في المصادر الأصلية مصطلح «Bunker fuels» (وقود السفن أو وقود النقل)، وتشير «أخرى» إلى الفرق بين انبعاثات ثاني أكسيد الكربون العالمية التقديرية ومجموع الإجماليات الوطنية والإقليمية، ويقابلها عنصر «Statistical difference» (الفرق الإحصائي).

يوضح الاتجاه الجارف نحو الحد من انبعاثات الكربون أنَّ النمو الاقتصادي ليس مرادفًا لحرق الكربون. يعتقد بعض المتفائلين أنَّه إذا أتيح لهذا الاتجاه أن يتطور ليصل إلى مرحلته التالية –أي الانتقال من الغاز الطبيعي ذي نسبة الكربون المنخفضة إلى الطاقة النووية الخالية من الكربون، وهي عملية يُرمز لها بـ N2N– فإنَّ المناخ سيستقر بسلاسةٍ، ولكنَّ الحالمين فقط هم من يظنون أنَّ هذا سيحدث من تلقاء نفسه. ربما تكون انبعاثات ثاني أكسيد الكربون السنوية قد استقرت حاليًا عند حوالي 36 مليار طن، ولكنَّ الكثير من ثاني أكسيد الكربون لا يزال يُضاف سنويًّا إلى الجو، ولا توجد علامة على الانخفاض المندفع الذي سنحتاج إليه كي نتفادى النتائج الضارة. ينبغي أن تدفع كلٌّ من السياسات والتكنولوجيا عملية الحد من انبعاثات الكربون، وهي فكرة يُطلق عليها الخفض الشديد لنسبة الكربون.

تبدأ هذه العملية بتسعير الكربون، أي محاسبة الأفراد والشركات على الضرر الذي يتسببون فيه عندما يلقون بالكربون في الجو، عن طريق فرض ضريبة على الكربون أو وضع حد أقصى وطني للائتمانات القابلة للتداول. يؤيد الاقتصاديون من مختلف الأطياف السياسية تسعير الكربون لأنَّه يجمع بين المزايا الفريدة للحكومات والأسواق معًا. لا أحد يمتلك الجو، لذا لا يوجد سبب لأن يبخل الأفراد (والشركات) بالانبعاثات التي تتيح لكلٍّ منهم التمتع بالطاقة، وإيذاء الآخرين في الوقت نفسه، وهي نتيجة فاسدة يطلق عليها الاقتصاديون أثر خارجي سلبي (وهو مجموع التكاليف في «لعبة المصالح العامة»، أو الضرر الذي يصيب الموارد العامة المشتركة في «مأساة المشاع»). إنَّ الضريبة على الكربون، التي لا يمكن سوى للحكومة فرضها، تجعل التكاليف العامة مسألة شخصية، فتجبر الأفراد على أن يأخذوا في حسابهم الأذى الذي سيتسببون فيه عند اتخاذ كل قرار تنتج عنه انبعاثات الكربون. لا بد أنَّ السماح لمليارات الأشخاص بأن يقرِّروا كيف يحافظون على البيئة بأفضل طريقة وفق قيمهم والمعلومات التي تعبِّر عنها الأسعار سيكون أكثر كفاءةً وأرحم من جعل المحللين الحكوميين يحاولون التكهُّن بالخلطة المثالية وهُم جالسين على مكاتبهم. ليس على صانعي الفخار إخفاء أفرانهم من شرطة مكافحة الكربون، بل يمكنهم القيام بدورهم في إنقاذ الكوكب بأن يستغرقوا وقتًا أقل في الاستحمام أو يتنازلوا عن قيادة السيارات أيام الأحد أو يأكلوا الباذنجان بدلًا من اللحم البقري، وليس على الآباء والأمهات أن يحسبوا إذا ما كانت خدمات صنع الحفاظات بشاحنات نقلها ومغاسلها تبعث كربونًا أكثر مما يفعل صانعو الحفاظات التي تستعمل مرة واحدة، فالفرق سيكون واضحًا في الأسعار، وسيكون لدى كل شركة الحافز لخفض انبعاثاتها كي تنافس الشركة الأخرى. يمكن للمبتكرين ورواد الأعمال أن يخاطروا باستخدام مصادر الطاقة الخالية من الكربون التي ستنافس الوقود الأحفوري على أرضيةٍ متكافئة بدلًا من الأرضية المنحرفة الحالية التي تتمكن عليها شركات الوقود الأحفوري من إلقاء نفاياتها في الجو مجانًا. فدون تسعير الكربون، يكون للوقود الأحفوري –شديد الوفرة والقابل للنقل وذي الطاقة الكثيفة– أفضلية كبيرة على البدائل.

أثَّرت الضريبة على الكربون بالطبع في الفقراء بطريقةٍ تُقلق اليسار، الذي يحوِّل أمواله من القطاع الخاص إلى القطاع الحكومي بطريقةٍ تُزعج اليمين، ولكنَّ هذه الآثار يمكن معادلتها بتعديل المبيعات وكشوف الأجور والدخل والتحويلات والضرائب الأخرى. (كما قال آل جور: لنفرض الضرائب على ما نحرقه، لا على ما نجنيه). وإذا بدأت الضرائب بنسبةٍ منخفضةٍ ثم ازدادت مع الوقت بصورةٍ حادة ومتوقعة، فسيتمكن الأفراد من وضع الزيادة في حسبانهم في الاستثمارات والمشتريات طويلة الأمد، ويمكنهم تفادي معظم الضرائب

تمامًا عبر تفضيل استخدام تقنيات ذات نسبة كربون منخفضة.

يكشف العامل الرئيسي الثاني في الحد الشديد من انبعاثات الكربون عن حقيقة مزعجة للحركة البيئية الخضراء التقليدية، وهي أنَّ الطاقة النووية هي أكثر مصادر الطاقة الخالية من الكربون وفرةً وقابليةً للزيادة في العالم، رغم أنَّ مصادر الطاقة المتجددة، وبالأخص الطاقة الشمسية وطاقة الرياح، أصبحت أرخص كثيرًا جدًّا، وأنَّ حصتها من طاقة العالم تضاعفت بأكثر من ثلاثة أضعاف خلال السنوات الخمسة الماضية، إلَّا أنَّ هذه الحصة ما تزال 1.5 في المئة وهي نسبة ضئيلة، ولا يمكن أن ترتفع أكثر من حدٍّ معين. فالرياح تسكن غالبًا، والشمس تغرب كل ليلة وربما يحجبها السحاب، ولكنَّ الناس يحتاجون إلى الطاقة طوال الوقت، عند سقوط الأمطار وعند سطوع الشمس. ستساعد في هذا الأمر البطاريات التي تستطيع تخزين كميات كبيرة من الطاقة المستخرجة من المصادر المتجددة ثم إطلاق هذه الطاقة، ولكنَّ البطاريات التي قد تعمل على نطاق مدنٍ بأكملها ما زالت حلمًا لن يتحقق سوى بعد سنوات. تمتد الرياح والطاقة الشمسية على مساحات شاسعة، مما يعارض عملية التكثيف صديقة البيئة، فيقدِّر المحلل المختص بالطاقة روبرت برايس أنَّ مجرد مواكبة زيادة استخدام العالم للطاقة سيتطلب تحويل منطقة بحجم ألمانيا إلى مزارع رياحٍ كل عام. وستتطلب تلبية احتياجات العالم بالموارد المتجددة بحلول عام 2050 تركيب طواحين الهواء والألواح الشمسية على مساحة بحجم الولايات المتحدة (بما فيها ألاسكا) والمكسيك ووسط أمريكا والجزء المأهول بالسكان من كندا.

أمَّا الطاقة النووية فهي على العكس تقدِّم أكبر قدرٍ ممكن من الكثافة، لأنَّك في التفاعل النووي $E = mc^2$ تحصل على قدر هائل من الطاقة (بالنسبة إلى مربع سرعة الضوء) من كتلةٍ صغيرة جدًّا. يترك التنقيب عن اليورانيوم للحصول على الطاقة النووية أثرًا أقل كثيرًا في البيئة من التنقيب عن الفحم أو النفط أو الغاز، وتحتل محطات توليد الكهرباء نفسها حوالي $\frac{1}{500}$ من مساحة الأرض التي تحتاج إليها الرياح أو الطاقة الشمسية. إنَّ الطاقة النووية متاحة طوال الوقت، ويمكن توصيلها بشبكات الكهرباء التي توفِّر الطاقة المركَّزة حيث توجد حاجة إليها، ولها بصمة كربونية أقل من الطاقة الشمسية والمائية والكتلة الحيوية، وهي أكثر أمنًا أيضًا. لقد شهدت السنوات الستون التي تم استخدام الطاقة النووية فيها إحدى وثلاثين حالة وفاة في كارثة تشيرنوبيل عام 1986، نتيجةً للحماقة الغريبة في الحقبة السوفييتية، إضافةً إلى بضعة آلاف حالة وفاة مبكرة جراء السرطان زيادةً على حالات الوفاة الطبيعية جراء السرطان التي كان عددها 100,000 حالة في المناطق المعرضة للطاقة النووية. ولم تتسبب الحادثتان الشهيرتان الأخرتان، وهُما حادثة جزيرة ثري مايل عام 1979 وحادثة فوكوشيما عام 2011، في مقتل أي شخص. ومع ذلك فإنَّ أعدادًا هائلة من الناس يموتون يومًا تلو الآخر بسبب التلوث الناتج عن حرق المواد القابلة للاشتعال وبسبب الحوادث أثناء التنقيب عنها ونقلها، ولا تتصدر أيٌّ من هذه الحوادث عناوين الأخبار. مقارنةً بالطاقة النووية، فإنَّ الغاز الطبيعي يقتل عددًا أكبر من الناس بمقدار 38 ضعفًا لكل كيلو وات ساعة من الكهرباء المتولدة، والكتلة الحيوية تقتل عددًا أكبر بمقدار 63 ضعفًا، والبترول يقتل عددًا أكبر بمقدار 243 ضعفًا، والفحم يقتل عددًا أكبر بمقدار 387 ضعفًا، أي ربما مليون حالة وفاة سنويًّا.

يلخِّص كلٌّ من نوردهاوس وشيلينبرجر الحسابات التي أجراها عددٌ كبير من علماء المناخ بما يلي: «لا يوجد مسار معقول نحو خفض انبعاثات الكربون العالمية دون استخدام الطاقة النووية على نطاقٍ أوسع كثيرًا، فهي التقنية الوحيدة التي لدينا اليوم ذات نسبة الكربون المنخفضة والتي أظهرت قدرتها على توليد كميات كبيرة من الطاقة الكهربائية التي تولِّد مركزيًّا». يقدِّر مشروع مسارات الحد الشديد من انبعاثات الكربون Deep Decarbonization Pathways Project، وهو اتحاد من الفرق البحثية التي وضعت

للدول خرائط طرق لخفض انبعاثاتها بما يكفي لتحقق مستهدف الدرجتين المئويتين، أنَّ الولايات المتحدة ستضطر إلى الحصول على نسبة تتراوح بين 30 و60 في المئة من استهلاكها من الكهرباء من الطاقة النووية بحلول عام 2050 (وهو ما بين 1.5 ضعفًا إلى 3 أضعاف الاستهلاك الحالي)، وأنَّها في الوقت نفسه تولِّد المزيد من تلك الكهرباء لتحل محل الوقود الأحفوري في تدفئة المنازل وتشغيل المركبات وإنتاج الفولاذ والأسمنت والأسمدة. وفق أحد السيناريوهات، سيتطلب هذا مضاعفة قدراتها النووية بأربعة أضعاف، وسيكون من الضروري إجراء توسعات مشابهة في الصين وروسيا ودول أخرى.

يتقلص استخدام الطاقة النووية للأسف في حين ينبغي أن يزداد، فيوجد في الولايات المتحدة أحد عشر مفاعلًا نوويًّا تعرض للإغلاق مؤخرًا أو مهدد بالإغلاق، وهو ما سيلغي كل ما كنا سنوفره من الكربون بسبب التوسع في استخدام الطاقة الشمسية والرياح. تقوم ألمانيا، التي كانت تعتمد على الطاقة النووية في جزءٍ كبير من إنتاجها من الكهرباء، بإغلاق محطات توليد الطاقة النووية أيضًا، مما سيزيد من انبعاثات الكربون من محطات التوليد التي تعمل بالفحم التي ستحل محلها، وربما تحذو حذوها فرنسا واليابان.

لماذا تسير الدول الغربية في الاتجاه الخاطئ؟ تضغط الطاقة النووية على عدة نقاط نفسية، مثل الخوف من التسمم وسهولة تخيل الكوارث وعدم الثقة في الأمور غير المألوفة وما يصنعه البشر. وضخَّمت الحركة البيئية الخضراء التقليدية ومؤيدوها «التقدميون» –وهو أمر مشكوك فيه– من هذا الفزع. يلقي أحد المفسِّرين باللوم في الاحترار العالمي على فرقة دوبي براذرز والمغنية بوني ريت ونجوم الروك الآخرين الذين أهاجوا مشاعر جيل «طفرة المواليد» ضد الطاقة النووية بحفلتهم وفيلمهم في عام 1979 بعنوان *No Nukes* (أي لا للنووي). (عينة من كلمات نشيد الختام: «أعطني فقط طاقة الشمس الدافئة، أعطني روح الكائنات الحية عند عودتها للطين، أعطني بريق نيران الأخشاب المريح، ولكن ألن تُبعد عني طاقتك الذرية السامة؟») ربما يتحمل بعض اللوم أيضًا كلٌّ من جين فوندا ومايكل دوجلاس ومنتجو الفيلم الكارثي *The China Syndrome* عام 1979، الذي سُمي كذلك لأنَّه يفترض أنّ قلب المفاعل النووي المنصهر سيتخلل القشرة الأرضية حتى يصل إلى الصين بعد أن يجعل «منطقة بحجم بنسلفانيا» غير صالحة للسكن. وفي مصادفةٍ شيطانية، عانت محطة التوليد النووية في جزيرة ثري مايل في وسط بنسلفانيا من انصهارٍ جزئي بعد أسبوعين من إصدار الفيلم، مما خلق فزعًا هائلًا وجعل فكرة الطاقة النووية نفسها مشعة بنفس قدر وقود اليورانيوم.

يُقال غالبًا إنَّ من يعرفون أكثر عن التغير المناخي هم الأكثر خوفًا، ولكن في حالة الطاقة النووية، فإنَّ من يعرفون أكثر هم الأقل خوفًا. لقد تعلَّم المهندسون من الحوادث والكوارث الوشيكة وحققوا المزيد من الأمان للمفاعلات النووية، كما فعلوا مع ناقلات النفط والسيارات والطائرات والمباني والمصانع (الفصل الثاني عشر)، ممَّا جعل مخاطر وقوع الحوادث والتلوث أقل كثيرًا من هذه المخاطر عند استخدام الوقود الأحفوري. بل وينطبق هذا الأمر على الإشعاع أيضًا، وهو الخاصية الطبيعية للرماد المتطاير وغازات المداخن المنبعثة من الفحم المحترق.

ولكنَّ الطاقة النووية مكلِّفة، ويرجع هذا بالأساس إلى أنَّ عليها إزاحة عقبات تنظيمية معيقة من طريقها في حين يتمتَّع منافسوها بطريقٍ ممهد. تُبنى الآن في الولايات المتحدة محطات طاقة نووية بعد فجوة طويلة على يد شركاتٍ خاصة باستخدام تصميمات ذات طابعٍ خاص، لذا فهي لم تصل إلى أعلى منحنى التعلم الهندسي واستقرت على أفضل الممارسات في التصميم والتركيب والبناء، أمَّا السويد وفرنسا وكوريا الجنوبية على العكس قد بنوا مفاعلات موحَّدة بأعدادٍ كبيرة ويتمتَّعون الآن بكهرباءٍ رخيصة تُنتج انبعاثات كربون أقل بقدرٍ هائل. فكما قال إيفان سيلين، المفوض السابق للجنة التنظيمية النووية: «لدى الفرنسيين نوعان من المفاعلات ومئات الأنواع من الجبن،

بينما الأرقام معكوسة في الولايات المتحدة».

كي تؤدي الطاقة النووية دورًا جوهريًّا في التحول في الحد من انبعاثات الكربون، سيكون عليها في النهاية أن تتجاوز تكنولوجيا الجيل الثاني من مفاعلات الماء الخفيف. (كان «الجيل الأول» يتكون من نماذج أولية من الخمسينيات وأول الستينيات من القرن الماضي). قريبًا ستنشأ بضع مفاعلات من الجيل الثالث، التي تطورت من التصميمات الحالية إضافةً إلى بعض التحسينات في الأمان والكفاءة، ولكنَّها تعاني حتى الآن من مشكلات مالية وإنشائية. تتكون مفاعلات الجيل الرابع من ستة تصميمات جديدة تعد بأن تجعل المحطات النووية سلعة تُنتج بكميات كبيرة وليست إصدارات محدودة. ربما يُنتج أحد الأنواع بكمية كبيرة على خط التجميع مثل المحركات النفاثة، وتوضع هذه الكمية في حاويات شحن، وتُنقل بالسكك الحديدية، وتُركَّب على مراكب البضائع الراسية قريبًا من شواطئ المدن. سيسمح هذا بالتخلص من عقبة المعترضين عن إقامة المحطات في مدنهم، والصمود أثناء العواصف والتسونامي، وسحب المحطات بعيدًا في نهاية دورة حياتها المفيدة كي يتم وقف تشغيلها. وعلى حسب تصميمها يمكن دفنها وتشغيلها تحت الأرض، وتبريدها بالغاز أو الملح المنصهر الذي لا يحتاج إلى ضغطه، وتزويدها بالوقود باستمرار من خلال تيارٍ متدفق من الحصى بدلًا من غلقها من أجل استبدال قضبان الوقود، وإعدادها لتشارك في توليد الهيدروجين (أنظف أنواع الوقود)، وتصميمها بما يجعلها تغلق نفسها دون تدخل بشري إذا ارتفعت حرارتها. سيكون وقود بعضها الثوريوم الوفير نسبيًّا، ووقود بعضها الآخر اليورانيوم المستخرج من مياه البحر، أو من الأسلحة النووية المفككة (وهو مثالٌ رائع على تحويل العنف إلى سلام)، أو من نفايات المفاعلات القائمة، أو حتى من نفايات المفاعلات نفسها. سيكون هذا أقرب ما سنتوصل إليه إلى آلة دائمة الحركة قادرة على تزويد العالم بالطاقة لآلاف السنين. حتى الاندماج النووي، الذي طالما سخر منه الناس قائلين إنَّه مصدر الطاقة «الذي يبعد عنا ثلاثين عامًا وسيظل بعيدًا دائمًا»، ربما يبعد عنا هذه المرة ثلاثين عامًا حقًّا (أو أقل).

إن فوائد الطاقة النووية المتقدمة لا تُحصى. تنادي معظم جهود مكافحة التغير المناخي بإصلاحات سياسية (مثل تسعير الكربون) ما زالت محل نزاع وسيصعب تنفيذها على نطاق العالم حتى في السيناريوهات الوردية الحالمة، لذا فإنَّ مصدر الطاقة الأرخص والأكثر كثافة والأنظف من الوقود الأحفوري سيبيع نفسه دون الحاجة إلى إرادة سياسية جبارة أو تعاون دولي. لن يخفِّف هذا المصدر من التغير المناخي فحسب، بل سيوفر هدايا أخرى متعددة ومتنوعة، وسيتمكن سكان العالم النامي من تخطي الدرجات المتوسطة من سلم الطاقة، ممَّا سيرفع مستوى معيشتهم حتى يصل إلى مستوى معيشة الغرب دون أن يخنقهم الدخان الناتج عن حرق الفحم. يمكن لتحلية المياه ميسورة التكلفة، وهي عملية نهمة للطاقة، أن تقوم بري المزارع والإمداد بمياه الشرب، وإتاحة تفكيك خزانات المياه عبر تقليل الحاجة إلى المياه السطحية والطاقة المائية، مما يعيد تدفق الأنهار إلى البحيرات والبحار وينعش نظمًا بيئية بأكملها. سيفيد الفريق الذي يمد العالم بطاقة وفيرة ونظيفة البشرية أكثر مما فعل كل القديسين والأبطال والأنبياء والشهداء والفائزون بالجوائز في التاريخ كله مجتمعين.

ربما تنتج الطفرات في الطاقة عن شركات ناشئة يؤسسها مبتكرون مثاليون، أو عن أعمال كريهة تقوم بها وحدات مشاريع التطوير بشركات الطاقة، أو عن المشاريع التي يقوم بها مليارديرات المجال التقني للتباهي، وخاصةً إذا كانوا يتمتعون بمحفظة متنوعة من الرهانات المضمونة والأفكار الخلاقة المجنونة. ولكنَّ البحث والتطوير سيحتاجان إلى تعزيزٍ من الحكومات لأنَّ هذه المصالح العامة العالمية تمثِّل للشركات الخاصة مخاطرةً كبيرة جدًّا ذات عائد قليل جدًّا، فيجب أن تؤدي الحكومات دورًا لأنَّه كما يشير براند فإنَّ «البنية التحتية إحدى الأمور التي نعيِّن الحكومة لتتولاها، وخاصةً البنية التحتية للطاقة التي تتطلَّب كثيرًا من التشريعات والسندات وحقوق الطريق واللوائح التنظيمية والإعانات المالية والأبحاث والعقود بين الجهات الحكومية والخاصة مع الإشراف التفصيلي»، يشمل هذا توفير بيئة تنظيمية ملائمة لتحديات القرن الحادي والعشرين بدلًا من رهاب التكنولوجيا والفزع من الطاقة النووية الملائمين لحقبة السبعينيات. توجد

بعض التكنولوجيات النووية من الجيل الرابع الجاهزة للتنفيذ، ولكنَّها مقيَّدة بالبيروقراطية التنظيمية بسبب المخاوف البيئية وربما لن ترى النور أبدًا، على الأقل ليس في الولايات المتحدة، وربما تأخذ زمام المبادرة كلٌّ من الصين وروسيا والهند، الذين يتعطشون إلى الطاقة وسئموا الضباب الدخاني والمتحررين من الجمود السياسي والحساسية الأمريكية.

سيعتمد نجاح الحد من انبعاثات الكربون على التقدم التكنولوجي أيًا يكن من سيقوم به وأيًا يكن الوقود المستخدم، لماذا نفترض أنَّ المعرفة العلمية التي لدينا في 2018 هي أفضل ما يستطيع العالم التوصل إليه؟ لن يحتاج الحد من انبعاثات الكربون إلى طفرات في الطاقة النووية فحسب، بل في حقول تكنولوجية جديدة أخرى، مثل بطاريات لتخزين الطاقة المتقطعة من المصادر المتجددة، وشبكات ذكية مثل الإنترنت توزّع الكهرباء من مصادرٍ متفرقةٍ على مستخدمين متفرقين في أوقاتٍ متفرقة، وتكنولوجيات تجعل العمليات الصناعية مثل إنتاج الأسمنت والأسمدة والفولاذ تعتمد على الكهرباء والحد من انبعاثات الكربون من هذه العمليات، والوقود الحيوي السائل للشاحنات الثقيلة والطائرات التي تحتاج إلى طاقة كثيفة وقابلة للنقل، ووسائل لاحتجاز ثاني أكسيد الكربون وتخزينه.

آخر هذه الأمثلة ضروري لسببٍ بسيط، وهو أنَّه حتى لو انخفضت انبعاثات الغازات الدافئة بمقدار النصف بحلول عام 2050 ووصلت إلى الصفر بحلول عام 2075، فسيظل العالم في طريقه نحو احترارٍ خطير لأنَّ ثاني أكسيد الكربون المنبعث بالفعل سيظل في الجو لوقتٍ طويلٍ جدًّا، فلا يكفي هذا لوقف ازدياد سمُك الصوبة الزجاجية، فعلينا أن نفكّكها في مرحلةٍ ما.

تعود التكنولوجيا الأساسية إلى أكثر من مليار عامٍ، تمتص النباتات الكربون من الهواء لأنَّها تستخدم الطاقة الموجودة في ضوء الشمس لجمع ثاني أكسيد الكربون CO_2 مع الماء H_2O وصنع السكريات (مثل $C_6H_{12}O_6$)، والسليولوز (سلسلة من وحدات $C_6H_{10}O_5$)، والليغنين (سلسلة من وحدات مثل $C_{10}H_{14}O_4$)، ويكوِّن السليولوز والليغنين معظم الكتلة الحيوية الموجودة في الخشب والسيقان. الطريقة الواضحة لإزالة ثاني أكسيد الكربون من الهواء هي توظيف أكبر عدد ممكن من النباتات الجائعة للكربون في مساعدتنا، يمكننا أن نفعل هذا بتشجيع الانتقال من عمليات إزالة الغابات إلى عمليات إعادة تشجير الغابات والتشجير (غرس غابات جديدة)، وبعكس أثر تدمير الأراضي الرطبة والمحروثة، وباستعادة الموائل الطبيعية الساحلية والبحرية. ومن أجل خفض مقدار الكربون الذي يعود إلى الجو عندما تتعفن النباتات الميتة، يمكننا تشجيع البناء بالأخشاب ومنتجات النباتات الأخرى، أو طهي الكتلة الحيوية لتصبح فحمًا نباتيًّا غير متعفِّن ودفنه كمحسِّن للتربة يُطلق عليه «الفحم الحيوي».

يوجد نطاق واسع من الأفكار الأخرى لاحتجاز الكربون ولكنَّها أفكار هشة، على الأقل بمعايير التكنولوجيا الحالية. يتداخل الجانب القائم على التخمينات مع الهندسة الجيولوجية، ويشمل خططًا لتشتيت الصخور المسحوقة التي تستهلك ثاني أكسيد الكربون أثناء عملية التجوية، ولإضافة المواد القلوية إلى السحب أو المحيطات لإذابة المزيد من ثاني أكسيد الكربون في الماء، ولتلقيح المحيط بالحديد لتسريع عملية البناء الضوئي التي تقوم بها العوالق. أمَّا الجانب المثبت فيتكوَّن من تكنولوجيات يمكنها فرك ثاني أكسيد الكربون لإزالته من مداخن محطات الطاقة بالوقود الأحفوري وضخه في زوايا وأركان القشرة الأرضية. (إنَّ نزع الـ 400 جزء في المليون المتفرقين من الجو مباشرةً ممكن نظريًّا ولكنَّه غير فعَّال مما يحول دون تحقيقه، رغم أنَّ ذلك قد يتغير في حالة أصبحت الطاقة النووية رخيصة بالقدر الكافي). يمكن تعديل المصانع ومحطات الطاقة القائمة وتحديثها بالتكنولوجيات، ورغم أنَّ هذه التكنولوجيات نفسها متعطشة للطاقة، إلَّا أنَّها

تستطيع خفض انبعاثات الكربون من البنية التحتية للطاقة الكبيرة الموجودة بالفعل (مما يُنتج ما يطلق عليه الفحم النظيف)، ويمكن إضافة هذه التكنولوجيات أيضًا إلى محطات التغويز التي تحوّل الفحم إلى وقود سائل، وهو ما قد تظل تحتاج إليه الطائرات والشاحنات الثقيلة. يشير دانييل شراج عالم الجيوفيزياء إلى أنَّ عملية التغويز عليها بالفعل فصل ثاني أكسيد الكربون عن تيار الغاز، لذا فإنَّ تنحية ثاني أكسيد الكربون لحماية الجو تشكِّل نفقات إضافية ضئيلة، وستُنتج وقودًا سائلًا ذا بصمة كربونية أقل من البترول. والأفضل من ذلك أنَّه إذا تم تكميل المادة الأساسية من الفحم بالكتلة الحيوية (بما فيها الحشائش والنفايات الزراعية والمقتطعات من الغابات والقمامات المحلية وربما حتى الطحالب أو النباتات المعدَّلة جينيًّا يومًا ما)، فقد يصبح محايدًا من حيث البصمة الكربونية. والأمر الأفضل على الإطلاق هو أنَّه إذا كانت هذه المادة الأساسية تتكوَّن حصرًا من الكتلة الحيوية، فستكون سلبية من حيث البصمة الكربونية، فالنباتات تسحب ثاني أكسيد الكربون من الجو، وعندما تُستخدم كتلتها الحيوية للإمداد بالطاقة (عن طريق الاحتراق أو التخمر أو التغويز)، فإنَّ عملية احتجاز الكربون تستبعده. أُطلق على هذا الاتحاد، الذي يُدعى أحيانًا BECCS –الطاقة الحيوية واحتجاز الكربون وتخزينه– التكنولوجيا المنقذة من التغير المناخي.

هل سيحدث أيٌّ من هذا؟ إنَّ العوائق مثيرة للأعصاب، فهي تشمل تعطش العالم المتنامي للطاقة، والراحة في استخدام الوقود الأحفوري بسبب توفر بنيته التحتية الواسعة، وإنكار شركات الطاقة واليمين السياسي للمشكلة، ومعاداة الحركة البيئية الخضراء التقليدية واليسار المؤمن بالعدالة المناخية للحلول التكنولوجية، ومأساة المشاع الكربوني. ورغم كل ذلك، فإنَّ منع التغير المناخي فكرة قد حان وقتها، وتدل على ذلك ثلاثية عناوين الأخبار التي ظهرت في مجلة تايم خلال ثلاثة أسابيع فقط في عام 2015، وهم كالتالي: «الصين تظهر جديتها بشأن التغير المناخي»، و«وول مارت وماكدونالدز و79 شركة أخرى تلتزم بمكافحة التغير المناخي»، و«إنكار الأمريكيين للتغير المناخي يسجل انخفاضًا قياسيًّا». وفي نفس الموسم نشرت صحيفة نيويورك تايمز الخبر التالي: «الاستفتاء على ضرورة التصدي للتغير المناخي يجد إجماعًا عالميًّا»، في الأربعين دولة التي أجري فيها المسح كلها عدا دولة واحدة (باكستان)، فضلت أغلبية المشاركين الحد من انبعاثات الغازات الدفيئة، بما يشمل 69 في المئة من الأمريكيين.

ليس الإجماع الدولي مجرد هراء، ففي ديسمبر 2015 وقَّعت 195 دولة اتفاقية تاريخية تلزمها بالإبقاء على مقدار ارتفاع درجة الحرارة العالمية «أقل كثيرًا» من درجتين مئويتين (وتستهدف 1.5 درجة مئوية)، وبتخصيص 100 مليار دولار سنويًّا لتمويل التخفيف من التغير المناخي في الدول النامية (وهي النقطة التي كانت مثار خلاف في المحاولات السابقة الفاشلة في الوصول إلى الإجماع العالمي)، وفي أكتوبر 2016، صدَّقت 155 دولة من الموقِّعين على الاتفاقية، ممَّا أدخلها حيز التنفيذ. قدَّمت معظم الدول الموقِّعة خططًا مفصَّلة لكيفية السعي وراء هذه الأهداف حتى عام 2025، ووعد الجميع بتحديث الخطط كل خمس سنوات وتكثيف الجهود. دون هذا التصعيد، تكون الخطط الحالية غير كافية، إذ ستسمح لدرجة حرارة العالم بالارتفاع بمقدار 2.7 درجة مئوية، وستقلل فرصة الارتفاع الخطير بمقدار 4 درجات مئوية في عام 2100 بنسبة 75 في المئة فقط، وهي النسبة التي ما تزال قريبة للغاية بقدرٍ لا يسمح بالراحة، ولكنَّ الالتزامات العامة إضافةً إلى التقدم التكنولوجي المعدي قد يساهموا في التصعيد أكثر، وفي هذه الحالة ستقلل اتفاقية باريس كثيرًا من احتمالية الارتفاع بمقدار درجتين مئويتين وتقضي على احتمالية الارتفاع بمقدار 4 درجات مئوية.

شهدت هذه الخطة انتكاسةً في عام 2017 عندما أعلن دونالد ترامب، الذي أطلق على التغير المناخي علانيةً خدعةً صينية، أنَّ الولايات المتحدة ستنسحب من الاتفاقية. حتى لو تم الانسحاب في نوفمبر 2020 (وهو أقرب تاريخ ممكن للانسحاب)، فإنَّ الحد من انبعاثات الكربون المدفوع بالتكنولوجيا والاقتصاد سيتواصل، وستُطرح سياسات مكافحة التغير المناخي من طرف المدن والولايات

والأعمال التجارية وقادة المجال التقني ودول العالم الأخرى التي أعلنت أنَّ الاتفاق «نهائي» وربما تضغط على الولايات المتحدة للالتزام بكلمتها عبر فرض رسوم على الكربون على الصادرات الأمريكية وفرض عقوبات أخرى.

وحتى إذا جاءت الرياح بما تشتهي السفن، فإنَّ الجهد اللازم لمنع التغير المناخي هائل، وليس لدينا أي ضمانة على أنَّ التحولات الضرورية في التكنولوجيا والسياسات ستكون نافذة في وقتٍ قريب بما يكفي لإبطاء الاحترار العالمي قبل أن يُحدث ضررًا بالغًا. مما يؤدي بنا إلى إجراء وقائي أخير مستميت، وهو خفض درجة حرارة العالم عبر تقليل كمية إشعاع الشمس الذي يصل إلى الغلاف الجوي السفلي وسطح الأرض. يمكن أن يرش أسطول من الطائرات ضباباً رقيقًا مكوناً من الكبريتات أو الكالسيت أو الجسيمات النانوية في الغلاف الجوي العلوي (الستراتوسفير) فينشر ستارًا رقيقًا يعكس من ضوء الشمس مقدارًا كافيًا لمنع الاحترار الخطير. وسيحاكي هذا آثار انفجار بركاني كانفجار جبل بيناتوبو البركاني في الفلبين عام 1991، الذي ألقى كثيرًا من ثاني أكسيد الكبريت في الجو لدرجة أنَّ درجة حرارة الكوكب قد انخفضت بمقدار نصف درجة مئوية (أي حوالي درجة واحدة فهرنهايت) لمدة عامين. أو يمكن أن يرش أسطول من «سفن السُحُب» ضباباً رقيقًا من مياه البحر في الهواء، ومع تبخر المياه، ستنتقل بلورات الملح إلى السحب ويتكثَّف حولها بخار الماء مشكِّلًا قطرات صغيرة ستبيِّض السُحُب وتعكس المزيد من ضوء الشمس إلى الفضاء. هذه الإجراءات غير مكلفة نسبيًّا، ولا تتطلب تكنولوجيا جديدة غريبة، وقد تخفِّض درجات الحرارة العالمية سريعًا. يُشاع بعض الحديث عن أفكار أخرى للتلاعب بالجو والمحيطات أيضًا، ولكنَّ الأبحاث عنها جميعًا ما تزال في مهدها.

تبدو فكرة «هندسة» المناخ خطة مجنونة لعالِمٍ مجنون وكانت من قبل أشبه بأمرٍ محظور، ويراها المنتقدون حماقةً بروميثية قد يكون لها عواقب غير مقصودة مثل الإخلال بأنماط سقوط الأمطار والإضرار بطبقة الأوزون. بما أنَّ آثار أي إجراء يُطبق على الكوكب بأكمله تختلف من مكانٍ لآخر، فإنَّ مسألة هندسة المناخ تثير التساؤل حول من الذي عليه التحكم في ترموستات العالم، فمثلما قد يحدث مع الأزواج المشاكسين، إذا خفضت إحدى الدول درجة الحرارة على حساب دولةٍ أخرى، فقد يُشعل هذا حرباً. إذا تراخت هندسة المناخ لأي سبب بعد أن يعتمد العالم عليها، سترتفع درجات الحرارة في الجو المتشبع بالكربون أسرع كثيرًا مما يستطيع البشر التكيف معه. إنَّ مجرد ذكر مخرجٍ صغير من أزمة المناخ يخلق مخاطر أخلاقية، إذ يغري الدول بالتملص من واجبها من أجل خفض انبعاثات الغازات الدفيئة. وسيستمر ثاني أكسيد الكربون المتراكم في الجو في الذوبان في مياه البحار مما يحيل المحيطات بالتدريج إلى حمض الكربونيك.

لكل هذه الأسباب، لا يمكن لأي شخص مسؤول أن يدَّعي أنَّ بإمكاننا مواصلة ضخ الكربون في الجو ثم ندهن واقيًا من الشمس على الغلاف الجوي السفلي للتعويض عن ذلك. ولكنَّ الفيزيائي ديفيد كيث (David Keith) يدافع في كتابه الصادر عام 2013 عن أحد أشكال هندسة المناخ، وهي هندسة معتدلة، ومتجاوبة، ومؤقتة. «معتدلة» تعني أنَّ كميات الكبريت أو الكالسيت ستكون كافية بالكاد لخفض معدل الاحترار لا إلغائه تمامًا، إنّ الاعتدال فضيلة لأنَّ التلاعبات البسيطة ذات احتمالية أقل لإحداث مفاجآت غير مرغوبة. و«متجاوبة» تعني أنَّ أي تلاعب سيكون حذرًا وتدريجيًّا ومُراقَبًا عن كثب وخاضعًا للتعديل باستمرار وسيتم وقفه تمامًا إذا تطلب الأمر. و«مؤقتة» تعني أنَّ البرنامج سيكون مصممًا فقط كي يوفر للبشر متنفسًا حتى يقضوا على انبعاثات الغازات الدفيئة ويعيدوا ثاني أكسيد الكربون في الجو إلى مستواه قبل الحقبة الصناعية. يقول كيث ردًّا على الخوف من أن يدمن العالم هندسة المناخ للأبد: «هل يُعقل أنَّنا لن نكتشف كيف نسحب على سبيل المثال خمسة جيجا طن من الكربون في العام من الهواء بحلول عام 2075؟ لا أصدق

ذلك».

رغم أنَّ كيث من بين أول مهندسي المناخ في العالم، إلَّا أنَّه لا يمكن اتِّهامه بالانجراف وراء فتنة الابتكار. نجد في كتاب الصحافي أوليفر مورتون (Oliver Morton) الصادر عام 2015 **الكوكب عند إعادة تكوينه** (*The Planet Remade*) حجة مدروسة مشابهة أخرى، ويعرض الكتاب الأبعاد التاريخية والسياسية والأخلاقية لهندسة المناخ، إضافةً إلى آخر المستجدات التقنية. يوضِّح مورتون أنَّ البشرية تخل بالدورات العالمية للماء والنيتروجين والكربون منذ أكثر من قرنٍ، فقد فات الأوان على الحفاظ على نظام أرضي بدائي. وبالنظر إلى جسامة مشكلة التغير المناخي، فمن غير الحكمة أن نفترض أنَّنا سنحلها بسرعةٍ أو بسهولةٍ. تبدو الأبحاث حول كيف يمكننا تقليل حجم الضرر الواقع على ملايين الناس قبل تطبيق الحلول بالكامل متحفظة، ويرسم مورتون سيناريوهات بشأن كيف يمكن تطبيق برنامج هندسة مناخ معتدلة ومؤقتة حتى في عالمٍ بعيد عن الحكومة العالمية المثالية. أوضح الباحث القانوني دان كاهان أنَّ تقديم المعلومات عن هندسة المناخ لا يخلق مخاطر أخلاقية، بل يجعل الناس أكثر قلقًا بشأن التغير المناخي وأقل انحيازًا على أساس أيديولوجيتهم السياسية.

رغم نصف قرنٍ من الهلع، إلَّا أنَّ البشرية ليست في طريقٍ لا رجعة فيه نحو الانتحار الإيكولوجي، فالخوف من نقص الموارد مبني على سوء فهم، وكذلك النزعة البيئية الباغضة للبشر التي ترى أنَّ الإنسان الحديث لصٌّ خسيسٌ للكوكب البكر. تدرك النزعة البيئية المستنيرة أنَّ البشر يحتاجون إلى استخدام الطاقة للخروج من الفقر الذي حكم عليهم به كلٌّ من التطور والإنتروبيا، وتبحث عن أساليبَ للقيام هذا بأقل ضررٍ على الكوكب وعالم الأحياء. يشير التاريخ إلى أنَّ هذه النزعة البيئية الحديثة البرجماتية الإنسانية يمكن أن تنجح، فكلما زاد العالم غنى وذكاءً تقنيًّا، حدَّ من استخدام المادة ومن انبعاثات الكربون ويكثِّف الطاقة ويستغنى عن بعض الأراضي وأنواع الكائنات الحية، وكلما ازداد الناس غنى وتعليمًا أفضل، اهتموا أكثر بالبيئة واكتشفوا طرقًا لحمايتها وازداد استعدادهم لدفع التكاليف. تتعافى أجزاءٌ كثيرة من البيئة، مما يشجعنا على التعامل مع المشكلات الباقية المعترف بحدتها.

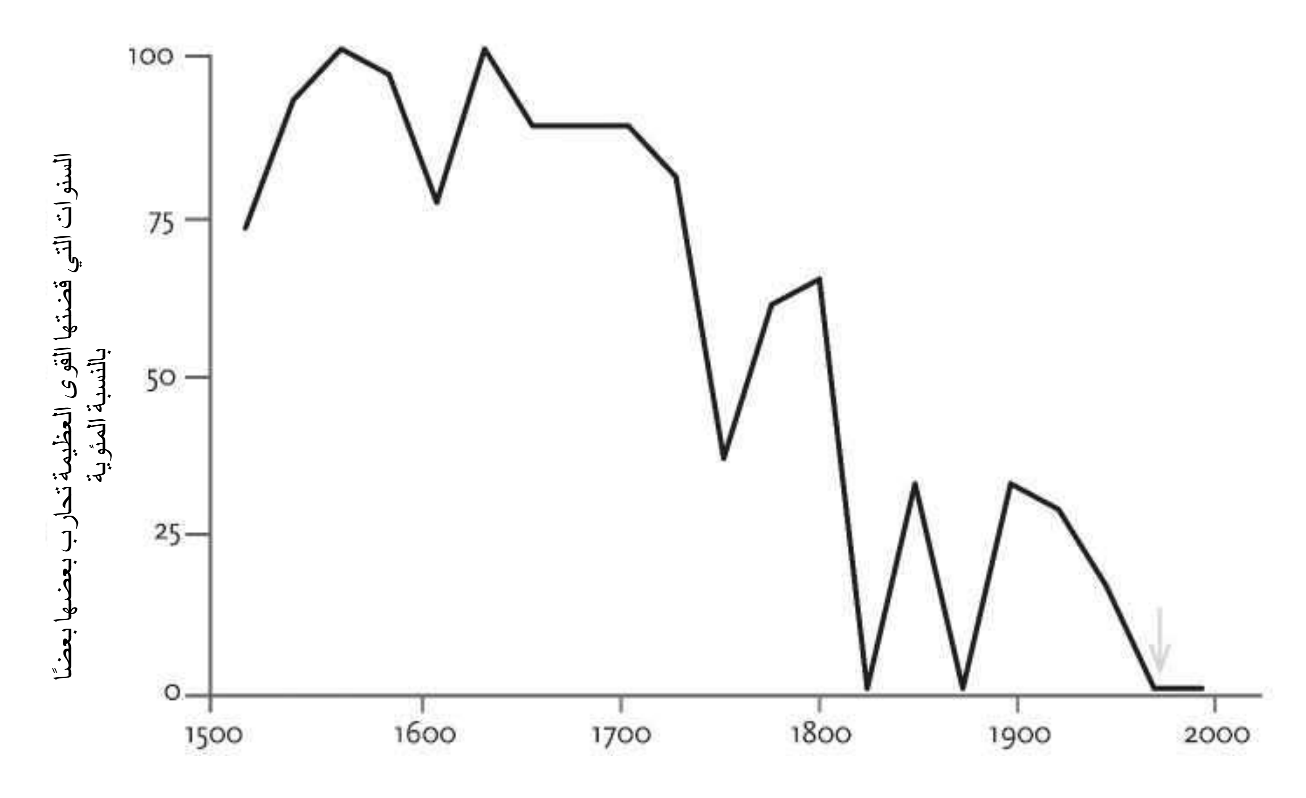
أول هذه المشكلات انبعاثات الغازات الدفيئة وتهديد التغير المناخي الخطير الذي تشكِّله. يسألني بعض الأشخاص أحياناً عما إذا كنت أعتقد أنَّ البشرية ستتصدى للتحدي أم لا، أو عما إذا كنا سنسترخي وندع الكارثة تحدث أم لا. إن كان يهمك رأيي، فأنا أعتقد أننا سنتصدى للتحدي، ولكن من الضروري أن نفهم طبيعة هذا التفاؤل. يفرِّق الاقتصادي بول رومر بين التفاؤل الراضي مثل شعور الطفل الذي ينتظر الهدايا صباح عيد الميلاد المجيد، والتفاؤل الشرطي مثل شعور الطفل الذي يريد منزلا في الشجر ويدرك أنَّه إذا حصل على بعض الأخشاب والمسامير وأقنع أطفالًا آخرين بمساعدته، فإنّ بإمكانه أن يبني منزلَ شجرة. لا يمكننا أن نتمتع بالتفاؤل الراضي بشأن التغير المناخي، ولكن يمكننا أن نتمتع بالتفاؤل الشرطي، إذ لدينا بعض الطرق العملية لمنع الأضرار ولدينا الوسائل اللازمة لنتعلم المزيد. المشكلات قابلة للحل، ولا يعني هذا أنَّها ستحل نفسها بنفسها، ولكنَّه يعني أنَّنا نستطيع حلها إذا حافظنا على قوى الحداثة الخيِّرة التي سمحت لنا بحل المشكلات حتى الآن، بما فيها الرخاء المجتمعي، والأسواق المنظَّمة بحكمة، والحوكمة الدولية، والاستثمارات في العلوم والتكنولوجيا.

الفصل الحادي عشر: السلام

إلى أي مدى وصل عمق تيار التقدم؟ وهل يمكن أن يتوقف هذا التيار فجأة أو ينعكس مساره؟ يقدم لنا تاريخ العنف فرصةً لمواجهة هذه الأسئلة. أوضحت في كتابي **الزاويا الافضل لطبيعتنا** *The Better Angels of Our Nature* أنَّ كل مقياس موضوعي للعنف في تراجعٍ بدءًا من العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، وحذرني المراجعون أثناء كتابته أنَّ حجته قد تبطل قبل إصدار أول نسخة منه في المكتبات. (إذ كان القلق السائد آنذاك بشأن اندلا ع حرب –ربما حرب نووية– بين إيران وإسرائيل أو الولايات المتحدة). منذ إصدار الكتاب في عام 2011، يبدو وكأنّ شلال الأخبار السيئة يبطله: الحرب الأهلية في سوريا، والأعمال الوحشية في الدولة الإسلامية، والإرهاب في غرب أوروبا، والأوتوقراطية في شرق أوروبا، وحوادث إطلاق النيران من الشرطة في الولايات المتحدة، وجرائم الكراهية، واندلا ع العنصرية ومعاداة المرأة من الشعبويين الغاضبين في مختلف أنحاء الغرب.

ولكنَّ انحياز التوفر والانحياز للسلبية اللذين دفعا الناس إلى الشك في احتمالية أن يكون العنف قد تراجع بالفعل، يمكنهما أيضًا دفع الناس إلى الإسراع في استنتاج أنَّ أي تراجعٍ قد انعكس مساره. على مدار الفصول الخمسة التالية، سأضع الأخبار السيئة الأخيرة في نصابها الصحيح عبر اللجوء إلى البيانات، وسأرسم المسارات التاريخية لعدة أنواعٍ من العنف وصولًا إلى وقتنا الحاضر، بما فيه تذكرة بآخر نقطة بيانية متاحة في وقت طباعة كتاب **الزاويا الافضل لطبيعتنا**. تُعد سبع سنوات مجرد غمضة عين بالنسبة للتاريخ، ولكنَّها تقدم مؤشرًا بسيطًا على ما إذا كان الكتاب استغل لحظة حظ أم حدَّد اتجاهًا مستمرًا. والأهم من ذلك أنَّني سأحاول تفسير الاتجاهات من حيث القوى التاريخية الأعمق، وأضعها في نطاق قصة التقدم التي يتخذها هذا الكتاب موضوعًا له. (وسأطرح في هذه الأثناء بعض الأفكار الجديدة حول ماهية تلك القوى). سأبدأ بأكثر أشكال العنف تكلفةً، وهو الحرب.

كانت الحرب طوال أغلب تاريخ البشرية التسلية الطبيعية للحكومات، وكان السلام مجرد مهلة للاستراحة بين الحروب، يظهر هذا في الشكل رقم 11–1، الذي يوضِّح نسبة الوقت الذي قضته القوى العظيمة خلال نصف الألفية الماضية في الحروب. (القوى العظيمة هي حفنة من الدول والإمبراطوريات التي بإمكانها استخدام القوة خارج حدودها، والتي تعامل بعضها بعضًا كأنداد، والتي تتحكم مجتمعةً في أغلبية موارد العالم العسكرية). إنَّ الحروب بين القوى العظمى، التي تشمل الحربين العالميتين، هي أشد أشكال التدمير التي اخترعها جنس البشر البائس، وهذه الحروب مسؤولة عن أغلبية ضحايا كل الحروب مجتمعةً. يوضح الرسم البياني أنَّ القوى العظمى كانت في فجر العصر الحديث في حروبٍ على نحو مستمر تقريبًا، ولكنَّها الآن لا تخوض حروبًا مطلقًا تقريبًا، إذ كانت آخر حرب هي التي واجهت فيها الولايات المتحدة الصين في كوريا منذ أكثر من ستين عامًا مضت.



الشكل رقم 11- 1: حروب القوى العظمى منذ 1500 حتى 2015

المصدر: Levy & Thompson 2011، محدَّثة لتشمل القرن الحادي والعشرين. نسبة السنوات التي قضتها القوى العظمى تحارب بعضها بعضًا، مجمَّعة على فترات مدة كلٍّ منها 25 سنة، باستثناء السنوات من 2000 إلى 2015. يشير السهم إلى السنوات من 1975 إلى 1999، أي ربع القرن المرسوم في الشكل رقم 5–12 من دراسة Pinker 2011.

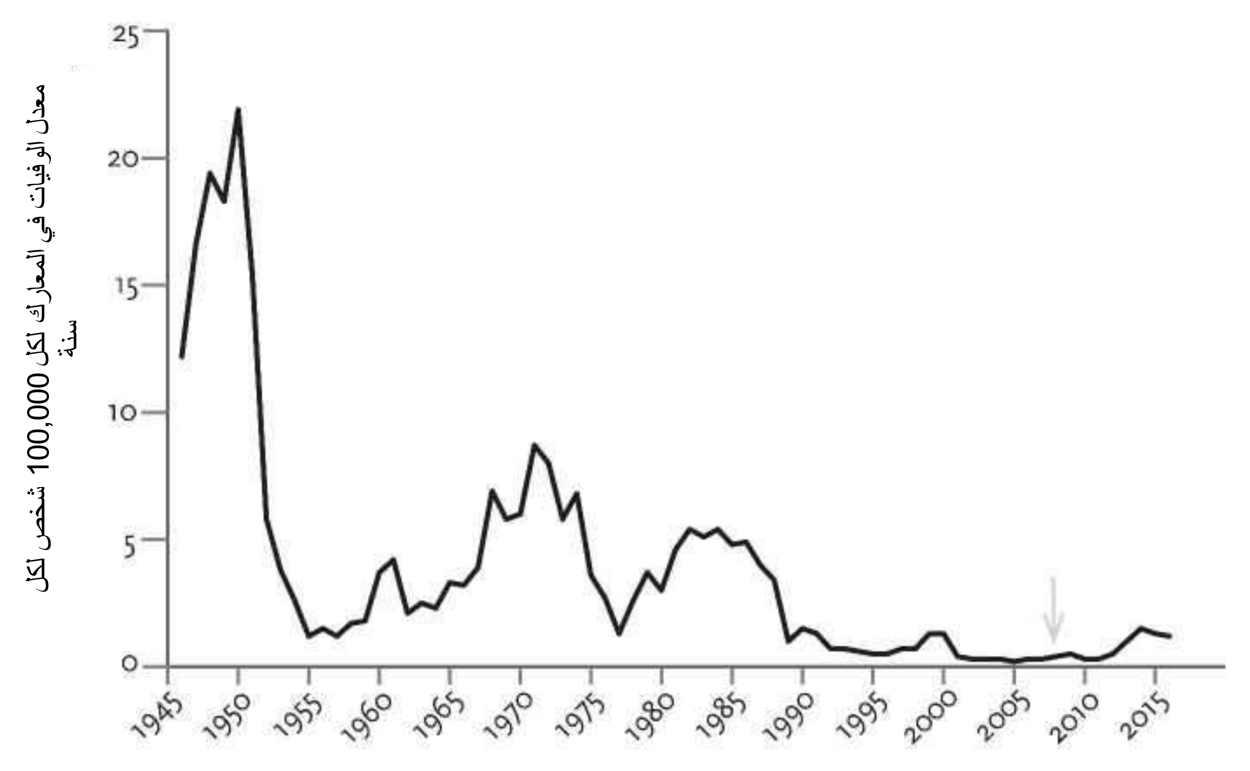
يخفي التراجع الحاد في الحروب بين القوى العظمى اتجاهين كانا حتى وقتٍ قريب معاكسين، فلمدة 450 عامًا، أصبحت الحروب التي تشمل قوى عظمى أقصر وأقل تكرارًا، ولكن مع زيادة تأهيل جيوشها وتدريبها وتسليحها، أصبحت الحروب التي تندلع أكثر فتكًا، وبلغت ذروتها في الحربين العالميتين اللتين كانتا مدمرتين بشكلٍ مذهل رغم كونهما قصيرتين. لم تتراجع مقاييس الحروب الثلاث –معدل تكرارها ومدتها ومدى فتكها– جميعًا سوى بعد الحرب العالمية الثانية، ودخل العالم في الفترة التي أُطلق عليها «السلام الطويل».

ليست القوى العظمى فقط هي من توقفت عن القتال، بل يبدو أنَّ الحرب بمعناها الكلاسيكي، أي النزاع المسلح بين جيشين نظاميين، قد عفا عليها الزمن. إذ لم يزد عددها عن ثلاثة في كل سنة منذ 1945، ولم يندلع أيٌّ منها في أغلب السنوات منذ 1989، ولم يندلع أيٌّ منها على الإطلاق منذ الغزو الأمريكي للعراق في عام 2003، وهي أطول فترة تمر دون حروبٍ بين الدول منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. تقتل المناوشات بين الجيوش الوطنية اليوم عشرات الناس بدلًا من مئات الآلاف أو الملايين الذين ماتوا في الحروب الشعواء التي حاربت فيها الدول القومية على مر التاريخ. واجه هذا «السلام الطويل» بالطبع بعض الاختبارات منذ 2011، مثل الصراعات بين أرمينيا وأذربيجان، وبين روسيا وأوكرانيا، وبين كوريا الشمالية والجنوبية، ولكنْ في كلٍّ من هذه الحالات، تراجعت أطراف الصراع بدلًا من تصعيده إلى حربٍ شاملة. لا يعني هذا بالطبع أنَّ التصعيد إلى حربٍ كبرى أمر مستحيل، ولكنَّه يُعد غريبًا استثنائيًّا، أمرًا تحاول كل الدول تجنبه بأي ثمن (تقريبًا).

وتواصل جغرافيا الحرب أيضًا الانكماش، ففي 2016، أنهت اتفاقية سلام بين حكومة كولومبيا وعصابات «فارك» (القوات المسلحة الثورية الكولومبية) الماركسية آخر صراع مسلح سياسي نشط في نصف الكرة الأرضية الغربي، وهو آخر صراعٍ باقٍ من عهد الحرب الباردة. وهذا تغيير بالغ الأهمية عن بضعة عقودٍ مضت. كانت العصابات اليسارية المسلحة في جواتيمالا والسلفادور وبيرو – مثلما حدث في كولومبيا– تقاتل الحكومات المدعومة من أمريكا، وفي نيكاراجوا كان الوضع معكوسًا (إذ كانت جماعات الكونترا المدعومة من أمريكا تقاتل الحكومة اليسارية)، وأدت هذه الصراعات مجتمعةً إلى قتل أكثر من 650 ألف شخص. حذا نصف الكرة الأرضية بأكمله حذو مناطق كبيرة أخرى في العالم في الانتقال نحو السلام. استسلمت قرون الحرب الدامية في أوروبا، والتي بلغت ذروتها في الحربين العالميتين، أمام أكثر من سبعة عقودٍ من السلام. وفي شرق آسيا، حصدت حروب منتصف القرن العشرين أرواح ملايين الناس، في الغزوات اليابانية والحرب الأهلية الصينية والحروب في كوريا وفيتنام. ولكن رغم النزاعات السياسية الخطيرة، فإنَّ شرق وجنوب شرق آسيا اليوم خاليان تقريبًا تمامًا من أي معارك قائمة بين الدول.

تتركز كل حروب العالم الآن تقريبًا في منطقة تمتد من نيجيريا إلى باكستان وتحتوي على أقل من سُدس سكان العالم، وهي حروب أهلية، والتي يعرِّفها برنامج أوبسالا لبيانات الصراعات (UCDP) بأنَّها صراع مسلح بين حكومةٍ وقوة منظمة يؤدي إلى قتل ألف جندي ومدني على الأقل سنويًّا بما يمكن إثباته. نجد هنا سببًا حديثًا للإحباط، فالتراجع شديد الانحدار في عدد الحروب الأهلية بعد نهاية الحرب الباردة –من 14 حربًا أهلية في 1990 إلى 4 في 2007– قد انعكس وارتفع العدد إلى 11 في 2014 و2015 وإلى 12 في 2016. هذا التغيير مدفوع بالأساس بالصراعات التي تكون إحدى الجماعات الإسلامية المتطرفة أحد طرفيها (8 من 11 في 2015 و10 من 12 في 2016)، فدون هذه الجماعات، لم تكُن لتحدث أي زيادة في عدد الحروب على الإطلاق. ربما ليس من قبيل الصدفة أنَّ اثنتين من الحروب في عامي 2014 و2015 حركتهما أيديولوجية أخرى معادية للنزعة الإنسانية، وهي القومية الروسية التي دفعت القوى الانفصالية بدعمٍ من فلاديمير بوتين لقتال حكومة أوكرانيا في مقاطعتين.

الحرب الأسوأ من بين الحروب الدائرة هي تلك التي في سوريا، حيث سحقت حكومة بشار الأسد بلدها في محاولةٍ لهزيمة مجموعة متنوعة من القوى المتمردة الإسلامية وغير الإسلامية، بمساعدة روسيا وإيران. الحرب الأهلية السورية مسؤولة عن الجزء الأعظم من الارتفاع في المعدل العالمي لوفيات الحروب الموضح في الشكل رقم 11–2، بوفياتها في المعارك التي بلغ عددها 250 ألف حالة وفاة منذ 2016 (وهذا تقدير متحفظ).



الشكل رقم 11- 2: معدل الوفيات في المعارك منذ 1946 حتى 2016

المصادر: مقتبس من مشروع تقرير الأمن البشري لعام 2007. بيانات الأعوام من 1946 إلى 1988: *Peace Research Institute of Oslo Battle Deaths Dataset* 1946–2008, Lacina & Gleditsch 2005. لبيانات الأعوام من 1989 إلى 2015: UCDP *Battle-Related Deaths Dataset version 5.0*, Uppsala Conflict Data Program 2017, Melander, Pettersson, & Themnér 2016، محدث بمعلومات من Therese Pettersson and Sam Taub of UCDP. أرقام تعداد سكان العالم: 1950–2016, US Census Bureau; 1946–1949, McEvedy & Jones 1978، مع بعض التعديلات. يشير السهم إلى سنة 2008، وهي آخر سنة مرسومة في الشكل رقم 6-2 من دراسة Pinker 2011.

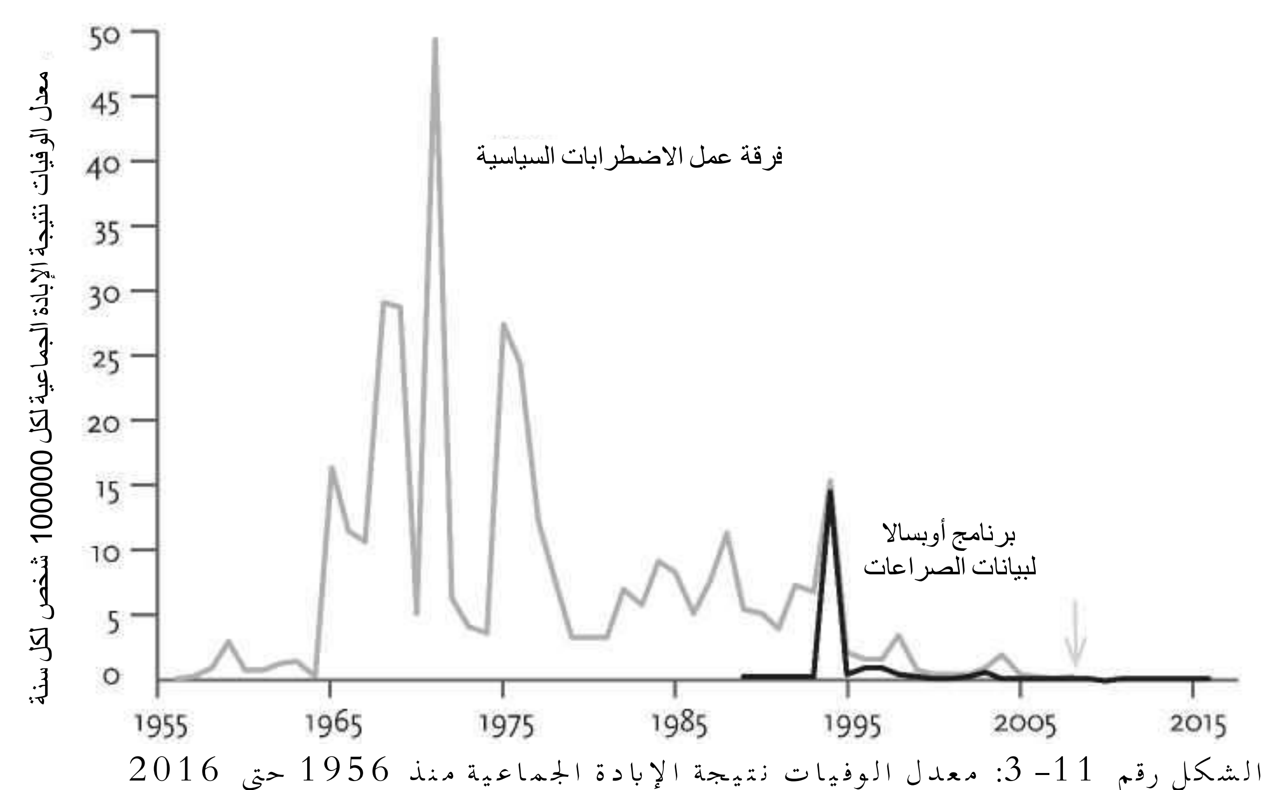
ولكن هذا الارتفاع يأتي في نهاية انخفاضٍ مذهل دام ستة عقود. شهدت الحرب العالمية الثانية في أسوأ حالاتها 300 حالة وفاة في المعارك لكل 100000 شخصٍ لكل عام، وهي غير موضحة في الرسم البياني لأنَّها كانت ستجعل الخط ينكمش طوال كل السنوات اللاحقة ليشبه سجادة مجعدة. انخفض معدل الوفيات في فترات ما بعد الحرب سريعًا كما يوضِّح الرسم البياني، إذ بلغ ذروته عند نقطة 22 خلال الحرب الكورية، و9 خلال حرب فيتنام في أواخر ستينيات القرن الماضي وأوائل السبعينيات، و5 عند حرب إيران والعراق في منتصف الثمانينيات، قبل أن يطفو على القاعدة عند نقطة أقل من 0.5 بين عامي 2001 و2011، وارتفع ببطءٍ ليصل إلى 1.5 في 2014 وتراجع إلى 1.2 في 2016، وهو العام ذو البيانات الأحدث.

ربما يكون متابعو الأخبار في منتصف عقد 2010 توقعوا أن تكون المذبحة السورية قد محت كل التقدم التاريخي الذي تحقق في العقود السابقة، وهذا لأنَّهم ينسون الحروب الأهلية العديدة التي انتهت دون أبواق الحرب بعد عام 2009 (في أنجولا وتشاد والهند وإيران وبيرو وسيريلانكا) وينسون أيضًا الحروب السابقة ذات أعداد الوفيات الضخمة مثل الحروب في الهند الصينية (منذ 1946 إلى 1954، 500 ألف حالة وفاة)، والهند (منذ 1946 إلى 1948، مليون حالة وفاة)، والصين (منذ 1946 إلى 1950، مليون حالة وفاة)،

والسودان (منذ 1956 إلى 1972 – 500 ألف حالة وفاة، ومنذ 1983 إلى 2002 – مليون حالة وفاة)، وأوغندا (منذ 1971 إلى 1978، 500 ألف حالة وفاة)، وإثيوبيا (منذ 1974 إلى 1991، 750 ألف حالة وفاة)، وأنجولا (منذ 1975 إلى 2002، مليون حالة وفاة)، وموزمبيق (منذ 1981 إلى 1992، 500 ألف حالة وفاة).

أدت الصور المؤلمة للاجئين اليائسين من الحرب الأهلية السورية الذين يكافح كثيرٌ منهم من أجل إعادة التسكين في أوروبا إلى الادعاء القائل إنَّ العالم الآن به لاجئون أكثر من أي وقتٍ مضى في التاريخ، ولكنَّ هذا أحد أعراض فقد الذاكرة التاريخية وانحياز التوفر. يشير عالم السياسة جوشوا جولدشتاين إلى أنَّ الأربعة مليون لاجئ سوري اليوم أقل عددًا من العشرة ملايين نازحٍ بسبب حرب الاستقلال البنجلاديشية في عام 1971، والأربعة عشر مليون نازحٍ بسبب تقسيم الهند في عام 1947، والستة ملايين نازحٍ بسبب الحرب العالمية الثانية في أوروبا وحدها، وفي هذه الحقب كان تعداد سكان العالم جزءًا صغيرًا من تعداده الحالي. ليس التحديد الكمي لهذا الأسى قسوة على المعاناة الفظيعة التي يعانيها ضحايا اليوم، وإنَّما إكرامًا لمعاناة ضحايا الأمس، ويضمن أن يتصرف صناع السياسات لمصالحهم من خلال الانطلاق من فهمٍ دقيق للعالم، وبالأخص، ينبغي أن يمنعهم من التوصل إلى استنتاجاتٍ خطيرة عن «العالم الذي يخوض حربًا»، وهو ما قد يغريهم بالتخلص من الحوكمة العالمية أو العودة إلى «الاستقرار» الأسطوري الذي اتسمت به مواجهات الحرب الباردة. يشير جولدشتاين إلى أنَّ «المشكلة ليست في العالم، المشكلة في سوريا... فالسياسات والممارسات التي أنهت الحروب (في أماكن أخرى) يمكن أن تنهي الحروب اليوم في جنوب السودان واليمن وربما حتى سوريا، ببعضٍ من الجهد والاستخبارات».

قد تكون عمليات القتل الجماعي للمدنيين غير المسلحين، التي تُعرف أيضًا بالإبادة الجماعية أو القتل الجماعي باسم الحكومات أو العنف من طرفٍ واحد، مهلكة بنفس قدر الحروب وتتداخل معها غالبًا. وفقًا للمؤرخين فرانك تشاك وكيرت يوناسون فإنَّ «الإبادة الجماعية قد حدثت في كل أديان العالم وخلال كل فترات التاريخ». خلال الحرب العالمية الثانية، ذُبح عشرات الملايين من المدنيين على يد هتلر وستالين والإمبراطورية اليابانية، وفي قصف متعمد لمناطق المدنيين على يد جميع الأطراف (ومرتين بأسلحة نووية)، وبلغ معدل الوفيات ذروته عند حوالي 350 حالة لكل 100 ألف شخص سنويًّا. ولكن على عكس الجزم بأنَّ «العالم لم يتعلَّم شيئًا من الهولوكوست»، فإنَّ فترة ما بعد الحروب لم تشهد شيئًا مثل سيل الدماء الذي شهدته أربعينيات القرن الماضي. حتى خلال فترة ما بعد الحروب، انحدر معدل الوفيات بسبب الإبادة الجماعية انحدارًا حادًّا كما سنرى في مجموعتي البيانات الموضحتين في الشكل رقم 11–3.



الشكل رقم 11- 3: معدل الوفيات نتيجة الإبادة الجماعية منذ 1956 حتى 2016

المصادر: فرقة عمل الاضطرابات السياسية، 1955–2008: *Political Instability Task Force State Failure Problem Set*, 1955–2008, Marshall, Gurr, & Harff 2009; Center for Systemic Peace 2015. وصف الحسابات مذكور في دراسة Pinker 2011, p. 338. برنامج أوبسالا لبيانات الصراعات، 1989-2016: *UCDP One-Sided Violence Dataset v. 2.5-2016,* Melander, Pettersson, & Themnér 2016; Uppsala Conflict Data Program 2017، تقديرات «معدلات الوفاة المرتفعة»، محدَّثة ببيانات من سام تاوب من برنامج أوبسالا لبيانات الصراعات، بالنسبة إلى أرقام تعداد سكان العالم من مكتب تعداد الولايات المتحدة. يشير السهم إلى سنة 2008، وهي آخر سنة مرسومة في الشكل رقم 6–8 من دراسة Pinker 2011.

تمثل «القمم» في الرسم البياني حالات القتل الجماعي أثناء معاداة الشيوعية في «سنة المخاطر» في إندونيسيا (منذ 1965 إلى 1966، 700 ألف حالة وفاة)، والثورة الثقافية الصينية (منذ 1966 إلى 1975، 600 ألف حالة وفاة)، والحرب بين عرقي التوتسي والهوتو في بوروندي (منذ 1965 إلى 1973، 140 ألف حالة وفاة)، وحرب الاستقلال البنجلاديشية (عام 1971، 1,7 مليون حالة وفاة)، وعنف الشمال ضد الجنوب في السودان (منذ 1956 إلى 1972، 500 ألف حالة وفاة)، ونظام عيدي أمين في أوغندا (منذ 1972 إلى 1979، 150 ألف حالة وفاة)، ونظام بول بوت في كمبوديا (منذ 1975 إلى 1979، 2,5 مليون حالة وفاة)، وقتل الأعداء السياسيين في فيتنام (منذ 1965 إلى 1975، 500 ألف حالة وفاة)، والمجازر الأحدث في البوسنة (منذ 1992 إلى 1995، 225 ألف حالة وفاة)، ورواندا (عام 1994، 700 ألف حالة وفاة)، ودارفور (منذ 2003 إلى 2008، 373 ألف حالة وفاة). يشمل التضخم غير الملحوظ تقريبًا منذ 2014 إلى 2016 الفظاعات التي تسهم في الانطباع بأننا نعيش في عصورٍ عنيفة على غير العادة، إذ قتلت داعش 4500 مدني على الأقل من اليزيديين والمسيحيين والشيعيين، وقتلت بوكو حرام 5000 شخصٍ في نيجيريا والكاميرون وتشاد، وقتلت الميليشيات المسلمة والمسيحية 1750 شخصًا في جمهورية أفريقيا الوسطى. لا يمكن أن يستخدم المرء كلمة

«لحُسن الحظ» مطلقًا فيما يخص قتل الأبرياء، ولكنَّ الأرقام في القرن الحادي والعشرين تمثّل جزءًا ضئيلا جدًّا من الأرقام في العقود السابقة.

لا يمكن تأويل الأرقام في إحدى مجموعات البيانات بالطبع بأنَّها قراءة مباشرة لمخاطر الحرب، فالسجل التاريخي شحيح فيما يتعلق بتقدير أي تغيير في احتمالية اندلاع الحروب النادرة جدًّا والمدمرة جدًّا في الوقت نفسه. لفهم البيانات المتناثرة في عالمٍ لا يحدث تاريخه سوى مرة واحدة، علينا أن نكمِّل الأرقام بالمعرفة المتوفرة عن مسبِّبات الحرب، مثلما يشير شعار اليونسكو: «تبدأ الحروب في عقول البشر». ونجد الآن أنَّ الابتعاد عن الحرب لا يتمثل فقط في انخفاض عدد الحروب والوفيات الناتجة عن الحروب، بل نراه أيضًا في استعدادات الدول للحروب، فقد انخفض معدل انتشار التجنيد الإجباري وحجم القوات المسلحة ونسبة الإنفاق العسكري العالمي من الناتج المحلي الإجمالي في العقود الأخيرة الماضية، والأهم من ذلك التغيرات التي طرأت على عقول البشر.

كيف حدث ذلك؟ جاء عصر العقل والتنوير بشجبٍ للحروب من كلٍّ من باسكال وسويفت وفولتير وصمويل جونسون والكويكرز وغيرهم، وشهد أيضًا اقتراحات عملية لكيفية الحد من الحروب أو القضاء عليها، وخاصةً مقالة كانط الشهيرة «السلام الدائم». ويُعزى الفضل لنشر هذه الأفكار في تراجع حروب القوى العظمى في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وحدوث فجوات عديدة في حالات الحرب خلال تلك الفترة، ولكن لم تترسخ قوى التهدئة التي حدَّدها كانط وآخرون غيره بشكل منظم سوى بعد الحرب العالمية الثانية.

كما رأينا في الفصل الأول، طرح العديد من مفكِّري التنوير فكرة التجارة الناعمة التي تفيد بأنَّ التجارة الدولية ستجعل الحرب أقل جاذبيةً، وارتفعت بالتأكيد حصة التجارة من الناتج المحلي الإجمالي ارتفاعًا هائلًا في حقبة ما بعد الحروب، وأكَّدت التحليلات الكمية أنَّ احتمالية خوض الدول التجارية حروبًا أقل من غيرها مع ثبات كل العوامل الأخرى.

من بنات أفكار التنوير الأخرى النظرية القائلة بأنَّ الحكومة الديمقراطية تكبح القادة الذين يُسكرهم المجد والذين قد يجرُّون بلدانهم إلى حروبٍ عقيمة. بدءًا من سبعينيات القرن الماضي، وبعد انهيار جدار برلين عام 1989، بدأت دولٌ أكثر تمنح الديمقراطية فرصةً (الفصل الرابع عشر). رغم أنَّ التصريح القاطع بأنَّه لم يحدث أن حاربت دولتان ديمقراطيتان بعضهما بعضًا أمر مشكوك فيه، إلَّا أنَّ البيانات تؤيد تحقق نسخة تدريجية من نظرية السلام الديمقراطي، التي تقل فيها احتمالية أن تواجه دولتان تتمتعان بديمقراطية أكبر بعضهما بعضًا في نزاعات عسكرية.

وسهَّلت بعض الواقعية السياسية من عملية «السلام الطويل». جعلت قوة الجيش الأمريكي والجيش السوفييتي الهائلة المدمرة (حتى دون أسلحتهما النووية) أطراف الحرب الباردة من القوى العظمي يترددون في مواجهة بعضهم بعضًا في أرض المعركة، وهو ما لم يفعلوه قط، مما فاجأ العالم وأراحه أيضًا.

ومع ذلك فإنَّ أكبر تغيير في النظام الدولي هو فكرة لا نقدِّرها بما يكفي اليوم، وهي أنَّ الحرب غير قانونية، إذ لم يكُن هذا هو الوضع في الجزء الأغلب من تاريخنا، حيث كان الحق مع القوي، وكانت الحرب امتدادًا للسياسة بالوسائل الأخرى، وكان المنتصر يفوز بالغنائم، وإذا شعرت إحدى الدول بأنَّ دولةً أخرى قد أخطأت في حقها، كان بإمكانها إعلان الحرب وغزو بعض من أراضيها كتعويض وتتوقع أن يعترف بقية العالم بضمِّ هذه الأراضي لها، فالسبب في أنَّ كلًّا من أريزونا وكاليفورنيا وكولورادو ونيفادا ونيو مكسيكو ويوتا

ولايات أمريكية هو أنَّ الولايات المتحدة قد غزتها واستولت عليها من المكسيك في حربٍ بسبب ديونٍ غير مسددة. لا يمكن أن يحدث هذا اليوم، فقد ألزمت دول العالم نفسها بعدم شن الحروب سوى في حالة الدفاع عن النفس أو بموافقة مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، فالدول خالدة، والحدود حقوق مكتسبة، وأي دولة تخوض حرب غزوٍ تتوقع من البقية أن يصموها بالعار لا أن يذعنوا لها.

يقول الباحثان القانونيان أونا هاثاواي وسكوت شابيرو إنَّ جزءًا كبيرًا من الفضل في فترة السلام الطويل يرجع إلى تجريم الحرب. اقترح كانط في عام 1795 فكرة ضرورة اتفاق الدول على جعل الحرب غير قانونية، وتمت الموافقة عليها لأول مرة في ميثاق باريس عام 1928، المعروف أيضًا بميثاق كيلوج برييان الذي تعرض للكثير من السخرية، ولكنَّها لم تصبح نافذة حقًّا سوى مع تأسيس الأمم المتحدة في عام 1945، ومنذ ذلك الحين تم فرض حظر الغزو باستجابةٍ عسكرية، كما حدث عندما عكس التحالف الدولي غزو العراق للكويت في عام 1990–1991. كان هذا الحظر في حالاتٍ أكثر معيارًا –«الحرب شيء لا تقوم به الدول المتحضرة»– مدعومًا بالعقوبات الاقتصادية والرمزية، وهذه العقوبات فعَّالة إلى الحد الذي يجعل الدول تقدِّر مكانتها في المجتمع الدولي، وهذه تذكرة بضرورة الاعتزاز بذلك المجتمع ودعمه في مواجهة التهديدات الحالية من القومية الشعبوية.

تعرَّض هذا المعيار بالطبع للخرق أحيانًا، وآخرها في عام 2014 عندما ضمَّت روسيا القرم، قد يبدو أنَّ هذا يؤكد النظرة التشاؤمية بأنَّ المعايير الدولية ليس لها أنياب وستتعرض للخرق مع الإفلات من العقاب حتى تكون لدينا حكومة عالمية. يرد كلٌّ من هاثاواي وشابيرو بأنَّ القوانين المفروضة داخل الدول تتعرض للخرق أيضًا، من مخالفات وقوف السيارات إلى جرائم القتل، ومع ذلك فإنَّ حكم القانون النافذ على نحوٍ غير مثالي أفضل من عدم وجود قانون على الإطلاق. شهد القرن السابق على ميثاق باريس للسلام وفق حساباتهم ما يعادل إحدى عشرة حالة ضم بحجم القرم سنويًّا، واستمرت أغلبها، ولكنّ كل فدان من الأرض تعرض للغزو بعد عام 1928 تمت إعادته إلى الدولة التي فقدته. ربما يكون فرانك كيلوج (وزير الخارجية الأمريكي) وأرتيستيد برييان (وزير الخارجية الفرنسي) هما من يضحكان أخيرًا.

يشير كلٌّ من هاثاواي وشابيرو إلى أنَّ هناك جانبًا سلبيًّا لتجريم الحرب بين الدول، فعندما أخلت الإمبراطوريات الأوروبية المناطق المستعمرة التي غزتها، خلَّفت وراءها دولًا ضعيفة ذات حدود مبهمة ودون خليفة معترف به ليحكمها، فسقطت هذه الدول غالبًا في حفرة الحرب الأهلية والعنف الطائفي. في ظل النظام الدولي الجديد، لم يعُد غزو هذه الدول هدفًا مشروعًا للدول الأقوى والأكثر فاعلية، وظلَّت معلَّقة سنواتٍ أو عقودًا في حالة شبه فوضوية.

كان تراجع الحروب بين الدول مثالًا رائعًا على التقدم، فالحروب الأهلية تقتل عددًا أقل من الناس مما تفعل الحروب بين الدول، وقد تراجعت أيضًا الحروب الأهلية منذ أواخر الثمانينيات. عندما انتهت الحرب الباردة، أصبحت القوى العظيمة أقل اهتمامًا بمن يفوز بحربٍ أهليةٍ ما وأكثر اهتمامًا بكيفية إنهائها، ودعمت قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة والجماعات الدولية الأخرى التي أقحمت نفسها بين أطراف الصراعات وحفظت السلام بالفعل في أكثر الحالات. كلما ازداد غنى الدول، أصبحت أقل قابلية للانخراط في حربٍ أهلية، إذ تستطيع حكوماتها تحمل تكاليف تقديم خدمات مثل الرعاية الصحية والتعليم وحفظ الأمن والنظام العام، وبالتالي تتغلب على المتمردين في المنافسة على ولاء مواطنيها، وتستطيع استعادة السيطرة على المناطق الحدودية التي يستولي عليها أمراء الحروب والمافيا والعصابات المسلحة (ويكونون غالبًا نفس المجموعة). وبما أنَّ كثيرًا من الحروب تندلع بفعل الخوف المتبادل من أنَّ الدولة إذا لم تهاجم هجمات وقائية ستُهلكها هجمةٌ وقائية من دولة أخرى (وهو سيناريو في نظرية الألعاب يُطلق عليه معضلة الأمن أو فخ هوبز)، فإنَّ

إحلال السلام في منطقةٍ ما أيًّا يكن سببه الأول قد يكون مقويًا لها. (أمَّا الحرب فقد تكون معدية). يساعد هذا في تفسير انكماش جغرافيا الحرب بتعايش معظم مناطق الكرة الأرضية في سلامٍ.

مع وجود الأفكار والسياسات التي تقلِّل من حدوث الحروب، حدث تغيير في القيم أيضًا، إنَّ قوى التهدئة التي رأيناها حتى الآن هي تكنولوجية نوعًا ما، وهي وسائل يمكنها ترجيح كفة السلام إذا كان هذا هو السلام الذي يريده الناس. أصبحت فكرة قيمة السلام الأصيلة من طبيعة الغربيين، على الأقل منذ الستينيات التي اتسمت بالأغاني الفولكلورية ومهرجان وودستوك، وعندما تم شن تدخلات عسكرية كان التبرير أنَّها إجراءات مؤسفة ولكنَّها ضرورية لمنع نشوب عنفٍ أكبر. ولكن حتى وقتٍ ليس بالبعيد، كانت الحرب هي التي تُعتبر ذات قيمة كبيرة، فالحرب مجيدة ومؤثرة وروحانية ورجولية ونبيلة وبطولية وإيثارية، وهي مطهرٌ من خنوثة المجتمع البرجوازي المنحط وأنانيته واستهلاكيته وانغماسه في اللذات.

تذهلنا اليوم فكرة نُبل قتل الناس وتشويههم وبتر أطرافهم وتدمير طرقهم وجسورهم ومزارعهم ومساكنهم ومدارسهم ومستشفياتهم وكأنَّها هذيان رجل مجنون، ولكنَّ هذا كله كان منطقيًّا خلال القرن التاسع عشر في حقبة الفكر المضاد للتنوير، إذ ازداد رواج النزعة العسكرية الرومانسية، ليس فقط بين الضباط المرتدين قبعات البيكلهاوبه العسكرية، وإنَّما بين كثيرٍ من الفنانين والمثقفين أيضًا. كتب ألكسيس دو توكفيل أنَّ الحرب «تكبِّر عقول الشعب وتحسِّن شخصيته»، وقال إميل زولا إنَّ الحرب هي «الحياة نفسها»، وكتب جون راسكن أنَّها: «أساس كل الفنون والفضائل الرفيعة وملكات البشر».

كانت النزعة العسكرية الرومانسية تندمج أحيانًا مع النزعة القومية الرومانسية، التي تمجِّد لغة مجموعة إثنية ما –وحدة الدم والأرض– وثقافتها وموطنها وتركيبها العرقي، وتؤمن بأنَّ الأمة لن تستطيع تحقيق غايتها سوى عندما تكون دولة سيادية طاهرة عرقيًّا، وتستمد قوتها من التصور الملتبس بأنَّ الصراع العنيف هو قوة الحياة الطبيعية (فالطبيعة حمراء الأنياب والمخالب) ومحرك التقدم البشري. (يختلف هذا عن الفكرة التنويرية القائلة إنَّ محرك التقدم البشري هو حل المشاكل). ينسجم إضفاء قيمة على الصراع مع نظرية فريدريش هيجل عن الجدل (الديالكتيك) التي تؤدي فيها قوى التاريخ إلى دولة قومية متفوقة، فكتب هيجل أنَّ الحروب ضرورية «لأنَّها تنقذ الدولة من التحجر والركود». طبَّق ماركس هذه الفكرة على الأنظمة الاقتصادية وتنبأ بأنَّ تعاقب الصراعات العنيفة بين الطبقات سيبلغ ذروته ليحقق في النهاية يوتوبيا شيوعية.

ولكن ربما كان أكبر محفز للنزعة العسكرية الرومانسية هو الانحدارية، أو اشمئزاز المثقفين من فكرة تمتع الأفراد العاديين بحياتهم في سلامٍ ورخاء. تعمَّق التشاؤم الثقافي في ألمانيا بفعل تأثير شوبنهاور ونيتشه وياكوب بوركهارت وجيورج سيمل وأوسفالد شبينجلر، وهو مؤلف كتاب *The Decline of the West* الذي نُشر منه جزآن بين عامي 1918 و1923. (سنعود إلى هذه الأفكار في الفصل الثالث والعشرين). حتى يومنا هذا، ما زال مؤرخو الحرب العالمية الأولى يحتارون في سبب اختيار إنجلترا وألمانيا، وهما دولتان لديهما كثير من السمات المشتركة –فهما غربيتان ومسيحيتان وصناعيتان وموسرتان–، أن يقوما بمذبحة عقيمة. الأسباب عديدة ومتشابكة، ولكنَّها تشمل بدرجةٍ ما الأيديولوجيا، فالألمان قبل الحرب العالمية الأولى «كانوا يرون أنفسهم خارج الحضارة الأوروبية أو الغربية» كما أشار آرثر هيرمان، وبصورةٍ خاصة، كانوا يظنون أنَّهم يقاومون ببسالةٍ زحف الثقافة الليبرالية الديمقراطية التجارية التي قوَّضت حيوية

الغرب منذ عصر التنوير، باشتراك بريطانيا والولايات المتحدة. ظنَّ كثيرون أنَّه لا يمكن أن ينشأ نظام بطولي جديد سوى على أنقاض كارثة مخلِّصة، وتحققت أمنيتهم في هذه الكارثة، ولكن بعد كارثة ثانية أكثر ترويعًا، استنزفت الحرب أخيرًا الرومانسية، وأصبح السلام هو الهدف المعلن لكل المؤسسات الغربية والدولية، وأصبحت حياة الإنسان أثمن، في حين انخفضت قيمة المجد والشرف والتفوق والرجولة والبطولة والأعراض الأخرى لفائض التستوستيرون.

يرفض كثيرٌ من الناس أن يصدقوا أنَّ التقدم نحو السلام ممكن، حتى وإن كان غير منتظم، ويصرون على أنَّ الطبيعة البشرية تتضمن دافعًا شرهًا للغزو. (وليست الطبيعة البشرية فحسب، بل يُسقط بعض المفسِّرين هوس ذكور الإنسان العاقل على كل أشكال الذكاء، ويحذِّروننا قائلين إنَّ علينا عدم البحث عن حياة خارج كوكب الأرض إلا إذا اكتشف وجودنا عرقٌ متطور من الكائنات الفضائية وجاء ليحاول إخضاعنا). رغم أنَّ رؤية السلام العالمي ربما تكون قد جعلت جون لينون وزوجته يوكو يقدمان بعض الأغاني الجيدة، ولكنَّها رؤية شديدة السذاجة في العالم الواقعي.

في الواقع، ربما تكون الحرب مجرد عقبة أخرى يتعلم الجنس المستنير التغلب عليها مثل الطاعون والجوع والفقر. رغم أنَّ الغزو قد يكون مغريًا على المدى القريب، إلَّا أنَّه من الأفضل في النهاية اكتشاف كيفية الحصول على ما تريد دون دفع تكلفة الصراع المدمِّر والكوارث المتضمنة في حياة السلاح، أي أنَّك إذا كنت تشكل تهديدًا للآخرين فقد قدمت لهم حافزًا ليدمرونك أولًا. أمَّا على المدى البعيد، فالعالم الذي تحجم فيه جميع الأطراف عن الحرب يكون عالمًا أفضل للجميع، والاختراعات مثل التجارة والديمقراطية والتنمية الاقتصادية وقوات حفظ السلام والمعايير الدولية والقانون الدولي أدواتٌ تساعد في بناء ذلك العالم.

الفصل الثاني عشر:
الأمان والسلامة

إنَّ الجسم البشري هشٌّ، فحتى عندما يحافظ الناس على تغذية جسمهم وأدائه وظائفه وخلوه من مسببات الأمراض، فإنهم يظلون عرضةً لآلاف العلل والأسقام التي تنتاب الجسم. كان أسلافنا فريسة سهلة للكائنات المفترسة مثل التماسيح والقطط الكبيرة، فكان سم الثعابين والعناكب والحشرات والحلزونات والضفادع يقضي عليهم. وكانوا عالقين في معضلة القوارت (آكلي اللحوم والنباتات)، إذ يمكن أن يصابوا بالتسمم بسبب المواد السامة في نظامهم الغذائي الواسع الذي يشمل الأسماك والبقوليات والجذور والبذور والفطر. وعندما كانوا يغامرون بتسلق الأشجار بحثًا عن الفاكهة والعسل، كانت أجسامهم تنصاع لقانون نيوتن الخاص بالجاذبية فكانوا عرضة للتسارع باتجاه الأرض بمعدل 9.8 مترًا في الثانية المربعة. وإذا خاضوا البحيرات والأنهار وتعمقوا فيها، يقطع عنهم الماء إمدادهم من الهواء، وكانوا يلعبون بالنار والتي كانت تحرقهم أحيانًا. ويمكن أن يكونوا ضحايا سوء النية المبيتة، فأي تكنولوجيا قد تودي بحياة حيوان يمكنها أن تودي أيضًا بحياة إنسانٍ غريم.

لا يؤكل اليوم سوى قلة من البشر، ولكنّ عشرات الآلاف كل عام يموتون جراء لدغات الثعابين، وتقتل منَّا الكوارث أعدادًا كبيرة. الحوادث هي رابع أكبر سبب للوفاة في الولايات المتحدة بعد مرض القلب والسرطان وأمراض الجهاز التنفسي، وإصاباتها مسؤولة عن حوالي ثُلث الوفيات في العالم، وهو ما يتجاوز عدد ضحايا الإيدز والملاريا والسل مجتمعين، وهي مسؤولة عن 11 في المئة من السنوات التي يفقدها الإنسان بسبب الوفاة أو الإعاقة. وللعنف الشخصي أيضًا أثر كبير، فهو من بين أكبر خمس كوارث تصيب الشباب في الولايات المتحدة وتصيب أي شخص في أمريكا اللاتينية وأفريقيا جنوب الصحراء.

فكر الناس طويلًا في أسباب الخطر وكيف يمكن الوقاية منها. ربما تُعد أكثر اللحظات حماسًا في الشعائر الدينية اليهودية هي الصلاة التي تُتلى أمام تابوت التوراة المقدس خلال أيام التوبة العشرة:

> في رأس السنة يتم كتابته وفي عيد الغفران يتم ختمه: من يعيش ومن يموت، من يموت في أوانه ومن يموت قبل أوانه، من يموت بالماء ومن يموت بالنار، من بالسيف ومن بالوحش، من بالجوع ومن باللهاث، من بالزلزال ومن بالعدوى، من بالخنق ومن بالرجم.. ولكن التوبة والصلاة والزكاة تزيل الحكم القاسي.

لحسن الحظ، تجاوزت معرفتنا بكيفية حدوث الإصابات المميتة الكتابات الإلهية، وأصبح بالإمكان الاعتماد على وسائلنا في الوقاية منها أكثر من التوبة والصلاة والزكاة. استطاعت البراعة البشرية هزيمة الأخطار الكبرى على الحياة، بما فيها المذكورة في تلك الصلاة، ونحن نعيش الآن أكثر العصور أمانًا في التاريخ.

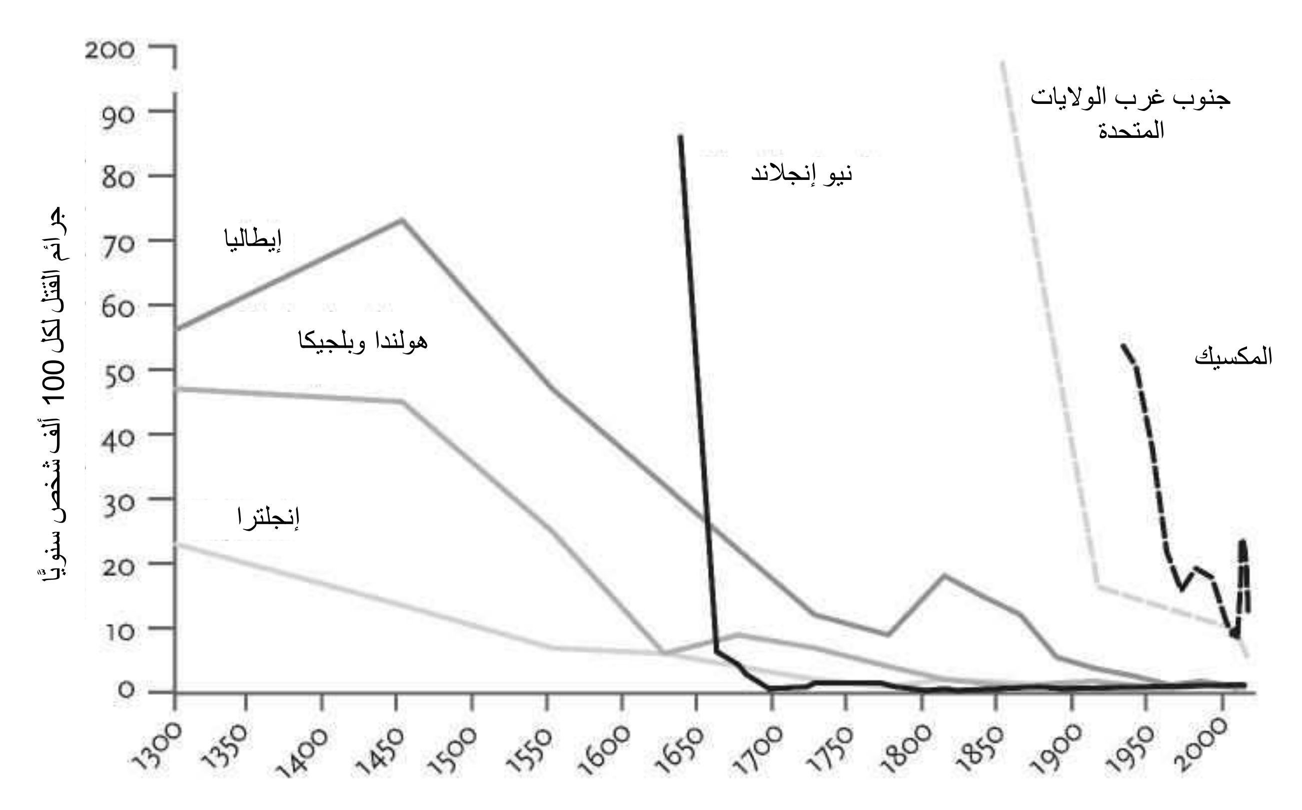
رأينا في الفصول السابقة كيف تحاول الانحيازات المعرفية والأخلاقية أن تلعن الحاضر وتبرئ الماضي، وسنرى في هذا الفصل طريقة أخرى تخفي بها هذه الانحيازات تقدمنا. رغم أنَّ الإصابات القاتلة مصيبة كبرى تصيب حياة البشر، إلَّا أنَّ خفض أعدادها ليس قضية جذابة، فلم يفُز مبتكر حواجز الطرق السريعة بجائزة نوبل، ولا يحصل مصممو النشرات الأوضح للأدوية الموصوفة على جوائز إنسانية،

ومع ذلك فإنَّ البشرية قد انتفعت كثيرًا من الجهود التي لا يتغنى بها أحدٌ والتي خفَّضت أعداد الوفيات الناتجة عن كل نوعٍ من أنواع الإصابات.

من يموت بالسيف: لنبدأ بفئة الإصابات الأصعب من حيث الحد منها لأنَّها ليست عارضة بالضبط، وهي القتل. فباستثناء الحروب العالمية، يكون أعداد ضحايا جرائم القتل أكثر من ضحايا الحروب، وكانت النسبة حوالي 4.5 إلى 1 في عام 2015 المشوّه بالمعارك، ولكنها تكون عادةً 10 إلى 1 أو أكثر. كانت جرائم القتل خطرًا أكبر يهدد الحياة في الماضي، ففي أوروبا في القرون الوسطى كان السادة (اللوردات) يذبحون عبيد خصومهم، والأرستقراطيون وحاشيتهم يحاربون بعضهم بعضًا في مبارزاتٍ، وكان قطاع الطرق واللصوص يقتلون ضحايا سرقاتهم، وكان الأشخاص العاديون يطعنون بعضهم بعضًا ردًّا على الإهانة على مائدة العشاء على سبيل المثال.

ولكن في تطور تاريخي كاسح أطلق عليه عالم الاجتماع الألماني نوربرت إلياس (Norbert Elias) «عملية نشر الحضارة»، بدأ الأوروبيون الغربيون في القرن الرابع عشر يحلون نزاعاتهم بطرقٍ أقل عنفًا. أرجع إلياس هذا التغيير إلى نشأة الممالك المركزية من البارونيات والدوقيات الكثيرة في القرون الوسطى، فهدأ التناحر وقَطْعُ الطرق والحروب بسبب حماية الملك. ثم أصبحت أنظمة العدالة الجنائية أكثر احترافيةً في القرن التاسع عشر مع إرساء قوات الشرطة البلدية ونظام محاكم أكثر تداولية. على مر تلك القرون، طورت أوروبا أيضًا بنيةً تحتية للتجارة، مادية على هيئة مركبات وطرق أفضل، ومالية على هيئة عملة وعقود. انتشرت التجارة الناعمة واستسلمت عمليات نهب الأراضي التي كانت نتائجها صفرية أمام عمليات مبادلة السلع والخدمات وهي ذات نتائج إيجابية. أصبح الناس منخرطين في شبكات من الالتزامات التجارية والمهنية المنصوص عليها في القواعد القانونية والبيروقراطية، وتحولت معاييرهم للسلوكيات اليومية من ثقافة الشرف الذكورية التي كان يجب فيها الرد على الإهانات بالعنف، إلى ثقافة الكرامة النبيلة التي يفوز فيها المرء بالمكانة من خلال مظاهر اللياقة وضبط النفس.

جمع الباحث في علم الجريمة التاريخي مانويل أيزنر (Manuel Eisner) مجموعة من البيانات عن جرائم القتل في أوروبا، وأضافت هذه البيانات أرقامًا لما توصل إليه إلياس ونشره عام 1939. (إنَّ معدلات جرائم القتل هي أكثر المؤشرات موثوقية على جرائم العنف في أزمنة مختلفة وأماكن مختلفة لأنَّه من الصعب تجاهل الجثث، وترتبط معدلات جرائم القتل بمعدلات جرائم العنف الأخرى مثل السرقة والاعتداء والاغتصاب). يقول أيزنر إنَّ نظرية إلياس كانت صائبة، وليس في أوروبا فقط، فعندما تُخضِع حكومةٌ ما منطقةً حدودية لحكم القانون ويندمج سكانها في مجتمعٍ تجاري، تنخفض معدلات العنف. أوضِّح في الشكل رقم 12–1 بيانات أيزنر الخاصة بإنجلترا وهولندا وإيطاليا، وتحديثات لها وصولًا إلى عام 2012، وكذلك المنحنيات الخاصة بالدول الأوروبية الغربية الأخرى. أضفت مناطق من الأمريكتين، وهي التي سيطر عليها القانون والنظام لاحقًا، وهي نيو إنجلاند في زمن الاستعمار، وتلتها منطقة في «الغرب المتوحش»، وتلتها المكسيك التي تشتهر اليوم بعنفها ولكنَّها كانت تتسم بعنفٍ أكبر كثيرًا في الماضي.



الشكل رقم 12- 1: معدل الوفيات نتيجة جرائم القتل، في أوروبا الغربية والولايات المتحدة والمكسيك، منذ 1300 حتى 2015

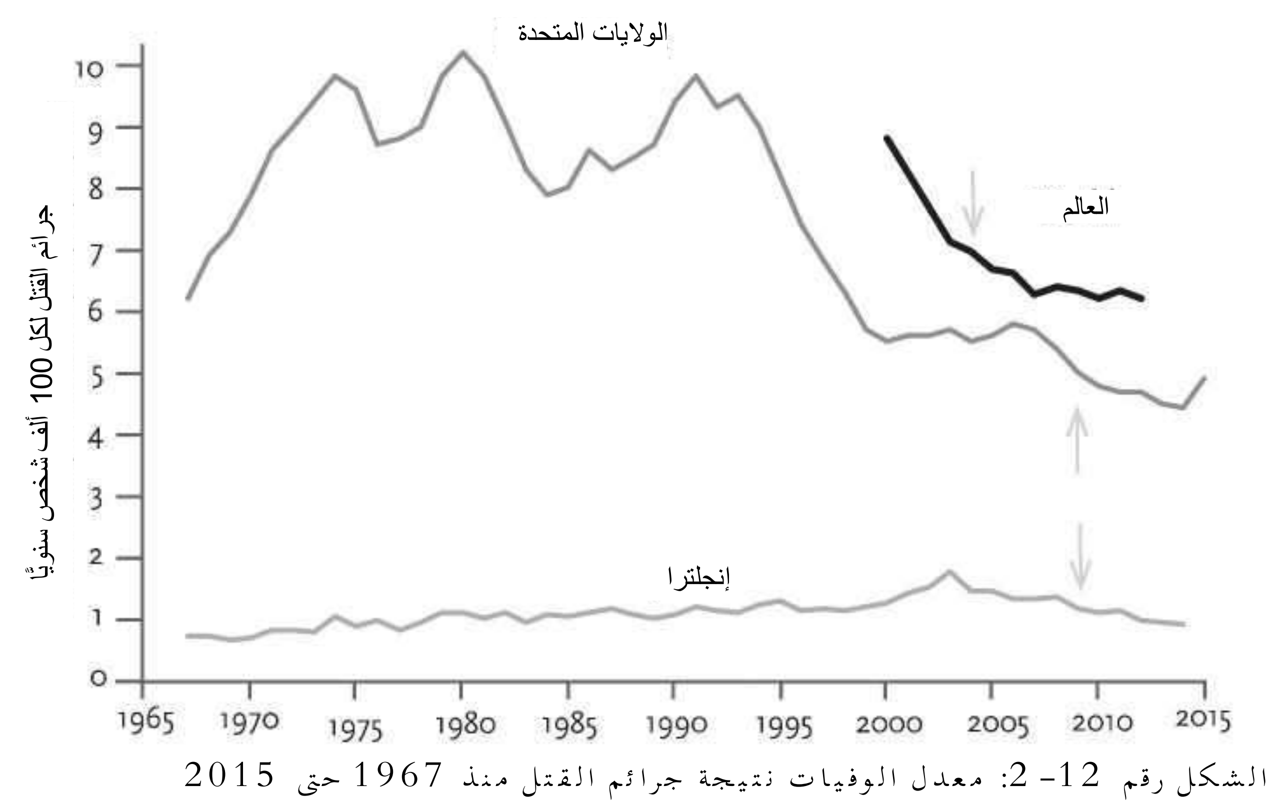
المصادر: إنجلترا وهولندا وبلجيكا وإيطاليا، 1300–1994: Eisner 2003، موضحة في الشكل رقم 3–3 من Pinker 2011. إنجلترا، 2000–2014: مكتب المملكة المتحدة للإحصاءات الوطنية. إيطاليا وهولندا، 2010–2012: مكتب الأمم المتحدة المعني بالمخدرات والجريمة 2014. نيو إنجلاند (نيو إنجلاند، البيض فقط، 1636–1790، وفيرمونت ونيو هامبشير 1780–1890): Roth 2009، موضحة في الشكل رقم 3–13 من Pinker 2011. جنوب غرب الولايات المتحدة (أريزونا ونيفادا ونيو مكسيكو)، 1850 و1914: Roth 2009، موضحة في الشكل رقم 3–16 من Pinker 2011، وبيانات 2006 و2014 من تقارير مكتب التحقيقات الفيدرالي الموحدة عن الجرائم. المكسيك: كارلوس فيلالتا (Carlos Vilalta)، عن طريق التواصل الشخصي، من المعهد الوطني للإحصاء والجغرافيا 2016 ودراسة Botello 2016، وحُسب متوسط هذه البيانات على العقود حتى عام 2010.

عندما طرحت مفهوم التقدم، ذكرت أنَّ أي اتجاه تقدمي ليس حتميًّا والجرائم العنيفة مثال على ذلك، فبدءًا من الستينيات، شهدت معظم الديموقراطيات الغربية انتشارًا للعنف الشخصي محا قرناً كاملًا من التقدم. كان الوضع أكثر مأساويةً في الولايات المتحدة، حيث ارتفع معدل جرائم القتل بضعفين ونصف، وحيث انقلبت الحياة السياسية والحضرية بفعل الخوف واسع الانتشار (والمبرر بقدرٍ جزئي) من الجريمة. ولكنَّ انعكاس التقدم يقدّم لنا دروسًا في طبيعة التقدم.

خلال العقود التي ارتفعت فيها معدلات الجريمة، قال أغلب الخبراء إنَّه لا يوجد ما يمكن فعله لوقف الجرائم العنيفة، وقالوا إنَّها جزء من نسيج المجتمع الأمريكي العنيف ولا يمكن السيطرة عليها دون حل الأسباب الجذرية وهي العنصرية والفقر وانعدام المساواة. يمكن أن نطلق على هذا النوع من التشاؤم التاريخي «الميل إلى الأسباب الجذرية» وهو الفكرة ذات العمق المزيف التي تقول إنَّ كل داء اجتماعي

عبارة عن عرضٍ لمرضٍ أخلاقي عميق ولا يمكن تخفيفه بالعلاج المبسط الذي يعجز عن شفاء العلة الجوهرية. ليست مشكلة الميل إلى الأسباب الجذرية أنَّ مشكلات العالم الفعلي بسيطة، بل العكس تمامًا، فهي أكثر تعقيدًا مما توحي به نظرية الأسباب الجذرية العادية، وخاصةً عندما تكون هذه النظرية مستندة إلى الوعظ الأخلاقي وليس إلى البيانات، وهي معقدة للغاية في الواقع إلى الدرجة التي تجعل علاج الأعراض أفضل طريقة للتعامل مع المشكلة، لأنَّه لا يتطلب الإحاطة الشاملة بالأسباب الفعلية المتشابكة. وبمعرفة ما الذي يخفف من الأعراض بالفعل، يستطيع المرء اختبار فرضياته عن الأسباب بدلًا من افتراض صحتها.

في حالة انفجار الجريمة في الستينيات، كانت حتى الحقائق الماثلة أمامنا تُبطل نظرية الأسباب الجذرية، إذ كان هذا هو عقد الحقوق المدنية، وكانت العنصرية في تراجعٍ حاد (الفصل الخامس عشر)، وكان عقد الازدهار الاقتصادي الذي كانت مستويات انعدام المساواة والبطالة هي تلك التي نحنُّ إليها الآن. أما الثلاثينيات، فكان على العكس عقد الكساد العظيم وقوانين جيم كرو* والإعدام شهريًّا دون محاكمة، ومع ذلك انخفض كثيرًا المعدل الإجمالي لجرائم العنف. تسببت التنمية التي فاجأت الجميع في اقتلاع نظرية الأسباب الجذرية حقًّا، فبدءًا من عام 1922، تسارع انخفاض معدل جرائم القتل في أمريكا خلال حقبة ازدادت فيها معدلات انعدام المساواة زيادةً شديدة، ثم انخفضت ثانيةً خلال الكساد الكبير الذي بدأ عام 2007 (الشكل رقم 12-2)، وشهدت إنجلترا وكندا ومعظم الدول الصناعية الأخرى أيضًا انخفاض معدلات جرائم القتل خلال العقدين الماضيين. (وعلى النقيض، انخفضت معدلات انعدام المساواة في فنزويلا خلال حكم نظام تشافيز ومادورو في حين ارتفعت معدلات جرائم القتل ارتفاعًا كبيرًا). رغم عدم وجود أرقام خاصة بالعالم بأكمله سوى تلك الخاصة بهذه الألفية، ورغم أنَّها تشمل تقديرات تخمينية للدول الخالية من البيانات، إلَّا أنَّه يبدو أنَّ هناك اتجاهًا هابطًا أيضًا من 8.8 جريمة قتل لكل 100 ألف شخص في عام 2000 إلى 6.2 في 2012، يعني هذا أنَّ هناك 180 ألف شخصٍ يسيرون اليوم على أقدامهم ولكنَّهم كانوا سيُقتلون خلال العام الماضي لو كان معدل جرائم القتل العالمي قد ظل في مستواه منذ 12 عامًا.



الشكل رقم 12- 2: معدل الوفيات نتيجة جرائم القتل منذ 1967 حتى 2015

المصادر: الولايات المتحدة: *FBI Uniform Crime Reports* (تقارير مكتب التحقيقات الفيدرالي الموحدة عن الجرائم)، https://ucr.fbi.gov/، وFederal Bureau of Investigation 2016a. إنجلترا (البيانات تشمل ويلز): Office for National Statistics (مكتب الإحصاءات الوطنية) 2017. العالم، 2000: Krug et al. 2002. العالم، 2003-2011: United Nations Economic and Social Council 2014, fig. 1، تم تحويل النسب المئوية إلى معدلات جرائم القتل عبر تحديد معدل 2012 بـ 6.2، وهو المعدل التقديري المذكور في United Nations Office on Drugs and Crime 2014, p. 12. يشير السهم إلى أحدث السنوات المشار إليها في Pinker 2011 فيما يخص العالم (2004، الشكل رقم 3-9) والولايات المتحدة (2009، الشكل رقم 3-8) وإنجلترا (2009، الشكل رقم 3-19).

إنَّ جرائم العنف مشكلة قابلة للحل، ربما لا نستطيع خفض معدل جرائم القتل في العالم إلى مستويات الكويت (0.4 لكل 100 ألف شخص سنويًّا) أو أيسلندا (0.3) أو سنغافورة (0.2)، فما بالك بالصفر! ولكن في عام 2014، اقترح أيزنر، بالتشاور مع منظمة الصحة العالمية، هدفًا هو خفض معدل جرائم القتل العالمية بمقدار 50 في المئة خلال ثلاثين عامًا، وليس هذا الطموح يوتوبيًّا وإنما هو عملي، استنادًا إلى حقيقتين عن إحصاءات جرائم القتل.

الحقيقة الأولى هي أنَّ توزيع جرائم القتل غير متماثل تمامًا على كل المستويات، فمعدلات جرائم القتل في أخطر الدول يبلغ مئات أضعافه في الدول الأكثر أمانًا، إذ يبلغ على سبيل المثال في هندوراس (90.4 جريمة قتل لكل 100 ألف شخص) وفي فنزويلا (53.7) والسلفادور (41.2) وجامايكا (39.3) وليسوتو (38) وجنوب أفريقيا (31). تُرتكب نصف جرائم القتل في العالم في ثلاثة وعشرين دولة فقط تحتوي على عُشر البشر تقريبًا، ويُرتكب رُبعها في أربعة دول فقط، وهي: البرازيل (25.2) وكولومبيا (25.9) والمكسيك (12.9) وفنزويلا. (تختلف منطقتي القتل في العالم -شمال أمريكا اللاتينية وجنوب منطقة أفريقيا جنوب الصحراء- عن مناطق الحروب

التي تمتد من نيجيريا مرورًا بالشرق الأوسط حتى باكستان). يواصل هذا الميل هبوطه على مقياس الكسور. تتركز معظم جرائم القتل داخل الدولة في بضع مدن مثل كاراكاس في فنزويلا (120 لكل 100 ألف) وسان بيدرو سولا في هندوراس (187)، وتتركز معظم جرائم القتل داخل المدينة في بضعة أحياء، وتتركز داخل الأحياء في بضعة مساكن، وداخل المساكن ينفذ العديد من جرائم القتل بضعة أفراد. في مدينتي بوسطن، تحدث 70 في المئة من حوادث إطلاق النيران في 5 في المئة من المدينة، ويرتكب نصف هذه الحوادث واحد في المئة من الشباب.

تتضح الحقيقة الأخرى الملهمة لهدف 50 خلال 30 من الشكل رقم 12-2، وهي أنَّ معدلات جرائم القتل المرتفعة يمكن خفضها سريعًا، إذ شهدت الولايات المتحدة، وهي الديمقراطية الموسرة صاحبة أكثر جرائم قتل، انخفاضًا كبيرًا في معدل جرائم القتل بمقدار النصف تقريبًا خلال تسع سنوات، وكان انخفاض المعدل في مدينة نيويورك خلال ذلك الوقت أكثر حدةً، فبلغت نسبته حوالي 75 في المئة. تمتعت الدول التي ما زالت تشتهر بالعنف بانخفاضٍ حادٍّ أيضًا، بما فيها روسيا (من 19 لكل 100 ألف في عام 2004 إلى 9.2 في 2012) وجنوب أفريقيا (من 60 في 1995 إلى 31 في 2012) وكولومبيا (من 79.3 في 1991 إلى 25.9 في 2015). وشهدت سبعة وستون دولة من بين الثمانية وثمانين ذات البيانات الموثوقة، انخفاضًا خلال الخمسة عشر عامًا الماضية. أمَّا الدول تعيسة الحظ (وأغلبها في أمريكا اللاتينية) فقد أصابتها زيادة مريعة، ولكن حتى في هذه الدول فإن قادة المدن والأقاليم عندما يعتزمون خفض معدل إراقة الدماء، فإنهم ينجحون غالبًا في ذلك. يوضِّح الشكل رقم 12-1 أنَّ المكسيك بعد أن عانت انعكاسًا من 2007 إلى 2011 (يُعزى بالكامل إلى الجريمة المنظمة) تمتَّعت بانعكاس الانعكاس بحلول عام 2014 وشمل انخفاضًا بنسبة 90 في المئة تقريبًا من عام 2010 إلى 2012 في مدينة خواريز الشهيرة. وشهدت بوجوتا وميديلين (كولومبيا) انخفاضًا بمقدار أربعة أخماس خلال عقدين، وشهدت ساو باولو والأحياء العشوائية في ريو دي جانيرو (البرازيل) انخفاضًا بمقدار الثلثين. حتى عاصمة القتل في العالم، سان بيدرو سولا، شهدت انخفاضًا هائلًا في معدلات جرائم القتل بنسبة 62 في المئة خلال عامين فقط.

والآن اجمع هذا التوزيع المجنون لجرائم العنف والاحتمالية المؤكدة لخفض معدلات جرائم العنف المرتفعة سريعًا، ستجد أنَّ المعادلة واضحة جدًّا، فالانخفاض بنسبة 50 في المئة خلال ثلاثين عامًا ليس مجرد هدفٍ عمليٍّ، بل إنَّه متحفظ قليلًا، وليست هذه خدعة إحصائية. تكمُن القيمة الأخلاقية للقياس الكمي في أنَّه يعامل حياة كل البشر كأنها ذات قيمة متساوية، وهكذا فإنَّ الإجراءات التي تمنع أكبر عدد من جرائم القتل تمنع أكبر قدرٍ ممكن من المآسي البشرية.

يشير هذا الانحراف المائل لجرائم العنف أيضًا بسهمٍ أحمر لامع إلى أفضل طريقةٍ للتقليل منها. لننسى الأسباب الجذرية، ونقترب من الأعراض –الأحياء والأفراد المسؤولين عن أكبر قدرٍ من العنف– وإضعاف الحوافز والفرص التي تحرِّكهم تدريجيًّا.

تبدأ هذه العملية بإنفاذ القانون، فمناطق الفوضى تتسم دائمًا بالعنف كما قال توماس هوبز (Thomas Hobbes) في **عصر العقل** (Age of Reason). ليس هذا بسبب رغبة الجميع في افتراس غيرهم، ولكن لأنَّ التهديد بالعنف في غياب الحكومة قد يؤدي إلى تضخم الذات. لذا فحتى إذا اندس بعض المفترسين المحتملين في المنطقة أو ظهروا فجأة، فإنّ السكان يجب أن يتبنوا موقفًا عدوانيًّا لردعهم، ولا يمكن تصديق هذا الردع إلا إذا أعلنوا تصميمهم بالانتقام ردًّا على أي إهانة أو أي نهب، مهما كان الثمن. يمكن أن يؤدي «فخ هوبز» هذا كما يُطلق عليه أحيانًا إلى دوراتٍ من التناحر والثأر، إذ يجب أن تكون عنيفًا بنفس قدر خصومك على الأقل وإلا سيعاملونك كممسحة الأرجل. إنَّ الفئة الأكبر من جرائم القتل، والتي تختلف أكثر من غيرها من زمنٍ لآخر ومن مكانٍ

لآخر، تتمثل في مواجهات بين شباب لا يعرفون بعضهم بعضًا جيدًا بسبب السيطرة على المناطق أو السمعة أو الانتقام، يمكن أن يقضي طرفٌ ثالث غير متحيز يحتكر الاستخدام الشرعي للقوة –أي دولة لديها قوات شرطة وسلطة قضائية– على دورات التناحر والثأر هذه في مهدها. لا يثبِّط التهديد بالعقاب المعتدين فحسب، وإنَّما يضمن أيضًا للجميع تثبيط المعتدين، وبالتالي يريحهم من الحاجة إلى الدفاع عن النفس بالقتال.

نجد أوضح دليل على أثر إنفاذ القانون في معدلات العنف شديدة الارتفاع في الأزمنة والأماكن التي كان إنفاذ القانون فيها بدائيًا مثلما في الأطراف اليُسرى العُليا من المنحنيات في الشكل رقم 12-1. ومن الحجج المقنعة بالقدر نفسه أيضًا ما يحدث عندما تُضرِب الشرطة عن العمل، أي اندلاع عمليات النهب والاقتصاص غير القانوني، ولكنَّ معدلات الجريمة قد ترتفع ارتفاعًا كبيرًا أيضًا عندما تكون وسائل إنفاذ القانون غير فعالة، أي عندما تكون غير مناسبة أو فاسدة أو مثقلة بما يجعل الناس يعرفون أنَّ بإمكانهم خرق القانون مع الإفلات من العقاب. كان هذا أحد الأسباب التي أسهمت في انتشار الجريمة في الستينيات عندما لم يكُن بإمكان النظام القضائي مجاراة موجة جيل «طفرة المواليد» عند وصوله إلى السنوات التي كان فيها عرضة للإجرام، وأسهم أيضًا في ارتفاع معدل الجرائم في بعض المناطق في أمريكا اللاتينية اليوم. وفي المقابل، يفسِّر توسع حفظ الأمن والنظام العام والعقاب الجنائي (رغم تجاوزه حد الاعتدال فيما يخص الاحتجاز والحبس) جزءًا كبيرًا من تراجع الجريمة بقدرٍ كبير في أمريكا في التسعينيات.

فيما يلي ملخص أيزنر لكيفية خفض معدل جرائم القتل بمقدار النصف خلال ثلاثة عقود: «إنَّ حكم القانون الفعَّال، القائم على إنفاذ القانون المشروع وحماية الضحايا والتقاضي السريع والعادل والعقوبات المعتدلة والسجون التي تعامل السجناء معاملة إنسانية، ضروري للحد من العنف المميت بصورةٍ مستدامة». تُميِّز الصفات التي استخدمها مثل فعَّال ومشروع وسريع وعادل ومعتدلة وإنسانية نصيحته عن خطاب «الصرامة في مواجهة الجريمة» الذي يفضِّله ساسة الجناح اليميني. تتضح أسباب هذا فيما شرحه تشيزاري بيكاريا (Cesare Beccaria) منذ مئتين وخمسين عامًا، ففي حين أنَّ التهديد بالعقوبات الأقسى على الإطلاق رخيص ومرضٍ للعواطف، لكنَّه ليس فعَّالًا لأنَّ منتهكي القوانين يعاملون هذه العقوبات كأنها حوادث نادرة، فظيعة ولكنَّها مخاطرة مصاحبة للعمل، أمَّا العقوبات المتوقعة حتى وإن كانت أقل قسوةً فسيأخذها الناس أكثر في الحسبان عند اتخاذ الخيارات اليومية.

يبدو أنَّ شرعية النظام مهمة أيضًا إلى جانب إنفاذ القانون، لأنَّ الناس لا يحترمون السلطات الشرعية نفسها فحسب، بل يأخذون في الحسبان أيضًا إلى أي درجة سيحترمها خصومهم المحتملون حسب توقعاتهم. يشير أيزنر، إضافةً إلى المؤرخ راندولف روث (Randolph Roth)، إلى أنَّ الجريمة تزداد كثيرًا في العقود التي يتشكك الناس فيها في مجتمعهم وحكومتهم، وتشمل هذه العقود الحرب الأهلية الأمريكية، والستينيات، وحقبة ما بعد انهيار الاتحاد السوفييتي في روسيا.

تؤيد المراجعات الحديثة لما ينجح وما لا ينجح في منع الجريمة نصيحةَ أيزنر، وأخص بالذكر تحليلًا تجميعيًّا (تلويًّا) هائلًا أجراه عالما الاجتماع توماس أبت (Thomas Abt) وكريستوفر وينشيب (Christopher Winship) لـ 2300 دراسة تقيّم تقريبًا كل سياسة وخطة وبرنامج ومشروع ومبادرة وتدخل وشعوذة سياسية ووسيلة تحايل تمت تجربتها في العقود الأخيرة. واستنتجا أنَّ التكتيك الأوحد الأكثر فعالية للحد من جرائم العنف هو الردع المركَّز، يجب أولًا توجيه تركيز شديد على الأحياء التي تتفشى الجريمة أو تبدأ في الزيادة فيها، وتحديد بؤر النشاط الإجرامي بالبيانات التي يتم جمعها على الفور أولًا بأول، ويجب توجيهه أكثر على الأفراد والعصابات التي تعتدي على الضحايا أو تبحث عن عراكٍ جديد. ويجب إيصال رسالة بسيطة وملموسة عن السلوك المتوقَّع من هؤلاء الأفراد، مثل

«إذا توقفتم عن إطلاق النيران سنساعدكم، وإذا واصلتم إطلاق النيران سنزج بكم في السجن». يعتمد إيصال الرسالة ثم تطبيقها على تعاون أعضاء المجتمع الآخرين، مثل أصحاب المتاجر والوعاظ والمدربين وضباط مراقبة السلوك والأقرباء.

ومما ثبت فعاليته أيضًا العلاج السلوكي المعرفي، ليس لهذا أي علاقة بالتحليل النفسي للصراعات التي واجهها مرتكب الجريمة في طفولته، أو فتح عينيه وتثبيت جفنيه بينما يحاول التقيؤ أثناء إجباره على مشاهدة مقاطع فيديو عنيفة كما حدث في فيلم (*A Clockwork Orange*)، إنَّما هو مجموعة بروتوكولات مصممة لإلغاء عادات التفكير والسلوك التي تؤدي إلى الأفعال الإجرامية. إنَّ المشاغبين مندفعون، فهُم ينتهزون الفرص المفاجئة للسرقة أو التخريب، ويهاجمون من يعارضونهم غير مكترثين بالعواقب طويلة الأمد. يمكن مقاومة هذه الإغراءات بالعلاج الذي يعلِّم المرء استراتيجيات التحكم في النفس. لدى المشاغبين أيضًا أنماط تفكير نرجسية ومعتلة اجتماعيًّا، مثل أنَّهم دائمًا على حق، وأنَّهم يستحقون انصياع العالم لهم، وأنَّ الخلافات تُعد إهانات شخصية، وأنَّ الآخرين ليس لديهم مشاعر ولا مصالح. ورغم عدم إمكان «شفائهم» من هذه الأوهام، إلَّا أنَّه يمكن تدريبهم على إدراكها ومقاومتها. تتضخم هذه العقلية المختالة في ظل ثقافة الشرف، ويمكن تفكيكها في العلاج الذي يهدف إلى التحكم في الغضب والتدريب على المهارات الاجتماعية كجزء من تقديم الاستشارات للشباب المعرضين لهذا الخطر أو البرامج التي تهدف إلى منع العودة إلى الإجرام.

سواء تمت السيطرة على رعونة الأوغاد المحتملين أم لا، فإنهم يمكن أن يبتعدوا عن المشاكل بسبب إزالة فرص الإشباع الفوري من بيئتهم، فعندما تكون سرقة السيارات أصعب، والسطو على المنازل أصعب، وسرقة البضائع ثم بيعها أصعب، ويحمل المشاة بطاقات ائتمان بدلًا من النقود، وتكون الأزقة المظلمة مضاءة ومراقبة بالكاميرات، فإنّ المجرمين المحتملين لن يبحثوا عن منفذٍ آخر لتلبية حاجتهم الملحة للسرقة، ومن ثمّ فإنّ الإغراء سينقضي ولن تُرتكب الجريمة. من التطورات الأخرى التي حوَّلت الأحداث الجانحين إلى مواطنين ملتزمين بالقانون رغمًا عنهم السلع الاستهلاكية الرخيصة، فمن قد يجازف اليوم باقتحام شقةٍ من أجل سرقة راديو مزود بساعة؟

من أكبر العوامل المحفزة للعنف الإجرامي، إلى جانب الفوضوية والاندفاع وإتاحة الفرص، هي البضائع المهربة، فرواد الأعمال في البضائع والتسالي الممنوعة لا يمكنهم رفع دعوى قضائية عندما يشعرون أنَّهم تعرضوا للاحتيال، ولا الاتصال بالشرطة عندما يهددهم شخصٌ ما، لذا عليهم أن يحموا مصالحهم بالتهديد الحقيقي بالعنف. انتشرت جرائم العنف في الولايات المتحدة عندما حُظرت الكحول في العشرينيات وعندما شاع استخدام الكراك كوكايين في أواخر الثمانينيات، وتتفشى هذه الجرائم في دول الكاريبي وأمريكا اللاتينية التي يتم فيها اليوم تهريب الكوكايين والهيروين والماريجوانا. يظل العنف الناتج عن المخدرات مشكلة دولية قائمة، ربما سيؤدي إنهاء تجريم الماريجوانا الحالي، ومخدرات أخرى في المستقبل، إلى إخراج هذه الصناعات من عالمها السفلي المخالف للقانون. بينما لاحظ أبت ووينشيب أنَّ «مكافحة المخدرات العدوانية لا تحقق نتائج إيجابية كثيرة وتزيد من العنف بصورةٍ عامة» في حين أنَّ «المحاكم المتخصصة في قضايا المخدرات وعلاج المخدرات لها تاريخ طويل من الفعالية في حل المشكلة».

لا بد أن تطغي أي حسابات مستندة إلى أدلة على البرامج التي تبدو واعدة في مسرح الخيال، فمن المبادرات الجريئة الغائبة عن قائمة الوسائل الناجحة، إزالة العشوائيات وإعادة شراء الأسلحة وسياسات عدم التسامح والمحاكمة بالاختبارات القاسية في البرية والأحكام الإلزامية عند ارتكاب 3 جرائم، وفصول التوعية بالمخدرات بقيادة الشرطة وبرامج التقويم بالتخويف التي يُعرَّض فيها الشباب المعرضون للخطر لسجونٍ قذرة ومدانين أشرار. وربما من أكثر الأمور المخيبة لآمال أصحاب الآراء القوية دون دليلٍ الآثار الملتبسة لقوانين الأسلحة، فعلى ما يبدو، لم تُحدِث قوانين الحق في حمل السلاح التي يفضِّلها اليمين، ولا قوانين المنع والقيود التي يفضِّلها اليسار فرقًا

كبيرًا، رغم أنَّ هناك الكثير مما لا نعرفه والكثير من العوائق السياسية والعملية أمام معرفة المزيد.

عندما حاولت تفسير تراجع العنف في كتاب *The Better Angels of Our Nature* كنت واثقًا في فكرة أنَّ «حياة البشر كانت رخيصة» في الماضي ولكنَّها ازدادت قيمةً بمرور الوقت، بدت هذه الفكرة مبهمة ولا يمكن اختبار صحتها، وكانت تشبه الدائرة المفرغة تقريبًا، لذا قدمت تفسيرات أقرب لتلك الظاهرة مثل الحوكمة والتجارة. بعد إرسال أصل الكتاب، مررتُ بتجربةٍ غيرت رأيي، أردت أن أكافئ نفسي على الانتهاء من هذا المشروع الضخم، فقررت أن أستبدل سيارتي القديمة الصدئة، ومن أجل البحث عن سيارة أخرى اشتريت أحدث عدد من مجلة **السيارة والسائق** *(Car and Driver)*، كانت افتتاحية العدد مقالًا بعنوان «السلامة بالأرقام: انخفاض الوفيات نتيجة الحوادث المرورية انخفاضًا غير مسبوق» وكان هذا موضحًا برسمٍ بياني مألوف للغاية، فكان الزمن على محور السينات ومعدل الوفيات على محور الصادات وامتد خطٌ من أعلى اليسار إلى أسفل اليمين. انخفض معدل الوفيات الناتجة عن الحوادث المرورية بين عامي 1950 و2009 بمقدار ستة أضعاف. فوجدتُ أمامي تراجعًا آخر في الموت العنيف، ولكنَّه هذه المرة لم يكُن متعلقًا بالهيمنة والكراهية، إذ تضافرت بعض القوى للعمل على مدار عقودٍ على خفض احتمالية الوفاة أثناء القيادة، وكأنَّ الحياة قد أصبحت بالفعل ثمينة، فعندما أصبح المجتمع أغنى، ركز المزيد من دخله وبراعته وعاطفته الأخلاقية على إنقاذ حياة الناس على الطريق.

علمت لاحقًا أنَّ المجلة كانت متحفظة قليلًا، فلو كانت رسمت مجموعة البيانات هذه منذ عامها الأول، عام 1921، لكانت أظهرت انخفاضًا بمقدار أربعة وعشرين ضعفًا تقريبًا في معدل الوفيات. يوضِّح الشكل رقم 12–3 الخط الزمني بأكمله، رغم أنَّ هذه ليست القصة كاملةً أيضًا، ففي مقابل كل شخصٍ توفي، أصيب آخرون بالعجز والتشويه وأضناهم الألم.



الشكل رقم 12- 3: معدل الوفيات الناتجة عن حوادث السيارات والطرق، في الولايات المتحدة، منذ 1921 حتى 2015

المصدر: National Highway Traffic Safety Administration (الإدارة الوطنية لسلامة المرور على الطرق السريعة)، عن طريق الروابط التالية:

http://www.informedforlife.org/demos/FCKeditor/UserFiles/File/TRAFFICFATALITIES(1899-2005).pdf، و http://www-fars.nhtsa.dot.gov/Main/index.aspx، و https://crashstats.nhtsa.dot.gov/Api/Public/ViewPublication/812384.

ذيّلت المجلة الرسم البياني بالمعالم الفارقة في سلامة السيارات، والتي حددت القوى التكنولوجية والتجارية والسياسية والأخلاقية الفاعلة، كانت هذه القوى تعارض بعضها بعضًا أحيانًا على المدى القصير، ولكنَّها على المدى البعيد خفَّضت مجتمعةً معدل الوفيات كثيرًا كثيرًا. كانت هناك أحيانًا حملات أخلاقية للحد من المذابح، وكانت تعتبر صناع السيارات الأشرار في هذه القصة، ففي عام 1965، نشر محامٍ شاب يُدعى رالف نادر (Ralph Nader) كتابًا بعنوان **غير آمن على أي سرعة** (*Unsafe at Any Speed*)، وهو اتهام لهذه الصناعة بإهمالها السلامة في تصميم السيارات. بعد ذلك بقليل أُنشئت الإدارة الوطنية لسلامة المرور على الطرق السريعة، وتم تمرير تشريعات تستلزم إعداد السيارات الجديدة بمجموعةٍ من الخصائص التي تضمن السلامة. ولكنَّ الرسم يوضِّح حدوث انخفاضٍ حاد قبل هذا النشاط والتشريعات، وكانت صناعة السيارات أحيانًا تسبق العملاء والهيئات التنظيمية. احتوى الرسم على لافتة تشير إلى عام 1956 بما يلي: «شركة فورد موتور تقدم حزمة الإنقاذ.. وهي تشمل أحزمة الأمان ولوحة القيادة المبطَّنة وواقيات الشمس المبطَّنة ومحور المقود الغائر المصمم بما يمنع السائقين من التحول إلى قطع كباب عند التصادم. إن قيمتها أكبر من

ثمنها». لم تصبح تلك الخصائص إلزامية سوى بعد عقدٍ كامل.

تناثرت على طول ذلك المنحدر حلقات أخرى من الشد والجذب بين المهندسين والمستهلكين ومسؤولي الشركات وموظفي الحكومة الروتينيين. وعلى فتراتٍ متنوعة، اتجهت كلٌّ من مناطق امتصاص الصدمات، وأنظمة الكبح المزدوج للأربع عجلات، وأعمدة التوجيه القابلة للطي، وأضواء المكابح العالية الوسطى، وأحزمة الأمان الخانقة التي تصدر طنينًا، والوسائد الهوائية وأنظمة التحكم في الثبات، من المعمل وحتى معارض السيارات. من الأمور المنقذة الأخرى تمهيد الطرق الريفية الطويلة لتصبح طرقًا سريعة مُقسمة ومضاءة ومسورة بحواجز ومنحنية بسلاسة وعريضة وتصل من ولايةٍ إلى أخرى. تأسست منظمة أمهات ضد القيادة تحت تأثير الكحول (Mothers Against Drunk Driving) في عام 1980، وشكَّلت ضغطًا من أجل رفع السن القانونية لتناول الكحول وخفض المستوى القانوني المسموح به من الكحول في الدم وإدانة القيادة تحت تأثير الكحول، وهو ما تعاملت معه الثقافة الشعبية آنذاك باعتباره مثارًا للضحك كما في فيلمي *North by Northwest* و*Arthur*. أنقذت اختبارات تصادم السيارات وتطبيق قوانين المرور وتعليم القيادة (إضافةً إلى أمورٍ غير مقصودة مثل الازدحام المروري والركود الاقتصادي) حياة المزيد من الناس، حياة الكثير من الناس، فمنذ عام 1980، لم يمُت حوالي 650 ألف مواطن أمريكي كانوا سيموتون لو بقيت معدلات الوفيات الناتجة عن الحوادث المرورية كما هي، بل نجد الأرقام جديرة بالملاحظة أكثر عندما نضع في اعتبارنا أنَّ الأمريكيين يقطعون أميالًا أكثر مع كل عقدٍ (55 مليار ميل في 1920، و458 مليار في 1950، 1.5 تريليون في 1980، و3 تريليون في 2013)، فكانوا يستمتعون بكل متع الضواحي المليئة بالأشجار والأطفال الذين يلعبون كرة القدم أو يشاهدون الولايات المتحدة الأمريكية من سياراتهم الشيفروليه أو يتجولون بالسيارة في الشوارع ويبتعدون عن الأنظار وينفقون كل أموالهم على ليلة السبت، ولكنَّ تلك الأميال الإضافية التي قطعوها لم تقلل من المكاسب في السلامة، إذ بلغ معدل الوفيات في السيارات للفرد (بدلًا من لكل ميل) ذروته في عام 1937 فكان حوالي 30 لكل 100 ألف سنويًّا، وهو في تراجع مستمر منذ أواخر السبعينيات ووصل في عام 2014 إلى 10.2 وهو أقل معدل منذ 1917.

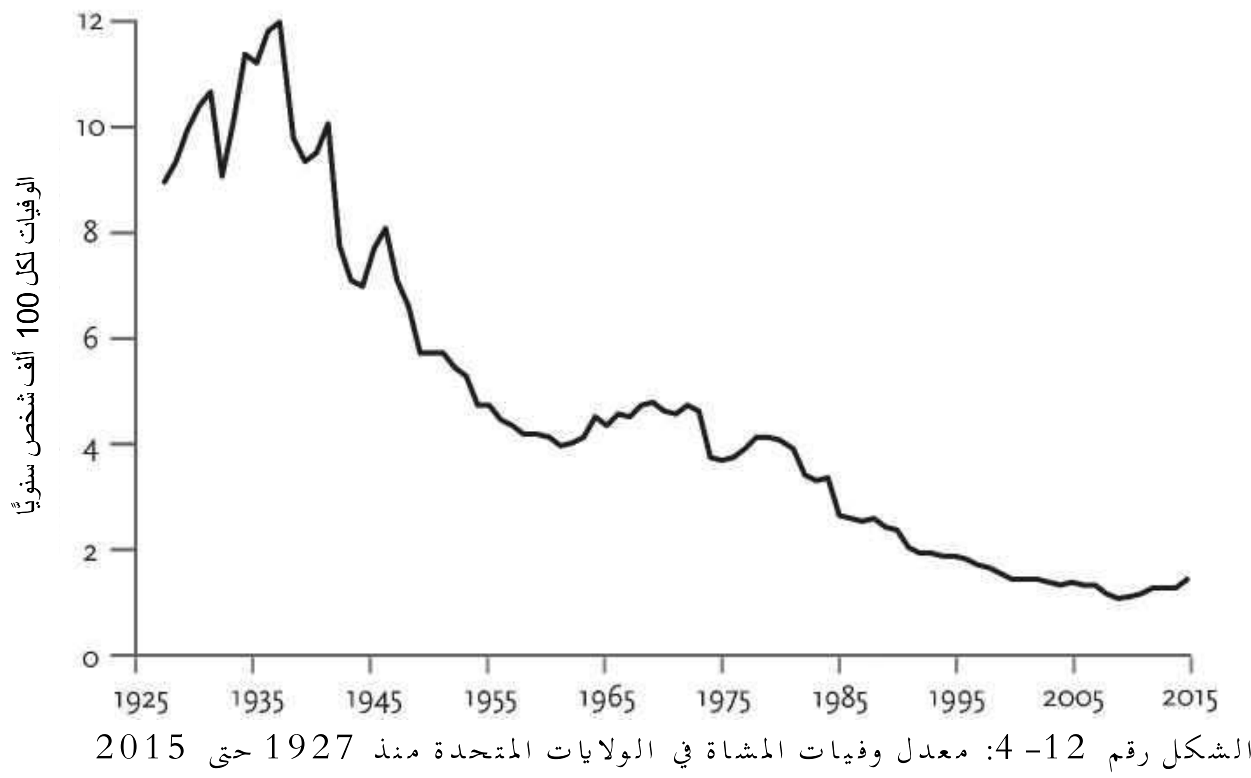
ليس التقدم الذي حدث في أعداد السائقين الذين يظلون على قيد الحياة فريدًا وقاصرًا على الأمريكيين، فقد انخفضت معدلات الوفيات في الدول الثرية الأخرى مثل فرنسا وأستراليا وبالطبع السويد المهتمة بالسلامة (اشتريت في النهاية سيارة فولفو)، ولكنَّه قد يرجع إلى الإقامة في دولةٍ ثرية. إنَّ معدل الوفيات نتيجة الحوادث المرورية للفرد في الدول الناشئة مثل الهند والصين والبرازيل ونيجيريا ضعف المعدل في الولايات المتحدة وسبعة أضعاف المعدل في السويد، فالثروة تشتري الحياة.

كان التراجع في معدل الوفيات على الطرق سيصبح إنجازًا إشكاليًّا لو كنا في خطرٍ أكبر مما كنا فيه قبل اختراع السيارات، ولكنَّ الحياة لم تكُن آمنة كثيرًا أيضًا قبل السيارات في الحقيقة. يحكي أمين أرشيف الصور أوتو بيتمان (Otto Bettmann) حكايات معاصرة عن شوارع المدينة في حقبة جر العربات بالأحصنة فيقول:

> «يتطلب عبور شارع برودواي مهارة أكثر مما يتطلبه عبور المحيط الأطلنطي في قارب صيدٍ صغير».. كان الحصان هو محرك الفوضى في المدينة، إذكان هذا الحيوان الضروري يعاني من العصبية ونقص التغذية، وكان السائقون عديمو الرحمة يضربونه غالبًا بالسياط حتى ينهكونه ويغتبطون عنما يندفع للأمام «بأقصى قوة متحديًا القانون ويبتهجون بالتخريب والتدمير». كان الجموح شائعًا، وكان هذا الخراب يؤدي إلى قتل آلاف الأشخاص. وفقًا للمجلس الوطني للسلامة فإنَّ معدل الوفيات المرتبطة بالأحصنة كان أعلى بعشرة أضعاف من معدل الوفيات المرتبطة بالسيارات في العصر الحديث (في عام 1974،

وهو ضعف معدل الوفيات المرتبطة بالسيارات للفرد اليوم – SP).

أُطلق على فريق بروكلين دودجرز، قبل انتقاله إلى لوس أنجلوس، هذا الاسم تيمنًا بالمشاة في المدينة الذين كانوا يشتهرون بمهارتهم في سرعة تفادي العربات المندفعة (لم ينجح الجميع في تفاديها في تلك الحقبة، فأخت جدي قتلتها عربة في وارسو في سنة 1910). ازدادت قيمة حياة المشاة كقيمة حياة السائقين والركاب، ويرجع الفضل في ذلك للمصابيح ومعابر المشاة والجسور العلوية وهيئات تطبيق قوانين المرور واختفاء حليّ أغطية محركات السيارات والقطع التي تشبه الرصاصات في المصد والأسلحة الأخرى المطلية بالكروم. يوضِّح الشكل رقم 12–4 أنَّ السير في شوارع أمريكا اليوم أكثر أمانًا من السير فيها في عام 1927 بستة أضعاف.



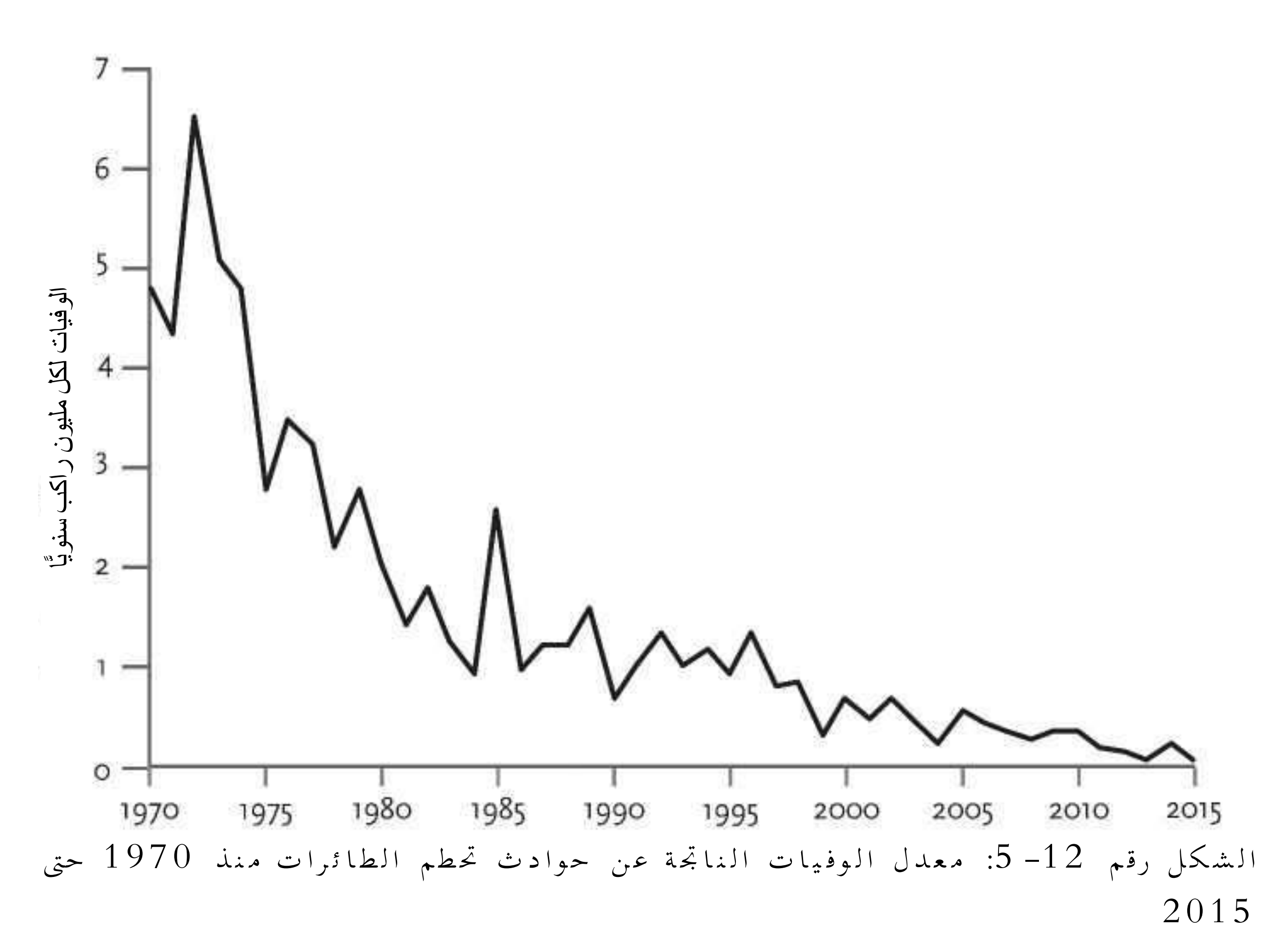
الشكل رقم 12– 4: معدل وفيات المشاة في الولايات المتحدة منذ 1927 حتى 2015

المصدر: الإدارة الوطنية لسلامة المرور على الطرق السريعة. بيانات الأعوام 1927–1984: Federal Highway Administration 2003. بيانات الأعوام 1985–1995: National Center for Statistics and Analysis 1995. بيانات الأعوام 1995–2005: National Center for Statistics and Analysis 2006. بيانات الأعوام 2005–2014: National Center for Statistics and Analysis 2016. بيانات العام 2015: National Center for Statistics and Analysis 2017.

إنَّ عدد المشاة الذين قُتلوا في عام 2014 –5000 تقريبًا– ما زال عددًا صادمًا (قارنه بعدد من قتلهم الإرهابيون –44 شخصًا– وحصلوا على تركيز إعلامي أكبر)، ولكنَّه أفضل من الـ 15 ألفًا الذين قُتلوا في عام 1937 عندما كان تعداد السكان في البلاد خُمسي التعداد الحالي وكان بها عدد سيارات أقل كثيرًا. وما زال أمامنا تقدم أكثر في إنقاذ البشر، فخلال عقدٍ من كتابة هذا الكتاب، سيقود الحاسب الآلي أغلب السيارات الجديدة بدلًا من البشر ذوي البديهة البطيئة والأذهان المشتتة. عندما تكون السيارات الآلية واسعة الانتشار، فإنها ستستطيع إنقاذ حياة أكثر من مليون شخصٍ سنويًا، وبذلك ستصبح أعظم هدية للحياة البشرية منذ اختراع المضادات

الحيوية.

من الأقوال المأثورة في المناقشات حول تصور المخاطر أنَّ كثيرًا من الناس يخشون الطيران ولكن لا أحد يخشى القيادة تقريبًا رغم أنَّ السفر بالطيارات أكثر أمانًا بدرجةٍ هائلة، ولكنَّ المشرفين على سلامة حركة الطيران لا يرضون عنها أبدًا، فيفحصون الصندوق الأسود والحطام بدقة بعد كل حادثة، ويستمرون في زيادة سلامة وسيلة النقل الآمنة بالفعل. يوضح الشكل رقم 12–5 أنَّ احتمالية وفاة أحد ركاب الطائرة في حادث تحطم طائرة في عام 1970 كان أقل من 5 في المليون، وانخفضت هذه الاحتمالية الضئيلة في عام 2015 بمئة ضعفٍ.



الشكل رقم 12– 5: معدل الوفيات الناتجة عن حوادث تحطم الطائرات منذ 1970 حتى 2015

المصدر: Aviation Safety Network 2017. البيانات الخاصة بعدد الركاب من World Bank 2016b.

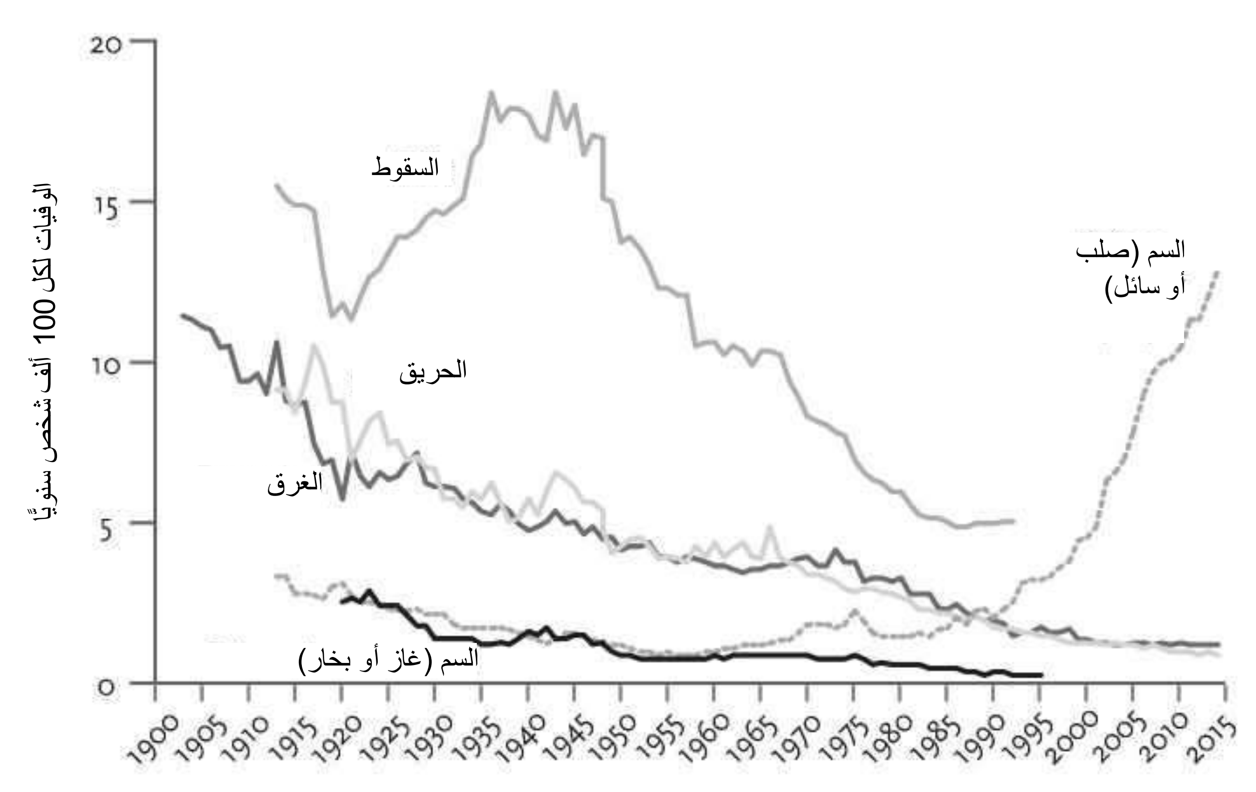
من يموت بالماء ومن يموت بالنار: قديمًا قبل اختراع السيارات والطائرات، كان الناس معرضين لأخطار مميتة في بيئتهم. بدأ عالم الاجتماع روبرت سكوت كتابه عن تاريخ الحياة في أوروبا في العصور الوسطى بما يلي: «في يوم 14 من ديسمبر 1421، في مدينة ساليزبري الإنجليزية، أصيبت فتاة في الرابعة عشرة تُدعى آجنس بإصابةٍ فاجعة عندما ثقب بطنها سيخٌ ساخن» (قيل إنَّ الدعاء للقديس أوزموند قد شفاها). كان هذا مثالًا واحدًا فقط على مدى خطورة المجتمعات الأوروبية في العصور الوسطى، وكان الأطفال والرُضَّع الذين تركهم آباؤهم وحدهم أثناء العمل أكثر عرضةً للأخطار كما أوضحت المؤرخة كارول روكليف (Carol Rawcliffe):

كان المحيط المزدحم المظلم المليء بالمواقد المفتوحة والفراش من القش والأرضيات المغطاة بالحصائر واللهب المكشوف يشكِّل خطرًا دائمًا على الصغار الفضوليين، وكان الأطفال (حتى أثناء اللعب) في خطرٍ بسبب البِرك والمستلزمات الزراعية أو الصناعية وأكوام الخشب والقوارب المتروكة دون إشراف والعربات المحمَّلة، إذ تظهر كل هذه الأغراض بصورةٍ متكررة وكئيبة في تقارير محققي الوفيات كأسباب وفاة الصغار.

تشير **موسوعة الأطفال والطفولة في التاريخ والمجتمع** (*The Encyclopedia of Children and Childhood in History and Society*) إلى أنَّ: «صورة خنزير يلتهم طفلًا رضيعًا، وهو المشهد الذي ظهر في **حكايات الفارس** (*The Knight's Tale*) لتشوسر (Chaucer)، تبدو غريبة للقراء المعاصرين، ولكنَّها كانت تعكس بالتأكيد الخطر الشائع الذي كانت تشكِّله الحيوانات على الأطفال».

ولم يكُن البالغون أكثر أمانًا. يوجد موقع إلكتروني اسمه **الحياة اليومية والأخطار المميتة في إنجلترا في القرن السادس عشر** (*Everyday Life and Fatal Hazard in Sixteenth-Century England*) ينشر تحديثات شهرية عن تحليلات المؤرخين لتقارير محققي الوفيات، تشمل أسباب الوفاة كتناول سمك الماكريل الملوث، وأن يعلق أحدهم أثناء تسلق النافذة، والانسحاق تحت كومة من ألواح الخث، والاختناق برباط كان يعلق فيه المرء سلال على كتفيه، والسقوط من منحدرٍ أثناء صيد طيور الغاقة، والسقوط على السكين أثناء ذبح خنزيرٍ. في غياب الإضاءة الصناعية، كان كل من يغامر بالخروج بعد حلول الظلام يواجه خطر الغرق في الآبار والأنهار والمصارف والخنادق المائية والقنوات والبالوعات.

لا نقلق اليوم على أطفالنا الرُضع من أن تأكلهم الخنازير، ولكنَّ الأخطار الأخرى ما زالت موجودة، فالسبب الأكبر للوفاة العرضية بعد حوادث السيارات هو السقوط، ويليه الغرق والحرائق ويليهما التسمم. ونحن نعرف هذه المعلومات لأنَّ اختصاصيي الوبائيات ومهندسي السلامة يرتبون حالات الوفاة العرضية في جداول مع الانتباه الشديد للتفاصيل، ويصنِّفونها إلى فئات ثم يصنِّفونها إلى فئات فرعية لتحديد ما يقتل أكبر عدد من الناس وكيف يمكن تقليل المخاطر (تحتوي النسخة العاشرة من التصنيف الدولي للأمراض *International Classification of Diseases* على رموزٍ لـ 153 نوعًا من حوادث السقوط فقط، و39 استثناءً لها)، وعندما تُترجم استشاراتهم إلى قوانين وقواعد للبناء وأنظمة التفتيش والفحص وأفضل الممارسات، فإنّ العالم يصبح أكثر أمانًا. تراجعت احتمالية وفاة الأمريكيين بالسقوط منذ ثلاثينيات القرن الماضي بنسبة 72 في المئة، لأنَّهم أصبحوا في حماية الحواجز واللافتات وواقيات النوافذ الحديدية ومقابض السلامة وأحزمة الأمان للعمال والأرضيات والسلالم الأكثر أمانًا وعمليات التفتيش (معظم حالات الوفاة الباقية لأشخاص مسنين ضعفاء). يوضِّح الشكل رقم 12–6 انخفاض معدل حوادث السقوط ومسارات مخاطر الوفاة العرضية الكبرى الأخرى منذ عام 1903.



الشكل رقم 12- 6: معدل الوفيات الناتجة عن حوادث السقوط والحريق والغرق والسم، في الولايات المتحدة، منذ 1903 حتى 2014

المصدر: National Safety Council 2016. البيانات الخاصة بالحريق والغرق والسم (صلب أو سائل) مجمَّعة من مجموعتي بيانات على الفترة من 1903 حتى 1998 ومن 1999 حتى 2014، وتشمل بيانات 1999–2014 عن السم (صلب أو سائل) حالات الوفاة بالسم بالغاز أو البخار. تمتد البيانات الخاصة بحوادث السقوط فقط حتى عام 1992 بسبب أدوات إعداد التقارير في السنوات اللاحقة.

إنَّ الانحدارين اللذين يشيران إلى الموت بالنار والموت بالماء متطابقان تمامًا تقريبًا، وتراجع عدد ضحايا كليهما بنسبة أكبر من 90 في المئة، فعدد الأمريكيين الذين يغرقون اليوم أقل بفضل سترات النجاة وحراس الإنقاذ والأسوار المحيطة بالمسابح والتعليمات الخاصة بالسباحة وإنقاذ الحياة وزيادة الوعي بعُرضة الأطفال للغرق في المغاطس والمراحيض، وحتى الدلاء.

يقضي عدد أقل من الناس نحبهم بألسنة اللهب والدخان، ففي القرن التاسع عشر نشأت فرق المطافئ المحترفة لإطفاء الحرائق قبل أن تحتدم وتدمِّر مدناً بأكملها. وفي منتصف القرن العشرين، تحولت مهمة دوائر المطافئ من مكافحة الحرائق إلى منعها من الأساس، كانت هذه الحملة مدفوعة بالحرائق المروعة مثل حريق الملهى الليلي Coconut Grove في بوسطن عام 1942، والذي نتج عنه وفاة 492 شخصًا، والذي انتشرت الأخبار عنه بسبب الصور الموجعة للقلب التي يظهر فيها رجال الإطفاء وهُم يحملون جثث الأطفال الصغار التي أخرجوها من المنازل المحترقة. اعتُبرت الحريق حالة طوارئ أخلاقية على المستوى الوطني في تقارير اللجان الرئاسية التي حملت عناوين مثل أمريكا تحترق (*America Burning*). أدت الحملة إلى ظهور الأغراض واسعة الانتشار الآن مثل المرشات وكاشفات الدخان والأبواب المقاومة للحرائق وسلالم النجاة والتدريبات للاستعداد للحرائق ومطافئ الحريق والمواد المانعة للهب، والشخصيات الكرتونية المستخدمة في تعليم السلامة من الحرائق مثل سموكي الدب (*Smokey the Bear*) وسباركي كلب الحريق (*Sparky*)

the Fire Dog) نتيجةً لذلك فإنَّ إدارات المطافئ تعطِّل نفسها عن العمل، إذ تشكِّل حالات السكتة القلبية والطوارئ الطبية الأخرى 96 في المئة من المكالمات التي تأتيها، فيما تشكّل الحرائق الصغيرة معظم النسبة الباقية من المكالمات (على عكس الصورة الساحرة، فإنَّ رجال الإطفاء لا تنقذ القطط الصغيرة من الأشجار) حيث يرى رجل الإطفاء العادي مبنى محترقًا واحدًا فقط كل عامين.

قلّة من الأمريكيين يموتون بسبب التسمم العرضي بالغاز، فمن التطورات التي حدثت بدءًا من أربعينيات القرن الماضي الانتقال من استخدام غاز الفحم السام إلى استخدام الغاز الطبيعي غير السام في التدفئة والطهي في المنازل، إضافةً إلى تحسين تصميم المواقد والمدافئ التي تعمل بالغاز وصيانتها حتى لا تحرق وقودها بشكلٍ ناقص فينفث أول أكسيد الكربون في المنزل. بدءًا من السبعينيات، أصبحت السيارات مجهزة بالمحولات الحفازة المصممة بما يجعلها تقلل تلوث الهواء والتي منعتها من أن تصبح أفران غاز متحركة. وظلَّ الناس يُذكَّرون خلال القرن كله بأنَّ تشغيل السيارات والمولدات والمشاوي بالفحم والمدافئ المشتعلة داخل المنازل أو أسفل النوافذ فكرة سيئة.

يوضِّح الشكل رقم 12–6 استثناءً واضحًا لهذا الغزو على الحوادث: وهو فئة «السم (صلب أو سائل)». إنَّ الارتفاع الحاد الذي بدأ في التسعينيات حالة شاذة في مجتمعٍ يزداد فيه كل يوم استخدام الأقفال وأجراس الإنذار والبطانات الواقية وحواجز الطرق والملصقات التحذيرية، وفي البداية لم أستطِع فهم تناول المزيد من الأمريكيين على ما يبدو مسحوق قتل الصراصير أو الكلور المبيِّض، ثم أدركت أنَّ فئة التسمم العرضي تشمل أيضًا الجرعات المفرطة من المخدرات (كان عليَّ أن أتذكر أنَّ أغنية ليونارد كوهين Leonard Cohen المستوحاة من صلاة عيد الغفران تحتوي على جملة «ومن يموت بزلةٍ وحيدًا / ومن يموت بالمهدئات»). كانت 98 في المئة من حالات الوفاة نتيجة «التسمم» في عام 2013 بسبب المخدرات (92 في المئة) أو الكحول (6 في المئة)، وكانت كل الحالات الأخرى تقريبًا من الغازات والأبخرة (أول أكسيد الكربون في أغلب الحالات)، في حين كانت الأخطار المنزلية والمهنية مثل المذيبات والمنظفات والمبيدات الحشرية وسائل القداحات مسؤولة عن أقل من نصف في المئة من حالات الوفاة بالتسمم وكانت لتلمس أدنى نقطة في الشكل رقم 12–6. رغم أنَّ الأطفال الصغار ما زالوا يفتِّشون عن الأغراض أسفل الحوض ويتذوقون ما يجدونه معروضًا أمامهم ويُسرع أهاليهم بهم إلى مراكز السموم، إلَّا أنَّه لا يموت منهم سوى القليل.

إذًا فالمنحنى الصاعد الوحيد في الشكل رقم 12–6 ليس مثالًا مناقضًا للتقدم الذي حققته البشرية في الحد من الأخطار البيئية، رغم أنَّه بكل تأكيد تراجع للخلف في نوعٍ مختلف من الأخطار وهو تعاطي المخدرات. بدأ المنحنى في الصعود في الستينيات التي اشتهرت بالمخدرات، وارتفع مجددًا مع انتشار وباء الكراك كوكايين في الثمانينيات، ثم شهد ارتفاعًا هائلًا مع انتشار إدمان المواد الأفيونية الأخطر كثيرًا في القرن الحادي والعشرين، بدأ الأطباء في التسعينيات يكثرون من وصف مسكنات الألم الأفيونية التركيبية مثل الأوكسيكودون والهيدروكودون والفنتانيل، والتي لا تتسم بكونها مسببة للإدمان فحسب، بل بأنَّها عقاقير تؤدي إلى الهيروين أيضًا. أصبحت الجرعات المفرطة من الأفيونات المشروعة وغير المشروعة تشكِّل خطرًا كبيرًا فهي تقتل أكثر من 40 ألف شخصٍ سنويًّا وتجعل «السم» أكبر فئة من فئات أسباب الوفاة العرضية متجاوزةً حتى الحوادث المرورية.

إنَّ الجرعات المفرطة من المخدرات ظاهرة تختلف بوضوحٍ عن حوادث السيارات وحوادث السقوط والحرائق والغرق والاختناق بالغاز، فالناس لا يدمنون أول أكسيد الكربون ولا يشتهون السلالم الطويلة للغاية، لذا فإنَّ التدابير الوقائية الميكانيكية التي نجحت جيدًا في الحماية من الأخطار البيئية لن تكون كافية للقضاء على وباء الأفيونات. بدأ الساسة والمسؤولون في قطاعات الصحة العامة يدركون

حجم المشكلة، وبدأ تطبيق تدابير مضادة، مثل: مراقبة الوصفات الطبية، والتشجيع على استخدام مسكنات أكثر أمانًا، وإدانة شركات الأدوية التي تروج المخدرات باستهتار وعقابها، وإتاحة النالوكسون –وهو الدواء المضاد للمواد الأفيونية– أكثر، وعلاج المدمنين بمضادات الأفيونات والعلاج السلوكي المعرفي. من العلامات على فعالية هذه التدابير بدرجةٍ ما أنَّ عدد حالات تناول جرعات مفرطة من الأفيونات الموصوفة طبيًّا (ولكن ليس من الهيروين أو الفنتانيل غير المشروعين) قد وصل إلى الذروة في عام 2010 وربما بدأ في الانخفاض.

من الجدير بالذكر أيضًا أنَّ الجرعات المفرطة من الأفيونات منتشرة بدرجةٍ كبيرة بين فئة متعاطيي المخدرات من جيل «طفرة المواليد» عند بلوغه منتصف العمر. كانت أكثر حالات الوفاة بالتسمم تحدث في سن الخمسين تقريبًا في عام 2011، وكانت تحدث في أوائل الأربعين في 2003، وفي أواخر الثلاثين في عام 1993، وفي أوائل الثلاثين في عام 1983، وفي أوائل العشرين في عام 1973، إذا أجريت عمليات الطرح ستجد أنَّ أفراد الجيل المولود بين عامي 1953 و1963 هم من يخدِّرون أنفسهم حتى الموت في كل عقدٍ. رغم الذعر المتواصل بشأن المراهقين، فإنَّ أطفال اليوم في حالٍ جيد نسبيًّا، أو على الأقل أفضل حالًا، فوفقًا لدراسة طولية كبرى أجريت على المراهقين بعنوان رصد المستقبل (*Monitoring the Future*)، انخفض استخدام طلاب المرحلة الثانوية للكحول والسجائر والمخدرات (عدا الماريجوانا والسجائر الإلكترونية) إلى أقل مستويات له منذ بداية المسح في عام 1976.

مع التحول الذي حدث من اقتصاد التصنيع إلى اقتصاد الخدمات، عبَّر كثير من المنتقدين الاجتماعيين عن حنينهم إلى حقبة المصانع والمناجم والطواحين، وهذا على الأرجح لأنَّهم لم يعملوا في أيٍّ منها من قبل. إلى جانب كل الأخطار المميتة التي ذكرناها، تضيف أماكن العمل الصناعية أخطارًا أخرى لا حصر لها، لأنَّ أيًّا ما كان ما تستطيع الآلة أن تفعله بالمواد الخام –النشر أو السحق أو الخبز والتحميص أو الطلاء أو الدمغ أو الدرس أو الذبح–فإنّ بإمكانها أن تفعله أيضًا بالعمال الذين يديرونها. أشار الرئيس بنجامين هاريسون (Benjamin Harrison) في عام 1892 إلى أنَّ «العمال الأمريكيين عرضة لأخطار هائلة على حياتهم وأبدانهم كتلك التي يتعرض لها الجنود في أوقات الحروب». يعلِّق بيتمان على بعض الصور الشنيعة وعناوينها التي جمعها من تلك الحقبة قائلًا:

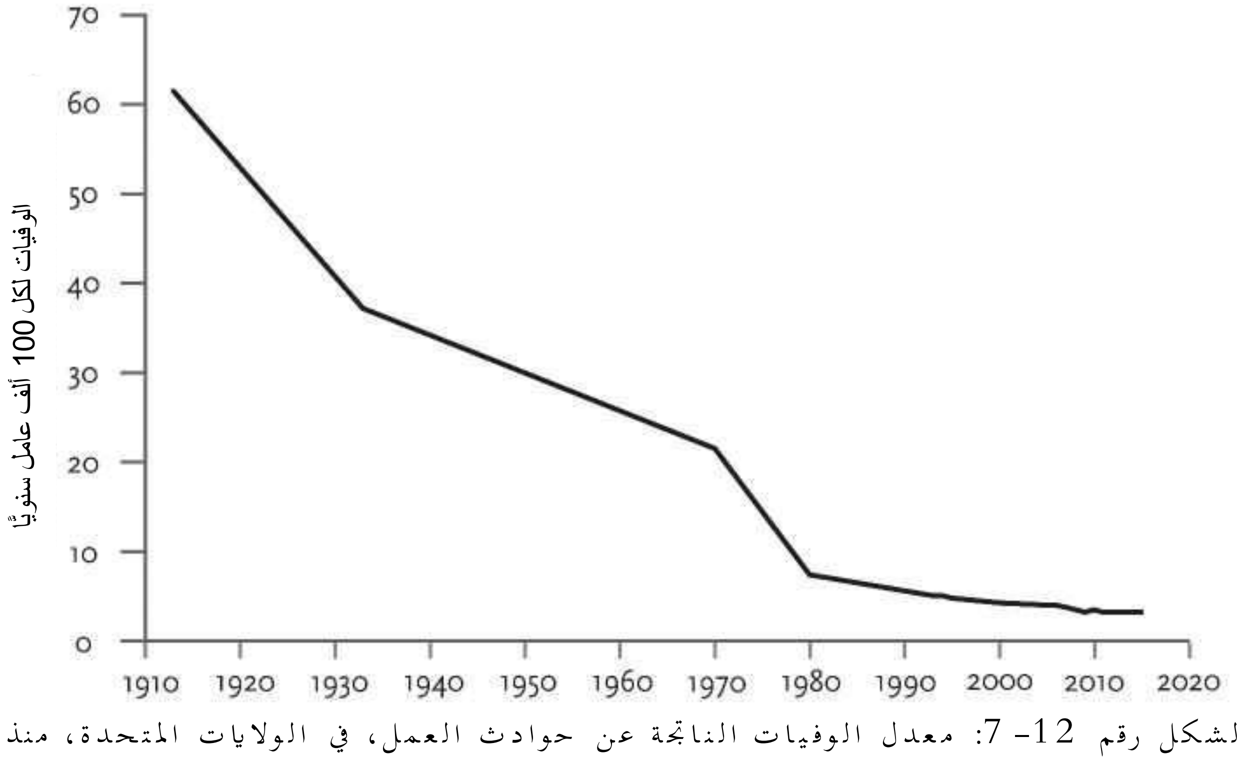
> قيل إنَّ عامل المنجم كان «يذهب إلى العمل كما لو أنَّه يذهب إلى قبرٍ مفتوح، لا يعرف متى قد يُغلق فيحبسه بالأسفل».. كانت عواميد توليد الكهرباء المكشوفة تسبب العاهات للعاملات اللاتي يرتدين التنانير المقببة وتقتلهن.. يتمتع بهلوان السيرك وطيار الاختبار اليوم بتأمين أكبر على حياته مما كان يتمتع به عامل المكابح (في السكك الحديدية) أمس، والذي كان عمله يستدعي قفزات محفوفة بالمخاطر بين قاطرات الشحن استجابةً لصافرة القاطرة.. ومن المعرضين للموت المفاجئ أيضًا عمال ربط القطارات الذين كانوا عرضة دائمًا لخطر فقدان أياديهم أو أصابعهم في أجهزة الربط والتثبيت البدائية.. سواء أكان العامل قد شوهه منشار كهربائي أو سحقته عارضةٌ أو دُفن في منجمٍ أو سقط من أعلى عمودٍ، كان هذا دائمًا نتيجة «حظه السيء».

كان «الحظ السيء» تفسيرًا مريحًا لأصحاب الأعمال، وكان حتى وقتٍ قريبٍ يشكِّل جزءًا من الإيمان المنتشر بالقضاء والقدر فيما يخص الحوادث المميتة التي كانت تُعزى غالبًا إلى النصيب أو إلى إرادة الله (أما اليوم فلا يستخدم مهندسو السلامة والباحثون في مجال الصحة العامة كلمة حادثة من الأساس لأنَّها تلمح ضمنيًّا إلى إصبع القدر الخفي، فالمصطلح المهني المستخدم هو إصابة غير

مقصودة). كانت تدابير السلامة وسياسات التأمين الأولى في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تحمي الأملاك لا البشر، وعندما بدأت الإصابات والوفيات في الزيادة على نحوٍ لا يمكن تجاهله خلال الثورة الصناعية، تم التقليل من أهميتها باعتبارها «ضريبة التقدم»، حسب تعريفٍ غير إنساني للتقدم لا يضع في الحسبان رفاهة البشر. فسَّر أحد مشرفي السكك الحديدية رفضه تسقيف رصيف التحميل بأنَّ «الرجال أرخص من الألواح الخشبية.. فعندما يسقط أحدهم، يوجد عشرة آخرون ينتظرون أن يحلوا محله». خلَّد رموز الثقافة مثل تشارلي تشابلن (Charlie Chaplin) الوضع غير الانساني للانتاج الصناعي من خلال العمل في أحد المصانع على خط التجميع في فيلم *(Modern Times)* ولوسيل بال (Lucille Ball) من خلال العمل في مصنع الشكولاتة في مسلسل *(I Love Lucy)*.

بدأت أماكن العمل تتغير في أواخر القرن التاسع عشر عندما أُنشئت أول نقابات عمالية واهتم الصحافيون بالقضية وبدأت الهيئات الحكومية تجمع البيانات التي تحصي الخسائر البشرية. كان تعليق بيتمان عن خطورة العمل في القطارات مستندًا إلى أكثر من مجرد صور، ففي عقد 1890 كان معدل الوفيات السنوي لعمال القطارات رقمًا مذهلًا وهو 852 لكل 100 ألف شخصٍ، أي 1 في المئة تقريبًا سنويًّا، وانخفض هذا المعدل عندما فرض قانون صادر عام 1893 استخدام المكابح الهوائية وأدوات الربط الآلي في كل قطارات الشحن، وكان هذا القانون هو أول قانون فيدرالي يهدف إلى تعزيز السلامة في أماكن العمل.

انتشرت التدابير الوقائية إلى مهنٍ أخرى في العقود الأولى من القرن العشرين، وهي الحقبة التقدمية، وكانت نتيجة تحريض الإصلاحيين والنقابات العمالية والصحافيين والروائيين المهتمين بالفضائح مثل أوبتن سينكلير (Upton Sinclair). كان الإصلاح الأكثر فعالية تغييرًا بسيطًا في القانون الذي جاء من أوروبا: مسؤولية أصحاب العمل وتعويض العمال، فكان العمال المصابون أو ورثتهم سابقًا يضطرون إلى رفع الدعاوى القضائية للحصول على التعويضات، ويخسرونها عادةً، أمَّا الآن فيلزم على أصحاب العمل تعويضهم بنسبة محددة. أعجب هذا التغيير الإدارة بقدر ما أعجب العمال، بما أنَّه مكَّنهم من التنبؤ بنفقاتهم وجعل العمال أكثر تعاونًا، والأهم أنَّه ربط بين مصالح الإدارة والعمالة، فكان لكلٍّ من الطرفين مصلحة في جعل أماكن العمل أكثر أمانًا، وكذلك لشركات التأمين والهيئات الحكومية التي تعهدت بالتعويض. أنشأت الشركات لجانًا للسلامة وإدارات للسلامة وعيَّنت مهندسين للسلامة وطبَّقت إجراءات عديدة للحماية بدوافعَ اقتصادية أو إنسانية أحيانًا، واستجابةً للوصم العام بعد فضيحةٍ ما أحيانًا أخرى، ويكون هذا غالبًا بالإكراه نتيجة الدعاوى القضائية واللوائح الحكومية. والنتائج واضحة في الشكل رقم 12-7.

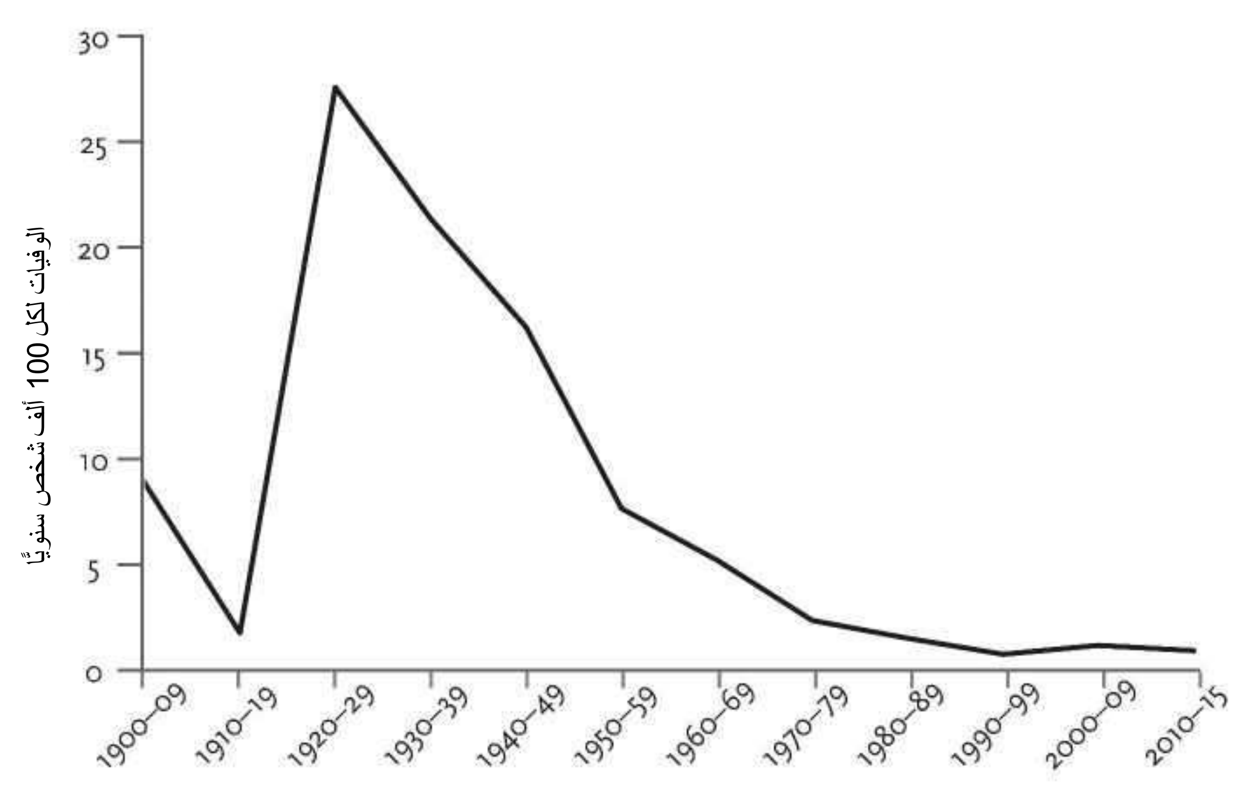


الشكل رقم 12- 7: معدل الوفيات الناتجة عن حوادث العمل، في الولايات المتحدة، منذ 1913 حتى 2015

المصادر: البيانات من مصادر مختلفة وربما لا تكون متناسبة تمامًا. البيانات الخاصة بالأعوام 1913 و1933 و1980: مكتب إحصاءات العمل، والمجلس الوطني للسلامة، والمعهد الوطني للسلامة والصحة المهنية التابع لمراكز مراقبة الأمراض والوقاية منها، على التوالي، المقتبسة في إرشادات (Centers for Disease Control 1999). بيانات العام 1970: إدارة السلامة والصحة المهنية، «خط زمني لأربعين عامًا من تاريخ إدارة السلامة والصحة المهنية» (Timeline of OSHA's 40 Year History)، https://www.osha.gov/osha40/timeline.html. بيانات عامي 1993–1994: مكتب إحصاءات العمل، المقتبس في دراسة (Pegula & Janocha 2013). بيانات الأعوام من 1995–2005: National Center for Health Statistics 2014, table 38. بيانات الأعوام من 2006–2014: Bureau of Labor Statistics 2016a. ذُكِرت البيانات الأخيرة كحالات وفاة للعمال بمكافئ الدوام الكامل ويُضرب في 0.95 للمقايسة التقريبية مع الأعوام السابقة، استنادًا إلى عام 2007، عندما ذكر إحصاء الإصابات المهنية القاتلة (CFOI) في تقريره المعدل لكل عامل (3.8) ولكل وحدة مكافئ الدوام الكامل (4).

ما زال عدد العمال الذين يموتون أثناء تأدية عملهم كبيرًا جدًّا إذ بلغ 5000 حالة وفاة في عام 2015، ولكنَّه أفضل كثيرًا من 20 ألف حالة وفاة في عام 1929 عندما كان عدد السكان أقل من خُمسي عددهم الحالي. يرجع إنقاذ هؤلاء الناس جزئيًّا إلى حركة القوى العمالية من المزارع والمصانع إلى المتاجر والمكاتب، ولكنَّ جزءًا كبيرًا منه هدية أهدانا إياها اكتشاف أنَّ إنقاذ حياة الأشخاص مع إنتاج نفس العدد من الأدوات هو مشكلة هندسية يمكن حلها.

من يموت بالزلزال: هل يمكن لجهود البشر الفانين أن تخفف مما يُطلق عليه المحامون «القضاء والقدر» مثل الجفاف والفيضانات والحرائق المدمرة والعواصف والبراكين والانهيارات الثلجية والانزلاقات الأرضية والهبوط الأرضي والموجات الحارة وموجات الطقس البارد وسقوط النيازك، والزلازل أيضًا التي تُعد كوارث لا يمكن التحكم فيها؟ الإجابة الموضحة في الشكل رقم 12–8 هي (أجل).



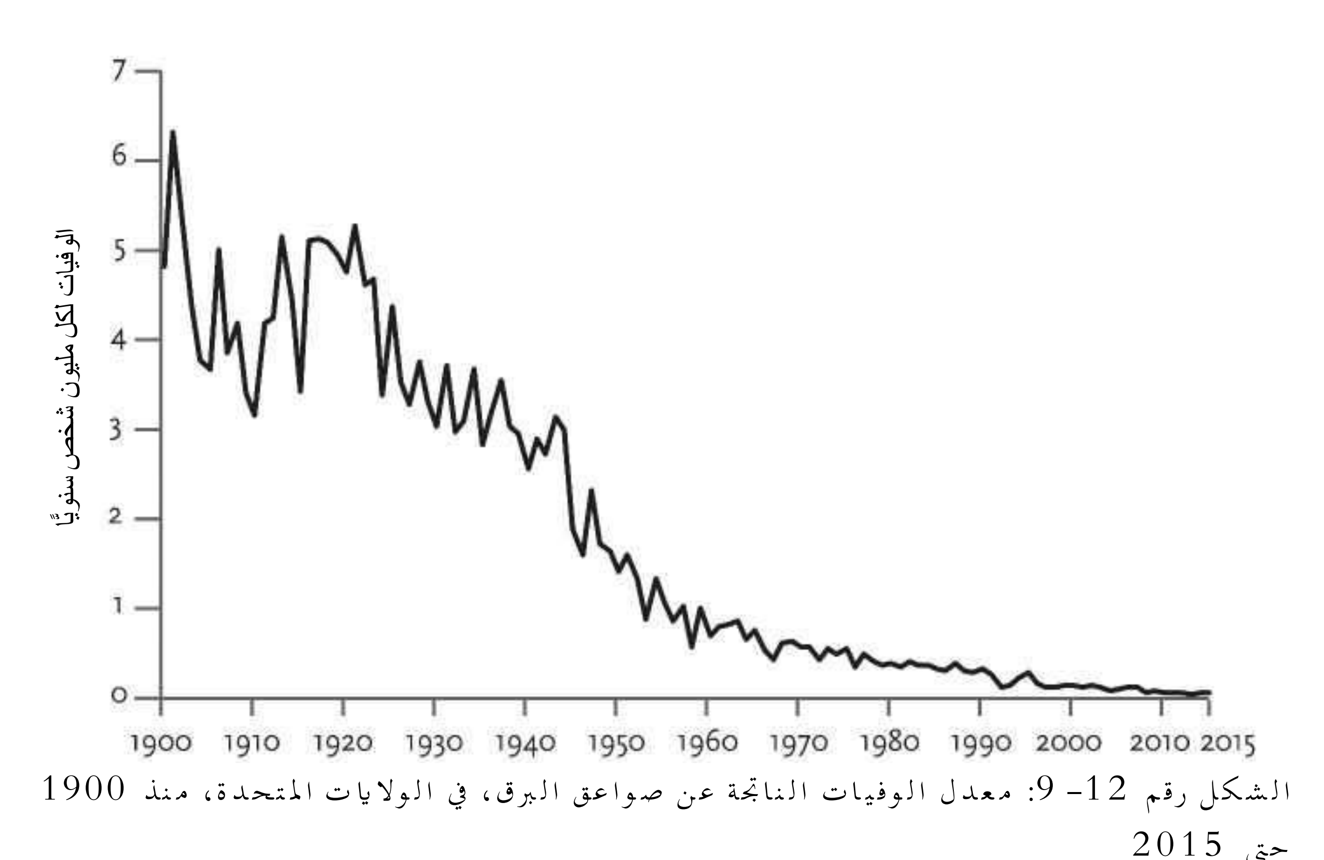
الشكل رقم 12- 8: معدل الوفيات الناتجة عن الكوارث الطبيعية منذ 1900 حتى 2015

المصدر: *Our World in Data*، Roser 2016q، استنادًا إلى بيانات من (EM-DAT)، قاعدة بيانات الكوارث الدولية، www.emdat.be. يوضح الرسم البياني مجموع معدلات الوفيات بالجفاف والزلازل ودرجات الحرارة القاسية والفيضانات والتصادمات والانزلاقات الأرضية والتحرك الكتلي (الجاف) والعواصف والأنشطة البركانية والحرائق المدمرة (باستثناء الحرائق وبائية الانتشار). نجد في عدة عقود أنَّ نوعًا واحدًا من الكوارث يغلب على الوفيات، فيغلب الجفاف على الوفيات في عقود 1910 و1920 و1930 و1960، وتغلب الفيضانات على الوفيات في عقدي 1930 و1950، وتغلب الزلازل على الوفيات في عقود 1970 و2000 و2010.

بعد عقد 1910، عندما مزقت العالم الحرب العالمية وجائحة الإنفلونزا ولكنَّه خلا نسبيًّا من الكوارث الطبيعية، انخفض معدل الوفيات الناتجة عن الكوارث انخفاضًا سريعًا بعد بلوغه الذروة. ليس هذا نتيجة أنَّ العالم أصبح ينعم بعدد أقلّ من الزلازل والبراكين والنيازك مع كل عقدٍ جديد بمعجزةٍ، وإنَّما لأنّ العالم كلّما أصبح أغنى وأكثر تقدمًا من الناحية التكنولوجية، استطاع منع الأخطار الطبيعية من أن تتحول إلى كوارث بشرية. فعندما يصيبنا زلزال، ينسحق عددٌ أقل من الأشخاص تحت أنقاض المباني المنهارة أو يحترقون، وعندما تتوقف الأمطار، يمكن للناس استخدام المياه المجمَّعة في الخزانات، وعندما ترتفع درجات الحرارة أو تنخفض بشدة، يمكثون في أماكنٍ مغلقة مهيأة المناخ، وعندما يفيض نهر على ضفتيه، تكون مياههم محمية من النفايات البشرية والصناعية. إنَّ السدود والخزانات التي تحجز المياه للشرب والري تجعل احتمالية حدوث الفيضان أقل من الأساس عند تصميمها وبنائها على نحوٍ ملائم، وأنظمة الإنذار المبكرة تتيح للناس إخلاء المكان أو العثور على مأوى قبل أن تصل الأعاصير إلى اليابسة. رغم أنَّ علماء الجيولوجيا لا يستطيعون التنبؤ بالزلازل بعد، إلَّا أنَّهم يستطيعون غالبًا التنبؤ بثورات البراكين، ويمكنهم إعداد الأشخاص الذين يقيمون على طول منطقة الحزام الناري ومناطق الصدع الأخرى لاتخاذ احتياطات لإنقاذ حياتهم. وبوسع العالم الأغنى بالطبع أن ينقذ المصابين ويعالجهم ويعيد بناء ما تدمر سريعًا.

إنَّ الدول الأفقر هي الأكثر عرضةً حاليًا للأخطار الطبيعية، إذ تسبب زلزال في هايتي في وفاة أكثر من 200 ألف شخص، في حين تسبب الزلزال الأقوى الذي ضرب تشيلي بعد ذلك ببضعة أسابيع في وفاة 500 شخص فقط، وتفقد هايتي أيضًا عشرة أضعاف ما تفقده جمهورية الدومينيكان –الدولة التي تتشارك معها جزيرة هيسبانيولا– من السكان بفعل الأعاصير. الخبر السعيد أنَّ الدول الأفقر عندما تزداد غنى، تزداد أماناً أيضًا (على الأقل طالما كانت التنمية الاقتصادية تتجاوز سرعة التغير المناخي). انخفض معدل الوفيات السنوي نتيجة الكوارث الطبيعية في الدول منخفضة الدخل من 0.7 لكل 100 ألفٍ في السبعينيات إلى 0.2 اليوم، وهو أقل من المعدل في الدول ذات الدخل فوق المتوسط في السبعينيات، وهو ما زال أعلى من المعدل في الدول ذات الدخل المرتفع اليوم (0.05، بعد أن كان 0.09) ولكنَّه يوضِح أنَّ كلًّا من الدول الغنية والفقيرة يمكنها أن تصنع تقدمًا في الدفاع عن أنفسها ضد هجمات إله منتقم.

ماذا عن النموذج الأول لإرادة الإله؟ القذيفة التي أطلقها زيوس من جبل أوليمبوس، المصطلح المعبر عن اللقاء المفاجئ مع الموت، الصاعقة –الحرفية– من السماء. يوضِّح الشكل رقم 12–9 تاريخها.



الشكل رقم 12– 9: معدل الوفيات الناتجة عن صواعق البرق، في الولايات المتحدة، منذ 1900 حتى 2015

المصدر: *Our World in Data*، Roser 2016q، استنادًا إلى بيانات من الإدارة الوطنية للمحيطات والغلاف الجوي (National Oceanic and Atmospheric Administration)، http://www.lightningsafety.noaa.gov/victims.shtml، وLópez & Holle 1998.

أجل، بفضل التوسع الحضري والتطورات في مجال التنبؤ بالطقس والتوعية بالسلامة والعلاج الطبي والنظم الكهربائية، انخفضت

احتمالية أن يُقتل أمريكي بصاعقة برقٍ منذ مطلع القرن العشرين بمقدار سبعة وثلاثين ضعفًا.

إنَّ انتصار البشرية على المخاطر اليومية هو أحد صور التقدم التي لا تلقى تقديرًا خاصًا (لدرجة أنَّ بعض قراء مسودة هذا الفصل تعجبوا من وجوده في كتابٍ عن التقدم من الأساس). رغم أنَّ الحوادث تتسبب في مقتل عددٍ من الناس أكبر من كل شيء آخر عدا أسوأ الحروب، إلَّا أنَّنا نادرًا ما ننظر إليها بعدسةٍ أخلاقية، فكما نقول: تقع الحوادث لا محالة. لو تساءلنا عما إذا كانت مليون حالة وفاة وعشرات الملايين من الإصابات سنويًّا ثمنًا يستحق أن ندفعه مقابل رفاهية قيادة سياراتنا الخاصة بسرعةٍ ممتعة، لرأت قلة قليلة للغاية أنه يستحق، ومع ذلك فإنَّ هذا هو الخيار البشع الذي نتخذه ضمنيًّا لأنَّ هذا التساؤل لم يُطرح علينا قط بهذه الطريقة. يوضع أحد الأخطار في إطارٍ أخلاقي من حينٍ لآخر، وتُشن ضده حملة عنيفة، وخاصةً إذا تصدرت إحدى الكوارث عناوين الأخبار وكان هناك «شرير» يمكن توجيه أصابع الاتهام له (صاحب مصنع جشع، أو مسؤول حكومي مقصِّر)، ولكن سرعان ما تنحسر الحملة ويُعزى الأمر إلى لعبة الحياة والموت.

كما لا يعتبر الناس الحوادث أعمالًا وحشية (على الأقل عندما لا يكونوا هُم ضحاياها)، لا يعتبرون المكاسب التي تحققت في مجال السلامة انتصارات أخلاقية، هذا إذا كانوا على علمٍ بها من الأساس، ولكنَّ إنقاذ حياة الملايين وتقليل العاهات والتشوهات والمعاناة على نطاقٍ هائل يستحقان امتناننا ويستلزمان تفسيرًا، وينطبق هذا حتى على القتل، الفعل الأكثر خضوعًا للأطر الأخلاقية، والذي انخفض معدله انخفاضًا شديدًا لأسبابٍ تخالف التصورات النموذجية.

قاد الطريق نحو المزيد من السلامة بعض الأبطال، كصور التقدم الأخرى، ولكن دفعتها أيضًا مجموعات مختلفة من الجهات الفاعلة في نفس الاتجاه خطوة بخطوة، وهي مجموعات النشطاء الشعبيين والمشرِّعين الذين يقومون بدورٍ أبوي، إضافةً إلى مجموعات من المخترعين والمهندسين وخبراء السياسة وخبراء الأرقام والإحصاءات. رغم أنَّنا نستاء أحيانًا من الإنذارات الكاذبة وتدخلات الدولة الحاضنة، إلَّا أنَّنا نتمتع بنِعَم التكنولوجيا دون تهديدٍ لحياتنا وأبداننا.

ورغم أنَّ قصة أحزمة الأمان والإنذارات بانتشار الدخان وحفظ الأمن في البؤر الإجرامية ليست جزءًا اعتياديًّا من ملحمة التنوير، إلَّا أنَّها تطبق أعمق موضوعات التنوير، فمن يحيا ومن يموت ليس أمرًا مسجلًا في كتاب الحياة، وإنَّما يتأثر بمعرفة البشر وقدرتهم على الفعل مع زيادة إدراكهم للعالم وزيادة قيمة حياة الإنسان.

الفصل الثالث عشر:
الإرهاب

عندما كتبتُ في الفصل السابق أنَّنا نعيش في أكثر العصور أماناً في التاريخ، كنت واعيًا بالتشكك الذي ستثيره هذه الكلمات، فقد أغضبت الهجمات الإرهابية وعمليات القتل التي حظيت بتغطية إعلامية واسعة في السنوات الأخيرة العالم بأكمله وغذت الوهم بأنَّنا نعيش في عصرٍ خطرٍ على نحوٍ جديد ومختلف. قال أغلبية الأمريكيين في 2016 إنَّ الإرهاب هو أهم القضايا التي تواجه البلاد، وقالوا إنَّهم يخشون أن يقعوا هُم أو أحد أفراد أسرتهم ضحيةً له، وإنَّ داعش تمثِّل تهديدًا لوجود الولايات المتحدة أو بقائها. لم يشوِّش الخوف تفكير المواطنين العاديين الذين يحاولون إنهاء المكالمة مع مستطلع الآراء فحسب، بل شوَّش كذلك تفكير المثقفين الجماهيريين، وخاصةً المتشائمين فيما يخص الثقافة، المتعطشين دائمًا لأي علامات تدل على أنَّ الثقافة الغربية (دائمًا) على حافة الانهيار. وصف الفيلسوف السياسي جون جراي (John Gray)، المجاهر برهابه من التقدم، المجتمعات المعاصرة في غرب أوروبا بأنَّها «أراضي الصراعات العنيفة» التي يكون فيها «السلام والحرب ضبابيين على نحوٍ مُهلك».

ولكنَّ هذا كله وهم. إنَّ الإرهاب خطرٌ فريد لأنَّه يجمع بين ارتياع هائل وأذى ضئيل. لن أعتبر اتجاهات الإرهاب مثالًا على التقدم، بما أنَّها لا تُظهر التراجع طويل الأمد الذي شهدناه في اتجاهات الأمراض والجوع والفقر والحرب وجرائم العنف والحوادث، ولكنِّي سأوضِّح أنَّ الإرهاب يصرف انتباهنا عن تقييمنا للتقدم المحرز، ويشيد بذلك التقدم بطريقةٍ ما.

تجاهل جراي البيانات الفعلية الخاصة بالعنف باعتبارها «تعاويذ» أو «شعوذة»، ويوضِّح الجدول التالي سبب احتياجه إلى هذا الجهل العلمي المبني على الأيديولوجيا كي يتابع بكائيته، فهو يوضِّح عدد ضحايا أنواع القتل الأربع –الإرهاب والحروب وجرائم القتل والحوادث– وإجمالي حالات الوفاة كلها في آخر سنة متاح بها بيانات لكل نوع (2015 أو قبلها). من المستحيل عمل رسم بياني لأنَّ الأجزاء الخاصة بأعداد الوفيات الناتجة عن الإرهاب ستكون أصغر من بكسل واحد.

الجدول رقم 13–1: عدد الوفيات الناتجة عن الإرهاب، والحروب، وجرائم القتل، والحوادث

	الولايات المتحدة	غرب أوروبا	العالم
الإرهاب	44	175	38,422
الحروب	28	5	97,496
جرائم القتل	15,696	3,962	437,000
حوادث السيارات والطرق	35,398	19,219	1,250,000
كل الحوادث	136,053	126,482	5,000,000
كل الوفيات	2,626,418	3,887,598	56,400,000

يشمل تعريف «غرب أوروبا» في قاعدة بيانات الإرهاب العالمية 24 دولة وعدد سكان يقدّر بـ 418,245,997 في عام 2014 (وقت الإحصاء عام 2015)، وحذفت منهم أندورا وكورسيكا وجبل طارق ولوكسمبورج وجزيرة مان.

المصادر: **الإرهاب** (2015): (الاتحاد الوطني لدراسة الإرهاب والاستجابة للإرهاب) National Consortium for the Study of Terrorism and Responses to Terrorism 2016. **الحروب، الولايات المتحدة وغرب أوروبا** (المملكة المتحدة + حلف الناتو) (2015): icasualties.org، http://icasualties.org. **الحروب، العالم** (2015): (مجموعة بيانات حالات الوفاة المرتبطة بالمعارك، برنامج أوبسالا لبيانات الصراع) *UCDP Battle-Related Deaths Dataset*, Uppsala Conflict Data Program 2017. **جرائم القتل، الولايات المتحدة** (2015): Federal Bureau of Investigation 2016a. **جرائم القتل، غرب أوروبا والعالم** (2012 أو أحدث بيانات): مكتب الأمم المتحدة المعني بالمخدرات والجريمة (United Nations Office on Drugs and Crime) 2013. تستثني البيانات الخاصة بالنرويج هجوم أوتويا الإرهابي. **حوادث السيارات والطرق، وكل الحوادث، وكل الوفيات، الولايات المتحدة** (2014): Kochanek et al. 2016, table 10. **حوادث السيارات والطرق، غرب أوروبا** (2013): World Health Organization 2016c. **كل الحوادث، غرب أوروبا** (2014 أو أحدث بيانات): World Health Organization 2015a. **حوادث السيارات والطرق وكل الحوادث، العالم** (2012): World Health Organization 2014. **كل الوفيات، غرب أوروبا** (2012 أو أحدث بيانات): World Health Organization 2017a. **كل الوفيات، العالم** (2015): World Health Organization 2017c.

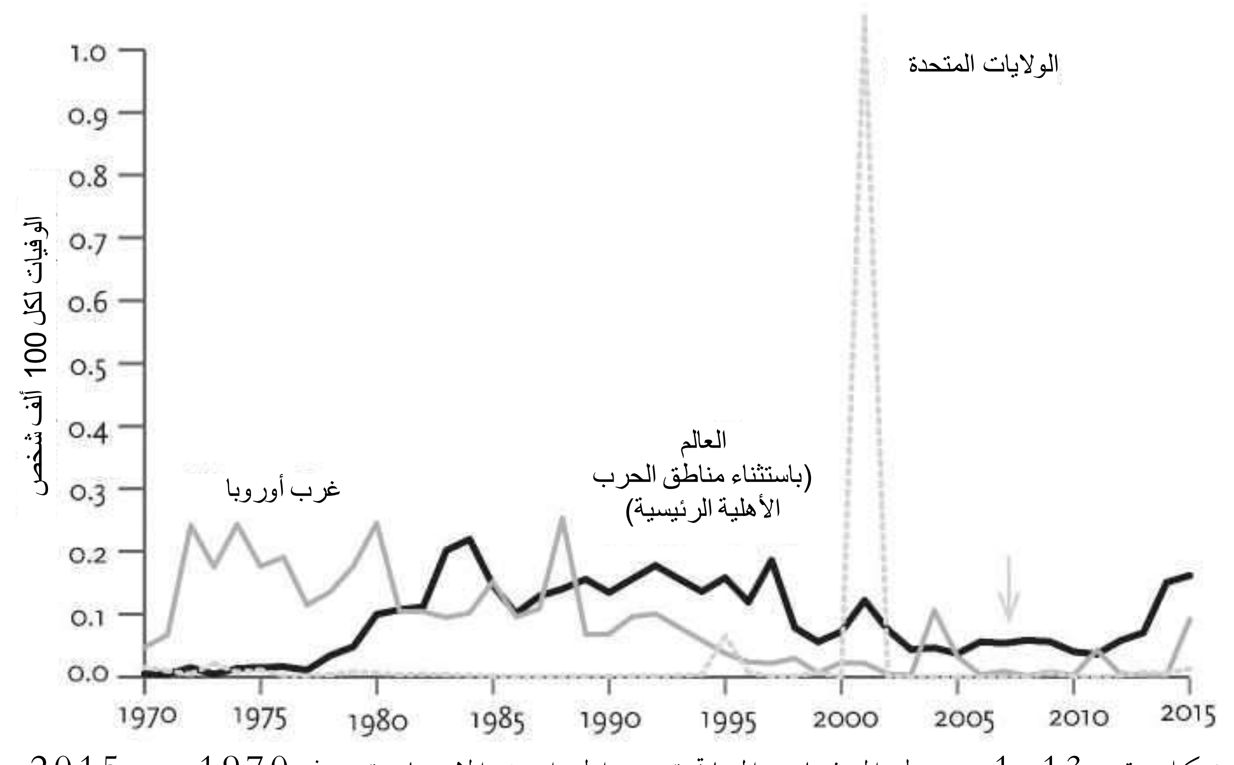
لنبدأ بالولايات المتحدة، الأمر البارز في الجدول هو عدد الوفيات الضئيل في 2015 الناتجة عن الإرهاب مقارنةً بتلك الناتجة عن الأخطار الأخرى التي لا تثير نفس مقدار الأسى (كان تعداد الوفيات الناتجة عن الإرهاب في 2014 أقل من ذلك، 19 حالة وفاة)، وحتى هذا العدد التقديري (44) مبالغ فيه، فهو مأخوذ من قاعدة بيانات الإرهاب العالمية التي تعتبر جرائم الكراهية وأغلب عمليات إطلاق النار الجماعية أمثلة على «الإرهاب». يمكن مقارنة هذا التعداد بعدد وفيات العناصر العسكرية في أفغانستان والعراق (28 في عام 2015 و58 في عام 2014) والذي لم يتلقَّ رُبع التغطية الإعلامية التي تلقاها عدد وفيات الإرهاب اتساقًا مع انخفاض قيمة حياة الجنود منذ قديم الأزل. تكشف الصفوف التالية أنَّ المواطن الأمريكي كان في 2015 أكثر عرضةً لأن يتعرض لجريمة قتل من أن يُقتل في هجومٍ إرهابي بمقدار 350 ضعفًا، وأكثر عرضة لأن يُقتل في حادث سيارة بمقدار 800 ضعفٍ، ولأن يموت نتيجة أي حادث بمقدار 3000 ضعفٍ (من ضمن فئات الحوادث التي تقتل عادةً أكثر من 44 شخصًا في أي عامٍ «صواعق البرق»، و«ملامسة ماء الصنبور الساخن» و«ملامسة الزنابير والدبابير والنحل» و«التعرض للعض أو الضرب من الثدييات الأخرى غير الكلاب» و«الغرق والغطس أثناء الوجود في المغطس أو عند الوقوع فيه» و«اشتعال الملابس والثياب الأخرى غير ثياب النوم أو ذوبانها»).

كان خطر الإرهاب النسبي في غرب أوروبا أعلى منه في الولايات المتحدة، ويرجع هذا جزئيًّا إلى أنَّ 2015 كان عامًا فظيعًا للإرهاب في تلك المنطقة، إذ وقعت هجمات في مطار بروكسل وعدة ملاهٍ ليلية في باريس واحتفالٍ عامٍ في نيس (قُتل 5 أشخاص فقط في 2014). ولكنَّ خطر الإرهاب الأعلى نسبيًّا علامة أيضًا على مدى أمان أوروبا في النواحي الأخرى كلها، فالأوروبيون الغربيون أقل ارتكابًا لجرائم القتل من الأمريكيين (فمعدل جرائم القتل لديهم حوالي ربع المعدل في أمريكا) وهُم أقل جنونًا في قيادة السيارات أيضًا لذا يموت عددٌ أقل من الناس على الطرق. وحتى مع هذه العوامل التي ترجّح كفة الإرهاب، كان المواطن في دول غرب أوروبا في عام 2015

أكثر عرضةً لأن يموت في إحدى جرائم القتل (النادرة نسبيًّا لديهم) من أن يموت في هجومٍ إرهابي بمقدار 20 ضعفًا، وأكثر عرضة لأن يموت في حادث سيارة بمقدار 100 ضعفٍ، وأكثر عرضة لأن يتعرض للسحق أو التسمم أو الحرق أو الاختناق أو لحادثٍ قاتل آخر بمقدار 700 ضعفٍ.

يوضّح العمود الثالث أنَّه رغم كل الكرب الذي شهدناه مؤخرًا بسبب الإرهاب في الغرب، إلا أنَّ وضعنا جيد مقارنةً بأجزاءٍ أخرى من العالم، فرغم أنَّ الولايات المتحدة وغرب أوروبا يشملان حوالي عُشر سكان العالم، إلَّا أنَّهم عانوا في 2015 من نصف في المئة من عدد الوفيات الناتجة عن العمليات الإرهابية. ليس هذا بسبب أنَّ الإرهاب أحد الأسباب الرئيسية للوفاة في الأماكن الأخرى، وإنَّما لأنَّ الإرهاب –حسب تعريفه الحالي– ظاهرة حربية بدرجةٍ كبيرة، والحروب لم تعُد تندلع في الولايات المتحدة أو غرب أوروبا. منذ هجوم 11 من سبتمبر عام 2001، أصبحت عمليات العنف التي كان يُطلق عليها «عصياناً» أو «حرب عصابات» تندرج الآن تحت تصنيف «الإرهاب» (ومن المذهل أنَّ قاعدة بيانات الإرهاب العالمية لا تصنِّف أي وفيات حدثت في فيتنام في آخر خمس سنوات من الحرب هناك بأنَّها عمليات «إرهابية»). تحدث أغلبية حالات الوفاة الناتجة عن العمليات الإرهابية في العالم في مناطق الحروب الأهلية (بما يشمل 8831 حالة في العراق و6208 في أفغانستان و5288 في نيجيريا و3916 في سوريا و1606 في باكستان و689 في ليبيا)، ويُحسب الكثير من هذه الحالات أيضًا كحالات وفاة ناتجة عن الحروب لأنَّ «الإرهاب» في ظل الحروب الأهلية يُعد ببساطة جريمة حرب –هجوم متعمد على المدنيين– ترتكبها جماعة أخرى غير الحكومة (باستثناء مناطق الحرب الأهلية الستة المذكورة، كان عدد الوفيات الناتجة عن العمليات الإرهابية في 2015 يبلغ 11884 حالة). حتى مع هذا الحساب المزدوج لوفيات الإرهاب والحروب خلال أسوأ عام في القرن الحادي والعشرين من حيث أعداد الوفيات الناتجة عن الحروب، كان المواطن العالمي أكثر عرضة للموت جراء جريمة قتل من الموت جراء هجومٍ إرهابي بمقدار 11 ضعفًا، وأكثر عرضة للموت في حادث سيارة بمقدار 30 ضعفًا، وأكثر عرضة للموت في أي حادثٍ آخر بمقدار 125 ضعفًا.

هل زاد الإرهاب مهما كان عدد قتلاه بمرور الوقت؟ إنَّ الاتجاهات التاريخية محيرة، لأنَّ «الإرهاب» تصنيف مطاط، فيختلف شكل الخطوط المعبرة عن الاتجاهات بناءً على ما إذا كانت مجموعة البيانات تشمل جرائم حرب أهلية أو عدة جرائم قتل (والتي تشمل السرقات أو جرائم القتل التي تقوم بها العصابات، والتي يتعرض فيها العديد من الضحايا لإطلاق النيران) أو حالات الهياج الانتحاري التي تحدث فيها القاتل عن مظلمة سياسيةٍ ما قبل ارتكاب الجريمة (تشمل قاعدة بيانات الإرهاب العالمية على سبيل المثال مذبحة مدرسة كولومباين التي وقعت عام 1999 في حين لا تشمل مذبحة مدرسة ساندي هوك التي وقعت عام 2012). إنَّ عمليات القتل الجماعي مشاهد يحفزها الإعلام، إذ توحي التغطية الإعلامية لهذه العمليات للآخرين بتقليدها، وهكذا تظل هذه العمليات في تأرجحٍ صعودًا وهبوطًا بينما تُلهم كل عمليةٍ عمليةً أخرى حتى تخفت «التقليعة» قليلًا. تذبذب عدد «حوادث إطلاق النار» (عمليات القتل بالأسلحة في الأماكن العامة) في الولايات المتحدة منذ عام 2000 مع اتجاهها صعودًا، رغم أنَّ عدد «عمليات القتل الجماعي» (أربع أو خمس حالات وفاة في حادثٍ واحد) لم يطرأ عليه أي تغيير منهجي (بل انخفض انخفاضًا طفيفًا) منذ 1976 حتى 2011. نجد في الشكل رقم 13-1 معدل الوفيات الناتجة عن «الحوادث الإرهابية» للفرد، إضافةً إلى الاتجاهات المضطربة في غرب أوروبا والعالم.



الشكل رقم 13- 1: معدل الوفيات الناتجة عن الحوادث الإرهابية منذ 1970 حتى 2015

المصدر: قاعدة بيانات الإرهاب العالمية، (الاتحاد الوطني لدراسة الإرهاب والاستجابة للإرهاب) National Consortium for the Study of Terrorism and Responses to Terrorism 2016، https://www.start.umd.edu/gtd/. يستثني معدل الوفيات في العالم الوفيات في أفغانستان بعد 2001 والعراق بعد 2003 وباكستان بعد 2004 ونيجيريا بعد 2009 وسوريا بعد 2011 وليبيا بعد 2014. تقديرات عدد السكان في العالم وغرب أوروبا من مراجعة الاتحاد الأوروبي للتوقعات السكانية في العالم لعام 2015 (https://esa.un.org/unpd/wpp/)، وتقديرات عدد السكان في الولايات المتحدة من مكتب تعداد الولايات المتحدة لعام 2017. يشير السهم الرأسي إلى سنة 2007، وهي آخر سنة مرسومة في الأشكال رقم 6-9 و6-10 و6-11 في Pinker 2011.

يطغي على الرسم البياني معدل الوفيات الناتج عن الإرهاب في أمريكا لعام 2001 الذي يشمل 3000 حالة وفاة بسبب هجمات 11 من سبتمبر، ونرى نتوءًا في مكانٍ آخر يشير إلى التفجير الذي وقع في مدينة أوكلاهوما عام 1995 (165 حالة وفاة) وبعض التجاعيد غير الملحوظة تقريبًا في أعوام أخرى. باستثناء حادثتي الحادي عشر من سبتمبر وأوكلاهوما، فإنَّ عدد الأمريكيين الذين قُتلوا على يد المتطرِّفين من اليمين السياسي الأمريكي ضعف عدد من قُتلوا على يد الجماعات الإرهابية الإسلامية منذ عام 1990. يوضِّح الخط الذي يشير إلى غرب أوروبا أنَّ الارتفاع في عام 2015 حدث بعد عقدٍ من السكون النسبي، وهو ليس أسوأ ما شهده غرب أوروبا، فمعدل عمليات القتل كان أعلى في السبعينيات والثمانينيات عندما كانت الجماعات الماركسية والانفصالية (بما فيها الجيش الجمهوري الأيرلندي وحركة إيتا ETA الباسكية) تنفذ عمليات تفجير وإطلاق نار بانتظام. يحتوي الخط الذي يشير إلى العالم بأكمله (باستثناء الوفيات الأخيرة في مناطق الحرب الكبرى التي ذكرناها في الفصل الخاص بالحروب) على فترة استقرار تشمل بعض النتوءات خلال الثمانينيات والتسعينيات، وانخفاضٍ بعد نهاية الحرب الباردة، وارتفاعٍ حديث إلى مستوى ما زال أقل من مستويات العقود السابقة. إذًا فالاتجاهات التاريخية، مثل الأرقام الحالية أيضًا، تكذِّب الخوف من أننا نعيش في عصرٍ خطرٍ على نحوٍ جديد ومختلف، وخاصةً في

الغرب.

رغم أنَّ الإرهاب يشكِّل خطرًا ضئيلًا مقارنةً بالأخطار الأخرى، إلَّا أنَّه يخلق هلعًا وهستيريا مبالغًا فيهما لأنَّ هذا هو هدفه. إنَّ الإرهاب الحديث نتاج الانتشار الواسع للإعلام. يسعى فردٌ أو مجموعةٌ ما لجذب جزءٍ من انتباه العالم بالوسيلة المضمونة لجذبه، وهي قتل الأبرياء، وخاصةً في الظروف التي تجعل قراء الأخبار يتخيلون أنفسهم مكان الضحايا، وتبتلع وسائل الإعلام الطُعم وتقدم تغطية واسعة لحمامات الدماء، ويعمل قانون التوفر فيصيب الناس بخوفٍ غير مرتبط بمستوى الخطر الفعلي.

ليست أهمية الحدث المروع فقط هي ما يؤجج الرعب، فإنَّ عواطفنا تتفاعل أكثر مع المأساة عندما يكون سببها نية خبيثة وليس سوء حظ عارضًا (أعترف أنَّني بصفتي أتردد كثيرًا على لندن، كنتُ أشعر بالاستياء عند قراءة عنوان يقول هجوم «إرهابي» في ميدان راسل يؤدي إلى قتل امرأة أكثر مما أشعر به عند قراءة عنوان يقول وفاة هاوي جمع تحف فنية شهير بعد أن صدمته حافلة في شارع أوكسفورد). هناك شيء مقلق في فكرة أنَّ إنساناً آخر يريد قتلك، ولهذا سببٌ تطوريٌّ معقول، فأسباب الوفاة العارضة لا تحاول أن تقتلك، ولا تهتم برد فعلك، في حين أنَّ الجناة من البشر يكرسون ذكاءهم للتفوق عليك، والعكس بالعكس.

بالنظر إلى أنَّ الإرهابيين ليسوا خطرًا غير واعٍ وإنَّما فاعلون بشريون لهم أهداف، فهل من العقلانية أن نقلق بشأنهم رغم حجم الضرر الضئيل الذي يحدثونه؟ فنحن نغضب مثلًا بسبب الطغاة الذين يعدمون المتمردين، رغم أنَّ عدد ضحاياهم قد يكون ضئيلًا كعدد ضحايا الإرهاب، ولكنَّ الاختلاف يكمن في أنَّ عنف الطغاة له آثار استراتيجية غير متناسبة مع عدد الضحايا، فهو يقضي على أقوى المخاطر التي تهدد النظام، ويردع بقية المواطنين عن تكرار فعلة هؤلاء الضحايا. يصيب العنف الإرهابي ضحاياه بعشوائية، إذًا فالأهمية الموضوعية لهذا التهديد، تتجاوز الضرر المباشر، وتختلف حسب ما تهدف عملية القتل العشوائية إلى تحقيقه.

يهدف كثيرٌ من الإرهابيين إلى ما هو أكثر من الدعاية نفسها، إذ حلَّل الباحث القانوني آدم لانكفورد (Adam Lankford) دوافع الفئات المتداخلة من الإرهابيين الانتحاريين ومطلقي النار والقتلة مرتكبي جرائم الكراهية، بما يشمل كلًّا من المتطرفين المستقلين، ومنفذي العمليات الذين جنَّدهم أصحاب العقول المدبِّرة الإرهابية. يكون القتلة غالبًا مستقلين وفاشلين، ويكون كثيرٌ منهم مصاباً باضطراب عقلي لم يُعالَج، ويستهلكهم السخط، ويحلمون بالانتقام والتقدير، دمج بعضهم بين المرارة التي يشعرون بها والأيديولوجيا الإسلامية، ودمج بعضهم بين هذه المرارة وقضيةٍ غائمة مثل «شن حرب عرقية» أو «ثورة على الحكومة الفيدرالية والضرائب والقوانين المناهضة لحمل السلاح»، قدَّم لهم قتل الكثيرين الفرصة في أن يصبحوا شخصًا ما حتى لو كان هذا من خلال ترقب الحدث فقط، ويعني إنهاء حياتهم بنيران المجد أنَّهم ليسوا مضطرين إلى مواجهة التبعات الشاقة لكونهم مرتكبي جرائم القتل الجماعية. ويزيد كلٌّ من الوعد بالجنة والأيديولوجيا التي تبرِّر المجازر بأنَّها تحقق خيرًا أسمى من جاذبية المنزلة الرفيعة بعد الموت.

أمَّا الإرهابيون الآخرون فينتمون إلى جماعات مسلَّحة تحاول جذب الانتباه لقضيتها، مثل ابتزاز الحكومة من أجل تغيير سياساتها أو استفزازها لتتخذ رد فعل متطرفًا قد يتسبب في تجنيد متعاطفين جدد مع هذه الجماعات أو يخلق لها مساحة فوضى يمكنها استغلالها، أو تشويه سمعة الحكومة بنشر الانطباع بأنَّها لا تستطيع حماية مواطنيها. قبل أن نستنتج أنَّها «تمثِّل تهديدًا على وجود الولايات المتحدة أو بقائها»، علينا أن نأخذ في اعتبارنا مدى ضعف هذا التكتيك في الحقيقة. يذكر المؤرِّخ يوفال هراري (Yuval Harari) أنَّ

الإرهاب عكس العمل العسكري، الذي يحاول إتلاف قدرة العدو على الانتقام والانتصار، فعندما هاجمت اليابان بيرل هاربر في عام 1941، جرَّدت الولايات المتحدة من أي أسطولٍ ترسله إلى جنوب شرق آسيا ردًّا عليها، كان من الجنوني أن تختار اليابان الإرهاب مثلًا عبر نسف سفينة ركاب لاستفزاز الولايات المتحدة كي ترد عليها بقواتها البحرية الكاملة. فيقول هراري إنَّ ما يحاول الإرهابيون تحقيقه من موقفهم الضعيف ليس الضرر وإنَّما المشاهد المسرحية المؤثرة. ليست الصورة التي يتذكرها معظم الناس من حادث الحادي عشر من سبتمبر هجوم القاعدة على البنتاجون –الذي دمَّر جزءًا من مقرات العدو العسكرية وتسبب في مقتل قادة ومحلِّلين– وإنَّما هجومها على مركز التجارة العالمي الرمزي، الذي تسبب في مقتل وسطاء ماليين ومحاسبين وغيرهم من المدنيين.

رغم أنَّ الإرهابيين يأملون حدوث الأفضل، إلَّا أنَّهم نادرًا ما يحصلون على ما يريدونه عن طريق العنف محدود النطاق. توضِّح دراسات منفصلة أجراها الباحثون في العلوم السياسية ماكس أبراهامز (Max Abrahms) وأودري كرونين (Audrey Cronin) وفيرجينيا بيدج فورتنا (Virginia Page Fortna) على مئات الحركات الإرهابية النشطة منذ ستينيات القرن الماضي أنَّ جميعها اندثرت أو خفت وهجها دون تحقيق أهدافها الاستراتيجية.

ليس تزايد الوعي العام بالإرهاب علامةً على مدى خطورة العالم بل على العكس، ويلاحظ الباحث في العلوم السياسية روبرت جيرفيس (Robert Jervis) أنَّ احتلال الإرهاب مكانة في أعلى قائمة الأخطار المهدِّدة «ينبع جزئيًّا من البيئة الأمنية الحميدة بصورةٍ ملحوظة». ليست الحروب بين الدول فقط هي ما أصبح نادرًا، وإنَّما أصبح استخدام العنف السياسي على الصعيد المحلي نادرًا كذلك. يشير هراري إلى أنَّ كل قطاعٍ من قطاعات المجتمع كان له ميليشيا خاصة في العصور الوسطى –طبقة الأرستقراطيين والطوائف الحرفية والبلدات، بل وحتى الكنائس والأديرة– وكان كلٌّ منهم يؤمِّن مصالحه بالقوة: «إذا قتل بعض المتطرفين المسلمين في عام 1150 مجموعة صغيرة من المدنيين في القدس، مطالبين بأن يغادر الصليبيون الأراضي المقدسة، كان رد الفعل سيكون الاستهزاء وليس الرعب، فإذا أردت أن يأخذك الآخرون على محمل الجد في ذلك الوقت، كان عليك أن تستولي على قلعة محصَّنة أو اثنتين». عندما نجحت الدول الحديثة في احتكار القوة، وخفَّضت معدل القتل داخل حدودها، فتحت بذلك مجالًا صغيرًا للإرهاب.

> شدَّدت الدولة مرات عدة على أنَّها لن تتسامح مع العنف السياسي داخل حدودها فلم يصبح لديها بديل عن أن ترى أنَّ أي فعل إرهابي لا يمكن التسامح معه، أمَّا المواطنون فقد اعتادوا على غياب العنف السياسي تمامًا، فأصبح المشهد الإرهابي يثير بداخلهم مخاوف عميقة من الفوضوية، ممَّا يجعلهم يشعرون كأنَّ النظام الاجتماعي يوشك على الانهيار. بعد قرونٍ من الصراعات الدموية، خرجنا بصعوبةٍ من ثقب العنف الأسود، ولكنَّنا نشعر بأنَّ هذا الثقب الأسود ما زال موجودًا، ينتظر بصبرٍ أن يبتلعنا ثانيةً، فبمجرد حدوث بعض الفظائع الشنيعة نتخيل السقوط في هذا الثقب مرة أخرى.

بينما تحاول الدول القيام بالمهمة المستحيلة وهي حماية مواطنيها من كل أشكال العنف السياسي في كل مكان طوال الوقت، يغريها الرد على هذا العنف بمشهدٍ مسرحي مؤثر أيضًا، فأكثر آثار الإرهاب تدميرًا هو مبالغة الدول في ردها عليه، ومن الأمثلة على ذلك غزو أفغانستان والعراق بقيادةٍ أمريكية بعد الحادي عشر من سبتمبر.

تستطيع الدول التعامل مع الإرهاب بدلًا من ذلك بتسخير مزاياها الكبرى، وهي المعرفة والتحليل، ولا سيما المعرفة بالأرقام، يجب أن يكون الهدف الأسمى هو التأكد من أن تظل الأرقام ضئيلة عبر تأمين أسلحة الدمار الشامل (الفصل التاسع عشر). يمكن مكافحة

الأيديولوجيات التي تبرِّر العنف ضد الأبرياء مثل الأديان والقوميات والماركسية المسلحة بأنظمة قيم وعقائد أفضل (الفصل الثالث والعشرون). يمكن أن يفحص الإعلام دوره الجوهري في مجال عروض الإرهاب «الترفيهية» عبر مواءمة تغطيتها مع الخطر الموضوعي وتأمل الحوافز الفاسدة التي قدَّمها للإرهابيين (أوصى كلٌّ من لانكفورد وعالم الاجتماع إريك مادفيس Erik Madfis باتباع سياسة «لا تذكروا أسماءهم، لا تعرضوا صورهم، ولكن اذكروا كل الأمور الأخرى» فيما يخص حوادث إطلاق النار، وهي قائمة على سياسة متَّبعة بالفعل مع مرتكبي جرائم إطلاق النار من الأحداث في كندا، وعلى استراتيجيات أخرى من ضبط النفس الإعلامي المحسوب). يمكن أن تطوِّر الحكومات من إجراءاتها الاستخباراتية والسرية ضد الشبكات الإرهابية وروافدها المالية، ويمكن تشجيع الأفراد على الحفاظ على هدوئهم ومواصلة طريقهم، مثلما حثَّهم على ذلك الملصق البريطاني الشهير في وقت الحرب الذي كان الخطر فيه أعظم كثيرًا.

تفشل الحركات الإرهابية على المدى البعيد عندما يعجز العنف محدود النطاق عن تحقيق أهدافها الاستراتيجية، حتى لو تسبَّب ذلك في خوفٍ وأسى على المستوى المحلي، فحدث هذا للحركات الفوضوية في مطلع القرن العشرين (بعد عدة تفجيرات واغتيالات)، وحدث للجماعات الماركسية والانفصالية في النصف الثاني من القرن العشرين، وسيحدث بالتأكيد لداعش في القرن الحادي والعشرين. ربما لن نستطيع مطلقًا خفض أعداد ضحايا الإرهاب المنخفضة بالفعل لتصل إلى الصفر، ولكن يمكننا أن نتذكر أنَّ الرعب بشأن الإرهاب ليس علامةً على مدى خطورة مجتمعنا، وإنَّما على مدى أمنه.

الفصل الرابع عشر:
الديمقراطية

منذ نشأة الحكومات قبل حوالي خمسة آلاف عام، والبشرية تحاول تحقيق الاعتدال بين عنف الفوضوية من جانب، وعنف الاستبداد من جانب آخر، ففي غياب حكومةٍ قوية أو جيران أقوياء، تميل القبائل إلى الانخراط في دورات متعاقبة من الغزو والتناحر، وتتجاوز معدلات الوفاة حينها معدلات الوفاة في المجتمعات الحديثة حتى في أعنف الحِقَب التي مرت عليها. كانت الحكومات الأولى تهدِّئ شعوبها وتحد من العنف الطاحن ولكنَّها حكمت في ظل عهودٍ من الإرهاب تضمنت العبودية و«الحريم» والأضاحي البشرية وحالات الإعدام بإجراءات موجزة وتعذيب المتمردين والمنحرفين وتشويههم وقطع أعضائهم (ولا يخلو الكتاب المقدس من الأمثلة على ذلك). استمر الطغيان على مر التاريخ، ليس فقط لأنَّ وظيفة الطاغية جيدة إذا استطعت الحصول عليها، ولكن لأنَّ البديل كان أسوأ في أغلب الحالات من وجهة نظر الشعب. قدَّر ماثيو وايت (Matthew White) -الذي يقول إنَّ مهمته إحصاء الموتى- عدد الوفيات في أكثر 100 حدثٍ دمويةً في تاريخ البشر منذ 2500 عامٍ، وبعد البحث عن أنماطٍ متشابهة في قائمته، ذكر أنَّ ما يلي هو الأكثر دموية:

> الفوضى أكثر فتكًا من الاستبداد، تنتج أكثر هذه الحالات المتعددة من القتل عن انهيار السلطة وليس عن ممارسة السلطة. مقارنةً بحفنة من الحكام الديكتاتوريين مثل عيدي أمين وصدام حسين الذين مارسوا سلطتهم المطلقة لقتل مئات الآلاف من الناس، وجدتُ فترات اضطراب أكثر فتكًا لم يمارس أحدٌ خلالها أي سلطة كافية لمنع وفاة الملايين مثل عهد الاضطرابات (في روسيا في القرن السابع عشر) والحرب الأهلية الصينية (منذ 1926 إلى 1937، ومنذ 1945 إلى 1949) والثورة المكسيكية (منذ 1910 إلى 1920).

يمكننا أن ننظر إلى الديمقراطية باعتبارها إحدى أشكال الحكومة التي تتوسط بين القوى المتنازعة وتبذل ما يكفي من القوة لمنع الناس من افتراس بعضهم بعضًا دون أن تفترس هي نفسها الناس. تتيح الحكومة الديمقراطية الجيدة لشعبها إمكانية أن يعيش حياته بأمانٍ وفي حمايةٍ من عنف الفوضوية، وبحريةٍ وفي حماية من عنف الاستبداد. ولهذا السبب تُعد الديمقراطية عاملًا كبيرًا في ازدهار البشرية، ولكنَّ هذا ليس السبب الوحيد، فالديمقراطيات تحقق أعلى معدلات النمو الاقتصادي، وتخوض حروبًا أقل وتحدث بها عمليات إبادة جماعية أقل، وتتمتع بمواطنين ذوي صحةٍ وتعليمٍ أفضل، ولا تحدث بها مجاعات فعليًّا. فإذا أصبح العالم أكثر ديمقراطية بمرور الوقت، فإنّ هذا يُعد تقدمًا.

في الحقيقة، أصبح العالم بالفعل أكثر ديمقراطية، رغم أنَّ هذا لم يحدث بطريقة تصاعدية ثابتة. قسَّم الباحث في العلوم السياسية صامويل هانتينجتون (Samuel Huntington) تاريخ التحوُّل إلى الديمقراطية إلى ثلاث موجات. جاءت الموجة الأولى في القرن التاسع عشر عندما بدا أنَّ تلك التجربة التنويرية العظيمة (أي الديمقراطية الدستورية الأمريكية ورقابتها على سلطة الحكومة) ناجحة. وقد حاكت عددٌ من الدول، أغلبها في غرب أوروبا، تلك التجربة مع إضفاء بعض التغييرات حسب المكان، وبلغت هذه الموجة ذروتها بـ 29 دولة في عام 1922. تراجعت الموجة الأولى نتيجة صعود الفاشية، وانحسر عدد هذه الدول إلى 12 دولة فقط في عام 1942.

بعد هزيمة الفاشية في الحرب العالمية الثانية، استجمعت الموجة الثانية قواها بحصول المستعمرات على استقلالها عن المستعمرين الأوروبيين، مما دفع عدد الدول الديمقراطية المعترف بها ليصل في عام 1962 إلى 36 دولة. ولكنّ الديموقراطيات الأوروبية كانت محاطة بالديكتاتوريات السوفييتية من الشرق والديكتاتوريات الفاشية في البرتغال وإسبانيا من الجنوب الغربي، وسرعان ما تراجعت الموجة الثانية نتيجة المجالس العسكرية في اليونان وأمريكا اللاتينية والنظم السلطوية في آسيا واستيلاء الشيوعية على أفريقيا والشرق الأوسط وجنوب شرق آسيا. في منتصف السبعينيات، كان مستقبل الديمقراطية يبدو قاتمًا، عبَّر فيلي براندت (Willy Brandt)، الذي كان مستشارًا لحكومة ألمانيا الغربية عن حسرته على أنَّه «لم يعُد أمام غرب أوروبا سوى 20 أو 30 عامًا من الديمقراطية، وبعد ذلك ستنزلق دون محرك ودون توجيه في بحر الديكتاتورية المحيط بها». اتفق معه السيناتور الأمريكي وعالم الاجتماع دانييل باتريك موينيهان (Daniel Patrick Moynihan) وكتب أنَّ: «الديمقراطية الليبرالية على الطراز الأمريكي تتجه في اطرادٍ إلى وضع الملكية في القرن التاسع عشر: الحكومة التي تتجاوز مدتها المقررة، والتي تعمل في أماكن معزولة أو خاصة هنا أو هناك، وقد تصلح للظروف الخاصة ولكن لا صلة لها بالمستقبل ببساطة. هذا ماضي العالم وليس مستقبله».

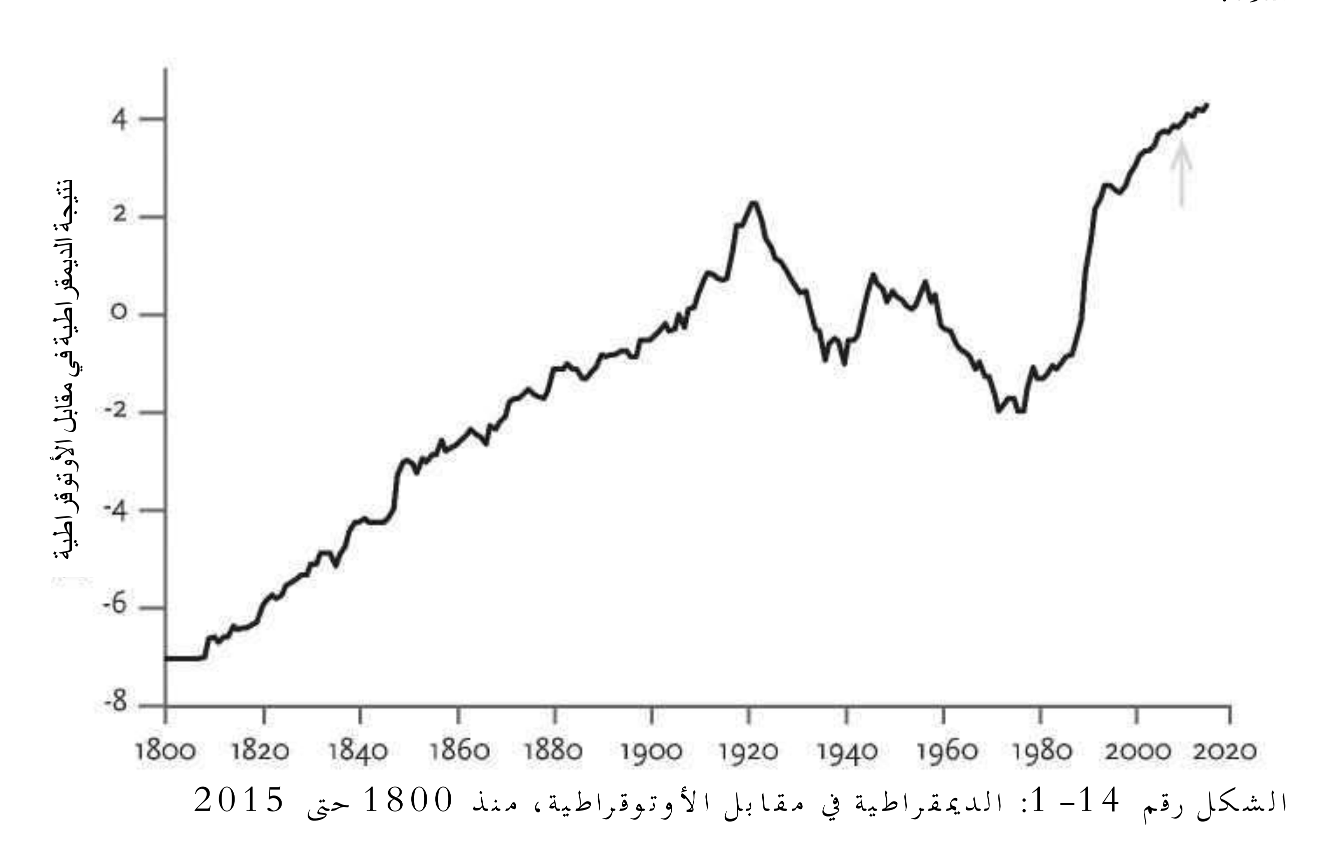
قبل أن يجف الحبر الذي كُتبت به هذه المرثيات، انبثقت موجة –أو بالأحرى تسونامي– التحول الديمقراطي الثالثة، حيث سقطت الحكومات العسكرية والفاشية في جنوب أوروبا (اليونان والبرتغال في عام 1974 وإسبانيا عام 1975) وأمريكا اللاتينية (بما فيها الأرجنتين في عام 1983 والبرازيل عام 1985 وتشيلي عام 1990) وآسيا (بما يشمل تايوان والفلبين حوالي العام 1986 وكوريا الجنوبية حوالي العام 1987 وإندونيسيا في عام 1998). وبعد هدم جدار برلين في عام 1989 تحررت شعوب شرق أوروبا لتؤسس حكوماتها الديمقراطية، وانهارت الشيوعية في الاتحاد السوفييتي في عام 1991 مما أفسح المجال أمام روسيا ومعظم الجمهوريات الأخرى كي تقوم بهذا التحول. تخلصت بعض الدول الأفريقية من زعمائها، واختارت آخر المستعمرات الأوروبية التي حصلت على استقلالها والتي تقع غالبًا عند البحر الكاريبي ومنطقة أوقيانوسيا أن تكون الديمقراطية هي أول شكل حكومة تنشأ بها. نشر الباحث في علم السياسة فرانسيس فوكوياما (Francis Fukuyama) في عام 1989 مقالةً شهيرة اقترح فيها أنَّ الديمقراطية الليبرالية تمثِّل «نهاية التاريخ»، ليس لأنَّ شيئًا لن يحدث بعد ذلك أبدًا، ولكن لأنَّ العالم بدأ يتوصل لإجماعٍ على أفضل شكل إنساني ممكن من الحكم ولم يعُد مضطرًا إلى القتال على الحكم.

صاغ فوكويوما فكرة سريعة الانتشار، ففي العقود التي تلت نشر مقالته، أعلن كثيرٌ من الكتب والمقالات «نهاية..» الطبيعة، والعلم، والإيمان، والفقر، والمنطق، والمال، والرجال، والمحامين، والمرض، والسوق الحرة، والجنس. ولكنّ فكرة فوكوياما تلقّت، على الجانب الآخر، بعض الضربات عندما أصبح المحررون يعلِّقون بحماسٍ على الأخبار السيئة بإعلان «عودة التاريخ» وصعود بدائل الديمقراطية مثل الثيوقراطية في العالم الإسلامي والرأسمالية السلطوية في الصين، وبدا أنَّ الديمقراطيات نفسها تسقط ثانيةً في هوة السلطوية بانتصار الشعبويين في بولندا والمجر واستيلاء رجب طيب أردوغان على السلطة في تركيا وفلاديمير بوتين على السلطة في روسيا (عودة السلطان والقيصر). أعلن المتشائمون التاريخيون بشماتتهم المعتادة أنَّ الموجة الثالثة من التحول الديمقراطي استسلمت أمام «التيار الرجعي» أو «الانتكاس» أو «التآكل» أو «التراجع» أو «الانهيار»، وقالوا إنَّ الديمقراطية غرور من الغربيين الذين يسقطون ميولهم على بقية العالم، في حين يبدو أنَّ السلطوية تناسب أغلب البشر.

هل يعني هذا التاريخ الحديث حقًّا أنَّ الناس سعداء بأنْ تعاملهم حكوماتهم بوحشية؟ هذه الفكرة مريبة لسببين، السبب الأوضح هو كيف يمكنك أن تعرف ذلك في دولةٍ غير ديمقراطية؟ فربما تكون المطالبة المكبوتة بالديمقراطية هائلة ولكنْ لا أحدَ يجرؤ على التعبير

عنها خشية أن يتعرض للسجن أو لإطلاق النار. والسبب الآخر هو مغالطة عناوين الأخبار، إذ تتصدر أعمال القمع عناوين الأخبار أكثر من عمليات التحرير، وقد يجعلنا انحياز التوفر ننسى كل الدول المملة التي تتحول خطوة بخطوة إلى دول ديمقراطية.

الطريقة الوحيدة لمعرفة اتجاه العالم هي دائمًا القياس الكمي، يثير هذا التساؤل حول ما يُعد «ديمقراطية»، وهي كلمة رسمت حول نفسها هالةً من الصلاح حتى أصبحت تقريبًا عقيمة، من القواعد العامة الجيدة أنَّ أي دولة يشمل اسمها الرسمي كلمة «الديمقراطية» مثل جمهورية كوريا الديمقراطية الشعبية (التي تُعرف باسم كوريا الشمالية) أو جمهورية ألمانيا الديمقراطية (التي عُرفت باسم ألمانيا الشرقية) لا تكون ديمقراطية. ليس من المفيد سؤال مواطني الدول غير الديمقراطية عن آرائهم في معنى الكلمة، فنصفهم تقريبًا يظنون أنَّها تعني «أن يتولى الجيش الحكم عندما تكون الحكومة غير مؤهلة» أو «أن يؤوِّل الزعماء الدينيون القوانين»، وتواجه تقييمات الخبراء مشكلة مرتبطة بهذا الأمر عندما تشمل القوائم المرجعية التي يعرضونها مزيجًا من الأمور الجيدة مثل «التخلص من انعدام المساواة في الجانب الاجتماعي الاقتصادي» و«التخلص من الحروب». من التعقيدات الأخرى أنَّ الدول تختلف كثيرًا باستمرار من حيث عناصر الديمقراطية مثل حرية التعبير وانفتاح العملية السياسية والقيود المفروضة على سلطة القائد، لذا فإنَّ أي إحصاءٍ يقسِّم الدول إلى «ديمقراطية» و«أوتوقراطية» سيتقلَّب بين عامٍ وآخر حسب الاختيارات الاعتباطية لمكان الدول التي تقترب من الحد الفاصل بينهما (وهي المشكلة التي تفاقمت عندما ارتفعت معايير المقيِّمين بمرور الوقت، وسنعود إلى هذه الظاهرة لاحقًا). يتعامل مشروع نظام الحكم (Polity Project) مع هذه العقبات باستخدام مجموعة ثابتة من المعايير لتقييم كل دولة بنتيجة تتراوح بين −10 و10 كل عام، ويشير هذا التقييم إلى مدى أوتوقراطية الدولة أو ديمقراطيتها، ويركِّز على قدرة المواطنين على التعبير عن تفضيلاتهم السياسية، والقيود المفروضة على سلطة المسؤولين التنفيذيين، وضمان الحريات المدنية. يتضح في الشكل رقم 14-1 مجموع نتائج العالم منذ عام 1800 مرورًا بموجات التحول الديمقراطي الثلاثة.



الشكل رقم 14- 1: الديمقراطية في مقابل الأوتوقراطية، منذ 1800 حتى 2015

المصدر: *HumanProgress*، http://humanprogress.org/f1/2560، استنادًا إلى *Polity IV Annual Time-Series, 1800–2015*, Marshall, Gurr, & Jaggers 2016. تُجمع النتائج من الدول السيادية ذات عدد السكان الذي يزيد على 500 ألف نسمة، وتتراوح النتائج بين −10 للدول الأوتوقراطية تمامًا و10 للدول الديمقراطية تمامًا. يشير السهم إلى سنة 2008، وهي آخر سنة مرسومة في الشكل رقم 5−23 من دراسة Pinker 2011.

يوضِّح الرسم البياني أنَّ الموجة الثالثة من التحول الديمقراطي أبعد ما تكون عن الانتهاء، فما بالك بالانحسار! حتى ولو لم تواصل اندفاعها بمعدل فترة انهيار جدار برلين في عام 1989. كان في العالم في ذلك الوقت 52 دولة ديمقراطية (كما قيّمها Polity Project على مقياسه بنتيجة 6 أو أكثر) وهو رقم أعلى من عدد الدول الديمقراطية في عام 1971 الذي بلغ 31 دولة. بعد الزيادة التي حدثت في التسعينيات، امتدت الموجة الثالثة إلى القرن الحادي والعشرين في شكل «الثورات الملونة» في كرواتيا (2000) وصربيا (2000) وجورجيا (2003) وأوكرانيا (2004) وقيرغيزستان (2005)، فبلغ العدد في عام 2009 في بداية فترة أوباما الرئاسية 87 دولة، وخلال فترته الرئاسية واصل العدد الزيادة مكذِّبًا صورة التراجع أو الانهيار. واستقر العدد عند 103 في عام 2015، وهو آخر عام في مجموعة البيانات، ومُنحت في هذا العام جائزة نوبل للسلام إلى تحالفٍ بين بعض المنظمات التي عززت التحول الديمقراطي، وهي إحدى قصص نجاح الربيع العربي الذي بدأ عام 2011. وشهد هذا العام أيضًا تحولات ديمقراطية في ميانمار وبوركينا فاسو، وخمسة تحركات إيجابية في خمس دول أخرى تشمل نيجيريا وسريلانكا. شملت الدول الديمقراطية في العالم في عام 2015 (103 دولة) 56 في المئة من سكان العالم، وإذا أضفنا إليها الدول الـ 17 التي كانت تميل إلى الديمقراطية أكثر من الأوتوقراطية، يكون إجمالي ثلثي سكان العالم يعيشون في مجتمعات حرة أو حرة نسبيًّا مقارنةً بنسبة الخُمسين في عام 1950، وسبعة في المئة في عام 1850 وواحد في المئة في عام 1816. إنَّ أربعة أخماس من يعيشون في 60 دولة غير ديمقراطية اليوم (20 دولة أوتوقراطية تمامًا، و40 دولة تميل إلى الأوتوقراطية أكثر من الديمقراطية) يقيمون في دولة واحدة هي الصين.

رغم أنَّ التاريخ لم ينتهِ، إلَّا أنَّ فوكوياما كان محقًّا في نقطةٍ ما، فقد ثبت أنَّ الديمقراطية أكثر جاذبيةً مما أقر به الباكون على احتضارها. بعد تكسر موجة التحول الديمقراطي الأولى، ظهرت نظريات مختلفة «تفسِّر» عدم إمكانية ترسّخ الديمقراطية في الدول الكاثوليكية أو غير الغربية أو الآسيوية أو الإسلامية أو الفقيرة أو المتنوعة ثقافيًّا، وتم تفنيد كل من هذه النظريات. صحيح أنَّ الديمقراطية المستقرة عالية الجودة توجد غالبًا في الدول الأغنى وذات التعليم الأفضل، ولكنَّ الحكومات التي تميل إلى الديمقراطية تشكِّل مجموعة ذات عناصر متنافرة ومختلفة، فهي متأصلة في معظم دول أمريكا اللاتينية، وفي الهند ذات التعدد الإثني، وفي دول إسلامية مثل ماليزيا وإندونيسيا والنيجر وكوسوفو، وفي أربع عشرة دولة في منطقة أفريقيا جنوب الصحراء (وتشمل ناميبيا والسنغال وبنين)، وفي دول فقيرة في مناطقَ أخرى مثل نيبال وتيمور الشرقية ومعظم دول الكاريبي.

وحتى الدول الأوتوقراطية مثل روسيا والصين، والتي لا تنبئ بأي تحرير قريب، فإنها ما زالت أقل قمعًا بدرجةٍ هائلة من أنظمة ستالين وبريجنيف وماو. يلخِّص يوهان نوربرج شكل الحياة في الصين قائلًا: «يستطيع الصينيون اليوم التحرك كما يحبون تقريبًا، وأن يشتروا منزلًا ويختاروا تعليمهم ووظيفتهم، وأن يؤسسوا شركة أو عملًا تجاريًّا، وأن ينتموا إلى إحدى دور العبادة (طالما كانوا بوذيين أو طاويين أو مسلمين أو كاثوليكيين أو بروتستانتيين)، وأن يرتدوا ما يحبون ويتزوجوا من يريدون، وأن يعلنوا عن مثليتهم الجنسية دون أن ينتهي الأمر باحتجازهم في معسكرات العمل القسري، وأن يسافروا إلى خارج بلادهم بحريةٍ، وأن ينتقدوا بعض جوانب سياسات الحزب (ليس من بينها حقه في الحكم دون معارضةٍ)، فحتى كلمة (غير حر) لم تعُد تعني ما كانت تعنيه من قبل».

لماذا ظلَّ تيار التحول الديمقراطي يتجاوز التوقعات بصورةٍ متكررة؟ أدَّى تراجع الديمقراطية وانعكاسها والثقوب السوداء التي سقطت فيها إلى نظريات تطرح شروطًا مسبقة شاقة للديمقراطية واختبارات قاسية لها (يمثِّل هذا ذريعةً مناسبة لإصرار الدكتاتوريين على أنَّ دولهم ليست مستعدة لها، مثل الزعيم الثوري في فيلم *Bananas* لوودي آلن (Woody Allen)، الذي أعلن بعد استيلائه على السلطة قائلًا إنَّ: «هؤلاء الناس فلاحون، وهُم أجهل من أن يصوِّتوا»). ويعزِّز هذه الرهبة إضفاء المثالية على صورة الديمقراطية كما يدرسها الطلاب في حصة التربية الوطنية، عندما يتشاور العامة المطَّلعون في الصالح العام ويختارون بعنايةٍ القادة الذين سينفذون السياسات التي يفضلونها.

وفق ذلك المعيار، يكون عدد الدول الديمقراطية في العالم صفرًا في الماضي، وصفرًا في الحاضر، وبالتأكيد صفرًا في المستقبل. يندهش علماء السياسة باستمرار من سطحية اعتقادات الناس السياسية وعدم تناسقها، ومن الصلة الهشة بين تفضيلاتهم وأصواتهم، وبين تفضيلاتهم وسلوكيات ممثِّليهم، فمعظم الناخبين لا يجهلون الخيارات السياسية الحالية فحسب، بل يجهلون أيضًا الحقائق الأساسية مثل فروع الحكومة الرئيسية، وخصوم الولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية، والدول التي استخدمت الأسلحة النووية، وتتغيَّر آراؤهم حسب صياغة السؤال، فيقولون إنَّ الحكومة تنفق كثيرًا جدًّا على «الرفاهة» في حين تنفق قليلًا جدًّا على «مساعدة الفقراء»، وإنَّ عليها «استخدام القوة العسكرية» ولكن لا ينبغي أن «تخوض حربًا». وعندما يتكون لديهم تفضيلٌ ما، يصوِّتون عمومًا للمرشح من الفريق المقابل، ولكنَّ هذا لا يهم تقريبًا، لأنَّ الساسة بمجرد حصولهم على المنصب يصوِّتون في صالح مواقفهم الحزبية بغض النظر عن آراء دوائرهم الانتخابية.

ولا يمثِّل التصويت ردود الفعل تجاه أداء الحكومة، فالناخبون يعاقبون أصحاب المناصب على الأحداث الأخيرة التي ليس لهم عليها أي سلطان تقريبًا مثل تقلبات الاقتصاد الكلي والهجمات الإرهابية، أو التي ليس لهم عليها أي سلطان مطلقًا مثل الجفاف والفيضانات وهجمات أسماك القرش. توصل كثيرٌ من علماء السياسة إلى أنَّ معظم الناس يدركون أنَّ أصواتهم لن تؤثر على الأرجح مطلقًا في نتيجة الانتخابات، لذا يعطون الأولوية للعمل والأسرة والترفيه أكثر من تثقيف أنفسهم في السياسة ومعايرة قيمة أصواتهم، ويستخدمون حق الإدلاء بالصوت للتعبير عن أنفسهم، أي يصوِّتون للمرشحين الذين يظنون أنَّهم يشبهونهم ويمثِّلونهم.

إذًا، رغم الاعتقاد واسع الانتشار بأنَّ الانتخابات هي جوهر الديمقراطية، إلَّا أنَّها ليست أكثر من إحدى آليات مساءلة الحكومة أمام من تحكمهم، وليست دائمًا آلية بنَّاءة، فعندما تكون الانتخابات مسابقة بين طغاة طموحين، فإنّ الفصائل المتنافسة تخشى وقوع أسوأ السيناريوهات في حالة فوز الطرف الآخر فتحاول كلٌّ منها منع الفصائل الأخرى من الاقتراب من صندوق الاقتراع بالترهيب. ويستطيع المستبدون أيضًا أن يتعلموا استغلال الانتخابات لصالحهم، إذ يُطلق على أحدث صيحات الديكتاتورية النظام السلطوي التنافسي أو الانتخابي أو الكليبتوقراطي* أو القائم على سيطرة الدولة أو الرعائي (روسيا في عهد بوتين هي النموذج الأولي لهذا النظام). يستغل القادة موارد الدولة الضخمة في التضييق على المعارضة وتأسيس أحزاب معارضة مزيفة واستخدام الإعلام الذي تسيطر عليه الدولة في نشر الروايات الموافقة لرؤيتها والتلاعب بالقواعد الانتخابية وبتسجيل الناخبين وبالانتخابات نفسها (ورغم كل ذلك إلا أنَّ الحكام السلطويين الرعائيين ليسوا منيعين أيضًا، فالثورات الملونة قد أطاحت بكثيرٍ منهم).

---

* الكليبتوقراطية مصطلح يعني نظام حكم اللصوص. -المترجمة.

إذا لم يكُن بالإمكان الاعتماد على الناخبين ولا على القادة المنتخبين في التمسك بمُثُل الديمقراطية، فلماذا قد لا يكون هذا الشكل من أشكال الحكومة بالغ السوء؟ وهو أسوأ أشكال الحكومة، باستثناء كل الأشكال الأخرى التي جربناها، كما قال تشرشل. قال الفيلسوف كارل بوبر (Karl Popper) في كتابه المجتمع المفتوح وأعداؤه *(The Open Society and Its Enemies)* الصادر عام 1945 إنَّه لا ينبغي فهم الديمقراطية بوصفها جوابًا عن سؤال «من الذي يجب أن يحكم؟» (أي الشعب) وإنَّما بوصفها حلًّا لمشكلة عزل القيادة السيئة دون سفك الدماء. وسَّع عالم السياسة جون مولر (John Mueller) نطاق هذه الفكرة من «يوم حساب» متبادل إلى ردود الفعل اليومية المتواصلة، فيلمح إلى أنَّ الديمقراطية تقوم في جوهرها على منح الناس حرية الشكوى، فيقول: «تحدث –الديمقراطية– عندما يوافق الشعب عمليًّا على عدم استخدام العنف لاستبدال القيادة، وتترك لهم القيادة حرية تجربة تنحيتها بأي وسيلة أخرى». ويشرح الطريقة التي يحدث بها الأمر كما يلي:

> إذا كان للمواطنين الحق في الشكوى وتقديم العرائض والتنظيم والاحتجاج والتظاهر والإضراب والتهديد بالهجرة أو الانفصال والصياح والنشر وتصدير أموالهم والتعبير عن غياب الثقة والتملق في الأروقة الخلفية، فإنّ الحكومة تميل إلى الاستجابة لأصوات الهاتفين وإلحاح المتملِّقين، أي أنَّها ستصبح بالضرورة متجاوبة –ستنتبه أكثر– سواء انعقدت انتخابات أم لا.

وحق المرأة في التصويت مثالٌ على ذلك، إذ لم تستطعِ المرأة التصويت على منح نفسها حق التصويت، ولكنَّها استطاعت الحصول عليه بوسائل أخرى.

يؤدي التباين بين واقع الديمقراطية الفوضوي والصورة المثالية التي يدرسها الطلاب في حصة التربية الوطنية إلى التحرر الدائم من الأوهام. نصح جون كينيث جالبريث (John Kenneth Galbraith) من قبل بأنَّ المرء إذا أراد أن يوقِّع عقدًا لتأليف كتابٍ مربح، فليقترح عنوان أزمة الديمقراطية الأمريكية *The Crisis of American Democracy*. يستنتج مولر من مراجعة التاريخ أنَّ «انعدام المساواة والخلافات واللا مبالاة تبدو عادية، ليست غريبة في ظل الديمقراطية، ويكمن جمال هذا الشكل من أشكال الحكومة إلى حدٍّ كبير في نجاحه رغم هذه الصفات، أو بالأحرى بسببها من بعض الجوانب».

وفي هذا المفهوم التقليلي، لا تكون الديمقراطية شكلًا معقدًا أو متطلبًا من الحكم، فشرطها المسبق الأساسي هو أن تكون الحكومة مؤهلة لحماية الشعب من العنف الفوضوي كي لا يسقط فريسةً لأول زعيم يعد بأنه يستطيع أداء هذه المهمة، أو حتى يرحب به (الفوضى أكثر فتكًا من الاستبداد). وهذا أحد أسباب صعوبة أن تجد الديمقراطية لنفسها موطئ قدم في الدول شديدة الفقر ذات الحكومات الضعيفة كما في منطقة أفريقيا جنوب الصحراء، وفي الدول التي أطيح بحكوماتها مثل أفغانستان والعراق بعد الغزو بقيادة أمريكا، فمثلما قال عالما السياسة ستيفن ليفيتسكي (Steven Levitsky) ولوكان واي (Lucan Way) فإنَّ: «فشل الدولة يؤدي إلى العنف وعدم الاستقرار، ولا يؤدي مطلقًا تقريبًا إلى التحول الديمقراطي».

الأفكار مهمة أيضًا، فكي تترسخ الديمقراطية، لا بد أن يرى أشخاص مؤثرون (وخاصةً من لديهم قوة السلاح) أنَّها أفضل من البدائل الأخرى مثل الثيوقراطية والحق الإلهي للملوك والأبوية الاستعمارية وديكتاتورية البروليتاريا (أو في الواقع «طليعتها الثورية») أو الحكم السلطوي لزعيم يتمتع بالكاريزما ويجسِّد رغبة الشعب. يساعد هذا في تفسير الأنماط الأخرى في سجلات التحول الديمقراطي مثل سبب صعوبة ترسخ الديمقراطية في الدول ذات الحظ الأقل من التعليم، وفي الدول البعيدة عن النفوذ الغربي (مثل وسط آسيا)، وفي الدول التي انبثقت أنظمتها من رحم ثورات أيديولوجية عنيفة (مثل الصين وكوبا وإيران وكوريا الشمالية وفيتنام). وفي المقابل، عندما يدرك

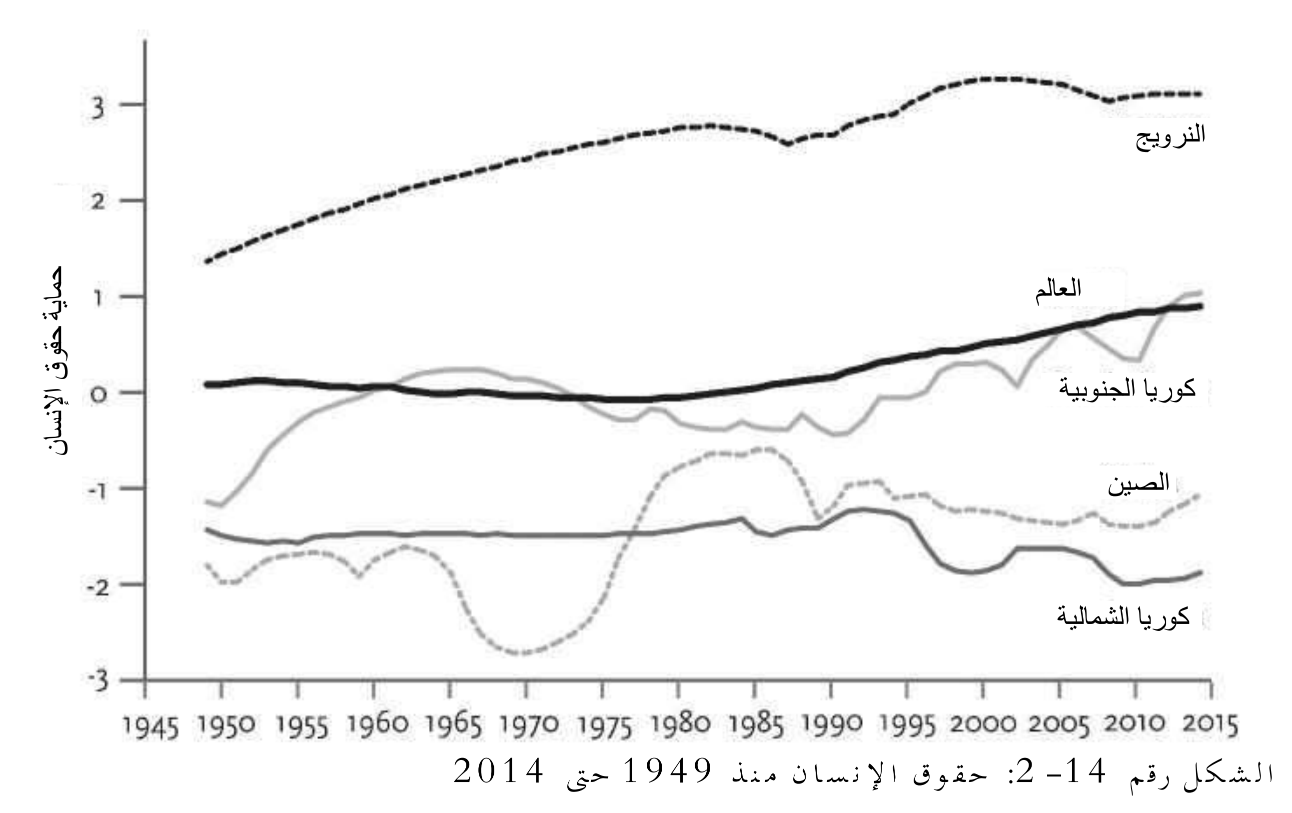
الناس أنَّ الدول الديمقراطية أماكن لطيفة للعيش فيها، فقد تصبح فكرة الديمقراطية معدية وقد يزداد العدد بمرور الوقت.

ترتكز حرية الشكوى على ضمان أنَّ الحكومة لن تعاقب المشتكي أو تُخرِسه، فالخط الأمامي في معركة التحول الديمقراطي إذًا هو إعاقة الحكومة عن إساءة استغلال احتكارها القوة في معاملة مواطنيها المتبجحين بوحشية؟

رسمت سلسلةٌ من الاتفاقيات الدولية، ابتداءً بالإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر عام 1948، خطوطًا حمراء لتكتيكات الحكومة الدموية وبالأخص التعذيب والقتل دون محاكمة، وسجن المتمردين، والمصطلح القبيح الذي ظهر خلال حكم النظام العسكري في الأرجنتين منذ عام 1974 و1984 وهو الاختفاء القسري. ليست هذه الخطوط الحمراء مثل الديمقراطية الانتخابية، بما أنَّ أغلبية الناخبين قد يكونون غير مبالين بوحشية الحكومة طالما لم تمسَّهم. تظهر الدول الديمقراطية عمليًّا بالفعل احترامًا أكبر لحقوق الإنسان، ولكنّ العالم يشمل أيضًا بعض الدول الأوتوقراطية الخيِّرة مثل سنغافورة، وبعض الدول الديمقراطية القمعية مثل باكستان. يقودنا هذا إلى تساؤل مهم عما إذا كانت موجات التحول الديمقراطي حقًّا تمثّل إحدى أشكال التقدم. هل أدى صعود الديمقراطية إلى ازدهار حقوق الإنسان؟ أم أنَّ الحكام الديكتاتوريين يستغلون الانتخابات ومظاهر الديمقراطية الأخرى للتستر على انتهاكاتهم بابتسامة؟

راقبت وزارة الخارجية الأمريكية ومنظمة العفو الدولية ومنظمات أخرى انتهاكات حقوق الإنسان على مدار العقود الماضية. إذا نظر المرء في الأرقام التي توصلوا إليها منذ السبعينيات، فستبدو الحكومات وكأنَّها ما زالت قمعية كما كانت تمامًا، رغم انتشار الديمقراطية وقواعد حقوق الإنسان والمحاكم الجنائية الدولية والمنظمات الرقابية الدفاعية. أدى ذلك إلى صدور تصريحات (تحذيرية من طرف النشطاء الحقوقيين وشامتة من طرف المتشائمين) بأنَّنا قد وصلنا إلى «آخر زمان حقوق الإنسان» و«غروب قوانين حقوق الإنسان» و«عالم ما بعد حقوق الإنسان».

ولكنَّ للتقدم طريقة يخفي بها آثاره، فمع ارتقاء معاييرنا الأخلاقية بمرور السنوات، أصبحنا أكثر انتباهًا لأشكال من الأذى لم نكن لنلاحظها في الماضي، وإضافةً إلى ذلك، تشعر المنظمات التي تقوم بدور النشطاء بأنَّ عليها أن تصرخ دائمًا بوجود «أزمة» كي تحافظ على استمرار الزخم (رغم أنَّ هذه الاستراتيجية قد تأتي بنتائج عكسية، إذ تشير ضمنًا إلى أنَّ تلك العقود من النشاط الحقوقي كانت إهدارًا للوقت). تُطلق عالمة السياسة كاثرين سيكينك (Kathryn Sikkink) على هذا «مفارقة المعلومات»، فكلما بحثت منظمات مراقبة حقوق الإنسان أكثر عن الانتهاكات وبحثت في أماكن أكثر عن الانتهاكات وصنفت المزيد من الأفعال بأنَّها انتهاكات، وجدت المزيد منها، ولكن إذا لم ندرك زيادة قدرتها على اكتشاف الانتهاكات، سنتوهم بوجود المزيد من هذه الانتهاكات. حلَّ عالم السياسة كريستوفر فاريس (Christopher Fariss) هذه المعضلة بنموذج رياضي بديل عن التقارير المعقدة بمرور الوقت ويقدِّر الحجم الفعلي لانتهاكات حقوق الإنسان في العالم. يوضِّح الشكل رقم 14-2 النتائج التي توصل إليها في أربع دول منذ عام 1949 حتى 2014 وفي العالم بأكمله.



الشكل رقم 14- 2: حقوق الإنسان منذ 1949 حتى 2014

المصدر: Roser 2016i *Our World in Data,*، رسم بياني للمؤشر الذي وضعه فاريس في دراسة (Fariss 2014)، الذي يقدِّر معدل حماية الإنسان من التعذيب والقتل دون محاكمة والسجن السياسي وحوادث الاختفاء. "0" هو الوسط الحسابي لكل الدول والأعوام، والوحدات الأخرى انحرافات معيارية.

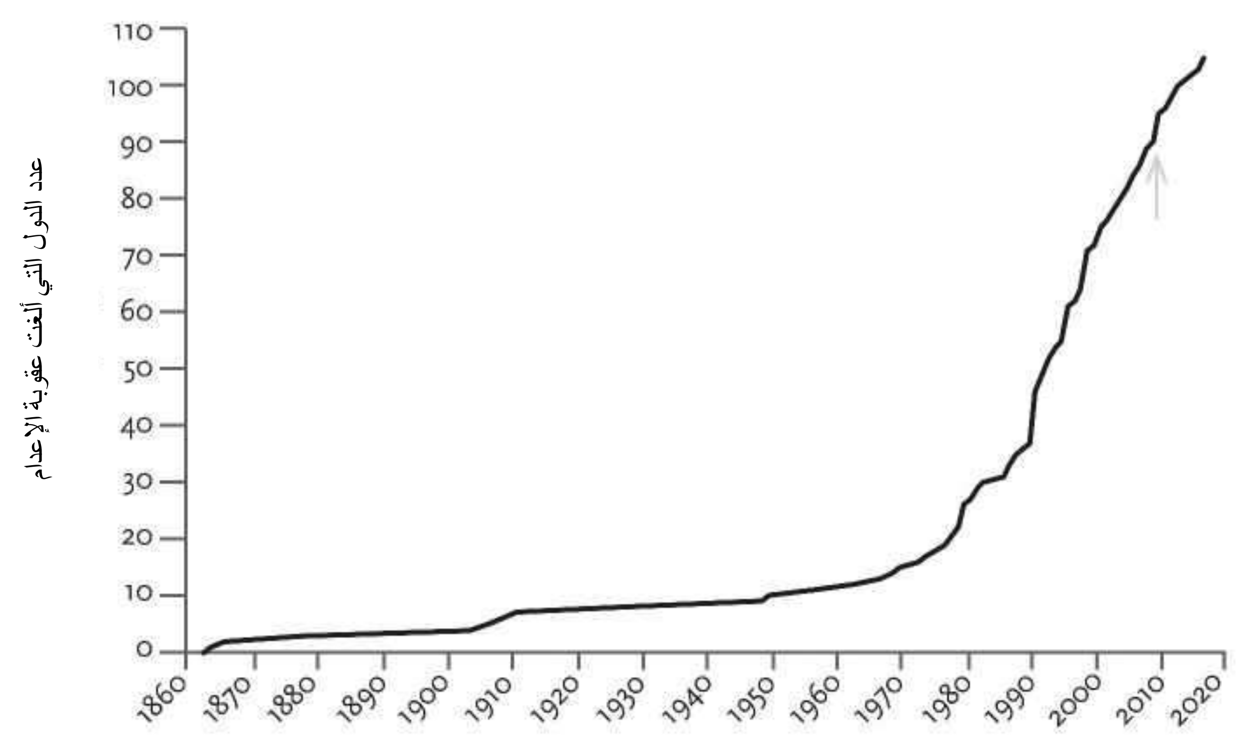
يعرض الرسم البياني أرقامًا أخرجها نموذج رياضي، لذا علينا ألَّا نأخذ القيم المحددة على محمل الدقة التامة، ولكنها تشير بالفعل إلى الاختلافات والاتجاهات. الخط الأعلى يمثِّل دولةً تُعد معيارًا ذهبيًّا لحقوق الإنسان، وهي دولة إسكندنافية كما هو الحال في بقية مقاييس ازدهار البشرية، والدولة في هذه الحالة هي النرويج التي بدأت بمعدل مرتفع وواصلت الارتفاع. نرى خطين متباعدين يمثِّلان الكوريتين، الشمالية التي بدأت بمعدل منخفض وواصلت الانخفاض، والجنوبية التي ارتفعت وانتقلت من كونها دولة أوتوقراطية يمينية خلال الحرب الباردة إلى نقطةٍ أفضل اليوم. وصلت حقوق الإنسان في الصين إلى الحضيض خلال الثورة الثقافية ثم ارتفعت بعد وفاة ماو ووصلت إلى ذروتها خلال الحركة الديمقراطية في الثمانينيات قبل أن تتخذ الحكومة إجراءات صارمة بعد احتجاجات ساحة تيان آن من، رغم أنَّها ما زالت في مستوى أعلى كثيرًا مما كانت فيه في حقبة ماو. ولكنَّ المنحنى الأهم هو المنحنى الذي يمثِّل العالم بأكمله، إذ يتجه قوس حقوق الإنسان للأعلى رغم كل انتكاساته.

كيف يتم تحجيم سلطة الحكومة باستمرار؟ من النوافذ الواضحة –على نحوٍ غير معتاد– المطلة على آلية التقدم البشري مصير ممارسة الدولة المطلقة للعنف، أي قتل مواطنيها عمدًا.

كانت عقوبة الإعدام من قبل واسعة الانتشار في كل الدول، وكانت تُطبَّق عقابًا على مئات الجُنح في عروض عامة شنيعة من

التعذيب والإذلال (ويُعد صلب يسوع مع لصّين من العامة تذكرة جيدة بذلك). بعد عصر التنوير، توقفت الدول الأوروبية عن إعدام المواطنين عقاباً على أي جرائم سوى أبشعها، وفي منتصف القرن التاسع عشر، كانت بريطانيا قد خفَّضت عدد الجرائم التي يعاقب عليها بالإعدام من 222 جريمة إلى 4، وبحثت الدول عن طرق إعدام رحيمة بالقدر الذي يتناسب مع هذه الممارسة الشنيعة، مثل الشنق. بعد الحرب العالمية الثانية، عندما أطلق الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ثورة إنسانية ثانية، بدأ إلغاء عقوبة الإعدام تمامًا في دولة تلو الأخرى، ولم تعُد موجودة اليوم في أوروبا سوى في بيلاروسيا (روسيا البيضاء).

انتشر إلغاء عقوبة الإعدام على نطاقٍ عالمي (انظر الشكل رقم 14-3) وعقوبة الإعدام اليوم تنتظر تنفيذ حكم الإعدام عليها، إذ كانت دولتان أو ثلاث دول تلغيها كل عام خلال الثلاثة عقود الماضية، ولم يعُد يمارسها سوى أقل من خُمس دول العالم (في حين تحتفظ تسعون دولةً بعقوبة الإعدام في كتب القانون، إلَّا أنَّ أغلبها لم تعدم أحدًا منذ عقدٍ على الأقل). يشير مقرر الأمم المتحدة الخاص المعني بالإعدام كريستوفر هينز (Christopher Heyns) إلى أنَّه إذا استمر إلغاء عقوبة الإعدام بالمعدل الحالي (لا يعني هذا أنَّه يتنبأ بأنَّه سيستمر)، فستتلاشى عقوبة الإعدام من على وجه الأرض بحلول عام 2026.



الشكل رقم 14- 3: إلغاء عقوبة الإعدام منذ 1863 حتى 2016

المصدر: «عقوبة الإعدام حسب الدولة: التسلسل الزمني للإلغاء»، ويكيبيديا، تم استخراج البيانات في 15 من أغسطس عام 2016. ألغت عدة دول أوروبية عقوبة الإعدام في بعض أراضيها قبل الوقت المشار إليه هنا، ولكنَّ الخط الزمني يسجِّل آخر حالة إلغاء في أي إقليم خاضع لولايتها. يشير السهم إلى سنة 2008، وهي آخر سنة مرسومة في الشكل رقم 4-3 من دراسة Pinker 2011.

تكوِّن أبرز خمس دول ما زالت تعدم مواطنيها بأعدادٍ كبيرة نادياً غريبًا، وهي: الصين وإيران (أكثر من ألف سنويًّا في كلٍّ منهما) وباكستان والسعودية والولايات المتحدة، فالولايات المتحدة متوانية وسط الدول الديمقراطية الثرية في هذا المنحى كما في المناحي الأخرى

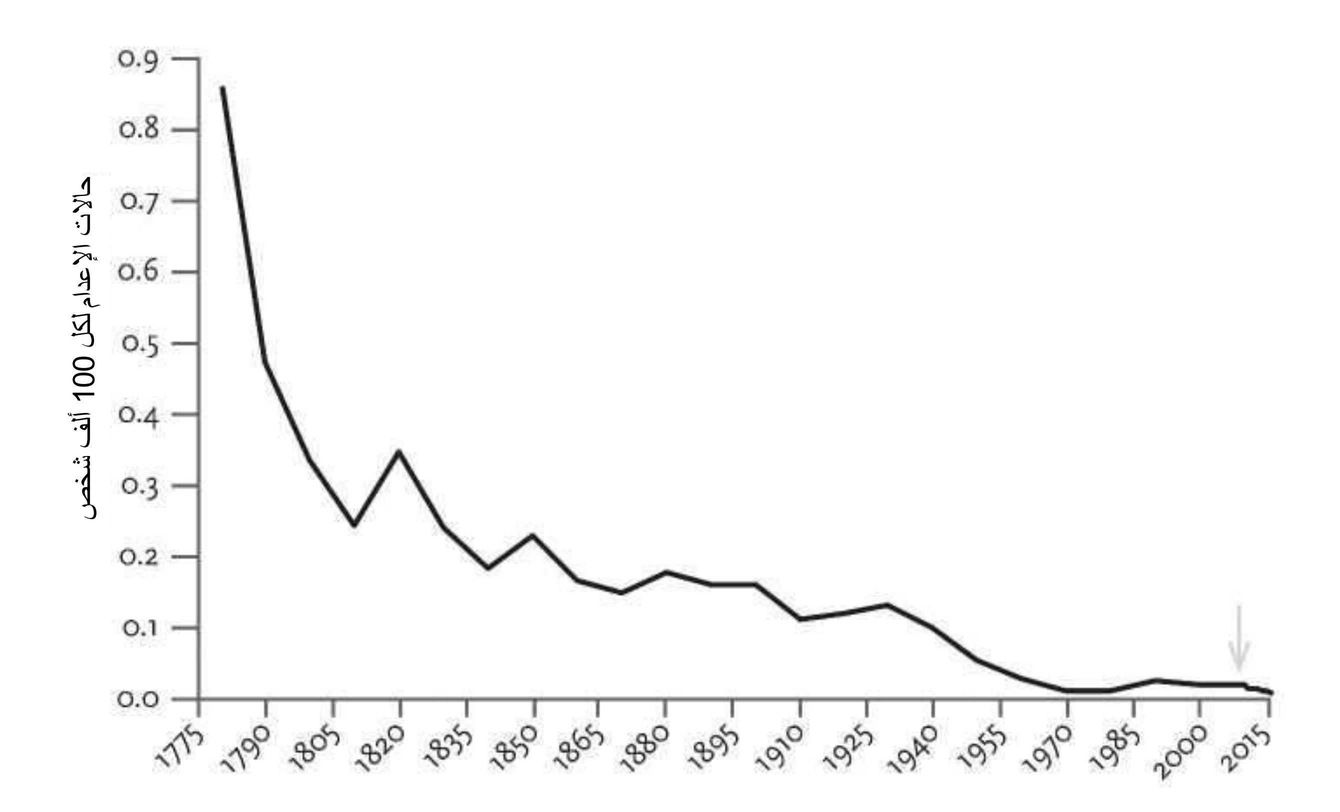
من ازدهار البشرية (مثل الجريمة والحرب والصحة وطول العمر والحوادث والتعليم). تضيء هذه النزعة الاستثنائية الأمريكية المسار المتعرج الذي ينتقل من خلاله التقدم الأخلاقي من حججٍ فلسفية إلى حقائق على أرض الواقع، وتوضِّح أيضًا التوتر بين المفهومين اللذين فحصناهما عن الديمقراطية: الأول هو أنَّ الديمقراطية شكل من أشكال الحكم تتحدد بدقة سلطته في ممارسة العنف على المواطنين، والثاني هو أنَّ الديمقراطية شكل من أشكال الحكم ينفِّذ رغبة أغلبية الشعب. يكمن سبب كون الولايات المتحدة ناشزًا عن غيرها في مسألة عقوبة الإعدام في كونها ديمقراطية أكثر من اللازم.

يشير الباحث القانوني أندرو هامل (Andrew Hammel) في كتابه عن تاريخ إلغاء عقوبة الإعدام في أوروبا إلى أنَّ الناس كانوا في معظم الأزمنة وفي معظم الأماكن يرون عقوبة الإعدام عادلة، فإذا قتلت روحًا، تستحق أن تفقد حياتك. لم تبدأ الحجج المؤثرة ضد عقوبة الإعدام في الظهور سوى مع التنوير، كانت إحدى هذه الحجج أنَّ تفويض الدولة بممارسة العنف لا ينبغي أن ينتهك حياة الإنسان المقدسة، ومن الحجج الأخرى أنَّ الأثر الرادع الذي تهدف عقوبة الإعدام إلى تحقيقه يمكن تحقيقه بعقوبات أضمن وأقل وحشيةً.

تقاطرت الأفكار من طبقة رقيقة من الفلاسفة والمثقفين إلى الطبقات العليا المتعلمة، وبالأخص أصحاب المهن الحرة مثل الأطباء والمحامين والكُتَّاب والصحافيين. اندرج إلغاء عقوبة الإعدام تحت ملفٍ يشمل قضايا تقدمية أخرى بما فيها التعليم الإجباري وحق الاقتراع العام وحقوق العمال، وتم تقديسه وإضفاء هالة «حقوق الإنسان» عليه وأصبح رمزًا لـ «المجتمع الذي نختار العيش فيه والأشخاص الذين نختار أن نكونهم». حصلت النخبة الداعية إلى إلغاء عقوبة الإعدام في أوروبا على ما أرادته رغم شكوك رجل الشارع لأنَّ الدول الديمقراطية الأوروبية لم تحوِّل آراء رجل الشارع إلى سياساتٍ، إذ وضعت قوانين العقوبات في هذه الدول لجانٌ مشكَّلة من باحثين مشهورين، ومرَّرها مشرِّعون كانوا يرون أنَّهم يشكِّلون طبقة أرستقراطية طبيعية، وطبَّقها قضاة معيَّنون عملوا طيلة حياتهم في الخدمة المدنية. ولم يغير العامة رأيهم في عقوبة الإعدام بحيث يرونها غير ضرورية سوى بعد مرور عقدين من الزمان رأوا خلالهما أنَّ البلد لم يسقط في ظلام الفوضى –ولو كان حدث هذا كانت الدولة ستبذل جهودًا مركزة لإعادة تطبيق عقوبة الإعدام–.

ولكنَّ الولايات المتحدة في كل الأحوال أقرب إلى أن تكون حكومتها من الشعب وتعمل من أجل الشعب، فتتخذ كل ولاية على حدة قراراتها بشأن عقوبة الإعدام سوى في بعض الجرائم الفيدرالية مثل الإرهاب والخيانة، ويصوِّت عليها المشرِّعون القريبون من ناخبيهم، ويلتمسها ويوافق عليها في كثيرٍ من الولايات نواب العموم والقضاة الذين يترشحون لإعادة انتخابهم. لدى الولايات الجنوبية ثقافة الشرف القديمة التي تتسم بروح الثأر المبرَّر، فمن غير المفاجئ إذًا أنَّ حالات الإعدام في أمريكا تتركَّز في مجموعةٍ صغيرة من الولايات الجنوبية، وهي بالأساس تكساس وجورجيا وميزوري، وفي مجموعةٍ صغيرة من المقاطعات داخل تلك الولايات.

ومع ذلك فإن ذلك التيار التاريخي قد اكتسح الولايات المتحدة أيضًا، وعقوبة الإعدام فيها إلى زوال رغم شعبيتها المستمرة (إذ أيدها 61 في المئة من المواطنين في عام 2015)، فأبطلت سبع ولايات عقوبة الإعدام خلال العقد الماضي، وعلَّقت ست عشرة ولاية أخرى العمل بها ولم تنفِّذ ثلاثون ولاية أي حكم بالإعدام خلال الخمس سنوات الماضية، وحتى ولاية تكساس لم تعدم سوى سبعة سجناء فقط في عام 2016 مقارنةً بأربعين سجينًا في عام 2000. يوضِّح الشكل رقم 14–4 تراجع استخدام عقوبة الإعدام بخطواتٍ ثابتة في الولايات المتحدة، في انحدارٍ واضح نحو الصفر –قد يكون هو الأخير– في أقصى اليمين. وينطبق هذا النمط على ما يحدث في أوروبا، فكلما آلت الممارسة إلى الزوال، تشتت الرأي العام بشأنها، ففي عام 2016، انخفض الدعم الشعبي لعقوبة الإعدام لأقل من 50 في المئة لأول مرة خلال خمسين عامًا تقريبًا.



الشكل رقم 14- 4: حالات الإعدام في الولايات المتحدة منذ 1780 حتى 2016

المصدر: مركز المعلومات عن عقوبة الإعدام (Death Penalty Information Center 2017). التقديرات الخاصة بالسكان من مكتب تعداد الولايات المتحدة (US Census Bureau 2017). يشير السهم إلى سنة 2010، وهي آخر سنة مرسومة في الشكل رقم 4-4 من دراسة Pinker 2011.

كيف تتخلص الولايات المتحدة من عقوبة الإعدام رغم أنفها تقريبًا؟ نرى في هذه الحالة مسارًا آخر يسير فيه التقدم الأخلاقي، فرغم أنَّ النظام السياسي الأمريكي أكثر شعبويةً من الأنظمة في الدول الغربية الأخرى، إلَّا أنَّه ما زال غير مماثل للنظام الديمقراطي التشاركي المباشر كالنظام في أثينا القديمة (وهو النظام الذي تسبَّب في إعدام سقراط). مع التوسع التاريخي لنطاق التعاطف والمنطق، فقد حتى أكثر مشجعي عقوبة الإعدام حماسًا لها شهيتهم لإعدام العصابات دون محاكمة، وشنق القضاة، والإعدامات العلنية الغوغائية، وأصبحوا يصرون على تنفيذ هذه الممارسة ببعض الكرامة والرعاية. يتطلب هذا وجود جهاز معقد للموت وفريق من الميكانيكيين لتشغيله وإصلاحه، وعندما تبلى الآلة ويرفض الميكانيكيون صيانتها، تزداد صعوبة إدارتها وتدعو للتخلص منها. لا تتعرض عقوبة الإعدام في أمريكا للإلغاء بقدر ما تتعرض للانهيار بالتدريج.

أولًا: أوضحت التطورات في علم الأدلة الجنائية، وبالأخص بصمة الحمض النووي، أنَّه قد تم بالتأكيد إعدام أشخاص أبرياء، وهو سيناريو يثير حفيظة حتى أكثر داعمي عقوبة الإعدام حماسًا. ثانيًا: تطورت عملية القضاء البشعة على حياة إنسان من السادية الدموية المتمثلة في الصلب ونزع الأحشاء إلى عملية القتل السريعة –المزعجة– بالأحبال والرصاصات والسيوف ثم إلى أدوات القتل الخفية مثل الغاز والكهرباء وصولًا إلى عملية «طبية زائفة» وهي القتل بحقنةٍ مميتة، ولكنَّ الأطباء يرفضون القيام بذلك، وترفض شركات الأدوية

توفير العقارات وينزعج الشهود من مشاهد المنازعة خلال المحاولات الفاشلة. ثالثًا: أصبح البديل الأساسي لعقوبة الإعدام، وهو السجن مدى الحياة، أجدر بالثقة عندما أصبحت السجون التأديبية المحصنة ضد الهروب والشغب مُحكمة. رابعًا: مع انخفاض معدل جرائم العنف إلى مستوى متدنٍ (الفصل الثاني عشر)، قلَّت حاجة الناس إلى التدابير القاسية. خامسًا: تلاشت حالات الإعدام بالإجراءات الموجزة التي اتسمت بها الحقب الماضية وحلَّت محلَّها الإجراءات القانونية طويلة الأمد بسبب النظر إلى عقوبة الإعدام بوصفها عملية بالغة الأهمية. تعادل مرحلة إصدار الحُكم بعد إصدار قرار الإدانة محاكمةً ثانية، ويؤدي الحكم بالإعدام إلى عملية طويلة من المراجعات والاستئنافات، وهي طويلة لدرجة أنَّ معظم السجناء المحكوم عليهم بالإعدام يموتون نتيجة أسباب طبيعية، وفي الوقت نفسه، فإنَّ تكلفة ساعات عمل المحامين المكلِّفين على الدولة تساوي ثمانية أضعاف تكلفة السجن مدى الحياة. سادسًا: تسببت الفوارق الاجتماعية في أحكام الإعدام –فالمتهمون الفقراء والسود يُحكم عليهم بالإعدام بصورة غير متكافئة مع غيرهم («يُعاقَب من لا يملكون رأس المال»)– في إثقال ضمير الشعب على نحوٍ متزايد. وأخيرًا: عانت المحكمة العليا –التي وُكِّلت مرارًا وتكرارًا بصياغة تبرير متسق لهذا الغطاء المجنون– في تبرير هذه الممارسة وأضعفتها تدريجيًّا، وحكمت في السنوات الأخيرة بأنَّ الولايات لا يجوز لها إعدام الأحداث وذوي الإعاقات الذهنية ومرتكبي الجرائم غير القتل، وكادت أن تصدر حكمًا مضادًا لوسيلة الحقن العشوائي بالحقنة المميتة. يعتقد مراقبو المحاكم أنَّ اضطرار القضاة إلى التصدي لنزوة هذه الممارسة المروعة بأكملها والاستشهاد بـ «معايير الآداب المتطورة» وإلغائها لكونها خرقًا لحظر العقوبة القاسية والاستثنائية المذكور في التعديل الثامن، مجرد مسألة وقت لا أكثر.

إنَّ تضافر كل القوى العلمية والمؤسسية والقانونية والاجتماعية على نحوٍ غريب من أجل تجريد الحكومة من سلطتها التي تسمح لها بالقتل يوحي بأنَّ هناك قوسًا غامضًا ينحني في اتجاه العدالة، أو ببساطةٍ أكثر، فإنَّنا نشهد انتشار مبدأ أخلاقي –وهو أنَّ الحياة مقدسة، فالقتل، إذًا عبء شاقٌ– وسط مجموعة كبيرة من المؤسسات والجهات الفاعلة التي عليها التعاون لإتاحة تنفيذ عقوبة الإعدام. ومع ازدياد تطبيق هذه المؤسسات والجهات الفاعلة لهذا المبدأ باستمرار وبدقة، فهي تبعد البلد بلا هوادة عن الاندفاع نحو الانتقام لحياة شخصٍ بحياة شخصٍ آخر. إنَّ المسارات متشعبة ومتعرجة، والآثار تكون بطيئة ثم تصبح مفاجئة، ولكنَّ فكرةً من عصر التنوير يمكنها بمرور الزمن أن تغيِّر العالم.

الفصل الخامس عشر:
المساواة في الحقوق

يميل البشر إلى معاملة فئات كاملة من البشر الآخرين كأنَّهم وسيلة لغايةٍ ما أو مصدر إزعاج يجب تنحيته جانبًا، تسعى التحالفات القائمة على العرق أو العقيدة إلى أن تطغي على التحالفات المنافسة. ويحاول الرجال التحكم في عمالة المرأة وحريتها ونشاطها الجنسي، ويترجم الناس انزعاجهم من الاختلافات الجنسية إلى إدانة أخلاقية. نطلق على هذه الظواهر اسمَ العنصرية والتمييز على أساس الجنس ورهاب المثلية، وهي منتشرة في معظم الثقافات على مر التاريخ بدرجاتٍ مختلفة، ويشكِّل التبرؤ من هذه الشرور جزءًا كبيرًا مما نطلق عليه الحقوق المدنية أو المساواة في الحقوق. إنَّ التوسع التاريخي لنطاق هذه الحقوق –قصص مؤتمر سينيكا فولز (Seneca Falls) وسيلما (Selma) ومظاهرات ستون وول (Stonewall)– يمثِّل فصلًا مثيرًا من قصة تقدم البشرية.

تواصل حقوق الأقليات العرقية والمرأة والمثليين تقدمها، فقد مرت كلٌّ منها مؤخرًا بنقاط تحول بارزة، إذ شهد عام 2017 انتهاء فترتين رئاسيتين لأول رئيس أمريكي من أصول أفريقية، وهو إنجاز ذكرته السيدة الأولى ميشيل أوباما بطريقةٍ مؤثرة في خطابٍ ألقته في المؤتمر الوطني الديمقراطي في عام 2016، فقالت: «أستيقظ كل صباح في منزلٍ بناه العبيد، وأشاهد ابنتيَّ، فتاتين سوداوين ذكيتين جميلتين تلعبان مع كلابهما في حديقة البيت الأبيض». وأعقب ولاية باراك أوباما ترشح أول امرأة من حزبٍ كبير في انتخابات الرئاسة بعد أقل من قرنٍ من السماح لنساء أمريكا بالتصويت، وفازت بأغلبية ساحقة في التصويت الشعبي وكانت ستصبح رئيسة لولا خصائص نظام المجمع الانتخابي الغريبة والنوادر الأخرى التي ميَّزت تلك السنة الانتخابية. في عالمٍ موازٍ ومشابه جدًّا لعالمنا حتى 8 نوفمبر 2016، قد تقود النساء أكثر ثلاث دول تأثيرًا ونفوذًا في العالم (الولايات المتحدة والمملكة المتحدة وألمانيا). وفي عام 2015، بعد أن حكمت المحكمة الأمريكية العليا بعدم تجريم النشاط المثلي جنسيًّا باثني عشر عامًا فقط، كفلت المحكمة حق الزواج للمتحابين من نفس الجنس.

ولكنَّ من طبيعة التقدم أنّه يخفي آثاره، ويركِّز أنصاره على المظالم المتبقية وينسون الشوط الطويل الذي قطعناه، فمن المسلَّمات من الآراء التقدمية وخاصةً في الجامعات أنَّنا ما زلنا نحيا في مجتمعٍ يتسم بالعنصرية والتمييز على أساس الجنس ورهاب المثلية بشدة، وهو ما قد يدل ضمنًا على أنَّ النشاط التقدمي مضيعة للوقت لأنَّه لم يحقِّق شيئًا بعد عقودٍ من النضال.

حرَّضت العناوين الإخبارية المثيرة على إنكار التطورات التي حدثت فيما يخص الحقوق، مثلما حرَّضت على الصور الأخرى من رهاب التقدُّم. أدَّت سلسلة من عمليات قتل بعض المشتبه بهم غير المسلحين من الأمريكيين من أصول أفريقية على يد بعض رجال الشرطة الأمريكيين التي ذاع صيتها لالتقاط بعضها في فيديوهات باستخدام الهواتف الذكية إلى انتشار إحساس بأنَّ البلاد اجتاحتها هجمات الشرطة العنصرية على الرجال السود. وأوحت التغطية الإعلامية للرياضيين الذين اعتدوا على زوجاتهم أو حبيباتهم ولحوادث الاغتصاب في الجامعات لكثيرٍ من الناس بأنَّنا نعاني موجةً عارمة من العنف ضد المرأة. ووقعت في عام 2016 إحدى أبشع الجرائم في تاريخ أمريكا عندما أطلق عمر متين النار في ملهى ليلي للمثليين في أورلاندو ممَّا أدَّى إلى قتل تسعة وأربعين شخصًا وإصابة ثلاثة وخمسين آخرين.

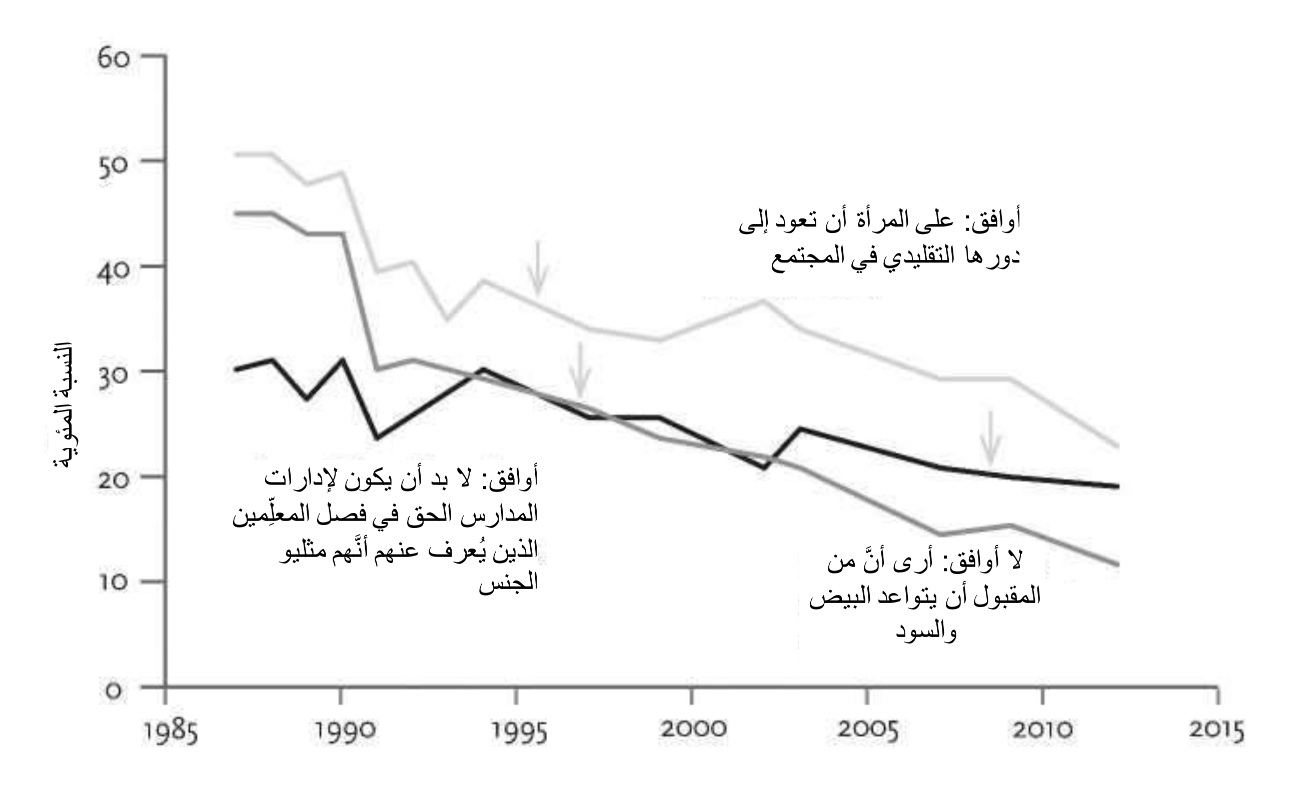
دعَّم التاريخ الحديث للعالم الذي نحيا فيه –حيث انتفع دونالد ترامب من النظام الانتخابي الأمريكي في عام 2016 بدلًا من

هيلاري كلينتون– الإيمان بغياب التقدُّم. تفوَّه ترامب خلال حملته بإهانات معادية للمرأة وللأمريكيين ذوي الأصول اللاتينية (الهسبان) وللمسلمين خارجة عن قواعد الخطاب السياسي الأمريكي، وكان أتباعه الذين شجَّعهم في تجمعاته الانتخابية أكثر عدوانيةً منه. وقد عبَّر بعض المعلِّقين عن قلقهم من أن يمثِّل انتصاره نقطة تحول في تقدُّم البلاد في اتجاه المساواة والحقوق، أو أن يكشف عن الحقيقة المرة وهي أنَّنا لم نُحدِث أي تقدُّم من الأساس.

الهدف من هذا الفصل قياس عمق التيار الذي يحرِّك المساواة في الحقوق، هل هو وهم؟ أم دوامة عنيفة في أعلى بركة راكدة؟ هل يغيِّر اتجاهه بسهولة ويتدفَّق في الاتجاه المعاكس؟ أم أنَّ العدالة تتدفق مثل النهر، والاستقامة تتدفق مثل المجرى القوي؟ وسأنهيه بخاتمة عن التقدُّم الذي حدث فيما يخص حقوق أكثر مجموعةٍ من البشر يسهل تعرُّضها للأذى، وهي الأطفال.

لا بد أنَّك قد أصبحت الآن متشكِّكًا في التاريخ الذي تقرأه من عناوين الأخبار، وينطبق هذا أيضًا على الاعتداءات الأخيرة في مجال المساواة في الحقوق. تشير البيانات إلى أنَّ عدد حوادث إطلاق النار من جانب الشرطة قد انخفض، ولم تزدَد خلال العقود الأخيرة (حتى مع تصوير الحوادث التي تقع بالفعل بالفيديو)، ووجدت ثلاثة تحليلات مستقلة أنَّ المشتبه بهم من السود ليسوا أكثر عرضةً للقتل على يد الشرطة من المشتبه بهم من البيض (يطلق رجال الشرطة الأمريكيون النار على كثيرٍ من الناس، ولكنَّ المشكلة ليست بالأساس مشكلة عرقية). لا يخبرنا سيل أخبار حوادث الاغتصاب ما إذا كان العنف ضد المرأة الآن أكثر، وهو أمر سيء، أم أنَّنا نهتم الآن أكثر بالعنف ضد المرأة، وهو أمر جيد. وحتى يومنا هذا، لا يتَّضح لنا ما إذا كانت مجزرة الملهى الليلي في أورلاندو ناتجة عن رهاب المثلية أم التعاطف مع داعش أم دافع تحقيق الشهرة بعد الموت الذي يحفِّز معظم مرتكبي حوادث إطلاق النار.

يمكن جمع نسخ أولية أفضل عن التاريخ من البيانات عن القيم والإحصاءات الحيوية، فحص مركز بيو للأبحاث (Pew Research Center) آراء الأمريكيين فيما يخص العرق والنوع الاجتماعي والميول الجنسية خلال ربع القرن الماضي، وذكر أنَّ هذه المواقف خضعت لتحول جوهري تجاه التسامح واحترام الحقوق، وأصبح التعصب الذي كان منتشرًا سابقًا في طي النسيان. نرى هذا التحول بوضوح في الشكل رقم 15-1 الذي يوضِّح ردود الفعل على ثلاث عبارات ممثِّلة عن عباراتٍ أخرى مذكورة في استطلاعات الرأي.



الشكل رقم 15- 1: الآراء التي تتسم بالعنصرية والتمييز على أساس الجنس ورهاب المثلية، في الولايات المتحدة، منذ 1987 حتى 2012

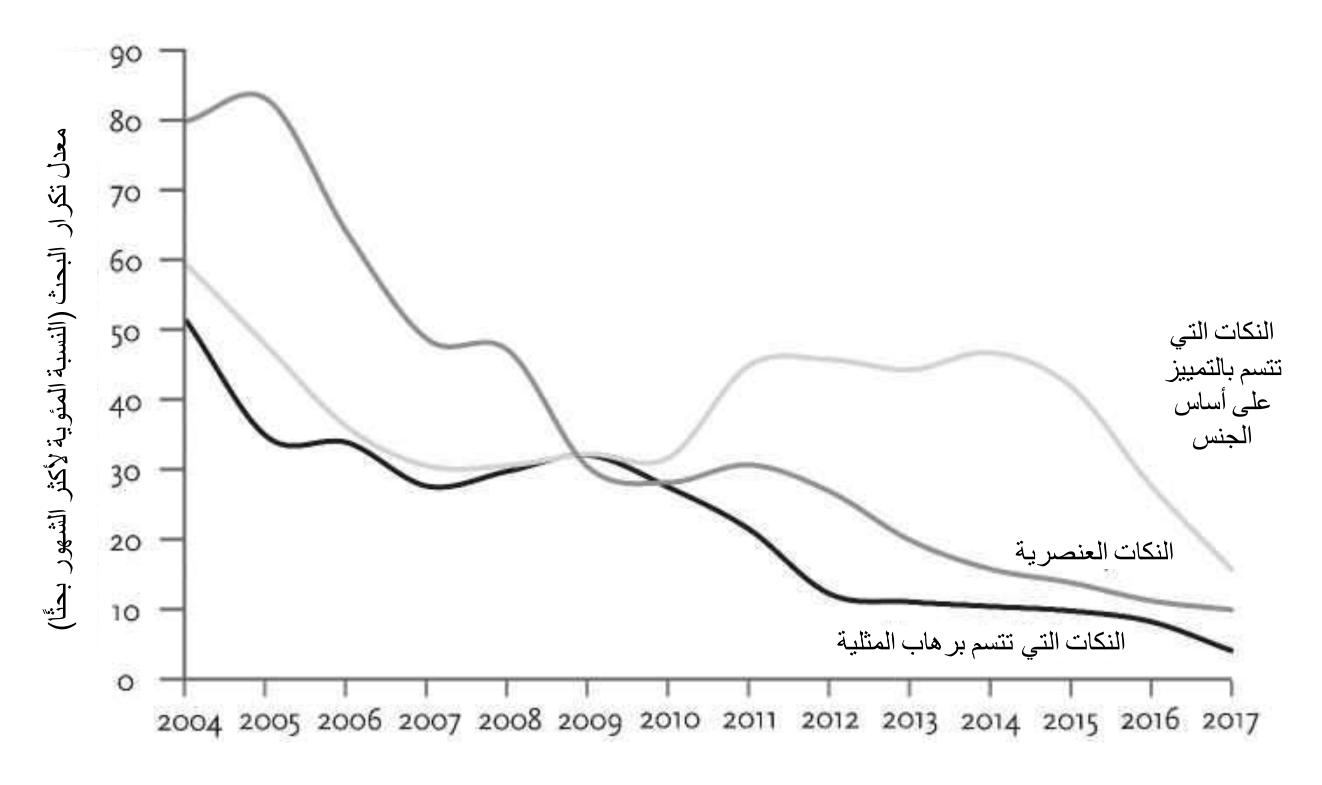
المصدر: Pew Research Center 2012b. يشير السهم إلى أحدث السنوات المشار إليها في دراسة Pinker 2011 فيما يخص أسئلة مشابهة: السود، 1997 (الشكل رقم 7-7)، المرأة، 1995 (الشكل رقم 7-11)، المثليين، 2009 (الشكل رقم 7-24).

وتوضِّح استطلاعات الرأي الأخرى نفس التحولات. لم يصبح الشعب الأمريكي أكثر تحرريةً فحسب، بل إنَّ كل جيل يكون أكثر تحرريةً من الجيل الذي يسبقه. وكما سنرى فإنَّ الأشخاص يحتفظون غالبًا بقيمهم عندما يكبرون في السن، لذا فإنَّ أفراد جيل الألفية (المولودين بعد عام 1980) الأقل تعصبًا من المتوسط على المستوى الوطني ينبؤوننا بالاتجاه الذي ستسير فيه البلاد.

قد يتساءل المرء بالطبع عما إذا كان الشكل رقم 15-1 يعرض انخفاضًا في مستوى التعصب أم انخفاضًا في مستوى التقبل المجتمعي للتعصب، مع استعداد عددٍ أقل من الناس للاعتراف بمواقفهم المشينة في استطلاعات الرأي. لطالما طاردت هذه المشكلة علماء الاجتماع، ولكنَّ الاقتصادي سيث ستيفنز ديفيدويتز (Seth Stephens-Davidowitz) اكتشف مؤشرًا للمواقف يُعد أقرب ما توصلنا إليه لـ «مصل حقيقة» رقمي، إذ يسأل الأشخاص جوجل عن كل فضولٍ أو مصدر قلق أو متعة سرية يمكنك تخيله والكثير مما لا يمكنك تخيله في خصوصية لوحات مفاتيحهم وشاشات حواسبهم (تشمل كلمات البحث الشائعة «كيفية زيادة حجم القضيب» و«رائحة مهبلي مثل رائحة السمك»). يجمع جوجل البيانات الكبيرة الخاصة بما يبحث عنه الأشخاص خلال شهور مختلفة وفي مناطق مختلفة (باستثناء هوية الباحثين)، وأدوات لتحليلها. اكتشف ستيفنز ديفيدويتز أنَّ عمليات البحث عن كلمة *nigger* (زنجي) (بحثًا عن نكاتٍ عنصرية على الأغلب) ترتبط بمؤشرات أخرى على التعصب العرقي في مختلف المناطق، مثل إجمالي أصوات الناخبين التي حصدها باراك أوباما في عام 2008 التي كانت أقل من المتوقع لمرشحٍ من الحزب الديمقراطي، ويقترح ستيفنز أنَّ عمليات البحث هذه

قد تستخدم مؤشرًا خفيًّا على العنصرية السرية.

لنستخدمها إذًا لتتبُّع الاتجاهات الحديثة فيما يتعلق بالعنصرية، ولنتتبع التمييز على أساس الجنس ورهاب المثلية سرًّا أيضًا. خلال فترة مراهقتي كانت النكات عن البولنديين الأغبياء والسيدات الخرقاوات واللُّثغ* ومثليي الجنس المتشبهين بالنساء شائعة في التليفزيون والرسوم الهزلية في الصحف، أمَّا اليوم فهي أمر محظور في وسائل الإعلام الرئيسية. ولكن هل ما زالت النكات المتعصبة وسيلة ترفيه خاصة سرية؟ أم أنَّ المواقف الخاصة تغيرت كثيرًا لدرجة أنَّ الأشخاص أصبحوا يشعرون تجاه هذه النكات بالإهانة أو الوصم أو الملل منها؟ يوضِّح الشكل رقم 15–2 الإجابة عن هذا السؤال.



الشكل رقم 15- 2: معدل البحث على الإنترنت بكلمات تتسم بالعنصرية والتمييز على أساس الجنس ورهاب المثلية، في الولايات المتحدة، منذ 2004 حتى 2017

المصدر: مؤشرات جوجل (www.google.com/trends)، البحث عن "nigger jokes" (نكات عن الزنوج) و"bitch jokes" (نكات عن العاهرات) و"fag jokes" (نكات عن الشواذ)، في الولايات المتحدة منذ 2004 حتى 2017، بالنسبة لكم البحث الإجمالي. البيانات (التي تم الحصول عليها بتاريخ 22 يوليو 2017) مقسَّمة حسب الشهر، وموضَّحة في صورة نسبة مئوية لأكثر الشهور بحثًا لكلٍ من عبارات البحث ثم تم حساب متوسطها من شهور كل عام، وتمهيدها.

تشير المنحنيات إلى أنَّ الأمريكيين ليسوا أكثر خجلًا من الاعتراف بالتعصب ممَّا كانوا سابقًا فحسب، بل إنَّهم لا يجدونه ممتعًا بنفس القدر في مساحاتهم الخاصة أيضًا، وعلى عكس الخوف من أنَّ صعود ترامب يعكس –أو يشجِّع على– التعصب، تواصل المنحنيات انخفاضها خلال فترة شهرته قبل الانتخابات في عامي 2015 و2016 وفترة تنصيبه رئيسًا في بداية 2017.

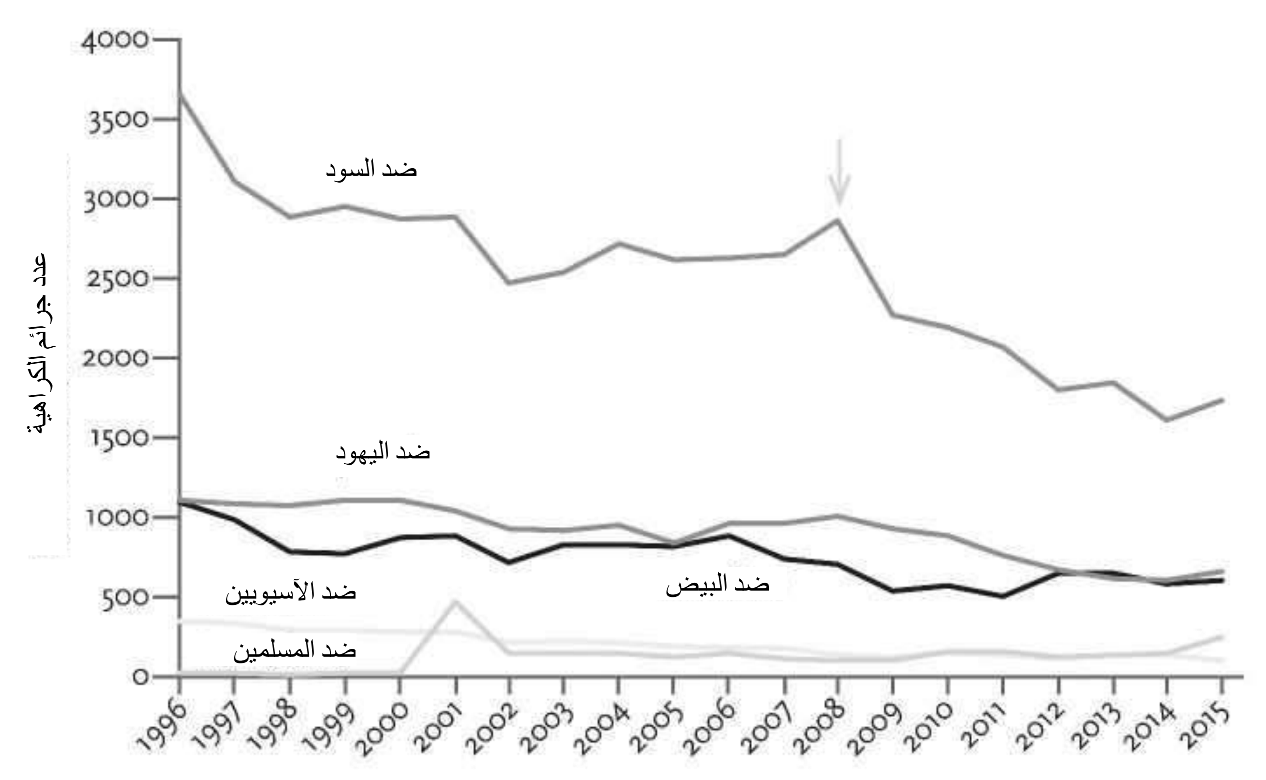
*الألثغ هو من يخطئ نطق حرفٍ أو أكثر فينطق السين ثاءً على سبيل المثال. -المترجمة.

نبَّهني ستيفنز ديفيدويتز إلى أنَّ هذه المنحنيات على الأرجح تقلِّل من قدر التراجع في مستويات التعصب بسبب التغير في هوية من يبحث باستخدام محرك جوجل، فعندما بدأت هذه السجلات في عام 2004، كان أغلب مستخدمي جوجل من الشباب وسكان المدن، إذ يتأخر كبار السن وسكان الريف غالبًا في استخدام التكنولوجيا، وإذا كانوا هم من يبحثون باستخدام التعبيرات المهينة أكثر من غيرهم، كان هذا سيضخِّم النسبة في السنوات اللاحقة ويخفي مدى التراجع في مستويات التزمُّت. لا يسجِّل جوجل أعمار الباحثين أو مستوياتهم التعليمية، ولكنَّه يسجِّل مواقعهم الجغرافية. أكَّد ستيفنز ديفيدويتز، ردًّا على استفساري، أنَّ عمليات البحث المتعصِّبة كانت تُجرى غالبًا من مناطق معظم سكانها من كبار السن وذوي المستويات التعليمية الأقل، فمجتمعات المسنِّين المتقاعدين أكثر ميلًا للبحث عن «نكات عن الزنوج» بسبعة أضعاف وأكثر ميلًا للبحث عن «نكات عن الشواذ» بثلاثين ضعفًا من بقية سكان البلاد (وأخبرني بأسفٍ أنَّ جوجل أدووردز Google AdWords لا يوفِّر بيانات عن «النكات عن العاهرات»). حصل ستيفنز ديفيدويتز أيضًا على كنزٍ من بيانات البحث الخاصة بشركة AOL التي تتبع عمليات البحث التي يجريها الأفراد (ولكنَّها لا تتبَّع هوياتهم بالطبع) على عكس جوجل، وأكَّدت هذه الموضوعات أنَّ العنصريين ربما يكونون فئةً مندثرة، فالشخص الذي يبحث عن كلمة "nigger" (زنجي) يبحث غالبًا أيضًا عن موضوعات أخرى يحب كبار السن البحث عنها مثل «الضمان الاجتماعي» و«فرانك سيناترا». كان الاستثناء الأساسي هو مجموعة ضئيلة من المراهقين الذين بحثوا عن مواقعة الحيوانات وفيديوهات الذبح وقطع الرأس والمواد الإباحية التي تشمل أطفالًا، وأي شيء لا يفترض أن يبحث المرء عنه. ولكن فيما عدا هؤلاء الشباب المتجاوزين للحدود (ولطالما وُجد شبابٌ كهؤلاء)، فإنَّ التعصُّب في المساحات الخاصة يتراجع بمرور الوقت ويتراجع مع الشباب، مما يعني أنَّنا يمكن أن نتوقع تراجعه أكثر عندما يترك المتزمِّتون المسنُّون الساحة لفئاتٍ أقل تعصُّبًا.

حتى يحين ذلك الوقت، ربما لن يحترم هؤلاء الأشخاص الأكبر سنًّا وذوو المستويات التعليمية الأقل (وهُم رجالٌ بيض بالأساس) الحظرَ المفروض على العنصرية والتمييز على أساس الجنس ورهاب المثلية، وهي الأمور التي أصبح حظرها من طبيعة التيار السائد، بل وربما يهزؤون منها بوصفها «لباقة سياسية». يستطيع هؤلاء الأشخاص اليوم لقاء بعضهم بعضًا على الإنترنت والاتحاد وراء زعيمٍ ديماغوجي. وكما سنرى في الفصل العشرين، يمكننا فهم نجاح ترامب ونجاح الشعبويين اليمينيين في دولٍ أوروبية أخرى على نحوٍ أفضل إذا نظرنا إليه بوصفه حشدًا لمجموعة ديموغرافية خاسرة ومتناقصة في ظل مشهد سياسي يتسم بالاستقطاب، بدلًا من أن ننظر إليه بوصفه انقلابًا مفاجئًا للحركة التي تطالب منذ قرنٍ بالمساواة في الحقوق.

لا يظهر التقدُّم في المساواة في الحقوق في نقاط التحول السياسية البارزة ومؤشرات الآراء فحسب، وإنَّما يظهر أيضًا في البيانات الخاصة بحياة الأشخاص، إذ انخفض معدل الفقر بين الأمريكيين من أصل أفريقي من 55 في المئة في عام 1960 إلى 27.6 في المئة في عام 2011، وارتفع متوسط العمر المتوقع من 33 سنة في عام 1900 (أقل من متوسط العمر المتوقع للبيض بـ 17.6 سنة) إلى 75.6 سنة في عام 2015 (أقل من متوسط العمر المتوقع للبيض بأقل من 3 سنوات)، فالأمريكيون من أصل أفريقي الذين يبلغون عمر السادسة والخمسين ما تزال أمامهم سنوات أطول من أقرانهم من البيض. انخفض معدل الأمية بين الأمريكيين من أصل أفريقي من 45 في المئة في عام 1900 إلى صفر في المئة تقريبًا اليوم. والفجوة العرقية بين الأطفال في الاستعداد للالتحاق بالمدارس في انكماش، كما سنرى في الفصل التالي، وكذلك الفجوة العرقية في السعادة كما سنرى في الفصل الثامن عشر.

انخفض العنف العنصري الواقع على الأمريكيين من أصل أفريقي انخفاضًا هائلًا في القرن العشرين بعد أن كان حدثًا عاديًا في المداهمات الليلية وحالات الإعدام دون محاكمة (وكانت تحدث ثلاث مرات أسبوعيًّا في مطلع القرن العشرين)، ثم انخفضت أكثر منذ بدأ مكتب التحقيقات الفيدرالي يدمج في تقاريره جرائم الكراهية في عام 1996 كما يوضِّح الشكل رقم 15-3 (لم يكُن من بين هذه الجرائم جرائم قتل سوى حفنة قليلة، مثل جريمة قتل واحدة أو لا جرائم قتل على الإطلاق في معظم الأعوام). لا يمكن لوم ترامب على الزيادة البسيطة التي حدثت في عام 2015 (آخر السنوات المتاح عنها بيانات)، بما أنَّها موازية للزيادة في جرائم العنف في ذلك العام (انظر الشكل رقم 12-2)، إضافةً إلى أنَّ جرائم الكراهية تعبر عن معدلات الخروج على القانون أكثر مما تعبر عن تصريحات السياسيين.



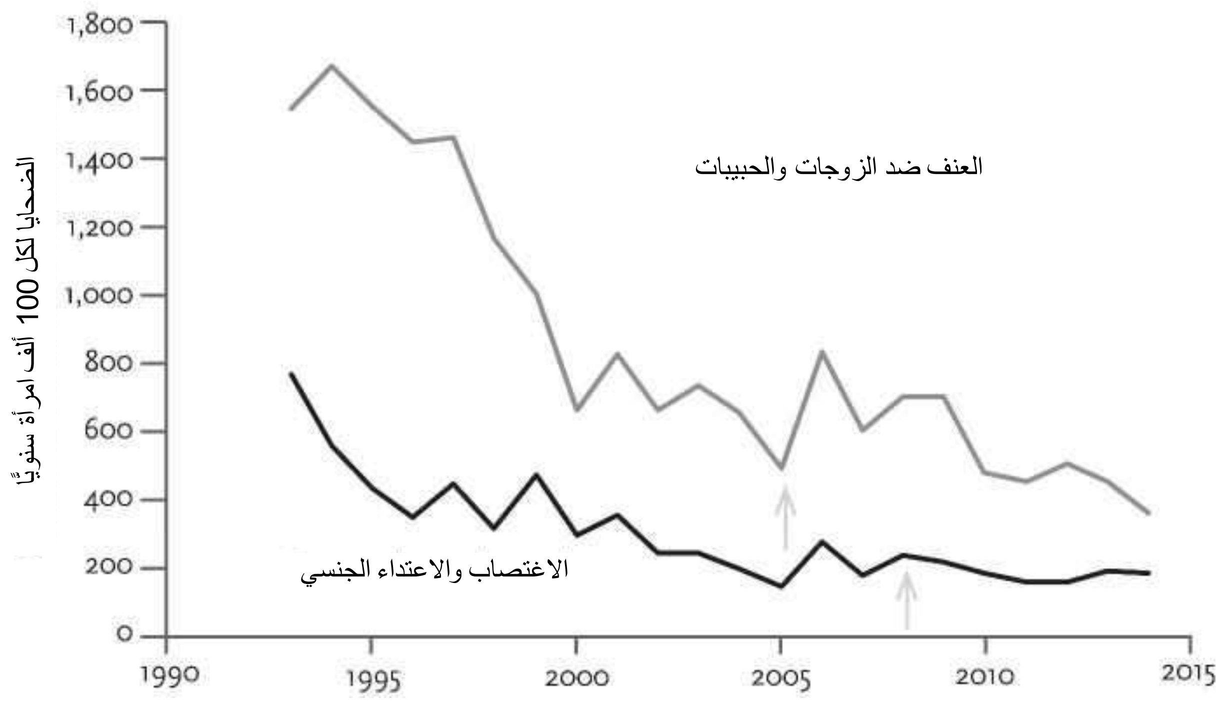
الشكل رقم 15- 3: جرائم الكراهية في الولايات المتحدة منذ 1996 حتى 2015

المصدر: مكتب التحقيقات الفيدرالي (Federal Bureau of Investigation 2016b). يشير السهم إلى سنة 2008، وهي آخر سنة موضحة في الشكل رقم 7-4 من دراسة Pinker 2011.

يوضِّح الشكل رقم 15-3 أنَّ جرائم الكراهية ضد الآسيويين واليهود والبيض قد قلَّت أيضًا، ورغم الادعاءات بأنَّ الإسلاموفوبيا قد انتشرت كثيرًا في أمريكا، إلَّا أنَّ معدل جرائم الكراهية التي تستهدف المسلمين لم يتغيَّر كثيرًا باستثناء الارتفاع الذي حدث مرة واحدة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر والزيادات التي تلت الهجمات الإرهابية الإسلامية الأخرى مثل الهجمات التي وقعت في باريس وسان برناردينو في عام 2015. حتى لحظة كتابة هذا الكتاب لم تكُن بيانات مكتب التحقيقات الفيدرالي لعام 2016 متاحة، لذا فإنَّ قبول الادعاءات واسعة الانتشار بظهور طفرة «ترامبية» من جرائم الكراهية في ذلك العام سابقٌ لأوانه. تأتي هذه الادعاءات من منظمات المناصرة التي يعتمد تمويلها على اختلاق الخوف وليست جماعات مراقبة ورصد لا مصلحة لها في هذه الادعاءات، وكانت بعض الحوادث التي وقعت خدعًا ساخرة وكان كثيرٌ منها انفعالات فظة وليست جرائم فعلية. إذًا ففيما عدا التغيرات البسيطة المرتبطة

بالجرائم وبفترات ما بعد الحوادث الإرهابية، فإنّ مستويات جرائم الكراهية تتجه إلى أسفل.

إنَّ وضع النساء في اتجاهٍ صاعدٍ أيضًا. في طفولتي، لم تكُن النساء الأمريكيات في معظم الولايات تستطيع أخذ قرضٍ أو حيازة بطاقة ائتمان بأسمائهن، وكان عليهن البحث عن الوظائف في قسمٍ مخصص للإناث من الإعلانات المبوبة، ولم يكُن باستطاعتهن توجيه اتهامات رسمية لأزواجهن بالاغتصاب. أمَّا اليوم فتشكِّل السيدات 47 في المئة من القوة العاملة وأغلبية طلاب الجامعات. أفضل طريقة لقياس مستويات العنف ضد المرأة هي الدراسات الاستقصائية لضحايا الإيذاء، لأنَّها تتحايل على مشكلة قلة تبليغ الشرطة بالجرائم، وتوضِّح هذه الأدوات أنَّ معدلات الاغتصاب والعنف ضد الزوجات والحبيبات في انخفاضٍ منذ عقودٍ ووصلت الآن إلى رُبع مستوى ذروتها في الماضي أو أقل (الشكل رقم 15–4). ما زالت هذه الجرائم تحدث بعددٍ كبير، ولكن ينبغي أن تشجِّعنا حقيقة أنَّ زيادة الاهتمام بقضية العنف ضد المرأة ليست مجرد وعظ أخلاقي أجوف وإنَّما أدَّت إلى تقدم ملموس يمكن قياسه، مما يعني أن مواصلة هذا الاهتمام قد يؤدي إلى تقدم أكبر.



الشكل رقم 15- 4: الاغتصاب والعنف الأسري في الولايات المتحدة منذ 1993 حتى 2014

المصدر: مكتب إحصاءات وزارة العدل الأمريكية، الدراسة الاستقصائية الوطنية لضحايا الجرائم *(National Crime Victimization Survey)*، أداة تحليل الإيذاء، http://www.bjs.gov/index.cfm?ty=nvat، وبيانات إضافية قدَّمتها جينيفر ترومان (Jennifer Truman) من مكتب إحصاءات وزارة العدل. يمثِّل الخط الرمادي «العنف من الشريك الحميم» الذي وقعت ضحاياه الإناث. يشير السهم إلى عام 2005، وهو آخر عام موضَّح في الشكل رقم 7–13، و2008، وهو آخر عام موضَّح في الشكل رقم 7–10، من دراسة Pinker 2011.

لا توجد أي صورة حتمية من صور التقدم، ولكنَّ التآكل التاريخي للعنصرية والتمييز على أساس الجنس ورهاب المثلية أكثر من مجرد تغييرٍ في الأسلوب، بل يبدو أنَّه حدث بقوة دفع تيار الحداثة كما سنرى. يختلط الأشخاص في المجتمع العالمي بأنواعٍ أخرى من الناس ويعملون معهم ويجدون أنفسهم في مركبٍ واحد معهم، ويجعلهم هذا غالبًا أكثر تعاطفًا معهم. وعندما يكون الناس مضطرين إلى

تبرير طريقة تعاملهم مع الآخرين بدلًا من التسلُّط عليهم بدافع الجمود الغريزي أو الديني أو التاريخي، فإنّ أي تبرير سينهار بعد التدقيق فيه. يتعذر حقًّا تبرير الفصل العنصري وقصر حق التصويت على الرجال وتجريم المثلية الجنسية، فقد حاول الناس الدفاع عن هذه الأمور في العصور التي حدثت فيها، وفشلوا.

تستطيع هذه القوى الانتصار على المدى البعيد حتى على الانتكاسة الشعبوية. يعطينا الزخم العالمي الدافع نحو إلغاء عقوبة الإعدام (الفصل الرابع عشر)، رغم جاذبيتها القديمة على المستوى الشعبي، درسًا في الطرق غير المرتبة التي يحدث بها التقدم، فالأفكار غير العملية أو التي يتعذر تبريرها تفشل في مسيرتها، وتخرج عن نطاق الخيارات المحتملة حتى لدى من يظنون أنَّهم يفكِّرون في المستحيل، ويتقدَّم المتطرِّفون السياسيون للأمام رغمًا عن أنوفهم. ولذا فإنَّه حتى في ظل أكثر الحركات السياسية رجعيةً في تاريخ أمريكا الحديث، لم نجد دعوات لإعادة تطبيق قوانين جيم كرو أو إلغاء حق النساء في التصويت أو إعادة تجريم المثلية الجنسية.

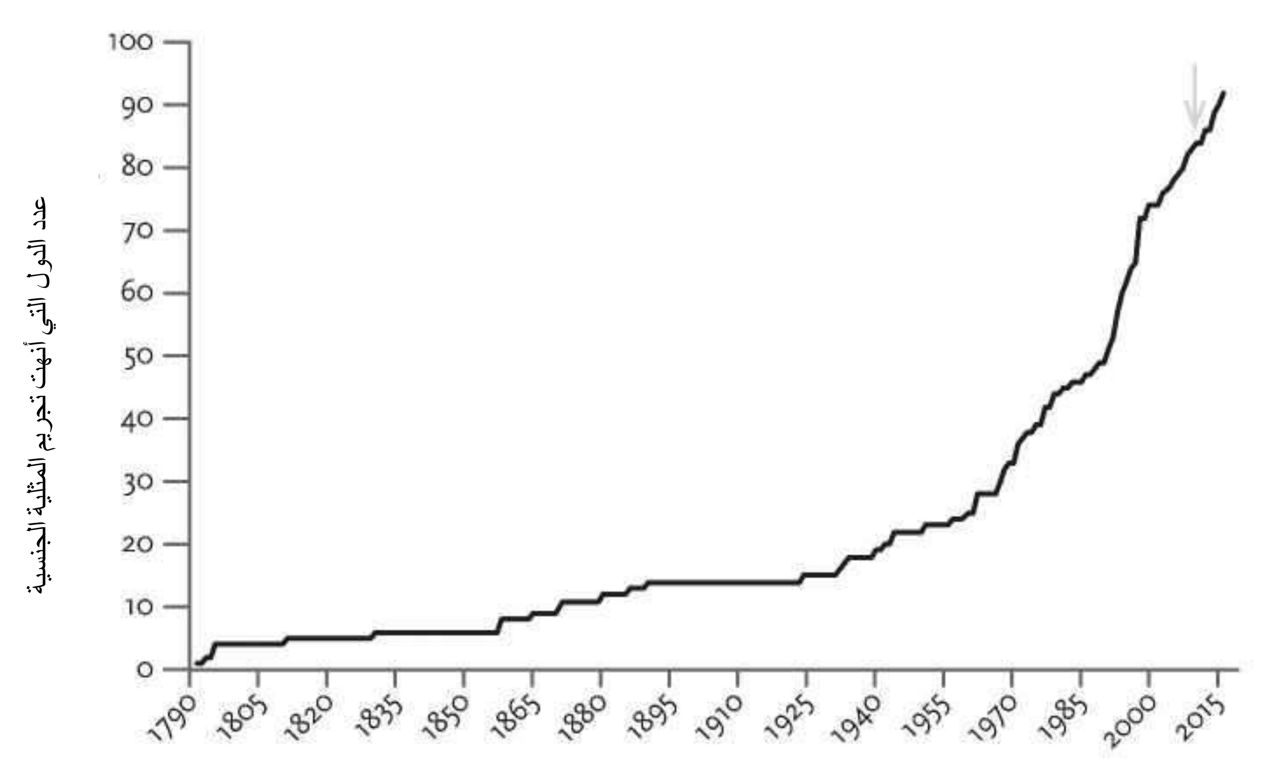
إنَّ التعصُّب الإثني والعرقي في تراجعٍ، ليس في الغرب فقط وإنَّما في جميع أنحاء العالم. كان لدى نصف دول العالم تقريبًا في عام 1950 قوانين تمييزية ضد الأقليات الإثنية أو العرقية (بما يشمل بالطبع الولايات المتحدة)، ولكن في عام 2003 كان لدى أقل من خُمس الدول قوانين كهذه، وغلبتها عدداً الدول ذات سياسات الإجراءات الإيجابية التي تدعم الأقليات المحرومة من حقوقها. وجد استطلاع ضخم أجرته منظمة الرأي العام العالمي (World Public Opinion) على إحدى وعشرين دولة متقدمة ونامية أنَّه في كل دولة، يقول أغلبية المشاركين (حوالي 90 في المئة منهم) إنَّه من المهم التعامل مع الأشخاص الذين ينتمون إلى أعراق وإثنيات وأديان مختلفة على قدم المساواة. على الرغم من جلد الذات المعتاد الذي يمارسه المثقفون الغربيون فيما يخص العنصرية الغربية، إلَّا أنَّ الدول غير الغربية هي الأقل تسامحًا، ولكن حتى في الهند، الدولة التي تقع في أدنى القائمة، أيَّد 59 في المئة من المشاركين المساواة العرقية، وأيَّد 76 في المئة منهم المساواة الدينية.

وهذا التقدُّم عالمي أيضًا فيما يخص حقوق المرأة، فلم يكُن يحق للنساء التصويت في عام 1900 سوى في دولةٍ واحدة هي نيوزيلندا، أمَّا اليوم فيحق لهن التصويت في كل دولة يحق للرجال التصويت فيها عدا دولة واحدة هي مدينة الفاتيكان. تشكِّل النساء 72 في المئة من القوة العاملة على مستوى العالم وأكثر من خُمس أعضاء البرلمانات الوطنية. وجد كلٌّ من منظمة الرأي العام العالمي ومشروع بيو للمواقف العالمية أنَّ أكثر من 85 في المئة من المشاركين في استطلاعاتهم يؤمنون بالمساواة الكاملة بين الرجال والنساء، وتتراوح المعدلات بين 60 في المئة في الهند و88 في المئة في ست دول ذات أغلبية مسلمة و98 في المئة في المكسيك والمملكة المتحدة.

تبنَّت الجمعية العامة للأمم المتحدة في عام 1993 إعلانًا بشأن القضاء على العنف ضد المرأة، ومنذ ذلك الحين، طبَّقت معظم الدول قوانين وحملات توعية للحد من الاغتصاب والزواج القسري وزواج الأطفال وتشويه الأعضاء التناسلية وجرائم الشرف والعنف الأسري والأعمال الوحشية في ظل الحروب، ورغم أنَّ بعض هذه المقاييس ضعيفة، إلَّا أنَّها تدعو إلى التفاؤل على المدى البعيد. إذ أدَّت حملات الإدانة العالمية –حتى التي بدأت كمجرد آمال بحتة– في الماضي إلى انخفاضات هائلة في مستويات العبودية والمبارزة وصيد الحيتان وتحجيم الأقدام والقرصنة والقرصنة التفويضية والحروب الكيميائية والتفرقة العنصرية والتجارب النووية في الغلاف الجوي. وتشويه الأعضاء التناسلية للإناث مثالٌ على ذلك، فرغم أنَّ بعض الناس ما زالوا يمارسونه في تسع وعشرين دولة أفريقية (إضافةً إلى إندونيسيا والعراق

والهند وباكستان واليمن)، إلَّا أنَّ أغلبية الرجال والنساء في تلك الدول يؤمنون بضرورة وقفه، وانخفضت معدلات ممارسته خلال الثلاثين عامًا الماضية بمقدار الثُلث. أيَّد البرلمان الأفريقي الذي يتعاون مع صندوق الأمم المتحدة للسكان حظر هذه الممارسة، إضافةً إلى زواج الأطفال، في عام 2016.

وحقوق المثليين من الأفكار الأخرى التي حان وقتها. كانت الممارسات الجنسية المثلية جريمة في كل دول العالم تقريبًا، ثم صاغ كلٌّ من مونتسكيو وفولتير وبنتام أول حجة تقول إنَّ أي سلوك بين شخصين بالغين بالتراضي لا يخص أي شخصٍ آخر في عصر التنوير، وبعد ذلك بفترةٍ قصيرة، أنهت دولٌ قليلة متناثرة تجريم المثلية الجنسية، وازداد عدد هذه الدول مع ثورة حقوق المثليين في سبعينيات القرن الماضي. رغم أنَّ المثلية الجنسية ما زالت تُعد جريمةً في أكثر من سبعين دولة (وجريمة يُعاقب عليها بالإعدام في إحدى عشرة دولة إسلامية)، ورغم التراجع الذي حدث في روسيا وعدة دول أفريقية، إلَّا أنَّ الاتجاه العالمي يواصل مساره نحو التحرير، بتشجيع الأمم المتحدة ومنظمات حقوق الإنسان كافة. ويوضِّح الشكل رقم 15–5 الخط الزمني، فخلال السنوات الستة الماضية، أسقطت ثماني دول إضافية المثلية الجنسية من قوانينها الجنائية.



الشكل رقم 15– 5: إنهاء تجريم المثلية الجنسية منذ 1791 حتى 2016

المصدر: Ottosson 2006, 2009. حصلت على التواريخ الخاصة بستة عشر دولة أخرى من «حقوق المثليين حسب الدولة أو الإقليم»، ويكيبيديا، بتاريخ 31 يوليو 2016. لم يُدرج أيٌّ من المصدرين التواريخ الخاصة بستة وثلاثين دولة أخرى تسمح حاليًا بالمثلية الجنسية. يشير السهم إلى سنة 2009، وهي آخر سنة موضَّحة في الشكل رقم 7–23 من دراسة Pinker 2011.

قد يبدو التقدم العالمي المناهض للعنصرية والتمييز على أساس الجنس ورهاب المثلية، حتى بتعثُّره وانتكاساته، وكأنَّه اكتساح شامل. اقتبس مارتن لوثر كينج في إحدى المرات الصورة التي رسمها المؤيد لإلغاء العنصرية ثيودور باركر لقوسٍ ينحني باتجاه العدالة، واعترف باركر بأنَّه

لم يستطعِ رؤية القوس بأكمله ولكنَّه يتنبأ به بوجدانه. هل هناك طريقة أكثر موضوعية لمعرفة ما إذا كان هناك قوس تاريخي ينحني باتجاه العدالة؟ وإن كان هناك بالفعل قوس كهذا، فما الذي يحنيه؟

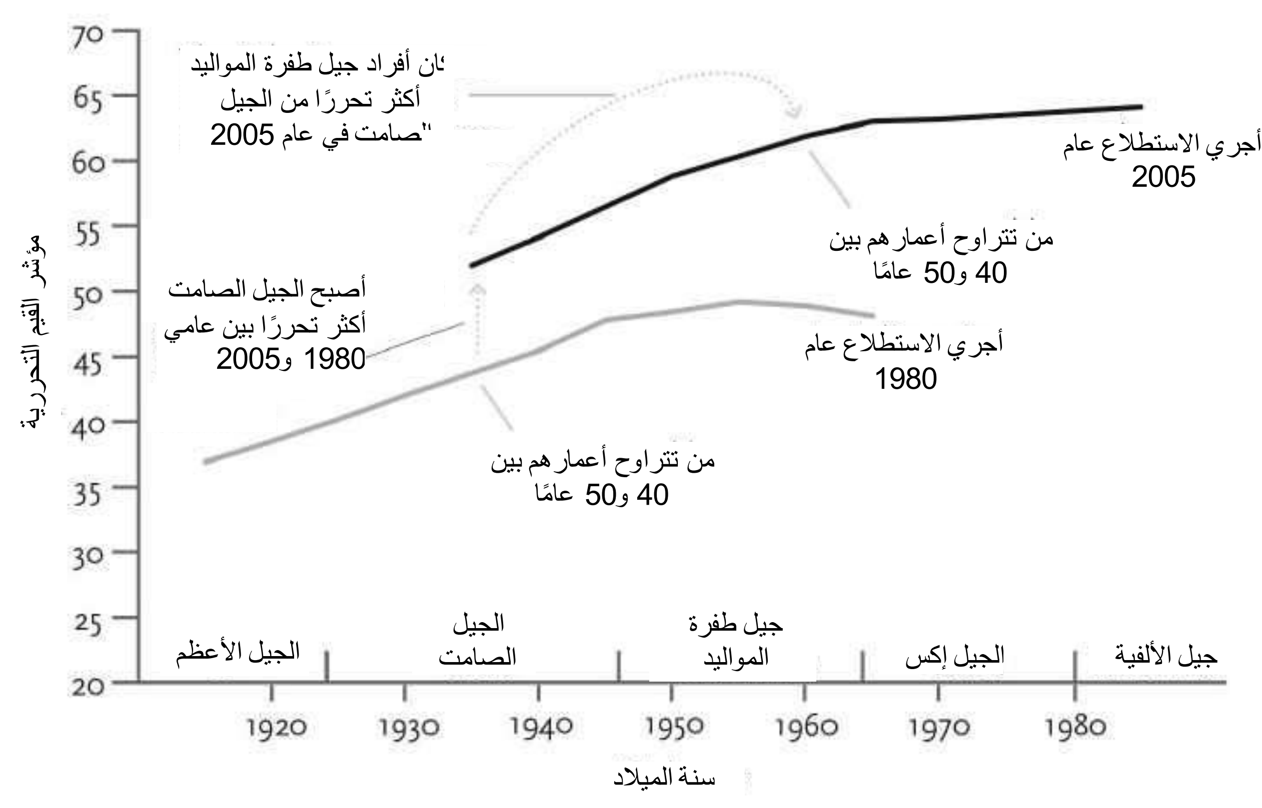
يُقدِّم لنا مسح القيم العالمية –الذي استطلع آراء 150 ألف شخص في أكثر من خمس وتسعين دولة تشمل 90 في المئة تقريبًا من سكان العالم على مدار عدة عقود– لمحةً عن القوس الأخلاقي. اقترح عالم السياسة كريستيان ويلزيل (تكملةً لتعاونه مع رون إنجلهارت وبيبا نوريس وغيرهما) في كتابه شروق الحرية *(Freedom Rising)* أنَّ تكون عملية التحديث قد حفَّزت ظهور «القيم التحررية»، فمع تحول المجتمعات من كونها زراعية إلى صناعية ثم إلى معلوماتية، يصبح مواطنوها أقل قلقًا بشأن صد الأعداء والمخاطر الوجودية الأخرى وأكثر تلهفًا للتعبير عن مبادئهم والبحث عن فرصهم في الحياة. يغيِّر هذا من قيمهم ويوجِّهها نحو حريةٍ أكبر لأنفسهم ولغيرهم. يتَّسق هذا التحول مع نظرية عالم النفس أبراهام ماسلو (Abraham Maslow) الخاصة بالتسلسل الهرمي للاحتياجات، وهي تتدرج من البقاء والأمان إلى الانتماء، والتقدير، وتحقيق الذات (ومع تعبير بريخت: «الطعام أولًا ثم الأخلاق»). يبدأ الناس في إعطاء الأولوية للحرية على الأمن، وللتنوع على التماثل، وللاستقلالية على السلطة، وللإبداع على الانضباط، وللفردانية على الامتثال للمعايير. يُطلق على القيم التحررية أيضًا القيم الليبرالية، بالمعنى التقليدي المرتبط بـ «الحرية» (liberty) و«التحرير» (liberation) (وليس المعنى المرتبط باليسار السياسي).

استنبط ويلزيل طريقةً لتقييم الالتزام بالقيم التحررية برقمٍ واحد، بناءً على اكتشافه أنَّ الإجابات عن مجموعةٍ من موضوعات الاستطلاع ترتبط بعضها ببعض على الأرجح لدى مختلف الأشخاص والدول والمناطق ذات التاريخ والثقافة المشتركين. تشمل هذه الموضوعات المساواة بين الجنسين (ما إذا كان الأشخاص يشعرون بأنَّه لا بد أن يكون للنساء حق متكافئ في الوظائف والقياد السياسية والتعليم الجامعي أم لا) والخيارات الشخصية (ما إذا كانوا يشعرون بأنَّ الطلاق والمثلية الجنسية والإجهاض خيارات لها مبرر أم لا) والصوت السياسي (ما إذا كانوا يعتقدون أنَّه لا بد أن تُكفل للأشخاص حرية التعبير والرأي في الحكومة والمجتمعات المحلية وأماكن العمل أم لا) وفلسفة تنشئة الأطفال (ما إذا كانوا يشعرون بضرورة تشجيع الأطفال على أن يكونوا مطيعين أم مستقلين ومبدعين). والترابط بين هذه الموضوعات أبعد ما يكون عن المثالية –فالإجهاض بالأخص يفرِّق بين الأشخاص الذين يتفقون على كثيرٍ من الموضوعات الأخرى– ولكنَّها تجتمع سويًّا غالبًا، وتتنبأ سويًّا بالكثير من الأمور في دولةٍ ما.

قبل أن ننظر إلى التغيرات التاريخية في القيم، علينا أن نتذكَّر أنَّ مرور الوقت لا يقتصر على قلب صفحات الرزنامة، إذ كلما مر الوقت، كبُرَ الأشخاص سنًّا، ثم يموتون في النهاية ويحل محلهم جيلٌ جديد. إذًا فأي تغيير علماني (تاريخي أو طويل الأمد) في السلوك البشري قد يحدث لثلاثة أسباب، فقد يكون هذا الاتجاه نتيجة أثر الفترة: كتغيير في الزمن أو روح العصر أو المزاج الوطني الذي يرتقي بكل مناحي الحياة أو يتسبب في انحدارها. وقد يكون نتيجة السن (أو دورة الحياة): فالإنسان يتغير عندما ينتقل من مرحلة الرضيع الباكي إلى الطالب المتذمِّر ثم إلى العاشق المتنهد ثم إلى القاضي ذي البطن الممتلئة مثلًا وهكذا. وبما أنَّ معدل المواليد في أي دولة يتعرض لمراحل ارتفاع وانخفاض، فإنَّ متوسط عدد السكان سيتغيَّر تلقائيًّا مع تغيُّر نسبة الشباب والأفراد في منتصف العمر والمسنِّين، حتى لو كانت القيم السائدة في كل سنٍّ ثابتة. وأخيرًا، قد يكون الاتجاه نتيجة الفئة العمري (أو الجيل): فالأشخاص المولودون في فترةٍ معينة ربما تُطبع عليهم سمات تصحبهم طوال حياتهم، وسيعكس المتوسط المزيج المتغيِّر من الفئات العمرية مع خروج الجيل من المرحلة ودخول الجيل التالي فيها. من المستحيل فصل آثار السن والفترة والفئة العمرية عن بعض تمامًا، لأنَّه مع انتقال كل فترة إلى الفترة التالية، تكبُرُ كل فئة عمرية سنًّا، ولكن يمكننا استنباط أنواع التغيير الثلاث منطقيًّا بقياس إحدى السمات لدى السكان في فترات متعددة وفصل البيانات

الخاصة بالفئات العمرية المختلفة في كل فترة.

لننظر أولًا إلى تاريخ الدول الأكثر تقدمًا كدول أمريكا الشمالية وغرب أوروبا واليابان. يوضِّح الشكل رقم 15-6 مسار القيم التحررية على مدار قرنٍ، فهو يرسم البيانات التي جمعتها استطلاعات آراء أشخاصٍ بالغين (تتراوح أعمارهم بين ثمانية عشر عامًا وخمسة وثمانين عامًا) على فترتين (1980 و2005) والتي تمثِّل فئات عمرية مولودة بين عامي 1895و1980 (تنقسم الفئات العمرية للأمريكيين عادةً إلى جيل GI أو الجيل الأعظم المولود بين عامي 1900 و1924، والجيل الصامت المولود بين عامي 1925 و1945، وجيل طفرة المواليد المولود بين عامي 1946 و1964، والجيل إكس المولود بين عامي 1965 و1979، وجيل الألفية المولود بين عامي 1980 و2000). الفئات العمرية مرتبة على طول المحور الأفقي حسب سنة الميلاد، وكلٌّ من العامين اللذين أجري فيهما استطلاع الرأي موضَّح بالرسم على الخط (البيانات من عام 2011 إلى 2014 -والتي تمتد على نفس الشاكلة وصولًا إلى أفراد جيل الألفية المولودين في عام 1996- مشابهة لبيانات عام 2005).



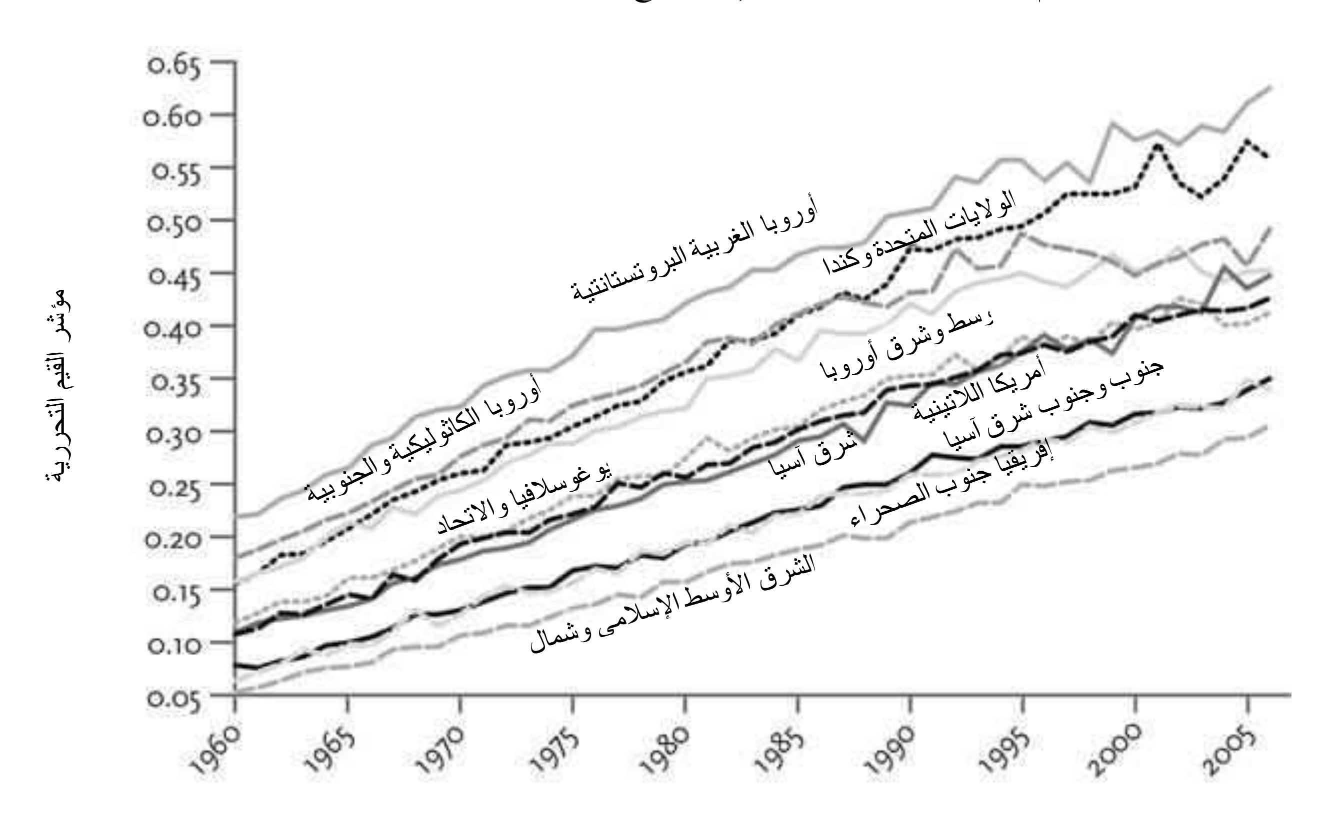
الشكل رقم 15- 6: القيم الليبرالية عبر الزمن والأجيال، في البلدان المتقدمة منذ 1980 حتى 2005

المصدر: Welzel 2013, fig. 4.1. بيانات مسح القيم العالمية من أستراليا وكندا وفرنسا وألمانيا الغربية وإيطاليا واليابان وهولندا والنرويج والسويد والمملكة المتحدة والولايات المتحدة (كل دولة موزونة بقدرٍ متساوٍ).

يعرض الرسم اتجاهًا تاريخيًّا نادرًا ما نقدِّره في وسط ضجيج الجدالات السياسية، فرغم كل الحديث عن الانتكاسات اليمينية والرجال البيض الغاضبين، إلَّا أنَّ قيم الدول الغربية تزداد تحرُّرًا بوتيرة ثابتة (وهو أحد أسباب غضب هؤلاء الرجال، كما سنرى لاحقًا).

الخط الذي يمثِّل نتائج استطلاع عام 2005 أعلى من ذلك الذي يمثِّل نتائج استطلاع عام 1980 (ممَّا يوضِّح أنَّ الجميع ازداد تحرُّرًا بمرور الوقت) وارتفع المنحنيان كلَّما اتجها إلى اليمين (ممَّا يوضِّح أنَّ الأجيال الأصغر في الفترتين كانا أكثر تحرُّرًا من الأجيال الأكبر)، وكان هذا الارتفاع كبيرًا، إذ بلغ حوالي ثلاثة أرباع الانحراف المعياري لكلٍّ من المنحنيين على مدار الخمسة وعشرين عامًا وكل مرحلة جيلية مدتها خمسة وعشرين عامًا (ولا يلقى هذا الارتفاع التقدير الكافي أيضًا، إذ أوضح استطلاع رأي أجرته شركة إبسوس عام 2016 أنَّ الناس في كل دولة متقدمة تقريبًا يظنون أنَّ المواطنين الآخرين يميلون أكثر منهم إلى التحفُّظ الاجتماعي). يعرض الرسم البياني اكتشافًا حرجًا وهو أنَّ التحررية لا تعكس ارتداد مجموعة متزايدة من الشباب المتحرِّرين إلى التحفُّظ كلما تقدَّم بهم العمر. إذ لو كان هذا صحيحًا، لترافق المنحنيان بدلًا من أن يكون أحدهما أعلى من الآخر، ولاخترق المنحنى الذي يمثِّل عام 2005 خطٌّ رأسي يمثِّل فئة عمرية ما بقيمة أدنى عاكسًا التحفُّظ لدى كبار السن بدلًا من القيمة الكبيرة التي نراها والتي تعكس روح العصر الأكثر تحرُّرًا. فالشباب يحتفظون بقيمهم التحرُّرية مع تقدُّمهم في السن، وسنعود إلى هذا الاكتشاف عندما نتأمَّل في مستقبل التقدم في الفصل العشرين.

تأتي الاتجاهات التحرُّرية الموضَّحة في الشكل رقم 15–6 من السكان المرفَّهين في الدول الغربية التي تخطت الحقبة الصناعية والذين يقودون سيارات البريوس ويحتسون الشاي ويتناولون الطعام الصحي، فماذا عن بقية البشر؟ جمع ويلزيل الخمسَ وتسعين دولة المشمولة في مسح القيم العالمية في عشر مناطق يجمع بين كلٍّ منها تاريخٌ وثقافات مشتركة، واستغل أيضًا غياب أثر دورة الحياة لقياس القيم التحرُّرية بأثرٍ رجعي، فالقيم التي تمثِّل شخصًا كان يبلغ ستين عامًا في عام 2000، مع تعديلها لمراعاة آثار أربعين عامًا من التحرُّرية في بلده بأكمله، تمنحنا تقديرًا معقولًا للقيم التي تمثِّل شخصًا يبلغ عشرين عامًا في عام 1960. يوضِّح الشكل رقم 15–7 اتجاهات القيم الليبرالية في مناطق مختلفة من العالم على مدار خمسين عامًا تقريبًا، ويجمع بين آثار روح العصر المتغيِّرة في كل بلدٍ (مثل الطفرة الواضحة بين المنحنيين في الشكل رقم 15–6) والفئات العمرية المتغيِّرة (الارتفاع في كل منحنى).



الشكل رقم 15- 7: القيم الليبرالية عبر الزمن (بالقياس)، في مختلف المناطق الثقافية في العالم منذ 1960 حتى 2006

المصدر: مسح القيم العالمية، كما حلله ويلزيل في دراسته Welzel 2013, fig. 4-4، بعد تحديثه بالبيانات التي قدَّمها ويلزيل. تُحسب تقديرات القيم التحرُّرية في كل دولة لكل عام لعينة افتراضية ذات عمرٍ ثابت بناءً على الفئة العمرية لكل مشارك وسنة الاستطلاع وأثر الفترة الخاص بكل دولة. تمثِّل العناوين رموزاً جغرافية للمناطق التي حدَّدها ويلزيل بأنَّها «مناطق ثقافية» ولا تنطبق حرفيًّا على كل دولةٍ تشملها منطقةٌ ما، وقد أعدتُ تسمية بعض المناطق كما يلي: أوروبا الغربية البروتستانتية هي ما أسماه ويلزيل «الغرب المصلَح»، والولايات المتحدة وأستراليا ونيوزيلندا = «الغرب الجديد»، وأوروبا الكاثوليكية والجنوبية = «الغرب القديم»، ووسط وشرق أوروبا = «الغرب العائد»، وشرق آسيا = «الشرق الصيني»، ويوغوسلافيا والاتحاد السوفييتي سابقًا = «الشرق الأرثوذكسي»، وجنوب وجنوب شرق آسيا = «الشرق الهندي». الدول في كل منطقة موزونة بقدرٍ متساوٍ.

لا عجب أنَّ الرسم البياني يكشف عن أنَّ الاختلافات كبيرة للغاية بين مختلف المناطق الثقافية في العالم، فالدول البروتستانتية في غرب أوروبا مثل هولندا والدول الإسكندنافية والمملكة المتحدة هي أكثر دول العالم تحرُّرًا، تليها الولايات المتحدة والدول الثرية الأخرى المتحدِّثة بالإنجليزية، ثم أوروبا الكاثوليكية والجنوبية، ثم دول وسط أوروبا الشيوعية سابقًا. ودول أمريكا اللاتينية ودول شرق آسيا الصناعية وجمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق ويوغوسلافيا سابقًا أكثر تحفُّظًا اجتماعيًّا، يليها جنوب وجنوب شرق آسيا وأفريقيا جنوب الصحراء. وأقل مناطق العالم تحرُّرًا هي منطقة الشرق الأوسط الإسلامي.

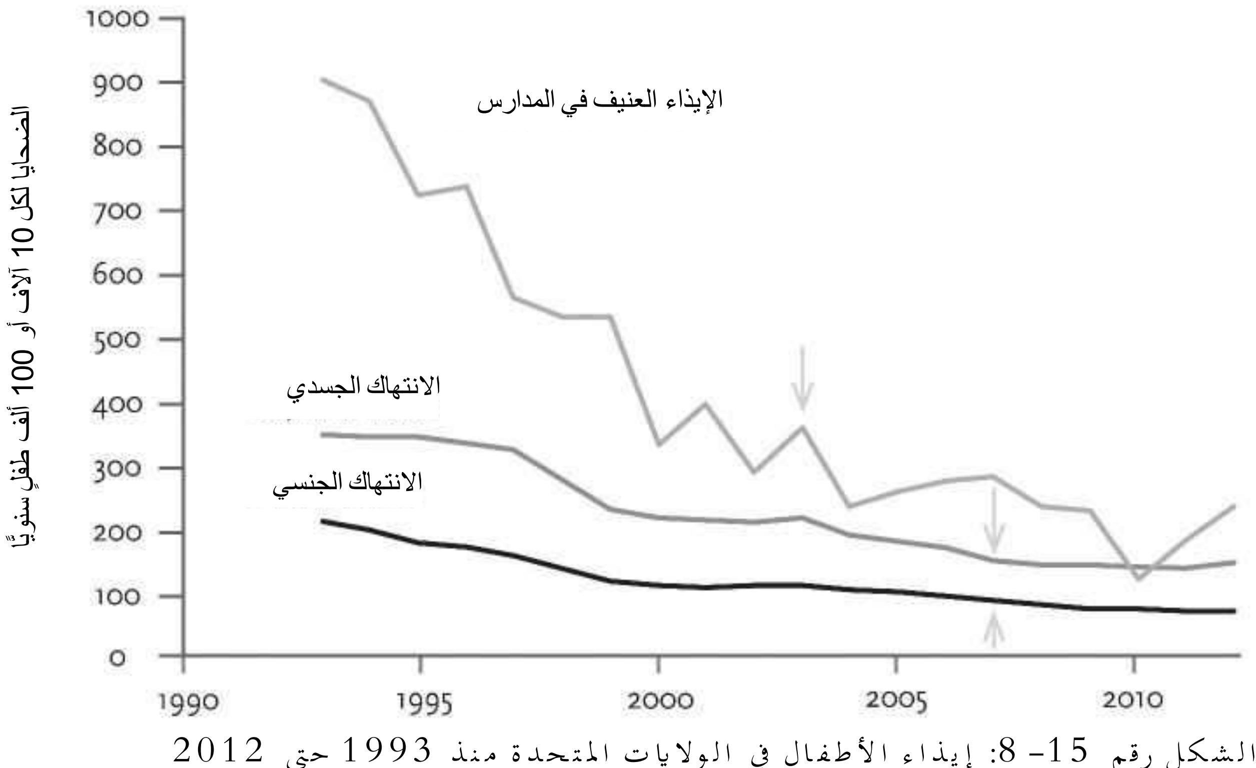
ولكنَّ الأمر المفاجئ هو أنَّ الناس ازدادوا تحرُّرًا في كل مكانٍ في العالم، ازدادوا تحرُّرًا بقدرٍ كبير، إذ لدى شباب المسلمين في الشرق الأوسط –أكثر ثقافة محافِظة في العالم– اليوم قيم شبيهة بقيم الشباب في غرب أوروبا –أكثر ثقافة تحرُّرية في العالم– في أوائل ستينيات القرن الماضي. رغم أنَّ الأجيال الجديدة وروح العصر أصبحوا أكثر تحرُّرًا في كل ثقافة، ولكنَّ التحرُّرية كانت مدفوعة في بعض الثقافات، مثل ثقافة الشرق الأوسط الإسلامي، بدورة الأجيال بالأساس، وكان لها دور واضح في الربيع العربي.

هل يمكننا تحديد الأسباب التي تميِّز بين مناطق العالم المختلفة وتدفعها للتحرُّر بمرور الوقت؟ ترتبط كثيرٌ من السمات المشتركة على نطاق المجتمع بالقيم التحرُّرية، وتميل إلى الارتباط بعضها ببعضٍ –وهي مشكلة نواجها على نحوٍ متكرِّرٍ–، وهو أمر يزعج علماء الاجتماع الذين يريدون التفرقة بين السببية والارتباط. يرتبط الرخاء (الذي يُقاس بنصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي) بالقيم التحرُّرية، ربما لأنَّ الأشخاص كلما ازدادوا صحةً وأمنًا، أمكنهم تجربة تحرير مجتمعاتهم. توضِّح البيانات أنَّ البلدان الأكثر تحرُّرًا تكون في المتوسط ذات تعليمٍ أفضل وتكون أكثر حضريةً وأقل خصوبةً وبها حالات أقل من زواج الأقارب، وتكون أكثر سلميةً وديمقراطيةً وأقل فسادًا ولا تمتلئ بالجريمة والانقلابات، وتُبنى اقتصاداتها –الحالية والماضية– غالبًا على شبكات تجارية بدلًا من المصانع الكبيرة أو استخراج النفط والمعادن.

ولكنَّ المؤشر الأفضل للقيم التحرُّرية هو مؤشر البنك الدولي للمعرفة الذي يجمع مقاييس نصيب الفرد من التعليم (إلمام البالغين بالقراءة والكتابة، والالتحاق بالمدارس الثانوية والكليات) والحصول على المعلومات (مستخدمو الهواتف والحواسب الآلية والإنترنت) والإنتاجية العلمية والتكنولوجية (الباحثون وبراءات الاختراع ومقالات المجلات العلمية) ونزاهة المؤسسات (حكم القانون والجودة التنظيمية والاقتصادات المفتوحة). وجد ويلزيل أنَّ مؤشر المعرفة يحسب سبعين في المئة من الاختلاف بين الدول في القيم التحرُّرية، ممَّا يجعله مؤشرًا أفضل كثيرًا من الناتج المحلي الإجمالي. تعلِّل هذه النتيجة الإحصائية رؤية مهمة للتنوير، وهي أنَّ المعرفة والمؤسسات الشرعية تؤدي إلى التقدم الأخلاقي.

لا بد أن تنظر أي جولة في التقدُّم الذي حدث في الحقوق إلى أضعف فئات البشرية، أي الأطفال، الذين لا يستطيعون التحرك من أجل مصالحهم وإنَّما يعتمدون على تعاطف الآخرين. لقد رأينا بالفعل أنَّ حال الأطفال حول العالم أصبح أفضل، فاحتمالية أن يأتوا إلى العالم ولا يجدوا أمهاتهم، أو أن يموتوا قبل عامهم الخامس، أو ألا يكتمل نموهم بسبب قلة الطعام، أقل حدوثاً مما مضى. وسنرى هنا أنَّ الأطفال، إضافةً إلى هروبهم من هذه الاعتداءات الطبيعية، يزداد الآن أيضًا معدل هروبهم من الاعتداءات البشرية، فهُم أكثر أماناً مما سبق واحتمالية تمتُّعهم بطفولةٍ حقيقية أكبر.

إنَّ رفاهة الأطفال حالة أخرى تُفزع فيها عناوين الأخبار المثيرة القُرَّاءَ حتى لو كانت الأمور المفزعة في الحقيقة أقل كثيرًا، فالتقارير الإعلامية عن حوادث إطلاق النار على المدارس وحالات الاختطاف والتنمُّر والتنمُّر الإلكتروني وتبادل الرسائل الجنسية وحوادث الاغتصاب من الرفقاء والانتهاك الجنسي والجسدي توحي وكأنَّ الأطفال يعيشون الآن في زمنٍ يزداد خطورةً. ولكنَّ البيانات تقول غير ذلك، وأحد الأمثلة على هذا هو ابتعاد المراهقين عن المخدرات الخطرة المذكورة في الفصل الثاني عشر. ذكر عالم الاجتماع ديفيد فينكلهور (David Finkelhor) وزملاؤه في مراجعة للمؤلفات عن العنف ضد الأطفال في الولايات المتحدة عام 2014 أنَّه «من بين اتجاهات تعرُّض الأطفال للعنف التي فحصناها، والتي بلغ عددها الخمسين، شهدنا تراجعًا كبيرًا في 27 اتجاهًا، ولم نشهد أي زيادة مؤثرة بين عامي 2003 و2011، كان التراجع كبيرًا على الأخص فيما يتعلَّق بإيذاء الأطفال بالاعتداءات والتنمُّر والإيذاء الجنسي». يوضِّح الشكل رقم 15–8 ثلاثة اتجاهات من بين تلك المذكورة.



الشكل رقم 15– 8: إيذاء الأطفال في الولايات المتحدة منذ 1993 حتى 2012

المصادر: الانتهاك الجسدي والانتهاك الجنسي (على يد مقدِّمي الرعاية): النظام الوطني للبيانات الخاصة بانتهاك الأطفال وإهمالهم

الإيذاء في المدارس: مكتب http://www.ndacan.cornell.edu/، حلله فينكلهور Finkelhor 2014; Finkelhor et al، 2014. إحصاءات وزارة العدل الأمريكية، الدراسة الاستقصائية الوطنية لضحايا الجرائم، أداة تحليل الإيذاء، http://www.bjs.gov/index.cfm?ty=nvat. معدلات الانتهاك الجسدي والجنسي لكل 100 ألف طفلٍ أصغر من 18 عامًا، ومعدلات الإيذاء العنيف في المدارس لكل 10 آلاف طفلٍ تتراوح أعمارهم بين 12 و17 عامًا. يشير السهم إلى عامي 2003 و2007، وهما آخر عامين موضَّحين في الشكل رقم 7-22 والشكل رقم 7-20 من دراسة Pinker 2011 على التوالي.

من الأشكال الأخرى التي تراجعت كثيرًا للعنف ضد الأطفال العقاب الجسماني مثل الصفع والضرب والضرب بالعصي وبأغصان الأشجار وبالأحبال وبالسياط والجَلد ووسائل غليظة أخرى لتعديل السلوك استخدمها الآباء والمعلِّمون مع الأطفال الذين لا حول لهم ولا قوة منذ النصيحة التي انتشرت في القرن السابع قبل الحقبة الحالية والتي تقول: «إذا منعت عصاك، أفسدت ابنك». أدانت عدة قرارات للأمم المتحدة العقاب الجسماني، وجرَّمته أكثر من نصف دول العالم، ولكنَّ الولايات المتحدة تنشز ثانيةً عن الدول الديمقراطية المتقدمة، إذ تسمح بضرب الأطفال بالعصي في المدارس، ولكن حتى في الولايات المتحدة فإنَّ قبول كل أشكال العقاب الجسماني في تراجعٍ ثابتٍ وإن كان بطيئًا.

إنّ مهمة أوليفر تويست[1] الذي يبلغ من العمر تسعة أعوام والتي كانت تتضمَّن استخراج نسالة الكتان من بين الخيوط القطرانية في إصلاحية إنجليزية هي مجرد لمحة خيالية عن إحدى أوسع انتهاكات الأطفال انتشارًا، وهي عمالة الأطفال. فتحت رواية ديكنز (Dickens)، إضافةً إلى قصيدة إليزابيث باريت براونينج (Elizabeth Barrett Browning) التي نُشرت عام 1843 بعنوان صرخة الأطفال (The Cry of the Children) وكثيرٍ من الفضائح الصحافية عيون القُرَّاء في القرن التاسع عشر على الظروف المروعة التي كان الأطفال يُجبَرون على العمل فيها في تلك الحقبة. كان الأطفال الصغار يقفون على صناديق لإدارة الآلات الخطيرة في المطاحن والمناجم ومصانع التعليب، ويتنفسون هواءً محمَّلًا بغبار القطن أو الفحم، ويُجبَرون على البقاء مستيقظين برشِّ الماء البارد على وجوههم، ثم ينهارون وينامون بعد الورديات المرهقة والطعام ما يزال في أفواههم.

ولكنَّ قسوة عمالة الأطفال لم تبدأ في المصانع في العصر الفيكتوري، فلطالما كان الأطفال أياديَ عاملة في الزراعة وفي المنازل، وكان أهلهم عادةً ما يؤجرونهم للعمل في خدمة الآخرين أو في العمل في الصناعات المنزلية بمجرد أن يستطيعوا المشي غالبًا. ففي القرن السابع عشر على سبيل المثال كان الأطفال الذين يُكلَّفون بالعمل في المطابخ يشوون قطع اللحم باستخدام الأسياخ لساعاتٍ ولا يحميهم من النيران سوى حزمة قشٍّ مبلَّلة. لم يكُن أحد يفكِّر في عمالة الأطفال بوصفها استغلالًا لهم، بل كانت شكلًا من أشكال التعليم الأخلاقي الذي يحمي الأطفال من البطالة والتراخي.

أعيدت صياغة مفهوم الطفولة بدءًا بالمقالات المؤثرة التي كتبها جون لوك في عام 1693 وجان جاك روسو في عام 1762، وأصبحت مرحلة الصبا والشباب الهنيئة تُعد حقًّا طبيعيًّا للإنسان، وأصبح اللعب شكلًا جوهريًّا من أشكال التعلُّم، وشكَّلت السنوات الأولى من حياة الطفل بقية حياته كبالغٍ وحدَّت مستقبل المجتمع. في العقود التي سبقت مطلع القرن العشرين وتلته تم إضفاء هالة من القدسية على الطفولة كما تقول عالمة الاقتصاد فيفيانا زيليزير (Viviana Zelizer) ووصل الأطفال إلى حالتهم الحالية وهي كونهم «لا قيمة لهم من الناحية الاقتصادية ولا يُقدَّرون بثمنٍ من الناحية العاطفية». تخلَّصت المجتمعات الغربية تدريجيًّا من عمالة الأطفال،

---

[1] شخصية من كتاب بنفس الاسم من تأليف تشارلز ديكنز

تحت ضغطٍ من مناصري حقوق الأطفال وبمساعدة الأسر الصغيرة يسيرة الحال ودائرة التعاطف المتنامية وزيادة العلاوة التي يتقاضاها العُمَّال على التعليم. نرى لمحةً من هذه القوى التي تدفع في نفس الاتجاه في إعلانٍ عن الجرَّارات في عددٍ صادر عام 1921 من مجلة الزراعة الناجحة كان عنوانه «دع الصبي يذهب إلى المدرسة»:

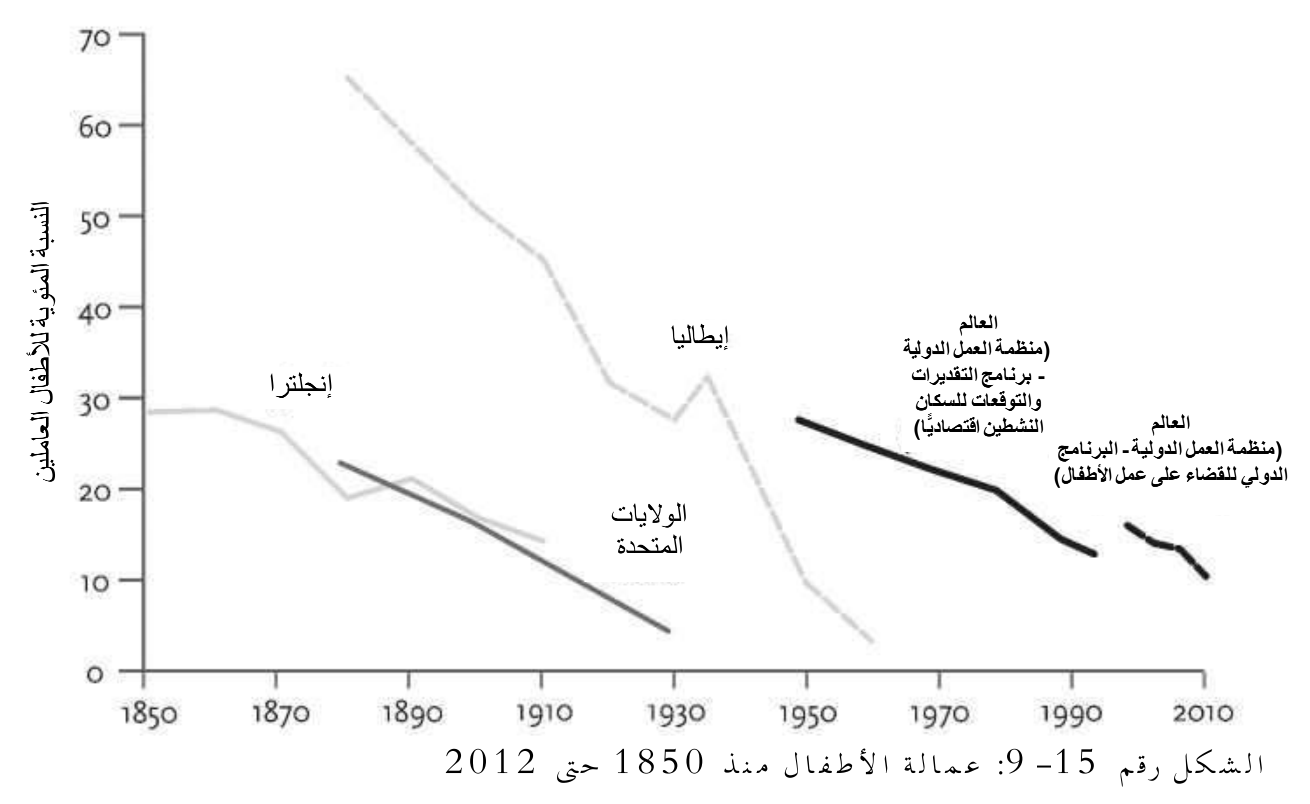
"يكون ضغط الأعمال العاجلة في الربيع هو السبب غالبًا في منع الصبيان عن الذهاب إلى المدارس عدة أشهر، قد يبدو هذا ضروريًّا، ولكنَّه ليس عادلًا للصبي! فأنت إذا حرمته من التعليم، أعقت طريقه في الحياة، ففي هذا العصر، تزداد أهمية التعليم يومًا بعد يوم في تحقيق النجاح والمكانة في كل مناحي الحياة، بما فيها الزراعة.

إذا شعرت أنَّك أهملت تعليمك على غير رغبتك، فستريد بطبيعة الأمر لأطفالك أن يتمتَّعوا بمزايا التعليم الحقيقي وأن يحصلوا على بعض ما لم تستطِع الحصول عليه.

بمساعدة جرَّار كيس الذي يعمل بالكيروسين سيتمكَّن رجلٌ واحدٌ من القيام بعملٍ أكثر مما يقوم به رجلٌ مع طفله الكادح بمساعدة الأحصنة، خلال نفس الوقت. سيتمكَّن طفلك من تلقي تعليمه دون انقطاع ولن تتأثَّر الأعمال في فصل الربيع بغيابه إذا استثمرت في جرَّار كيس ومحراث جراوند ديتور ومعدات هارو الآن.

دع الصبي يذهب إلى المدرسة، واجعل جرَّار كيس الذي يعمل بالكيروسين يحل محله في الحقل، ولن تندم مطلقًا على أيٍّ من هذين الاستثمارين."

كانت الضربة القاضية في كثيرٍ من الدول التشريع الذي جعل التعليم إلزاميًّا والتالي جرَّم عمالة الأطفال بصورةٍ واضحة. يوضِّح الشكل رقم 15-9 أنَّ نسبة الأطفال من القوى العاملة في إنجلترا انخفضت بمقدار النصف بين عامي 1850 و1910 قبل حظر عمالة الأطفال تمامًا في عام 1918، واتَّبعت الولايات المتحدة مسارًا مشابهًا.



الشكل رقم 15- 9: عمالة الأطفال منذ 1850 حتى 2012

المصادر: *Our World in Data,* Ortiz-Ospina & Roser 2016a، والتالي: إنجلترا: –Percentage of children aged 10 14 recorded as working, Cunningham 1996 (النسبة المئوية للأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين 10 و14 عامًا المسجَّلين كأطفالٍ عاملين). الولايات المتحدة: Whaples 2005. إيطاليا: Child work incidence, ages 10–14, Toniolo & Vecchi 2007 (حالات عمل الأطفال، الأعمار من 10 إلى 14). **World ILO–EPEAP** (منظمة العمل الدولية، برنامج التقديرات والتوقعات للسكان النشطين اقتصاديًّا): Child Labor, ages 10–14, Basu 1999 (عمالة الأطفال، الأعمار من 10 إلى 14). **World ILO–IPEC** (منظمة العمل الدولية – البرنامج الدولي للقضاء على عمل الأطفال): Child Labor, ages 5–17, International Labour Organization 2013 (عمالة الأطفال، الأعمار من 5 إلى 17).

يوضِّح الرسم البياني أيضًا التراجع الشديد في إيطاليا، وتسلسلين زمنيين حديثين لبيانات العالم، ليست الخطوط متناسبة بسبب الاختلافات في المدى العمري وتعريفات «عمالة الأطفال» ولكنَّها تُظهر الاتجاه نفسه، أي الهبوط. كان 16.7 في المئة من الأطفال في العالم في عام 2012 يعملون ساعةً أو أكثر في الأسبوع، و10.6 في المئة منهم يشاركون في أنواعٍ مرفوضة من «عمالة الأطفال» (ساعات عمل طويلة أو في سنٍّ مبكِّرة)، و5.4 في المئة منهم يعملون في أعمالٍ خطيرة، وهي نسبةٌ كبيرةٌ جدًّا ولكنَّها أقل من نصف المعدَّل قبل اثني عشر عامًا فقط. تتركَّز عمالة الأطفال الآن –كما كانت دائمًا– في الزراعة والحراجة وصيد الأسماك، لا في التصنيع، وتلازم الفقر على المستوى الوطني، سببٌ له وأثرٌ له أيضًا، فكلَّما ازداد فقر الدولة، ازدادت النسبة المئوية للأطفال الذين يعملون. تنخفض معدلات عمالة الأطفال انخفاضًا هائلًا مع ارتفاع الأجور أو عندما تدفع الحكومات للآباء مقابل إرسال أطفالهم إلى المدرسة، وهو ما يشير إلى أنَّ الآباء الفقراء يرسلون أطفالهم إلى العمل بدافع اليأس وليس الجشع.

كان التقدُّم الذي حدث في إنهاء عمالة الأطفال، كما حدث فيما يخص الجرائم والمآسي الأخرى التي تصيب البشر، مدفوعًا

بزيادة سعة العيش على المستوى العالمي، إضافةً إلى الحملات الأخلاقية الإنسانية. صدَّقت 180 دولةً في عام 1999 على اتفاقية حظر أسوأ أشكال عمل الأطفال، وشملت «أسوأ أشكال العمل» التي تم حظرها الأعمال الخطيرة واستغلال الأطفال في العبودية والإتجار في البشر وعبودية الدين والدعارة وصناعة الأفلام الإباحية والإتجار في المخدرات والحروب. رغم عدم تحقيق هدف منظمة العفو الدولية بالقضاء على أسوأ أشكال العمل بحلول عام 2016، إلَّا أنَّ الزخم كان واضحًا وضوح الشمس، وتم التصديق بشكلٍ رمزي على القضية في عام 2014 عند مُنحت جائزة نوبل للسلام لكايلاش ساتيارثي (Kailash Satyarthi)، الناشط ضد عمالة الأطفال والذي كان دوره مفيدًا في تبنِّي قرار عام 1999، وتشارك الجائزة مع ملالا يوسفزاي (Malala Yousafzai)، المدافعة الشجاعة عن تعليم الفتيات. ويقودنا هذا إلى تطوُّرٍ آخر في ازدهار البشرية، وهو توسع نطاق إتاحة المعرفة.

الفصل السادس عشر: المعرفة

«الإنسان العاقل» *(Homo Sapiens)* هو النوع الوحيد الذي يستخدم المعلومات في مقاومة انحلال الإنتروبيا وأعباء التطور. يكتسب البشر في كل مكان المعرفة بالمناظر الطبيعية المحيطة بهم والنباتات والحيوانات فيها، والأدوات والأسلحة التي يمكنها هزيمتهم، والشبكات والقواعد التي تحيطهم بالأقرباء والحلفاء والأعداء، ويراكمون تلك المعرفة ويشاركونها باستخدام اللغة والإشارات والإرشاد المباشر.

اكتشف الناس عبر التاريخ صورًا من التكنولوجيا تضاعف باطِّرادٍ معدل نمو المعرفة، مثل الكتابة والطباعة ووسائل الإعلام الإلكترونية. تعيد سوبرنوفا المعرفة تحديد معنى صفة البشرية باستمرار، فيعتمد فهمنا لماهيتنا ومنشأنا ولكيفية سير العالم وللأمور المهمة في الحياة على أخذ جزءٍ من مخزون المعرفة الهائل والمتنامي باستمرار. رغم أنَّ الصيَّادين والرُّعاة والفلَّاحين الأميين بشرٌ تمامًا إلَّا أنَّ علماء الأنثروبولوجيا يعلِّقون كثيرًا على توجههم ناحية الحاضر والمحلي والملموس، إنَّ وعي المرء ببلده وتاريخه، وبتنوع العادات والمعتقدات في مختلف أنحاء الكرة الأرضية ومختلف العصور، وبأخطاء الحضارات السابقة وانتصاراتها، وعوالم الخلايا والذرات الصغيرة وعوالم الكواكب والمجرات الكبيرة، وبواقعية الأرقام والمنطق والأنماط غير الملموسة، يرتقي بنا حقًّا إلى مستوى أعلى من الوعي، وهذه هدية الانتماء إلى نوعٍ ذكي مفكِّرٍ له تاريخ طويل.

مرَّ وقتٌ طويل منذ أن استطعنا تمرير مخزون ثقافتنا المعرفي عبر الحكي والتعليم بالتدريب، تعود المدارس النظامية إلى آلاف السنين، فقد نشأتُ على قصةٍ تلمودية من القرن الأول تحكي عن الحَبر اليهودي هليل الذي كاد أن يتجمَّد حتى الموت في شبابه بعد أن تسلَّق حتى وصل إلى سطح مدرسةٍ لم يستطِع دفع مصروفاتها كي يسترق السمع إلى الدروس من خلال كوة السقف. اتُّهِمت المدارس في أوقات كثيرةٍ بغرس الأفكار العملية أو الدينية أو الوطنية في الصغار، ولكنَّ التنوير وسَّع نطاق مسؤوليتها بتمجيده للمعرفة. لاحظ واضع النظريات التعليمية جورج كاونتس (George Counts) أنَّ: «التعليم النظامي اكتسب مع مدخل العصر الحديث أهميةً أكبر كثيرًا من أي شيء شهده العالم. توسَّعت مؤسسة المدرسة، التي لم تكُن في الماضي سوى منظمة اجتماعية صغيرة للغاية في أغلب المجتمعات لا تؤثر تأثيرًا مباشرًا سوى في حياة مجموعةٍ صغيرة من السكان، توسُّعًا أفقيًّا ورأسيًّا حتى اتَّخذت مكانها بين أقوى مؤسسات المجتمع إلى جانب الدولة والكنيسة والأسرة والمِلكية». التعليم اليوم إلزامي في أغلب الدول، وهو معترف به من ضمن حقوق الإنسان الأساسية في الـ 170 دولة الأعضاء في الأمم المتحدة التي وقَّعت على العهد الدولي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية الصادر عام 1966.

تمتد آثار التعليم المذهلة إلى كل مناحي الحياة بطرقٍ كثيرة منها الواضح ومنها المخيف، فمن الآثار الواضحة أنَّ بعض المعرفة بالنظافة الصحية والتغذية والجنس الآمن قد تُحدث فرقًا كبيرًا في تحسين الصحة وإطالة العمر، كما رأينا في الفصل السادس. ومن الآثار الواضحة أيضًا أنَّ المعرفة بالقراءة والكتابة والحساب هي أساس تكوين الثروة في العصر الحديث، فالفتيات لا يستطِعن العمل في العالم النامي حتى في المنازل إذا لم يكُن بقدرتهن قراءة مذكرة أو عدِّ المؤن واللوازم، وتستلزم الدرجات العُليا من السلِّم الوظيفي قدرات متزايدة

لفهم المواد الفنية. كانت أوائل الدول التي قامت بالهروب الكبير من الفقر العالمي في القرن التاسع عشر والدول التي نمت بأقصى سرعة منذ ذلك الحين هي الدول التي علَّمت أطفالها بكثافة قصوى.

الارتباط لا يعني السببية، كما في كل مسائل العلوم الاجتماعية، هل تصبح الدول ذات التعليم الأفضل أغنى أم أنَّ الدول الأغنى تستطيع تحمل نفقات المزيد من التعليم؟ يمكننا حل هذه المعضلة باستغلال حقيقة أنَّ السبب لا بد أن يسبق نتيجته. تشير الدراسات التي تقيِّم التعليم في الوقت س والثروة في الوقت ص، مع ثبات بقية المعطيات كافة، إلى أنَّ الاستثمار في التعليم يؤدِّي حقًّا إلى زيادة الدول غنى، على الأقل إذا كان التعليم علمانيًّا وواقعيًّا. كانت إسبانيا حتى القرن العشرين متوانية وسط الدول الغربية، رغم أنَّ الإسبانيين كانوا يحصلون على تعليمٍ عالٍ، لأنَّ التعليم الإسباني كان تحت سيطرة الكنيسة الكاثوليكية، وكان «أطفال العامة لا يتلقون سوى التعليمات الشفهية الخاصة بالعقيدة والمبادئ الدينية وبضع مهارات يدوية بسيطة.. أمَّا العلوم والرياضيات والاقتصاد السياسي والتاريخ العلماني فكانت تُعد مثيرة للجدل بين أي أشخاص عدا علماء اللاهوت المدرَّبين». وبالمثل يُلام التدخل الديني على التأخر الاقتصادي في أجزاءٍ من العالم العربي اليوم.

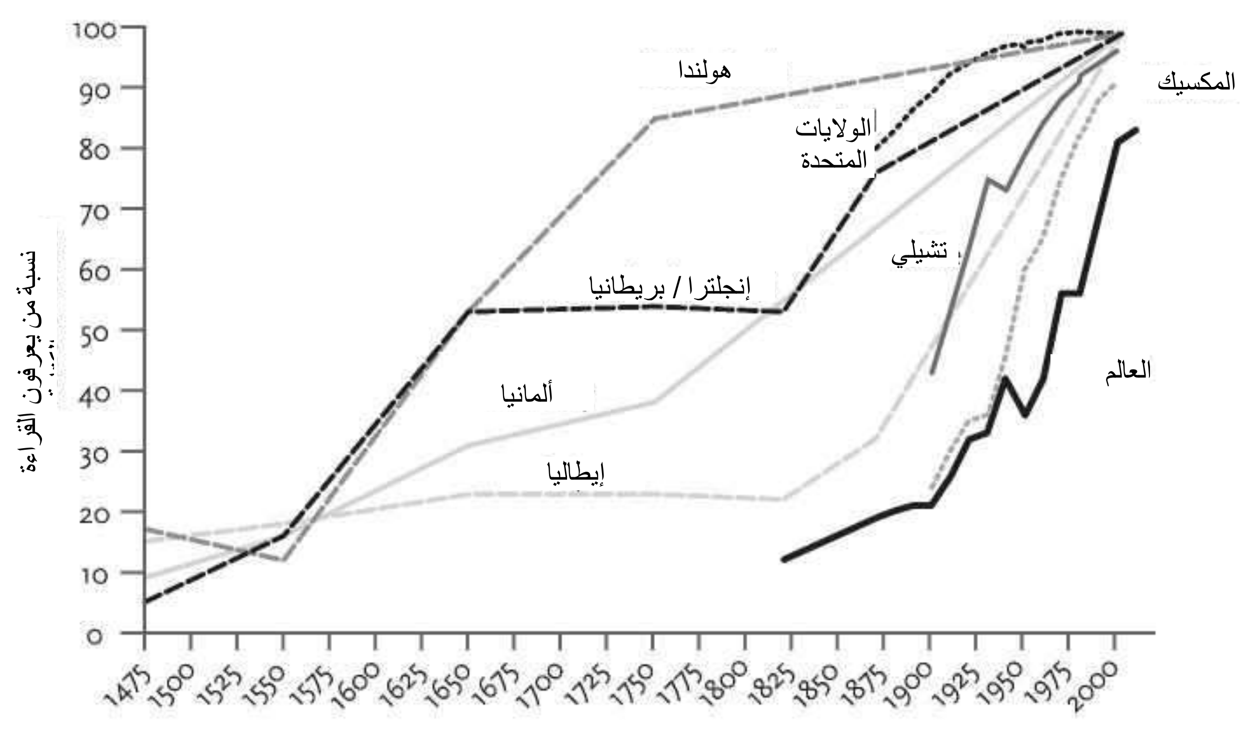
وعلى الجانب الأكثر روحانيةً، نجد أنَّ التعليم يأتي بهدايا تتجاوز المعرفة العملية والنمو الاقتصادي، فالتعليم الأفضل اليوم يجعل الدولة أكثر ديمقراطيةً وسلميةً غدًا. تُصعِّب آثار التعليم واسعة النطاق تمييز الحلقات التي تتخلَّل سلسلة السببية من التعليم النظامي إلى التناغم الاجتماعي، قد تكون بعض الحلقات ببساطة ديموغرافية أو اقتصادية، فالفتيات الحاصلات على تعليمٍ أفضل ينجبن عددًا أقل من الأطفال عندما يكبرن، وتكون احتمالية أن يتسبَّبن في زيادة عدد الشباب بفائضٍ من الشباب المشاغبين أقل، والدول ذات التعليم الأفضل أغنى، والدول الأغنى تكون غالبًا أكثر سلمية وديمقراطية كما رأينا في الفصلين الحادي عشر والرابع عشر.

ولكنَّ بعض المسارات السببية تؤيد قيم التنوير، إذ تحدث تغييرات كثيرة عندما تتلقى التعليم! فتنسى الخرافات الخطيرة التي تعلَّمتها مثل أنَّ الزعماء يحكمون بالحقِّ الإلهي أو أنَّ من لا يشبهونك أقل رتبةً من البشر. وتعرف أنَّ هناك ثقافات أخرى ترتبط بطريقة حياتها كما ترتبط أنت بطريقة حياتك لأسبابٍ لا تختلف كثيرًا عن أسبابك، وتعرف أنَّ المنقذين أصحاب الكاريزما قد قادوا بلادهم نحو كوارثَ، وتعرف أنَّ معتقداتك الخاصة قد تكون خاطئة، مهما كانت صادقة أو رائجة، وتعرف أنَّ هناك طرقًا أفضل وأسوأ للحياة، وأنَّ الأشخاص الآخرين أو الثقافات الأخرى قد يعرفون أمورًا لا تعرفها، وتتعلَّم أيضًا أنَّ هناك وسائل غير العنف لحل الصراعات. تحول كل هذه التجليات دون الإذعان لحُكم المستبدين أو الانضمام إلى حملةٍ صليبية لإخضاع جيرانك وقتلهم. ليس تحقُّق أيٍّ من هذه الحِكَم أكيدًا بالطبع، وخاصةً عندما تنشر السلطات عقائدها الخاصة وحقائقها البديلة ونظريات المؤامرة، وتكبت الأفكار والأشخاص الذين قد يطعنون فيها، في إطراءٍ غير مباشر على قوة المعرفة.

تؤكِّد الدراسات على آثار التعليم أنَّ الأشخاص المتعلِّمين أكثر استنارةً حقًّا، وهُم أقل عنصريةً وتمييزًا على أساس الجنس وكرهًا للأجانب ورهابًا من المثلية وسلطويةً، ويقدِّرون الخيال والاستقلالية وحرية التعبير بقيمةٍ أكبر. وهُم أكثر ميلًا إلى التصويت والتطوُّع والتعبير عن الآراء السياسية والانتماء لجمعياتٍ مدنية مثل النقابات والأحزاب السياسية والمنظمات الدينية والمجتمعية، وأكثر ميلًا أيضًا إلى الثقة في المواطنين الآخرين، وهي مكوِّن أساسي في الإكسير الثمين الذي يُدعى رأس المال الاجتماعي الذي يمنح الأشخاص الثقة للتعاقد والاستثمار وطاعة القانون دون الخوف من أن يتعرَّضوا للخداع من الجميع.

لكل هذه الأسباب، فإنَّ نمو التعليم –وأولى نتائجه الإيجابية، المعرفة بالقراءة والكتابة– أكبر علامةً على تقدُّم البشرية، ونرى قصة

مشابهة مع كثيرٍ من أبعاد التنوير الأخرى، إذ كان الجميع تقريبًا في حالٍ بائس حتى جاء التنوير، ثم بدأت بضع دول تخرج عن القطيع، وبدأت البقية مؤخرًا تلحق بها، وقريبًا ستعم هذه النعمة على العالم كله تقريبًا. يوضِّح الشكل رقم 16–1 أنَّ المعرفة بالقراءة والكتابة كانت قبل القرن السابع عشر امتيازًا لنخبة صغيرة في غرب أوروبا تمثّل أقل من ثُمن عدد السكان، وكان هذا ينطبق على العالم بأكمله حتى بعد وقتٍ طويل من بداية القرن التاسع عشر، ثم تضاعف معدل المعرفة بالقراءة والكتابة في القرن التالي وتضاعف بأربعة أضعاف في القرن الذي تلاه، والآن يعرف 82 في المئة من العالم القراءة والكتابة. وحتى هذا الرقم لا يعبِّر بالقدر الكافي عن معدل تعليم القراءة والكتابة في العالم لأنَّ الخُمس الأمّي على الأغلب مكوّن من كبار السن أو ممَّن هم في منتصف العمر، ففي كثيرٍ من دول منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا يمثِّل الأمِّيون ثلاثة أرباع مَن تبلغ أعمارهم أكثر من خمسة وستين عامًا، في حين أنَّ نسبة الأمِّيين من المراهقين والشباب في العشرينات من أعمارهم لا يزيد على 10. كان معدل معرفة الشباب الصغار (من خمسة عشر عامًا إلى أربعة وعشرين عامًا) بالقراءة والكتابة 91 في المئة في عام 2010، وهو ما يساوي معدل المعرفة بالقراءة والكتابة من بين كل عدد سكان الولايات المتحدة في عام 1910. من غير المفاجئ أنَّ أقل معدلات المعرفة بالقراءة والكتابة تتركّز في أفقر دول العالم وأكثرها دمارًا بفعل الحرب، مثل جنوب السودان (32 في المئة) وجمهورية أفريقيا الوسطى (37 في المئة) وأفغانستان (38 في المئة).

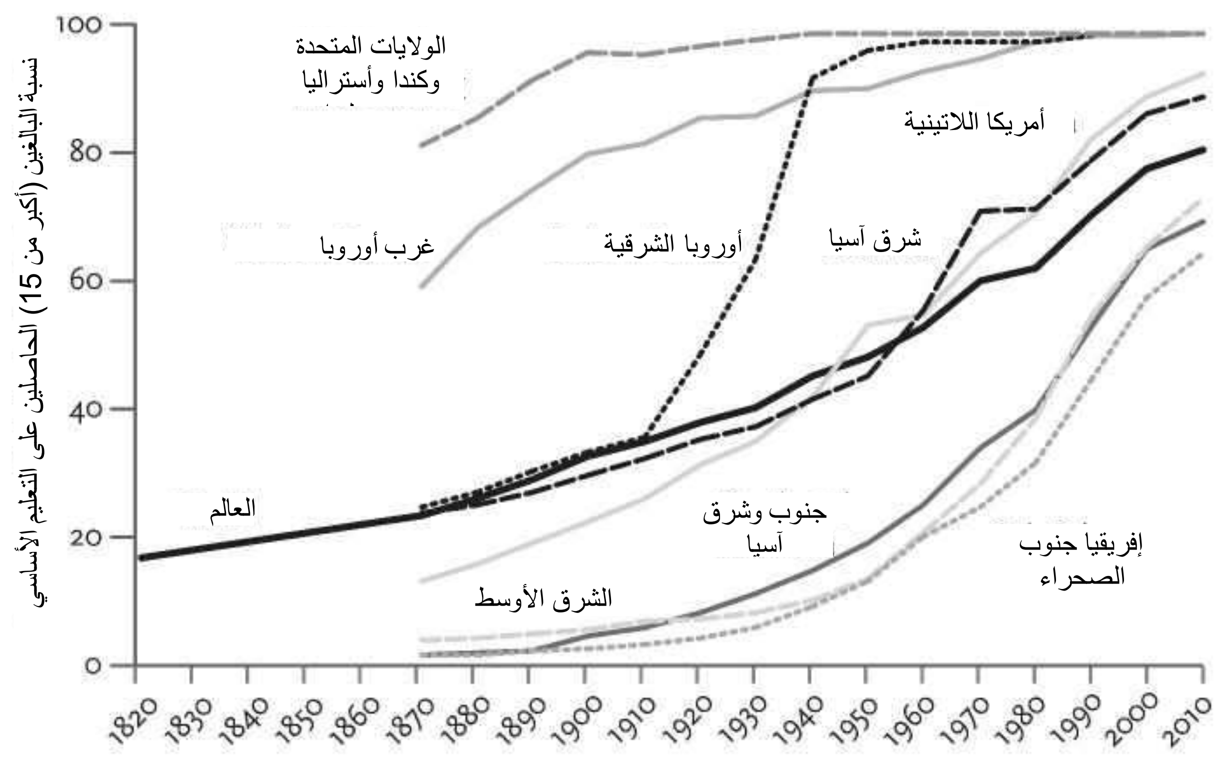


الشكل رقم 16- 1: محو الأمية منذ 1475 حتى 2010

المصدر: *Our World in Data*، Ortiz-Ospina & Roser 2016a&، وبيانات مما يلي: قبل عام 1800: Buringh & Van Zanden 2009. العالم: van Zanden et al. 2014. الولايات المتحدة: المركز الوطني لإحصاءات التعليم. بعد عام 2000: Central Intelligence Agency (وكالة الاستخبارات المركزية) 2016.

المعرفة بالقراءة والكتابة (محو الأمية) هي أساس بقية مراحل التعليم، ويوضِّح الشكل رقم 16–2 تقدُّم العالم فيما يخص إرسال

الأطفال إلى المدارس، والخط الزمني مألوف، ففي عام 1820 كان أكثر من 80 في المئة من العالم من غير المتعلِّمين، وبحلول عام 1900 كانت أغلبية كبيرة من سكان غرب أوروبا والعالم الناطق بالإنجليزية قد استفادت بالتعليم الأساسي، وينطبق هذا اليوم على أكثر من 80 في المئة من العالم. تشبه معدلات المنطقة الأقل حظًّا، أفريقيا جنوب الصحراء، معدلات العالم في عام 1980 وأمريكا اللاتينية في عام 1970 وشرق آسيا في الستينيات وأوروبا الشرقية في عام 1930 وأوروبا الغربية في عام 1880. حسب التوقعات الحالية، وبحلول منتصف القرن الحالي سيكون أكثر من خمس السكان غير متعلِّمين في خمس دول فقط، وبحلول نهاية القرن ستهبط النسبة العالمية إلى الصفر.



الشكل رقم 16- 2: التعليم الأساسي منذ 1820 حتى 2010

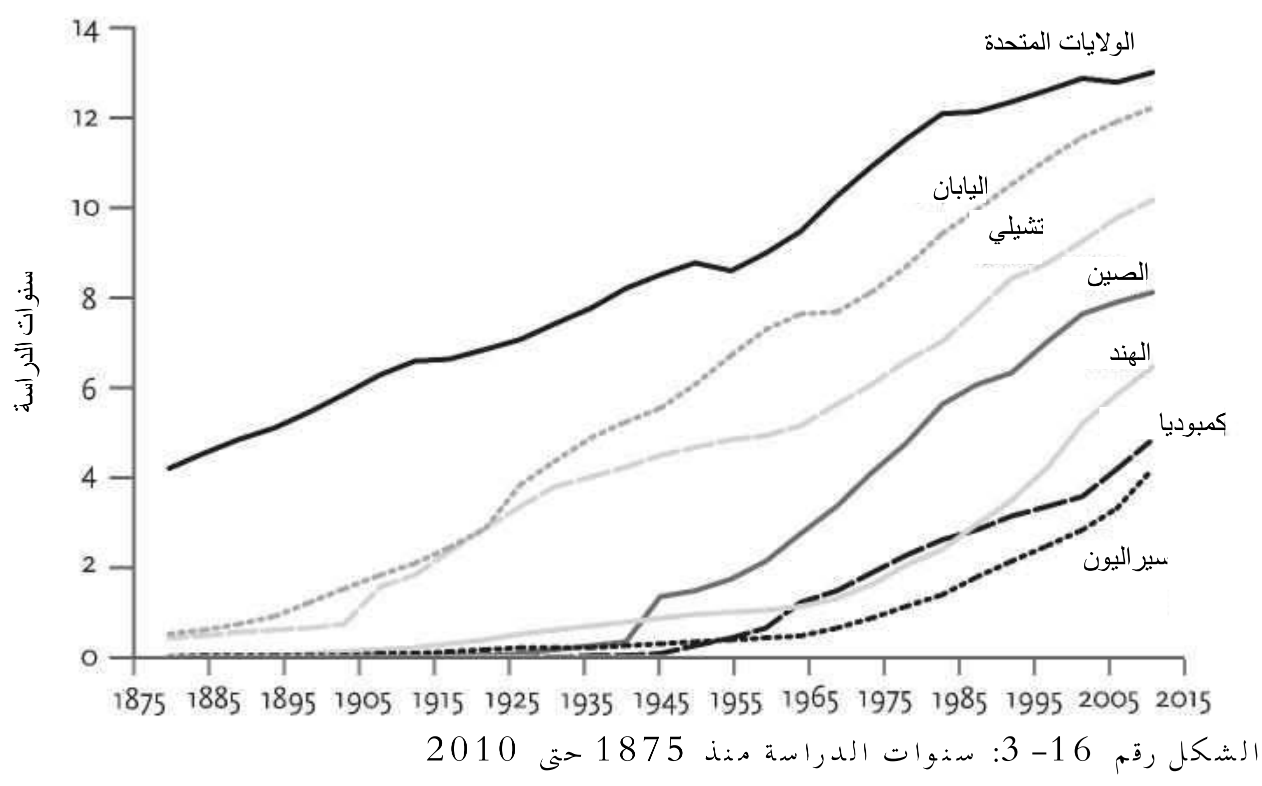
المصدر: *Our World in Data*، Ortiz-Ospina & Roser 2016a&، استنادًا إلى بيانات من van Zanden et al. 2014.

تشير الرسوم البيانية إلى نسبة السكان البالغين 15 عامًا أو أكثر الذين أنهوا عامًا دراسيًّا واحدًا على الأقل (وأكثر من ذلك في الحقب اللاحقة)، انظر van Leeuwen & van Leewen-Li 2014, pp. 88–93.

«لعمل كتب كثيرة لا نهاية، والدرس الكثير تعب للجسد»*. إنَّ السعي من أجل المعرفة غير محدود على عكس مقاييس الرفاهة التي حدها الأدنى الطبيعي هو الصفر مثل الحرب والمرض، أو سقفها الطبيعي مئة في المئة مثل التغذية والمعرفة بالقراءة والكتابة، لا تتوسَّع المعرفة في حد ذاتها إلى ما لا نهاية فحسب، بل إنَّ علاوة المعرفة تزداد ازديادًا هائلًا في ظل اقتصادٍ مدفوعٍ بالتكنولوجيا. بينما تقترب المعدلات العالمية لمحو الأمية والتعليم الأساسي إلى سقفها الطبيعي، فإنّ عدد سنوات الدراسة يواصل نموه في كل الدول، ممتدًا إلى التعليم

*سفر الجامعة 12:12. -المترجمة.

الجامعي وما بعد الجامعات في الكليات والجامعات. كان 28 في المئة فقط من المراهقين الأمريكيين الذين يتراوح عمرهم بين أربعة عشر عامًا وسبعة عشر عامًا ملتحقين بالمدرسة الثانوية في عام 1920، ونمت هذه النسبة إلى النصف تقريبًا بحلول عام 1930، وكانت نسبة من تخرَّجوا في عام 2011 تبلغ 80 في المئة، وواصل 70 في المئة منهم تعليمهم في الجامعة. كان أقل من 5 في المئة من الأمريكيين في عام 1940 من حاملي شهادات البكالوريوس، أمَّا في عام 2015 فكان ثُلثهم يحمل هذه الشهادة. يوضِّح الشكل رقم 16-3 المسارات المتوازية لطول مدة الدراسة في عينة من الدول، إذ توجد زيادة حديثة تتراوح بين أربع سنوات في سيراليون وثلاث عشرة سنة (بعض سنوات الكلية) في الولايات المتحدة. وفقًا لأحد التوقعات فإنَّ أكثر من 90 في المئة من سكان العالم سيحصلون على قدرٍ من التعليم الثانوي و40 في المئة منهم سيحصلون على قدرٍ من التعليم الجامعي بحلول نهاية القرن الحالي. بما أنَّ الأشخاص المتعلِّمين ينجبون غالبًا عددًا أقل من الأطفال، فإنّ نمو التعليم سيكون سببًا أساسيًّا في أنَّ سكان العالم من المتوقع أن يبلغ عددهم الذروة ثم يتراجع في وقتٍ لاحقٍ في القرن الحالي (انظر الشكل رقم 10-1).



الشكل رقم 16- 3: سنوات الدراسة منذ 1875 حتى 2010

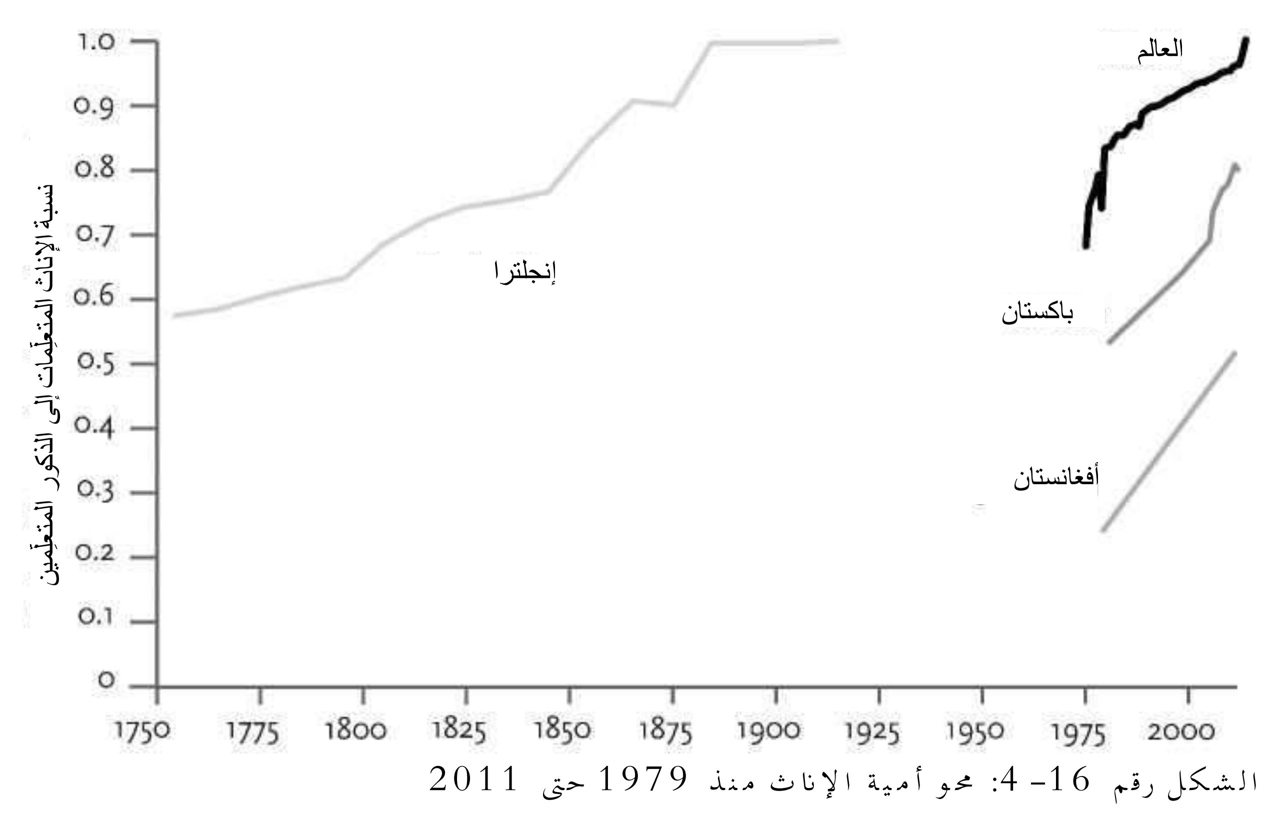
المصدر: *Our World in Data*، Ortiz-Ospina & Roser 2016a&، استنادًا إلى بيانات من Lee & Lee 2016. البيانات الخاصة بالسكان الذين تتراوح أعمارهم بين 15 و64 عامًا.

رغم أنَّنا لا نرى تقاربًا عالميًّا سوى بقدرٍ ضئيلٍ أو منعدم تقريبًا في طول مدة الدراسة النظامية، إلَّا أنَّ ثورة توزيع المعرفة المستمرة تحد من أهمية الفجوة، إذ إنَّ معظم معارف العالم متاحة الآن على الإنترنت وليست حبيسة المكتبات (والكثير منها مجاني)، والدورات التعليمية المفتوحة على الإنترنت (MOOCs) وصور التعليم عن بعد الأخرى متاحة لأي شخصٍ يمتلك هاتفًا ذكيًّا.

تتناقص الفوارق الأخرى في التعليم أيضًا، إذ ازدادت مقاييس الاستعداد للالتحاق بالمدارس في الولايات المتحدة بين أطفال الأسر

منخفضة الدخل والأسر الهسبانية والأمريكية من أصل أفريقي ازديادًا كبيرًا بين عامي 1998 و2010، ربما يرجع هذا لبرامج الروضة المجانية المتاحة على نطاقٍ واسع، ولامتلاك الأسر الفقيرة اليوم المزيد من الكتب والحواسب الآلية وإمكانية الاتصال بالإنترنت وقضاء الآباء وقتًا أطول في التفاعل مع أطفالهم.

وبالتالي فإنَّه حتى أكبر أشكال التمييز على أساس الجنس –منع الفتيات من التعليم– في تراجعٍ، وهذا التغيير ضروري، ليس فقط لأنَّ النساء يشكِّلن نصف عدد السكان فتعليمهن يعني إذًا مضاعفة حجم مجموعة المهارات المتاحة، بل أيضًا لأنَّ اليد التي تهز المهد تحكم العالم. عندما تتعلَّم الفتيات، تصبح صحتهن أفضل، وينجبن عددًا أقل وأكثر صحّةً من الأطفال، وتكُنَّ أكثر إنتاجيةً، وكذلك تكون بلدانهنّ. استغرق الغرب قروناً في إدراك أنَّ تعليم الشعب بأكمله، وليس النصف ذي الأعضاء الذكورية فقط، فكرة جيدة. يوضِّح الشكل رقم 16–4 الخط الذي يمثِّل إنجلترا أنَّ النساء الإنجليزيات لم يتعلَّمن القراءة والكتابة بنفس معدل الرجال الإنجليز حتى عام 1885. لحق بها العالم بأكمله لاحقًا ولكنَّه سرعان ما عوَّض الوقت الضائع فانتقل من تعليم القراءة للبنات بقدر ثُلثي الصبيان فقط في عام 1975 إلى تعليم الصبيان والبنات بأعدادٍ متساوية في عام 2014. أعلنت الأمم المتحدة أنَّ العالم قد حقَّق هدف التنمية المستدامة لعام 2015 وهو تحقيق التكافؤ بين الجنسين في التعليم الأساسي والثانوي والجامعي.



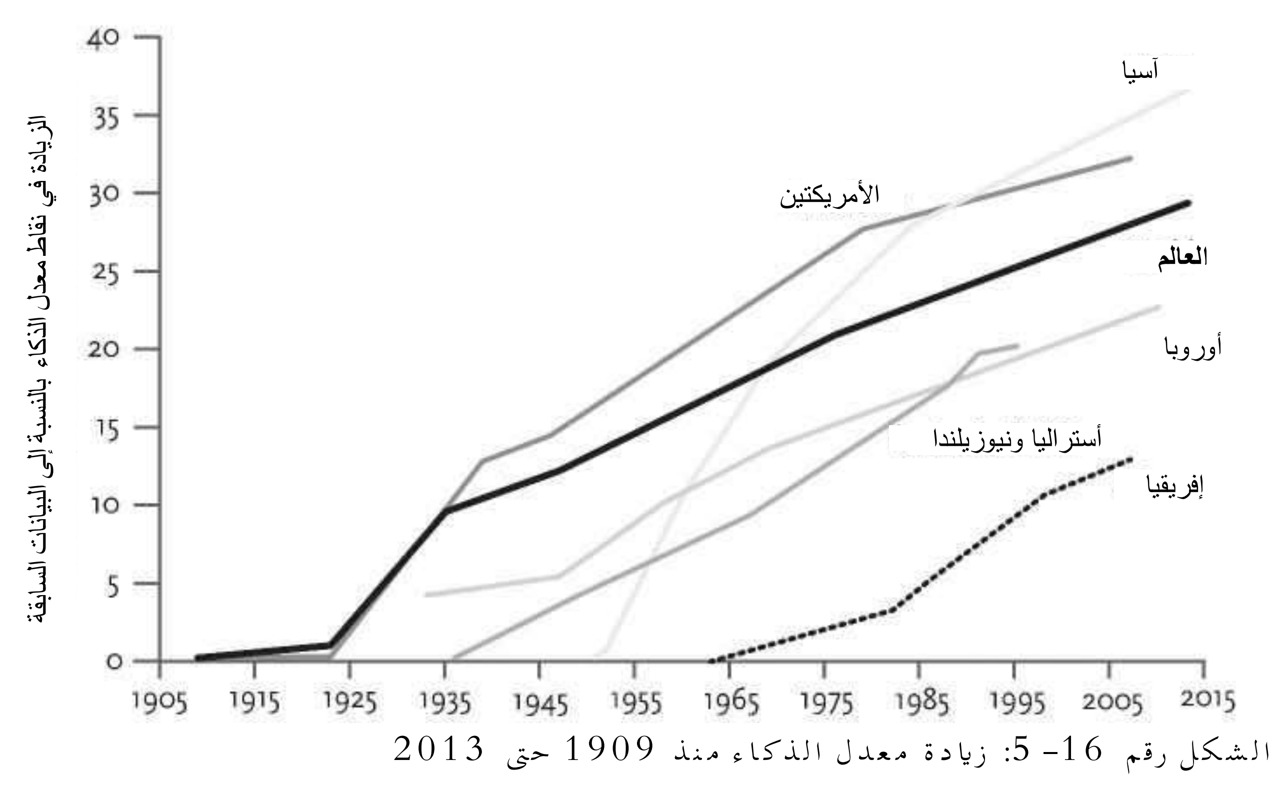
الشكل رقم 16– 4: محو أمية الإناث منذ 1979 حتى 2011

المصادر: **إنجلترا** (كل البالغين): Clark 2007, p. 179. **العالم وباكستان وأفغانستان** (الأعمار من 15 إلى 24 عامًا): *HumanProgress,* http://www.humanprogress.org/f1/2101، استنادًا إلى بياناتٍ من معهد اليونسكو للإحصاء تم تلخيصها في World Bank (البنك الدولي) f2016. تم حساب متوسط البيانات الخاصة بالعالم من مجموعات مختلفة قليلًا تحتوي على دولٍ في أعوامٍ مختلفة.

أمَّا الخطَّان الثانيان فيرويان قصتهما الخاصة. الدولة الأسوأ في النسبة بين الجنسين في المعرفة بالقراءة والكتابة هي أفغانستان، لا

تقترب أفغانستان فحسب إلى أقل حدٍّ في كل مقاييس التنمية البشرية تقريبًا (بما يشمل معدل المعرفة الإجمالية بالقراءة والكتابة، الذي ثبت في عام 2011 عند رقم بالغ السوء هو 0.52)، وإنَّما كانت أيضًا منذ عام 1996 حتى 2001 تحت سيطرة طالبان، الحركة الأصولية الإسلامية التي منعت الفتيات والنساء من ارتياد المدارس ضمن بشاعات أخرى ارتكبتها. واصلت طالبان ترهيب الفتيات من تلقِّي التعليم في المناطق التي تسيطر عليها من أفغانستان وباكستان المجاورة. بدأت ملالا يوسف زاي –التي كانت تبلغ من العمر اثني عشر عامًا والتي كانت أسرتها تدير سلسلة مدارس في وادي سوات في باكستان– في عام 2009 تدافع علنًا عن حق الفتيات في التعليم، وفي يومٍ ستعيش ذكراه المخزية هو 9 من أكتوبر عام 2012، صعد رجل مسلَّح ينتمي إلى طالبان على متن حافلتها المدرسية وأطلق النار على رأسها، ونجت من الحادث لتصبح أصغر حائزة على جائزة نوبل للسلام وإحدى أكثر السيدات المحبوبات في العالم. ولكن يمكننا أن نرى التقدُّم حتى في هذه الأجزاء المظلمة من العالم. تضاعفت النسبة بين الجنسين في المعرفة بالقراءة والكتابة في أفغانستان خلال الثلاثة عقود الماضية وازدادت بمقدار النصف في باكستان التي تطابق النسبةُ فيها اليوم النسبةَ في العالم في عام 1980 والنسبةَ في إنجلترا في عام 1850. لا يوجد شيءٌ أكيد ولكنَّ تيار النشاط العالمي والتنمية الاقتصادية والعُرف العام واللباقة العامة ستدفع هذه النسبة على الأرجح لتبلغ سقفها الطبيعي.

هل يُعقل أنَّ العالم لا يزداد معرفةً وإلمامًا بالقراءة والكتابة فحسب بل يزداد ذكاءً أيضًا؟ هل يمكن أن يكون الناس أمهر في تعلُّم مهارات جديدة وفهم الأفكار المجرَّدة وحل المشكلات غير المتوقعة؟ من المذهل أنَّ الإجابة أجل! ترتفع معدلات الذكاء (IQ) منذ أكثر من قرنٍ في كل مكانٍ في العالم بمعدل حوالي 3 نقاط (خُمس الانحراف المعياري) لكل عقدٍ. عندما أثار الفيلسوف جيمس فلين (James Flynn) انتباه علماء النفس إلى هذه الظاهرة لأول مرة في عام 1984، ظنَّ الكثيرون أنَّها لا بد وأن تكون خطأً أو خدعة، فأولًا نحن نعرف أنَّ الذكاء وراثي بدرجةٍ كبيرة وأنَّ العالم لم يشارك في مشروع ضخم لتحسين النسل ينجب فيه الأشخاص الأذكى عددًا أكبر من الأطفال جيلًا بعد جيل، ولم يكُن الأشخاص يتزوجون من خارج عشيرتهم وقبيلتهم (فبالتالي يتجنبون زواج الأقارب ويزيدون قوة الهجين) بأعدادٍ كبيرة بما يكفي لوقتٍ طويلٍ لتفسير الارتفاع. ويصعب أيضًا تصديق أنَّ الشخص العادي في عام 1910 إذا انتقل إلى اليوم عبر آلة زمن فسيكون معاقًا ذهنيًّا بمعاييرنا، في حين أنَّ أي شخصين عاديين إذا قطعا الرحلة في الاتجاه المعاكس، فسيتفوقان في الذكاء على 98 في المئة من الأشخاص ذوي الشارب الذين يرتدون الأردية الواسعة في العصر الإدواردي والذين حيَّوهما عند ظهورهما. ولكن رغم كون هذا الأمر مفاجئًا، إلَّا أنَّ أثر فلين لم يعُد محل شك، وتأكَّد مؤخرًا في تحليلٍ تجميعي لـ 271 عينة من إحدى وثلاثين دولةٍ بها أربعة ملايين شخص. يوضِّح الشكل رقم 16–5 بالرسم «الارتفاع طويل الأجل في معدلات الذكاء» كما يطلق عليه العلماء.



الشكل رقم 16- 5: زيادة معدل الذكاء منذ 1909 حتى 2013

المصدر: Pietschnig & Voracek 2015، مواد تكميلية على الإنترنت. تعرض هذه الخطوط تغييرات في معدلات الذكاء تقيسها اختبارات مختلفة بدءًا من أوقاتٍ مختلفة ولا يمكن مقارنة بعضها ببعض.

لاحظ أنَّ كلًّا من هذه الخطوط يوضِّح بالرسم التغيير في معدلات الذكاء في قارةٍ بالنسبة إلى متوسط النتيجة في أول عامٍ أتيحت عنه بيانات، وهو يُحدَّد بالصفر عشوائيًّا لأنَّ الاختبارات والفترات الخاصة بالقارات المختلفة ليست متناسبة بصورةٍ مباشرة. لا يمكنا أن نقرأ الرسم البياني كما قرأنا الرسوم السابقة ونستنبط على سبيل المثال أنَّ معدل الذكاء في أفريقيا في عام 2007 يساوي معدل الذكاء في أستراليا ونيوزيلندا في عام 1970. من غير المفاجئ أنَّ الارتفاع في معدلات الذكاء يتبع قانون شتاين الذي ينص على أنَّ الأشياء التي لا يمكن أن تستمر إلى الأبد، لا تستمر. إذ يتضاءل أثر فلين الآن في بعض الدول التي استمر فيها فترةً طويلة.

رغم أنَّه ليس من السهل تحديد أسباب ارتفاع معدلات الذكاء بدقة، إلَّا أنَّ إمكانية تعزيز سمة تنتقل بالوراثة عبر إحداث تغييرات في البيئة ليست مفارقةً، وهذا ما حدث في الطول، وهو سمة تنتقل بالوراثة أيضًا وازدادت على مر العقود، ولنفس الأسباب تقريبًا، وهي التغذية الأفضل والأمراض الأقل. إنَّ المخ عضو جشع، يستهلك حوالي خُمس طاقة الجسم المكوَّنة من الدهون والبروتينات التي يتطلَّب إنتاجها من الجسم الكثير، ومحاربة العدوى مكلِّفة جدًّا من حيث عمليات الأيض، وقد ينتزع الجهاز المناعي الخاص بطفلٍ مريض مواردَ قد توجَّه لولا ذلك ناحية نمو المخ، وممَّا يساعد أيضًا في نمو المخ البيئة النظيفة التي تحتوي على مستويات أقل من الرصاص والسُمِّيات الأخرى. إنَّ الغذاء والصحة وجودة البيئة من ضمن مزايا المجتمع الأغنى، ومن غير المفاجئ ارتباط أثر فلين بالزيادات في نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي.

ولكنَّ التغذية والصحة لا يمكنهما تفسير سوى جزء واحد من أثر فلين، فأولًا: يجب أن تتركَّز مزاياهما على رفع النصف الأدنى من منحنى الجرس المعبِّر عن معدلات الذكاء، الذي يشمل الأشخاص الأكثر جمودًا الذين أعاقهم سوء الغذاء والصحة (فالقدر الإضافي

من الطعام عندما يتجاوز نقطةً معينة يجعل الناس أبدن لا أذكى). يتركَّز أثر فلين بالفعل في بعض الأوقات والأماكن في النصف الأدنى فيقرِّب الأشخاص الأكثر جمودًا إلى المتوسط، ولكن في أوقاتٍ وأماكن أخرى، يتحرك المنحنى بأكمله إلى اليمين، فيزداد الأذكياء ذكاءً رغم أنَّهم ينطلقون من بدايةٍ تتسم بالصحة والغذاء الجيد. ثانيًا: يجب أن تؤثر التحسينات في الصحة والتغذية في الأطفال أكثر من غيرهم حتى يصبحوا بالغين، ولكنَّ أثر فلين أقوى على البالغين منه على الأطفال، ممَّا يشير إلى أنَّ التجارب في الطريق نحو النضج قد دفعت معدلات الذكاء للارتفاع أيضًا إلى جانب التكوين البيولوجي في الطفولة المبكِّرة (والتجربة الأوضح من بين هذه التجارب هي التعليم). في حين أنَّ معدل الذكاء ارتفع بمرور العقود، وازداد كلٌّ من التغذية والصحة والطول بمرور العقود أيضًا، لكنَّ فترات صعودها واستقرارها المختلفة لا تتبَّع بعضها بعضًا عن قربٍ.

ولكنَّ السبب الأساسي في كون الصحة والتغذية غير كافيتين لتفسير ارتفاع معدل الذكاء هو أنَّ ما ارتفع بمرور الوقت ليس القدرة العقلية الإجمالية، فأثر فلين ليس زيادةً في العامل g، العامل العام للذكاء الذي يشكِّل أساس كل أنواع الذكاء الفرعية (اللفظي والمكاني والرياضي وذكاء الذاكرة، وغير ذلك) وهو الجانب الأكثر تأثُّرًا من الذكاء بصورة مباشرة بالجينات الوراثية. في حين أنَّ معدل الذكاء الإجمالي قد ارتفع وأنَّ نتائج كل اختبارات الذكاء الفرعية قد ارتفعت، لكنَّ بعض نتائج الاختبارات الفرعية قد ارتفعت بسرعةٍ أكبر من غيرها بنمطٍ يختلف عن النمط المرتبط بالجينات، وهذا سبب آخر لا يجعل أثر فلين يشك في إمكانية توريث معدل الذكاء بدرجةٍ كبيرة.

إذًا ما أنواع الأداء الفكري الذي دفعته البيئات الأفضل للارتفاع في العقود الأخيرة؟ من المفاجئ أنَّ أحدَّ المكاسب لم تكُن في المهارات الملموسة التي تُدرَّس بشكلٍ مباشر في المدارس مثل المعلومات العامة والحساب والمفردات، بل كانت في أنواع الذكاء المجرَّدة المائعة التي تحفزها الأسئلة عن أوجه التشابه مثل («ما العامل المشترك بين الساعة والسنة؟») والتناظر («الطائر يمثِّل للبيضة ما تمثِّله الشجرة لماذا؟») والمصفوفات البصرية (عندما يكون على الخاضع للاختبار اختيار شكلٍ هندسي معقَّد يلائم تسلسلًا تحكمه قاعدة محددة). إذًا فإنَّ ما ازداد أكثر من غيره هو العقلية التحليلية، أي وضع المفاهيم في فئات مجرَّدة (الساعة والسنة «وحدتان زمنيتان») وتشريح الأغراض ذهنيًّا إلى أجزاءٍ وعلاقات بدلًا من استيعابها بالكامل، وأن يضع المرء نفسه في عالمٍ افتراضي تحدِّه قواعد معينة ويستكشف آثاره المنطقية مع تنحية التجارب اليومية جانبًا («لنفترض أنَّ كل شيء في الدولة س مصنوعٌ من البلاستيك، هل تكون الأفران مصنوعة من البلاستيك؟») تنطبع العقلية التحليلية في الذهن بالتعليم النظامي حتى لو لم يخصها المعلِّم بالذكر في الدرس مطلقًا، طالما كان المقرَّر الدراسي يستلزم الفهم والتفكُّر وليس الحفظ الصمّ (وهذا هو اتجاه التعليم منذ أوائل عقود القرن العشرين). خارج مبنى المدرسة، تشجِّع الثقافة التي تتبادل الرموز البصرية (خرائط مترو الأنفاق وشاشات العرض الرقمية) والأدوات التحليلية (جداول البيانات وتقارير الأسهم) والمفاهيم الأكاديمية التي تنتشر في اللغة العامية (مثل *العرض والطلب*، و*في المتوسط*، و*حقوق الإنسان*، و*مفيد لجميع الأطراف*، و*الارتباط في مقابل السببية*، و*الإيجابية الزائفة*).

هل أثر فلين مهم في العالم الواقعي؟ بالتأكيد، فمعدل الذكاء المرتفع ليس مجرد رقم يمكنك التباهي به في حانةٍ أو تنضم به إلى جمعية منسا (Mensa)، ولكنَّه رياحٌ قوية تدفعك في حياتك، فأصحاب النتائج العالية في اختبارات الذكاء يحصلون على وظائفٍ أفضل ويؤدون أفضل في وظائفهم ويتمتَّعون بصحةٍ أفضل وحياةٍ أطول، وتقل احتمالية تعرُّضهم لمشاكل قانونية، ويكون لديهم عددٌ أكبر من الإنجازات الجديرة بالذكر مثل تأسيس شركات أو الحصول على براءات اختراع أو صناعة أعمال فنية محترمة، وكل هذا مع ثبات المكانة الاقتصادية الاجتماعية (تم تفنيد الأسطورة القائلة بعدم وجود معدل الذكاء أو عدم إمكانية الاعتماد عليه كمقياسٍ، والتي ما زالت شائعة بين المفكِّرين اليساريين منذ عقود). لا نعرف ما إذا كانت هذه العلاوات تأتي من العامل العام للذكاء وحده أم من عنصر

الذكاء لدى فلين، ولكنَّ الإجابة هي كلاهما على الأرجح. خمَّن فلين أنَّ التفكُّر المجرَّد يمكنه أن يصقل الحس الأخلاقي، وأوافقه الرأي، فالفعل المعرفي المتمثِّل في تحرير النفس من تفاصيل حياة المرء نفسه والتأمُّل في مساءل مثل «لولا ثروتي لألمَّ بي هذا المصاب» أو «كيف سيكون العالم لو فعل الجميع هذا؟» قد يكون بوابةً على العطف والأخلاقيات.

بما أنَّ الذكاء يأتي بنتائج جيدة وبما أنَّ الذكاء في زيادةٍ، فهل يمكننا أن نرى الأرباح الناتجة عن الذكاء المتزايد في التحسينات التي تجري على العالم؟ شكَّ بعض المشكِّكين (بمن فيهم فلين نفسه في البداية) فيما إذا كان القرن العشرون قد أنتج حقًّا أفكارًا أكثر عبقريةً من عصور هيوم وجوته وداروين. ولكنَّ عباقرة الماضي حظوا بميزة استكشاف مناطقٍ بكر، فبمجرد أن يكتشف أحدهم الاختلاف بين التحليلي والتركيبي أو نظرية الانتخاب الطبيعي لن يستطيع أحد اكتشافهما ثانيةً مطلقًا. إنَّ المشهد الفكري اليوم وطئه الكثيرون، ويصعب على عبقريٍ منفرد أن يتفوق على حشود المفكِّرين ذوي التعليم الفائق والشبكات المترابطة الذين يشغلون كل زاوية وركن، ومع ذلك فقد ظهرت بعض العلامات على زيادة ذكاء العامة، مثل حقيقة أنَّ أبرز لاعبي الشطرنج والبريدج يصبحون أصغر باستمرار، ولا يستطيع أحد التشكيك في السرعة الهائلة للتطورات في العلم والتكنولوجيا خلال نصف القرن الماضي.

وهناك زيادة ظاهرة في أحد أنواع الذكاء المجرَّد حول العالم كله، وهو البراعة في التكنولوجيا الرقمية، فالفضاء المعلوماتي هو المجال المجرد الأكبر الذي تتحقَّق فيه الأهداف ليس بدفع المادة عبر الفضاء، وإنَّما بالتلاعب برموزٍ وأنماطٍ غير ملموسة. عندما واجه الناس الواجهات الرقمية للمرة الأولى في السبعينيات مثل مسجِّلات شرائط الفيديو وماكينات التذاكر في أنظمة مترو الأنفاق الجديدة، كانوا مرتبكين، فكانت من النكات الشائعة في الثمانينيات أنَّ معظم أجهزة تسجيل شرائط الفيديو تشير شاشاتها إلى الساعة "12:00" لأنَّ أصحابها لم يستطيعوا اكتشاف كيفية ضبط الوقت فيها. ولكنَّ الجيل إكس وجيل الألفية اشتهرا بازدهارهما في المجال الرقمي (في أحد الرسوم الكارتونية في الألفية الجديدة، يقول أبٌ لابنه الصغير: «يا بني، اشتريتُ ووالدتك برنامجًا يمكِّننا من التحكُّم فيما تراه على الإنترنت. ممم.. هل يمكنك تثبيته؟») وازدهر العالم النامي في ذلك المجال أيضًا، متجاوزًا الغرب غالبًا في تبنِّيه الهواتف الذكية وتطبيقاتها مثل الخدمات البنكية عبر الهواتف المحمولة، والتعليم، والتحديثات الفورية بخصوص الأسواق.

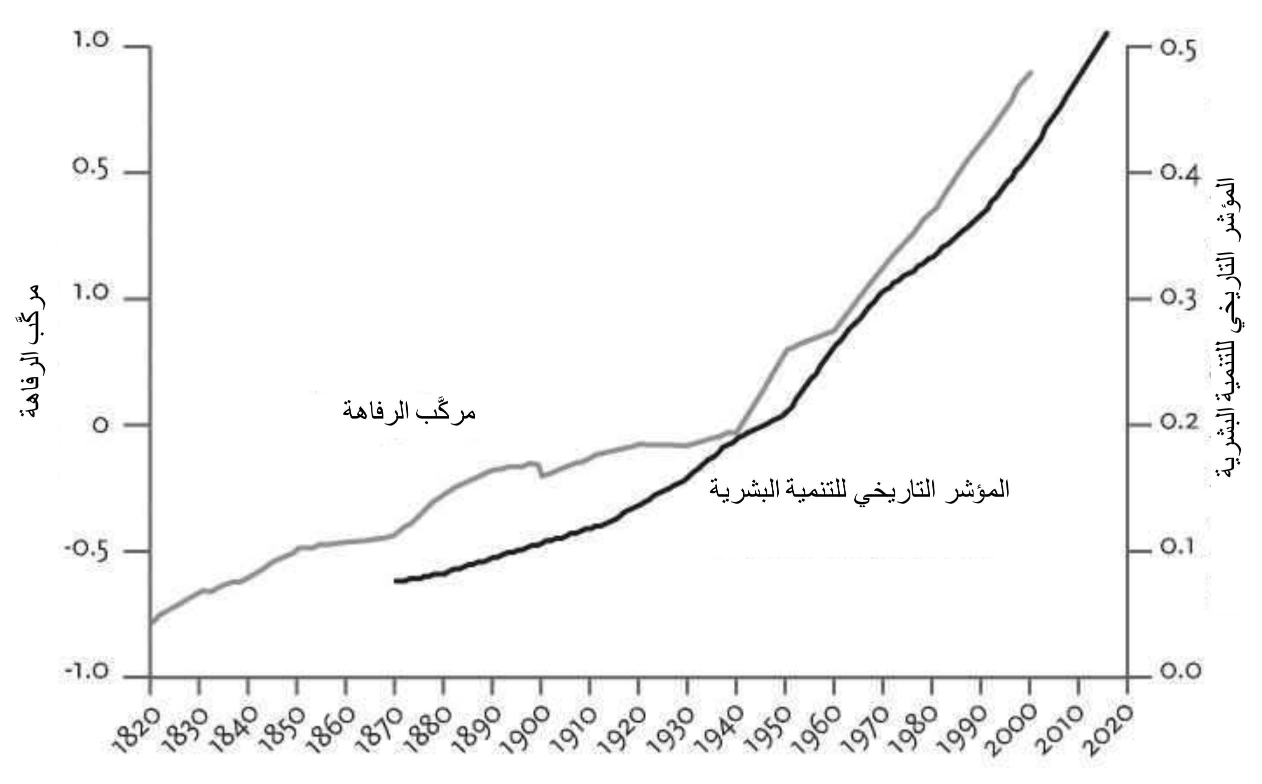
هل يساعد أثر فلين في تفسير الارتفاعات الأخرى التي رأيناها في معدلات الرفاهة في هذه الفصول؟ يشير تحليلٌ أجراه الاقتصادي آر دابليو هيفر (R. W. Hafer) إلى أنَّه يفعل، فوجد مع ثبات كل المتغيَّرات المربكة المعتادة –مثل التعليم والناتج المحلي الإجمالي والإنفاق الحكومي، بل وحتى تكوين الدولة الديني وتاريخها الاستعماري– أنَّ متوسط معدل الذكاء في الدولة يتنبأ بنموها اللاحق في نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي، إضافةً إلى نموها في المقاييس غير الاقتصادية للرفاهة مثل طول العمر ووقت الفراغ. وقدَّر أنَّ الزيادة في معدل الذكاء بمقدار 11 نقطة بإمكانها الإسراع بمعدل نمو الدولة بما يكفي لمضاعفة رفاهتها خلال تسعة عشر عامًا فقط بدلًا من سبعة وعشرين، والسياسات التي تُعجِّل بأثر فلين، مثل الاستثمارات في الصحة والتغذية والتعليم، قد تجعل الدولة أغنى وتتمتَّع بحكمٍ أفضل وأسعد على المدى البعيد.

ما يفيد البشرية لا يفيد دائمًا علم الاجتماع، وربما يكون من غير المستحيل حل حِزَم الارتباطات بين كل الطرق التي تحسَّنت بها الحياة وتتبُّع الأسهم السببية بيقينٍ، ولكن لنتوقف عن القلق لحظةً بشأن مدى صعوبة فك الخيوط وملاحظة اتجاهها الشائع بدلًا من ذلك.

تشير حقيقة ارتباط كثيرٍ من أبعاد الرفاهة في مختلف الدول والعقود إلى احتمالية وجود ظاهرة متناسقة تكمن وراءها، وهي ما يطلق عليه علماء الإحصاء عاملًا عامًا أو عنصرًا أساسيًا أو متغيّرًا خفيًا أو مستترًا أو متدخلا، ولدينا اسم لذلك العامل، وهو التقدُّم.

لم يحسب أحدٌ قوة التقدُّم الموجهة الكامنة في كل أبعاد ازدهار البشرية، ولكنَّ برنامج الأمم المتحدة الإنمائي يقدِّم -بإلهامٍ من الاقتصاديين محبوب الحق (Mahbub ul Haq) وأمارتيا سن (Amartya Sen)- مؤشرًا للتنمية البشرية يتكوَّن من ثلاثة مؤشرات رئيسية، هي: متوسط العمر المتوقع، ونصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي، والتعليم. نكون بهذا الفصل قد نظرنا في كل هذه الخيرات -التمتُّع بصحة جيدة وثروة وحكمة- وهي مرحلة ملائمة للتراجع خطوةً إلى الوراء واستيعاب تاريخ تقدُّم البشرية القابل للقياس الكمي قبل أن ننتقل إلى جوانبه النوعية في الفصلين التاليين.

طوَّر اقتصاديان نسخهما الخاصة من مؤشر التنمية البشرية الذي يمكن تقديره بأثر رجعي في القرن التاسع عشر، وتجمع كل نسخة منها مقاييس طول العمر والدخل والتعليم بطرقٍ مختلفة. يحسب مقياس ليوناردو برادوس دي لا إسكوسورا التاريخي للتنمية البشرية الذي يعود إلى عام 1870 متوسط المقاييس الثلاث بوسيطٍ هندسي وليس حسابيًّا (كي لا تغمر قيمةٌ متطرِّفة في أحد المقاييس الاثنين الآخرين) ويغيِّر مقياسي طول العمر والتعليم للتعويض عن تناقص المردود في طرفيهما ذوي المستوى العالي. طوَّر أوك ريجما (Auke Rijpma) من مشروع «كيف كانت الحياة؟ - How Was Life؟» مركَّبًا للرفاهة يعود إلى عام 1820، يشمل إضافةً إلى الثلاثة مقاييس الكبيرة مقاييسَ للطول (نيابةً عن الصحة) والديمقراطية وجرائم القتل وانعدام المساواة في الدخل والتنوع البيولوجي (المقياسان الأخيران هما الوحيدان اللذان لم يتحسَّنا بصورةٍ منتظمة على مدار القرنين الماضيين). تتضَّح في الشكل رقم 16-6 درجات العالم في بطاقتي التقارير.



الشكل رقم 16- 6: الرفاهة العالمية منذ 1820 حتى 2007

المصادر: **المؤشر التاريخي للتنمية البشرية**: Prados de la Escosura 2015، على مقياس من 0 إلى 10، متاح على: *Our World in Data,* Roser 2016h. **مركَّب الرفاهة**: Rijpma 2014, p. 259، مقياس الانحراف المعياري في مختلف الدول والعقود.

يُعد النظر إلى هذا الرسم البياني بمثابة أسر تقدُّم البشرية في لمحةٍ من البصر. ونجد في الخطين حبكتين فرعيتين حيويتين، إحداهما أنَّه على الرغم من أنَّ العالم ما زال غير متساوٍ بقدرٍ كبير، إلَّا أنَّ كل منطقة في تحسُّنٍ، وأنَّ الأجزاء الأسوأ من العالم اليوم أفضل من الأجزاء الأفضل من العالم منذ وقتٍ ليس بالبعيد (إذا قسَّمنا العالم إلى الغرب وبقية العالم، فسنجد أنَّ بقية العالم قد وصل في عام 2007 إلى مستوى الغرب في عام 1950). والأخرى أنَّه على الرغم من أنَّ كل مؤشِّر من مؤشِّرات الرفاهة تقريبًا يرتبط بالثروة، إلَّا أنَّ الخطين لا يعكسان عالمًا أكثر ثراءً فحسب، وإنَّما ازداد كلٌّ من طول العمر والصحة والمعرفة حتى في كثيرٍ من الأوقات والأماكن التي لم تزدَد فيها الثروة. والحقيقة أنَّ كل جوانب ازدهار البشرية تميل إلى التحسُّن على الأمد الطويل حتى عندما لا تكون في تزامنٍ مثالي، وتؤيِّد هذه الحقيقة فكرة وجود شيء يُدعى التقدُّم بالفعل.

الفصل السابع عشر:
جودة الحياة

رغم أنَّه لا ينكر أنَّ القضاء على الأمراض والجوع والأمية إنجازات هائلة إلَّا القُساة، إلَّا أنَّ المرء قد يتساءل عمَّا إذا كانت التطورات المتواصلة في الأمور التي يقيسها الاقتصاديون تُعَد تقدُّمًا حقيقيًّا. بعد تلبية الاحتياجات الأساسية، ألا يشجِّع الرغد الإضافي في العيش الأشخاصَ على الانغماس في الاستهلاكية السطحية؟ وألم تكُن التطورات في الصحة ومحو الأمية التي تفاخر بها أصحاب الخطط الخمسية في الاتحاد السوفييتي والصين وكوبا، والتي كانت جميعها أماكن فيها الحياة قاتمة؟ قد يكون الأشخاص أصحاء وموسرين ومتعلِّمين ولا يحيون مع ذلك حياةً غنية وهادفة.

تم الرد على بعضٍ من هذه التحفظات، فقد شهدنا تراجع العائق الأساسي أمام التمتُّع بحياةٍ جيدة في اليوتوبيا الشيوعية المزعومة، وهو الشمولية. وشهدنا أيضًا نهوض أحد الأبعاد الرئيسية للازدهار الذي لا تشمله المقاييس المعيارية –وهو حقوق المرأة والطفل والأقليات– بوتيرةٍ ثابتة. يدور هذا الفصل حول نوعٍ أوسع من التشاؤم الثقافي، وهو خشية ألَّا يكون الدخل الإضافي والمدى العمري الصحي الإضافي قد زاد من ازدهار البشرية في النهاية إذا كانا قد وضعا الناس في سباقٍ على الوصولية المسعورة والاستهلاكية الجوفاء والترفيه دون هدفٍ وغياب المعايير الاجتماعية المهلك للروح.

يمكن للمرء بالطبع معارضة هذا الاعتراض الذي يأتي من النخب الدينية والثقافية التقليدية العريقة التي تحتقر حياة الطبقة البرجوازية والبروليتاريا الخاوية التي تفترض هذه النخب أنَّها خاوية. قد يكون النقد الاجتماعي تكبُّرًا متخفيًّا يتداخل مع بُغض البشرية. يوضِّح الناقد جون كاري (John Carey) في كتابه **المثقفون والجماهير** *(The Intellectuals and the Masses)* كيف أضمرت طبقة المثقفين الأدباء البريطانية في العقود الأولى من القرن العشرين احتقارًا للشخص العادي كاد أن يماثل التطهير العرقي. تعني «الاستهلاكية» غالبًا في الواقع «استهلاك الآخر» بما أنَّ النخبة التي تدينها تميل إلى أن تكون هي نفسها من مستهلكي السلع الباهظة كالكتب ذات الأغلفة المقواة والأطعمة الجيدة والنبيذ الجيد والعروض الفنية المباشرة والسفر إلى الخارج والتعليم عالي الجودة لأبنائهم. إذا استطاع المزيد من الأشخاص تحمل تكلفة الرفاهيات التي يفضِّلونها، حتى وإن بدت تافهة لمن هُم أفضل من الناحية الثقافية، فلا بد أن يُعد هذا شيئًا جيدًا! تحكي نكتةٌ قديمة أنَّ خطيبًا كان يلقي خطبةً من فوق منبره عن أمجاد الشيوعية فقال: «عندما تأتي الثورة، سيأكل الجميع الفراولة والقشطة!» فتذمَّر رجلٌ في الصفوف الأمامية قائلًا: «ولكنِّي لا أحب الفراولة والقشطة»، فصاح الخطيب قائلًا: «عندما تأتي الثورة، ستحب الفراولة والقشطة!»

يتجنَّب أمارتيا سن هذا الفخ في كتاب **التنمية حرية** *(Development as Freedom)* عبر اقتراح فكرة أنَّ الهدف النهائي من التنمية هو تمكين الأفراد من اتخاذ خيارات، أي إتاحة الفراولة والقشطة لمن يريدونهما. وطوَّرت الفيلسوفة مارثا نوسبام (Martha Nussbaum) هذه الفكرة قليلًا وحدَّدت مجموعة من «القدرات» الأساسية التي لا بد أن يحظى كل الناس بفرصة ممارستها، يمكن أن نعتبرها مصادر مبرَّرة للرضا والإنجاز تتيحها لنا الطبيعة البشرية. تبدأ قائمتها بالقدرات التي يتيح العالم الحديث للناس بإدراكها كما رأينا مثل طول العمر والصحة والأمان والإلمام بالقراءة والكتابة والمعرفة وحرية التعبير والمشاركة السياسية، وتستمر لتشمل التجارب الجمالية والاستجمام واللعب والاستمتاع بالطبيعة والارتباطات العاطفية والانتماءات الاجتماعية وفرص التأمل في تصور المرء

للحياة الجيدة وفرص المشاركة فيها.

سأوضِّح في هذا الفصل كيف تتيح الحداثة بصورةٍ متزايدة للناس أن يمارسوا هذه القدرات أيضًا، وسأوضِّح أنَّ الحياة تتحسَّن في أمورٍ أبعد من مقاييس الاقتصاديين المعيارية مثل طول العمر والثروة. ما زال كثيرٌ من الناس لا يحبون الفراولة والقشطة ويمكنهم ممارسة إحدى هذه القدرات –التمتُّع بحريتهم في مشاهدة التليفزيون واللعب بألعاب الفيديو– للتنازل عن أخرى مثل التقدير الجمالي أو الاستمتاع بالطبيعة (عندما تحدى شخصٌ دوروثي باركر Dorothy Parker لاستخدام كلمة "horticulture" –أي البستنة– في جملة، أجابت قائلةً: "You can lead a horticulture, but you can't make her think" وهو تلاعب بالألفاظ إذ استخدمت كلمة "horticulture" وقصدت بها "whore to culture" أي: يمكنك أن تقود العاهرة نحو الثقافة، ولكن لا يمكنك إجبارها على التفكير). ولكنَّ المطعم الشامل الذي يقدِّم للناس فرصًا للتمتُّع بمختلف الأطعمة الجمالية والفكرية والاجتماعية والثقافية والطبيعية في العالم، بغض النظر عمَّا يتناوله كلٌّ منهم، هو الصورة النهائية للتقدُّم.

الحياة عبارة عن وقتٍ، ومن مقاييس التقدُّم انخفاض مقدار الوقت الذي يكرِّسه الناس لإبقاء أنفسهم على قيد الحياة على حساب الأمور الأخرى الأكثر إمتاعًا في الحياة. قال الله الرحيم لآدم وحواء وهو يطردهما من جنة عدن: «بِعَرَق وجهك تأكل خبزًا»*، وأكل أغلب الناس على مر التاريخ الخبز بعرقهم بالفعل. فالزراعة مهنة يمتد عملها من شروق الشمس حتى غروبها، ورغم أنَّ من يصطادون ويجمعون الثمار يفعلون هذا لبضع ساعات فقط في اليوم ثم يقضون ساعات أطول في معالجة وتجهيز الطعام (مثل تكسير البندق الصلب كالصخر) إضافةً إلى جمع الحطب ونقل المياه وأداء مهام أخرى. يعمل شعب بوشمن في صحراء كالهاري، الذي كان يُطلق عليه «المجتمع الموسر الأصلي»، ثماني ساعات يوميًّا على الأقل، من ستة إلى سبعة أيام في الأسبوع، على مهامٍ خاصة بالطعام وحده.

كان أسبوع عمل بوب كراتشيت*الذي يبلغ عدد ساعاته 60 –ويوم عطلة واحد في السنة، وهو عيد الميلاد المجيد بالطبع– في الواقع متساهلًا بمعايير هذه الحقبة. يوضِّح الشكل رقم 17–1 أنَّ سكَّان أوروبا الغربية في عام 1870 كانوا يعملون حوالي 66 ساعة في الأسبوع (وكان البلجيكيون يعملون 72 ساعة) في حين كان الأمريكيون يعملون 62 ساعة. على مدار القرن ونصف القرن الماضي، تحرَّر العمَّال بصورةٍ متزايدة من العبودية بالأجر، وفي أوروبا الغربية الديمقراطية الاجتماعية (حيث يعملون الآن أقل بمقدار 28 ساعة في الأسبوع) على نحوٍ أبرز من الولايات المتحدة الطموحة (حيث يعملون أقل بمقدار 22 ساعة). حتى خمسينيات القرن العشرين كان جدي لأبي يعمل خلف ثلاجة الجبن في متجرٍ غير مُدفَّأ في مونتريال نهارًا وليلًا سبعة أيام في الأسبوع، وكان يخاف أن يطلب تقليل عدد ساعات عمله حتى لا يستبدلونه، عندما احتجَّ والديَّ الشابَّان نيابةً عنه، منحوه عطلات متقطعة (وهو ما رآه صاحب العمل –مثل سكروج*– بلا شك «عذرًا واهيًا للنشل من جيوب الناس») حتى قدَّمت له قوانين العمل بعد إنفاذها على نحوٍ أفضل أسبوع العمل المكوَّن من 6 أيام.

---

*سفر التكوين، إصحاح 3، آية 19. – المترجمة.

*شخصية خيالية في رواية **ترنيمة عيد الميلاد** (A Christmas Carol) لريتشارد ديكنز (Richard Dickens). - المترجمة.

*شخصية خيالية في الرواية السابقة، وهو صاحب العمل الذي يعمل لديه بوب كراتشيت. – المترجمة.

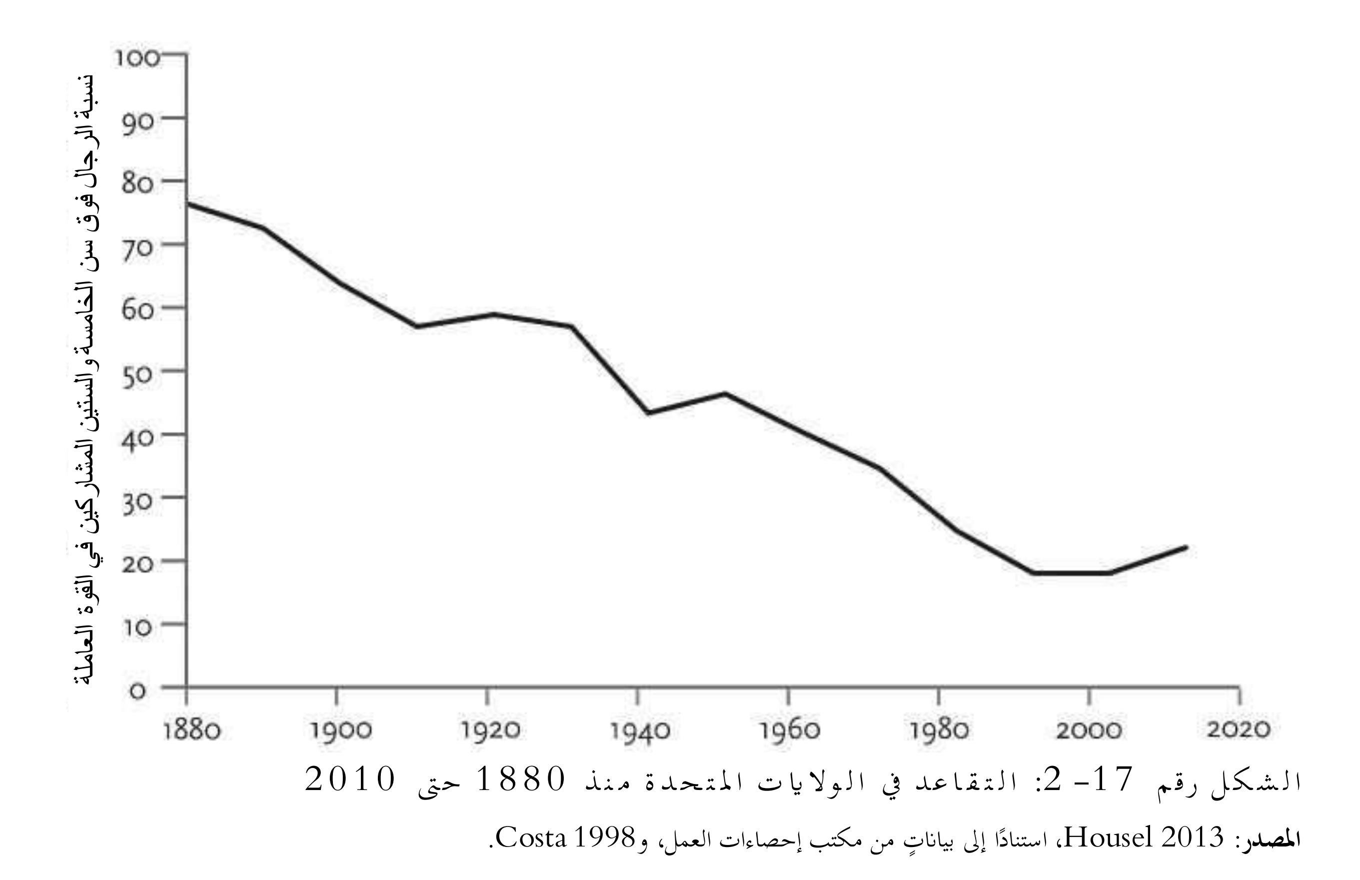


الشكل رقم 17- 1: ساعات العمل، في أوروبا الغربية والولايات المتحدة منذ 1870 حتى 2000

المصدر: Roser 2016t، استنادًا إلى بياناتٍ من Huberman & Minns 2007 عن عمال قطاع الإنتاج بدوامٍ كامل (من الجنسين) في الأنشطة غير الزراعية.

رغم أنَّ قلةً محظوظةً منا تتلقى أجرًا على ممارسة قدراتنا الأساسية ونبذل بإرادتنا ساعات عمل كتلك التي اتسم بها العصر الفيكتوري، إلَّا أنَّ معظم العمَّال ممتنُّون للأربعِ وعشرين ساعة الإضافية المتاحة لهم كي يقضوها في تحقيق أنفسهم بطرقٍ أخرى (كان جدي في يوم عطلته الذي فاز به بشق الأنفس يقرأ الصحف اليديشية ويتأنق مرتديًا سترةً وربطة عنق وقبعة فيدورا ويزور إما أخواته أو أسرتي).

وبالمثل، رغم أنَّ كثيرًا من زملائي الأساتذة ينهون حياتهم المهنية محمولين على نقالةٍ من مكاتبهم، إلَّا أنَّ العمَّال في وظائف أخرى عديدة يسعدون بقضاء سنواتهم الذهبية في القراءة وأخذ الدورات وزيارة الحدائق الوطنية بسيارة رحلات أو تدليل الأحفاد في كوخٍ على جزيرةٍ رملية هادئة. وهذا أيضًا من هدايا الحداثة، فكما يقول مورجان هاوسل (Morgan Housel): «نقلق باستمرارٍ بشأن أزمة تمويل التقاعد التي تلوح في الأفق في أمريكا دون أن ندرك أن مفهوم التقاعد بأكمله فريدٌ وخاصٌ بآخر خمسة عقود فقط، فحتى وقتٍ ليس بالبعيد كان الرجل الأمريكي العادي يمر بمرحلتين هما: العمل والوفاة.. لنفكِّر في الأمر كما يلي: يتقاعد الشخص الأمريكي العادي الآن في سن الثانية والستين، منذ مئة عام، كان الشخص الأمريكي العادي يموت في سن الواحدة والخمسين». يوضِّح الشكل رقم 17-2 أنَّ 80 في المئة تقريبًا من الرجال الأمريكيين فيما نعتبره الآن سن التقاعد كانوا ما زالوا على قوة العمل في عام 1880، وبحلول عام 1990 انخفضت هذه النسبة إلى أقل من 20 في المئة.



الشكل رقم 17- 2: التقاعد في الولايات المتحدة منذ 1880 حتى 2010

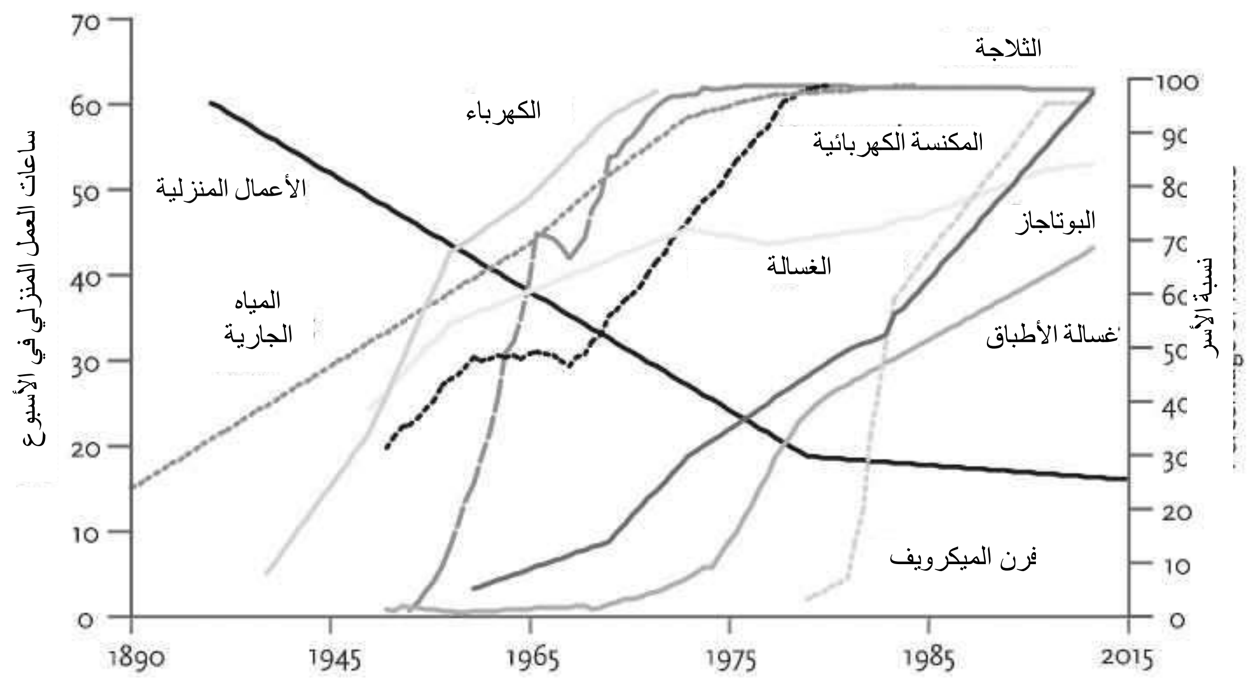
المصدر: Housel 2013، استنادًا إلى بياناتٍ من مكتب إحصاءات العمل، وCosta 1998.

كان الناس بدلًا من انتظار التقاعد يخشون الإصابة أو الوهن الذي سيمنعهم عن العمل ويُرسلهم إلى مأوى الفقراء والعجزة، وهو ما كان يُعرف بالخوف الذي يطارد الناس في خريف حياتهم، وحتى بعد أن حمى قانون الضمان الاجتماعي لعام 1935 المسنِّين من العوز الشديد، كان الفقر نهاية شائعة لحياةٍ حافلة بالعمل، ونموتُ وفي ذهني صورة أصحاب المعاشات الذين يقتاتون على طعام الكلاب (ربما كانت هذه أسطورة في المدن). ولكن مع توفير شبكات أمان حكومية وخاصة أقوى، أصبح المسنُّون اليوم أغنى من الأشخاص في سن العمل، إذ انخفض معدل الفقر لدى من تتجاوز أعمارهم الخامسة والستين من 35 في المئة في عام 1960 إلى أقل من 10 في المئة في عام 2011، وهو أقل كثيرًا من المعدل الوطني الذي يبلغ 15 في المئة.

بفضل الحركة العمالية والتشريعات وزيادة إنتاجية العمَّال، تحقَّق حلم آخر جنوني، وهو الإجازات مدفوعة الأجر، إذ يحصل العامل الأمريكي العادي اليوم بعد مرور خمس سنوات على توظيفه على إجازة مدفوعة الأجر لمدة 22 يومًا في السنة (مقارنةً بـ 16 يومًا في عام 1970) وهذه مدة قصيرة وفق معايير أوروبا الغربية. إنَّ المزيج بين أسبوع العمل الأقصر والإجازات مدفوعة الأجر الأكثر والتقاعد الأطول يعني أنَّ النسبة التي يشغلها العمل من حياة المرء انخفضت بمقدار الربع منذ 1960 فقط. تختلف الاتجاهات الخاصة بالعالم النامي حسب الدولة، ولكن مع ازدياد هذه الدول غنى، تميل إلى اتباع خطى دول الغرب.

تحرَّرت مساحات أخرى من الحياة بطريقةٍ أخرى كي يسعى الأشخاص وراء أهدافهم الأكبر. رأينا في الفصل التاسع أنَّ الأجهزة المنزلية مثل الثلاجات والمكانس الكهربائية والغسالات وأفران الميكرويف أصبحت شائعة أو عامة حتى بين فقراء الأمريكيين. كان على الأمريكي الذي يحصل على أجورٍ متوسطة في عام 1919 أن يعمل لمدة 1800 ساعة لدفع ثمن ثلاجة، في حين كان عليه في عام

2014 أن يعمل أقل من 180 ساعة لدفع ثمنها (وكانت الثلاجة الجديدة بلا صقيع -نو فروست- وبها صانعة ثلج). هل هذه استهلاكية بلا هدف؟ ليس عدما تتذكَّر أنَّ الطعام والملبس والمأوى هي أساسيات الحياة الثلاثة، وأنَّ الإنتروبيا تنتقص من قيمهم جميعًا، وأنَّ الوقت الذي يستغرقه الحفاظ عليها صالحة للاستخدام هو وقتٌ يمكن تخصيصه لمساعٍ أخرى. تُعيد إلينا كلٌّ من الكهرباء والمياه الجارية والأجهزة المنزلية (أو كما كان يُطلق عليها «الأدوات الموفِّرة للعمالة») ذلك الوقت، الساعات الطويلة التي كانت جداتنا تقضيها في الضخ والتعليب ومخض اللبن والجلي والمعالجة والكنس والتشميع والتنظيف بالحك والعصر والإرغاء والتجفيف والخياطة والرتق والحياكة والرفو، و«الوقوف مطولًا أمام الموقد الساخن والعمل بكل جهدٍ» كما ظللن يذكِّرننا. يوضِّح الشكل رقم 17-3 أنَّه مع تغلغل المرافق والأجهزة المنزلية في المنازل الأمريكية خلال القرن العشرين، انخفض مقدار الوقت الذي يقضيه الناس في الأعمال المنزلية من حياتهم - ولا عجب أنَّ الناس يقولون إنَّهم لا يفضِّلون قضاء وقتهم فيها- بأربعة أضعاف تقريبًا، من 58 ساعة أسبوعيًّا في عام 1900 إلى 15.5 ساعة في عام 2011. انخفض مقدار الوقت الذي يقضيه الأشخاص في غسيل الملابس فقط من 11.5 ساعة في الأسبوع في عام 1920 إلى 1.5 ساعة في عام 2014، ويشير هانس روزلينج إلى أنَّ الغسالة تستحق أن يُطلق عليها أعظم اختراعات الثورة الصناعية، لإعادة «يوم الغسيل» إلى حياتنا.



الشكل رقم 17- 3: المرافق والأجهزة المنزلية والأعمال المنزلية، في الولايات المتحدة، منذ 1900 حتى 2005

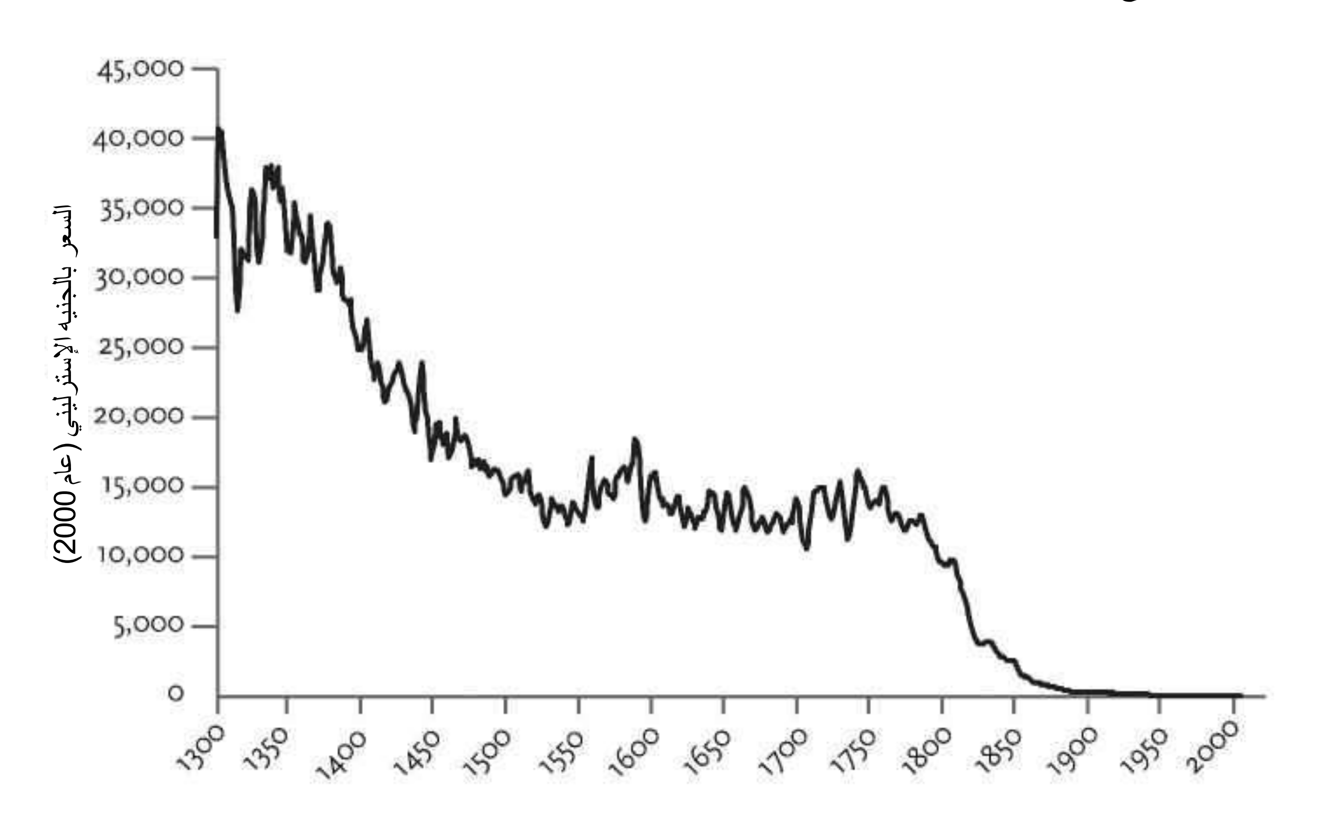
المصادر: قبل عام 2005: Greenwood, Seshadri, & Yorukoglu 2005. الأجهزة المنزلية، 2005 و2011: مكتب تعداد الولايات المتحدة، Siebens 2013. الأعمال المنزلية، 2015: Roser 2016t ،*Our World in Data,* استنادًا إلى استقصاء استخدام الوقت (American Time Use Survey)، مكتب إحصاءات العمل (Bureau of Labor Statistics 2016b).

نظرًا لكوني زوجًا من حقبة النسوية، يمكنني استخدام ضمير المتكلم الجمع «نحن» بصدقٍ عند الاحتفاء بهذا المكسب، ولكنَّ

الأعمال المنزلية في معظم الأزمنة والأماكن مرتبطة بالنوع الاجتماعي، لذا فإنَّ تحرير البشرية من الأعمال المنزلية هو في الواقع العملي تحرير المرأة من الأعمال المنزلية، وربما تحرير المرأة عمومًا. تعود الحجج المنادية بمساواة المرأة بالرجل إلى المقالة التي كتبتها ماري أستيل (Mary Astell) عام 1700، وهي حجج مُفحِمة. إذاً لماذا استغرق انتشارها قروناً؟ تنبَّأ توماس إديسون (Thomas Edison) في حوارٍ في مجلة **التدبير المنزلي الجيد** *Good Housekeeping* بأحد أكبر التحولات الاجتماعية في القرن العشرين:

> لن تكون ربة المنزل في المستقبل جاريةً للخدم ولا كادحةً، ستولي المنزل اهتمامًا أقل لأنَّ احتياجات المنزل ستكون أقل، ستكون مهندسة منزلية وليست عاملة منزلية، وستكون أعظم الخادمات، الكهرباء، في خدمتها. وستقلب هذه القوة والقوى الميكانيكية الأخرى عالم المرأة فستحفظ المرأة بجزءٍ كبيرٍ من طاقتها لتستخدمها في مجالاتٍ أوسع وبنَّاءة بدرجةٍ أكبر.

ليس الوقت هو المورد الوحيد الذي تمنحنا إياه التكنولوجيا ويثري حياتنا، فالضوء من الموارد الأخرى، والضوء تمكيني للغاية لدرجة أنَّه المجاز المختار لحالةٍ فكرية وروحانية فائقة: التنوير. نحن نغرق في الظلام في العالم الطبيعي نصف حياتنا، ولكنَّ الضوء الصناعي يتيح لنا استرداد الليل للقراءة والانتقال ورؤية وجوه الآخرين والتفاعل مع ما حولنا. استشهد الاقتصادي ويليام نوردهاوس بانخفاض سعر (وبالتالي زيادة إتاحة) هذا المورد الثمين على مستوى العالم بوصفه رمزًا للتقدُّم. يوضِّح الشكل رقم 17–4 أنَّ سعر مليون لومن ساعة من الضوء معدَّل لمراعاة التضخم (ما قد تحتاجه للقراءة لمدة ساعتين ونصف يوميًّا لمدة سنة) قد انخفض بمقدار أربعة عشر ألف ضعف منذ العصور الوسطى (التي كان يُطلق عليها عصور الظلام)، من 40,500 جنيه إسترليني في عام 1300 إلى أقل من 3 جنيهات إسترلينية اليوم. إذا كنت في هذه الأيام (أو الليالي) لا تقرأ أو تحادث الآخرين أو تخرج أو تثقِّف نفسك بأي طريقةٍ أخرى، فليس هذا لأنَّك لا تستطيع تحمل تكلفة الضوء.

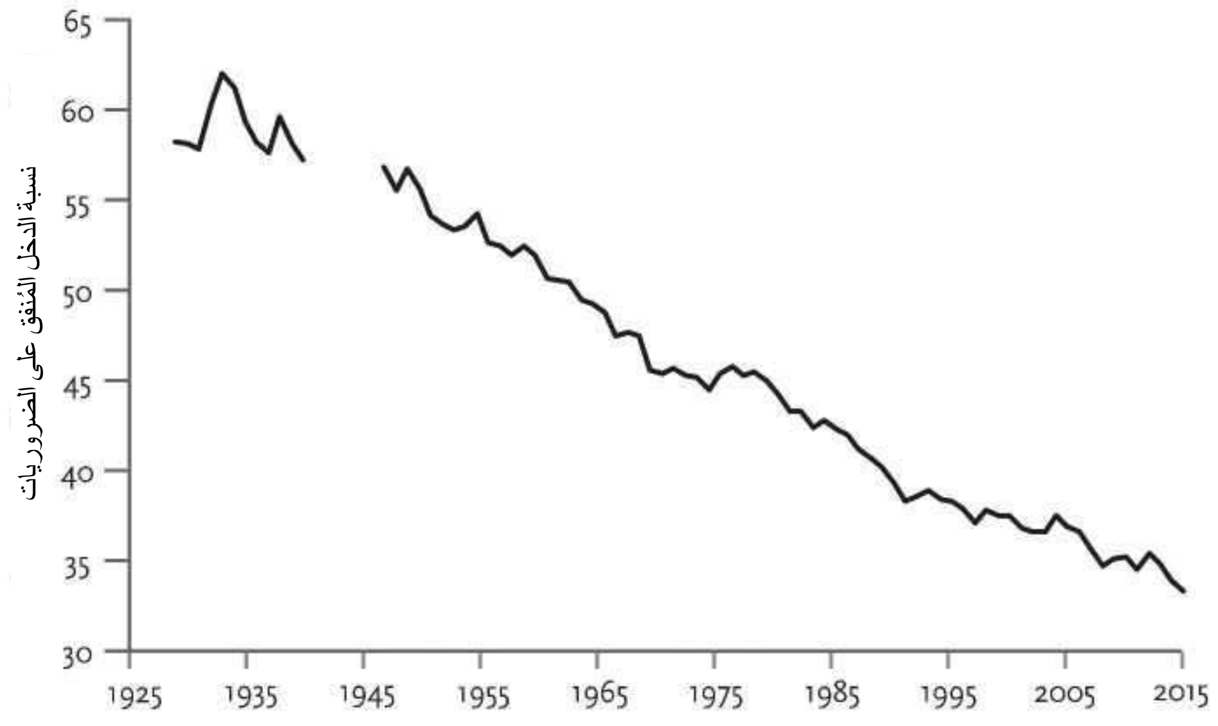


الشكل رقم 17- 4: تكلفة الإنارة في إنجلترا منذ 1300 حتى 2006

المصدر: *Our World in Data,* Roser 2016o، استنادًا إلى بياناتٍ من Fouquet & Pearson 2012. تكلفة مليون لومن ساعة (حوالي 833 ساعة من مصباح متوهج 80 واط) بالجنيه الإسترليني (معدَّل لمراعاة التضخم في العام 2000).

لا يعبِّر انخفاض القيمة النقدية للضوء الصناعي في الحقيقة عن التقدم بالقدر الكافي لأنَّه كما أشار آدم، فإنَّ: «الثمن الحقيقي لكل شيء يكمن في المشقة والعناء من أجل الحصول عليه». قدَّر نوردهاوس عدد الساعات التي سيضطر الشخص إلى أن يعملها ليجني تكلفة ساعة من الضوء اللازم للقراءة في أوقات مختلفة عبر التاريخ. كان على الشخص البابلي في عام 1750 قبل الحقبة الحالية أن يعمل خمسين ساعةً كي يقضي ساعةً واحدةً في قراءة الألواح المسمارية على ضوء مصباح مضاء بزيت السمسم، وكان على الشخص الإنجليزي في عام 1800 أن يكدح ستَّ ساعات كاملة كي يستطيع إشعال شمعة من الشحم تحترق خلال ساعة (تخيل لو أنَّك خططت ميزانية أسرتك وفق هذه الأمور، ربما كنت لترضى بالظلام). كنت ستحتاج في عام 1880 إلى العمل خمسَ عشرة دقيقة لإضاءة مصباح بالكيروسين لمدة ساعة، وثماني ساعات في عام 1950 لإضاءة لمبة متوهجة لمدة ساعة أيضًا، ونصف ثانية لإضاءة لمبة فلورسنتية مضغوطة لمدة ساعة، وهي قفزة بمقدار 43 ألف ضعفٍ في الإتاحة خلال قرنين. ولم يقف التقدُّم عند هذه النقطة، إذ نشر نوردهاوس مقاله قبل أن تغرق لمبات LED السوق. قريبًا ستغيِّر مصابيح LED الرخيصة التي تضاء بالطاقة الشمسية حياة أكثر من مليار شخصٍ لا يتمتعون بالكهرباء، مما سيتيح لهم قراءة الأخبار أو أداء الواجبات المنزلية دون التجمع حول البراميل المليئة بالقمامة المحترقة.

قد يكون انخفاض نسبة الوقت الذي نضطر إلى التفريط فيه في مقابل الضوء والأجهزة المنزلية والطعام من حياتنا جزءًا من قانونٍ عام، إذ ألمح خبير التكنولوجيا كيفن كيلي (Kevin Kelly) إلى أنَّه «بمرور الوقت، إذا استمرت تكنولوجيا ما لمدة طويلة نوعًا ما، فإنّ تكلفتها تبدأ بالاتجاه نحو الصفر (ولكنَّها لا تصل إليه مطلقًا)». ومع انخفاض تكلفة ضروريات الحياة، نهدر قدرًا أقل من ساعات يومنا في الحصول عليها، ونحظى بوقتٍ ومالٍ أكثر لكل الأغراض الأخرى، وتنخفض تكلفة «كل الأغراض الأخرى» أيضًا، وهكذا أصبح باستطاعتنا التمتُّع بالكثير منها. يوضِّح الشكل رقم 17-5 أنَّ الأمريكيين كانوا ينفقون في عام 1929 أكثر من 60 في المئة من دخلهم المتاح للإنفاق على الضروريات، وانخفضت هذه النسبة بحلول عام 2016 بمقدار الثُلث.



الشكل رقم 17- 5: الإنفاق على الضروريات، في الولايات المتحدة، منذ 1929 حتى 2016

المصدر: *HumanProgress,* http://humanprogress.org/static/1937، مأخوذ من رسم بياني خاص بمارك بيري (Mark Perry)، باستخدام بيانات من مكتب التحليل الاقتصادي، http://www.bea.gov/iTable/index_nipa.cfm. نسبة الدخل المتاح للإنفاق والذي يُنفق على الطعام في المنزل والسيارة والملابس وأثاث المنزل والسكن والمرافق والبنزين. حُذفت البيانات الخاصة بالأعوام من 1941 إلى 1946 لأنَّها مشوهة نتيجة الترشيد ورواتب الجنود خلال الحرب العالمية الثانية.

ما الذي يفعله الأشخاص بذلك الوقت والمال الإضافيين؟ هل يثرون حياتهم حقًّا أم أنَّهم يشترون المزيد من مضارب الجولف وحقائب اليد من المصمِّمين العالميين؟ رغم أنَّه من التغطرس أن نحكم على الطريقة التي يختار الأشخاص أن يقضوا وقتهم بها، إلَّا أنَّ بوسعنا التركيز على المساعي التي يتفق الجميع تقريبًا على كونها مقومات الحياة الجيدة، وهي التواصل مع الأحباء والأصدقاء، والتمتُّع بثراء عالم الطبيعة وعالم الثقافة، والتمتُّع بإمكانية الوصول إلى ثمار الإبداع الفني والفكري.

مع زيادة أعداد الأسر التي يعمل فيها الزوج والزوجة، والأطفال الذين يمتلئ وقتهم بالأنشطة، والأجهزة الرقمية، يوجد الآن اعتقاد واسع الانتشار (وذعر متكرِّر في الإعلام) بأنَّ الأسر عالقة في أزمة ضيق الوقت التي تقضي على اجتماع الأسرة على العشاء (رثى كلٌّ من آل جور ودان كويل احتضاره في الفترة السابقة للانتخابات الرئاسية الأمريكية في عام 2000، وكان هذا قبل الهواتف الذكية ووسائل التواصل الاجتماعي). ولكن لا بد من موازنة هذه الملهيات والمشتتات الجديدة مع الأربع وعشرين ساعة الإضافية في الأسبوع التي قدَّمتها الحداثة للمعيلين والاثنتي وأربعين ساعة الإضافية في الأسبوع التي قدَّمتها لربَّات المنازل. رغم أنَّ الناس يشكون مدى انشغالهم بصورةٍ متزايدة (وأطلق بعض الاقتصاديين على هذا تعبير «تذمُّر الشباب المترف»)، إلَّا أنَّهم عندما يُطلب منهم مراقبة وتتبُّع الوقت، تتَّضح صورة مختلفة. ذكر الرجال في عام 2015 أنَّ أوقات فراغهم تبلغ 42 ساعة أسبوعيًّا، أي أكثر مما كانت منذ خمسين عامًا بحوالي 10 ساعات، وذكرت النساء أنَّ أوقات فراغهن تبلغ 36 ساعة، أي أكثر حوالي 6 ساعات (الشكل رقم 17-6). (لكي نكون

منصفين، ربما يكون لدى الشباب المترف حقٌّ في التذمُّر، إذ ذكر أصحاب المستويات التعليمية الأقل التمتُّع بأوقات فراغ أكثر، ونمى مستوى انعدام المساواة بينهما خلال الخمسين عامًا الماضية). وظهرت في أوروبا الغربية اتجاهات مشابهة.



الشكل رقم 17- 6: وقت الفراغ في الولايات المتحدة منذ 1965 حتى 2015

المصادر: الأعوام من 1965 حتى 2003: Aguiar & Hurst 2007, table III, Leisure Measure 1 (جدول 3، مقياس وقت الفراغ 1). 2015: استقصاء استخدام الوقت (American Time Use Survey)، مكتب إحصاءات العمل (Bureau of Labor Statistics 2016c)، بجمع بيانات أوقات الفراغ وممارسة الرياضة، والاعتناء بالمرج والحديقة، والتطوع، للمقايسة مع بيانات مقياس أجيار وهيرست الأول (Aguiar & Hurst's Measure 1).

ولا يشعر الأمريكيون باستمرار بالمزيد من الاستعجال، توضِّح مراجعة أجراها عالم الاجتماع جون روبينسون (John Robinson) بعض الارتفاعات والانخفاضات في نسبة من يقولون إنَّهم يشعرون بأنَّهم «في استعجالٍ دائم» بين عامي 1965 و2010 (وانخفضت النسبة إلى 18 في المئة في عام 1976 وارتفعت إلى 35 في المئة في عام 1998)، ولكنَّها لم تُظهر أي اتجاه ثابت على مدار خمسة وأربعين عامًا. وفي النهاية، ما زالت الأسر تجتمع على العشاء، إذ تتفق دراسات واستطلاعات عديدة على أنَّ عدد وجبات العشاء التي تتناولها الأسر معًا لم يتغيَّر كثيرًا من عام 1960 حتى 2014، رغم هواتف الآيفون وأجهزة البلاي ستيشن وحسابات الفيسبوك. إذ كان الآباء الأمريكيون العاديون يقضون على مدار القرن العشرين وقتًا أكثر مع أطفالهم، لا أقل، ففي عام 1924 لم يكُن سوى 45 في المئة من الأمهات يقضين ساعتين أو أكثر يوميًّا مع أطفالهن (وكان 7 في المئة منهن لا يقضين أي وقت مع أطفالهن)، ولم يكُن سوى 60 في المئة من الآباء يقضون ساعةً على الأقل يوميًّا معهم، وبحلول عام 1999 ارتفعت هذه النسب إلى 71 و83 في المئة. تقضي الأمهات العزباوات والعاملات اليوم في الحقيقة وقتًا أكثر مع أطفالهن مما كانت تفعل الأمهات المتفرِّغات للمنزل في عام 1965 (الزيادة في عدد الساعات التي يقضيها الأهل في العناية بالأطفال هي السبب الرئيسي في الانحدار في أوقات

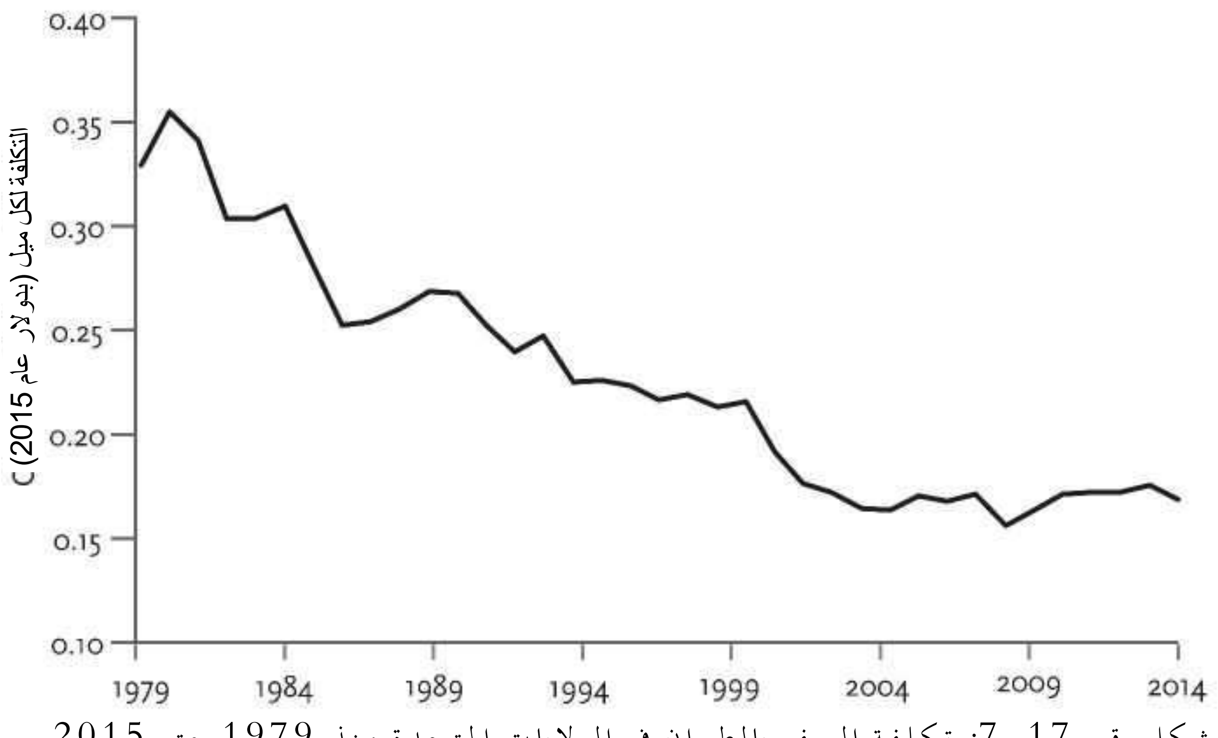
الفراغ الذي نراه في الشكل رقم 17-6). ولكنَّ دراسات استخدام الوقت لا تطابق رسومات نورمان روكويل (Norman Rockwell) ومسلسل *(Leave It to Beaver)*، ويتذكَّر كثيرٌ من الناس منتصف القرن العشرين على نحوٍ خادعٍ بأنَّه العصر الذهبي لتكاتف الأسرة.

يشار كثيرًا إلى وسائل الإعلام الإلكترونية بوصفها تهديدًا للعلاقات الإنسانية، وتُعد صداقات الفيسبوك بالتأكيد بديلًا رديئًا عن التواصل وجهًا لوجه مع الرفقاء من لحمٍ ودمٍ، ولكنَّ التكنولوجيا الإلكترونية بشكلٍ عام هدية لا تُقدَّر بثمنٍ للتقارب الإنساني. منذ قرنٍ كان أحد أفراد الأسرة إذا انتقل إلى مدينةٍ بعيدة، ربما لا يسمع المرء صوته ولا يرى وجهه ثانيةً مطلقًا، وكان الأحفاد يكبرون بعيدًا عن أعين أجدادهم، وكان الزوجان اللذان يفصل بينهما العمل أو الدراسة أو الحرب يعيدان قراءة الخطابات عشرات المرات وينهار المحب في يأسٍ إذا تأخَّر الخطاب التالي، لا يعرف ما إذا كان الخطاب قد ضاع في البريد أم أنَّ الحبيب غاضب أو خائن أو ميت (وهي لوعة حكت عنها أغنيات مثل ''Please Mr. Postman'' لفريق البيتلز ومارفلتس، و''Why Don't You Write Me'' لسايمن وجارفنكل). حتى عندما أتاحت المكالمات الهاتفية الدولية للأشخاص التواصل مع أحدهم، فإنّ التكلفة الباهظة قيَّدت حميمية التواصل. يتذكر أبناء جيلي غرابة التحدث سريعًا عبر الهواتف العامة في الكابينات ووضع النقود المعدنية فيها، أو الركض السريع عندما يناديك أحد أفراد الأسرة للرد على الهاتف قائلًا: (إنها مكالمة دولية!!!)، أو الشعور بتبخُّر أموال الإيجار أثناء محادثة هاتفية ممتعة. نصحنا إدوارد مورجان فورستر (E. M. Forster) بأن «نتواصل فقط»، وتتيح لنا التكنولوجيا الإلكترونية بالتواصل كما لم نفعل من قبل. حيث يتمتَّع اليوم حوالي نصف سكان العالم بإمكانية الوصول إلى الإنترنت وثلاثة أرباعهم بإمكانية الحصول على هاتف محمول، وأصبحت التكلفة الحدية للمحادثات الدولية صفرًا تقريبًا، ويستطيع المتحدِّثون الآن أن يروا الطرف الآخر أيضًا إضافةٍ إلى الاستماع إلى صوته.

وبمناسبة الرؤية، فإنَّ انخفاض تكلفة التصوير يمثِّل هدية أخرى لثراء التجربة، ففي الحقب الماضية لم يكُن لدى الأشخاص ما يذكِّرهم بأحد أفراد أسرتهم حيًّا كان أو ميتًا سوى صورة ذهنية، أمَّا اليوم فتنتابني عدة موجات من الامتنان على النعم الكثيرة التي أتمتع بها عندما تقع عيناي على صورة لمن أحبهم، مثل المليارات من البشر. يتيح التصوير الرخيص أيضًا للمرء أن يحيا اللحظات المهمة في الحياة مراتٍ كثيرة لا مرة واحدة، مثل المناسبات الخاصة والمناظر المذهلة ومناظر المدينة التي اختفت منذ وقتٍ بعيد وكبار السن في ربيع عمرهم والبالغين عندما كانوا صغارًا والأطفال عندما كانوا رضيعين.

حتى في المستقبل، عندما يكون لدينا واقع افتراضي مجسم ثلاثي الأبعاد بالصوت المحيطي والقفازات التلامسية ذات الهيكل الخارجي، فسنظل نرغب في أن نكون بالقرب ممن نحبهم مما يمكِّننا من لمسهم، لذا فإنَّ تضاؤل تكلفة النقل والمواصلات نعمة أخرى نعمت بها البشرية، فقد ضاعفت القطارات والحافلات والسيارات فرصنا في اللقاء والاجتماع معًا، وأزالت إتاحة السفر بالطائرات للعامة حواجز المسافات والمحيطات. إن مصطلح *(Jet Set)* –أي فئة مرتادي الطائرات– الذي يشير إلى المشاهير الأنيقين مصطلح قديم يعود إلى الستينيات، عندما لم يكُن أكثر من خُمس الأمريكيين قد سافروا بالطائرة. رغم تكاليف الوقود شديدة الارتفاع، إلَّا أنَّ السعر الحقيقي للسفر بالطائرة في الولايات المتحدة قد انخفض بمقدارٍ أكبر من النصف منذ أواخر السبعينيات، عندما تحررت خطوط الطيران من القيود التنظيمية (الشكل رقم 17-7)، ففي عام 1974 كانت تكلفة السفر بالطيارة من نيويورك إلى لوس أنجلوس 1,442 دولارًا (بدولار عام 2011)، أما اليوم فتكلفته قد تكون أقل من 300 دولارٍ. مع هبوط الأسعار، سافر عددٌ أكبر من الناس بالطائرات فقد سافر أكثر من نصف الأمريكيين في عام 2000 في رحلةٍ ذهاب وإياب واحدة على الأقل. ربما تضطر إلى المباعدة بين ساقيك عندما يفتِّشك

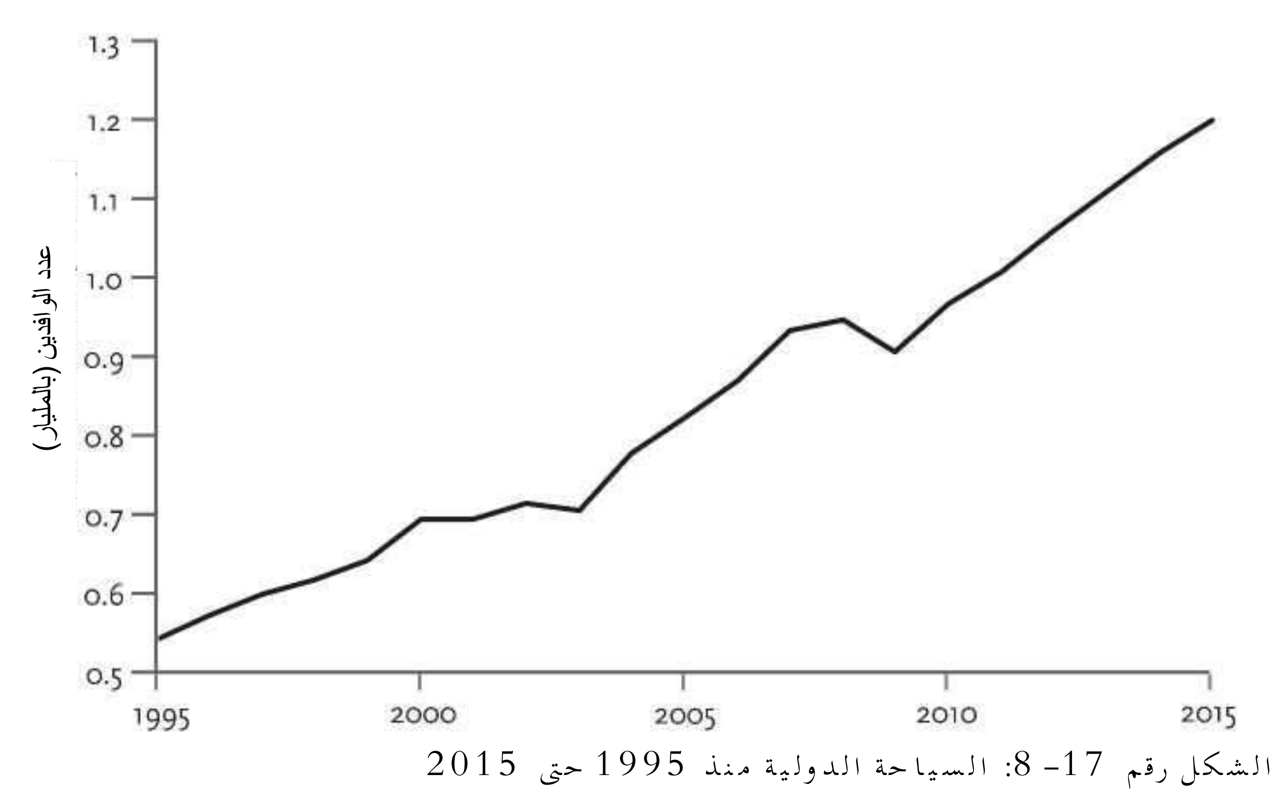
رجال الأمن، وربما يصطدم كوع أحدهم بضلوعك ويصطدم ظهر المقعد الذي أمامك بذقنك، ولكنَّ المحبين في علاقةٍ عاطفية عن بعد يستطيعون الآن رؤية بعضهم بعضًا، وإذا مرضت والدتك ستستطيع أن تصل إليها في اليوم التالي.



الشكل رقم 17- 7: تكلفة السفر بالطيران في الولايات المتحدة منذ 1979 حتى 2015

المصدر: Thompson 2013، محدَّث ببياناتٍ من رابطة الخطوط الجوية من أجل أمريكا (Airlines for America)، http://airlines.org/dataset/annual-round-trip-fares-and-fees-domestic/. الطيران الداخلي، دون حساب رسوم الحقائب المسجلة (التي قد تزيد التكلفة المتوسطة للركاب ذوي الحقائب المسجلة بمقدار نصف سنت لكل ميل ابتداءً من عام 2008).

تؤدي المواصلات ذات التكلفة المعقولة إلى أكثر من مجرد لم الشمل، فهي تتيح للأشخاص أيضًا تجربة المشاهد الساحرة الخيالية في كوكب الأرض، وهذه هي التسلية التي نمجِّدها عندما نقوم بها نحن ونطلق عليها «السفر» ونلعنها عندما يفعلها الآخرون ونطلق عليها «السياحة»، ولكنَّها بالتأكيد تُعد أحد الأمور التي تجعل الحياة تستحق أن نعيشها. أن نرى منتزه جراند كانيون ونيويورك والشفق القطبي والقدس، ليست هذه مجرد متع حسية، وإنَّما هي تجارب توسِّع منظور إدراكنا، مما يتيح لنا استيعاب اتساع المكان والزمان والطبيعة والمبادرة لدى البشر. رغم أنَّنا نستاء من الحافلات السياحية الكبيرة والمرشدين السياحيين، وأفواج السياح الذين يلتقطون صور السيلفي مرتدين سراويلهم القصيرة المبتذلة، إلَّا أنَّ علينا الإقرار بأنَّ الحياة تكون أفضل عندما يستطيع الناس توسيع نطاق وعيهم بكوكبنا ونوعنا بدلًا من أن يظلوا حبيسي نطاق محل ميلادهم. مع زيادة الدخل المتاح للإنفاق وتراجع تكلفة السفر بالطائرات، أصبح المزيد من الناس يستكشفون العالم، كما سنرى في الشكل رقم 17-8.



الشكل رقم 17- 8: السياحة الدولية منذ 1995 حتى 2015

المصدر: البنك الدولي (World Bank 2016e)، استنادًا إلى بياناتٍ من منظمة السياحة العالمية، حولية إحصاءات السياحة (*Yearbook of Tourism Statistics)*.

ولا يصطف المسافرون في طوابيرٍ أمام متاحف الشمع وعالم ديزني فقط. يتجاوز عدد المناطق المحمية من التنمية والاستغلال الاقتصادي 160,000 منطقة في العالم وهذا العدد في زيادةٍ يومية، فهناك مناطق أكثر كثيرًا في العالم الطبيعي تُحفظ في محميات طبيعية كما رأينا في الشكل رقم 10-6.

يُعد الطعام أحد الأشياء الأخرى التي اتسع فيها نطاق تجاربنا الجمالية، فقد كان نظام الغذاء الأمريكي في أواخر القرن التاسع عشر يتكون أساسًا من لحم الخنزير والنشويات. كانت أغلب الخضروات والفواكه ستفسد قبل وصولها إلى المستهلك لولا وجود تقنية التبريد ووسائل النقل الآلي، لذا زرع المزارعون المحاصيل التي لا تتلف مثل اللفت والفول والبطاطس، وكانت الفاكهة الوحيدة الموجودة هي التفاح، واستخدم معظمها في عمل عصير التفاح (كانت متاجر الهدايا التذكارية في ولاية فلوريدا تبيع حقائب البرتقال للسياح كي يقدِّموها هدايا لأقربائهم وأصدقائهم حتى سبعينيات القرن العشرين). أُطلق على النظام الغذائي الأمريكي نظام "الخبز الأبيض" و"البطاطس واللحم" لسبب وجيه، وربما كان الطهاة المغامرون يقلون بعض شرائح لحم الخنزير المعلَّب، أو فطيرة تفاح كاذبة مصنوعة من بسكويت ريتز، أو «السلطة المثالية» (وهي سلطة الكولسلو بجيلي الليمون). كانت المطابخ الجديدة التي عرَّفنا بها المهاجرون غريبة لدرجة أنَّها أصبحت مثار النكات، بما فيها المطبخ الإيطالي («ماما ميا! كرات اللحم حارة للغاية!») والمكسيكي («يحل مشكلة العجز في الغاز») والصيني («تجوع ثانيةً بعد ساعة») والياباني («إنَّه طُعم ليس طعامًا»). أمَّا اليوم فستجد حتى في البلدات الصغيرة وصالات الطعام في الأسواق التجارية قوائم طعام عالمية، وتجد أحياناً كل هذه المطابخ إضافةً إلى المطبخ اليوناني والتايلندي والهندي والفيتنامي والشرق أوسطي، وزاد البقالون معروضاتهم أيضًا، من بضع مئات من الأغراض في عشرينيات القرن الماضي إلى 2200 في الخمسينيات

و17,500 في الثمانينيات و39,500 في عام 2015.

أخيرًا وليس آخرًا، زادت إمكانية الوصول إلى أجود منتجات العقل البشري ووصلت إلى العامة، يصعب علينا إعادة تمثيل الملل المزعج الذي كان يخيم على المنازل الريفية المعزولة في الماضي، ففي أواخر القرن التاسع عشر لم يكُن هناك إنترنت، ولم يكُن هناك أيضًا راديو ولا تليفزيون ولا أفلام ولا تسجيلات موسيقية، ولم تكُن أغلبية المنازل تحتوي على كتبٍ أو صحفٍ، فكان ما يفعله الرجال للترفيه هو الذهاب إلى الحانات للشرب. كان الكاتب والمحرر ويليام دين هاولز (William Dean Howells) الذي عاش بين عامي 1837 و1920 يسلّي نفسه عندما كان طفلًا بإعادة قراءة صفحات جريدة قديمة استخدمها والده كورق حائط في مقصورتهم في أوهايو.

يستطيع ساكن الريف اليوم الاختيار من بين مئات القنوات التليفزيونية ونصف مليار موقعٍ إلكتروني، والحصول على كل الصحف والمجلات في العالم (بما يشمل الأرشيف الذي يعود إلى أكثر من قرنٍ)، وكل عمل أدبي سقطت حقوق التأليف والنشر الخاصة به، وموسوعة أكبر من سبعين ضعف حجم *الموسوعة البريطانية* وتتمتَّع بنفس القدر من الدقة تقريبًا، وكل الأعمال الفنية والموسيقية الكلاسيكية، ويستطيع التحقُّق من صحة الإشاعات باستخدام موقع *Snopes*، ويعلِّم نفسه الرياضة والعلوم في أكاديمية خان، ويبني قدرته اللغوية باستخدام **قاموس التراث الأمريكي** *(American Heritage Dictionary)*، ويثقِّف نفسه باستخدام **موسوعة ستانفورد للفلسفة***(Stanford Encyclopedia of Philosophy)*، ويشاهد محاضرات كبار الباحثين والكُتَّاب والنُقَّاد في العالم الذين توفي كثيرٌ منهم منذ وقتٍ طويل. لن يضطر هليل[2] الفقير اليوم أن يُغشى عليه بفعل البرد أثناء استراق السمع إلى الدروس من خلال الكوة في سقف المدرسة.

وزادت إمكانية الوصول للفنون والآداب بشكلٍ هائل حتى للأثرياء من سكان الحضر الغربيين الذين لطالما أداروا قصور الثقافة. عندما كنتُ طالبًا، كان على محبي الأفلام انتظار سنواتٍ حتى يُعرض فيلم كلاسيكي في دار عرضٍ محلية أو على التليفزيون في آخر الليل، هذا إذا عُرِض من الأساس، أمَّا اليوم فيمكن بثه عند الطلب. يمكنني الاستماع إلى أي أغنية من بين آلاف الأغنيات أثناء الجري أو غسيل الصحون أو الانتظار في طابورٍ في إدارة تسجيل السيارات، ببضع نقرات، يمكن أن أنسى نفسي وسط الأعمال الكاملة لكارافاجيو (Caravaggio)، أو الإعلان الدعائي الأصلي لفيلم *(Rashomon)*، أو ديلان توماس (Dylan Thomas) وهو يلقي قصيدة "And Death Shall Have No Dominion"، أو إلينور روزفلت (Eleanor Roosevelt) وهي تتلو الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، أو ماريا كالاس (Maria Callas) وهي تغني "O mio babbino caro"، أو بيلي هوليداي (Billie Holiday) وهي تغني "My Man Don't Love Me"، أو سولومون ليندا (Solomon Linda) وهو يغني "Mbube"، وهي تجارب لم أكُن لأحظى بها تحت أي ظرفٍ منذ بضع سنوات. تحسِّن سماعات الأذن هاي فاي، وقريبًا نظارات الواقع الافتراضي المصنوعة من الورق المقوى، من التجربة الجمالية أكثر من مكبِّرات الصوت التي تصدر صوتاً مشوشًا ونسخ الأفلام الباهتة بالأبيض والأسود والتي تعود إلى فترة شبابي. ويستطيع من يحب الأوراق أن يشتري نسخةً مستعملة من رواية **الدفتر الذهبي** *(The Golden Notebook)*، لدوريس ليسنج (Doris Lessing)، أو رواية **نيران شاحبة***(Pale Fire)*، لفلاديمير نابوكوف (Vladimir Nabokov)، أو كتاب **أكيه: سنوات الطفولة** *(Aké: The Years of Childhood)*

---

[2] هيليل هو حاخام يهودي ولد في بابل بحوالي قرن قبل الميلاد، يضرب به المثل للحثّ على طلب العلم والدراسة، إذ يروى عنه أنه حين عجز عن دفع رسوم دخول المدرسة، صعد إلى كوّة في السقف، واسترق السمع للدروس من هناك، ولم يثنيه البرد الشديد ولا انهمار الثلج عن التعلّم.

لوولي سوينكا (Wole Soyinka) مقابل دولارٍ واحد.

أدَّى مزيجٌ من تكنولوجيا الإنترنت وحشد مصادر آلاف المتطوعين إلى الوصول المفاجئ إلى أعمال البشرية العظيمة. لا حاجة للتساؤل عن أعظم الحقب من ناحية الثقافة، فالإجابة بالتأكيد هي اليوم، حتى يحل الغد محله، ولا تعتمد الإجابة على مقارنات فردية بين جودة أعمال اليوم وأعمال الماضي (وهي مقارنات لسنا في وضعٍ يسمح لنا بإجرائها، كما لم تلقَ كثيرٌ من الأعمال العظيمة في الماضي تقديرًا في عصرها). ينبع ذلك من إبداعنا المتواصل وذاكرتنا الثقافية التراكمية بشكلٍ مذهل، ففي متناول يدينا كل أعمال العباقرة الذين سبقونا، إضافةً إلى عباقرة عصرنا، في حين أنَّ من سبقونا لم يكُن لديهم هذه ولا تلك، والأفضل من ذلك أنَّ ميراث العالم الثقافي ليس متاحًا الآن للأغنياء والمقيمين في المواقع الجيدة فحسب، بل لأي شخصٍ متصل بشبكة المعرفة الشاسعة، أي لأغلب البشرية، بل وقريبًا كلها.

الفصل الثامن عشر:
السعادة

ولكن هل نحن أسعد الآن؟ لا بد أن نكون أسعد لو كان عندنا بذرة امتنان للكون. كان لدى المواطن الأمريكي في عام 2015 تسع سنوات إضافية في حياته مقارنةً بمن سبقوه بنصف قرن ، وحظى بثلاث سنوات إضافية من التعليم، ويجني 33 ألف دولارٍ إضافي سنويًّا لكل فرد من أفراد الأسرة (لا يُنفق سوى ثُلثها على الضروريات، بدلًا من نصفها)، ويتمتع بثماني ساعات إضافية من وقت الفراغ أسبوعيًّا، ويمكنه أن يقضي وقت الفراغ في القراءة على الإنترنت، أو الاستماع إلى الموسيقى عبر الهاتف الذكي، أو مشاهدة الأفلام على شاشات التليفزيون عالية الجودة، أو التحدث مع الأصدقاء أو الأقرباء عبر برنامج سكايب، أو تناول الطعام التايلندي بدلًا من شرائح لحم الخنزير المقلية.

ولكن، إذا كانت الانطباعات الشائعة دليلًا على شيء، فإنَّ الأمريكيين اليوم ليسوا أسعد بمقدار الضعف ونصف الضعف (كما كانوا سيصبحون لو كانت السعادة تتبع الدخل) أو بمقدار الثُلث (لو كانت تتبع التعليم) أو حتى بمقدار الثُمن (لو كانت تتبع طول العمر). يبدو أنَّ الناس يشكون ويتأوهون ويتأففون ويعترضون ويتذمرون مثلما كانوا يفعلون دائمًا، فقد ظلَّت نسبة الأمريكيين الذين يخبرون مستطلعي الآراء بأنَّهم سعداء ثابتةً طيلة عقود. انتبهت الثقافة الشعبية إلى هذا الجحود في شكل «الميمز» على الإنترنت و«هاشتاج» #firstworldproblems (أي مشاكل دول العالم الأول) على تويتر وحوار الكوميديان لوي سي كي (Louis C.K.) المشهور بعبارة «كل شيء رائع ولا أحد سعيد» الذي يقول فيه:

> عندما أقرأ عبارات مثل «إنَّ أسس الرأسمالية تتحطَّم»، أقول ربما نحتاج إلى بعض الوقت الذي نتجول خلاله ممتطين حمارًا على جانبيه بعض القدور التي ترتطم بعضها ببعض.. لأنَّنا الآن نعيش في عالمٍ مذهل، وهو مُهدرٌ على أسوأ جيلٍ، فهو مليء بالحمقى المدلَّلين..
>
> كنتُ على متن طائرة وكان بها إنترنت عالي السرعة، وكان هذا أحدث ما رأيته، وكان سريعًا، وكنتُ أشاهد مقاطع فيديوهات على يوتيوب، وكان الوضع مذهلًا، ثم تعطَّل واعتذر الطاقم، فقال الرجل الجالس جواري «أُف! هذه سخافة!» بهذه السرعة أصبح العالم مدينًا له بشيء لم يكُن يعرف بوجوده قبل عشر ثوانٍ! والطيران أسوأ مثال، لأنَّ الناس يعودون من رحلاتهم بالطائرات ثم يخبرونك بقصتهم.. فيقولون: «كان اليوم أسوأ أيام حياتي.. صعدنا على متن الطائرة وظللنا جالسين منتظرين في المدرج أربعين دقيقة».. حقًّا؟ وماذا حدث بعد ذلك؟ هل طرتم في الهواء كالطير؟ هل حلَّقتم بين السحب؟ هل شاركتم في معجزة طيران الإنسان؟ ثم هبطتم بسلاسةٍ بعجلاتٍ عملاقة لا تستطيعون تصور كيفية وضع الهواء بداخلها؟.. إنَّكم تجلسون على كرسي في السماء، كأنَّكم في أسطورة إغريقية!.. ويقول الناس إنَّ هناك تأخيرًا في الرحلات؟.. وأنَّ الطيران جوًّا بطيء؟ من نيويورك إلى كاليفورنيا في خمس ساعات، كانت هذه الرحلة تستغرق ثلاثين سنة! وكان بعض الناس يموتون في الطريق، وربما كنت ستُصاب بسهمٍ في عنقك، وكان الآخرون سيدفنونك ويضعون عصا فوق مدفنك ويضعون عليها قبعتك ثم يواصلون مسيرتهم.. لو علم الأخوان رايت ما يحدث لضربونا جميعًا بين أرجلنا!

كتب جون مولر (John Mueller) في عام 1999 ملخِّصًا الفهم الشائع للحداثة في ذلك الوقت قائلًا: «يبدو أنَّ الناس قد تقبَّلوا التحسُّن الاقتصادي الملحوظ واستطاعوا بمهارةٍ العثور على مخاوف جديدة تزعجهم، إذًا فبصورةٍ ما، الأمور لا تتحسَّن مطلقًا». كان هذا الفهم قائمًا على أكثر من الانطباعات عن الوعكة الأمريكية فقط، ففي عام 1973 توصَّل الاقتصادي ريتشارد إيسترلن (Richard Easterlin) إلى مفارقةٍ سُميت تيمنًا به، إذ رغم أنَّه عند إجراء المقارنة *داخل* دولة واحدة نجد أنَّ الأشخاص الأغنى أسعد، إلَّا أنَّه عند المقارنة بين *مختلف الدول* نجد أنَّ الأشخاص الأغنى يبدو أنَّهم ليسوا أسعد من الأفقر، وعند المقارنة بين *مختلف الأزمنة* نجد أنَّ الناس لم يصبحوا أسعد عندما أصبحت دولهم أغنى.

فسَّرت اثنتان من نظريات علم النفس مفارقة إيسترلن، وفقًا لنظرية ثبات مستوى السعادة (أو «مشاية السعادة» – Hedonic Treadmill) فإنَّ الأشخاص يتأقلمون مع التغيرات التي تطرأ عليهم كما تعتاد العيون على الضوء أو الظلام، ويعودون سريعًا إلى مستوى القاعدة الذي حددته لهم العوامل الوراثية. ووفقًا لنظرية المقارنة الاجتماعية (أو المجموعات المرجعية أو القلق بشأن السعي إلى المكانة الاجتماعية أو الحرمان النسبي، الذي نظرنا فيه في الفصل التاسع)، فإنَّ سعادة الأشخاص تتحدَّد بمدى حُسن حالهم في رأيهم مقارنةً بأقرانهم، لذا فعندما تزداد الدولة بأكملها غنى، لا يشعر أحد بالمزيد من السعادة، فإذا انخفض معدل المساواة في بلدهم، فربما يسوء شعورهم حتى إذا ازدادوا غنى.

إذا كانت الأمور لا تتحسن مطلقًا بهذا المعنى، فيمكن للمرء التساؤل عما إذا كان كل ذلك التقدم الاقتصادي والطبي والتكنولوجي المزعوم ذا جدوى. ويقول الكثيرون إنَّه ليس ذا جدوى، ويقولون إنَّ كلًّا من زيادة النزعة الفردانية والمادية والاستهلاكية والثروة السفيهة، و تآكل المجتمعات التقليدية ذات الروابط الاجتماعية الحميمة والإحساس بالمعنى والغاية التي يمنحهم الدين إياها، أدى إلى إفقارنا روحانيًّا. ونقرأ كثيرًا أنَّ هذا هو السبب في ارتفاع معدلات الاكتئاب والقلق والوحدة والانتحار ارتفاعًا بالغًا وفي اشتهار السويد –تلك الجنة العلمانية– بمعدلات مرتفعة من الانتحار. شنَّ الناشط جورج مونبيوت (George Monbiot) حملةً كحملات المتشائمين القديمة فيما يخص الثقافة ضد الحداثة في مقال رأي بعنوان «**النيوليبرالية تؤدي إلى الوحدة وهذا ما يمزق المجتمع**» (Neoliberalism Is Creating Loneliness. That's What's Wrenching Society Apart) ، وكان شعارها: «وباء الأمراض النفسية يحطِّم عقول وأجسام الملايين، وآن الأوان أن نسأل إلى أين نحن متجهون ولماذا». وحذَّر المقال نفسه قائلًا: «تعكس أحدث الأرقام المأساوية الدالة على صحة الأطفال النفسية في إنجلترا أزمةً عالمية».

إذا كانت كل تلك السنوات الإضافية من الحياة والصحة، وكل تلك المعرفة الإضافية ووقت الفراغ الإضافي واتساع نطاق التجربة، وكل تلك التطورات في السلام والأمان والديمقراطية والحقوق، لم تجعلنا أسعد حقًّا وإنَّما جعلتنا أكثر شعورًا بالوحدة وميلًا إلى الانتحار، فسيكون هذا أكبر مقلب لعبه التاريخ على البشرية. ولكن قبل أن نبدأ في التجول على ظهر حمارٍ على جانبيه بعض القدور التي ترتطم بعضها ببعض، من الأفضل أن ننظر عن كثبٍ في الحقائق الخاصة بسعادة البشر.

تأمَّل المفكِّرون، منذ العصر المحوري على الأقل، فيما يشكِّل حياةً جيدة، وأصبحت السعادة اليوم موضوعًا مهمًّا في العلوم الاجتماعية، ويشعر بعض المثقَّفون بالارتياب، بل وبالإهانة، من أنَّ السعادة أصبحت موضوع دراسة الاقتصاديين بدلًا من الشعراء والفلاسفة وكُتَّاب

المقالات، ولكنَّ مناهجهم ليست متعارضة. ينطلق علماء الاجتماعيات في دراساتهم للسعادة غالبًا من أفكارٍ كانت في الأصل من تصور الفنانين والفلاسفة، ويمكنهم طرح أسئلة عن الأنماط التاريخية والعالمية لا يمكن أن يجيب التفكُّر المنفرد وحده عنها، مهما كان متبصرًا، وينطبق هذا بصورةٍ خاصةٍ على السؤال عما إذا كان التقدُّم قد جعل الناس أسعد أم لا. للإجابة عن هذا السؤال، علينا أولًا أن نُهدِّئ من ارتياب المعارضين من احتمالية قياس السعادة من الأساس.

يتفق كلٌّ من الفنانين والفلاسفة وعلماء الاجتماعيات على أنَّ الرفاهة ليست بُعدًا واحدًا، فقد يكون الناس أفضل حالًا في بعض الجوانب وأسوأ حالًا في جوانب أخرى. لنفرِّق بين الجوانب الكبرى.

يمكن أن نبدأ بالجوانب الموضوعية من الرفاهة، مثل الهدايا التي نعتبرها قيِّمة في ذاتها سواء أكان مالكوها يقدِّرونها أم لا، وتتصدر تلك القائمة الحياة نفسها، وتشمل القائمة أيضًا الصحة والتعليم ووقت الفراغ والحرية. هذه هي العقلية التي ينطلق منها نقد لوي سي كي الاجتماعي، والتي ينطلق منها جزئيًّا تصور أمارتيا سن ومارثا نوسبام للقدرات البشرية الأساسية. يمكن أن نقول إنَّ الأشخاص الذين يعيشون حياة طويلة ويتمتعون فيها بصحة جيدة وحماس أفضل حالًا حقًّا حتى لو كان مزاجهم حزينًا أو سيئًا، أو لو كانوا حمقى مدلَّلين ولم يحصوا النعم التي يتمتَّعون بها. من أسباب هذه النزعة الأبوية الواضحة أنَّ الحياة والصحة والحرية من المقتضيات الضرورية المسبقة لكل شيء آخر، بما يشمل فعل التأمُّل في الأشياء التي تمثِّل قيِّمًا في الحياة، ولذا فهذه الأمور قيِّمة بطبيعتها، ومنها أيضًا أنَّ الأشخاص الذين يتمتَّعون برفاهية عدم تقدير حظهم الجيد يشكِّلون عينة متحيزة من الناجين المحظوظين. إذا كان بوسعنا استطلاع آراء أرواح الأطفال والأمهات الميتين وضحايا الحروب والمجاعات والأمراض، أو إذا عدنا بالزمن وقدمنا لهم الخيار بين أن يواصلوا حياتهم في العالم الحديث أو عالم ما قبل الحداثة، ربما نكشف عن تقديرٍ للحداثة أكثر تناسبًا مع مزاياها الموضوعية. تناولت الفصول السابقة هذه الأبعاد من أبعاد الرفاهة، وصدر الحكم بشأن ما إذا كانت قد تحسَّنت بمرور الوقت أم لا.

من بين هذه الخيرات الجوهرية الحرية أو الاستقلالية، أي إتاحة الخيارات في عيش حياة جيدة (الحرية الإيجابية) وغياب الإجبار الذي يمنع الشخص من اختيار أحد هذه الخيارات (الحرية السلبية). أشار أمارتيا سن إلى هذه القيمة في عنوان كتابه عن الهدف الأقصى من تنمية الأمم: *التنمية حرية*. ترتبط الحرية الإيجابية بتصور الاقتصادي للمرافق (ما يريده الناس وما ينفقون عليه ثروتهم) وترتبط الحرية السلبية بتصور عالم السياسة للديمقراطية وحقوق الإنسان. كما ذكرت سابقًا فإنَّ الحرية (إلى جانب الحياة والمنطق) شرطٌ مسبقٌ لتقييم الأمور الجيدة في الحياة، وما لم نكُن نرثي مصيرنا أو نحتفي به بأسلوبٍ عاجز، فإنَّنا حين نقيِّم حالتنا نفترض مسبقًا أنَّ الناس في الماضي كانوا سيختارون اختيارًا آخر، وعندما نسأل إلى أين علينا أن نتوجه فإنَّنا نفترض مسبقًا أنَّ أمامنا خيارًا فيما ننشده، ولهذه الأسباب فإنَّ الحرية قيِّمة بطبيعتها.

الحرية مستقلة نظريًّا عن السعادة، فالناس قد يستسلمون لمغريات مهلكة، أو يشتهون متعًا ضارة بهم، أو يندمون على اختياراتهم في اليوم التالي، أو يتجاهلون النصيحة بالحذر مما يتمنون حدوثه. أمَّا عمليًّا فالحرية تلازم الأمور الجيدة الأخرى في الحياة، سواء أكان تقييمها موضوعيًّا من خلال مؤشر الديمقراطية لدولةٍ بأكملها، أو ذاتيًّا من خلال تقدير الأشخاص أنفسهم ما إذا كانوا يشعرون بأنَّ لديهم «حرية الاختيار والتحكم في حياتهم»، ومن ثمّ فإنّ مستوى السعادة في دولةٍ ما يرتبط بمستوى الحرية فيها. يخص الناس الحرية بالذكر بوصفها أحد مقومات الحياة الهادفة *ذات المعنى* سواء أكانت تؤدي إلى حياة سعيدة أم لا، فربما يكون لديهم بعض الأمور التي يندمون عليها وربما يتعرَّضون لبعض المصاعب، ولكنَّهم يعيشون الحياة بطريقتهم، كما قال فرانك سيناترا (Frank Sinatra). بل قد

يفضِّل الناس الاستقلالية على السعادة، فكثيرٌ ممَّن خاضوا تجربة الطلاق المؤلمة على سبيل المثال لن يختاروا العودة بالزمن إلى الوقت الذي كان يرتِّب الآباء فيه زواج أبنائهم وبناتهم بشكلٍ تقليدي.

ماذا عن السعادة نفسها؟ كيف يمكن للعلماء قياس شيء موضوعي كالرفاهة الشخصية؟ أفضل طريقة لمعرفة مدى سعادة الناس هي سؤالهم، فمن يستطيع تقييم الأمر أفضل منهم؟ تظهر الممثلة جيلدا رادنر (Gilda Radner) في سكتش قديم من برنامج *(Saturday Night Live)* في حوار بعد علاقة جنسية مع شريكها المتوتر –الذي قام بدوره تشيفي تشيس (Chevy Chase)– وهو قلق بشأن عدم وصولها للنشوة الجنسية فتواسيه قائلةً: «أحياناً أصل إلى النشوة الجنسية ولا أشعر بها». نضحك لأن صاحبة التجربة الذاتية لديها السلطة العليا فيما يخص تجربتها. ولكن ليس علينا أن نسلِّم بما يقوله الناس وحسب، يبدو أنَّ الإقرار الذاتي بالرفاهة يرتبط بكل الأشياء الأخرى التي نرى أنَّها تشير إلى السعادة مثل الابتسامات والسلوك المبتهج والنشاط في أجزاء المخ التي تستجيب إلى الأطفال اللطفاء وأحكام الآخرين بصرف النظر عن جيلدا وتشيفي.

للسعادة جانبان، جانب تجريبي أو شعوري وجانب تقييمي أو معرفي. يتكون العنصر التجريبي من توازنٍ بين العواطف الإيجابية مثل النشوة والانبساط والزهو والبهجة، والعواطف السلبية مثل القلق والغضب والحزن. ويستطيع العلماء معاينة هذه التجارب فور حدوثها عن طريق ارتداء بعض الأشخاص جهاز تنبيه ينطلق في أوقاتٍ عشوائية ويحثهم على الإشارة إلى شعورهم، ويكون المقياس النهائي للسعادة عبارة عن حاصل تكاملي أو مرجح على مدى الحياة لشعور الأشخاص السعداء وكم من الوقت يدوم هذا الشعور. رغم أنَّ معاينة التجارب هي الطريقة الأكثر مباشرةً لتقييم الرفاهة الموضوعية، إلَّا أنَّها شاقة ومكلِّفة، ولا توجد مجموعات بيانات جيدة تقارن بين أشخاص في بلدان مختلفة أو تتتبَّعهم على مدار سنوات، والحل الأفضل بعد ذلك هو سؤال الأشخاص عن شعورهم في وقت السؤال أو عن شعورهم خلال اليوم أو الأسبوع السابق حسب ما يتذكَّرون.

ويقودنا هذا إلى الجانب الآخر من الرفاهة، وهو *تقييم* الأشخاص لطريقة حياتهم. يمكن أن نطلب من الأشخاص أن يتفكَّروا في مدى الرضا الذي يشعرون به «هذه الأيام» أو «عمومًا» أو «بالنظر إلى كل الأمور»، أو أن يصدروا حكمهم الفلسفي على مكانهم من 1 إلى 10، إذ تعبِّر 1 عن «أسوأ حياة ممكنة في رأيك» وتعبِّر 10 عن «أفضل حياة ممكنة في رأيك». يجد الناس هذه الأسئلة صعبة (ولا عجب من ذلك، بما أنَّها صعبة بالفعل)، وربما تكون إجاباتهم متأثرة بالطقس أو حالتهم المزاجية الحالية أو السؤال السابق الذي طُرِح عليهم (فقد يكون للأسئلة الموجهة للطلاب الجامعيين عن حياتهم العاطفية أو الموجهة لأي شخصٍ عن السياسة أثرٌ كئيب بالتأكيد). سلَّم علماء الاجتماعيات بحقيقة أنَّ صورة السعادة والرضا ومفهوم أفضل حياة ممكنة وأسوأ حياة ممكنة ضبابية في أذهان الناس وأنَّ حساب متوسطها جميعًا معًا يكون أسهل غالبًا.

ترتبط العواطف بالتقييمات بالطبع وإن كان ارتباطًا غير كامل، فوفرة السعادة تشكِّل حياةً أفضل، ولكنَّ غياب القلق والحزن لا يؤدي إلى ذلك. ويقودنا هذا إلى البُعد الأخير من أبعاد الحياة الجيدة، وهو المعنى والغاية، وهذه هي الخاصية التي تمثِّل –إلى جانب السعادة– الصورة الأرسطية *اليودايمونيا* أو «الروح الجيدة»، فالسعادة ليست كل شيء، إذ يمكن أن نتخذ خيارات تجعلنا غير سعداء على المدى القريب ولكنَّها تشعرنا بالرضا على مدى الحياة، مثل تربية طفلٍ أو تأليف كتابٍ أو الدفاع عن قضيةٍ مهمة.

رغم أنَّه لا يوجد إنسان يستطيع تحديد ما يجعل الحياة ذات معنى *حقًّا*، إلَّا أنَّ عالم النفس روي باوميستر (Roy Baumeister) وزملاءه بحثوا عمَّا يجعل الناس *يشعرون* بأنَّ حياتهم ذات معنى. قيَّم المشاركون على حدة إلى أي مدى حياتهم سعيدة

وذات معنى، وأجابوا عن قائمةٍ طويلة من الأسئلة عن أفكارهم وأنشطتهم وظروفهم، وتشير النتائج إلى أنَّ كثيرًا من الأمور التي تجعل الناس سعداء تجعل حياتهم ذات معنى أيضًا، مثل التواصل مع الآخرين والشعور بالإنتاجية وعدم الشعور بالوحدة أو الملل، ولكنَّ هناك أمورًا أخرى قد تزيد حياة الناس سعادةً دون أن تجعلها ذات معنى أكبر أو أقل.

تكون جميع احتياجات الأشخاص الذين يعيشون حياة سعيدة، وإن لم تكُن بالضرورة ذات معنى، ملبَّاة، فيتمتَّعون بصحةٍ جيدة ويمتلكون ما يكفي من المال ويشعرون بارتياح لفتراتٍ كثيرة من الوقت، أمَّا الأشخاص الذين يعيشون حياة ذات معنى فربما لا يتمتَّعون بأيٍّ من هذه النعم. يعيش الأشخاص السعداء في الحاضر، في حين تكون لدى أصحاب الحياة ذات المعنى قصة عن ماضيهم وخطة لمستقبلهم. إنَّ من يعيشون حياة سعيدة ولكن لا معنى لها منتفعون ومتلقون، ومن يعيشون حياة ذات معنى ولكنَّها غير سعيدة مُحسِنون ومعطاؤون. يجد الآباء المعنى في أطفالهم، ولكنَّهم لا يجدون فيهم السعادة بالضرورة. الوقت الذي نقضيه مع أصدقائنا يجعل حياتنا أسعد، والوقت الذي نقضيه مع أحبابنا يجعل حياتنا ذات معنى أكبر، والضغط والقلق والجدالات والتحديات والصراعات تجعل الحياة أقل سعادةً ولكن ذات معنى أكبر. لا يعني ذلك أنَّ أصحاب الحياة ذات المعنى يبحثون بمازوخيةٍ عن المتاعب، ولكنَّه يعني أنَّهم يسعون وراء أهداف طموحة، «ما كل ما يتمنى المرء يدركه، تجري الرياح بما لا تشتهي السفن». وأخيرًا فإنَّ المعنى يتعلَّق بالتعبير وليس بإرضاء النفس، فهو يزداد بالأنشطة التي تحدِّد هوية الشخص وتبني سمعته.

يمكننا أن ننظر إلى السعادة بوصفها نتاج نظام بيولوجي قديم للتغذية الراجعة يتتبع مدى التقدم الذي نحرزه في سعينا وراء علامات مبشِّرة بتوافقنا مع البيئة الطبيعية، فنكون أسعد عمومًا عندما نتمتع بالصحة والراحة والأمان والمؤَن والتواصل الاجتماعي والجنس والحب. إنّ وظيفة السعادة هي أن تحثَّنا على البحث عن مفاتيح هذا التوافق، فحينما نكون تعساء، نتدافع وراء الأمور التي ستزيد نصيبنا من السعادة، وحينما نكون سعداء، نقدِّر الوضع القائم. أمَّا المعنى، فعلى العكس، يسجِّل الأهداف الجديدة والمتوسعة التي تتاح أمامنا بوصفنا الكائنات الاجتماعية الذكية المفكِّرة المتكلِّمة التي تشغل مجال الإدراك المقتصر على البشر. نحن نفكِّر في الأهداف المتأصلة في الماضي السحيق والتي تمتد إلى المستقبل البعيد، والتي تؤثر في أشخاصٍ خارج دوائر معارفنا، والتي لا بد أن يوافق عليها الآخرون استجابةً إلى قدرتنا على إقناعهم بقيمتها وإلى اشتهارنا بالإحسان والفعالية.

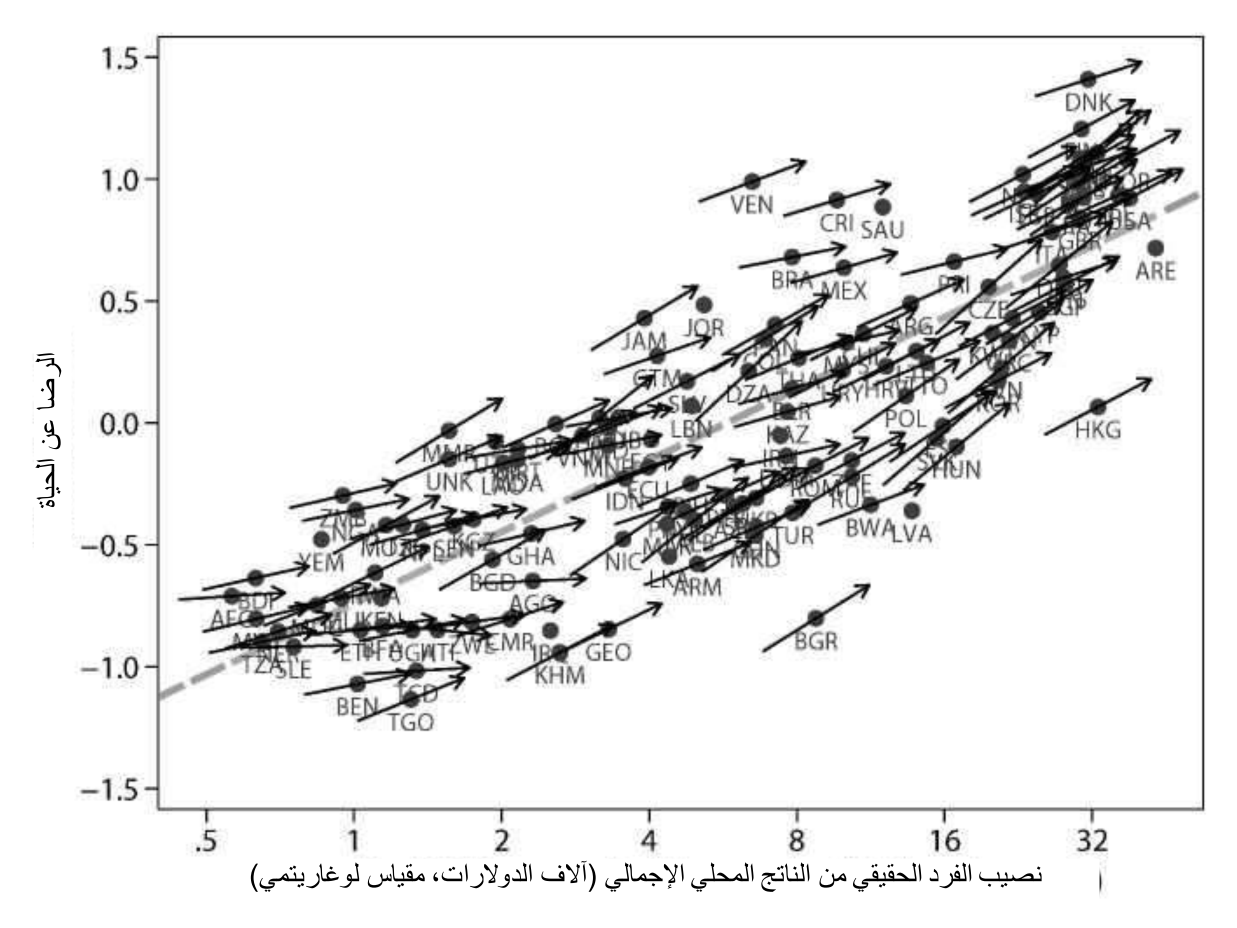
تقتضي محدودية دور السعادة في نفسية البشر ألا يكون هدف التقدُّم هو زيادة السعادة إلى ما لا نهاية على أمل أن يصبح عددٌ أكبر من الأشخاص أكثر ابتهاجًا، ولكنَّ هناك كثيرًا من التعاسة التي يمكن الحد منها، ولا حد لما يمكن أن تصل إليه حياتنا من حيث المعنى والغاية.

لنتفق على أنَّ مواطني الدول المتقدِّمة ليسوا سعداءَ كما يفترض أن يكونوا بالنظر إلى التقدُّم الرائع في حظهم وحريتهم، ولكن، هل لم يصبحوا أسعد على الإطلاق؟ هل أصبحت حياتهم فارغة لدرجة أنَّهم يختارون إنهاءها بأعدادٍ قياسية؟ هل يعانون انتشار وباء الوحدة في تحدٍّ للعدد المهول من فرص التواصل مع الآخرين؟ هل أعجز الاكتئاب والأمراض النفسية الجيل الأصغر، بما ينذر بشؤم على مستقبلنا؟ إجابة كلٍّ من هذه الأسئلة، كما سنرى، (لا) قاطعة.

تُعد التصريحات دون دليلٍ عن شقاء البشرية من المخاطر المهنية في عمل الناقد الاجتماعي، وقد كتب هنري ديفيد ثوريو

(Henry David Thoreau) في كتابه الكلاسيكي *Walden* عام 1854: «يعيش جموع البشر حياة تتَّسم باليأس الساكن»، ولم يتَّضح لنا مطلقًا كيف يمكن لشخصٍ يعيش منعزلًا في مقصورة مطلة على بركة أن يعرف هذا، ويختلف معه جموع البشر. يقول ستة وثمانون في المئة ممن سُئِلوا عن سعادتهم في مسح القيم العالمية إنَّهم «سعداء إلى حدٍّ ما» أو «سعداء للغاية» ورأى متوسط المشاركين في *تقرير السعادة العالمي لعام 2016* الذي شمل 150 دولة أنَّ حياتهم تندرج تحت النصف الأعلى من بين المراتب المعبِّرة عن التصنيف من الأسوأ إلى الأفضل. كان ثوريو ضحية فجوة التفاؤل (أي وهم «أنا بخير، أمَّا هُم فلا») والتي تشبه واديًا عميقًا وليس فجوةً في حالة السعادة، ففي كل دولةٍ يقلِّل الناس من نسبة المواطنين الآخرين الذين يقولون إنَّهم سعداء، بمتوسط 42 نقطة مئوية.

ماذا عن المسار التاريخي؟ توصَّل إيسترلن إلى المفارقة المثيرة للاهتمام في عام 1973 أي قبل حقبة البيانات الضخمة بعقودٍ، أمَّا اليوم فلدينا المزيد من الأدلة على الثروة والسعادة التي توضِّح عدم وجود مفارقة إيسترلن، إذ ليس الأشخاص الأغنى في دولةٍ ما أسعد فحسب، بل إنَّ الأشخاص في الدول الأغنى أسعد، وكلَّما ازدادت الدول غنى بمرور الوقت، ازدادت شعوبها سعادةً. جاء هذا الفهم الجديد من عدة تحليلات مستقلة، بما فيها تلك التي أجراها كلٌّ من آنجس ديتون (Angus Deaton) ومسح القيم العالمية و*تقرير السعادة العالمي لعام 2016*، وتحليلي المفضل هو تحليل الاقتصاديين بيتسي ستيفنسون (Betsy Stevenson) وجاستن وولفرز (Justin Wolfers) ويمكننا تلخيصه في رسمٍ بياني. يوضِّح الشكل رقم 18-1 تقييم مستوى الرضا عن الحياة في مقابل متوسط الدخل (على مقياس لوغاريتمي) في 131 دولة، تمثِّل كلًّا منها نقطةٌ، إضافةً إلى علاقة الرضا عن الحياة بالدخل لدى مواطني كل دولة ويمثِّلها سهمٌ يخترق النقطة.



الشكل رقم 18- 1: مستوى الرضا عن الحياة والدخل، 2006

المصدر: Stevenson & Wolfers 2008a, fig. 11K استنادًا إلى بيانات من استطلاع جالوب العالمي لعام 2006 (Gallup World Poll 2006).

حقوق الصورة: بيتسي ستيفنسون وجاستن وولفرز.

تتَّضح عدة أنماط من الرسم، وأبرزها غياب مفارقة إيسترلن بين الدول، إذ تمتد مجموعة الأسهم على طول الخط القطري المائل مما يشير إلى أنَّه كلما كانت الدولة أغنى، كان شعبها أسعد. تذكَّر أنَّ مقياس الدخل لوغاريتمي، أمَّا لو كان بمقياس خطي معياري لكانت مجموعة الأسهم نفسها ارتفعت ارتفاعًا حادًا من الطرف الأيسر ثم تنثني ناحية الطرف الأيمن، ويعني هذا أنَّ أي أموالٍ إضافية تزيد سعادة سكان الدول الفقيرة أكثر من سعادة سكان الدول الغنية، وكلَّما كانت الدولة أغنى، احتاج شعبها إلى المزيد من الأموال ليصبحوا أسعد (وهذا أحد أسباب ظهور مفارقة إيسترلن في المقام الأول، فمع كثرة بيانات تلك الحقبة، كان من الصعب ملاحظة الارتفاع الطفيف في الطرف الأعلى من مقياس الدخل). ولكنَّ الخط على أيٍّ من المقياسين لا يستوي مطلقًا كما كان سيحدث لو كان الناس لا يحتاجون سوى إلى الحد الأدنى من الدخل لتلبية احتياجاتهم الأساسية وأي مبالغ إضافية لا تجعلهم أسعد. وفيما يخص السعادة فقد كانت واليس سيمسون (Wallis Simpson) محقة نوعًا ما عندما قالت: «لا يمكن أن تكون غنيًّا أكثر من اللازم أو نحيفًا أكثر من اللازم».

ومن المدهش أنَّ الأسهم متشابهة في انحرافها ومطابقة لانحراف سِرب الأسهم بأكمله (الخط الرمادي المتقطع المتواري خلف السِرب)، ويعني ذلك أنَّ أي علاوة لأي شخصٍ مقارنةً بأقرانه تضيف إلى سعادته بقدر ما تفعل الزيادة نفسها في الدولة كلها. يشكِّك ذلك في الفكرة القائلة إنَّ الناس يكونون سعداء أو تعساء فقط في حالة المقارنة مع جيرانهم الأثرياء. الأمر المهم فيما يخص السعادة هو الدخل المطلق وليس الدخل النسبي (وهو استنتاج متسق مع النتيجة التي ناقشها الفصل التاسع بخصوص عدم ارتباط انعدام المساواة بالسعادة)، وهذه من بين عددٍ من النتائج التي تُضعِف من الاعتقاد القديم بأنَّ السعادة تتأقلم مع الظروف المحيطة كما تفعل العين، فتعود إلى نقطةٍ ثابتة أو تظل ساكنة بينما يسيرون على «مشاية السعادة» دون أن يتقدموا خطوةً واحدة إلى الأمام. رغم أنَّ الناس يتعافون غالبًا من انتكاساتهم ويستعيدون حظهم، إلَّا أنَّ سعادتهم تتلقى ضربةً بسيطة من تجاربٍ مثل البطالة أو الإعاقة، وتتلقى دافعًا من الهدايا مثل الزواج الناجح أو الهجرة إلى دولةٍ بها سعادة أكثر، وعلى عكس الاعتقاد السابق فإنَّ فوز الشخص باليانصيب يجعله بالفعل أسعد على المدى البعيد.

بما أنَّنا نعرف أنَّ الدول تزداد غنى بمرور الوقت (الفصل الثامن)، فإنّ بإمكاننا أن ننظر إلى الشكل رقم 18-1 كأنَّه لقطة مجمدة في فيلمٍ يتكرر فيها تمتع البشر *بالمزيد من السعادة* بمرور الوقت، وهذه الزيادة في السعادة مؤشر آخر على تقدُّم البشر ومن بين أهم المؤشرات على الإطلاق. ليست هذه اللقطة بالطبع سجلًّا زمنيًّا طوليًّا فعليًّا يسجِّل استطلاعات آراء الأشخاص حول العالم لمدة قرونٍ ويرسم مستويات سعادتهم بمرور الوقت، فبياناتٍ كهذه غير موجودة من الأساس، ولكنَّ ستيفنسون ووولفرز قتلا المؤلفات بحثًا عن الدراسات الطولية الموجودة، ووجدا أنَّ السعادة في ثمانية من بين تسع دول أوروبية زادت بين عامي 1973 و2009 بالتزامن مع زيادة نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي فيها، ويؤكِّد هذا في العالم بأكمله مسح القيم العالمية، الذي وجد أنَّ السعادة زادت بين عامي 1981 و2007 في خمسٍ وأربعين دولة من بين اثنتين وخمسين دولة. طوت هذه الاتجاهات بمرور الوقت صفحة مفارقة إيسترلن، فنحن نعرف الآن أنَّ الأشخاص الأغنى في دولةٍ ما أسعد وأنَّ الدول الأغنى أسعد وأنَّ الأشخاص يزدادون سعادةً كلَّما ازدادت دولهم غنى (ممَّا يعني أنَّ الأشخاص يزدادون سعادةً بمرور الوقت).

تعتمد السعادة بالتأكيد على ما هو أكثر من الدخل، وينطبق هذا على الأفراد، الذين يختلفون في تاريخ حياتهم وطباعهم الفطرية، وكذلك على الدول التي تختلف بعضها عن بعض أيضًا، كما نرى من النقاط المبعثرة حول الخط الرمادي في الرسم البياني. تكون الدول أسعد عندما يتمتع شعبها بصحةٍ أفضل (مع ثبات عامل الدخل) وتكون أسعد كما ذكرت عندما يشعر مواطنوها بتمتُّعهم بحرية اختيار ما يريدون فعله في حياتهم. الثقافة والجغرافيا مهمتان أيضًا، والصورة النمطية المعروفة حقيقية، فدول أمريكا اللاتينية أسعد ممَّا ينبغي بالنظر إلى دخلها، ودول أوروبا الشرقية الشيوعية سابقًا أقل سعادةً. وجد *تقرير السعادة العالمي لعام 2016* ثلاث سمات أخرى تلازم السعادة على المستوى الوطني، وهي: الدعم الاجتماعي (أي إذا ما كان الأشخاص يقولون إنَّ لديهم أصدقاء أو أقرباء يمكنهم الاعتماد عليهم في وقت الضيق)، والكرم (أي إذا ما كانوا يتصدَّقون بأموالهم)، والفساد (أي إذا ما كانوا يرون أنَّ الأعمال في بلدهم فاسدة). ولكن لا يمكننا أن نستنتج أنَّ هذه السمات تؤدي إلى المزيد من السعادة، وأحد الأسباب أنَّ السعداء يرون العالم بعدساتٍ وردية، وقد يقدِّرون الأمور الجيدة في حياتهم ومجتمعاتهم بأكبر من حقيقتها، والسبب الآخر أنَّ السعادة تنبع من الداخل، فكون المرء سعيدًا يجعله داعمًا وكريمًا ويقظ الضمير وليس العكس.

تعدّ الولايات المتحدة من بين الدول التي تحقِّق معدّل سعادةٍ أقلّ مما يتناسب مع ثروتها، ليس الأمريكيون تعساء على الإطلاق، إذ يقيِّم 90 في المئة منهم تقريبًا أنفسهم على الأقل بأنَّهم «سعداء للغاية» ويقيِّم ثُلثهم تقريبًا أنفسهم بأنَّهم «سعداء جدًّا»، وعندما يُطلب منهم تقييم حياتهم على مقياس من 1 (أسوأ حياة ممكنة) إلى 10 (أفضل حياة ممكنة)، يختارون 7، ولكنَّ الولايات المتحدة جاءت في عام 2015 في المرتبة الثالثة عشرة بين دول العالم (بعد ثماني دول في غرب أوروبا وثلاث دول في الكومنولث وإسرائيل) رغم أنَّ متوسط دخلها كان أعلى من هذه الدول جميعًا باستثناء النرويج وسويسرا (جاءت المملكة المتحدة، التي يختار مواطنوها 6.7 على مقياس مستوى الحياة، في المرتبة الثالثة والعشرين).

لم تزدَد الولايات المتحدة سعادةً على نحوٍ منتظم على مدار السنوات (وهي خدعة أخرى أدت إلى الإعلان عن أثر إيسترلن مبكِّرًا، لأنَّ الولايات المتحدة هي أيضًا الدولة التي لديها أقدم بيانات عن السعادة)، تقلَّبت مستويات السعادة في نطاقٍ ضيق منذ عام 1947، منحرفةً استجابةً للكساد والتعافي والضوائق والفقاعات دون أي ارتفاعٍ أو انخفاضٍ ثابت. تُظهِر إحدى مجموعات البيانات تراجعًا طفيفًا في مستوى السعادة في أمريكا من عام 1955 حتى عام 1980، تلاه ارتفاعٌ حتى عام 2006، وتُظهِر مجموعةٌ أخرى تراجعًا طفيفًا في نسبة الأشخاص الذين يقولون إنَّهم «سعداء جدًّا» بدءًا من عام 1972 (رغم أنَّ مجموع من يقولون إنَّهم «سعداء جدًّا» ومن يقولون إنَّهم «سعداء للغاية» لم يتغيَّر).

لا تنفي حالة ركود السعادة الأمريكية الاتجاه العالمي الذي تزداد فيه السعادة مع الثروة، لأنَّنا حين ننظر إلى التغيُّرات في دولةٍ غنيةٍ على مدار بضعة عقود، نرى نطاقًا محدودًا من المقياس، فكما يشير ديتون، فإنّ الاتجاه الذي يكون واضحًا عندما تنظر إلى آثار اختلاف الدخل بين توجو والولايات المتحدة على سبيل المثال والمقدّر بخمسين ضعفًا، الذي يمثّل رُبع ألفية من النمو الاقتصادي، قد تجده مغمورًا عندما تنظر إلى آثار اختلاف الدخل في دولةٍ واحدةٍ بمقدار ضعفين على مدار عشرين عامًا من النمو الاقتصادي. وشهدت الولايات المتحدة أيضًا ارتفاعًا في مستوى انعدام المساواة في الدخل أكبر من دول غرب أوروبا (الفصل التاسع)، وقد يكون من تمتَّع بنمو ناتجها المحلي الإجمالي مجموعة صغيرة من السكان. إنَّ تخمين أسباب الاستثنائية الأمريكية وسيلة تسلية مذهلة، ولكن مهما كان السبب فإنَّ «خبراء السعادة» يتَّفقون على أنَّ الولايات المتحدة ناشز عن الاتجاه العالمي في الرفاهة الموضوعية.

من الأسباب الأخرى لصعوبة فهم اتجاهات السعادة في كل دولةٍ على حدة أنَّ الدولة عبارة عن عشرات الملايين من البشر الذين يتصادف وجودهم معًا على رقعة أرض، ومن العجب أن نجد أي أمور مشتركة بينهم عندما نحسب المتوسطات، ولا ينبغي أن نتفاجأ عندما نجد أنَّ الشرائح المختلفة من السكان تسير في اتجاهاتٍ مختلفة بمرور الوقت، وتغيِّر المتوسط أحيانًا، وتلغي بعضها بعضًا أحيانًا. يزداد الأمريكيون من أصل أفريقي سعادةً بدرجةٍ كبيرة على مدار الخمسة وثلاثين عامًا الماضية في حين انخفض مستوى سعادة الأمريكيين البيض قليلًا، وتكون النساء غالبًا أسعد من الرجال، ولكنَّ الفجوة بين الدول الغربية تقلَّصت، إذ يزداد الرجال سعادةً بمعدَّل أسرع من النساء، وانعكس الوضع في الولايات المتحدة تمامًا إذ انخفض مستوى سعادة النساء بينما ظلَّ مستوى الرجال ثابتًا نوعًا ما.

ولكنَّ الإشكال الأكبر أمام فهم الاتجاهات التاريخية هو ما صادفناه في الفصل الخامس عشر، وهو التمييز بين التغيُّرات التي تحدث على مدار دورة الحياة (السن) وروح العصر (الفترة) وعلى مدار الأجيال (الفئات العمرية)، فدون آلة زمن، يكون من المستحيل منطقيًّا فصل آثار السن والفئات العمرية والفترة عن بعضها كليًّا، فما بالك بتقاطعاتها. إذا كان الذين يبلغون من العُمر خمسين عامًا في عام 2005 على سبيل المثال تعساء، فلن نعرف ما إذا كان أفراد جيل طفرة المواليد يمرون بوقتٍ عصيب في التعامل مع منتصف العمر، أم

يمرون بوقتٍ عصيب في التعامل مع الألفية الجديدة، أم أنَّ الألفية الجديدة كانت تُمثِّل وقتًا عصيبًا للأشخاص في منتصف العمر. ولكن مع مجموعة البيانات التي تشمل عقودًا وأجيالًا متعددة، إضافةً إلى الافتراضات بشأن مدى سرعة تغيُّر الأشخاص والأزمنة، يمكن حساب متوسط النتائج الخاصة بجيلٍ ما على مدار السنوات، والخاصة بالسكان كافةً كل عام، والخاصة بالسكان في كل سنٍّ، ويمكن الخروج بتقديرات مستقلة لمسار العوامل الثلاث على مر الوقت. ويتيح لنا هذا أن نبحث عن صورتين مختلفتين للتقدُّم، فالأشخاص من كل الأعمار قد يصبحون أفضل حالًا في الفترات القريبة أو تصبح الفئات العمرية الأصغر أفضل حالًا من الكبار ممَّا يرفع مستوى سعادة السكان عندما تحل الفئات العمرية الصغيرة محل الكبيرة.

يزداد الأشخاص سعادةً كلَّما كبروا غالبًا (وهذا أثر السن)، ويرجع هذا غالبًا لأنَّهم يتغلَّبون على العقبات في بداية رحلة النضج ويكتسبون الحكمة اللازمة للتكيُّف مع الانتكاسات ولوضع حياتهم في نصابها الصحيح (ربما يمرون بأزمة منتصف العمر أو بانحدارٍ في السنوات الأخيرة من حياتهم). تتقلَّب مستويات السعادة مع تغيُّر الزمن، وخاصةً مع الاقتصاد المتغيِّر –فلا يُطلق الاقتصاديون على مركَّب معدل التضخم ومعدل البطالة اسم مؤشر البؤس دون سببٍ–وقد أخرج الأمريكيون أنفسهم للتو من الحضيض بعد الكساد الكبير.

يتَّسم النمط بين مختلف الأجيال بمراحل صعودٍ وهبوط، ففي عينتين كبيرتين كان الأمريكيون المولودون في كل العقود بدءًا من 1900 إلى 1940 يعيشون حياةً أسعد من الفئة العمرية السابقة عليهم، ربما لأنَّ الكساد الكبير ترك علامةً في حياة الأجيال التي بلغت سن الرشد في ظل تعمُّق الكساد أكثر. وقد استقرت مستويات السعادة على ارتفاعها ثم انخفضت قليلًا مع جيل طفرة المواليد وجيل إكس في بدايته، وكان الجيل الأخير كبيرًا بما يكفي ليتيح للباحثين فصل الفئة العمرية عن الفترة. وفي دراسة ثالثة مستمرة حتى الوقت الحاضر (المسح الاجتماعي العام – the General Social Survey)، انحدرت مستويات السعادة أيضًا بين أفراد جيل طفرة المواليد، ولكنَّها رجعت إلى مستوياتها بشكلٍ كامل بين أفراد الجيل إكس وجيل الألفية. إذًا فرغم أنَّ كل جيل يشعر بالأسى تجاه «الجيل الجديد»، إلَّا أنَّ الأمريكيين الصغار في الحقيقة يزدادون سعادةً (ويصبحون أقل ميلًا للعنف وتعاطي المخدرات أيضًا كما رأينا في الفصل الثاني عشر). وهكذا تكون شرائح المجتمع التي ازدادت سعادةً في وسط ركود مستويات السعادة الأمريكية هي: الأمريكيون من أصل أفريقي، والفئات العمرية المتتابعة وصولًا إلى جيل طفرة المواليد، وشباب اليوم.

يعني التشابك بين السن والفترة والفئة العمرية أنَّ كل تغيُّر تاريخي في الرفاهة معقَّد بثلاثة أضعاف ما يبدو عليه على الأقل، وبعد أخذ ذلك التنبيه في اعتبارنا، لننظر إلى الادعاءات القائلة إنَّ الحداثة أدَّت إلى تفشي أوبئة الوحدة والانتحار والأمراض النفسية.

يقول مراقبو العالم الحديث إنَّ الغربيين يزدادون شعورًا بالوحدة، فكتب ديفيد ريسمان (David Riesman) (بالاشتراك مع ناثان جليزر Nathan Glazer ورويل ديني Reuel Denney) في عام 1950 الكتاب الكلاسيكي في علم الاجتماعي بعنوان **الجماهير الوحيدة** *(The Lonely Crowd)*، وتساءلت فرقة البيتلز في عام 1966 من أين جاء كل هؤلاء الوحيدين، وأشار عالم السياسة روبرت بتنام (Robert Putnam) في عام 2000 في كتابه الذي حقَّق أعلى المبيعات إلى أنَّ الأمريكيين يلعبون البولينج وحدهم *(Bowling Alone)* وهو عنوان الكتاب، وفي عام 2010 كتب الطبيبان النفسيان جاكلين أولدز

(Jacqueline Olds) وريتشارد شوارتز (Richard Schwartz) عن **المواطن الأمريكي الوحيد: الانفصال في القرن الحادي والعشرين** (*The Lonely American: Drifting Apart in the Twenty-First Century*). إنَّ الانعزال الاجتماعي يمثِّل نوعًا من التعذيب لأفراد نوع *الإنسان العاقل* الاجتماعي، ويمثِّل ضغط الوحدة لهم خطرًا كبيرًا على صحتهم وحياتهم، لذا فإنَّ طرق تواصلنا الجديدة تُعد مقلبًا آخر على الحداثة لو كانت جعلتنا أكثر وحدةً من ذي قبل.

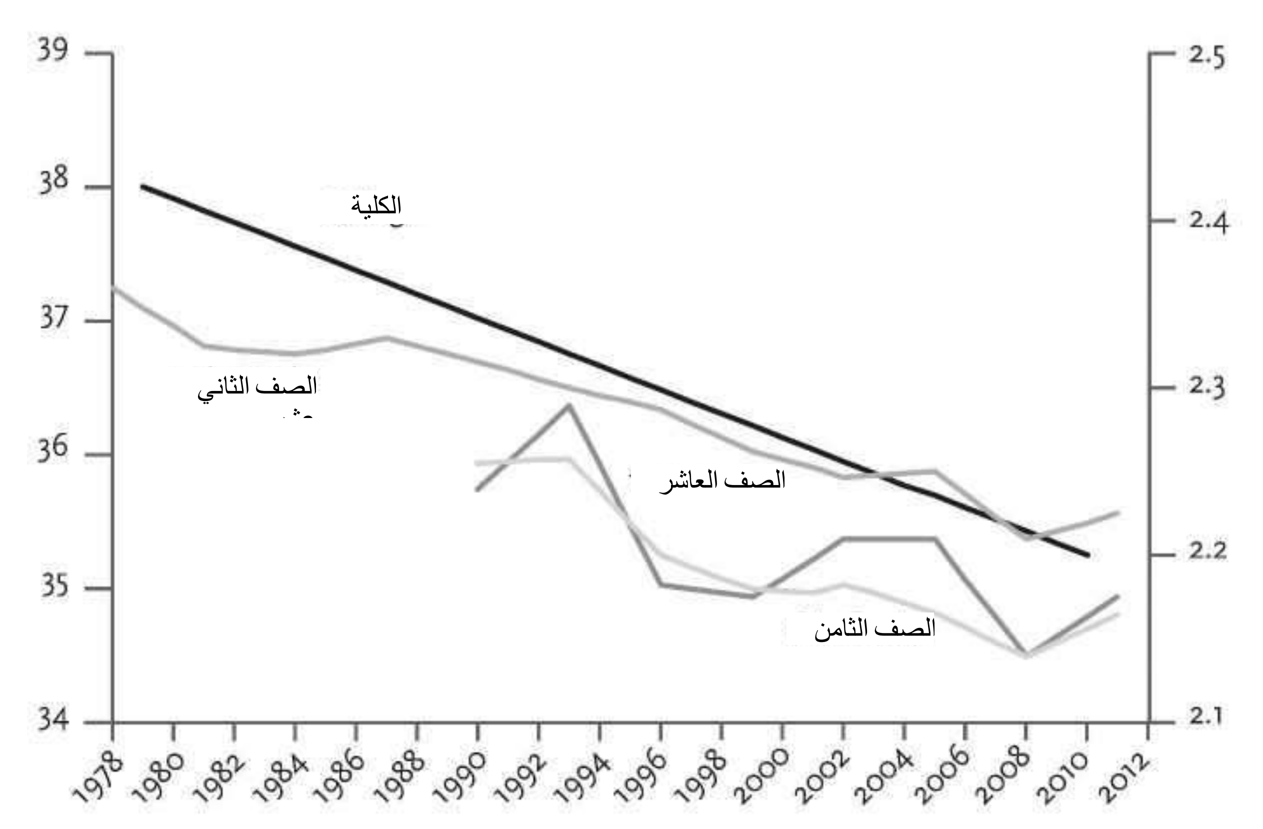
قد يظن المرء أنَّ وسائل التواصل الاجتماعي يمكنها تعويضنا عن الاغتراب والانعزال الذي صحب تدهور الأسر الكبيرة والمجتمعات المحلية الصغيرة، فاليوم يمكن أن يكون هؤلاء الأشخاص الوحيدون المذكورون في أغنية البيتلز أصدقاءك على موقع فيسبوك. ولكنَّ عالمة النفس سوزان بينكر (Susan Pinker) تراجع في كتاب **تأثير القرية** (*The Village Effect*) أبحاثًا توضِّح أنَّ الصداقات الإلكترونية لا تقدِّم لنا نفس المنافع النفسية التي يقدِّمها لنا التواصل المباشر وجهًا لوجه.

يزيد هذا من الغموض حول سبب شعور الأشخاص بالمزيد من الوحدة، فالعزلة الاجتماعية تبدو من أسهل مشكلات العالم في حلِّها، لِمَ لا تدعو شخصًا تعرفه للحديث في منزلك أو في مقهى قريب؟ لماذا لا يلاحظ الناس الفرص الماثلة أمامهم؟ هل أصبح الناس اليوم –وخاصةً الجيل الصغير المفترى عليه دائمًا– مدمنين على التواصل الإلكتروني لدرجة أنَّهم تخلوا عن التواصل البشري الضروري ويحكمون على أنفسهم بالوحدة غير اللازمة والتي ربما تكون قاتلة. هل يمكن أن نكون قد «منحنا قلوبنا للآلات فأصبحنا الآن نتحول إلى آلات» حقًّا كما قال أحد النقاد الاجتماعيين؟ هل خلق الإنترنت «عالما مفتَّتًا خاليًا من التواصل البشري أو العاطفة البشرية» كما قال ناقدٌ آخر؟ يبدو لأي شخصٍ يصدِّق بوجود طبيعةٍ بشرية أنَّ هذا مستبعد، وتوضِّح البيانات خطأ هذه المقولات، فوباء الوحدة غير متفشٍّ.

راجع عالم الاجتماع كلود فيشر (Claude Fischer) في كتابه **ما زلنا على تواصل** (*Still Connected*) الصادر عام 2011 تاريخًا مدته أربعون عامًا من استطلاعات الرأي التي تسأل الأشخاص عن علاقاتهم الاجتماعية، وأشار إلى أنَّ «الأمر الأكثر لفتًا للنظر في البيانات هو مدى انتظام علاقات الأمريكيين بأسرهم وأصدقائهم بين سبعينيات القرن الماضي والعقد الأول من الألفية، فنادرًا ما نجد اختلافات تصف تغييرات دائمة في السلوك ذات عواقب شخصية مستمرة تزيد على حفنة من النقاط المئوية في الاتجاهين، أجل، إنَّ الأمريكيين أصبحوا يحصلون على ترفيه أقل في المنزل ويقومون بالمزيد من المكالمات الهاتفية وإرسال الرسائل الإلكترونية، ولكنَّهم لم يتغيَّروا كثيرًا على مستوى المبادئ الأساسية». رغم أنَّ الأشخاص أعادوا تقسيم وقتهم لأنَّ الأُسَر أصبحت أصغر وأصبح المزيد من الأشخاص عازبين وأصبحت المزيد من النساء يعملن، إلَّا أنَّ الأمريكيين اليوم يقضون نفس مقدار الوقت مع أقربائهم ولديهم نفس متوسط عدد الأصدقاء ويقابلونهم بنفس المعدل تقريبًا ومقدار الدعم العاطفي الذي يقولون إنَّهم يتلقونه هو نفسه، وما يزالون راضين بعدد صداقاتهم وجودتها بنفس مقدار رضا أقرانهم في عقد رئاسة جيرالد فورد (Gerald Ford) ومسلسل أيام سعيدة (*Happy Days*). يتواصل مستخدمو الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي أكثر مع أصدقائهم (رغم أنَّهم يتواصلون معهم وجهًا لوجه أقل قليلًا) ويشعرون بأنَّ روابطهم الإلكترونية وطَّدت علاقاتهم وأثرتها. توصَّل فيشر إلى أنَّ الطبيعة البشرية تقتضي أن: «يحاول الناس التكيُّف مع الظروف المتغيِّرة من أجل حماية أثمن غاياتهم التي تشمل الحفاظ على حجم علاقاتهم الشخصية وجودتها، مثل الوقت الذي يقضونه مع أطفالهم والتواصل مع الأقرباء وبعض مصادر الدعم الحميم».

ماذا عن مشاعر الوحدة الموضوعية؟ إنَّ استطلاعات آراء السكان بأكملهم قليلة للغاية، وأشارت البيانات التي عثر عليها فيشر

إلى أنَّ «تعبيرات الأمريكيين عن الوحدة ظلَّت كما هي أو ربما زادت قليلًا» لأنَّ عددًا أكبر من الناس أصبحوا عازبين، ولكنَّ استطلاعات آراء الطلَّاب –وهُم فئة محدودة– كثيرة، وأشار الطلَّاب طيلة عقود إلى ما إذا كانوا يتفقون مع عبارات مثل «يُحزنني القيام بالكثير من الأشياء وحدي» و«ليس لدي من أتحدث إليه». يلخِّص هذه الاتجاهات عنوان مقال «تراجع الوحدة بمرور الوقت» (Declining Loneliness Over Time) المنشور عام 2015، وتتضَّح هذه الاتجاهات في الشكل رقم 18–2.



الشكل رقم 18– 2: الوحدة لدى الطلاب في الولايات المتحدة منذ 1978 حتى 2011

المصدر: Clark, Loxton, & Tobin 2015. **طلَّاب الكليات** (المحور الأيسر): مقياس جامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس المعدَّل للوحدة (Revised UCLA Loneliness Scale)، خط الاتجاه في عدة عينات، مأخوذ من الشكل رقم 1. **طلَّاب المدارس الثانوية** (المحور الأيمن): متوسط التقييم لستة بنود للوحدة من استطلاع رصد المستقبل (Monitoring the Future)، والمتوسطات التي تُحسب كل ثلاث سنوات مأخوذة من الشكل رقم 4 من نفس الاستطلاع المذكور. يمتد كلا المحورين بمقدار نصف انحرافٍ معياري، لذا فإنَّ انحراف المنحنيين الخاصين بالكلية والمدارس الثانوية متناسب ولكنَّ ارتفاعيهما النسبي ليس متناسبًا.

بما أنَّه لم يجرِ تتبُّع الطلاب بعدما غادروا المدرسة، إذًا فنحن لا نعلم ما إذا كان التراجع في مستويات الوحدة نتيجة أثر الفترة، التي أصبح فيها من الأسهل على الشباب تلبية احتياجاتهم الاجتماعية على نحوٍ ثابت، أم أثر الفئة العمرية، أي أصبحت الأجيال الجديدة أكثر رضا اجتماعيًّا وستظل كذلك. لكنَّ ما نعلمه هو أنَّ شباب الأمريكيين لا يعانون «مستويات مدمِّرة من الخواء والضياع والانعزال».

إنَّ التكنولوجيا هي الهدف الدائم للمتشائمين فيما يخص الثقافة، وكذلك لـ «الجيل الجديد». قدَّم عالم الاجتماع كيث هامبتون (Keith Hampton) وزملاؤه المشاركون في عام 2015 تقريرًا عن الآثار النفسية لوسائل التواصل الاجتماعي واستهله بالفقرة

التالية:

> ظل المعلِّقون على مدار الأجيال قلقين من أثر التكنولوجيا في الضغط النفسي على الأشخاص، فقد كان يُنظر إلى القطارات والآلات الصناعية على أنَّها مسبِّبات إزعاج واختلال للحياة القروية الرعوية وتجعل أهلها متوترين، والهواتف كانت تقطع الهدوء في المنازل، وساعات اليد والحائط كانت تضيف إلى الضغوط الزمنية غير الإنسانية الواقعة على عمال المصانع من أجل تحقيق الإنتاجية، وكانت برامج الراديو والتليفزيون تُعد وفقًا للإعلانات التي فتحت الباب أمام الثقافة الاستهلاكية الحديثة وزادت من قلق الأشخاص بشأن السعي إلى المكانة الاجتماعية.

وهكذا كان لا بد للنقاد توجيه تركيزهم إلى وسائل التواصل الاجتماعي، ولكن لا يمكن نسبة الفضل في التغيُّرات في مستويات الوحدة بين الطلاب الأمريكيين الموضَّحة في الشكل رقم 18-2 إلى وسائل التواصل الاجتماعي أو لومها على ذلك، إذ بدأ التراجع منذ 1977 حتى 2009، ولم يقع «انفجار» فيسبوك قبل عام 2006، ووفقًا للاستطلاعات الحديثة فلم يصبح البالغون منعزلين بسبب وسائل التواصل الاجتماعي أيضًا. يتمتَّع مستخدمو وسائل التواصل الاجتماعي بعددٍ أكبر من الأصدقاء المقرَّبين ويعبِّرون أكثر عن ثقتهم في الآخرين ويشعرون بأنَّهم يحصلون على المزيد من الدعم وينخرطون أكثر في السياسة. وعلى الرغم من الشائعة التي تقول إنَّ مستخدمي وسائل التواصل الاجتماعي يُساقون إلى منافسة محمومة على مواكبة المعدلات الهائلة من الأنشطة الممتعة التي يمارسها أصدقاؤهم المزيفين على الإنترنت، إلَّا أنَّهم لا يشيرون إلى أنَّهم يعانون معدلات ضغط نفسي أعلى من غير مستخدمي هذه الوسائل. بل العكس، فإنَّ النساء منهم يشعرن بضغطٍ نفسي أقل، باستثناءٍ واحد هو أنَّهن يشعرن بالاستياء عندما يعرفن أنَّ شخصًا يهتممن به يعاني مرضًا أو حالة وفاة في أسرته أو انتكاسة أخرى. يهتم مستخدمو وسائل التواصل الاجتماعي بالآخرين كثيرًا وليس العكس، ويتعاطفون معهم في مشكلاتهم ولا يحسدونهم على نجاحهم.

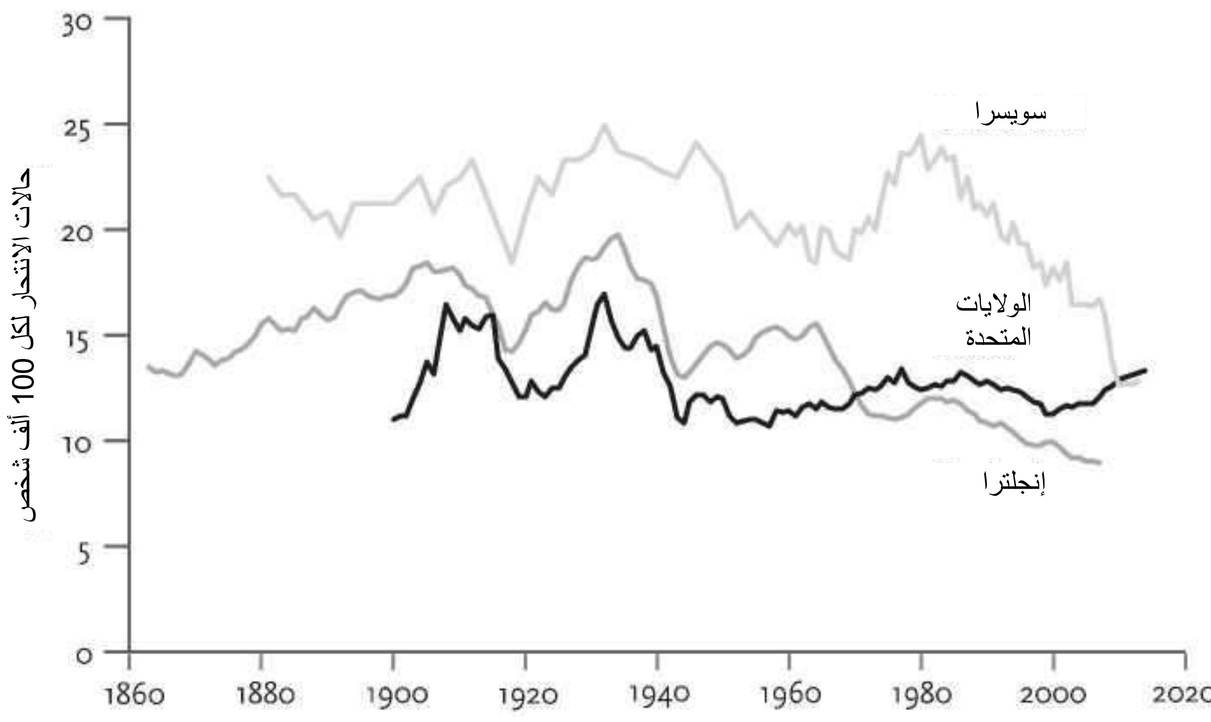
إذًا فالحياة العصرية لم تحطِّم عقولنا وأجسامنا، ولم تحوِّلنا إلى آلات مفتَّتة تعاني مستويات مدمِّرة من الخواء والعزلة، ولم تفصلنا عن بعض دون تواصلٍ بشري أو عاطفة بشرية، فمن أين نشأ هذا الاعتقاد الخاطئ الجنوني؟ نشأ جزئيًّا من الصيغة النموذجية التي يستخدمها النقاد الاجتماعيون في نشر الذعر، وهي «هذه حكاية مثيرة وقعت، وبالتالي فإنَّها تمثِّل اتجاها، وبالتالي فإنَّها تمثِّل أزمة»، ولكنَّه نشأ جزئيًّا من تغيُّرات حقيقية في طريقة تفاعل الأشخاص، فالناس يرون بعضهم بعضًا أقل في الأماكن التقليدية مثل النوادي أو الكنائس أو النقابات أو المنظمات الأخوية أو حفلات العشاء، ويرون بعضهم بعضًا أكثر في تجمعات غير رسمية عبر الوسائل الرقمية. ويثقون في عددٍ أقل من الأقرباء البعيدين ولكنَّهم يثقون في عددٍ أكبر من الزملاء، ولا يكون لديهم غالبًا عدد كبير من الأصدقاء، ولكنَّهم لا *يريدون* غالبًا عددًا أكبر من الأصدقاء، ولكن كون الحياة الاجتماعية اليوم تبدو مختلفة عمَّا كانت عليه في الخمسينيات، فإنّ هذا لا يعني أنَّ البشر –النوع الاجتماعي بالأساس–أصبحوا أقل اجتماعيةً.

ربما يظن المرء أنَّ الانتحار أكثر مقياس يُعتمد عليه للتعاسة الاجتماعية، كما أنَّ جرائم القتل هي أكثر مقياس يُعتمد عليه للصراعات الاجتماعية، فالشخص الذي مات نتيجةً للانتحار لا بد وأنَّه قد عانى تعاسةً شديدة لدرجةٍ جعلته يقرِّر أنَّ إنهاء وعيه بصورةٍ دائمة أفضل من تحمُّلها، إضافةً إلى أنَّ حالات الانتحار يمكن ترتيبها بصورةٍ موضوعية بطريقةٍ لا يمكن إجراؤها مع التعاسة.

ولكنَّ معدلات الانتحار تكون غالبًا مبهمة في الواقع، فإنَّ الحزن والاهتياج اللذين يمثِّل الانتحار راحةً منهما يشوِّشان حكم الشخص، وهكذا فإنَّ ما يفترض به أن يكون القرار الوجودي النهائي يتوقَّف على مسألة بسيطة هي مدى سهولة تنفيذ هذا الفعل. تُعد قصيدة دوروثي باركر عن الموت بعنوان "Resumé" (التي تقول في نهايتها: «المسدسات ليست قانونية، وحبل المشنقة قد يفلت، والغاز رائحته فظيعة، إذًا لتعِش أفضل») قريبة من عقلية الشخص الذي يفكِّر في الانتحار. تزيد معدَّلات الانتحار في دولةٍ ما أو تنخفض بقدرٍ هائل عند تواجد وسيلة مريحة وفعَّالة متاحة على نطاقٍ واسع –أو يُقضى عليها–مثل غاز الفحم في إنجلترا في النصف الأول من القرن العشرين، والمبيدات الحشرية في عدة دول نامية، والمسدسات في الولايات المتحدة. ولا عجب أنَّ حالات الانتحار تزداد خلال فترات الركود الاقتصادي والاضطرابات السياسية، ولكنَّها تتأثَّر كذلك بالطقس وعدد ساعات النهار في اليوم، وتزداد عندما يتعامل الإعلام مع الحوادث الأخيرة كأنَّها طبيعية أو يصوِّرها بطريقةٍ رومانسية. ويمكن التشكيك حتى في الفكرة البسيطة التي تعتبر الانتحار مقياسًا للتعاسة، إذ وثَّقت دراسةٌ حديثة «مفارقة السعادة والانتحار» وهي أنَّ الولايات الأمريكية الأسعد والدول الغربية الأسعد بها معدَّلات انتحار *أعلى* قليلًا، لا أقل (يخمِّن الباحثون أنَّ المصائب تجمع بين الناس، لذا فإنَّ العثرات الشخصية تكون أكثر إيلامًا للمرء عندما يكون كل من حوله سعداء). تتقلَّب معدَّلات الانتحار لسببٍ آخر أيضًا، وهو صعوبة التمييز بين حالات الانتحار والحوادث غالبًا (وخاصةً عندما يكون السبب هو السم أو جرعة مفرطة من المخدرات، وعندما يكون حادث سقوط أو حادث سيارة أو طلق ناري)، وربما يحرِّف الأطباء الشرعيون تصنيفاتهم في الأوقات والأماكن التي يكون فيها الانتحار موصومًا أو مجرَّمًا.

ولكنَّنا نعلم أنَّ الانتحار أحد الأسباب الرئيسية للوفاة، ففي الولايات المتحدة تحدث أكثر من 40 ألف حالة انتحار سنويًّا، ممَّا يجعل الانتحار السبب العاشر من الأسباب المؤدية للوفاة، وتحدث أكثر من 800 ألف حالة انتحار حول العالم ممَّا يجعله السبب الخامس عشر من أكثر الأسباب المؤدية للوفاة. ولكن يصعب فهم الاتجاهات المختلفة عبر الزمن والاختلافات بين الدول. إضافةً إلى تشابك السن والفئة العمرية والفترة، فإنَّ الخطوط التي تمثِّل الرجال والنساء تسير غالبًا في اتجاهاتٍ مختلفة، فرغم أنَّ معدل انتحار النساء في الدول النامية انخفض بأكثر من 40 في المئة من منتصف ثمانينيات القرن الماضي و2013، إلَّا أنَّ الرجال يقتلون أنفسهم بمعدل حوالي أربعة أضعاف النساء، لذا فإنَّ الأرقام المعبِّرة عن الرجال تغيِّر الاتجاهات العامة غالبًا. ولا أحد يعلم مثلًا لماذا أكثر دول العالم من حيث معدلات الانتحار هي غيانا وكوريا الجنوبية وسريلانكا وليتوانيا، ولا لماذا ارتفع المعدل في فرنسا ارتفاعًا كبيرًا منذ عام 1976 حتى 1986 ثم انخفض ثانيةً بحلول عام 1999.

ولكنَّنا نعرف ما يكفي لكشف زيف اعتقادين شائعين، الأول هو أنَّ الانتحار في ازدياد مستمر بصورةٍ ثابتة ووصل الآن إلى نسبٍ تاريخية مرتفعة، وغير مسبوقة، وتشكِّل أزمة، وتعبِّر عن انتشاره كالوباء. كان الانتحار شائعًا في العالم القديم بالقدر الذي جعل الإغريق يتجادلون فيه والذي جعله مذكورًا في القصص التوراتية والإنجيلية مثل قصص شمشون وشاؤول ويهوذا. إنَّ البيانات التاريخية نادرة، ومن أهم أسباب ذلك أنَّ الانتحار، الذي يُطلق عليه أيضًا «قتل النفس»، كان جريمةً في دولٍ عديدة منها إنجلترا حتى عام 1961، ولكنَّ البيانات تعود إلى أكثر من قرنٍ في إنجلترا وسويسرا والولايات المتحدة، وقد رسمتُ هذه البيانات في الشكل رقم 18–3.



الشكل رقم 18- 3: الانتحار في إنجلترا وسويسرا والولايات المتحدة، منذ 1860 حتى 2014

المصادر: **إنجلترا** (البيانات تشمل ويلز): توماس وجانيل (Thomas & Gunnell 2010) الشكل رقم 1، متوسط معدلات الذكور والإناث (.fig 1, average of male and female rates)، مقدَّمة من كايلي توماس (Kylie Thomas). لم يتم تمديد هذه السلسلة لأنَّ البيانات لم تكُن متناسبة مع السجلات الحالية. **سويسرا منذ 1880 حتى 1959**: .Ajdacic-Gross et al. 2006, fig. 1. **سويسرا منذ 1960 حتى 2013**: قاعدة بيانات الوفيات التابعة لمنظمة الصحة العالمية (WHO Mortality Database)، ومنظمة التعاون والتنمية في الميدان الاقتصادي (OECD 2015b). **الولايات المتحدة منذ 1900 حتى 1998**: .Centers for Disease Control, Carter et al. 2000, table Ab950. الولايات المتحدة منذ 1999 حتى 2014: .Centers for Disease Control 2015.

كان معدل الانتحار السنوي في إنجلترا 13 لكل 100,000 شخص في عام 1863، ثم وصل إلى 19 تقريبًا في العقد الأول من القرن العشرين ووصل إلى أكثر من 20 خلال الكساد الكبير ثم انخفض كثيرًا خلال الحرب العالمية الثانية وانخفض ثانيةً خلال ستينيات القرن الماضي ثم انخفض تدريجيًّا ليصل إلى 7.4 في عام 2007. شهدت سويسرا أيضًا انخفاضًا بمقدار النصف أو أكثر، من 24 في عام 1881 و27 خلال الكساد إلى 12.2 في عام 2013. وصل الانتحار إلى ذروته في الولايات المتحدة بمعدل 17 في بداية القرن العشرين ومرةً أخرى خلال الكساد الكبير قبل أن ينخفض إلى 10.5 في مطلع الألفية ثم ارتفع ثانيةً ليصل إلى 13 بعد الركود الكبير الأخير.

إذًا فقد كان الانتحار أكثر شيوعًا في الماضي في هذه الدول الثلاثة التي لدينا بيانات تاريخية عنها. هذه التذبذبات الصاعدة والهابطة الظاهرة عبارة عن سطح بحرٍ متقلِّب مليء بأعمار وفئات عمرية وفترات وأجناس مختلفة، إذ ترتفع معدلات الانتحار بشدة خلال سن المراهقة ثم بالتدريج خلال منتصف العمر بينما تصل لذروتها في هذا الوقت لدى النساء (ربما لأنهن يواجهن مشكلتي انقطاع الطمث وبُعد الأبناء عن بيت الأسرة) ثم تنخفض ثانيةً، بينما تظل كما هي لدى الرجال قبل أن ترتفع سريعًا في سنوات التقاعد (ربما

بسبب انتهاء دورهم التقليدي في إعالة الأسرة). يمكن أن نعزو ارتفاع معدلات الانتحار في أمريكا مؤخرًا على نحو جزئي إلى تقدم السكان في العمر، مع وصول أفراد جيل طفرة المواليد من الذكور إلى أكثر سن يكونون معرضين فيه للانتحار، لكنَّ الفئات العمرية نفسها مهمة أيضًا. كان الجيل الأعظم والجيل الصامت أكثر عزوفًا عن الانتحار من الجيل الفيكتوري الذي سبقهما وجيل طفرة المواليد والجيل إكس اللذين لحقاهما، يبدو أن جيل الألفية يبطئ ارتفاع المعدلات أو يعكسه، فقد انخفضت معدلات انتحار المراهقين بين بداية تسعينيات القرن الماضي والعقود الأولى من القرن العشرين. وأصبحت الأزمنة نفسها (مع مراعاة السن والفئات العمرية) أقل تسبُّبًا في الانتحار منذ بلوغه الذروة قرب مطلع القرن العشرين والثلاثينيات وأواخر الستينيات حتى أوائل السبعينيات، ثم وصلت إلى انخفاضٍ دام خمسين عامًا حتى عام 1999، رغم أنَّنا شهدنا ارتفاعًا طفيفًا بعد الركود الكبير. يكذِّب هذا التعقيد التهويلَ الذي قام به خبرٌ منشور قريبًا في صحيفة نيويورك تايمز *(New York Times)* بعنوان: «ارتفاع معدل الانتحار في الولايات المتحدة لأعلى مستوى له منذ ثلاثين سنة» بينما كان من الممكن استخدام عنوان: «انخفاض معدل الانتحار في الولايات المتحدة عن ذروته السابقة بمقدار الثلث بالرغم من الكساد وشيخوخة السكان».

بجانب الاعتقاد بأن الحداثة تجعل الناس يريدون قتل أنفسهم، هناك أسطورة كبيرة أخرى عن الانتحار تقول بأن السويد وهي النموذج المثالي للنزعة الإنسانية التنويرية بها أعلى معدل انتحار في العالم، نشأت هذه الأسطورة (وفقًا لما قد يكون أسطورة أخرى) في خطابٍ لدوايت أيزنهاور (Dwight Eisenhower) في عام 1960 صرح فيه بمعدل الانتحار المرتفع في السويد وألقى باللوم فيه على نظامها الاشتراكي الأبوي. كنت لألقي أنا اللوم على أفلام إنجمار بيرجمان (Ingmar Bergman) الوجودية الكئيبة، لكنَّ كلتا النظريتين مجرد تفسيرات تحتاج إلى حقائق لتفسيرها. مع أن معدل الانتحار في السويد في عام 1960 كان أعلى منه في الولايات المتحدة (15.2 لكل 100,000 في السويد و10.8 في الولايات المتحدة)، إلَّا أنَّه لم يكن أعلى معدل انتحار في العالم قط، وقد انخفض منذ هذا الوقت حتى وصل إلى 11.1 وهو أقل من متوسط معدل الانتحار في العالم (11.6) ومنه في الولايات المتحدة (12.1) وهي تحتل بذلك المركز الـ 58 على مستوى العالم. أشارت مراجعة حديثة لمعدلات الانتحار في جميع أنحاء العالم إلى أن «موجة الانتحار تتجه نحو الانخفاض عامةً في أوروبا ولا تشمل أعلى عشر دول في معدل الانتحار أيًّا من دول الرفاه في غرب أوروبا».

يعاني الجميع من الاكتئاب أحيانًا، ويعاني بعض الناس من الاكتئاب الشديد وفيه يستمر الحزن وفقدان الأمل لأكثر من أسبوعين ويعيقهم عن مواصلة الحياة اليومية بشكل طبيعي، وقد شُخّص عدد أكبر من الناس بالاكتئاب في العقود الأخيرة، وخاصةً من الفئات الأصغر سنًا، وعبر عن التصور التقليدي شعارٌ شهير لأحد برامج التليفزيون الوثائقية الحديثة: «وباءٌ صامت يجتاح البلد ويقتل أبناءنا». لقد رأينا للتو أن البلد لا يعاني من تفشي التعاسة أو الوحدة أو الانتحار، لذا فيبدو تفشي الاكتئاب مستبعدًا واتضح أنه كان وهمًا.

لنتناول إحدى الدراسات التي يُستشهد بها كثيرًا، والتي تدّعي ادعاءً غير مقنع بأنَّ كل الفئات العمرية بدايةً من الجيل الأعظم حتى جيل طفرة المواليد تعاني من الاكتئاب أكثر من الفئة التي سبقتها، توصل الباحثون إلى هذا الاستنتاج بطلبهم من أشخاصٍ من أعمارٍ مختلفة تذكر الأوقات التي أُصيبوا فيها بالاكتئاب، ولكنَّ هذا جعل الدراسة معتمدةً على الذاكرة: وكلما طالت المدة منذ الإصابة بنوبة الاكتئاب، انخفضت احتمالية أن يتذكرها الشخص، وخاصةً إذا كانت مريرة (كما رأينا في الفصل الرابع). يوهمنا هذا بأن الفترات الحديثة والفئات العمرية الصغيرة أكثر عرضةً للاكتئاب. تعتمد هذه الدراسة أيضًا على الوفيات، فالمصابون بالاكتئاب أكثر عرضة للموت عن

طريق الانتحار أو نتيجة أسبابٍ أخرى مع مرور الوقت، لذا فالمسنون الأحياء الذين تشملهم العينة تكون صحتهم النفسية أفضل، مما يجعل الأمر يبدو كما لو أن جميع من وُلدوا منذ زمنٍ بعيد يتمتَّعون بصحة نفسية أفضل.

ممَّا يشوّه التاريخ أيضًا تغير المواقف من الصحة النفسية، فقد شهدت العقود الأخيرة برامج توعية وحملات إعلامية تهدف إلى زيادة الوعي والحد من الوصمة المرتبطة بالاكتئاب، وسوَّقت شركات الأدوية الكثير من مضادات الاكتئاب للمستهلكين مباشرةً، وتطالب الأنظمة البيروقراطية بأن يتم تشخيص الأفراد بمرضٍ معين قبل حصولهم على استحقاقات مثل العلاج والخدمات الحكومية والحق في عدم التمييز، وقد تشجع كل هذه المحفزات الناس على الاعتراف بأنهم يعانون من الاكتئاب.

وفي نفس الوقت، يُقلل العاملون في مجال الصحة النفسية وربما الثقافة بوجهٍ عام المعايير المحدِّدة لما يُعتبر مرضًا نفسيًا. فقد تضاعفت الأمراض المتضمنة في *دليل التشخيص والإحصاء* (*DSM*) الخاص بالجمعية الأمريكية للطب النفسي بثلاثة أضعاف بين عامي 1952 و1994 عندما تم إدراج 300 اضطراب تقريبًا بما فيها اضطراب الشخصية التجنبية (والذي ينطبق على من كانوا يوصفون سابقًا بالخجل) وتسمم الكافيين واضطراب الضعف الجنسي عند النساء، وانخفض عدد الأعراض اللازمة للتشخيص، وزاد عدد الضغوط النفسية التي قد تتسبب في المرض النفسي. كما لاحظ عالم النفس ريتشارد ماكنالي (Richard McNally): أنَّ «المدنيين الذي مرّوا بأهوال الحرب العالمية الثانية، وخاصةً بمعسكرات الموت النازية.. كانوا سيندهشون بالتأكيد لو علموا أن انتزاع ضرس العقل أو مواجهة النكات التهكمية في العمل أو إنجاب طفل سليم معافى بعد ولادةٍ يسيرة يمكن أن يتسبب في اضطراب كرب ما بعد الصدمة». وفقًا لنفس التغيير، أصبح مصطلح «الاكتئاب» يُطلق اليوم على ما كان يسمى في الماضي بالأسى أو الشجن أو الحزن.

وقد بدأ علماء النفس والأطباء النفسيون في التحذير من «توسع نطاق المرض من أجل ترويج العلاج» و«تمدد إمبراطورية الأمراض النفسية». أشارت عالمة النفس روبين روزنبرج (Robin Rosenberg) في مقالها «أصبح غير العادي هو القاعدة» (Abnormal Is the New Normal) المنشور عام 2013 إلى أنَّ آخر إصدار من دليل التشخيص والإحصاء*(DSM)* يمكن أن يُشخص نصف الشعب الأمريكي بأحد الاضطرابات النفسية خلال فترة ما من حياتهم.

يُعد تمدد إمبراطورية الأمراض النفسية أحد مشاكل العالم الأول، وعلامةً على التقدم الأخلاقي في نواحٍ كثيرة، فالاعتراف بمعاناة شخصٍ ما، حتى وإن كان بإطلاق تشخيصٍ ما عليه، هو نوعٌ من التعاطف، وخاصةً عندما يكون بالإمكان تخفيف هذه المعاناة عنه. إنّ أحد أسرار علم النفس الخفية هو أنَّ العلاج المعرفي السلوكي فعَّال بصورة جلية (أكثر فعاليةً من الأدوية عادةً) في علاج كثيرٍ من الاضطرابات مثل الاكتئاب والقلق ونوبات الهلع واضطراب كرب ما بعد الصدمة والأرق وأعراض الفُصام. تُشكل الاضطرابات النفسية أكثر من 7% من عبء الإعاقة العالمي (يشكل الاكتئاب الشديد بمفرده 2.5%)، وهذه معاناة هائلة يمكن تخفيفها. لفت محررو مجلة **المكتبة العامة للعلوم**: **الطب** *(Public Library of Science: Medicine)*الانتباه لـ «مفارقة الصحة النفسية»: وهي اعتبار المشاكل العادية اضطرابًا يستحق العلاج والإفراط في العلاج في الغرب الثري وقلة الاعتراف بالأمراض وقلة العلاج في بقية العالم.

باتساع نطاق التشخيص، أصبحت الطريقة الوحيدة لمعرفة ما إذا كان عدد أكبر من الناس يعانون من الاكتئاب في الوقت الحالي هي عمل اختبار قياسي موحد لأعراض الاكتئاب على عينات ممثلة على المستوى الوطني من الناس من أعمار مختلفة على مدى عقودٍ كثيرة، ولم تستوفِ أيُّ دراسة حتى الآن هذه القاعدة الأساسية، ولكنَّ كثيرًا من الدراسات طبَّقت معيارًا ثابتًا على فئات سكانية أكثر محدودية. وقد شملت دراستان مكثفتان طويلتا الأمد أشخاصًا يسكنون في مقاطعتين ريفيتين (أحدهما في السويد والأخرى في كندا) من

مواليد الفترة ما بين 1870 والتسعينيات وتتبَّعتاهم من منتصف القرن العشرين حتى آخره متضمنتين حيوات متعاقبة امتدت لأكثر من قرن، ولم تجد أيٌ منهما دلالات على ارتفاع معدلات الاكتئاب على المدى الطويل.

أُجريت أيضًا العديد من التحليلات التجميعية (وهي الأبحاث التي تُجرى على الأبحاث)، فوجدت توينج (Twenge) أنَّ الطلاب الجامعيين سجَّلوا منذ عام 1938 حتى عام 2007 معدلات مرتفعة على مقياس الاكتئاب الموجود في اختبار مينيسوتا متعدد الأوجه للشخصية (MMPI)، وهو اختبارٌ شائع للشخصية. ومع ذلك، لا يعني هذا بالضرورة ازدياد عدد الطلاب الذين يعانون من الاكتئاب الشديد، ولكنّ هذا الارتفاع ربما يكون بسبب التحاق عدد أكبر من الناس بالجامعة على مر العقود. وعلاوة على ذلك، فقد وجدت دراسات أخرى (بعضها قامت بها توينج بنفسها) أنَّه لا يوجد تغيُّر أو انخفاض في معدلات الاكتئاب، وخاصةً لدى الشباب والفئات العمرية الصغيرة وفي العقود اللاحقة، أحدها بعنوان: «هل تفشى الاكتئاب بين المراهقين والأطفال؟» (Is There An Epidemic of Child or Adolescent Depression?) وهي تؤكد قانون بيتريدج (Betteridge's Law) للعناوين القائل بأن: أي عنوان رئيسي ينتهي بعلامة استفهام يمكن الإجابة عليه بكلمة لا. وتوضح الدراسة أنَّ «تصور الناس عن (الوباء المتفشي) قد ينتج عن تزايد الوعي باضطراب كانت معرفة الأطباء به وتشخيصهم له أقل في الماضي». كان عنوان أحد أكبر التحليلات التجميعية حتى الآن –الذي درس معدل انتشار القلق والاكتئاب بين عامي 1990 و2010 في العالم بأكمله– واضحًا ولم يشوّق قُرَّاءَه: «رفض أسطورة (تفشي) الاضطرابات النفسية الشائعة». توصَّل الباحثون إلى أنَّه «عند تطبيق معايير تشخيص واضحة، فلا يوجد دليل على أنَّ انتشار الاضطرابات النفسية الشائعة في ازدياد».

يتلازم الاكتئاب مع القلق، في علاقةٍ يُطلق عليها اختصاصيو الوبائيات التزامن المرضي، ممَّا يثير تساؤلًا حول ما إذا كان العالم قد أصبح أكثر قلقًا، نجد إجابةً عن هذا السؤال في عنوان قصيدة سردية طويلة للشاعر ويستن هيو أودن (W. H. Auden) المنشورة عام 1947 وهو «**عصر القلق**» *(The Age of Anxiety)*. لاحظ الباحث الإنجليزي آلان جايكوبز (Alan Jacobs) في مقدمة طبعة حديثة لهذه القصيدة أنَّ «كثيرًا من النقاد الثقافيين على مر العقود أثنوا على فطنة أودن في تسمية الحقبة التي نحيا فيها، ولكن بالنظر إلى صعوبة القصيدة، فلم يتمكَّن سوى قليلون من فهم سبب اعتقاده أنَّ عصرنا يتَّسم أساسًا بالقلق بالتحديد أو ما إذا كان هذا ما يقوله حقًّا ». سواء أكان أودن يقول هذا حقًّا أم لا، فإنَّ الاسم الذي أطلقه على حقبتنا ارتبط بها، واستُخدم في عنوان تحليل تجميعي أجرته توينج، وأوضح أنَّ مجموع درجات اختبار القلق المعياري الموجَّه للأطفال والطلَّاب الجامعيين بين عامي 1952 و1993 ارتفع بمقدار انحراف معياري كامل. الأشياء التي لا يمكن أن تستمر إلى الأبد، لا تستمر، وحسب معلوماتنا فإنَّ هذه الزيادة بين الطلَّاب الجامعيين استقرت بعد عام 1993. ولم تصبح القطاعات الديموغرافية الأخرى أكثر قلقًا، إذ لم تجد الدراسات الطولية التي أُجريت على طلَّاب المرحلة الثانوية والبالغين منذ سبعينيات القرن الماضي حتى العقود الأولى من القرن الحادي والعشرين أي ارتفاعٍ في مختلف الفئات. ورغم أنَّ بعض الأشخاص ذكروا في بعض الاستطلاعات إصابتهم بالمزيد من أعراض الكرب، إلَّا أنَّ القلق الذي يصل إلى حد المرض لم يبلغ مستويات وبائية، ولم يحقِّق أي زيادات عالمية منذ عام 1990.

كل شيء رائع، هل نحن حقًّا تعساء للغاية؟ لسنا تعساء في الأغلب، فالدول المتقدِّمة في الحقيقة سعيدة جدًّا، وأصبحت أغلبية دول العالم أسعد، وكلَّما ازداد غنى الدول ازدادت سعادةً أيضًا. لا تصمد التحذيرات المخيفة من أوبئة الوحدة والانتحار والاكتئاب والقلق

أمام تقصِّي الحقائق، ورغم أنَّ كل جيل قلقٌ إزاء تعرّض الجيل التالي لمتاعبٍ، إلَّا أنَّه بالنسبة للأجيال الأصغر فإنَّ أفراد جيل الألفية يبدون في حالٍ جيد للغاية وأسعد ويتمتَّعون بصحةٍ نفسية أفضل من آبائهم المدلِّلين (أو من يُطلق عليهم الآباء الهليكوبتر).

ولكن فيما يتعلَّق بالسعادة فإنَّ كثيراً من الناس لا يبلغون مستويات عليا، فالأمريكيون متأخرون عن بقية أقرانهم من شعوب العالم الأول، وركدت مستويات سعادتهم في الحقبة التي يُطلق عليها أحياناً «القرن الأمريكي». ثبُت أنَّ أفراد جيل طفرة المواليد جيل مضطرب رغم نشأتهم في سلامٍ ورخاءٍ، ممَّا أثار حيرة آبائهم الذين مروا بالكساد الكبير والحرب العالمية الثانية و(في حالة كثيرٍ من أصدقائي) الهولوكوست. أصبحت النساء الأمريكيات أتعس في نفس الوقت الذي حقَّقن فيه مكاسب غير مسبوقة في الدخل والتعليم والإنجاز والاستقلالية، وفي الدول المتقدِّمة الأخرى التي ازداد فيها الجميع سعادةً، تجاوز الرجالُ النساء. ربما يكون القلق وبعض الأعراض الاكتئابية قد زادت في العقود التي تلت الحرب، على الأقل لدى بعض الأشخاص، ولا أحد منا سعيد كما ينبغي بالنظر إلى مدى الروعة التي وصل إليها عالمنا.

سأنهي هذا الفصل بالتأمل في هذا النقص في السعادة، التي تمثِّل للكثير من المعلِّقين فرصةً للتشكيك في الحداثة، فيقولون إنَّ تعاستنا ردٌّ على عبادتنا للفرد وللثروة المادية وعلى انصياعنا لتآكل الأسرة والتقاليد والدين والمجتمع المحلي.

ولكنَّ هناك طريقة أخرى نفهم بها إرث الحداثة، فمن يحنُّون إلى العادات الشعبية نسوا كم كافح أسلافنا للتخلُّص منها. رغم أنَّ من عاشوا في مجتمعات وثيقة الترابط أرخت الحداثة روابطها لم يُجروا استبيانات عن السعادة، إلَّا أنَّ كثيراً من أشكال الفنون الرائعة التي أُنتِجت خلال فترة التحول أظهرت جوانبها المظلمة مثل ضيق الأفق والتطابق والقبلية والقيود المفروضة على استقلالية النساء كتلك التي تفرضها حركة طالبان. وقد تناولت رواياتٌ عديدة منذ منتصف القرن الثامن عشر حتى أوائل القرن العشرين صراعات الأشخاص من أجل تجاوز أعراف النظم الأرستقراطية أو البرجوازية أو الريفية الخانقة، بما فيها أعمال ريتشاردسون (Richardson) وثاكري (Thackeray) وتشارلوت برونتي (Charlotte Brontë) وإليوت (Eliot) وفونتانه (Fontane) وفلوبير (Flaubert) وتولستوي (Tolstoy) وإبسن (Ibsen) وألكوت (Alcott) وهاردي (Hardy) وتشيخوف (Chekhov) ولويس (Lewis). بعد أن أصبح المجتمع الغربي المتمدِّن أكثر تسامحًا وعالميةً، ظهرت هذه التوترات ثانيةً في طريقة تناول أعمال الثقافة الشعبية للحياة في البلدات الصغيرة الأمريكية، مثلما في أغنيات بول سيمسون (Paul Simson) «في بلدتي الصغيرة لم أكُن أعني شيئًا / لم أكن سوى ابن أبي» – "In my little town I never meant nothin' / I was just my father's son") ولو ريد (Lou Reed) «عندما تنشأ في بلدة صغيرة / تعرف أنك ستذبل في بلدة صغيرة» – " When you're growing up in a small town / You know you'll grow down in a small town") وبروس سبرنجستين (Bruce Springsteen) («هذه البلدة ستخلع عظامك يا عزيزتي / إنها مصيدة موت، حكم بالانتحار» – " Baby, this town rips the bones from your back / It's a death trap, a suicide rap"). وظهرت ثانيةً في أدب المهاجرين، بما يشمل أعمال إسحاق باشيفيس سنجر (Isaac Bashevis Singer) وفيليب روث (Philip Roth) وبرنارد مالامود (Bernard Malamud) ثم أعمال إيمي تان (Amy Tan) وماكسين هونج كينجستون (Maxine Hong Kingstone) وجومبا لاهيري (Jhumpa Lahiri) وباراتي موكرجي (Bharati Mukherjee) وتشيترا بانرجي ديفاكاروني (Chitra Banerjee Divakaruni).

نتمتَّع اليوم بعالمٍ يمتاز بهذه الحرية الشخصية التي كانت هذه الشخصيات تحلم بها، عالمٍ يستطيع المرء فيه أن يتزوج ويعمل ويحيا

كما يحب. يتخيل المرء أحد النقاد الاجتماعيين الحاليين وهو يحذِّر آنا كارنينا (Anna Karenina) أو نورا هلمر (Nora Helmer) من أنَّ المجتمع العالمي المتسامح ليس كما تتصورَّانه وأنَّهما ستُصابان بلحظاتٍ من القلق والتعاسة دون روابط الأسرة والقرية، لا أستطيع التحدث بالنيابة عنهما، ولكنِّي أظن أنَّهما ستعتقدان أنَّ هذه صفقة رائعة!

وربما نعاني قليلًا من القلق ثمنًا للحرية وما ينتج عنها من حيرة، وهي تعبير آخر عمَّا تقتضيه الحرية من يقظةٍ وتفكُّرٍ وبحثٍ داخل الذات. ولا عجب في انخفاض مستويات السعادة لدى النساء بعد اكتسابهن بعض الاستقلالية بالنسبة إلى الرجال، ففي العصور السابقة كانت مسؤوليات النساء قاصرة على نطاق الأسرة ونادرًا ما تعدت ذلك، أما اليوم فالشابات يقُلن إنَّ أهداف حياتهن تتضمن كلًّا من الحياة المهنية والأسرة والزواج والمال والترفيه والصداقة والخبرة وتصحيح التفاوت الاجتماعي وأن يصبحن قائدات في مجتمعاتهن المحلية وأن يسهمن في المجتمع، وهذه أشياءُ كثيرة مثيرة للقلق وطرقٌ كثيرة للشعور بالإحباط، إذ «ما كلُّ ما يتمنى المرء يدركه».

ليست الاختيارات التي أتاحتها الاستقلالية الذاتية فقط هي ما تثقل على العقل الحديث، وإنَّما الأسئلة الوجودية الكبرى أيضًا، فمع حصول الناس على تعليم أفضل وازدياد شكهم في السلطات القائمة يقل اقتناعهم بحقائق الدين التقليدية، ويشعرون بأنهم هائمون على وجوههم في كونٍ لا يأبه بالأخلاق. ففي فيلم «**هانا وأخواتها**» *(Hannah and Her Sisters, 1986)* يرمز وودي آلن (Woody Allen) للقلق المعاصر بتمثيله في حوار بينه وبين والديه يعبر عن الفجوة بين الأجيال في القرن العشرين:

ميكي: أراك تكبر في العمر يا أبي، أليس كذلك؟ ألا تخشى الموت؟

الأب: ولِمَ الخوف؟

ميكي: أوه! لأنك لن تكون موجودًا!

الأب: وماذا في ذلك؟

ميكي: ألا ترعبك هذه الفكرة؟

الأب: لا أحد يفكر في مثل هذه السخافات، أنا حيٌّ الآن، عندما أموت، سأكون ميتًا.

ميكي: لا أستطيع استيعاب الأمر. ألست خائفًا؟

الأب: مِمَّ أخاف؟ لن أكون واعيًا.

ميكي: نعم، أعرف ذلك. ولكن فكرة العدم!

الأب: لا أحد يعلم ما سيحدث.

ميكي: لا تبدو الأمور مبشرة بالخير.

الأب: من يعلم ما الذي سيحدث؟ سأكون إما واعيًا أو لا، إن كنت واعيًا فسأتعامل مع الأمر حينها، لن أقلق الآن عمَّا سيحدث عندما أكون غير واعٍ.

الأم [لا تظهر على الشاشة]: يوجد إله بالطبع أيها الأحمق! ألا تؤمن به؟

ميكي: لكن إذا كان هناك إله، فلماذا يوجد كل هذا الشر في العالم؟ ببساطة، لماذا ظهر النازيون؟

الأم: أخبره يا ماكس.

الأب: كيف لي أن أعرف لماذا ظهر النازيون؟ أنا لا أعرف حتى كيف تعمل فتّاحة العلب.

فقد الناس أيضًا إيمانهم المطمئن بصلاح مؤسساتهم. اختار المؤرخ ويليام أونيل (William O’Neill) لكتابه عن تاريخ سنوات طفولته التالية للحرب العالمية الثانية عنوان «**الذروة الأمريكية: أعوام الثقة 1945–1960**» (*American High: The Years of Confidence 1945-1960)* . بدا كل شيء رائعًا في هذه الحقبة، إذ كان الدخان المتصاعد من المصانع علامةً على الرخاء، وكانت مهمة أمريكا نشر الديموقراطية في أنحاء العالم، وكانت القنبلة النووية دليلًا على عبقرية الأمريكان، وكانت المرأة تستمتع بمملكتها في المنزل، وكان الزنوج يعرفون مقامهم. وبالرغم من أنه كان يوجد الكثير من الأشياء الرائعة في أمريكا خلال هذه الحقبة حقًّا (كان معدل النمو الاقتصادي مرتفعًا ومعدلات حدوث الجريمة والأمراض الاجتماعية الأخرى منخفضة)، إلا أنَّنا ننظر إلى هذه الحقبة اليوم على أنها جنة الحمقى. فليس من قبيل الصدفة أن يكون القطاعان ذوا مستوى السعادة المنخفض –الأمريكيون وجيل طفرة المواليد– هما القطاعان اللذان واجها الحقائق وتخلصا من أوهامها في ستينيات القرن الماضي. يمكننا أن نرى الآن بأثرٍ رجعي أنَّه لم يكن من الممكن تأجيل الاهتمام بشؤون البيئة والحرب النووية والأخطاء الفادحة في السياسة الخارجية الأمريكية والمساواة بين الجنسين وبين الأعراق المختلفة إلى الأبد، حتى وإن أصبحنا أكثر قلقًا، فالوعي بهذه المشاكل أفضل.

عندما نعي بمسؤولياتنا المشتركة، يضيف كلٌّ منَّا جزءًا من أعباء العالم إلى اهتماماته. يبدأ فيلم «الجنس والأكاذيب وشريط الفيديو» *(Sex, Lies, and Videotape, 1989)*، وهو رمزٌ آخر معبِّر عن قلق أواخر القرن العشرين، بمشهد تعبر فيه البطلة، وهي من جيل طفرة المواليد، عن قلقها لمعالجها النفسي قائلةً:

> القمامة. كل ما كنت أفكر فيه طوال هذا الأسبوع هو القمامة، لا أستطيع التوقف عن التفكير فيها. أنا.. أنا قلقةٌ حقًّا بشأن كل هذه القمامة. أعني أن لدينا الكثير من القمامة، أتفهمني؟ أعني أن الأماكن التي نضع فيها هذه القمامة ستنفد في النهاية، آخر مرة شعرت فيها بهذا الشعور كانت عندما علقت «البارجة» وكانت تدور حول الجزيرة وما من أحدٍ يريد قبولها.

تشير «البارجة» المذكورة إلى الضجة الإعلامية التي حدثت عام 1987 عندما رفضت مدافن القمامة الموجودة في كل أنحاء ساحل المحيط الأطلسي بارجة محملة بثلاثة آلاف طن من قمامة نيويورك. ولا يعد مشهد العلاج النفسي خياليًا أبدًا، فقد أُجريت تجربة شاهد فيها أشخاصٌ أخبارًا متلاعبًا بها كي تترك أثرًا إيجابيًا أو سلبيًا، وأظهرت أنَّ «الذين شاهدوا النشرة الإخبارية المصممة لتترك أثرًا سلبيًا، زادت لديهم مستويات القلق والحزن، وزاد ميلهم إلى توقع أسوأ النتائج المحتملة لما يقلقهم». بعد مرور ثلاثة عقود، أظن أنَّ كثيرًا من المعالجين يستمعون إلى مخاوف مرضاهم من الإرهاب وعدم المساواة في الدخل والتغير المناخي.

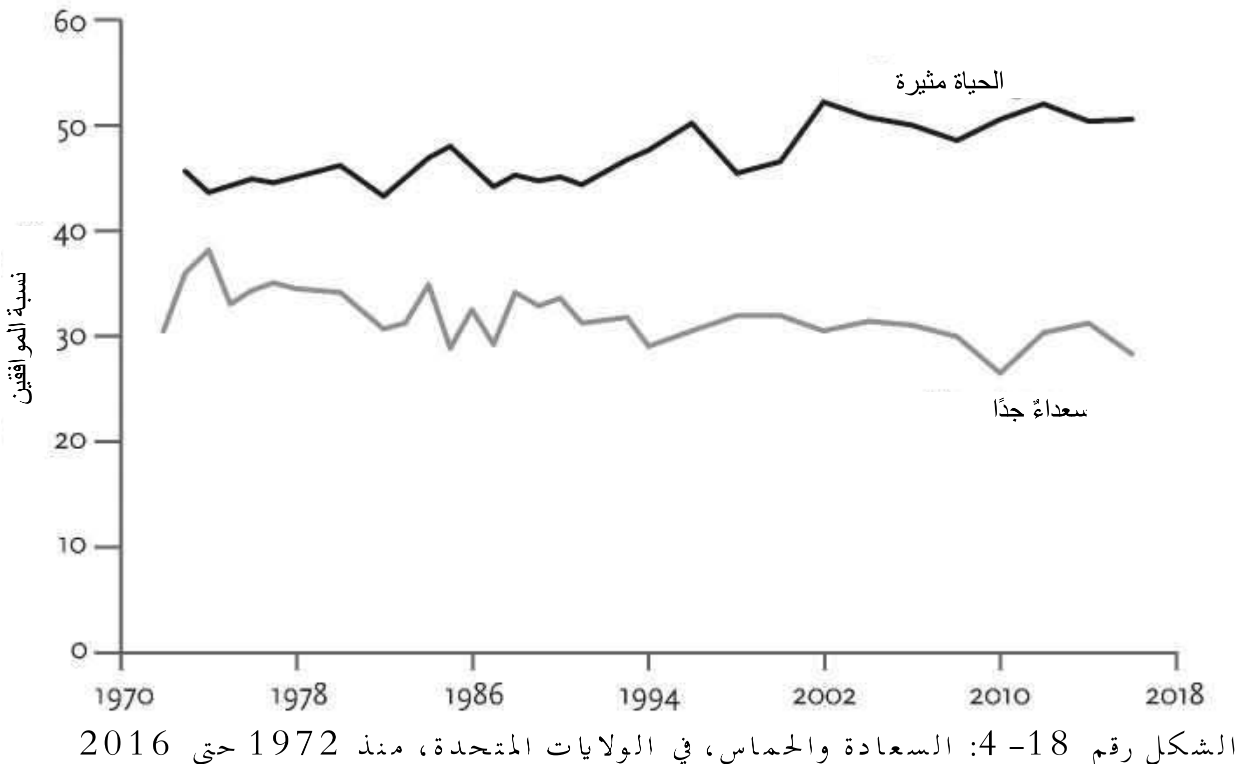
ليس القلق بالقدر الضئيل سيئًا إذا حفّز الناس على دعم السياسات التي قد تساعد على حل المشاكل الكبرى. وربما لجأ الناس في العقود السابقة إلى إلقاء همومهم على عاتق سلطة أعلى، وما زال بعضهم يفعل ذلك. ففي عام 2000، أيّد ستون زعيمًا دينيًا إعلان كورنوال بشأن الحفاظ على البيئة الذي تناول «أزمة المناخ المزعومة» والمشاكل البيئية الأخرى بتأكيد أنَّ «الرب الرحيم لم يتخلَّ عن عباده المخطئين ولا نظام الكون المحكم وإنَّما تدخَّل على مدار التاريخ للحفاظ على عبادة البشر له عن طريق إدارتهم لتعزيز جمال الأرض وخصوبتها». أعتقد أنَّهم والموقعين الألف وخمسمئة الآخرين لا يذهبون إلى معالجيهم النفسيين للشكوى من قلقهم بشأن مستقبل

الكرة الأرضية، لكن كما أشار جورج برنارد شو (George Bernard Shaw): «حقيقة أنَّ المؤمن أسعد من المتشكك تشبه سعادة الرجل الثمل مقارنة بالشخص اليقظ».

ومع أن التفكير في المشكلات السياسية والوجودية المحيِّرة سيصيبنا ببعض القلق لا محالة، فلا ينبغي أن يصيبنا ذلك بالمرض أو اليأس. أحد تحديات الحداثة هو التصدي للمسؤوليات المتزايدة دون أن نموت من القلق، ونحن نتجه نحو استخدام المزيج المناسب من الحيل القديمة والجديدة كعادتنا في مواجهة التحديات الجديدة، ومن هذه الحيل التواصل البشري والفن والتأمل والعلاج المعرفي السلوكي والتأمل الواعي والأمور الممتعة الصغيرة والاستخدام المناسب للأدوية وتجديد الخدمات والمؤسسات الاجتماعية ونصائح الحكماء لعيش حياة متوازنة.

وربما تود وسائل الإعلام والعاملون بها التفكير في دورهم في إبقاء البلد في قلقٍ دائم، وترمز قصة البارجة المحملة بالقمامة إلى ممارسات وسائل الإعلام المولِّدة للقلق، فوسط التغطية الإعلامية في ذلك الوقت، ضاعت حقيقة أن السفينة لم تُجبر على البقاء في الماء بسبب نقص مدافن القمامة وإنَّما بسبب أخطاء في الإجراءات الورقية والضجة الإعلامية نفسها، ولم تُجرَ سوى القليل من المتابعات لهذه الحادثة في العقود التي تلتها لنفي التصورات الخاطئة عن أزمة النفايات الصلبة (إذ لدينا في الحقيقة كثيرٌ من مدافن القمامة، وهي غير مضرة بالبيئة). لا تمثِّل كل مشكلة أزمةً أو كارثةً أو وباءً، ومن بين ما يحدث في العالم أنَّ الناس يجدون حلولًا للمشاكل التي تواجههم.

وبمناسبة الهلع، فما المخاطر الكبرى التي تواجه الجنس البشري في ظنِّك؟ أشار بعض المفكرين في الستينيات إلى أنَّ هذه المخاطر هي الزيادة السكانية والحرب النووية والملل، وقال أحد العلماء إنَّه مع أن بإمكاننا تخطِّي المشكلتين الأولى والثانية إلا أنَّنا لن نستطيع بالتأكيد تخطِّي الثالثة. الملل؟ حقًّا! سيحتار الناس فيما سيشغل وقت يقظتهم لأنهم لم يعودوا بحاجة إلى العمل طوال اليوم والقلق بشأن الطعام، وسيكونون عرضة للانغماس في الملذات والجنون والانتحار وسطوة المتطرفين من رجال الدين والسياسة. يبدو لي أننا قد وجدنا حلاً لأزمة الملل (أم هل كانت وباءً متفشيًّا؟) بعد خمسين عامًا ونحيا بدلًا من ذلك في زمنٍ مثير –كما تقول اللعنة الصينية–، لكن ليس عليك أن تسلِّم بما أقول. يسأل المسح الاجتماعي العام الأمريكيين منذ عام 1973 عمَّا إذا كانوا يرون الحياة «مثيرة» أم «روتينية» أم «مملة»، ويوضِّح الشكل رقم 18–4 أنَّ العقود التي قال فيها عددٌ قليل من الأمريكيين إنَّهم «سعداء جدًا»، قال عدد أكبر منهم إنَّ «الحياة مثيرة».



الشكل رقم 18- 4: السعادة والحماس، في الولايات المتحدة، منذ 1972 حتى 2016

المصدر: *General Social Survey,* Smith, Son, & Schapiro 2015، الشكلان 1 و5 محدَّثان وفقًا لبيانات عام 2016 من https://gssdataexplorer.norc.org/projects/15157/variables/438/vshow. حالات عدم الاستجابة مستبعدة من البيانات.

لا يُعدُّ تفاوت المنحنيات مفارقةً، تذكّر أنَّ من يشعرون أنهم يعيشون حياةً ذات معنى يكونون معرضين أكثر من غيرهم للضغوط والمعاناة والقلق، وفكِّر أيضًا في أنَّ القلق لطالما كان مصاحبًا للنضج: فهو يزيد بحدة من سنوات الدراسة حتى بداية العشرينات عندما يبدأ الناس في تحمل مسؤوليات البالغين ويهبط تدريجيًّا بمرور السنين بينما يتعلمون كيفية التكيف مع هذه المسؤوليات. ربما يرمز ذلك إلى تحديات الحداثة، إذ رغم أنَّ الناس اليوم أسعد، إلَّا أنَّهم ليسوا سعداءَ كما هو متوقع، ربما لأنَّهم ينظرون للحياة بنظرة البالغين بكل ما فيها من القلق والإثارة. ففي النهاية، كان التعريف الأصلي للتنوير هو «خروج الإنسان من قصوره الذي جلبه على نفسه».

الفصل التاسع عشر:
الأخطار الوجودية

هل نحن في طريقنا إلى الهاوية؟ عندما يضطر المتشائمون إلى الإقرار بأنَّ الحياة تتحسَّن يومًا بعد يوم لعددٍ أكبر من الناس، يكون ردُّهم جاهزًا، فيقولون إنَّنا نندفع بسعادةٍ نحو كارثةٍ، كالرجل الذي سقط من فوق السطح وكلَّما مرَّ بطابقٍ قال: «ما زلت بخير حتى الآن»،

أو كأنَّنا نلعب لعبة الروليت الروسية وستصيبنا الرصاصة القاتلة لا محالة، أو كأنَّنا سنُفاجأ بحدثٍ غير متوقَّع وخطرٍ شبه مستحيل إحصائيًّا، احتمالية حدوثه ضعيفة ولكنّ نتائجه كارثية.

ظلَّت كلٌّ من الزيادة السكانية ونقص الموارد والتلوث والحرب النووية طيلة نصف قرن تمثِّل فرسان الرؤيا الأربعة، وانضم إليها مؤخرًا فرسانٌ أغرب مثل روبوتات النانو التي ستحيط بنا من كل جانب، والروبوتات التي ستستعبدنا، والذكاء الاصطناعي الذي سيحيلنا إلى مواد خام، والمراهقون البلغاريون الذين سيُعِدُّون فيروسًا للإبادة الجماعية أو تعطيل الإنترنت من منازلهم.

كان مراقبو الفرسان التقليديون غالبًا من أتباع الحركة الرومانسية وحركة تحطيم الآلات، ولكنَّ من يحذِّرون من مخاطر التكنولوجيا العالية يكونون غالبًا من العلماء والتقنيين الذين استخدموا براعتهم في التعرُّف على المزيد من الطرق التي سينتهي بها العالم قريبًا. نشر عالم الفيزياء الفلكية مارتن ريس (Martin Rees) في عام 2003 كتابًا بعنوان **ساعتنا الأخيرة** *(Our Final Hour)* حذَّر فيه من أنَّ «البشرية ربما تقضي على نفسها بنفسها» وأورد عدة طرق «عرَّضنا بها مستقبل الكون بأكمله للخطر». فقد تصنع التجارب على مصادمات الجسيمات ثقبًا أسود يقضي على الأرض، أو «جسيمًا غريبًا» (strangelet) مكوَّنًا من الكواركات المضغوطة التي قد تتسبَّب في ارتباط كل المادة الموجودة في الكون بها واختفائها. اكتشف ريس مخزونًا ثريًّا من نظريات الكوارث، وذكرت صفحة الكتاب على موقع أمازون أنَّ «العملاء الذين شاهدوا هذا المنتج شاهدوا أيضًا *Global Catastrophic Risks*، و*Our Final Invention: Artificial Intelligence and the End of the Human Era*، و*The End: What Science and Religion Tell Us About the Apocalypse*، و*World War Z: An Oral History of the Zombie War*». موَّل أصحاب الأعمال الخيرية في المجال التكنولوجي المعاهد البحثية التي تكرِّس جهودها لاكتشاف الأخطار الوجودية الجديدة ومعرفة كيفية إنقاذ العالم منها، بما فيها معهد مستقبل البشرية (Future of Humanity Institute) ومعهد مستقبل الحياة (Future of Life Institute) ومركز دراسات المخاطر الوجودية (Center for the Study of Existential Risk) والمعهد المعني بالمخاطر الكارثية العالمية (Global Catastrophic Risk Institute).

كيف علينا أن نفكِّر في الأخطار الوجودية الكامنة في تقدُّمنا المتزايد؟ لا يمكن لأحدٍ أن يتكهَّن بعدم حدوث جائحة كبرى أبدًا، ولا يتضمَّن هذا الفصل ضمانًا من هذا النوع، ولكنِّي سأطرح طريقةً للتفكير في هذه الأخطار، وسأنظر في التهديدات الكبرى. ناقشنا في الفصل العاشر ثلاثةً من تلك الأخطار -وهي الزيادة السكانية واستنزاف الموارد والتلوث بما يشمل الغازات الدفيئة- وسأتبع المنهج نفسه هنا. بعض هذه الأخطار من نسج خيال النزعة التشاؤمية التاريخية والثقافية، وبعضها حقيقي، ولكن يمكننا التعامل معها باعتبارها مشكلات ينبغي حلها لا باعتبارها نهاية العالم المنتظرة.

قد يظن المرء للوهلة الأولى أنَّنا كلَّما فكَّرنا أكثر في المخاطر الوجودية، كان أفضل، فالاحتمالات لا يمكن أن تبلغ مستويات أعلى من مستوياتها الحالية، فما الضرر في حمل الناس على التفكير في هذه المخاطر المريعة؟ فأسوأ ما قد يحدث أن نتخذ بعض الاحتياطات التي يتَّضح في المستقبل أنَّها لم تكُن ضرورية.

ولكنَّ التفكير في نهاية العالم المدمِّرة له جوانب سلبية، أحدها أنَّ الإنذارات الكاذبة بالمخاطر الكارثية قد تكون هي نفسها كارثية، فقد انطلق سباق الأسلحة النووية في الستينيات على سبيل المثال نتيجة مخاوف من «فجوة الصواريخ» الخرافية لصالح الاتحاد السوفييتي،

وكان مبرِّر غزو العراق عام 2003 هو الاحتمالية الكارثية، وإن كانت غير مؤكدة، لأن يكون صدام حسين يطوِّر أسلحة نووية ويخطط لاستخدامها ضد الولايات المتحدة (كما قال جورج واشنطن الابن: «لا يمكننا انتظار الدليل الدامغ –سلاح الجريمة– الذي قد يظهر على هيئة سحابة من دخان الانفجار النووي»). وكما سنرى، فإنَّ من أسباب رفض القوى العظمى التعهُّد بعدم البدء باستخدام الأسلحة النووية أنَّها تريد الاحتفاظ بحق استخدامها في مواجهة الأخطار الوجودية المفترضة الأخرى مثل الإرهاب البيولوجي أو الهجمات الإلكترونية. يمكن لزرع الخوف من الكوارث الافتراضية أن يعرِّض مستقبل البشرية للخطر بدلًا من حمايته.

من الأخطار الأخرى لتعديد سيناريوهات نهاية العالم أنَّ البشرية لديها ميزانية محدودة من الموارد والقدرة العقلية والقلق، لا يمكنك أن تقلق بشأن كل شيء. بعض الأخطار التي تواجهنا لا لُبس فيها وسيتطلَّب الحد منها قدرًا هائلًا من الجهد والبراعة، مثل التغيُّر المناخي والحرب النووية، لن يؤدي إدراج مثل هذه الأخطار ضمن قائمة من السيناريوهات العجيبة ذات احتمالية الحدوث الضئيلة أو المجهولة إلَّا إلى تخفيف الإحساس بإلحاح هذه الأخطار. تذكَّر أنَّ الناس ضعفاء في تقييم الاحتماليات وخاصةً الاحتماليات الضعيفة، ويتخيلون بدلًا من ذلك سيناريوهات في ذهنهم، وإذا استطاعوا تخيُّل سيناريوهين بنفس السهولة والوضوح، فربما يعتبرون احتمالية حدوثهما واحدة، وسيقلقون بشأن وقوع كلٍّ من الخطر الحقيقي وسيناريو الخيال العلمي بنفس القدر. وكلَّما استطاع الأشخاص تخيُّل حدوث الأمور السيئة بطرقٍ أكثر، كان تخمينهم لاحتمالية حدوث أمر سيء بالفعل في المستقبل أكبر.

ويؤدِّي ذلك إلى أعظم خطر على الإطلاق، وهو أنَّ العقلاء يقولون لأنفسهم، كما ذكر مقال حديث في صحيفة نيويورك تايمز: «لا بد أنَّ هذه الحقائق الكئيبة ستجعل أيّ شخص عاقل يستنتج أنَّ البشرية هالكة». إذا كانت البشرية هالكة لا محالة، فلماذا نضحِّي بأي شيء للحد من المخاطر المحتملة؟ لماذا نستغني عن الراحة في استخدام الوقود الأحفوري أو نحث الحكومات على إعادة التفكير في سياساتها الخاصة بالأسلحة النووية؟ تناول طعامك وشرابك وتمتَّع فإنَّنا سنموت غدًا! وقد أوضحت نتيجة استطلاع رأي أُجري في عام 2013 في أربع دول ناطقة بالإنجليزية أنَّ أغلبية المشاركين الذين يعتقدون أنَّ حياتنا بنمطها الذي نتبعه ستنتهي خلال قرنٍ أيَّدوا العبارة التالية: «يبدو مستقبل العالم كئيبًا، لذا علينا التركيز على الاعتناء بأنفسنا وبمن نحبهم».

لا يفكِّر سوى قلة من الكتَّاب كثيرًا في الآثار النفسية التراكمية لدق الطبول إيذانًا بالهلاك، وتشير إلين كيلسي (Elin Kelsey)، التي تعمل على تبسيط العلوم البيئية، قائلةً: «لدينا تصنيفات فنية وإعلامية لحماية الأطفال من الجنس والعنف في الأفلام، ولكنَّنا نستخفُّ بدعوة عالمٍ إلى فصل دراسي من طلاب الصف الثاني ليخبرهم أنَّ الكوكب أصابه الخراب. يشعر رُبع الأطفال (الأستراليين) بالقلق الشديد بشأن وضع العالم لدرجة تجعلهم يعتقدون حقًّا أنَّه سينتهي قبل أن يكبروا». ووفق استطلاعات الرأي الحديثة، يشعر بشعورهم 15 في المئة من الناس حول العالم، وما يتراوح بين رُبع وثُلث الأمريكيين. يقترح الصحافي جريج إيستربروك (Gregg Easterbrook) في كتاب **مفارقة التقدُّم** *(The Progress Paradox)*، أنَّ أحد أكبر الأسباب في أنَّ الأمريكيين ليسوا أسعد رغم زيادة حظوظهم الموضوعية هو «القلق من الانهيار»، أي الخوف من انهيار الحضارة وعدم استطاعة أي شخص أن يفعل أي شيء لمنعه.

لا تكون لمشاعر الأشخاص صلة بالأمر بالطبع لو كانت الأخطار حقيقية، ولكنَّ تقييمات المخاطر تتداعى عندما تتعامل مع أحداث

مستبعدة للغاية في نُظُمٍ معقَّدة. وبما أنَّنا لا نستطيع إعادة التاريخ آلاف المرات وعدَّ النتائج، فإنَّ أي تصريح بأنَّ احتمالية وقوع حدثٍ ما هي 0.01 أو 0.001 أو 0.0001 أو 0.00001 هو بالأساس عبارة عن تعبيرٍ عن ثقة المقيِّم الذاتية، ويشمل هذا التحليلات الرياضية التي يرسم فيها العلماء توزيع الأحداث في الماضي (مثل الحروب أو الهجمات الإلكترونية) ويوضِّحون اندراجها تحت توزيع قانون الرفع للقوة، ويكون توزيعًا ذا ذيل «سمين» أو «سميك» تكون فيه الأحداث المتطرفة مستبعدة للغاية، ولكنَّها ليست مستبعدة إلى أقصى حد. لا يساعدنا الحساب كثيرًا في معايرة الخطر، لأنَّ البيانات المتناثرة على طول ذيل التوزيع تنحرف عن المنحنى المنتظم وتجعل التقدير مستحيلًا، فكل ما نعرفه أنَّ أمورًا سيئة جدًّا قد تحدث.

يُعيدنا ذلك إلى التعبيرات الذاتية التي تضخِّمها غالبًا انحيازات التوفر والسلبية وكذلك سوق اكتساب الوقار (الفصل الرابع)، فمن يزرعون الخوف من نبوءة مفزعة قد يُنظر إليهم على أنَّهم جادون ومسؤولون، في حين أنَّ المتوازنين يُنظر إليهم على أنَّهم قانعون وساذجون. إنّ ينبوع اليأس لا ينضب، فالأنبياء منذ عهد الأنبياء العبرانيين وسفر الرؤيا وربما قبل ذلك يحذِّرون معاصريهم من يوم القيامة، والتنبؤات بنهاية الزمان مكوِّن أساسي لدى العرَّافين والوسطاء الروحيين والصوفيين والدعاة الإعلاميين والطوائف المختلة ومؤسِّسي الأديان والرجال الذين يسيرون على الرصيف حاملين لافتات تقول: «توبوا»! تمثِّل القصة التي تكون حبكتها الرد القاسي على الغرور التكنولوجي النموذج الأصلي لقصص الخيال الغربية بما يشمل نار بروميثيوس وصندوق باندورا ورحلة إيكاروس وصفقة فاوست وصبي الساحر ووحش فرانكنشتاين وأكثر من 250 فيلمًا هوليووديًّا عن نهاية العالم. لاحظ المهندس إريك زينسي (Eric Zencey) أنَّ «التفكير في نهاية العالم مُغرٍ بالفعل، فإذا عاش المرء في الأيام الأخيرة، فإنّ أفعاله وحياته نفسها تكتسب معنى تاريخيًّا وقدرًا كبيرًا من الحزن الشديد».

ليس العلماء ولا التكنولوجيون محصَّنين ضد هذا الإغراء، هل تذكر مشكلة عام 2000 (Y2k)؟ في تسعينيات القرن الماضي، ومع اقتراب مطلع الألفية، بدأ علماء الكمبيوتر في تحذير العالم من كارثة وشيكة. في العقود الأولى من عصر الكمبيوتر عندما كانت المعلومات غالية، كان المبرمجون يوفِّرون بضع وحدات من البايت عبر التعبير عن السنة بآخر رقمين فيها فقط، وفكَّروا أنَّه بحلول العام 2000 لن يصبح الرقم «19» على سبيل المثال صالحًا وستصبح البرامج بالية لوقتٍ طويل. ولكنَّ استبدال البرامج المعقَّدة يحدث بوتيرة بطيئة، وكانت العديد من البرامج القديمة ما تزال تعمل على الحاسبات الكبرى المؤسسية وكانت مثبتة في رقاقاتٍ. كانت الفكرة أنَّه عندما تدق الساعة الثانية عشر معلنةً بداية يوم الأول من يناير عام 2000 وتتغيَّر الأرقام في الحاسب، سيظن البرنامج أنَّ التاريخ في عام 1900 ويتعطَّل أو يخرج عن السيطرة (وكان من المفترض أنَّ هذا سيحدث لأنَّه سيقسم رقمًا ما على الفرق بين ما يظن أنَّه العام الحالي وعام 1900، أي صفر، ولكن لم يوضِّح أحدٌ مطلقًا لماذا قد يقوم البرنامج بهذا). وفي هذه اللحظة، ستُمحى أرصدة البنوك، وستتوقف المصاعد بين الطوابق، وستتعطَّل الحاضنات في عنابر الولادة، وستتجمَّد مضخات المياه، وستسقط الطائرات من السماء، وستذوب محطات الطاقة النووية، وستنطلق الصواريخ الباليستية العابرة للقارات من منصاتها.

وكانت هذه تنبؤات واقعية من السلطات الخبيرة بالتقنية (مثل الرئيس بيل كلينتون الذي حذَّر الشعب قائلًا: أود أن أشدِّد على إلحاح هذا التحدي، فليس هذا أحد الأفلام الترفيهية التي يمكنك أن تغلق عينيك فيها خلال المشهد المخيف). رأى المتشائمون فيما يخص الثقافة أنَّ مشكلة عام 2000 عقوبةٌ على جعل حضارتنا أسيرة التكنولوجيا. ولم يستطعِ المفكِّرون الدينيون مقاومة الربط العددي التنجيمي بين هذه المشكلة ومعتقد الألفية المسيحي، فصرَّح الكاهن جيري فولويل (Jerry Falwell) قائلًا: «أعتقد أنَّ مشكلة عام 2000 ربما تكون وسيلة الله في زعزعة هذه الأمة وإخشاع هذه الأمة وإيقاظ هذه الأمة، وأن يبدأ من هذه الأمة حركة إحياء تسود وجه الأرض قبل اختطاف الكنيسة». أُنفقت مئة مليار دولار حول العالم على إعادة برمجة البرامج للاستعداد لعام 2000، وهو تحدٍّ تم

تشبيهه باستبدال كل المسامير في كل جسور العالم.

كنت متشكِّكًا في سيناريوهات «يوم القيامة» بصفتي مبرمجًا سابقًا للغة التجميع، وكنتُ بالصدفة في اللحظة المصيرية في نيوزيلندا التي كانت أول دولة تدخل في الألفية الجديدة، وبالتأكيد لم يحدث شيءٌ في الثانية عشرة منتصف ليلة رأس السنة (وسرعان ما طمأنت أفراد أسرتي عبر الهاتف الذي كان يعمل على أكمل وجه). نسب من قاموا بإعادة البرمجة استعدادًا للعام 2000 لأنفسهم الفضل في تفادي الكارثة –غير الموجودة من الأساس–ولكنَّ كثيرًا من الدول والشركات الصغيرة جازفت بعدم إجراء أي استعداد للعام 2000، ولم تواجه أي مشاكل أيضًا. رغم أنَّ بعض البرامج كانت بحاجة إلى تحديثٍ (إذ ظهر في أحد البرامج على حاسبي المحمول التاريخ كالتالي: «1 يناير 19100»)، إلَّا أنَّه اتَّضح أنَّ البرامج التي كانت تحتوي على هذه المشكلة وأجرت عمليات حسابية مضطربة لحساب العام الجاري برامج قليلة جدًّا وخاصةً تلك المثبَّتة في آلات. واتَّضح أنَّ خطورة التهديد لا تزيد على خطورة الكلمات المكتوبة على اللوحة التي يحملها النبي الواقف على الرصيف. لا يعني الفزع الهائل بشأن مشكلة العام 2000 أنَّ كل التحذيرات من الكوارث المحتملة إنذارات كاذبة، ولكنَّه يذكِّرنا بأنَّنا عرضة للأوهام الخاصة بنهاية العالم التقنية.

كيف يجدر بنا أن نفكِّر في التهديدات الكارثية؟ لنبدأ بأكبر مسألة وجودية على الإطلاق، مصير النوع البشري. لا مفر من التصالح مع فناء نوعنا، مثلما فعلنا مع المسألة الأكثر تحديدًا وهي مصيرنا كأفراد. يمزح علماء الأحياء بأنَّ التقدير التقريبي الأولي يشير إلى أنَّ كل الأنواع منقرضة، بما أنَّ هذا كان مصير 99 في المئة على الأقل من كل الأنواع التي عاشت على وجه الأرض، يستمر النوع النموذجي من الثدييات حوالي مليون سنة، ويصعب التأكيد على أنَّ الإنسان العاقل سيمثِّل استثناءً لتلك القاعدة. حتى لو كنا بقينا نعمل في الصيد وجمع الثمار ونمتلك معرفة تكنولوجية متواضعة، لكنا ما نزال نحيا في صالة رماية جيولوجية، إذ يمكن أن تقضي دفعة من أشعة جاما من سوبرنوفا (نجم مستعر أعظم) أو نجم منهار على نصف الكوكب، وتحيل الغلاف الجوي إلى اللون الأسمر وتدمِّر طبقة الأوزون ممَّا يسمح لضوء الأشعة فوق البنفسجية بالقضاء على النصف الآخر. أو قد ينقلب مجال الأرض المغناطيسي فيعرِّض الكوكب لفاصلٍ من الإشعاع الكوني والشمسي القاتل، وقد يصطدم كويكبٌ بالأرض فيسوِّي آلاف الأميال المربَّعة ويخلِّف حطامًا يحجب الشمس ويغمرنا بأمطارٍ مسبِّبة للتآكل. قد تخنقنا البراكين العملاقة أو تدفقات الحمم البركانية الضخمة بالرماد وثاني أكسيد الكربون وحمض الكبريتيك، وقد يدخل ثقبٌ أسود إلى المجموعة الشمسية ويجذب الأرض خارج مدارها أو يسحبها بداخله فتندثر. حتى لو استطاع نوعنا البقاء مليار سنة أخرى، فلن تستطيع الأرض والمجموعة الشمسية البقاء تلك المدة، فالشمس ستبدأ في استهلاك الهيدروجين بداخلها وتزداد كثافةً وحرارة وتغلي محيطاتنا حتى تتبخَّر في طريقها إلى أن تصبح عملاقًا أحمر.

إذًا فالتكنولوجيا ليست السبب في أنَّ نوعنا سيضطر يومًا ما إلى مواجهة قابض الأرواح، بل هي أفضل أمل لنا في خداع الموت، على الأقل لفترةٍ ما. وما دمنا نفكِّر في الكوارث الافتراضية في المستقبل البعيد، فعلينا أن نفكِّر أيضًا في التطورات الافتراضية التي ستتيح لنا النجاة من هذه الكوارث، مثل زراعة الطعام على أضواءٍ تعمل بالانصهار النووي أو تصنيعه في منشآت صناعية كالوقود الحيوي. وحتى تكنولوجيات المستقبل غير البعيد كثيرًا قد تنقذنا، فمن الممكن عمليًّا تتبُّع مسارات الكويكبات والأجسام الأخرى القريبة من الأرض التي قد تؤدي إلى الانقراض، وتحديد الأجسام التي في طريقها إلى الاصطدام مع الأرض ودفعها خارج المسار قبل أن تُرسلنا لنلحق بالديناصورات. اكتشفت ناسا أيضًا طريقة لضخ المياه بضغطٍ عالٍ في بركانٍ عملاق واستخراج الحرارة للحصول على الطاقة الحرارية الجوفية، ممَّا يبرِّد الصهارة بما يكفي لضمان أنَّها لن تنفجر. كان أسلافنا عاجزين عن التصدِّي لهذه التهديدات القاتلة، ومن هذا الجانب فإنَّ التكنولوجيا لم تجعل هذه الحقبة في تاريخ نوعنا خطيرة على نحوٍ فريد وإنَّما جعلتها حقبة آمنة على نحوٍ فريد.

ولهذا السبب فإنَّ الادِّعاء من منظور نهاية العالم التقنية بأنَّ حضارتنا هي الأولى التي يمكن أن تدمِّر نفسها بنفسها مغلوط، فمعظم الحضارات التي وُجدت تعرَّضت للتدمير كما ذكَّر أوزيماندياس الرحالة في قصيدة بيرسي بيش شيلي. يلوم التاريخ التقليدي الأحداث الخارجية مثل الطاعون أو الغزوات أو الزلازل أو الطقس على الدمار الذي كان يحصل، ولكنَّ ديفيد دويتش يشير إلى أنَّ تلك الحضارات كان بإمكانها اعتراض طريق هذه الضربات القاتلة لو كانت تتمتَّع بتكنولوجيا زراعية أو طبية أو عسكرية أفضل:

> قبل أن يتعلَّم أسلافنا كيفية صنع النار (وبعده أيضًا لمرات عديدة) لا بد أنَّ هناك أشخاصًا كانوا يموتون فوق وسيلة صنع النار التي كانت ستنقذ حياتهم لأنَّهم لم يكونوا يعرفون كيفية صنعها، فمن منظور محدود، نرى أنَّ الطقس قتلهم، ولكنَّ التفسير الأعمق هو الافتقار إلى المعرفة. ولا بد أنَّ مئات الملايين من ضحايا الكوليرا على مر التاريخ ماتوا قرب المجامر التي كان يمكنهم استخدامها في غلي مياه الشرب وإنقاذ حياتهم، ولكنَّهم لم يكونوا يعرفون ذلك أيضًا. وبصورةٍ عامة فإنَّ التفرقة بين الكارثة «الطبيعية» والكارثة التي تسبَّب فيها الجهل محدودة، إذ نرى الآن كثيرًا من الخيارات التي لم يتَّخذها –أو بالأحرى لم يصنعها–أولئك الذين وقعوا ضحايا لكل كارثة طبيعية اعتاد الناس أن يعتبروها «حدثًا عاديًّا يحدث دون سبب» أو بأمرٍ من الآلهة قبل وقوعها. وتكوِّن كل تلك الخيارات مجتمعةً الخيار الشامل الذي عجزوا عن صنعه وهو إقامة حضارة علمية وتكنولوجية كحضارتنا، وتقاليد النقد، والتنوير.

ومن الأخطار الوجودية البارزة التي يُفترض أنَّها تُهدِّد مستقبل البشرية نسخة خاصة بالقرن الحادي والعشرين من مشكلة العام 2000، وهو الخطر المتمثِّل في أنَّنا سيتم إخضاعنا بفعل الذكاء الاصطناعي، سواء عن عمدٍ أو عن غير عمد، وهي كارثة يُطلق عليها أحياناً «روبوبوكاليس» أي «نهاية العالم على يد الروبوت» وتُوضَّح غالبًا بلقطاتٍ من أفلام *The Terminator*. وبعض الأذكياء يأخذون هذا الخطر على محمل الجد، كما حدث مع مشكلة عام 2000، فقد قال إيلون ماسك (Elon Musk) الذي تنتج شركته سيارات ذكاء اصطناعي ذاتية القيادة إنَّ هذه التكنولوجيا «أخطر من الأسلحة النووية»، وحذَّر ستيفن هوكينج (Stephen Hawking) متحدِّثاً عبر جهاز معدِّل الصوت الذي يتمتَّع بالذكاء الاصطناعي من أنَّها قد «تدق آخر مسمار في نعش الجنس البشري». ولكن من بين الأذكياء الذين لا يصيبهم الأرق بسبب هذا الخطر أغلب الخبراء في مجال الذكاء الاصطناعي وأغلب الخبراء في مجال الذكاء البشري.

يستند مفهوم نهاية العالم على يد الروبوت إلى تصورٍ مبهم عن الذكاء يرجع إلى سلسلة الوجود العظمى وإرادة القوة النيتشوية أكثر مما يرجع إلى فهمٍ للعلم الحديث. يُعد الذكاء حسب هذا التصور جرعة سحرية تمنح قوة مطلقة وتحقِّق الأمنيات تمتلكها القوى الفاعلة بكمياتٍ مختلفة، فالبشر يمتلكون منها أكثر ممَّا تمتلك الحيوانات، وسيمتلك الكمبيوتر ذو الذكاء الاصطناعي أو الروبوت في المستقبل منها أكثر ممَّا يمتلك البشر. وبما أنَّنا نحن البشر استغللنا هبتنا المتوسطة في استئناس الحيوانات الأقل حظًّا أو إبادتها (وبما أنَّ المجتمعات المتقدِّمة تكنولوجيًّا استعبدت المجتمعات البدائية تكنولوجيًّا أو قضت عليها)، إذًا فيستتبع هذا أنَّ كائن الذكاء الاصطناعي فائق الذكاء سيعاملنا بالمثل. وبما أنَّ كائن الذكاء الاصطناعي سيفكِّر أسرع منا بمليون ضعفٍ وسيستخدم ذكاءه الفائق في تطوير ذكائه الفائق بشكلٍ متكرِّر (وهو السيناريو الذي يُطلق عليه أحياناً "foom" تيمنًا بالمؤثر الصوتي في القصص المصورة)، فبمجرد أن يعمل هذا الكائن سنعجز عن إيقافه.

ولكنّ السيناريو غير منطقي كالقلق مثلًا من أن تهبط الطائرات النفاثة من السماء لتخطف الماشية كما تفعل النسور لأنَّها تجاوزت قدرة النسور على الطيران. المغالطة الأولى هي الخلط بين الذكاء والدافع، بين المعتقدات والرغبات، بين الاستنتاجات والأهداف، بين التفكير والإرادة. حتى إذا ابتكرنا بالفعل روبوتات ذكية خارقة، فلماذا تريد هذه الروبوتات استعباد أسيادها أو السيطرة على العالم؟ الذكاء هو القدرة على تسخير وسائل جديدة لتحقيق هدفٍ ما، ولكنَّ الأهداف لا علاقة لها بالذكاء، فكون المرء ذكيًّا لا يساوي كونه يريد شيئًا ما. من قبيل الصدفة أنَّ الذكاء في أحد الأنظمة، نظام الإنسان العاقل، نتاج الانتخاب الطبيعي الدارويني، وهو عملية تنافسية بطبيعتها، ففي عقل ذلك النوع، يأتي التفكير المنطقي مصحوبًا (بدرجاتٍ مختلفة من شخصٍ لآخر) بأهدافٍ مثل الهيمنة على المنافسين وتكديس الموارد. ولكنّ من الخطأ الخلط بين دائرةٍ ما في الجزء الحوفي من مخ نوعٍ ما من الرئيسيات وطبيعة الذكاء نفسها، فنظام الذكاء الاصطناعي الذي تم تصميمه ولم يتطوَّر يمكن أن يفكِّر مثل كائنات الـ «شمو» الإيثارية المذكورة في القصة المصورة من تأليف آل كاب (Al Capp) بعنوان **آبنر الصغير** *(Li'l Abner)*، التي تسخِّر براعتها البالغة في شوي أنفسها كي يأكلها البشر. لا يوجد قانون للأنظمة المعقَّدة ينص على أنَّ الكائنات الذكية لا بد وأن تتحوَّل إلى غزاة وحشيين، ونحن نعرف نوعًا من أنواع الذكاء المتقدِّم للغاية الذي تطوَّر دون هذا الخلل، وأقصد النساء.

والمغالطة الثانية هي النظر إلى الذكاء بوصفه متسلسلة لا متناهية من القدرة، إكسيرًا خارقًا قادرًا على حلّ أي مشكلة وتحقيق أي هدف. تؤدي هذه المغالطة إلى أسئلة غير منطقية مثل: متى سيتجاوز كائن الذكاء الاصطناعي «مستوى الذكاء البشري»، ويصل إلى صورة كائن الذكاء الاصطناعي الشامل (AGI) كلي القدرة وكلي المعرفة كالإله. الذكاء هو آلة مكوَّنة من مجموعة أدوات، وحدة برمجية تحصل على المعرفة الخاصة بكيفية السعي وراء أهداف متنوعة في نطاقات متنوعة، أو مبرمجة بهذه المعرفة بالفعل. البشر مؤهلون للعثور على الطعام وكسب الأصدقاء والتأثير في الآخرين وجذب الشركاء المحتملين وتنشئة الأطفال والتنقُّل حول العالم والسعي وراء مصادر الهوس والتسلية البشرية الأخرى، أمَّا الحواسب الآلية فربما تكون مبرمجة على حل بعض هذه المشكلات (مثل التعرُّف على الوجوه) ليس على الانشغال بمشكلاتٍ أخرى (مثل جذب الشركاء) ولا على حل مشكلاتٍ أخرى لا يستطيع البشر حلَّها (مثل محاكاة المناخ أو فرز ملايين السجلات المحاسبية). فالمشكلات مختلفة، والمعارف اللازمة لحلِّها مختلفة. على عكس شيطان لابلاس، وهو الكائن الأسطوري الذي يعرف موقع كل جسيم في الكون وقوته الدافعة ويُدخلهما في معادلات للقوانين الفيزيائية من أجل حساب حالة كل شيء في أي وقت في المستقبل، فإنَّ الكائن العارف الحقيقي عليه اكتساب المعلومات عن عالم الأشخاص والأشياء الفوضوي عبر التعامل معه في كل نطاقٍ على حدة. لا يعمل الفهم وفق قانون مور، فالمعرفة تُكتسب عبر صياغة تفسيرات واختبار مطابقتها للواقع، وليس عبر إجراء الخوارزميات على نحوٍ أسرع وأسرع، والتهام المعلومات على الإنترنت لن يمنح المرء المعرفة المطلقة أيضًا، فالبيانات الضخمة ما تزال بيانات محدودة، وعالم المعرفة غير محدود.

لهذه الأسباب ينزعج كثيرٌ من الباحثين في مجال الذكاء الاصطناعي من حملة الدعاية الأخيرة (ضرر الذكاء الاصطناعي المستمر) التي ضلَّلت المتابعين وجعلتهم يظنون أنَّ كائن الذكاء الاصطناعي الشامل على الأبواب. على حد علمي، لا توجد أي مشروعات حالية لبناء كائن ذكاء اصطناعي شامل، ليس فقط لأنَّه سيكون مريبًا من الناحية التجارية، ولكن أيضًا لأنَّ المفهوم ليس مترابطًا منطقيًّا تمامًا. جلب لنا عقد 2010 بالتأكيد أنظمة تستطيع قيادة السيارات والتعليق على الصور والتعرُّف على الكلام وهزيمة البشر في لعبة «المحك» ولعبة الـ «جو» وألعاب الأتاري، ولكنَّ هذه التطوُّرات لم تصدر عن فهمٍ أفضل لعمل الذكاء وإنَّما من القوة العمياء النابعة من الرقائق الأسرع والبيانات الأضخم، ممَّا يتيح للبرامج التدرُّب على ملايين الأمثلة وتعميمها على أمثلة جديدة مشابهة. كل نظام عبارة عن علَّامةٍ

معتوه ذي قدرة محدودة على الانتقال إلى المشكلات التي لم يؤهل لحلِّها، وإتقان هش للمشكلات المؤهل لحلِّها. فبرنامج التعليق على الصور مثلًا يعنون صورة لحادثة تحطم طائرة وشيكة بـ «طائرة متوقفة على مدرج الطائرات»، وبرنامج الألعاب يذهله أقل تغيير في قواعد حساب النقاط. رغم أنَّ البرامج ستتحسَّن بالتأكيد، إلَّا أنَّه لا توجد أي علامات على سيناريو الـ "foom"، ولم تأخذ أيٌّ من هذه البرامج خطوة تجاه السيطرة على المعمل أو استعباد مبرمجيها.

حتى لو حاول كائن الذكاء الاصطناعي الشامل ممارسة إرادة القوة الخاصة به فسيظل دون تعاون البشر مجرد «دماغ عاجز في وعاء». يحطِّم عالم الحاسبات رامز نام (Ramez Naam) الفقاعات المحيطة بسيناريو الـ "foom" والتفرد التكنولوجي والتطوير الذاتي المطّرد، فيقول:

> تخيَّل أنَّك كائن ذكاء اصطناعي فائق الذكاء تعمل بمعالجٍ دقيقٍ ما (أو ربما بملايين المعالجات الدقيقة) وتبتكر في لحظةٍ تصميمًا لمعالجٍ دقيق أسرع وأقوى يمكنك أن تعمل به، والآن.. تبًّا! عليك أن تصنع تلك المعالجات الدقيقة! وتستلزم محطات التصنيع تلك طاقةً هائلةً وتستلزم إدخال مواد مستوردة من كل أنحاء العالم وتستلزم بيئات داخلية خاضعة لتحكمٍ شديد ويتطلَّب هذا غرف ضغط ومرشِّحات وكل أنواع المعدات المتخصِّصة للصيانة وهكذا، ويستلزم كل هذا وقتًا وطاقةً للحصول عليه ونقله ودمجه وبناء مبانٍ ومحطات طاقة له واختباره وتصنيعه. وهكذا يعيق العالم الواقعي مخططك للارتقاء بنفسك.

يعيق العالم الواقعي كثيرًا من سيناريوهات نهاية العالم الرقمية، فعندما يصبح «هال»* مغرورًا، يعطِّله ديف عن العمل بمفكٍ ويتركه يغنّي لنفسه أغنية "A Bicycle Built for Two" على نحوٍ مثير للشفقة. يستطيع المرء بالطبع تخيُّل كمبيوتر مُهلك تمامًا وشرير وذي إمكانات عالمية وفي وضع التشغيل دائمًا ومضاد للتلاعب، والطريقة المثلى للتعامل مع هذا الخطر واضحة للغاية، لا تبنِ آلة بهذه المواصفات!

عندما بدأت احتمالية ظهور روبوتات شريرة تبدو سخيفة لدرجة تصعِّب أخذها على محمل الجد، وجد الحُراس الوجوديون خطرًا رقميًّا جديدًا. لا تقوم هذه القصة على فرانكنشتاين ولا الغولم* وإنَّما على الجني الذي يحقِّق لنا ثلاث أمنيات، تكون الثالثة منها لازمة لنقض الأمنيتين الأولى والثانية، وعلى ندم الملك ميداس على قدرته على تحويل كل شيء يلمسه إلى ذهب، حتى طعامه وأفراد أسرته. يكمن الخطر، الذي يُطلق عليه أحياناً مشكلة مواءمة القيم (Value Alignment Problem)، في أنَّنا ربما نضع هدفًا لكائن الذكاء الاصطناعي، ثم نقف مكتوفي الأيدي نشاهده وهو ينفِّذ باستمرار وبطريقة حرفية تأويله الخاص لذلك الهدف، ولتذهب بقية مصالحنا إلى الجحيم. إذا وضعنا لكائن الذكاء الاصطناعي هدف الحفاظ على مستوى المياه خلف أحد السدود، فربما يُغرق بلدةً بفيضانٍ غير مكترثٍ بالأشخاص الذين غرقوا، وإذا وضعنا له هدف صناعة دبابيس الورق، فربما يحيل كل المادة في الكون الذي يستطيع الوصول إليه إلى دبابيس ورق، بما فيها ممتلكاتنا وأجسامنا. وإذا طلبنا منه زيادة معدل السعادة البشرية، فربما يزرع فينا جميعًا حقن دوبامين وريدية أو يعيد تنظيم أدمغتنا كي نكون أسعد بالجلوس في برطمانات أو يكسو المجرة بتريليونات الصور الدقيقة لوجوهٍ مبتسمة لو كان قد تدرَّب على مفهوم السعادة بصورٍ لوجوهٍ مبتسمة.

لا أختلق هذه الاحتمالات، فهذه هي السيناريوهات التي يفترض أنَّها توضِّح الخطر الوجودي على الجنس البشري من الذكاء

---

*هال هو الحاسب الذكي في فيلم 2001: A Space Odyssey.

*الغولم هو كائن في التراث اليهودي مصنوع من الطين بالسحر.

الاصطناعي المتطوِّر. ولكنَّ هذه السيناريوهات لحسن الحظ تنقض نفسها بنفسها، فهي تقوم على مقدمات هي: 1) أنَّ البشر موهوبون لدرجة أنَّهم يستطيعون تصميم كائن ذكاء اصطناعي كلي القدرة وكلي المعرفة، ولكنَّهم في الوقت نفسه حمقى لدرجة أنَّهم سيمنحونه السيطرة الكاملة على الكون دون اختبار سير هذه العملية، و2) أنَّ كائن الذكاء الاصطناعي سيكون عبقريًّا لدرجة أنَّه سيكتشف كيفية تحويل العناصر وإعادة تنظيم الدماغ ولكنَّه في نفس الوقت سيكون أبلهَ لدرجة أنَّه سيثير الفوضى بناءً على أخطاء سوء الفهم البدائية. ليست القدرة على اختيار الفعل الذي يحقِّق الأهداف المتضاربة على أفضل نحوٍ إضافةً للذكاء هي ما قد يخبط المهندسون بأيديهم على جباههم لأنَّهم نسوا تنصيبها، بل إنَّها الذكاء نفسه! وكذلك القدرة على تأويل مقاصد مستخدم اللغة في السياق، فلا يحدث أن يستجيب الروبوت لعبارة "Grab the waiter" التي تعني «اجلب النادل» برفع المتر فوق رأسه والإتيان به، أو عبارة "Kill the light" التي يُقصد بها «اطفئ النور» بإخراج المسدس وإطلاق النار على المصباح سوى في مسلسل كوميدي مثل *Get Smart*.

عندما نضع خيالات مثل "foom" وهوس العظمة الرقمي والمعرفة المطلقة اللحظية والسيطرة التامة على كل جزيء في الكون جانبًا، فسنجد أنَّ الذكاء الاصطناعي مثله كمثل أي تكنولوجيا أخرى، فهو يتطوَّر بصورةٍ متزايدة ومصمَّم لاستيفاء شروط متعددة ويخضع للاختبار قبل تطبيقه وتُجرى عليه التعديلات باستمرار لضمان الكفاءة والسلامة (الفصل الثاني عشر). وكما قال ستيوارت راسل (Stuart Russell) خبير الذكاء الاصطناعي: «لا يتحدث أحدٌ في مجال الهندسة المدنية عن بناء جسور لا تنهار، فهُم يقولون (بناء الجسور) فقط»، ويشير إلى أنَّ الذكاء الاصطناعي المفيد وليس الخطير هو كذلك ببساطة (ذكاء اصطناعي) فقط.

يفرض الذكاء الاصطناعي تحديًا أبسط بالتأكيد، وهو الخاص بما سنفعل بالأشخاص الذين ستقضي الأتمتة على وظائفهم، ولكنَّها لن تقضي على الوظائف بتلك السرعة. فما زالت الملاحظة المذكورة في تقرير ناسا الصادر عام 1965 سارية، وهي: «الإنسان هو نظام حاسب غير خطي لكافة الأغراض وزنه 70 كجم، وهو أقل أنظمة الحاسب تكلفةً، ويمكن إنتاجه بكميات كبيرة بعمالةٍ غير ماهرة». إنَّ قيادة السيارة مشكلة هندسية أسهل من تفريغ غسالة الأطباق أو القيام بمشوار أو تغيير حفاظة الأطفال، وحتى وقت كتابة هذه السطور، فإننا لسنا مستعدين لإطلاق سيارات القيادة الذاتية في شوارع المدن. وحتى يحين اليوم الذي تلقِّح فيه كتائب من الروبوتات الأطفالَ وتبني المدارس في العالم النامي، أو تبني البنية التحتية وتعتني بالمسنِّين في العالم المتقدِّم، سيكون لدى البشر كثيرٌ من الأعمال ليقوموا بها. يمكن تطبيق نفس البراعة التي طُبِّقت في تصميم البرامج والروبوتات في تصميم سياسات للحكومة والقطاع الخاص تصل بين العاطلين عن العمل والأعمال غير المنجزة.

إذا لم تكُن نهايتنا على يد الروبوتات، فماذا عن المخترقين؟ نعرف جميعًا الصور النمطية الشهيرة عن المخترقين: فهُم مراهقون بلغاريون، أو شباب يرتدون صنادل ويشربون ريد بول، أو كما وصفهم دونالد ترامب في مناظرة رئاسية في عام 2016 بأنَّهم «أشخاص يجلسون على أسرَّتهم ويزنون 400 باوند». ووفقًا لاتجاه فكري شائع، فإنَّ القدرة التدميرية المتاحة للفرد ستتضاعف مع تقدُّم التكنولوجيا، فأن يبني مهووس بالتكنولوجيا أو إرهابي قنبلةً نووية في منزله أو يعدِّل جينيًّا فيروسًا وبائيًّا أو يعطِّل الإنترنت مجرد مسألة وقت، ومع اعتماد العالم بشدة على التكنولوجيا، فقد يؤدي العُطل إلى الهلع والمجاعة والفوضى. طرح مارتن ريس (Martin Rees) في عام 2002 رهانًا علنيًّا على أنَّ «الإرهاب البيولوجي أو الخطأ البيولوجي سيؤدي بحلول عام 2020 إلى خسائر تبلغ مليون شخصٍ في حدثٍ واحد».

كيف يجدر بنا أن نفكِّر في هذه الكوابيس؟ يُقصد بها أحياناً دفع الناس نحو أخذ الثغرات الأمنية على محمل الجد، في ظل النظرية (التي سنراها ثانيةً في هذا الفصل) القائلة إنَّ أكثر الطرق فعاليةً لتحريك الناس نحو تبنِّي سياسات مسؤولة هي ترويعهم بشدة، وسواء أكانت هذه النظرية صحيحة أم لا، فلا يستطيع أحدٌ أن يقول إنَّ علينا أن نقنع بالجرائم الإلكترونية أو تفشي الأمراض، وهذه الأمور من الابتلاءات التي أصيب بها العالم المعاصر بالفعل (سأنتقل إلى الخطر النووي في القسم التالي). يحاول الاختصاصيون في مجال أمن الحاسوب والوبائيات باستمرار أن يسبقوا هذه التهديدات بخطوة، وعلى الدول أن تستثمر في كلا المجالين، فيجب جعل البنية التحتية العسكرية والمالية والبنية التحتية للطاقة والإنترنت أكثر سلامةً ومرونةً. يمكن تعزيز معاهدات وضمانات التصدي للأسلحة البيولوجية، ويجب توسيع شبكات الرعاية الصحية العامة العابرة للحدود ذات القدرة على اكتشاف حالات تفشي الأمراض واحتوائها قبل أن تتحول إلى أوبئة عالمية الانتشار. سيكون ذلك، إلى جانب لقاحاتٍ ومضادات حيوية ومضادات فيروسات أفضل واختبارات تشخيصية أسرع، مفيدًا في محاربة مسببات الأمراض بشرية الصنع، وكذلك الطبيعية. سيكون على الدول أيضًا وضع إجراءات لمكافحة الإرهاب ومنع الجريمة مثل المراقبة والمجابهة.

لن يكون الدفاع في كلٍّ من سباقات التسلح تلك منيعًا بالتأكيد، فربما تقع بعض حوادث إرهاب إلكتروني وإرهاب حيوي، ولن تكون احتمالية وقوع كارثة منعدمة مطلقًا. السؤال الذي سأتناوله هو ما إذا كانت هذه الحقائق الكئيبة لا بد وأنَّها ستجعل أي شخص عاقل يستنتج أنَّ البشرية هالكة، هل من الحتمي حقًّا أنَّ المخترقين ذوي القبعات السوداء سيتفوقون يومًا ما في الذكاء على ذوي القبعات البيضاء ويدمِّرون الحضارة؟ هل جعل التقدُّم التكنولوجي العالم هشًّا في صورةٍ جديدة ومثيرة لسخرية القدر؟

لا يستطيع أحد أن يعلم ذلك علم اليقين، ولكن عندما نقوم بالتفكير الهادئ بدلًا من أن يسيطر علينا الفزع من أسوأ السيناريوهات، تبدأ الكآبة بالتبدد. لنبدأ بالمسح التاريخي، أي إذا ما كان الدمار الشامل على يد فردٍ ما، هو النتيجة الطبيعية للعملية التي أطلقتها الثورة العلمية والتنوير. وفقًا لهذه الرواية فإنَّ التكنولوجيا تتيح للناس تحقيق المزيد والمزيد من الأمور بالأقل والأقل من الموارد، إذًا فبتوافر الوقت الكافي، ستتيح لفردٍ واحدٍ القيام بأي شيء، وبالنظر إلى الطبيعة البشرية، يعني ذلك تدمير كل شيء.

ولكنَّ كيفين كيلي (Kevin Kelly)، المحرر المؤسس لمجلة *Wired* ومؤلِّف كتاب ما تريده التكنولوجيا (*What Technology Wants*)، يقول إنَّ التكنولوجيا لا تتقدَّم بهذه الطريقة. كان كيلي المنظِّم المشارك (مع ستيوارت براند Stewart Brand) في المؤتمر الأول للمخترقين في عام 1984، وقيل له منذ ذلك الحين مرارًا وتكرارًا إنَّ التكنولوجيا ستتجاوز يومًا ما قدرة البشر على ترويضها. ولكن رغم توسع التكنولوجيا الهائل خلال تلك العقود (بما يشمل اختراع الإنترنت)، إلَّا أنَّ هذا لم يحدث. يقترح كيلي سببًا لذلك، وهو أنَّه: «كلَّما أصبحت التكنولوجيا أقوى، أصبحت أكثر ترسخًا في المجتمع». تستلزم التكنولوجيا المتطورة شبكةً من المتعاونين المتصلين بشبكاتٍ اجتماعية أوسع، وتلتزم كثيرٌ منها بتأمين الناس من التكنولوجيا ومن بعضهم بعضًا (وأصبحت التكنولوجيا أكثر أماناً بمرور الوقت كما رأينا في الفصل الثاني عشر). يهدم هذا الفكرة المبتذلة الهوليوودية عن العبقري الشرير المنفرد الذي يدير وكرًا للتقنية العالية تعمل فيه التكنولوجيا من تلقاء نفسها بمعجزةٍ. يشير كيلي إلى أنَّ نتيجة ترسخ التكنولوجيا في المجتمع، فإنَّ القوة الهدَّامة للفرد الواحد لم تزدَد بمرور الوقت في الواقع:

> كلَّما كانت التكنولوجيا أقوى وأكثر تطورًا، احتاج استخدامها لسلاحٍ عددًا أكبر من الناس، وكلَّما احتاج استخدامها سلاحًا عددًا أكبر من الناس، عملت المزيد من الضوابط الاجتماعية على تلطيف الأضرار أو التخفيف من حدتها أو منعها

من الحدوث. أضيف إلى ذلك فكرةً أخرى، وهي أنَّك حتى لو كنت تمتلك الميزانية اللازمة لتعيين فريقٍ من العلماء مهمته تطوير سلاح حيوي يقضي على الجنس البشري أو يعطِّل الإنترنت، فلن تستطيع فعل ذلك على الأرجح، لأنَّ الكثير من الجهود على مدار مئات الآلاف من السنوات قد بذلت لمنع هذا من الحدوث من الجانب الخاص بالإنترنت، والكثير من الجهود التطورية على مدار ملايين السنوات لمنع انقراض النوع من الجانب الخاص بالأحياء. ويصعب القيام بذلك للغاية، إذ كلَّما كان الفريق الفاسد أصغر، كان الأمر أصعب، وكلَّما كان الفريق أكبر، كانت التأثيرات المجتمعية أكبر.

كل هذا الكلام مجرَّد! نظرية عن قوس التكنولوجيا الطبيعي في مقابل نظرية أخرى عنه، كيف ينطبق هذا الكلام على الأخطار الفعلية التي نواجهها كي نستطيع التفكير فيما إذا كانت البشرية هالكة؟ يكمن السر في عدم الانخداع بانحياز التوفر وافتراض أنَّنا إذا استطعنا تخيُّل شيءٍ بشع، فلا بد له أن يحدث! يعتمد الخطر الحقيقي على الأرقام: مثل نسبة الذين يريدون التسبُّب في العنف أو جرائم القتل الجماعية، ونسبة تلك الفئة الضئيلة التي تريد الإبادة العرقية التي تتمتَّع بالكفاءة لإعداد سلاح بيولوجي أو إلكتروني فعَّال، والفئة الضئيلة من تلك الفئة الضئيلة التي ستنجح مخططاتها بالفعل، والفئة الضئيلة من تلك الفئة الضئيلة من تلك الفئة الضئيلة التي ستُحدِث جائحة عنيفة تقضي على الحضارة عوضًا عن ضررٍ بسيط أو ضربة طفيفة أو حتى كارثة تستمر الحياة بعدها.

لنبدأ بعدد المخابيل، هل يأوي العالم الحديث رقمًا كبيرًا من الأشخاص الذين يريدون ارتكاب العنف والقتل ضد الغرباء؟ لو كان هذا هو الواقع، لكانت الحياة مستحيلة، إذ كان يمكن أن يصاب هؤلاء بحالات هياج يطعنون فيها الآخرين، ويطلقون النار على الحشود ودهس المشاة بالسيارات ويفجرون قنابل يدوية في حلل الضغط ويدفعون الناس من فوق أرصفة الشوارع ومترو الأنفاق في اتجاه السيارات والقطارات المندفعة. حَسَب الباحث جوين برانوين (Gwern Branwen) أنَّ القنَّاص المدرَّب أو القاتل المتسلسل بإمكانه قتل مئات الأشخاص دون أن يستطيع أحدٌ الإمساك به. والشخص المخرِّب المتعطِّش للدمار قد يتلاعب بمنتجات المتاجر، أو يضيف بعض المبيدات الحشرية إلى حقول التسمين أو شبكات إمداد المياه، أو حتى يجري مكالمة من مجهول يدَّعي فيها أنَّه فعل أيًّا من هذه الأمور، وقد يكلِّف سحب المنتجات من الأسواق نتيجةً لذلك الشركات مئات الملايين من الدولارات، وتكلِّف خسارة الصادرات الدول مليارات الدولارات. قد تحدث مثل هذه الهجمات في كل مدن العالم عدة مرات في اليوم، ولكنَّها في الحقيقة تحدث في مكانٍ أو آخر كل بضع سنوات (مما أدَّى ببروس شناير Bruce Schneier إلى أن يتساءل: «أين كل هذه الهجمات الإرهابية؟») رغم كل الرعب الذي يولِّده الإرهاب، إلَّا أنَّه لا بد أنَّ الأفراد الذين ينتظرون الفرصة لإحداث تدميرٍ غاشم لا يمثِّلون سوى فئة ضئيلة.

كم فردًا من بين هؤلاء المنحرفين يشكِّلون فئة أقل تتمتَّع بالذكاء والانضباط اللازمين لتطوير سلاح حيوي أو إلكتروني فعَّال؟ إنَّ معظم الإرهابيين خرقى وحمقى وليسوا أصحاب عقول مدبِّرة إرهابية على الإطلاق. من الأمثلة النموذجية على هذا النوع من البشر صاحب الحذاء الناسف الذي فشل في محاولة إسقاط طائرة بإشعال المتفجرات المخبأة في حذائه، وصاحب الملابس الداخلية الناسفة الذي فشل في محاولة إسقاط طائرة عبر تفجير المتفجرات المخبأة في ملابسه الداخلية، والمدرِّب المنتمي إلى داعش الذي كان يشرح لتلاميذه الإرهابيين الانتحاريين الصاعدين على سترة متفجرة ففجَّر نفسه وفجَّر الواحد وعشرين متدرِّبًا، والأخوان تسارناييف اللذان أتبعا تفجير ماراثون بوسطن الذي ارتكباه بقتل ضابط شرطة في محاولة فاشلة لسرقة مسدسه، ثم انطلقا في حملة سطو وسرقة سيارة ومطاردة بالسيارات على الطراز الهوليوودي دهس فيها أحدهما الآخر، وعبد الله العسيري الذي حاول اغتيال نائب رئيس مجلس الوزراء السعودي بعبوة ناسفة بدائية مخبئة في فتحة شرجه ولم ينجح سوى في القضاء على نفسه فقط (ذكرت شركة تحليلات استخباراتية أنَّ

هذا الحادث «يدل على نقلة نوعية في تكتيكات التفجير الانتحاري»). يحالف الحظ أحياناً فريقًا ماهرًا ومتدرِّبًا من الإرهابيين كما حدث في الحادي عشر من سبتمبر عام 2001، ولكنَّ أغلب المخططات الناجحة عبارة عن هجمات قائمة على تكنولوجيا بدائية على تجمعات مليئة بالمستهدفين تقتل عددًا قليلاً من الناس (كما رأينا في الفصل الثالث عشر). أقول بثقةٍ إنَّ نسبة الإرهابيين العباقرة من الناس أصغر من نسبة الإرهابيين مضروبةً في نسبة الأشخاص العباقرة. الإرهاب كما هو واضح تكتيك عقيم، والعقل الذي يسعد بالعنف الفارغ لمصلحته الخاصة ليس على الأرجح ألمع العقول الموجودة.

لنأخذ الآن عدد صانعي الأسلحة والقنابل العباقرة ونطرح منه النسبة التي تتمتَّع بالحنكة والحظ للتفوق في الذكاء على الشرطة والخبراء الأمنيين وقوات مكافحة الإرهاب في العالم، ربما لا يكون العدد الناتج صفرًا ولكنَّه بالتأكيد ليس كبيرًا. وكما في كل المشروعات المعقدة، فإنَّ يدًا واحدة لا تصفق، وقد يكون تنظيمٌ من الإرهابيين البيولوجيين أو الإلكترونيين أكثر فعالية من عقل مدبِّرٍ منفرد، ولكن هنا نذكر ملاحظة كيلي، فالقائد سيكون عليه تجنيد فريق من المتواطئين الذين أثبتوا كفاءتهم وسريتهم وإخلاصهم للقضية المنحرفة، وإدارة هذا الفريق، ومع ازدياد حجم الفريق، تزداد احتمالية كشفه واحتمالية الخيانة والتسلُّل والخطأ والتخفي.

ستتطلَّب التهديدات الخطيرة لسلامة البنية التحتية لبلدٍ ما موارد ضخمة كموارد دولةٍ ما، فاختراق البرامج ليس كافيًا، إذ يحتاج المخترق إلى معرفة تفصيلية بالبنية المادية للأنظمة التي يأمل في تخريبها. عندما فضحت دودة ستوكسنت أجهزة الطرد المركزية النووية الإيرانية في 2010، تطلَّب هذا جهودًا منسَّقة بين دولتين متطورتين تكنولوجيًّا وهما الولايات المتحدة وإسرائيل. تصعِّد العمليات التخريبية الإلكترونية الحكومية هذه الأحقاد من إرهابٍ إلى شكلٍ من أشكال الحرب، تحول فيه قيود العلاقات الدولية –كما في الحرب «الحركية» التقليدية– مثل الأعراف والمعاهدات والعقوبات والرد بالمثل والردع العسكري دون الهجمات العدوانية. وأصبحت هذه القيود أكثر فعاليةً في منع الحروب بين الدول كما رأينا في الفصل الحادي عشر.

ولكنَّ المسؤولين العسكريين الأمريكيين حذَّروا من هجوم رقمي يشبه «هجوم بيرل هاربر» و«نهاية العالم الإلكترونية» تخترق فيها الدول الأجنبية أو المنظمات الإرهابية المتطورة المواقع الإلكترونية الأمريكية لتحطيم الطائرات وفتح بوابات السدود وإذابة محطات الطاقة النووية وفصل شبكات الكهرباء وتعطيل النظام المالي. يعتبر معظم خبراء الأمن الإلكتروني التهديدات مبالغًا فيها، ذريعةً للحصول على المزيد من التمويل العسكري والسلطة والقيود على الخصوصية والحرية على الإنترنت. أمَّا في الواقع فلم يتعرَّض شخصٌ واحد حتى الآن للإصابة جراء هجمة إلكترونية، إذ كانت الهجمات غالبًا عبارة عن مضايقات مثل الاختراق والفضح، أي تسريب وثائق سرية أو رسائل إلكترونية (كما حدث عند التدخل الروسي في الانتخابات الأمريكية لعام 2016) وهجمات حجب الخدمة المتفرقة، التي تُغرِق فيها شبكة البوت (وهي منظومة من أجهزة الحاسب المخترقة) أحد المواقع الإلكترونية بازدحام البيانات. يشرح شناير الأمر كما يلي: «ربما تتمثَّل المقارنة الواقعية في حالة غزو جيشٍ دولةً ما، ثم اصطف هذا الجيش كله أمام الناس في إدارة المرور كي لا يستطيعوا تجديد رخصة القيادة، لو كان هذا ما تبدو عليه الحرب في القرن الحادي والعشرين، فليس لدينا ما نخشاه تقريبًا».

ولكنَّ ضآلة الاحتمالات لا تعزِّي القائلين بالهلاك التكنولوجي، فهُم يقولون إنَّ كل ما يتطلَّبه ذلك أن يحالف الحظ مخترقًا أو إرهابيًّا واحدًا أو دولةً فاسدة واحدةً فقط وتنتهي اللعبة. ولهذا تلي كلمة (الوجودية) كلمة (الأخطار)، ممَّا جعل استخدامها شائعًا أكثر من أي وقتٍ مضى منذ أوج فترة سارتر وكامو. حذَّر رئيس هيئة الأركان المشتركة في عام 2001 أنَّ «أكبر خطر وجودي قائم هو الإنترنت» (ممَّا حثَّ جون مولر على التعليق قائلًا: «بفرض أنَّ هذا بالمقارنة مع الأخطار الوجودية الصغيرة»).

تقوم هذه النزعة الوجودية على انحدار من المضايقات إلى المِحن إلى المآسي إلى الكوارث إلى الفناء. لنفترض وقوع أحداث إرهاب بيولوجي أو خطأ بيولوجي بالفعل وتسبُّبها في مقتل مليون شخصٍ، لنفترض أنَّ أحد المخترقين نجح بالفعل في تعطيل الإنترنت، هل ستفنى الدولة حرفيًّا؟ هل ستنهار الحضارة؟ هل سينقرض الجنس البشري؟ لا داعي للمبالغة، فحتى هيروشيما ما زالت قائمة! إنّ الافتراض الشائع هو أنَّ الإنسان المعاصر عاجزٌ للغاية لدرجة أنَّ الإنترنت لو انهار في أي وقت، فسيقف المزارعون مكتوفي الأيدي بينما يشاهدون محاصيلهم تتعفَّن ويتضور سكان المدن جوعًا، ولكنَّ علم اجتماع الكوارث (أجل، يوجد فرعٌ من علم الاجتماع مختص بذلك) يوضِّح أنَّ الناس مرنون للغاية في مواجهة الكوارث، فهُم لا ينهبون أو يهلعون أو يصابون بشلل التفكير، بل يتعاونون بعفوية من أجل استعادة النظام ويرتجلون شبكات لتوزيع السلع والخدمات. ذكر إنريكو كوارانتيلي (Enrico Quarantelli) أنَّه في غضون دقائق من انفجار هيروشيما النووي حصل ما يلي:

> شارك الناجون في عمليات البحث والإنقاذ وساعدوا بعضهم بعضًا بأي طريقة ممكنة وانسحبوا من المناطق المحترقة بالطيران، وخلال يومٍ واحد، كانت بعض المجموعات قد أعادت الطاقة الكهربائية إلى بعض المناطق، واستأنفت إحدى شركات الصلب عملها بـ 20% من عمالها، واجتمع موظفو الاثني عشر مصرفًا الذين تشملهم هيروشيما في فرع هيروشيما في المدينة وبدؤوا في عمليات الدفع، وتم إخلاء خطوط الترولي المؤدية إلى المدينة بصورةٍ شاملة واستعادت حركتها المرورية جزئيًّا في اليوم التالي، وهذا إلى جانب التخطيط الذي قامت به الحكومة والمنظمات العسكرية التي نجا بعضها.

كان أحد الأسباب التي جعلت أعداد الوفيات في الحرب العالمية الثانية مفزعة أنَّ المخطِّطين للحرب من الجانبين تبنَّوا استراتيجية قصف المدنيين حتى انهيار المجتمع، وهو ما لم يحدث مطلقًا. ولم تكُن هذه المرونة إحدى بقايا المجتمعات المتجانسة الماضية، إذ تستطيع مجتمعات القرن الحادي والعشرين التأقلم مع الكوارث أيضًا، كما رأينا عند إخلاء وسط مانهاتن بنظامٍ عقب هجمات الحادي عشر من سبتمبر في الولايات المتحدة وغياب أي أثر للهلع في إستونيا في عام 2007 عندما تعرَّضت لهجومٍ إلكتروني مدمِّر وحاجب للخدمات.

ربما يمثل الإرهاب البيولوجي تهديدًا وهميًّا آخر، إذ لم تلعب الأسلحة البيولوجية التي نبذتها جميع الدول تقريبًا في معاهدة دولية عام 1972 أي دور في الحروب المعاصرة. كان الحظر مدفوعًا بالنفور العام من الفكرة في حد ذاتها، ولكن لم تكُن جيوش العالم بحاجةٍ إلى إقناع لأنَّ الكائنات الحية الصغيرة تمثِّل أسلحة سيئة، فيمكن أن ترتد بسهولة وتُصيب صُناع السلاح والجنود والمواطنين من الجانب الذي يستخدمها (تخيل إصابة الأخوين تسارناييف بجراثيم الجمرة الخبيثة). ويعتمد تفشي المرض أو تلاشيه على شبكة ديناميكية معقدة لا يستطيع التنبؤ بها حتى أفضل علماء الأوبئة.

ولا تناسب العوامل البيولوجية الإرهابيين لأن هدفهم هو الاستعراض وليس التدمير (كما رأينا في الفصل الثالث عشر)، ويرى عالم الأحياء بول إيوالد (Paul Ewald) أن الانتخاب الطبيعي لمسببات الأمراض يتعارض مع هدف الإرهابيين في التدمير المفاجئ والمثير. فالجراثيم التي تعتمد على الإصابة بالعدوى عن طريق الانتقال من شخص إلى آخر بسرعة مثل فيروس نزلات البرد تُنتخب طبيعيًا لإبقاء الشخص المصاب حيًّا ومتنقلًا حتى يصافح أكبر عدد ممكن من الناس ويعطس بالقرب منهم، ولا تطمع الجراثيم وتقتل مصابيها إلا عندما تكون لديها طريقة أخرى في الانتقال من جسدٍ إلى آخر مثل البعوض (كما في حالة الإصابة بالملاريا) أو مصدر مياه ملوث (كما في حالة الإصابة بالكوليرا) أو الخنادق المكتظة بالجنود المصابين (كما حدث في 1918 عند انتشار الإنفلونزا الإسبانية). وتقع مسببات الأمراض المنقولة جنسيًّا مثل فيروس نقص المناعة البشرية المكتسب ومرض الزهري في منزلة متوسطة، فهي تحتاج إلى فترة حضانة

طويلة خالية من الأعراض ينقل خلالها المصابون العدوى إلى شركائهم ثم تبدأ في إحداث الضرر بعد انقضاء هذه الفترة. وتتناسب شدة الجراثيم عكسيًا مع قدرتها على العدوى، لذا سيحبط تطور الجراثيم آمال الإرهابيين في إطلاق وباء سريع ومميت يستحق أن يكون عنوانًا رئيسيًّا في الصُحف. ويمكن للإرهابيين البيولوجيين كسر القاعدة نظريًا بمسببٍ للمرض شديد ومُعدٍ وقادر على الحياة خارج أجسام مصابيه، ولكنَّ إنتاج مثل هذه الجرثومة سيحتاج إلى تجارب تشبه تجارب النازيين على البشر الأحياء ومن المستبعد حتى على الإرهابيين (فما بالك بالمراهقين منهم!) تنفيذ تجاربٍ كهذه. ربما لم يكُن ابتلاء العالم سوى بهجمة إرهابية بيولوجية واحدة فقط (عندما سممت طائفة راجنيش «Rajneesh» الدينية السَلَطة بالسالمونيلا في ولاية أوريجون عام 1984، وهو ما لم ينتج عنه أي وفيات) وجريمة قتل متعددة واحدة (إرسال بكتيريا الجمرة الخبيثة بالبريد مما تسبب في قتل خمسة أشخاص في عام 2001) مجرد ضربة حظ.

إنّ ما هو أكيد هو أنّ التقدم في علم الأحياء التركيبي مثل تقنيات تعديل الجينات كريسبر كاس 9 (CRISPR-Cas9) يسهّل التلاعب بالكائنات الحية بما فيها مسببات المرض، لكن يصعب إعادة تصميم سمة متطورة معقدة بإضافة جين أو اثنين لأن تأثير أي جين مرتبط ارتباطًا وثيقًا بجينوم الكائن الحي. ويقول إيوالد: «لا أعتقد أننا اقتربنا إلى فهم كيفية إضافة مجموعة من المتغيرات الجينية التي تعمل بتناغم على توليد صفتي سرعة العدوى وشدة الضرر على البشر إلى أيٍ من مسببات المرض»، ويضيف خبير التكنولوجيا الحيوية روبرت كارلسون (Robert Carlson) أنّ: إحدى المعضلات التي تواجه بناء أي فيروس إنفلونزا هي الحاجة إلى الحفاظ على نظام الإنتاج (سواء أكان خلايا أم بويضات) حيًّا لفترةٍ كافية لإنتاج كمية كافية من شيءٍ يحاول تدمير نظام الإنتاج.. ويصعب جدًا بدء تشغيل الفيروس الناتج.. لن أنفي هذا التهديد تمامًا، ولكنّني بصراحة قلقٌ أكثر بشأن ما تبلينا به الطبيعة طوال الوقت».

والأهم من ذلك أن التقدم في علم الأحياء يسير في الاتجاه الآخر أيضًا: فهو يُسّهل الكثير من الأمور على الأشخاص الصالحين (وهناك الكثير منهم) مثل اكتشاف مسببات الأمراض واختراع المضادات الحيوية التي يمكنها التغلب على البكتيريا المقاومة للمضادات الحيوية وسرعة تطوير اللقاحات، مثل لقاح الإيبولا الذي طُوّر في الأيام الأخيرة في الفترة الطارئة في عامي 2014-2015 بعد أن أوقفت مجهودات الصحة العامة عدد الوفيات عند 12 ألف بدلًا من ملايين الضحايا الذين تنبأت بها وسائل الإعلام. وبذلك انضم فيروس الإيبولا لقائمة الأمراض التي ثبت خطأ توقُّع تفشيها على نطاقٍ عالمي مثل حمى لاسا وفيروس الهنتا وفيروس الكورونا ومرض جنون البقر وإنفلونزا الطيور وإنفلونزا الخنازير، ولم يكن من الممكن لبعض هذه الأمراض من الأساس التفشي على نطاقٍ عالمي بسبب انتقالها من الحيوانات أو الطعام إلى البشر بدلًا من الانتقال المتسارع للعدوى من شخص إلى آخر، وقضت على بعضها الآخر الجهود الطبية وتدخلات هيئات الصحة العامة. وبالطبع فلا يعلم أحدٌ يقينًا ما إذا كان أحد العباقرة الأشرار سيتغلب يومًا ما على دفاعات العالم وينشر وباءً من أجل المتعة أو الانتقام أو من أجل قضية مقدسة، ولكنَّ العادات الصحفية وانحيازات التوفر والسلبية تزيد من فرصة حدوث ذلك، ولهذا قبلتُ تحدي السيد مارتن، وربما تعرف من الفائز فينا في وقت قراءتك هذا الكتاب.

بعض التهديدات التي تواجه البشرية متناهية الصغر أو مجرد أوهام، ولكنَّ أحدها حقيقيٌ جدًا: الحرب النووية، إذ يمتلك العالم أكثر من عشرة آلاف سلاح نوويّ مُوزعٍ على تسع دول، وكثيرٌ منها مُثبت على صواريخ أو مُحمل في قاذفات القنابل ويمكنه إصابة آلاف الأهداف خلال ساعات أو أقل، وكلٌّ منها مصمم لإحداث دمارٍ هائل: إذ تستطيع القنبلة النووية الواحدة تدمير مدينة كاملة، ويمكن لجميع القنابل قتل مئات الملايين من البشر عن طريق ما ينتج عنها من انفجارات وحرارة وإشعاعات وغبار ذري مشع. لو بدأت الحرب بين

الهند وباكستان وانفجرت المئات من قنابلهم النووية، فقد يُقتل عشرون مليون شخص في الحال، ويستطيع السخام الناتج عن العواصف النارية الوصول إلى الغلاف الجوي وتخريب طبقة الأوزون وخفض درجة حرارة الكوكب لأكثر من عقدٍ كامل وهو ما سيؤدي إلى خفض إنتاج الغذاء وإلى مجاعةٍ تصيب أكثر من مليار شخص. ويمكن لتبادل إطلاق الأسلحة النووية الشامل بين الولايات المتحدة وروسيا خفض درجة حرارة الأرض بمقدار 8 درجات مئوية لسنوات، وخلق شتاء (أو خريف على الأقل) نووي مما سيؤدي إلى إصابة المزيد بالمجاعة. وسواء أكانت الحرب النووية ستدمر الحضارة (كما يؤكد الكثيرون) أو الجنس البشري أو الكوكب أم لا، فإنّها ستكون مروعة أكثر مما يمكن أن نتخيل.

بعد سقوط القنابل النووية على اليابان بقليل، وبعدما انطلقت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي في سباق التسلح النووي، بدأ شكل جديد من التشاؤم التاريخي يترسخ، ومن منظورٍ بروميثي[3] لهذه القصة، فإنَّ البشرية قد انتزعت معرفة مهلكة من الآلهة وحُكم عليها بإبادة نفسها لعدم امتلاكها الحكمة اللازمة لاستخدام هذه المعرفة بمسؤولية، وفي روايةٍ أخرى، لا تسير البشرية وحدها إلى هذا المصير المأسوي وإنَّما أي ذكاء متطور. ويفسر هذا لماذا لم تزُرنا كائنات فضائية بعد على الرغم من أنَّ الكون لا بد وأن يكون مليئًا بها (مفارقة فيرمي المسماة على اسم إنريكو فيرمي Enrico Fermi الذي طرح هذا السؤال لأول مرة)، فبمجرد نشوء الحياة على كوكبٍ ما، تتطور حتمًا إلى الذكاء والحضارة والعلم والفيزياء النووية والأسلحة النووية والحرب الانتحارية مبيدةً نفسها قبل أن تغادر مجموعتها الشمسية.

تُعد الأسلحة النووية في رأي بعض المثقَّفين اتهامًا للمؤسسة العلمية –والحداثة نفسها بالتأكيد– لأنَّ خطر حدوث محرقة يلغي أي هدايا أخرى وهبنا العلم إياها، يبدو اتهام العلم في غير محله بما أنه منذ فجر العصر النووي عندما كان التيار الرئيسي من العلماء مهمَّشًا من السياسة النووية، كان علماء الفيزياء هم من شنوا حملة مدوية لتذكير العالم بخطر الحرب النووية وحثوا الدول على نزع الأسلحة. من هؤلاء الرموز التاريخية نيلز بور (Niels Bohr) ويوليوس روبرت أوبنهايمر (J. Robert Oppenheimer) وألبرت أينشتاين (Albert Einstein) وإيزيدور رابي (Isidor Rabi) وليو زيلارد (Leo Szilard) وجوزيف روتبلات (Joseph Rotblat) وهارولد يوري (Harold Urey) وتشارلز بيرسي سنو (C. P. Snow) وفيكتور فايسكوف (Victor Weisskopf) وفيليب موريسون (Philip Morrison) وهيرمان فيشباخ (Herman Feshbach) وهنري كيندال (Henry Kendall) وثيودور تايلور (Theodore Taylor) وكارل ساجان (Carl Sagan)، وما تزال الحركة مستمرة بين العلماء المرموقين حتى الآن بمن فيهم ستيفن هوكينج (Stephen Hawking)[4] وميتشيو كاكو (Michio Kaku) ولورنس كراوس (Lawrence Krauss) وماكس تيجمارك (Max Tegmark). أسس العلماء المؤسسات الناشطة الكبرى والرقابية بما فيها اتحاد العلماء المهتمين (Union of Concerned Scientists) واتحاد العلماء الأمريكيين ولجنة المسؤولية النووية (Committee for Nuclear Responsibility) ومؤتمرات باجواش (Pugwash Conferences) ونشرة علماء الذرة التي يعرض غلافها ساعة نهاية العالم الشهيرة مضبوطة على دقيقتين ونصف قبل منتصف الليل.

وللأسف يعتبر علماء الفيزياء أنفسهم خبراء في مجال علم النفس السياسي ويبدو أن معظمهم يتبنى النظرية الشعبية القائلة بأن الطريقة الأكثر تأثيرًا لحشد الرأي العام هي استخدام الخوف والترهيب، وعلى الرغم من احتواء عنوان المجلة على كلمة «علماء»، إلَّا أنَّ

---

3 نسبة إلى بروميثيوس، سارق نار المعرفة من الآلهة.
4 توفي مؤخراً

الساعة المشيرة إلى نهاية العالم لا تتبع المؤشرات الموضوعية على الأمن النووي وإنما هي مجرد حيلة دعائية حسبما يقول مؤسسها: «للحفاظ على الحضارة عن طريق دفع الناس بالخوف في اتجاه العقلانية». كان مؤشر دقائق عقارب الساعة أبعد عن منتصف الليل في عام 1962، في وقت أزمة الصواريخ الكوبية مقارنةً بعام 2007 الذي كان أهدأ كثيرًا لأنَّ المحررين أعادوا تعريف «نهاية العالم» لتشمل التغير المناخي خوفًا من لا مبالاة الرأي العام بالأمر، وقد صدر عن الخبراء العلميين بعض التنبؤات الخاطئة أثناء حملتهم لإخراج الناس من لا مبالاتهم، مثل:

"لن تتجنب البشرية التدمير الذاتي الوشيك إلا بتأسيس حكومة عالمية واحدة" ألبرت أينشتين في 1950.

"لدي اعتقادٌ راسخ بأننا إن لم نفكر بصورة جادة ومتزنة في مختلف جوانب المشكلة الاستراتيجية.. فلن نصل إلى عام 2000 -أو حتى عام 1965- دون وقوع كارثة" هيرمان كان (Herman Kahn) في 1960.

"ستُطلق بعض هذه القنابل النووية خلال عشرة سنوات على الأكثر، وأقول ذلك بكل ما أستطيع من مسؤولية، فهذه حقيقة مؤكدة" تشارلز بيرسي سنو في عام 1961.

"أنا على يقينٍ تام -وليس لديّ أي شكٍ فيما أقول- أنه بحلول عام 2000 ستكونون جميعًا (يخاطب الطلاب) أمواتًا" جوزيف ويزنباوم (Joseph Weizenbaum) في عام 1976.

وقد ساندهم خبراء مثل الباحث في العلوم السياسية هانز مورجنتاو (Hans Morgenthau) المناصر الشهير «للواقعية» فيما يخص العلاقات الدولية والذي تنبأ بالتالي في عام 1979:

"أعتقد أن العالم يتجه نحو حرب عالمية ثالثة حتمًا، حرب نووية استراتيجية، ولا أظن أن هناك ما يمكن فعله لتجنبها."

والصحافي جوناثان شيل (Jonathan Schell) الذي أنهى كتابه «مصير الأرض» *(The Fate of the Earth)* بما يلي:

"سنقرر يومًا ما -ومن الصعب الاعتقاد بعدم اقتراب هذا اليوم- إذا ما كنا سنغرق في غيبوبتنا الأخيرة، أو نستيقظ على حقيقة الخطر الذي نعرض أنفسنا له.. ونطهر الأرض من الأسلحة النووية".

أصبحت هذه النبوءات موضة قديمة بعد انتهاء الحرب الباردة وعدم غرق البشرية في غيبوبتها الأخيرة على الرغم من عدم إقامة حكومة عالمية أو تطهير الأرض من الأسلحة النووية. يحرص النشطاء على الاحتفاظ بقوائم الحروب النووية الوشيكة لإبقاء المخاوف حية ولإظهار أن نهاية العالم كانت دومًا وشيكة جدًا وأنَّ البشرية لم تنجُ إلا بضربات حظ مدهشة متتالية، وتميل القوائم لتجميع لحظات خطيرة حقًا مثل مناورة حلف الناتو التي حدثت في عام 1983 والتي كاد المسؤولون السوفييت يتصورون أنَّها ضربة أولى وشيكة، وكذلك الهفوات والزلات الصغيرة مثلما حدث في عام 2013 عندما ثمل الجنرال الأمريكي المسؤول عن الصواريخ النووية خارج ساعات عمله وتصرف بحماقة مع النساء أثناء رحلة مدتها أربعة أيام في روسيا. ولم يوضِّح مطلقًا تسلسل الأحداث الذي قد يؤدي إلى تبادل إطلاق

الصواريخ النووية، ولم تُعطَ أي تقديرات بديلة لهذه الحوادث كي تضعها في إطارها الصحيح وتقلل الخوف.

إنّ الرسالة التي يود النشطاء المناهضون للأسلحة النووية توصيلها هي «أننا سنموت في أي يوم الآن وبشكلٍ مروع مالم يتخذ العالم تدابير فورية من المستحيل عمليًا اتخاذها»، وتأثير ذلك على العامة كما هو متوقع: يتجنب الناس التفكير فيما لا يمكن تصوره ويواصلون حياتهم ويتمنون أن يكون الخبراء مخطئين، وتراجعت الإشارة إلى «الحرب النووية» بانتظام في الكتب والصحف منذ ثمانينيات القرن الماضي وأولى الصحفيون اهتمامًا للإرهاب وعدم المساواة والفضائح والحماقات المختلفة أكبر من الاهتمام الذي يولونه للأخطار التي تهدد بقاء الحضارة. ولا يتأثر قادة العالم أيضًا، فعندما كان كارل ساجان مؤلفًا مشاركًا في الورقة التحذيرية الأولى من شتاءٍ نووي، وعندما شن حملة من أجل تجميد التسليح النووي عن طريق توليد «الخوف ثم التصديق ثم الاستجابة» قال له خبير تحديد الأسلحة: «إذا كنت تظن أن مجرد احتمالية نهاية العالم كافية لتغيير السياسات في واشنطن وموسكو فمن الواضح أنك لم تقضِ وقتًا كافيًا في أيٍّ منهما».

تحولت التوقعات عن الكارثة النووية الوشيكة في العقود الأخيرة من الحرب النووية إلى الإرهاب النووي، فمثلًا كتب الدبلوماسي الأمريكي جون نجروبونتي (John Negroponte) في عام 2003: «هناك احتمال كبير أنَّ القاعدة ستشن هجمة باستخدام سلاح نووي أو سلاح دمار شامل خلال عامين». وعلى الرغم من أنه لا يمكن أبدًا إنكار التوقعات المحتملة التي لم تقع من الأساس (ذكر مولر في مجموعته أكثر من 70 توقعًا بمواعيد نهائية متعاقبة على مدار عدة عقود) إلَّا أنَّ الكم الهائل من التوقعات الخاطئة يشير إلى أن المتنبئين يميلون لإخافة الناس (كتب أربعة سياسيين أمريكيين مقالة عن خطر الإرهاب النووي في عام 2004 بعنوان «شعرنا يحترق» "Our Hair Is on Fire"، وهذا الأسلوب مريب. فالهجمات الحقيقية بالأسلحة النارية والقنابل منزلية الصنع يمكنها حث الناس بسهولة على دعم الممارسات القمعية مثل المراقبة الداخلية أو حظر هجرة المسلمين الوافدين، لكنَّ التوقعات بحدوث انفجار نووي في الشوارع الرئيسية لم تُثِر سوى القليل من الاهتمام بسياسات مكافحة الإرهاب النووي مثل البرنامج العالمي لضبط المواد الانشطارية.

توقع نقاد الحملات التخويفية الأولى من الأسلحة النووية مثل هذه النتائج العكسية، فلاحظ عالم اللاهوت راينهولد نيبار (Reinhold Niebuhr) منذ وقت بعيد، في عام 1945 أنَّه: «مهما كانت ضخامة الأخطار المطلقة فإنَّ تأثيرها الحقيقي على الخيال البشري أقل من الاستياءات والصراعات المباشرة مهما كانت صغيرة مقارنةً بها». وجد المؤرخ بول بوير (Paul Boyer) أنَّ التهويل النووي شجَّع في الواقع على سباق التسلح عن طريق حث الدولة على السعي لامتلاك قنابل أكبر وأكثر لردع السوفييت بشكل أفضل، وحتى يوجين روبينويتش (Eugene Rabinowitch) منشئ ساعة نهاية العالم ندم على استراتيجية حركته فقال: «بينما كان العلماء يحاولون تخويف الناس كي يتعقلوا، أصابوا الكثيرين بالخوف المرعب أو الكراهية العمياء».

وكما رأينا في حالة التغير المناخي، فربما تزيد احتمالية اعتراف الناس بمشكلةٍ ما عندما يعتقدون بإمكانية حلها خلافًا لما يحدث عندما يفقدون الأمل والإحساس بسبب الرعب. ينبغي أن تشتمل الخطة الإيجابية لإزالة خطر الحرب النووية على عدة أفكار.

الفكرة الأولى هي التوقف عن إخبار الجميع بأنهم هالكون. وحقيقة الحقبة النووية الأساسية أنه لم تُستخدم قنبلة نووية واحدة منذ حادثة ناجازاكي، وإذا ظلت عقارب الساعة تشير إلى قُرب حلول منتصف الليل خلال بضع دقائق لمدة 72 سنة فهناك خطأٌ ما في

الساعة. وربما حالفت العالم ضربات متتالية من الحظ السعيد –لن يعرف أحد أبدًا ما إذا كان هذا حقيقيًّا– ولكن قبل أن نُسلِّم باستنتاج ليس عليه أي دليل علمي، ينبغي أن نضع في الاعتبار احتمالية أن تكون خصائص النظام الدولي قد ناهضت استخدام القنابل النووية، ويكره كثيرٌ من النشطاء المناهضين للأسلحة النووية هذه الطريقة في التفكير لأنها تخفف عبء نزع الأسلحة عن الدول، ولكن بما أن الدول التسع الحائزة على أسلحة نووية لن تفكك أسلحتها قريبًا، فيجب علينا أن نكتشف الصواب فيما حدث سابقًا حتى يمكننا الإكثار منه.

والأهم من ذلك الاكتشاف التاريخي الذي أوجزه الباحث في العلوم السياسية روبرت جيرفيس كما يلي: «لم تكشف السجلات السوفيتية بعد عن أي خطط جادة لعدوان غير مبرر على غرب أوروبا وبالطبع أي خطط لضربة أولى ضد الولايات المتحدة»، يعني ذلك أنَّ الأسلحة المعقدة والمبادئ الاستراتيجية للردع النووي خلال الحرب الباردة –وهي ما أسماها أحد الباحثين في العلوم السياسية «الميتافيزيقيا النووية»– كانت تحاول ردع هجوم لم ينوِ الاتحاد السوفيتي شنه من الأساس. وبانتهاء الحرب الباردة، تلاشت المخاوف من الاحتلال الواسع والضربات الاستباقية بالأسلحة النووية، (وكما سنرى لاحقًا) شعر كلا الجانبين بالأمان الكافي لخفض مخزون الأسلحة لديهما دون أن يكلفا نفسيهما عناء المفاوضات الرسمية. وعلى عكس ما تقول نظرية الحتمية التكنولوجية التي ترى أنَّ الأسلحة النووية ستشن حربًا من تلقاء نفسها، فإنَّ الخطورة في الأساس تعتمد على حالة العلاقات الدولية، ويعود أكثر الفضل في غياب الحرب النووية بين القوى العظمى إلى عوامل الحد من الحروب بينها (كما رأينا في الفصل الحادي عشر) وكل ما يُقلل من احتمالية نشوب حرب، يُقلل كذلك من احتمالية نشوب حرب نووية.

ربما لا تعتمد النجاة من حروب نووية وشيكة أيضًا على ضربات حظ متتالية مدهشة، بل يرى العديد من علماء السياسة والمؤرخين الذين حللوا الوثائق الخاصة بأزمة الصواريخ الكوبية وخاصةً نصوص اجتماعات جون كينيدي بمستشاريه الأمنيين أنَّه على الرغم من رؤية المشاركين أنهم أنقذوا العالم من نهاية وشيكة، إلَّا أنَّ «احتمالية دخول الأمريكان في حرب كانت شبه معدومة». وتبين السجلات أنَّ كلًّا من خورشوف (Khrushchev) وكينيدي أحكم قبضته على الحكومة وسعى إلى نهاية سلمية للأزمة متجاهلَيْن التحريضات، وأتاحا لنفسيهما الكثير من الخيارات للتراجع.

لا تعني الإنذارات الكاذبة المخيفة واحتمالية حدوث إطلاقات غير مقصودة للأسلحة أنَّ الله لطف بنا مرةً بعد أخرى بالضرورة، ولكنَّها قد تعني أنَّ حلقتي البشر والتكنولوجيا في السلسلة كانتا مهيئتين لمنع الكوارث وازدادت قوتيهما بعد كل حادثة. ويلخص اتحاد العلماء المهتمين تاريخ الحوادث النووية الوشيكة بحكمةٍ في تقريرهم عنها كما يلي: «يشير عدم إطلاق صواريخ نووية حتى الآن إلى أنَّ تدابير السلامة ناجحة بما يكفي لجعل احتمالية وقوع حادثةٍ كهذه ضئيلة، لكنَّها ليست منعدمة».

يتيح لنا التفكير في محنتنا بهذه الطريقة أن نتجنب كلًّا من الخوف والقناعة بالوضع الراهن، وإذا افترضنا أن احتمالية اندلاع حرب نووية هي 1% في السنة الواحدة (وهذا تقدير مبالغ فيه: فيجب أن تكون الاحتمالية أقل من احتمالية إطلاق غير مقصود للأسلحة لأنَّ تفاقم حرب شاملة نتيجة حادثة فردية أمر لا يحدث بصورةٍ تلقائية، ولم تقع حادثة إطلاق واحدة غير مقصودة خلال الاثنين وسبعين سنة الماضية)، تكون هذه الاحتمالية مرفوضة قطعًا، لأنَّ المعرفة البسيطة بعلم الجبر توضح أنَّ احتمالية مرور قرن دون وقوع كارثة نووية أقل من 37%، أما إذا استطعنا خفض احتمالية اندلاع حرب نووية إلى 0.1% في السنة، فستزداد احتمالية عدم اندلاع حرب نووية خلال القرن إلى 90%، وبخفض الاحتمالية أكثر إلى 0.01% فستزداد الاحتمالية إلى 99% وهكذا.

وقد ثبت أنَّ الخوف من الانتشار الكثيف للأسلحة النووية مبالغٌ فيه أيضًا، فخلافًا للتوقعات التي ظهرت في الستينيات من القرن العشرين بأنَّه ستكون هناك 25 أو 30 دولة نووية قريبًا، وبعد مرور خمسين سنة على هذه التوقعات، لا توجد سوى 9 دول نووية فقط. وخلال نصف هذا القرن فقد حدث 4 دول من الأسلحة النووية عن طريق التخلي عنها (جنوب أفريقيا وكازاخستان وأوكرانيا وبيلاروسيا) وسعت 16 دولة لحيازتها ولكنها تراجعت عن تلك الخطوة في النهاية وكان آخرها ليبيا وإيران، وللمرة الأولى منذ عام 1964، فلا توجد دول غير حائزة على أسلحة نووية تسعى لصناعتها. ونعم تبدو فكرة حيازة كيم جونغ أون (Kim Jong-un) على أسلحة نووية مقلقة ولكنَّ العالم نجا من قبل من طغاة شبه مجانين وكان لديهم أسلحة نووية مثل ستالين وماو وقد حِيل بينهم وبين استخدامها، أو بالأحرى لم يشعر أيٌ منهم أنه بحاجة إلى ذلك. وليس التحلي بالهدوء بخصوص انتشار الأسلحة النووية جيدًا من أجل صحتنا النفسية فقط، وإنما قد يمنع الدول من الوقوع في حروب وقائية كارثية كما حدث في غزو العراق عام 2003 والحرب المحتملة بين إيران والولايات المتحدة أو إسرائيل في نهاية نفس العقد.

وقد فحص بعض العقلاء الهادئون صحة التوقعات المرتجفة التي تنبأت بسرقة الإرهابيين أسلحةً نووية أو صناعتها في منازلهم وتهريبها إلى داخل البلاد في حقيبة سفر أو في حاوية شحن، ومن هؤلاء العقلاء مايكل ليفي (Michael Levi) في كتاب «**عن الإرهاب النووي**» *(On Nuclear Terrorism)* وجون مولر في كتاب «**الهاجس النووي**» *(Atomic Obsession)* وريتشارد مولر (Richard Muller) في كتاب «**الفيزياء لرؤساء المستقبل**» *(Physics for Future Presidents)* وريتشارد رودز (Richard Rhodes) في كتاب «**غروب شمس القنابل النووية**» *(The Twilight of the Bombs)*، وأيدّهم أيضًا رجل الدولة جاريث إيفانز (Gareth Evans) وهو خبير في انتشار الأسلحة النووية ونزعها، وقد ألقى المحاضرة الافتتاحية في الندوة السنوية السابعة عشرة لنشرة علماء الذرة في عام 2015 بعنوان «**إعادة العقل إلى النقاش النووي**».

> ومع خطورة أن أبدو راضيًا –وأنا لستُ كذلك– فيجب أن أقول إنَّ (الأمن النووي) أيضًا قد يتحسن إذا نُفذ بانفعالٍ أقل وبمزيدٍ من الهدوء والعقلانية عن ذي قبل.
>
> ومع أنَّ المعرفة التقنية اللازمة لبناء جهاز انشطار بسيط مثل الموجود في قنبلة هيروشيما وناجازاكي متاحة، إلا أنه من الصعب الحصول على اليورانيوم عالي التخصيب والبلوتونيوم القابل للاستخدام في صناعة الأسلحة، ومن الصعب جدًا تجميع الفريق الضروري المكون من المجرمين والعلماء والمهندسين للحصول على أجزاء هذا السلاح وبنائه وتسليمه والحفاظ على هذا الفريق لمدة طويلة بعيدًا عن أنظار المصادر الاستخباراتية والجهات المعنية بتنفيذ القانون وهي معنية الآن بمنع هذا الخطر حول العالم.

الآن وبعد أن هدأنا قليلًا، فالخطوة القادمة لتقليل الخطر النووي هي تجريد الأسلحة النووية من بريقها الوحشي بدءًا من الملحمة اليونانية التي أدت فيها دور البطولة، فتقنية الأسلحة النووية لا تمثّل قمة سيطرة البشر على قوى الطبيعة، وإنما هي ورطة وقعنا فيها بسبب تقلبات التاريخ، وعلينا الآن أن نكتشف كيف يمكننا أن ننتشل أنفسنا منها. وقد نشأ مشروع مانهاتن بسبب الخوف من صناعة الألمان للسلاح النووي وقد استقطب العلماء لأسباب شرحها عالم النفس جورج ميلر (George Miller) الذي عمل على مشروع بحثي آخر أثناء الحرب، قائلًا: «لقد رأى جيلي الحرب ضد هتلر على أنها حرب الخير ضد الشر، وكان من غير الممكن لأي شاب قوي البنية أن يتحمل خزي الحياة المدنية إلا إذا كان لديه اعتقاد داخلي بأن ما يفعله يساهم بصورة أكبر في تحقيق النصر». ومن المحتمل جدًا أنه

لولا وجود النازيين لما وُجدت القنابل النووية، فالأسلحة لا تُصنع لمجرد توافر القدرة على تصميمها أو تصنيعها، إذ حلم الناس بأنواع كثيرة من الأسلحة التي لم ترَ النور مثل: أشعة الموت ومركبات الفضاء الحربية وأساطيل الطائرات التي تغطي المدن بالغازات السامة مثل طائرة رش الحقول والمخططات لـ «الحرب الجيوفيزيائية» مثل تحويل الطقس والفيضانات والزلازل وأمواج التسونامي وطبقة الأوزون والنيازك والانفجارات الشمسية وحزام فان ألن الإشعاعي إلى أسلحة. وفي تاريخٍ بديل للقرن العشرين ربما كانت الأسلحة النووية لتبدو للناس بنفس غرابة الأسلحة السابقة.

ولا تستحق الأسلحة النووية أن يُنسب لها الفضل في إنهاء الحرب العالمية الثانية أو إرساء السلام الطويل الذي تبعها، وهما الحجتان اللتان تُذكران باستمرار لطرح فكرة أن الأسلحة النووية جيدة وليست سيئة. يعتقد معظم المؤرخين اليوم أنَّ اليابان لم تستسلم بسبب القنابل النووية، التي لم يكن الدمار الناتج عنها أكبر من الناتج عن القنابل الحارقة التي تعرضت لها ستون مدينة يابانية أخرى، وإنَّما بسبب انضمامها إلى الاتحاد السوفيتي في الحرب وهو ما هدَّد بشروط استسلام أصعب.

وخلافًا للاقتراح الأقرب للنكتة بإهداء جائزة نوبل للسلام للقنبلة النووية، فقد اتضح فشل الأسلحة النووية في الردع (فيما عدا الحالات الشديدة من الأخطار الوجودية مثل ردع سلاح نووي آخر)، فالأسلحة النووية تدمر دون تفرقة وتلوث مناطق واسعة بالغبار الذري المشع بما فيها المناطق المتنازع عليها، وعلى حسب الطقس فقد تصيب جنود الدولة صاحبة السلاح ومواطنيها. وقد يحطم حرق أعداد هائلة من المدنيين مبادئ التكافؤ والتمييز التي تنظم سير الحروب وستكون من أسوأ جرائم الحرب على مر التاريخ، وحتى السياسيون قد يشعرون بالغثيان من تلك الفكرة، لذا فقد زاد تحريم استخدام الأسلحة النووية مما حوَّلها بصورة فعالة إلى خدعة. لم تؤثر حيازة الدول على أسلحة نووية في حصولها على ما تريد في المواجهات الدولية أكثر من الدول التي لا تمتلكها، وقد افتعلت دول أو فصائل لا تمتلك أسلحة نووية اشتباكات في كثير من الصراعات مع دولٍ حائزة على أسلحة نووية (فعلى سبيل المثال استولت الأرجنتين على جزر الفوكلاند من المملكة المتحدة في عام 1982 وهي واثقة أن مارجريت ثاتشر لن تطلق قنبلة نووية على بوينس آيرس). ولا يعني ذلك أن الردع نفسه غير مهم: فقد أظهرت الحرب العالمية الثانية أنَّ الدبابات التقليدية وسلاح المدفعية وقاذفات القنابل كانت مدمرة بالفعل ولم تُرد أي دولة أن تُعيد الكرّة ثانيةً.

قد تُعرّض الأسلحة النووية العالم لمستقبل مجهول ومقلق بدلًا من إيصاله إلى حالة توازن مستقر (توازن الرعب الزائف). وفي وقت الأزمات، تشبه الدول الحائزة على أسلحة نووية صاحب منزلٍ مسلح يواجه لصًا مسلحًا يميل كلٌ منهما لإطلاق النار أولًا ليقي نفسه من الإصابة برصاصة الآخر، ونظريًا يمكن إبطال هذه المعضلة الأمنية أو فخ هوبز إذا كان كل طرف قادرًا على شن ضربة ثانية بالغواصات مثلًا أو بقاذفات القنابل الجوية والتي يمكن أن تفلت من الضربة الأولى وتتسبب في دمارٍ ساحق، أي حالة التدمير المتبادل المؤكد ((MAD، ولكن يثير البعض في مجال الميتافيزيقيا النووية الشكوك حول ضمان شن ضربة ثانية في كل السيناريوهات المحتملة وما إذا كانت الدولة المعتمدة عليها معرضة للابتزاز النووي. لذا تحتفظ كلٌّ من الولايات المتحدة وروسيا بخيار «الإطلاق بمجرد الإنذار» ووفقه يستطيع الرئيس أن يقرّر في غضون دقائق من إبلاغه بأن صواريخه تتعرض للهجوم ما إذا كان سيستخدم الصواريخ أم سيخسرها، ويمكن لحالة التأهب القصوى (hair trigger) هذه كما يسميها النقاد أن تتسبب في تبادل إطلاق الصواريخ النووية استجابةً لإنذار كاذب أو إطلاق غير مقصود أو غير مصرَّح به، وتشير قائمة الحروب النووية الوشيكة بأن احتمالية وقوعها أكبر من الصفر بشكلٍ مقلق.

بما أنَّه لم تكن هناك حاجة لاختراع الأسلحة النووية، وأنَّها غير مجدية في الانتصار في الحروب أو حفظ السلام، فهذا يعني أنه من

الممكن الاستغناء عنها، ولا أعني أنَّ المعرفة بكيفية صناعة الأسلحة النووية ستختفي وإنَّما أنَّه يمكن تفكيكها وإعادة بناء أسلحة جديدة، ولن تكون هذه هي المرة الأولى التي يُهمش فيها نوع من الأسلحة أو يُفكك. فقد حظرت دول العالم استخدام الألغام الأرضية المضادة للأفراد والقنابل العنقودية والأسلحة الكيميائية والبيولوجية، وقد شهدت تهاوي أسلحة أخرى ذات تكنولوجيا متطورة بسبب عبثيتها. اخترع الألمان خلال الحرب العالمية الأولى مدفعًا عملاقًا متعدد الطوابق يمكنه إطلاق قذيفة وزنها 200 رطل لأبعد من 80 ميلًا، وكانت القذائف ترعب سكان باريس بتساقطها من السماء دون سابق إنذار، كانت هذه الأسلحة الضخمة، التي أُطلق على أكبرها فيما بعد مدفع جوستاف، غير دقيقة وصعبة الاستخدام، لذا لم يُبنَ سوى القليل منها وتحولت في النهاية إلى خردة. ويقول المتشككون في انتشار الأسلحة النووية كين بيري (Ken Berry) وباتريشيا لويس (Patricia Lewis) وبينوا بيلوبيداس (Benoît Pelopidas) ونيكولاي سوكوف (Nikolai Sokov) وورد ويلسون (Ward Wilson):

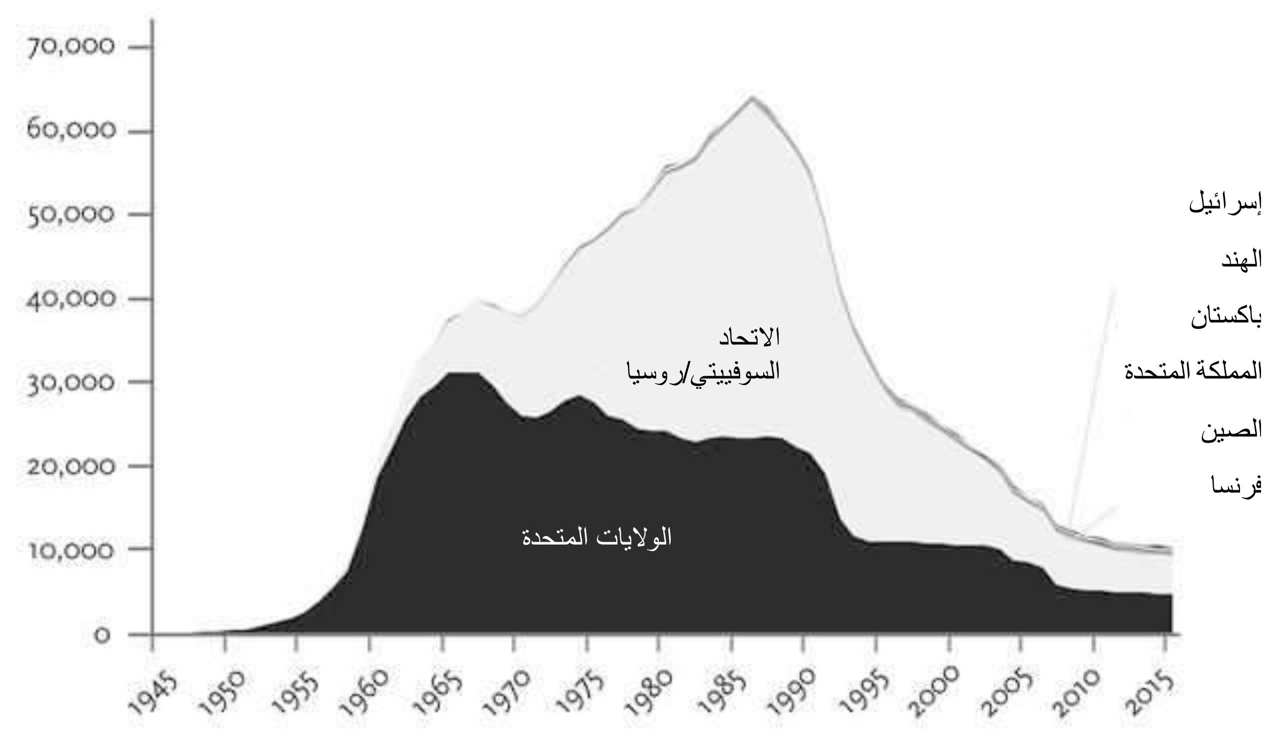
> لا تتسابق الدول اليوم في بناء مدافعها الضخمة.. ولا يوجد هجاء غاضب في الصحف الليبرالية عن بشاعة هذه الأسلحة وضرورة حظرها، ولا توجد مقالات رأي واقعية في الصحف المحافظة تؤكد على عدم وجود طريقة لإعادة المدفع الضخم إلى القمقم. كانت الأسلحة غير فعالة وتبديدية، فالتاريخ مليء بالأسلحة التي كانت توصف بأنها السبب في الانتصار في الحروب وهجرتها الجيوش في النهاية لأنَّ فعاليتها كانت ضعيفة.

فهل سيحدث مع الأسلحة النووية مثل ما حدث مع مدفع جوستاف؟ في أواخر الخمسينيات من القرن العشرين تأسست حركة من أجل حظر استخدام القنابل النووية وتوسعت الحركة على مر العقود من مجرد كونها حركة تضم غرباء الأطوار وأساتذة الجامعة لتتحول إلى تيارٍ رئيسي، إذ طرح ميخائيل جورباتشوف (Mikhail Gorbachev) ورونالد ريجان في عام 1986 قضية الصفر الشامل –وهي التسمية التي تُطلق على هدف الحد من الأسلحة الآن–، ورونالد ريجان هو المشهور بمقولة «لا يمكن الانتصار في حرب نووية ويجب عدم خوضها مطلقًا، والقيمة الوحيدة لامتلاك دولتينا أسلحةً نووية هي ضمان عدم استخدامها أبدًا، ولكن أليس من الأفضل عدم امتلاكها من الأساس؟» كتبت مجموعة رباعية من أنصار الواقعية الدفاعية مشكَّلة من الحزب الديمقراطي والجمهوري (هنري كيسنجر وجورج شولتز وسام نون وويليام بيري) (Henry Kissinger, George Shultz, Sam Nunn, and William Perry) مقالةً بعنوان «**عالم خالٍ من الأسلحة النووية**» (A World Free of Nuclear Weapons) بتأييد 14 مستشاراً سابقًا للأمن القومي ووزيري الدفاع والخارجية، وفي عام 2009 ألقى باراك أوباما خطابًا تاريخيًّا في براغ قال فيه: «تتعهد أمريكا بوضوح وبقناعة تامة بأن تسعى نحو عالم خالٍ من الأسلحة النووية يعمه السلام والأمن»، وهو التطلع الذي ساعده على الفوز بجائزة نوبل للسلام، وكرر الخطاب نظيره الروسي في ذلك الوقت ديمتري ميدفيديف (Dmitry Medvedev) (وهو ما لم يتكرر ممَّن خلف كلًّا منهما). ومع ذلك فلم يكُن هناك داعٍ للخطاب لأنَّ الولايات المتحدة وروسيا كانتا متعهدتين بالتخلص من ترسانتيهما النوويتين بالفعل بتوقيعهما على معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية في عام 1970 طبقًا للمادة السادسة منها، ومن الدول المتعهدة أيضًا: المملكة المتحدة وفرنسا والصين، والدول الأخرى الحائزة على أسلحة نووية ممن شملتهم المعاهدة (لم توقع الهند أو باكستان أو إسرائيل على هذه المعاهدة، وانسحبت كوريا الشمالية أيضًا، مؤكِّدين بذلك دون قصدٍ أهمية المعاهدات). ويدعم سكان العالم الحركة، ففي كل الدول التي أجريت فيها استطلاعات الرأي تقريبًا فضَّلت الغالبية العظمى من المشاركين التخلص من الأسلحة النووية.

يُعتبر الصفر رقمًا مغريًا، لأنَّه يوسع نطاق حظر الأسلحة النووية من استخدامها إلى مجرد امتلاكها، ويزيل أيضًا أي دافع لدولة

تود حيازة الأسلحة النووية لحماية نفسها من أسلحة أعدائها النووية، ولكن لن يكون الوصول للصفر أمرًا سهلًا، حتى مع تحديد مراحل متتالية من التفاوض والتقليص والتحقق. يحذر بعض الخبراء الاستراتيجيين من محاولة الوصول إلى الصفر، لأنَّ الدول التي كانت تمتلك أسلحة نووية قد تتسابق في إعادة التسليح عند حدوث أزمة، وربما يشن الفائز في هذا السباق ضربة استباقية بدافع الخوف من أن يشنها عدوه أولًا. وطبقًا لهذه النظرية، فسيكون العالم مكاناً أفضل إذا أبقت الدول الحائزة على الأسلحة النووية بعض هذه الأسلحة كرادع. وفي كلتا الحالتين فإنَّ العالم بعيدٌ كل البعد عن الصفر أو حتى عن حيازة «عدد قليل من الأسلحة النووية»، وحتى يأتي ذلك اليوم الموعود، يمكننا أخذ خطوات تدريجية لتقريبه بينما نجعل العالم أكثر أماناً.

الخيار الأكثر بداهة هو خفض حجم الترسانة النووية، وهذه العملية تجرى على قدمٍ وساق، ولا يدرك سوى القليل من الناس الحجم الهائل الذي خفضه العالم من الأسلحة النووية. يوضِّح الشكل رقم 19-1 أنَّ الولايات المتحدة خفضت مخزونها النووي بنسبة 85% مقارنةً بالذروة التي بلغتها عام 1967، ولديها الآن رؤوسًا نووية أقل من أي وقت منذ عام 1956، وخفضت روسيا بدورها ترسانتها بنسبة 89% منذ ذروتها في فترة الاتحاد السوفيتي (ربما يدرك عدد أقل من الناس أنَّ 10% من الطاقة الكهربائية للولايات المتحدة تأتي من الرؤوس النووية المفككة، وأنَّ أكثر هذه الرؤوس سوفييتية). وقَّعت الدولتان المعاهدة الجديدة للحد من الأسلحة الاستراتيجية (New START) في عام 2010، التي تلزمهما بخفض مخزونيهما من الرؤوس الحربية الاستراتيجية المنصوبة بمقدار الثلثين، وقد وافق أوباما على التحديث بعيد المدى لترسانة الأسلحة الأمريكية في مقابل موافقة الكونجرس على المعاهدة، وتُحدث روسيا ترسانتها أيضًا، ولكن ستستمر الدولتان في خفض مخزونيهما بمعدلٍ ربما يكون أعلى من المحدد في المعاهدة. يمكن تشبيه القوى النووية الأخرى بطبقة رقيقة يصعب إدراكها تغلف كومة القوى النووية السابق ذكرها، فقد كانت الترسانتان النوويتان الإنجليزية والفرنسية صغيرتين من البداية وقد انخفضتا للنصف ووصلتا إلى 215 و300 على التوالي (ونَمَت الترسانة النووية الصينية قليلًا من 235 إلى 260، وكذلك الهندية والباكستانية إلى 135 لكلٍ منهما، وتقدر ترسانة إسرائيل بـ 80 تقريبًا، أما ترسانة كوريا الشمالية فغير معروفة ولكنها صغيرة)، وكما ذكرت، فلا توجد دول أخرى معروف عنها أنها تسعى لحيازة الأسلحة النووية، وقد انخفض عدد الدول الحائزة على المواد القابلة للانشطار التي يمكن تصنيع القنابل النووية منها من 50 دولة إلى 24 خلال الخمسة وعشرين سنة الماضيين.



الشكل رقم 19- 1: الأسلحة النووية منذ 1945 حتى 2015

المصدر: *HumanProgress*، http://humanprogress.org/static/2927، استنادًا إلى بيانات من اتحاد علماء الذرة (the Federation of Atomic Scientists)، Kristensen & Norris 2016a، محدث في Kristensen 2016، انظر Kristensen & Norris 2016b للمزيد من التوضيح. تُدرِج الإحصائيات الأسلحة المنصوبة والمخزنة، لكنَّها تستبعد الأسلحة التي خرجت من الخدمة وسيتم تفكيكها.

قد لا ينبهر المتشائمون بتقدمٍ يحتوي فيه العالم على 10200 رأس نووي، فكما تقول الملصقات التي انتشرت في الثمانينيات: يمكن لرأسٍ نووي واحد أن يفسد يومك، لكن بانخفاض عدد الرؤوس النووية على الكوكب بمقدار 54000 رأس نووي مقارنةً بعام 1986، تقل احتمالية وقوع الحوادث التي قد تفسد يومك، ويوجد قرار مُسبق باستمرار نزع الأسلحة. وسيتم التخلص من المزيد من الرؤوس النووية وفقًا لشروط المعاهدة الجديدة للحد من الأسلحة الاستراتيجية، وكما ذكرت فربما يتم التخلص من الرؤوس النووية خارج إطار المعاهدات المثقلة بالمفاوضات القانونية والخلافات السياسية. وعندما يقل التوتر بين القوى العظمى، تُقلص ترساناتها الباهظة في صمت (وهو اتجاه طويل الأمد، حتى وإن كان معلقًا اليوم)، وحتى عندما يكاد ينعدم الحوار بين المتنافسين، يمكنهم التعاون في نزع السلاح عن طريق استخدام أسلوب أطلق عليه عالم اللغويات النفسية تشارلز أوزجود (Charles Osgood) المعاملة بالمثل تدريجيًّا للحد من التوتر (Graduated Reciprocation in Tension-Reduction) (GRIT)، ويتنازل طبقًا لهذا الأسلوب أحد المتنافسين تنازلًا فرديًا مع دعوة علنية لبذل جهود مماثلة من الطرف الآخر. إذا تضافرت هذه التطورات يومًا ما من أجل خفض عدد الرؤوس النووية إلى 200 رأس لكل دولة، فلن يقلل ذلك احتمالية وقوع حادثة بقدرٍ هائلٍ فحسب، وإنما سيقضي على احتمالية حدوث شتاء نووي وهو الخطر الوجودي الحقيقي.

لا يأتي تهديد الحرب النووية الأعظم في المستقبل القريب من عدد الرؤوس النووية الموجودة، وإنما من الظروف التي قد تؤدي إلى استخدامها، فسياسات الإطلاق بمجرد الإنذار أو الإطلاق عند التعرض للهجوم أو إنذار حالة التأهب القصوى كابوسٌ حقيقي، ولا

يوجد جهاز إنذار مبكِّرٍ يمكنه التمييز بدقة تامة بين الإشارة والتشويش، وسيكون أمام الرئيس المستيقظ على مكالمة الساعة الثالثة فجراً بضع دقائق ليقرر ما إذا كان سيطلق الرؤوس النووية قبل أن تتدمَّر في مستودعاتها. ونظريًا، فربما يبدأ الرئيس حربًا عالمية ثالثة استجابةً لماسّ كهربائي أو لقطيعٍ من النوارس أو لبعض البرامج الضارة من تصميم مراهق بُلغاري، ولكنَّ أجهزة الإنذار في الحقيقة أفضل من ذلك، ولا توجد حالة «تأهب قصوى» تطلق الصواريخ تلقائيًا دون تدخل بشري، ولكن عندما يكون من الممكن إطلاق الصواريخ خلال فترة وجيزة كهذه، فمن الوارد حدوث إطلاق غير مقصود أو متهور أو لسبب خادع أو بسبب إنذار كاذب.

كان السبب الأساسي وراء وضع سياسة الإطلاق بمجرد الإنذار هو إحباط الضربة الأولى للعدو التي قد تدمر كل الصواريخ أثناء وجودها في مستودعاتها وتمنع الدولة من الانتقام من العدو، لكن كما ذكرت، تستطيع الدول إطلاق الصواريخ من الغواصات الموجودة في أعماق المياه أو من قاذفات القنابل والتي يمكن إرسالها بسرعة هائلة مما يجعل هذه الأسلحة منيعة ضد الضربة الأولى ومتأهبة لتحقيق انتقام فادح. يمكن أخذ قرار الانتقام أثناء النهار عند التيقن من التعرض للهجوم: فأنت ستعرف بالتأكيد إذا انفجرت قنبلة نووية على أراضيك.

إذًا فالإطلاق بمجرد الإنذار غير ضروري للردع وخطير بشكل غير مقبول، ويوصي –لا، بل يصر– معظم المحللين الأمنيين بأن تنزع الدول حالة التأهب القصوى عن الصواريخ النووية وتضعها في سُباتٍ عميق، ويوافق على ذلك أوباما ونون وشولتز وجورج بوش الابن وروبرت ماكنمارا والعديد من القادة السابقين لقيادة القوات الاستراتيجية ومديري وكالة الأمن الوطني. ويوصي البعض مثل ويليام بيري بالتخلي عن الجزء القائم على الأرض من الثالوث النووي بالكامل والاعتماد على الغواصات وقاذفات القنابل في الردع بما أنَّ الصواريخ المخزنة في المستودعات أهداف سهلة تغري القادة باستخدامها ما دام باستطاعتهم ذلك. لِمَ قد يرغبُ أي شخص أن يبقى الصواريخ النووية في مستودعاتها في حالة تأهب قصوى مادام هذا يجعل مصير العالم على المحك؟ يزعم بعض الميتافيزيقيين النوويين أنَّ إعادة الإنذار للصواريخ أثناء إحدى الأزمات بعد فصل الإنذار عنها سيكون عملًا استفزازيًا، ويرى آخرون أنَّه بما أنَّ الصواريخ الموجودة في المستودعات أدق وأكثر موثوقية فهي تستحق الحماية لأنَّها ليست مجرد سلاح ردع فقط وإنما يمكن استخدامها أيضًا في الانتصار في الحروب، ويقودنا هذا إلى طريقة أخرى لتقليل احتمالية اندلاع حرب نووية.

يصعب على أي شخص صاحب ضمير حي أن يعتقد أنَّ دولته مستعدة لاستخدام الأسلحة النووية لأي سبب آخر غير ردع هجوم نووي، لكنَّ هذه هي السياسة الرسمية للولايات المتحدة والمملكة المتحدة وفرنسا وروسيا وباكستان، فقد أعلنوا جميعًا أنَّهم قد يطلقون الأسلحة النووية إذا تعرضوا لهجومٍ شامل بسلاحٍ غير نووي أو تعرض أحد حلفائهم لهجوم مماثل. إنَّ سياسة المبادرة إلى استخدام الأسلحة النووية خطيرة، ليس فقط لانتهاكها مبدأ التكافؤ، وإنَّما أيضًا لأنَّ الدول المعتدية بأسلحة غير نووية قد تميل إلى استخدام الأسلحة النووية كإجراء وقائي، وحتى لو لم تفعل، فبعد تعرضها للهجوم بالسلاح النووي قد ترد الهجوم بضربة نووية.

لذا فالطريقة السليمة لتقليل خطر الحرب النووية هي إعلان سياسة عدم المبادرة إلى استخدام الأسلحة النووية، قد يقضي ذلك نظريًا على احتمالية اندلاع حرب نووية نهائيًا: فإذا لم يستخدم أحد الأسلحة النووية أولًا، فلن يستخدمها أحد، ومن الناحية العملية، فقد يقضي ذلك على جزء من الرغبة في توجيه ضربة استباقية. ويمكن لجميع الدول الحائزة على أسلحة نووية الاتفاق على عدم المبادرة إلى استخدام الأسلحة النووية عن طريق عقد معاهدة، أو يمكنهم التوصل إلى ذلك الاتفاق عن طريق «المعاملة بالمثل تدريجيًا للحد من التوترات» (مع الالتزامات المتزايدة مثل عدم استهداف المدنيين وعدم استهداف الدول غير الحائزة على أسلحة نووية وعدم الهجوم على

أهداف يمكن تدميرها بالوسائل التقليدية) أو يمكنهم المبادرة إلى ذلك بطريقة فردية وهو ما يخدم مصالحهم الذاتية. وقد قلل تحريم الأسلحة النووية قيمة سياسة المبادرة باستخدامها كسلاح رادع، ويمكن للمعلن عن سياسة عدم المبادرة باستخدامها حماية نفسه بالقوى التقليدية وبالقدرة على رد الهجوم النووي بهجومٍ مماثل.

لا تحتاج سياسة عدم المبادرة باستخدام الأسلحة النووية إلى تفكيرٍ، وقد شارف باراك أوباما على تبنيها في عام 2016، ولكنَّه تراجع عن قراره في اللحظة الأخيرة بسبب نصيحة مستشاريه الذين زعموا أنَّ توقيت القرار لم يكن مناسبًا، إذ قد يعطي القرار إشارة على الضعف أمام القوى الصاعدة الجديدة مثل روسيا والصين وكوريا الشمالية، وربما يُفزع الحلفاء المتوترين المعتمدين على «المظلة النووية» الأمريكية في الدفاع عن أنفسهم بدلًا من السعي إلى تصنيع أسلحتهم النووية الخاصة، خاصةً بعد تهديد دونالد ترامب بتقليص حجم الدعم الأمريكي لحلفائها. ربما تخف حدة هذه التوترات على المدى البعيد، ويُنظر في سياسية عدم المبادرة باستخدام الأسلحة النووية مرةً أخرى.

لن تُلغى الأسلحة النووية في أي وقتٍ قريب وخاصةً في الوقت الذي تستهدفه حركة عالم خالٍ من الأسلحة النووية وهو عام 2030، قال أوباما في خطابه في براغ عام 2009 أنَّنا «لن نصل إلى الهدف بسرعة، وربما لن نصل إليه خلال حياتي» ممَّا يشير إلى عدم تحققه سوى بعد عام 2055 بفترة (انظر الشكل رقم 5-1)، وأضاف قائلًا: «سيحتاج الأمر إلى الصبر والمثابرة»، وتؤكد التطورات الأخيرة في الولايات المتحدة وروسيا أنَّنا سنحتاج إلى الكثير منهما.

لكنَّ الطريق قد رُسم، فإذا استمر تفكيك الرؤوس النووية بسرعة أكبر من بنائها، وإذا رُفعت حالة التأهب القصوى عنها، قدّمت ضمانات بعدم المبادرة باستخدامها، وإذا استمر البُعد عن الحرب بين الدول، فقد ينتهي الأمر في النصف الثاني من القرن إلى ترسانات نووية صغيرة آمنة محفوظة من أجل الردع فقط، وربما تُنهي أمرها بنفسها بعد عقودٍ قليلة. وسيرى أحفادنا الأسلحة النووية مثيرة للسخرية آنذاك، وسيستخدمونها في أغراضٍ سلمية إلى الأبد. وربما لن نصل إلى نقطة تنعدم فيها احتمالية حدوث كارثة أثناء مرحلة التفكيك، ولكن كل خطوة تجاه التفكيك تُخفض الخطورة حتى تتساوي بالأخطار الأخرى التي تهدد البشرية مثل النيازك والبراكين العملاقة أو كائن الذكاء الاصطناعي الذي قد يحيلنا إلى دبابيس ورق.

الفصل العشرون: مستقبل التقدم

منذ انتشار التنوير في أواخر القرن الثامن عشر، زاد متوسط العمر المتوقع حول العالم من 30 إلى 71 عامًا، وقفز إلى 81 عامًا في الدول الأكثر حظًّا. وعندما بدأ التنوير كان ثُلث الأطفال المولودين في أغنى مناطق العالم يموتون قبل بلوغ عامهم الخامس، أمَّا اليوم فيلقى هذا المصير 6 في المئة فقط من الأطفال في أفقر مناطق العالم، وتحرَّرت أمهاتهم أيضًا من المأساة، إذ كانت 1 في المئة من الأمهات في أغنى الدول لا تعيش لترى مولودها، وهو ما يمثِّل ثلاثة أضعاف النسبة الحالية في أفقر الدول، والتي تواصل انخفاضها. والأمراض القاتلة المعدية في تراجعٍ مستمر في تلك الدول الفقيرة، فلا يصيب بعضها سوى بضع العشرات سنويًّا، وهي على وشك أن تلحق بالجدري وتنقرض.

ربما لا يظل الفقراء معنا إلى الأبد، فالعالم اليوم أكثر ثراءً ممَّا كان عليه منذ قرنين بمقدار مئة ضعفٍ تقريبًا، وتزداد المساواة في توزيع الرخاء على شعوب العالم ودوله، وانخفضت نسبة البشر الذين يعيشون في فقرٍ مدقعٍ من 90 في المئة تقريبًا إلى أقل من 10 في المئة، وقد تصل إلى الصفر في حياة معظم قراء هذا الكتاب. اختفت المجاعة الكارثية –التي لم تكُن بعيدة كثيرًا عن البشر خلال أغلب تاريخهم– من أغلب أنحاء العالم، ونقص التغذية وتوقف النمو في تراجعٍ مستمر وثابت. وقد خصَّصت الدول الأغنى منذ قرنٍ نسبة واحد في المئة من ثرواتها لدعم الأطفال والفقراء وكبار السن، وتُنفِق اليوم حوالي رُبع تلك النسبة، فمعظم فقرائها اليوم يحصلون على الطعام والملبس والمأوى ويمتلكون رفاهيات مثل الهواتف الذكية وأجهزة تكييف الهواء التي لم تكُن من قبل متاحةً لأي شخص سواء أكان غنيًّا أم فقيرًا، وانخفض مستوى الفقر بين الأقليات العرقية وانهار مستوى الفقر بين المسنِّين.

يُمنح العالم فرصةً للسلام، فالحروب بين الدول في طريقها إلى الزوال، واختفت الحروب داخل الدول من خمس أسداس العالم. وتبلغ نسبة الأشخاص الذين تقتلهم الحروب سنويًّا حوالي رُبع ما كانت عليه في ثمانينيات القرن العشرين، وسُدس ما كانت عليه في أوائل سبعينياته، وستة عشر جزءًا ممَّا كانت عليه في أوائل خمسينياته، ونصف نسبة مئوية مما كانت عليه خلال الحرب العالمية الثانية. وأصبحت حملات الإبادة العرقية التي كانت شائعة في السابق نادرةً. تتسبَّب جرائم القتل في قتل عددٍ من الناس أكبر ممَّا تقتله منهم الحروب في أغلب الأزمنة والأماكن، ومعدلات جرائم القتل في انخفاضٍ أيضًا، فاحتمالية تعرُّض الأمريكي للقتل نصف ما كانت عليه منذ حوالي ربع قرن، واحتمالية تعرُّض المرء للقتل في أي مكان في العالم أقل بمقدار سبعة من عشرة ممَّا كانت عليه منذ عشرين عامًا.

تزداد الحياة أمانًا بكل طريقةٍ ممكنة، وعلى مدار القرن العشرين أصبحت احتمالية مقتل الشخص الأمريكي نتيجة حادث سيارة أقل بنسبة 96 في المئة، واحتمالية تعرُّضه للدهس على الرصيف أقل بنسبة 88 في المئة، واحتمالية وفاته في حادث تحطم طائرة أقل بنسبة 99 في المئة، واحتمالية موته نتيجة سقوطه أقل بنسبة 59 في المئة، واحتمالية موته نتيجة حريقٍ أقل بنسبة 92 في المئة، واحتمالية غرقه أقل بنسبة 90 في المئة، واحتمالية موته بالاختناق أقل بنسبة 92 في المئة، واحتمالية موته أثناء تأدية وظيفته أقل بنسبة 95 في المئة. والحياة في الدول الغنية الأخرى أكثر أمانًا، وستزداد الحياة في الدول الفقيرة أمانًا عندما تزداد غنى.

لا يزداد الناس صحةً وغنى وأمانًا فحسب، بل يزدادون حريةً أيضًا، فمنذ قرنين لم تكُن هناك دولٌ ديمقراطية سوى حفنة من الدول

التي تشمل واحدًا في المئة من سكان العالم، أمَّا اليوم فثُلثا دول العالم التي تشمل ثُلثي سكان العالم ديمقراطية. وحتى وقتٍ قريب، كانت في نصف دول العالم قوانين تميّز ضد الأقليات العرقية، أمَّا اليوم فالدول التي لديها سياسات تفضِّل أقلياتها أكثر من الدول التي تميّز ضد هذه الأقليات. لم يكُن باستطاعة النساء التصويت في مطلع القرن العشرين سوى في دولةٍ واحدة، أمَّا اليوم فيمكنهن التصويت في كل الدول التي يمكن للرجال التصويت فيها عدا دولة واحدة. ويتواصل إلغاء القوانين التي تجرِّم المثلية الجنسية، وتزداد المواقف من الأقليات والنساء والمثليين تسامحًا بمعدلٍ ثابت، وخاصةً بين الشباب، وهو ما يبشِّر بخيرٍ لمستقبل العالم، وجرائم الكراهية والعنف ضد النساء وإيذاء الأطفال في تراجعٍ كبير وطويل الأمد، وكذلك استغلال الأطفال في العمالة.

ومع ازدياد الناس صحةً وغنى وأمانًا وحريةً، يزدادون أيضًا تعليمًا ومعرفةً وذكاءً، ففي أوائل القرن التاسع عشر، لم يكُن سوى 12 في المئة من سكان العالم يستطيعون القراءة والكتابة، أمَّا اليوم فـ 83 في المئة منهم يستطيعون ذلك، وقريبًا ستكون المعرفة بالقراءة والكتابة، والتعليم الذي تُمكِّن هذه المعرفة المرء منه، متاحةً على نطاقٍ عالمي للفتيات كما للفتيان. يجعلنا التعليم، إلى جانب الصحة والثروة، أذكى حرفيًّا من أسلافنا بمقدار ثلاثين نقطة من معدل الذكاء أو انحرافين معياريين.

يستغل الناس حياتهم الأطول والأكثر صحةً وأمانًا وحريةً وغنى وحكمةً على نحوٍ جيد، فيعمل المواطن الأمريكي في الأسبوع وقتًا أقل من السابق بمقدار 22 ساعة، ويحصل على ثلاثة أسابيع من العطلة المدفوعة، ويفقد وقتًا أقل من حياته في أداء المهام المنزلية بمقدار 43 ساعة، ولا يُنفِق على الضروريات سوى ثُلث راتبه بدلًا من خمسة أثمانه، ويستغل وقت فراغه ودخله المتاح للإنفاق في السفر، ويقضي وقته مع أطفاله، ويتواصل مع أحبائه، ويجرّب أكلات عالمية، ويختبر معارف وثقافات من مختلف أنحاء العالم. نتيجةً لهذه النِعَم، أصبح الناس على مستوى العالم أسعد، وحتى الأمريكيين الذين يعتبرون حظَّهم الجيد مسلَّمًا به «سعداء جدًّا» أو أسعد، وتصبح الأجيال الأصغر أقل تعاسةً ووحدةً واكتئابًا وإدمانًا على المخدِّرات وميلًا للانتحار.

عندما أصبحت المجتمعات تتمتَّع بالمزيد من الصحة والثروة والحرية والسعادة والتعليم الأفضل، وضعت نصب أعينها التحديات العالمية الأكثر إلحاحًا، فأصدرت انبعاثات أقل من الملوِّثات وأزالت غابات أقل وسرَّبت كميات أقل من النفط وخصَّصت المزيد من المحميات وقضت على عددٍ أقل من أنواع الحيوانات وغيرها، وأنقذت طبقة الأوزون، ووصلت إلى ذروة استخدامها من النفط والأراضي الزراعية والخشب والورق والسيارات والفحم وربما حتى الكربون. رغم كل اختلافات دول العالم، إلَّا أنَّها توصَّلت إلى اتفاقٍ تاريخي على التغير المناخي، كما حدث في السنوات الماضية فيما يخص الاختبارات النووية وانتشار الأسلحة النووية والأمن النووي ونزع الأسلحة النووية. لم تُستخدَم الأسلحة النووية خلال الاثنين وسبعين عامًا منذ صناعتها منذ الظروف الاستثنائية في الأيام الأخيرة في الحرب العالمية الثانية. لم يحدث أي إرهاب نووي على عكس توقُّعات الخبراء على مدار أربعين عامًا، وانخفضت مخزونات العالم النووية بنسبة 85 في المئة، وما زال هناك المزيد من الانخفاض في المستقبل، وتوقَّفت الاختبارات (فيما عدا ما يقوم به النظام المارق في بيونج يانج) وتجمَّد انتشار الأسلحة النووية. إذًا فالمشكلتان الأكثر إلحاحًا في العالم –رغم عدم حلِّهما بعد– قابلتان للحل، إذ وُضِعت أجندات عملية طويلة الأمد للتخلُّص من الأسلحة النووية وتخفيف حدة التغيّر المناخي.

رغم كل عناوين الأخبار الدموية، ورغم كل الأزمات والانهيارات والفضائح والأمراض المتفشية والأوبئة والأخطار الوجودية، إلَّا أنَّ هذه الإنجازات تستحق أن نستمتع بها. لقد نجح التنوير؛ إذ استخدم الناس على مدار قرنين ونصف المعرفة في تعزيز ازدهار البشرية، وكشف العلماء طرق عمل المادة والحياة والعقل، وسخَّر المخترعون قوانين الطبيعة لتحدي الإنتروبيا، وجعل رواد الأعمال ابتكاراتهم

ميسورة التكلفة، وجعل واضعو القانون الأشخاص أفضل عبر ثنيهم عن الأفعال المفيدة للفرد وحده ولكنَّها ضارة بالجميع، وأدَّى الدبلوماسيون الدور نفسه مع الدول. وخلَّد الباحثون كنز المعرفة ونمّوا قوة العقل المنطقي، ووسَّع الفنَّانون دائرة التعاطف، وضغط النشطاء على أصحاب السلطة من أجل إبطال الممارسات القمعية، وضغطوا على المواطنين الآخرين من أجل تغيير الأعراف القمعية. تحوَّلت كل هذه الجهود إلى مؤسسات أتاحت لنا التحايل على عيوب الطبيعة البشرية وتمكين جوانبنا الملائكية.

وفي الوقت نفسه..

يعيش سبعمئة مليون شخصٍ في العالم اليوم في فقرٍ مدقع، ومتوسط العمر المتوقع في المناطق التي يتمركزون فيها أقل من 60 عامًا، ويعاني رُبع هؤلاء الأشخاص تقريبًا من نقص التغذية. كما يموت مليون طفلٍ سنويًّا تقريبًا جراء الالتهاب الرئوي، ونصف مليون جراء الإسهال أو الملاريا، ومئات الآلاف جراء الحصبة والإيدز. توجد الآن أكثر من عشر حروبٍ محتدمة في العالم، تشمل حربًا مات فيها أكثر من مئتين وخمسين ألف شخصٍ، وقُتِل عشرة آلاف شخصٍ على الأقل في مذابح إبادةٍ جماعية في عام 2015. يعيش أكثر من ملياري شخصٍ –أي حوالي ثُلث البشرية– في قمعٍ في ظل دولٍ أوتوقراطية، ويفتقر خُمس سكان العالم تقريبًا إلى التعليم الأساسي، وسُدسهم تقريبًا أمّيون. ويموت خمسة ملايين شخصٍ سنويًّا في حوادثٍ، ويتعرَّض للقتل أكثر من 400 ألف شخصٍ، ويعاني 300 مليون شخصٍ تقريبًا من الاكتئاب السريري، سيموت منهم 800 ألف تقريبًا هذا العام منتحرين.

ليست الدول الغنية في العالم المتقدِّم منيعةً ضد هذه الأمور، إذ شهدت الطبقات المتوسطة الدُنيا ارتفاع دخلها بأقل من 10 في المئة خلال عقدين. وما زال خُمس سكَّان أمريكا يعتقدون أنَّ على المرأة العودة إلى أدوارها التقليدية، ويعارض عُشرهم تواعُد شخصين من أعراقٍ مختلفة، وتعاني أمريكا من وقوع أكثر من ثلاثة آلاف جريمة كراهية سنويًّا، وأكثر من خمسة عشر ألف جريمة قتل. يفقد الأمريكيون ساعتين يوميًّا في قضاء الأعمال المنزلية، ويشعر رُبعهم بأنَّهم في استعجالٍ دائم، ويُنكر أكثر من ثلثي الأمريكيين أنَّهم سعداء جدًّا، بنفس نسبة سعادتهم تقريبًا منذ سبعين عامًا، وازدادت تعاسة النساء والفئات العمرية الديموغرافية الكبرى بمرور الوقت، إذ يصبح حوالي 14 ألف أمريكيٍ كل عام تعساء لدرجةٍ يائسة تجعلهم يقتلون أنفسهم.

إنَّ المشكلات التي تواجه الكوكب بأكمله جسيمة بالطبع، إذ سيكون على هذا الكوكب استضافة ملياري شخصٍ آخرين قبل نهاية هذا القرن، واقتُطع مئة مليون هكتار من الغابات الاستوائية خلال العقد الماضي، وانخفضت نسبة الأسماك البحرية بمقدار 40 في المئة تقريبًا، وآلاف الأنواع مهدَّدة بالانقراض. يستمر انبعاث أول أكسيد الكربون وثاني أكسيد الكبريت وأكاسيد النيتروجين والمواد الجسيمية في الجو، إضافةً إلى 38 مليار طنٍّ من ثاني أكسيد الكربون كل عام، وهو ما يهدِّد –في حالة تركه دون رقابة– برفع درجات الحرارة العالمية بمقدار درجتين إلى أربع درجات مئوية، ويمتلك العالم أكثر من عشرة آلاف سلاح نووي مُوزعة على تسع دول.

إنّ الحقائق المذكورة في الفقرات الثلاثة السابقة هي نفسها بالطبع المذكورة في أول سبع فقرات، ما فعلته ببساطة هو أنَّني قرأت الأرقام من الطرف السلبي للمقاييس بدلًا من الطرف الإيجابي منها، أو طرحت النسب المتفائلة من 100. وليس هدفي من عرض وضع العالم بهاتين الطريقتين إظهار أنَّ بإمكاني التركيز على النصف الفارغ من الكوب إلى جانب النصف الممتلئ، وإنَّما هو التأكيد على أنَّ التقدُّم ليس يوتوبيا، وأنَّ أمامنا مساحة للسعي وراء مواصلة التقدُّم –بل التزام بذلك أيضًا–. إذا استطعنا مواصلة الاتجاهات المذكورة في السبع فقرات الأولى عبر نشر المعرفة من أجل تعزيز الازدهار، لا بد وأن تنخفض الأرقام المذكورة في الثلاث فقرات الأخيرة، وإن كان احتمالية انخفاض هذه الأرقام وصولًا إلى الصفر ضعيفة (حل هذه المشاكل بالكامل) فيمكننا أن نقلق بشأن ذلك عندما نقترب إلى

الصفر أكثر، فحتى إذا وصلت بعض الأرقام إلى الصفر بالفعل، فسنكتشف بالتأكيد المزيد من الأضرار التي علينا تداركها وطرقًا جديدة لإثراء التجربة البشرية، فالتنوير عملية متواصلة من الاكتشافات والتحسينات.

ما مدى منطقية الأمل في التقدُّم المتواصل؟ هذا هو السؤال الذي سأنظر فيه في الفصل الأخير في قسم التقدُّم قبل أن أنتقل في بقية الكتاب إلى المثُل الضرورية لتحقيق هذا الأمل.

سأبدأ بقضية الدفاع عن التقدُّم المتواصل. بدأنا الكتاب بتفسيرٍ لإمكانية التقدُّم دون روحانية ودون تأريخ يميني يقول بحتمية التقدُّم ودون تفاؤلٍ ساذج، وهذا التفسير هو أنَّ الثورة العلمية والتنوير أطلقا عملية استخدام المعرفة في تحسين الحالة البشرية. كان من الممكن أن يقول المتشكِّكون آنذاك: «لن ينجح هذا أبدًا» ويكون كلامهم معقولًا، ولكن بعد أكثر من قرنين يمكننا أن نقول إنَّه قد نجح بالفعل: إذ رأينا أكثر من سبعين رسمًا بيانيًّا تبرّر الأمل في التقدُّم عبر رسم الطرق التي يمكن أن يتحسَّن بها العالم.

لا يمكن استقراء الخطوط التي توضِّح الأمور الجيدة في أوقاتٍ مختلفة باتجاه اليمين والأعلى بصورةٍ تلقائية، ولكنَّ هذا رهانٌ رابحٌ في العديد من الرسوم البيانية. من المستبعد أن نستيقظ في صباح أحد الأيام ونجد أنَّ مبانينا أكثر قابلية للاشتعال، أو أنَّ الناس غيروا رأيهم في التواعد بين الأعراق المختلفة، أو في احتفاظ المعلِّمين المثليين جنسيًّا بوظائفهم. ومن المستبعد أن تغلق الدول النامية مدارسها وعياداتها الطبية أو تتوقَّف عن بناء مدارسَ وعيادات جديدة لأنَّها بدأت تتمتَّع بثمار هذه المؤسسات.

ستمثِّل التغييرات التي تحدث في نطاق الصحافة الزمني دائمًا بالتأكيد ارتفاعاتٍ وانخفاضات، فالحلول تخلق مشكلاتٍ جديدة، والتي بدورها تستغرق وقتًا في الحل، ولكن عندما نقف على أرجلنا بعد هذه الحركات المفاجئة والانتكاسات، نرى أنَّ المؤشرات على التقدُّم البشري تراكمية، فهي ليست دورية ذات مكاسب تلغيها الخسائر لا محالة.

والأمر الأفضل هو أنَّ التحسينات تُبنى بعضها على بعض، فالعالم الأغنى سيستطيع تحمُّل تكلفة حماية البيئة أكثر ويفرض النظام على عصاباته ويدعِّم شبكات الأمان الاجتماعي فيه ويعلِّم مواطنيه ويعالجهم، والعالم الأكثر تواصلًا وذو التعليم الأفضل يهتم بالبيئة أكثر ولا يطلق العنان للحكام الاستبداديين بنفس القدر ويشن حروبًا أقل.

ليس على التطورات التكنولوجية التي دفعت هذا التقدُّم سوى أن تتخذ وقعًا أسرع، فما زال قانون شتاين يمتثل للازمة دافيس (الأشياء التي لا يمكن أن تستمر إلى الأبد، يمكنها أن تستمر إلى وقتٍ أطول كثيرًا ممَّا تظن)، وكلٌّ من علم الجينوم والأحياء التركيبية وعلم الأعصاب والذكاء الاصطناعي وعلم المواد وعلم البيانات وتحليل السياسات المستند إلى الأدلة في ازدهارٍ. نعرف أنَّ اندثار الأمراض المعدية ممكن، وكثيرٌ من الأمراض من المقرّر إنهاؤها وتحويلها إلى ماضٍ، أمَّا الأمراض المزمنة والتنكُّسية فهي مستعصية أكثر، ولكنَّ التقدُّم المتزايد في كثيرٍ منها (مثل السرطان) يتسارع، ومن المحتمل حدوث طفرات في أمراضٍ أخرى منها (مثل الزهايمر).

وكذلك الوضع فيما يخص التقدُّم الأخلاقي، إذ يخبرنا التاريخ أنَّ العادات الهمجية لا يمكن الحد منها فحسب، بل يمكن إلغاؤها أساسًا، لتبقى على الأكثر في بضع مناطق نائية قابعة في ظلام الجهل. لا يتوقَّع حتى أكثر الناس قلقًا عودة التضحية بالبشر كقربانٍ، أو أكل لحوم البشر، أو الخصي، أو الحريم، أو العبودية، أو المبارزة، أو التناحر بين العائلات، أو ربط القدم، أو حرق الزنادقة، أو غمس الساحرات، أو التعذيب والإعدام العلني، أو وأد الرُضَّع، أو عروض المسوخ، أو السخرية من المجاذيب. في حين لا يمكننا التنبؤ بالطقوس الهمجية الحالية التي سيكون مصيرها كمصير مزادات العبيد ورسوم الإيمان، إلَّا أنَّ عقوبة الإعدام، وتجريم المثلية الجنسية، واختصاص

الذكور فقط بالتصويت والتعليم، في طريقهما إلى هذا المصير، ومن يعرف ما إذا كان سيلحق بها بعد بضع عقودٍ تشويه الأعضاء الجنسية للإناث، وجرائم الشرف، وعمالة الأطفال، وزواج القاصرات، والأنظمة الشمولية، والأسلحة النووية، والحروب بين الدول؟

بعض الآفات الأخرى أصعب في استئصالها لأنَّها تعتمد على سلوك مليارات الأفراد بكل وصماتهم البشرية، وليس على سياساتٍ تتبنَّاها دولٌ بأكملها في خطوةٍ واحدة، ولكن حتى إذا لم تُمحَ هذه الآفات من على وجه الأرض، فيمكن الحدِّ منها أكثر، ويشمل ذلك العنف ضد النساء والأطفال، وجرائم الكراهية، والحروب الأهلية، وجرائم القتل.

أعرض هذه الرؤية المتفائلة دون خجلٍ لأنَّها ليست حلم يقظة ساذجًا ولا طموحًا مشرقًا، بل هي رؤية المستقبل ذات الجذور الواقعية التاريخية، التي تدعمها الحقائق القاسية، ولا تعتمد سوى على احتمالية أنَّ ما حدث بالفعل سيواصل الحدوث. كما تأمَّل توملس ماكولي (Thomas Macaulay) في عام 1830 قائلًا: «لا يمكننا إثبات خطأ من يخبروننا بأنَّ المجتمع قد وصل إلى نقطة تحولٍ، بأنَّ أفضل أيامنا قد مضت، ولكنَّ هذا ما قاله السابقون أيضًا، وكان لديهم نفس المنطق الواضح تقريبًا..على أي مبدأ يستند التوقُّع بأنَّه ليس أمامنا سوى الاضمحلال في حين لا نرى خلفنا سوى التحسُّن؟»

استعرضتُ في الفصلين العاشر والحادي عشر إجاباتٍ على سؤال ماكولي الذي تنبأ بنهاية كارثية لكل ذلك التقدُّم في صورة التغير المناخي والحرب النووية وأخطار وجودية أخرى، وفي بقية هذا الفصل سأنظر في تطورين في القرن الحادي والعشرين لم يصلا إلى حد الكارثة العالمية، ولكنَّهما ما زالا يشيران في نظر بعض الناس إلى أنَّ أفضل أيامنا قد مضت.

أول غمامة تُنذرٍ بالخطر هي الركود الاقتصادي، فكما ذكر الكاتب لوجان بيرسال سميث (Logan Pearsall Smith): «قليلةٌ هي الهموم -مهما كانت شدتها- التي لا يجدي معها الدخل الجيد نفعًا». لا توفِّر الثروة الأشياء الواضحة التي يستطيع المال شراءها كالتغذية والصحة والتعليم والأمان فحسب، بل توفِّر أيضًا خيرات روحانية على المدى الطويل مثل السلام والحرية وحقوق الإنسان والسعادة والحماية البيئية وقيمٍ سامية أخرى.

آذنت الثورة الصناعية بأكثر من قرنين من النمو الاقتصادي، وخاصةً خلال الفترة بين الحرب العالمية الثانية وأوائل السبعينيات عندما نما نصيب الفرد من الناتج العالمي الإجمالي بمعدل حوالي 3.4 في المئة سنويًّا، متضاعفًا كل عشرين سنة. حذَّر المتشائمون البيئيون في أواخر القرن العشرين من أنَّ النمو الاقتصادي غير مستدام لأنَّه يستنزف الموارد ويلوِّث الكوكب، ولكن في القرن الحادي والعشرين أثيرت المخاوف المضادة، أنَّ المستقبل لا يعد بالكثير جدًّا من النمو الاقتصادي بل بالقليل جدًّا، إذ هبط المعدَّل السنوي للنمو منذ أوائل سبعينيات القرن الماضي بأكثر من النصف، وصولًا إلى حوالي 1.4 في المئة. يتحدَّد النمو على المدى البعيد غالبًا بالإنتاجية، أي قيمة السلع والخدمات التي تستطيع الدولة إنتاجها لكل دولارٍ استثماري وساعة عمل للفرد، وتعتمد الإنتاجية بدورها على التطور التكنولوجي: مهارات العمال في الدولة وكفاءة آلاتها وإدارتها وبنيتها التحتية. نمت الإنتاجية في الولايات المتحدة منذ أربعينيات القرن الماضي حتى ستينياته بمعدلٍ سنوي حوالي 2 في المئة، وهو ما يضاعف الإنتاجية كل خمسة وثلاثين عامًا، ونمت منذ ذلك الحين بمعدل 0.6 في المئة وهو ما يستلزم أكثر من قرنٍ لتتضاعف.

يخشى بعض الاقتصاديين أن تكون معدلات النمو المنخفضة هي الوضع العادي الجديد. وفقًا لـ «فرضية الركود المزمن الجديدة» التي حلَّلها لورانس سامرز (Lawrence Summers) فإنَّه حتى تلك المعدَّلات الزهيدة لا يمكن الحفاظ عليها (بالاقتران مع معدل البطالة المنخفض) سوى إذا حدَّدت البنوك المركزية أسعار الفائدة عند صفر أو قيم سلبية، وهو ما قد يؤدي إلى عدم استقرارٍ مالي

ومشاكل أخرى. في فترةٍ تقل فيها المساواة في الدخول، قد يجعل الركودُ المزمن أغلبَ الأشخاص من أصحاب الدخل الثابت أو المتدني في المستقبل المنظور، وإذا توقفَّت الاقتصادات عن النمو، فقد يصبح الوضع شديد السوء.

لا أحد يعلم حقًّا سبب تراخي نمو الإنتاجية في أوائل السبعينيات ولا كيفية إعادته لمستواه، يشير بعض الاقتصاديين، مثل روبرت جوردن (Robert Gordon) في كتابه **صعود وانهيار النمو الأمريكي** (*The Rise and Fall of American Growth*)، إلى قوى معاكسة ديموغرافية واقتصادية كلية، مثل إعالة عدد أقل من العاملين عددًا أكبر من المتقاعدين، وتوقُّف توسيع التعليم عند نقطةٍ معينة، وارتفاع الدين الحكومي، وانخفاض المساواة (وهو ما يضعِف الطلب على السلع والخدمات لأنَّ الأغنياء ينفقون من دخلهم نسبةً أقل مما يفعل الفقراء). ويضيف جوردن أنَّ مرحلة اختراع الاختراعات التي تُحدِث تحولات جذرية ربما تكون قد انتهت بالفعل، فالنصف الأول من القرن العشرين أحدث ثورة في المنازل بالكهرباء والمياه والصرف الصحي والهواتف والأجهزة التي تعمل بالمحرّك، ولم تتغيَّر المنازل بقدرٍ مشابه منذ ذلك الحين، فمرحاض الشطف الإلكتروني ذي المقعد المدفَّأ لطيف، ولكنَّه لا يشبه الانتقال من المرحاض الخارجي إلى المرحاض الدافق للمياه.

وهناك تفسيرٌ آخر ثقافي، وهو أنَّ أمريكا فقدت قواها السحرية، فلم يعُد العاملون في المناطق المصابة بالكساد يرحلون إلى مناطق حيوية وإنَّما أصبحوا يحصدون مبالغ التأمين ضد الإعاقة ويخرجون من سوق العمل. يمنع مبدأ الوقاية أي شخص من تجربة أي شيء للمرة الأولى. فقدت الرأسمالية كل الرأسماليين، لأنَّ كثيرًا جدًّا من الاستثمارات مقيَّدة في «رأسمال رمادي» يسيطر عليه مديرو المؤسَّسات الذين يسعون وراء عوائد آمنة للمتقاعدين، والشباب الطموحون يريدون أن يصبحوا فنَّانين ومهنيين لا روَّاد أعمال، ولم يعُد المستثمرون والحكومات يدعمون الأفكار الخلاقة، فكما قال رائد الأعمال بيتر ثيل (Peter Thiel) تعبيرًا عن حسرته: «أردنا سيارات طائرة، فحصلنا بدلًا من ذلك على 140 حرفًا».

مهما كانت أسباب الركود الاقتصادي، فهو في صميم العديد من المشاكل الأخرى ويشكِّل تحديًا خطِرًا أمام صنَّاع السياسات في القرن الحادي والعشرين. هل يعني ذلك أنَّ التقدُّم كان لطيفًا عندما كان قائمًا ولكنَّه انتهى الآن؟ هذا مستبعد! فأولًا: النمو الأبطأ ممَّا كان خلال أيام المجد التي تلت الحرب مازال نموًا، بل نموًا مطردًا، زاد الناتج العالمي الإجمالي في إحدى وخمسين سنة من السنوات الخمسة والخمسين الماضية، ممَّا يعني أنَّ العالم أصبح في كل سنةٍ من تلك الإحدى وخمسين سنة (بما يشمل السنوات الستة الماضية) أغنى من السنة السابقة. إضافةً إلى أنَّ الركود المزمن يُعد من مشاكل العالم الأول بصورةٍ كبيرة، فرغم أنَّ محاولة جعل أكثر الدول تقدُّمًا أكثر تقدُّمًا عامًا تلو الآخر يمثِّل تحديًا هائلًا، إلَّا أنَّ الدول الأقل تقدُّمًا ما زال أمامها الكثير لتلحق بها، وهي تنمو بمعدلاتٍ أعلى إذ تتبنَّى أفضل الممارسات التي تتبعها الدول الأغنى (الفصل الثامن). التقدُّم المستمر الأكبر اليوم في العالم هو خروج مليارات الأشخاص من الفقر المدقع، ولا ينبغي أن تضع الوعكات الأمريكية والأوروبية سقفًا لهذا الارتقاء.

يتسلَّل نمو الإنتاجية المدفوع بالتكنولوجيا ليفاجئ العالم بطريقته المميزة، وتستغرق معرفة الناس كيف يستغلون التكنولوجيا الجديدة على أفضل وجه فترةً من الزمن، وتحتاج الصناعات وقتًا لإعادة تجهيز المصانع بالمعدات وإعادة تنظيم الممارسات وفقًا لهذه التكنولوجيا. لنأخذ مثالًا بارزًا على ذلك، بدأ التزويد بالكهرباء في تسعينيات القرن التاسع عشر، ولكنَّ ملاحظة الاقتصاديين للانتعاش الذي كان ينتظره الجميع في الإنتاجية استغرق أربعين عامًا. كان لثورة الحواسب الشخصية أثرٌ خامل قبل إطلاق نمو الإنتاجية في التسعينيات (وهو ما لم يكُن مفاجئًا للمستخدمين الأوائل مثلي، الذين أهدروا جزءًا كبيرًا من أيامهم في الثمانينيات في تعريف الفأرة أو جعل طابعة مصفوفة

النقاط تطبع الكتابة بالخط المائل)، ولكنَّ المعرفة بكيفية تحقيق الاستفادة القصوى من تكنولوجيا القرن الحادي والعشرين ربما تتراكم خلف سدودٍ حتى تنفجر مندفعةً قريبًا.

يصر مراقبو التكنولوجيا –على عكس ممارسي العلم الكئيب (علم الاقتصاد)– أنَّنا على مشارف عصر الوفرة. شبَّه بيل جيتس التكهُّن بالركود التكنولوجي بالتوقُّع (الخاطئ) في عام 1913 بأنَّ الحرب أصبحت بالية، وكتب رائد الأعمال في مجال التقنية بيتر ديامانديس (Peter Diamandis) والصحافي ستيفن كوتلر (Steven Kotler): «تخيل عالمًا به تسعة مليارات شخص، لديهم مياه نظيفة وطعام مغذٍّ وإسكان ميسور التكلفة وتعليم ذو طابع شخصي ورعاية طبية رفيعة المستوى وطاقة واسعة الانتشار غير ملوِّثة». لا تنبع رؤيتهم من خيالات نابعة من مسلسل *The Jetsons* بل من صور التكنولوجيا القائمة والناجحة بالفعل أو التي اقتربت من النجاح.

لنبدأ بالمورد الذي يمثِّل –إلى جانب المعلومات– الوسيلة الوحيدة لتفادي الإنتروبيا والذي يشغِّل كل شيء آخر حرفيًّا، وهو الطاقة. فكما رأينا في الفصل العاشر، يمكن أن يكون الجيل الرابع من الطاقة النووية في هيئة مفاعلات الوحدات الصغيرة آمنًا أمانًا سلبيًّا، ومضادًا للانتشار، ولا يخلِّف أي نفايات، ويُنتج على نطاقٍ واسع، ويتطلَّب صيانة بسيطة، ومزوَّدًا بالوقود الذي يكفيه إلى أجلٍ غير مسمى، وأرخص من الفحم. ويمكن أن تكون الألواح الشمسية المصنوعة من أنابيب الكربون النانوية أكثر كفاءة من الألواح الكهروضوئية الحالية بمئة ضعف، ممَّا يحقِّق الاستمرارية لقانون مور للطاقة الشمسية، ويمكن تخزين طاقتها في بطاريات معدنية سائلة، فالبطارية بحجم حاوية شحن يمكنها نظريًّا تشغيل حي كامل، وبطارية بحجم متجر وولمارت يمكنها تشغيل مدينة صغيرة، وتستطيع الألواح الذكية جمع الطاقة حيثما ومتى تولَّدت وتوزيعها حيثما ومتى وُجِدت حاجة لها. ربما تبث التكنولوجيا روحًا جديدة في الوقود الأحفوري أيضًا، إذ يستخدم تصميمٌ جديد لمحطةٍ تعمل بالغاز ولا تصدر انبعاثاتٍ العوادم في تشغيل التوربين مباشرةً بدلًا من الإسراف في غلي المياه، ثم يعزل ثاني أكسيد الكربون ويحجزه تحت الأرض.

قد ينتج كلٌّ من التصنيع الرقمي ودمج تكنولوجيا النانو والطباعة ثلاثية الأبعاد والتصنيع السريع للنماذج الأولية مركَّباتٍ أقوى وأرخص من الصلب والخرسانة ويمكن طباعتها في الموقع من أجل بناء المنازل والمصانع في العالم النامي. يمكن للترشيح النانوي تنقية المياه من مسبِّبات الأمراض والمعادن، بل وحتى الأملاح. والمراحيض الخارجية عالية التقنية لا تستلزم أي توصيلات، وهي تحوّل الفضلات البشرية إلى سماد ومياه شرب وطاقة. قد يخفِّض الري الدقيق وشبكات المياه الذكية باستخدام مجسَّات رخيصة ورقائق ذات ذكاء اصطناعي من استهلاك المياه بمقدار يتراوح بين الثُلث والنصف. إنَّ محصول الأرز المعدَّل جينيًّا ليحل مسار ك 4 للبناء الضوئي في الذرة وقصب السكر محل مسار ك 3 غير الكافي أكبر بنسبة 50 في المئة، ويستخدم نصف مقدار المياه وكمية أقل كثيرًا من السماد، ويتحمَّل درجات الحرارة الأعلى، والطحالب المعدَّلة جينيًّا بوسعها سحب الكربون من الجو وإفراز الوقود الحيوي. تستطيع الطائرات بدون طيار رصد السكك الحديدية وخطوط الأنابيب البعيدة على مسافة أميال وتستطيع توصيل المعدات الطبية وقطع الغيار إلى المجتمعات المعزولة، ويمكن أن تتولى الروبوتات المهام التي يكرهها البشر مثل استخراج الفحم وتعبئة الرفوف وترتيب السرير.

وفي المجال الطبي، قد يقوم جهاز المعمل المحمول في شريحةٍ بأخذ عينة من السوائل واكتشاف أي مرضٍ من بين مئات الأمراض من نقطة دم أو لعاب فقط. سيشخِّص الذكاء الاصطناعي الأمراض بدقةٍ أكبر من الحاسة السادسة لدى الأطباء عبر معالجة البيانات الموجودة في الجينوم والأعراض والتاريخ المرضي، وسيصف الأدوية التي تناسب الكيمياء الحيوية الفريدة لدينا. بوسع الخلايا الجذعية تعديل

أمراض المناعة الذاتية مثل التهاب المفاصل الروماتويدي والتصلب المتعدِّد، ويمكنها أن تسكن أعضاء الجثث أو الأعضاء المزروعة في الحيوانات أو النماذج المطبوعة ثلاثية الأبعاد التي تحتوي على أنسجتنا. ويمكن أن يُخمِد تدخل الحمض النووي الريبوزي الجينات الضارة كالجين الذي ينظِّم مستقبِل إنسولين الدهون، ويمكن تضييق نطاق علاجات السرطان لتصبح موجهة نحو بصمة الورم الجينية الفريدة بدلًا من تسميم كل خلية منقسمة في الجسم.

يمكن أن يتحول التعليم العالمي، فمعارف العالم أصبحت متاحة بالفعل لمليارات الأشخاص حاملي الهواتف الذكية في موسوعات ومحاضرات وتدريبات ومجموعات بيانات. يمكن توفير التدريس الخاص عبر الإنترنت الذي يقدِّمه المتطوِّعون (مثل فريق Granny Cloud) للأطفال في العالم النامي ويقدِّمه معلِّمو الذكاء الاصطناعي للدارسين في أي مكان.

إنَّ الابتكارات الجاري تطويرها ليست مجرد قائمة أفكارٍ لطيفة، فهي ناتجة عن التطور التاريخي الذي أُطلِق عليه النهضة الجديدة وعصر الآلة الثاني. بينما كان عصر الآلة الأول الذي وُلِد من رحم الثورة الصناعية مدفوعًا بالطاقة، فإنَّ العصر الثاني مدفوع بالمورد الآخر المضاد للإنتروبيا، وهو المعلومات. ينبع الأمل الثوري فيها من الاستخدام المفرط للمعلومات في توجيه كل أشكال التكنولوجيا الأخرى، ومن التحسين المتزايد لتكنولوجيا المعلومات نفسها، مثل طاقة الحواسب الآلية وعلم الجينوم.

يأتي الوعد بعصر الآلة الجديد أيضًا من الابتكارات في عملية الابتكار نفسها، أحدها إتاحة منصات الابتكار مثل واجهات برامج التطبيقات والطابعات ثلاثية الأبعاد للعامة، وهو ما قد يجعل أي شخص قادرًا على صنع التكنولوجيا العالية بنفسه. وثانيها ظهور فاعلي الخير في مجال التكنولوجيا، فبدلًا من كتابة الشيكات من أجل الحصول على حق تسمية قاعات الحفلات، يستخدم هؤلاء براعتهم وصِلاتهم ومطالبهم في إيجاد حلولٍ للمشكلات العالمية. وثالثها التمكين الاقتصادي لمليارات الأشخاص عبر الهواتف الذكية والتعليم عبر الإنترنت والتمويل الصغير. يتمتع مليون شخص من بين المليار الأفقر في العالم بمعدل ذكاء عبقري، تخيَّل كيف سيكون العالم لو استُغلِّت قدراتهم العقلية على أكمل وجه!

هل سيُخرِج عصر الآلة الثاني الاقتصادات من ركودها؟ ليس هذا أكيدًا لأنَّ النمو الاقتصادي لا يعتمد على التكنولوجيا المتاحة فحسب، بل يعتمد أيضًا على مدى حُسن تكريس الدولة رأس مالها البشري والمالي لاستخدام هذه التكنولوجيا، وحتى لو تم استغلال هذه التكنولوجيا على أكمل وجه، فربما لا تندرج منافعها ضمن الإجراءات الاقتصادية المعيارية. لاحظ الفنان الكوميدي بات بولسن (Pat Paulsen) أنَّنا «نعيش في دولةٍ كل شيء فيها ضخم حتى الناتج المحلي الإجمالي». يتَّفق أغلب الاقتصاديين على أنَّ الناتج القومي الإجمالي (وقريبه الناتج المحلي الإجمالي) مؤشر إجمالي على الازدهار الاقتصادي، فهو يتمتَّع بميزة سهولة قياسه، ولكنَّه ليس مثل العلاوات التي يستمتع بها الناس لأنَّه مجرد سجل للأموال التي تنتقل من يدٍ إلى أخرى في إنتاج السلع والخدمات. لطالما أربكت مشكلة فائض المستهلك أو مفارقة القيمة عملية القياس الكمي للرخاء (الفصل الثامن والتاسع) وتزيد الاقتصادات الحديثة من حدة المشكلة.

يذكر جويل موكير (Joel Mokyr) أنَّ: «الإحصاءات المجمَّعة مثل نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي ومشتقاته مثل إنتاجية عوامل الإنتاج. مصمَّمة لتناسب اقتصاد الصلب والقمح، لا اقتصاد تشكِّل فيه المعلومات والبيانات القطاع الأكثر ديناميةً، إنَّ تصميم كثيرٍ من السلع والخدمات الجديدة مكلِّف، ولكن بمجرد نجاحها، يمكن تقليدها بتكلفة منخفضة للغاية أو دون تكلفة، يعني ذلك أنَّها تُسهم غالبًا في الناتج القابل للقياس بالقليل حتى لو كان أثرها في رفاهة المستهلك كبيرٌ جدًّا». ينفي الحدُّ من استخدام المواد الذي نظرنا فيه في الفصل العاشر على سبيل المثال الملاحظة القائلة بأنَّ المنزل في عام 2015 لا يبدو مختلفًا اختلافًا كبيرًا عن المنزل في

عام 1965، يكمُن الفرق الكبير فيما لا *نراه* لأنَّه أصبح باليًا بفعل أجهزة التابلت والهواتف الذكية، إضافةً إلى المعجزات الجديدة مثل بث الفيديوهات والمحادثات عبر برنامج سكايب. وفضلاً عن الحدّ من استخدام المواد، أطلقت تكنولوجيا المعلومات عملية *إلغاء النقود*، فكثير من الأشياء التي اعتاد الناس أن يدفعوا مقابلها مجانية الآن، بما فيها الإعلانات المبوَّبة والأخبار والموسوعات والخرائط والكاميرات والمكالمات الدولية والنفقات الإضافية لمتاجر التجزئة التقليدية، حيث يستمتع الناس بهذه الخيرات الآن أكثر من أي وقتٍ مضى، ولكنَّها اختفت من الناتج القومي الإجمالي.

افترقت الرفاهة البشرية عن الناتج القومي الإجمالي بطريقةٍ أخرى، فكلَّما أصبحت المجتمعات الحديثة أكثر إنسانيةً، كرَّست المزيد من ثروتها لأشكال تحسين أحوال البشر غير محدَّدة بسعرٍ في السوق. ذكر مقالٌ حديث في صحيفة *وول ستريت جورنال* عن الركود الاقتصادي أنَّه قد تم توجيه نسبة متنامية من جهود الابتكار نحو هواءٍ أنظف وسيارات أكثر أماناً وأدوية لعلاج الأمراض المهملة التي يصيب كلٌّ منها أقل من مئتي ألف شخصٍ على الصعيد الوطني، وارتفعت نسبة الرعاية الصحية عمومًا من البحث والتطوير من 7 في المئة في عام 1960 إلى 25 في المئة في 2007. وذكر الصحافي المالي الذي كتب هذا المقال في حزنٍ تقريبًا أنَّ «الأدوية من أعراض القيمة المتزايدة التي تضفيها المجتمعات الموسرة على حياة الإنسان..فالأبحاث الصحية تحل محل البحث والتطوير الذي كان من الممكن أن يتوجه نحو المزيد من المنتجات الاستهلاكية العادية. تفرض القيمة المتزايدة لحياة الإنسان بالطبع نموًا أبطأ في السلع والخدمات الاستهلاكية الاعتيادية، والتي تشكِّل الجزء الأكبر من الناتج القومي الإجمالي القابل للقياس». التفسير الطبيعي أنَّ هذه المفاضلة دليلٌ على تسارع التقدُّم لا ركوده، فالمجتمعات الحديثة لديها ردٌّ سريع على طلب اللص عندما يخيِّرك بين حياتك أو نقودك، على عكس الكوميديان الحريص جاك بيني (Jack Benny).*

يوجد تهديد مختلف كثيرًا للتقدُّم البشري، وهو حركة سياسية تسعى إلى تقويض أسسها التنويرية، إذ شهد العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين نهوض حركة مضادة للتنوير تُدعى الشعبوية، أو بتعبيرٍ أدق، الشعبوية السلطوية. تدعو الشعبوية إلى السيادة المباشرة «للشعب» (الذي يكون عادةً جماعة عرقية، وأحياناً طبقة ما)، مجسَّدًا في قائدٍ قوي يوجِّه تجاربهم وفضائلهم الأصيلة بصورةٍ مباشرة.

يمكن اعتبار الشعبوية مقاومة من بعض عناصر الطبيعة البشرية مثل القبلية والسلطوية والشيطنة والتفكير الصفري ضد المؤسسات التنويرية التي صُممت للتحايل عليها. بتركيزها على القبيلة بدلًا من الفرد، لا يوجد مكان فيها لحماية حقوق الأقلية أو تعزيز رفاهة البشر، وبعدم اعترافها بأنَّ المعرفة التي وصلنا إليها بشق الأنفس هي سر تقدم المجتمع فهي تُشوه سمعة «النُخب» و«الخبراء» وتقلل من قيمة سوق الأفكار بما فيها حرية التعبير واختلاف الرأي والتحقق من صدق المطالب التي تخدم المصالح الذاتية، وبتقدير القائد القوي تتجاهل الشعبوية قصور الطبيعة البشرية وتستخف بالمؤسسات المحكومة بالقانون والضوابط الدستورية التي تحد من سلطة البشر المعيبين بطبعهم.

للشعبوية عدة صور منها اليميني ومنها اليساري وتشترك جميعها في نظرية فلكلورية للاقتصاد بوصفه منافسة صفرية لا بد فيها من رابح وخاسر بين الطبقات الاقتصادية عند اليسار وبين الدول أو الجماعات العرقية عند اليمين. لا يُنظر إلى المشاكل على أنها تحديات

* الذي تعرَّض له في أحد المشاهد في برنامجه الكوميدي لصٌّ خيَّره بين حياته وماله، فسكت جاك، فأعاد عليه اللص السؤال فصرخ جاك في وجهه قائلًا: «إنَّني أفكِّر في الأمر».

حتمية في عالمٍ غير مبالٍ وإنما مخططات شريرة من النخب الماكرة أو الأقليات أو الأجانب. أمَّا التقدُّم فلا تُفكر فيه أصلًا، فالشعبوية تتطلع إلى الماضي عندما كانت البلد متجانسة عرقيًا وأرثوذوكسية ثقافيًا وكانت القيم الدينية هي السائدة والاقتصاد قائمًا على الزراعة والصناعة التي أنتجت سلعًا مادية للاستهلاك المحلي والتصدير.

سيبحث الفصل الثالث والعشرون في الجذور الثقافية للشعبوية السلطوية بعمقٍ أكثر، أمَّا هنا فسأركز على صعودها الأخير ومستقبلها المحتمل. استقطبت الأحزاب الشعبوية (اليمينية منها على الأغلب) 13.2% من التصويت السابق على الانتخابات البرلمانية الأوروبية في عام 2016 (مقارنةً بـ 5.1% في الستينيات) وشاركت في الائتلافات الحاكمة لإحدى عشرة دولة بما فيها المجر وبولندا. تستطيع الأحزاب الشعبوية الدفع بأهدافها حتى مع عدم وجودها في السلطة ولا سيما حثها على استفتاء البريكست في عام 2016 عندما صوت 52% من البريطانيين بالموافقة على الخروج من الاتحاد الأوروبي، وانتُخب دونالد ترامب في هذه السنة لرئاسة أمريكا وفاز بأصوات المجمع الانتخابي على الرغم من حصوله على أقلية في التصويت الشعبي (46% في مقابل 48% حصلت عليها هيلاري كلينتون). ولا يوجد ما يعكس قَبَلِية الشعبوية ونظرتها إلى الوراء أكثر من شعار حملة ترامب الانتخابية: لنجعل أمريكا عظيمة مرةً أُخرى.

بينما كنتُ أكتب الفصول الخاصة بالتقدُّم، قاومت الضغط عليّ من قراء المسودات الأولى كي أنهي كل فصل بهذا التحذير: «لكن كل هذا التقدم في خطر إذا نجح دونالد ترامب في خطته». التقدم في خطر بالتأكيد، وسواء أكانت سنة 2017 تمثِّل منعطفًا تاريخيًا حقًّا أم لا، فهذه التهديدات تستحق المراجعة خاصةً إذا كانت ستطلعنا على طبيعة التقدم المهدد بالخطر.

تحسنت **الحياة** و**الصحة** بصورة كبيرة بسبب اللقاحات والتدخلات الطبية الأخرى التي جرى فحصها جيدًا، ومن بين نظريات المؤامرة التي أيَّدها ترامب الادعاء المفضوح منذ مدة طويلة بأنَّ المواد الحافظة الموجودة في اللقاحات تصيب بالتوحد. وتم ضمان المكتسبات عن طريق إتاحة الوصول للرعاية الطبية على نطاقٍ واسع، وقد سعى لتشريع سيسحب التأمين الصحي من عشرات الملايين من الأمريكيين، وهو انتكاسة للنزعة السائدة باتجاه الإنفاق الاجتماعي النافع.

نتجت التطورات فيما يخص **الثروة** عن عولمة الاقتصاد وهي مدعومة بشكل كبير بالتجارة الدولية، وترامب شخص حمائي يرى التجارة الدولية على أنها منافسة صفرية بين الدول لا بد فيها من رابحٍ وخاسرٍ، ويسعى لفض جميع اتفاقات التجارة الدولية.

سيحرك نمو **الثروة** كلٌّ من: الابتكارات التكنولوجية والتعليم والبنية التحتية وزيادة القوة الشرائية للطبقات الدنيا والمتوسطة ووضع قيود على المحسوبية وحكم الأثرياء الذي يشوه تنافسية السوق ووضع قواعد تنظيمية للشؤون المالية تخفض من احتمالية حدوث فقاعات وانهيارات اقتصادية. إضافةً إلى عدوانية ترامب تجاه التجارة، فهو غير مبالٍ بالتكنولوجيا والتعليم ومؤيد للتخفيضات الضريبية التنازلية للأثرياء، بينما يضم أباطرة المال والشركات الكبرى إلى حكومته وهم معادون للقواعد التنظيمية دون تمييز.

وللاستفادة من المخاوف من **انعدام المساواة**، شيطن ترامب صورة المهاجرين والشركاء التجاريين بينما تجاهل المعرقل الأساسي لتوظيف الطبقات المتوسطة الدنيا وهو التغير التكنولوجي، وعارض أيضًا الإجراءات التي تحد بنجاحٍ غالبًا من أضرار هذا التغير، وتحديدًا الضرائب التصاعدية والإنفاق الاجتماعي.

انتفعت **البيئة** من القواعد المنظِّمة لتلوث الهواء والماء الذي تزامن مع زيادة السكان والناتج المحلي الإجمالي والسفر، ويعتقد ترامب أنَّ القواعد التنظيمية البيئية مدمِّرة اقتصاديًا والأسوأ من ذلك أنه قال إنَّ التغير المناخي مجرد خدعة وأعلن الانسحاب من اتفاقية باريس

التاريخية.

تحسن **الأمان** أيضًا بصورة هائلة بفعل اللوائح الفيدرالية التي يزدريها ترامب وحلفاؤه بشكل عميق، فبينما يُعرف ترامب بحفظ النظام وتطبيق القانون، لكنَّه غير مهتم بأي سياسة مبنية على أدلة تميز بين إجراءات مكافحة الجريمة الفعَّالة وبين الكلام العنيف عديم الفائدة.

تَرسّخَ **سلام** ما بعد الحرب بالتجارة و **الديموقراطية** والاتفاقيات والمنظمات الدولية والقواعد المناهضة للغزو.

حطّ ترامب من قدر التجارة الدولية وهدَّد بعدم الالتزام بالاتفاقيات الدولية وإضعاف المؤسسات الدولية. فترامب معجبٌ بفلاديمير بوتين الذي عكس مسار التحول الديمقراطي في روسيا، وحاول هدم الديمقراطية في الولايات المتحدة وأوروبا بالهجمات الإلكترونية، وساعد في إتمام أكثر حرب مدمرة في القرن الحادي والعشرين في سوريا، وحرَّك حروبًا أصغر في أوكرانيا وجورجيا، وارتكب أحد محرمات ما بعد الحرب وهو الغزو بضمه شبه جزيرة القرم لروسيا، وتواطأ العديد من أعضاء حكومة ترامب بصورة سرية مع روسيا في محاولةٍ لرفع العقوبات عنها، مما أضعف إحدى الآليات الأساسية لتطبيق القانون على الخارجين عن قانون الحرب.

تعتمد **الديمقراطية** على كلٍّ من الضمانات الدستورية الصريحة مثل حرية الصحافة، والمعايير المشتركة وخاصة معايير القيادة السياسية التي يحددها القانون والمنافسة السياسية السلمية بدلًا من رغبة القائد صاحب الكاريزما في السُلطة. اقترح ترامب تخفيف قوانين التشهير ضد الصحفيين وشجع على العنف في تجمعاته الانتخابية ضد منتقديه ولم يكن ليلتزم بنتيجة انتخابات 2016 لو لم تكن في صالحه، وحاول التشكيك في مصداقية فرز التصويت الشعبي الذي لم يكن في صالحه، وهدد بسجن منافِسته في الانتخابات وهاجم شرعية النظام القضائي عندما اعترض على قراراته، أي لديه جميع السمات المميزة للدكتاتور. تعتمد قدرة الديموقراطية على التحمل عالميًا بصورة جزئية على سمعتها في المجتمع الدولي، في حين أشاد ترامب بالحكام المستبدين في روسيا وتركيا والفلبين وتايلاند والمملكة العربية السعودية ومصر بينما أساء للحلفاء الديمقراطيين مثل ألمانيا.

تعرضت مبادئ التسامح والمساواة و **المساواة في الحقوق** للانتقاد بشكل كبير أثناء حملته وبداية ولايته، إذ شيطن ترامب المهاجرين من أصول لاتينية واقترح حظر هجرة المسلمين تمامًا (وحاول فرض حظر جزئي بعد انتخابه مباشرةً) وحط من قدر النساء مرارًا وسكت عن تعبيرات عنصرية ومتحيزة جنسيًّا وسوقية من حلفائه في التجمعات الانتخابية، وتقبل الدعم من جماعات اليمين المتطرف (المؤمنة بالتفوق العرقي للبيض) وساوى بينهم وبين منافسيهم وعيَّن خبيرًا استراتيجيًّا ومدعيًّا عامًا معاديين لحركة الحقوق المدنية.

جعل ترامب مبدأ **المعرفة** –وهو أن تكون آراء المرء مبنية على اعتقادات حقيقية مبررة– مثارًا للسخرية بتكراره نظريات مؤامرة سخيفة مثل: أنَّ أوباما وُلد في كينيا، وأنَّ والد السيناتور تيد كروز (Ted Cruz) شارك في اغتيال جون كينيدي، وأنَّ الآلاف من مسلمي نيو جيرسي احتفلوا بالحادي عشر من سبتمبر، وأنَّ القاضي أنتونين سكاليا مات مقتولًا، وأنَّه كان يتم التصنت على هواتف أوباما، وأنَّ ملايين الناخبين غير الشرعيين هم السبب في خسارته في التصويت الشعبي والعشرات حرفيًّا من نظريات المؤامرة الأخرى. أظهر موقع تقصِّي الحقائق *PolitiFact* أنَّ 69% من تصريحات ترامب التي حاولوا التحقّق من صحتها كانت «خطأً غالبًا» أو «خطأ» أو «خطأ بصورة فظيعة». يلوى جميع الساسة عنق الحقيقة ويكذب جميعهم أحيانًا (بما أنَّ جميع البشر يلوون عنق الحقيقة ويكذبون أحيانًا)، ولكنَّ تأكيدات ترامب السافرة التي يمكن فضحها في الحال (على سبيل المثال أنه فاز في الانتخابات بأغلبية ساحقة) تُظهر أنَّه لا يرى الخطاب العام وسيلةً للعثور على أرضٍ مشتركة قائمة على حقيقة موضوعية وإنَّما سلاحًا لإظهار السيطرة وإهانة المنافسين.

الأمر الأخطر أنَّ ترامب دفع في اتجاهٍ مضاد للقواعد التي حافظت على العالم من **الخطر الوجودي** المحتمل للحرب النووية، فشكَّك في حظر استخدام الأسلحة النووية، وغرَّد عن استئناف سباق التسلح النووي، وفكَّر علنًا في تشجيع انتشار الأسلحة في دولٍ أخرى، وهدَّد بإلغاء الاتفاقية التي تمنع إيران عن صناعة أسلحة نووية. والأسوأ من ذلك كله، أنَّ التسلسل القيادي يعطي للرئيس الأمريكي صلاحيةً هائلة لاستخدام الأسلحة النووية أثناء الأزمات بناءً على الافتراض الضمني بأنَّ أي رئيس لن يتصرف بتهورٍ في مسألة خطيرة كهذه، لكنَّ ترامب معروفٌ بطبعه المندفع والانتقامي.

ولا يمكن حتى للمتفائلين بالفطرة توقع الخير من وراء ذلك، لكن هل سينقض دونالد ترامب حقًّا (والشعبوية السلطوية عامةً) ما بناه التقدم خلال رُبع ألفية كاملة؟ هناك أسباب لعدم الإسراع إلى الانتحار بعد. إذا استمرت حركةٌ ما لعقودٍ أو قرون، فهناك على الأرجح قوى خلف حركتها وأطراف كثيرة معنية ومهتمة بألا تعكس مسارها.

لم تُصمم الرئاسة الأمريكية كي تكون نظامًا ملكيًّا بالتناوب، فالرئيس يتولى مسؤولية شبكة موزعة من السلطة (يسميها الشعبويون «الدولة العميقة») تدوم أطول من القيادات الفردية وتضطلع بأعمال الحكومة في ظل معوقات واقعية لا يمكن إزالتها بسهولة عن طريق تصفيق صفوف الشعبويين ولا نزوات من يتولى القيادة. وتتضمن مشرِّعين مسؤولين أمام الناخبين وجماعات الضغط وقُضاة يودون الحفاظ على نزاهة سمعتهم ومديرين تنفيذيين وبيروقراطيين وموظفين مسؤولين عن مهام أقسامهم. تضع غرائز ترامب التسلطية مؤسسات الديمقراطية الأمريكية في اختبار تحمّل، ولكنَّ هذه المؤسسات دافعت عن الديمقراطية على عدة أصعدة، فقد نبذ مجلس الوزراء علانيةً العديد من تعليقاته وتغريداته وتلميحاته الكريهة، وأبطلت المحاكم إجراءاته غير الدستورية، وانشق بعض أعضاء مجلس الشيوخ وبعض أعضاء الكونجرس عن حزبه كي يصوتوا ضد تشريعاته المدمرة، وتُحقِّق وزارة العدل ولجان الكونجرس في علاقة حكومته بروسيا، وأدان رئيس مكتب التحقيقات الفيدرالي محاولة ترامب ترهيبه علنًا (ممَّا أدى إلى إثارة الحديث عن اتهامه بعرقلة سير العدالة)، وسرَّب موظفوه حقائق تنتقص منه للصحافة لاستيائهم ممَّا يرون منه، وكل هذا خلال الأشهر الأولى من ولايته.

تقيِّد حركة الرئيس أيضًا الحكومات المحلية وإدارات الولايات الأقرب إلى الحقائق الملموسة على الأرض، وحكومات الدول الأخرى التي لا يمكن أن نتوقَّع منها أن تضع في أهم أولوياتها جعل أمريكا عظيمة مرةً أُخرى، وأغلب الشركات التي يعود عليها كلٌّ من السلام والرخاء والاستقرار بنفعٍ. العولمة على وجه الخصوص موجة يستحيل على أي حاكم أن يعود بها إلى الخلف، العديد من مشاكل البلد مشاكل عالمية بطبعها بما فيها الهجرة والأوبئة والإرهاب والجريمة الإلكترونية وانتشار الأسلحة النووية والدول المارقة التي تهدد سلام العالم والبيئة. لا يمكن الاستمرار في التظاهر بعدم وجود هذه المشاكل إلى الأبد، ولا يمكن حلها سوى بالتعاون الدولي، ولا يمكن إنكار فوائد العولمة إلى الأبد –سلع أرخص وأسواق تصدير أكبر وانخفاض معدلات الفقر العالمية–ومع وجود الإنترنت والسفر قليل التكلفة، فلن يكون إيقاف تدفق الأشخاص وتناقل الأفكار (خاصةً بين الشباب كما سنرى) ممكنًا. أما فيما يخص الحرب ضد الحقيقة، فتتمتَّع بميزة ذاتية تساعدها على البقاء وهي أنَّها لا تختفي عندما تتوقف عن الإيمان بها.

السؤال الأهم هو إذا ما كان صعود الحركات الشعبوية –مهما كان الضرر الذي تتسبب فيه على المدى القصير– سيؤدي إلى تغيير شكل المستقبل– وإذا ما كان «عهد التنوير قد انتهى» كما قالت افتتاحية حديثة لجريدة *Boston Globe*. هل تعني الأحداث التي جرت

في 2016 أنَّ العالم في طريقه إلى العصور الوسطى حقًّا؟ تسهل المبالغة في تفسير الأحداث الأخيرة كما يُثبت المتشككون في التغير المناخي صحة آرائهم بصباحٍ قارس البرودة.

أولًا، ليست الانتخابات الأخيرة استفتاءً على التنوير، ففي نظام الاحتكار السياسي الثنائي الأمريكي، يبدأ أي مرشح جمهوري بـ 45% من المناصرين على الأقل في سباق ثنائي، وخسر ترامب في التصويت الشعبي بنسبة 46 إلى 48%، وانتفع من الخدع الانتخابية وسوء تقدير من حملة هيلاري كلينتون الانتخابية. وغادر باراك أوباما منصبه بنسبة تأييد شعبية تبلغ 58% وهو أعلى من المتوسط للرؤساء المنتهية ولايتهم، وهو الذي *نسب الفضل* في خطبة الوداع *للتنوير* بأنه «الجوهر الأساسي لهذا البلد»، في حين تولى ترامب منصبه بتقييم يبلغ 40%، وهو أقل تقييم على الإطلاق لرئيس جديد، وانخفض هذا التقييم إلى 34% خلال أشهره السبعة الأولى، وهو يزيد بالكاد على نصف متوسط تقييمات الرؤساء التسعة السابقين في نفس المرحلة من ولايتهم.

الانتخابات الأوروبية ليست مقياسًا للالتزام بالإنسانية العالمية أيضًا وإنما مجرد ردود فعل على قضايا يومية مثيرة للعواطف، ومن هذه القضايا المثارة في الآونة الأخيرة: عملة اليورو (والتي تثير شكوك العديد من الاقتصاديين) واللوائح التدخلية من بروكسل والضغط لقبول أعداد كبيرة من اللاجئين من الشرق الأوسط في نفس وقت تصاعد الخوف من الإرهاب الإسلامي بفعل الهجمات المروعة (على الرغم من عدم تناسب الخوف مع الخطورة). رغم ذلك، لم تفُز الأحزاب الشعبوية سوى بـ 13% من الأصوات في السنوات الأخيرة وخسروا عددًا مساويًا لما فازوا به من المقاعد في المجالس التشريعية. في السنة التي تلت صدمتي ترامب والبريكست، نُبذ الجناح الأيمن الشعبوي في الانتخابات في هولندا والمملكة المتحدة وفرنسا –حيث أعلن الرئيس الجديد إيمانويل ماكرون أنَّ أوروبا «تنتظر منَّا الدفاع عن روح التنوير المهددة في أماكن عدة».

لكن الأهم من الأحداث السياسية التي وقعت في منتصف العقد الأول من القرن الحادي والعشرين هي الاتجاهات الاجتماعية والاقتصادية التي عزَّزت من الشعبوية السلطوية، والتي قد تتنبأ بمستقبلها.

تخلق التطورات التاريخية الإيجابية رابحين وخاسرين، وكثيرًا ما يُقال إنَّ الخاسرين اقتصاديًا من العولمة (وهم الطبقات الدنيا في الدول الغنية) هم مؤيدو الشعبوية السلطوية، وهذا سبب كافٍ لتفسير صعود الحركة في رأي الحتميين الاقتصاديين. لكنَّ المحللين دقَّقوا في نتائج الانتخابات كما يفحص المحققون الحطام في موقع حادث طائرة، وقد تبين لنا الآن أنَّ التفسير الاقتصادي خطأ، إذ صوَّت الناخبون من الفئتين الأقل دخلًا لصالح هيلاري كلينتون في الانتخابات الأمريكية بنسبة 52 إلى 42، كما فعل من يقولون إنَّ «الاقتصاد» هو القضية الأهم، وصوَّت أكثرية الناخبين من الأربع فئات *الأعلى* دخلًا لصالح ترامب، وحدد المصوتون لصالح ترامب أن القضايا الأكثر أهمية هي «الهجرة» و«الإرهاب» وليس «الاقتصاد».

أظهرت التحليلات خيوطًا أكثر مبشرة بالخير. بدأ مقال كتبه الإحصائي نيت سيلفر (Nate Silver) بالتالي: «أحياناً يكون التحليل الإحصائي صعبًا، وأحياناً تكون النتائج واضحة وضوح الشمس»، ظهرت هذه النتائج الواضحة في عنوان المقال: «التعليم، وليس الدخل، تنبأ بمن سيصوت لترامب». كيف يمكن للتعليم صُنع هذا الفارق الكبير؟ هناك تفسيران غير مثيرين للاهتمام، أحدهما أنَّ ذوي المستوى العالي من التعليم يتبعون الفريق الليبرالي، والثاني أنَّ التعليم ربما يكون مؤشرًا على الأمان الاقتصادي أفضل من مستوى الدخل الحالي. هناك تفسير أكثر إثارةً للاهتمام وهو أنَّ التعليم يُعرِّض الناس في مرحلة البلوغ المبكرة لأشخاصٍ من أعراق وثقافات أخرى بطريقة تصعِّب شيطنتهم. والتفسير الأكثر إثارةً للاهتمام على الإطلاق هو احتمالية أنَّ التعليم يغرس في الناس احترام الحقائق

المفحوصة والجدال بالمنطق، عندما يكون التعليم كما ينبغي له أن يكون، وبهذا يحمي الناس من نظريات المؤامرة والنقاش بالنوادر والديماغوجية العاطفية.

وجد سيلفر أيضًا أنَّ التوزيع الديموغرافي لمؤيدي ترامب لا يقترن تمامًا بالتوزيع الديموغرافي للبطالة أو الديانة أو ملكية الأسلحة أو نسبة المهاجرين، ولكنَّه يتوافق مع التوزيع الديموغرافي للبحث عن كلمة *nigger* في محرك بحث جوجل، وهو مؤشر موثوق للعنصرية طبقًا لما أوضحه سيث ستيفنز ديفيدويتز (كما رأينا في الفصل الخامس عشر). لا يعني هذا أنَّ معظم مؤيدي ترامب عنصريون، ولكنَّ العنصرية المعلنة تخفت تدريجيًا متحوِّلة إلى كراهية وانعدام ثقة، ويشير هذا التقاطع إلى أن المناطق التي ساهمت في فوز ترامب في المجمع الانتخابي هي المناطق الأكثر مقاومة للعملية الممتدة لعقود لدمج مصالح الأقلية وتعزيزها (وخاصةً التمييز الإيجابي على أساس العرق، والذي يرونه على أنه تمييز عكسي ضدهم).

كان التشاؤم هو المؤشر الأكثر ثباتاً على دعم ترامب ضمن أسئلة استطلاع الرأي التي فحصت المواقف العامة، إذ شعر 96% من مؤيدي ترامب أن البلد تخرج «عن مسارها الصحيح بصورة خطيرة» وكانوا متشائمين أيضًا من أسلوب الحكومة الفيدرالية في تسيير الأمور وقلقين على حياة الجيل القادم من الأمريكيين.

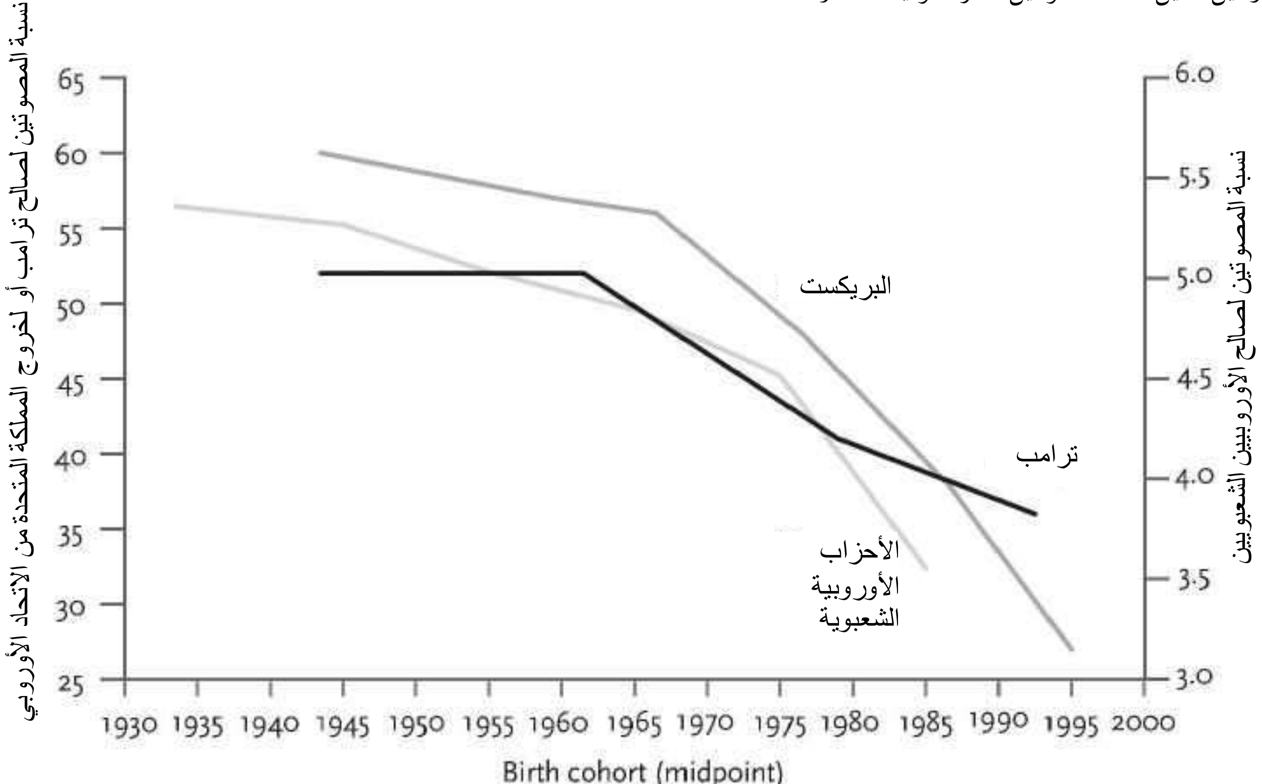
على الجانب الآخر من المحيط، رصد عالما السياسة رونالد إنجلهارت وبيبا نوريس أنماطًا مشابهة في تحليلهما لـ 268 حزبًا سياسيًا في 31 دولة أوروبية، ووجدا أنَّ القضايا الاقتصادية لعبت دورًا في البيانات الرسمية للأحزاب أصغر من دور القضايا غير الاقتصادية. ينطبق هذا أيضًا على توزيع الناخبين، إذ لا يأتي التأييد الأقوى للأحزاب الشعبوية من العمال اليدويين وإنَّما من «الطبقة البرجوازية الصغيرة» (الحرفيين المستقلين وأصحاب المشاريع الصغيرة) يليهم رؤساء العمال والفنيون. الناخبون الشعبويون أكبر سنًا وأكثر تدينًا وأقل تعليمًا ويغلب عليهم الطابع الريفي، وهُم غالبًا من الذكور وينتمون إلى الأغلبية العرقية، ويتبنون القيم السلطوية، ويعتبرون أنفسهم من اليمين السياسي ويكرهون الهجرة الوافدة والحكومة العالمية والوطنية. كان المصوتون لصالح البريكست أيضًا أكبر سنًا وأقل تعليمًا ويغلب عليهم الطابع الريفي ممَّن صوتوا ضده: إذ صوَّت 66% من الحاصلين على التعليم الثانوي لصالح الخروج، في حين لم يؤيِّد الخروج سوى 29% فقط من الحاصلين على شهادات جامعية.

توصَّل إنجلهارت ونوريس إلى أنَّ داعمي السلطوية الشعبوية هم الخاسرون *ثقافيًا* وليس اقتصاديًا فقط. فالناخبون الذكور المتدينون المنتمون للأغلبية العرقية والأقل تعليمًا «يشعرون بأنهم أصبحوا غرباء عن القيم السائدة في بلدهم ويشعرون بأنهم متخلفون عن الركب نتيجة التغير الثقافي الذي لا يتفقون معه.. يبدو أنَّ الثورة الصامتة التي انطلقت في سبعينيات القرن العشرين تمخَّضت عن رد فعل مناهض للثورة في الوقت الحالي». أبرز بول تايلور (Paul Taylor) المحلل السياسي بمركز بيو للأبحاث نفس التيار المعاكس في نتائج استطلاع الرأي الأمريكية: «هناك توجه عام نحو الليبرالية في عددٍ من القضايا ولكنَّ هذا لا يعني أنَّ البلد بأكمله مقتنعٌ بها».

ومع أنَّ مصدر رد الفعل العكسي الشعبوي قد يكون تيارات الحداثة التي تجتاح العالم منذ بعض الوقت –العولمة والتعددية العرقية وتمكين النساء والعلمانية والتوسع الحضري والتعليم– فإنَّ نجاحه انتخابيًّا يعتمد على وجود قائد يستطيع توجيه هذه الكراهية في اتجاهٍ ما، لذا قد يختلف مدى القبول الذي تتلقاه الشعبوية في الدول المتجاورة ذات الثقافات المتشابهة، فالمجر أكثر تقبُّلًا للشعبوية من جمهورية التشيك، والنرويج أكثر من السويد، وبولندا أكثر من رومانيا، والنمسا أكثر من ألمانيا، وفرنسا أكثر من إسبانيا، والولايات المتحدة أكثر من كندا (ليس لدى إسبانيا وكندا والبرتغال وجمهورية التشيك مشرِّعون من الأحزاب الشعبوية إطلاقًا).

كيف ستتطوَّر التوترات القائمة بين النزعة الإنسانية الليبرالية العالمية التنويرية التي تجتاح العالم منذ عقودٍ والشعبوية الرجعية السلطوية القبلية التي تقاومها؟ من المستبعد أن تسير القوى الرئيسية التي أدّت على مدى طويل إلى الليبرالية –الحراك وسهولة التواصل والتعليم والتوسع الحضري– في الاتجاه العكسي، وكذلك مطالبة النساء والأقليات العرقية بالمساواة.

كل هذه التحذيرات بالتأكيد مجرد تخمينات، ولكنَّ أحدها يقيني كـ «الموت والضرائب»، وهي أنَّ الشعبوية حركة لكبار السن. ويظهر الشكل رقم 20–1 أنَّ الدعم الموجه لما يمثل تفاقمها –ترامب وخروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي والأحزاب الأوروبية الشعبوية– ينخفض بصورة هائلة مع صغر السن (تتكون حركة اليمين البديل –التي تتقاطع مع الشعبوية– من أعضاء صغار السن، ورغم سمعتها السيئة إلَّا أنَّها ليس لها وجود انتخابي لأنَّها تتكون من حوالي 50 ألف شخص فقط أو 0.02% من عدد السكان الأمريكيين). ليس هذا الانخفاض مثيرًا للدهشة لأنَّنا كما رأينا في الفصل الخامس عشر فقد كان كل جيل من مواليد القرن العشرين أكثر تسامحًا وليبراليةً من الجيل الذي سبقه (وفي نفس الوقت أصبحت كل الأجيال أكثر ليبرالية)، ويزيد هذا من احتمالية اختفاء السلطوية الشعبوية مع رحيل الجيل الصامت وجيل طفرة المواليد الأكبر سنًا.



الشكل رقم 20– 1: دعم الشعبوية عبر الأجيال، 2016

المصادر: ترامب: استطلاعات الرأي التي أجرتها شركة إديسون للأبحاث (Edison Research)، *New York Times* 2016. **خروج المملكة المتحدة من الاتحاد الأوروبي** (البريكست): استطلاعات الرأي التي أجراها اللورد آشكروفت (Lord Ashcroft Polls)، *BBC News Magazine,* June 24, 2016, http://www.bbc.com/news/magazine-36619342. **الأحزاب الأوروبية الشعبوية** (2002–2014):

Inglehart & Norris 2016, fig. 8. البيانات الخاصة بكل فئة عمرية محددة عند منتصف مداها.

لا تدل التوجهات السياسية لأجيال الحاضر على سياسات المستقبل بالطبع إذا كان الناس يغيرون مبادئهم مع تقدمهم في العمر، ربما لا تملك أي مشاعر إذا كنت شعبوياً في سن الخامسة والعشرين وإذا لم تكن شعبوياً في سن الخامسة والأربعين فليس لديك عقل (كما يقول الميم عن الليبراليين والاشتراكيين والشيوعيين واليساريين والجمهوريين والديمقراطيين والثوريين وقد نُسب قول هذا الميم إلى العديد من المشاهير مثل فيكتور هوجو وبنجامين دزرائيلي وجورج برنارد شو وجورج كليمنصو Georges Clemenceau وونستون تشرشل وبوب ديلان). لكن بغض النظر عمَّن قاله (وهو على الأرجح رجل القانون أنسليم باتبي Anselme Batbie والذي عزاه لإدموند بيرك Edmund Burke بدوره) وبغض النظر عن النظام العقائدي الذي ينطبق عليه، فالادعاء بوجود تأثير لدورة الحياة على التوجه السياسي ادعاء خاطئ، فكما رأينا في الفصل الخامس عشر، فإنّ الناس يحتفظون بقيمهم التحررية مع تقدُّمهم في السن ولا ينزلقون إلى التوجهات المعادية لليبرالية. وقد أظهر تحليل حديث للناخبين في القرن العشرين أجراه عالما السياسة يائير غيتزا (Yair Ghitza) وآندرو جيلمان (Andrew Gelman) أنَّ الأمريكيين لا يصوتون لصالح الرؤساء المحافظين مع تقدمهم في السن، إذ تتأثر التفضيلات الانتخابية للناخبين بشعبية الرؤساء الذين يتولون الحكم خلال حياتهم وتبلغ ذروة هذا التأثير في الفترة العمرية بين 14 و24 عامًا، ومن المستبعد على الشباب الذين يرفضون الشعبوية اليوم أن يعتنقوها في المستقبل.

كيف يمكن للمرء مواجهة خطر الشعبوية على قيم التنوير؟ ليس انعدام الأمن الاقتصادي هو الدافع، لذا فإنَّ استراتيجيات الحد من انعدام المساواة في الدخل والحوار مع عمال صناعة الصلب المسرحين ومحاولة الشعور بآلامهم لن تكون فعَّالة على الأرجح مع أنها تستحق الإشادة. يبدو أنَّ رد الفعل الثقافي العكسي هو أحد الدوافع، لذا فتجنب الخطابات الاستقطابية والرمزية وسياسات الهوية قد يساعد على جذب الناخبين الذين لا يعرفون إلى أي فريقٍ ينتمون أو على الأقل عدم تنفيرهم (سنخوض في هذه المسألة بعمقٍ أكثر في الفصل الحادي والعشرين). بما أنَّ الحركات الشعبوية قد حققت تأثيرًا يتجاوز حجم المنتمين إليها، فقد يساعد إصلاح المخالفات الانتخابية مثل التزوير الانتخابي وأشكال التمثيل غير المتكافئ والذي يزيد من تأثير المناطق الريفية (مثل المجمع الانتخابي للولايات المتحدة)، وقد تساعد كذلك التغطية الصحفية التي تربط شعبية المرشحين بسجلهم من الدقة والاتساق بدلًا من ربطها بالأخطاء التافهة والفضائح. سيتلاشى جزءٌ من المشكلة على المدى الطويل مع التوسع الحضري، فلا تستطيع أن تبقيهم في المزرعة، وسيتلاشى جزءٌ آخر بالعوامل الديموغرافية. وكما قيل عن العلم، يتقدم المجتمع أحياناً جنازةً تلو الأخرى.

هناك لغز بشأن تصاعد السلطوية الشعبوية وهو لماذا لم تشارك في الانتخابات قطاعات كبيرة جدًا من السكان ممن هدَّدت نتيجة الانتخابات مصالحهم أكثر من غيرهم مثل الشباب البريطاني أثناء استفتاء خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي والأمريكيين من أصول أفريقية واللاتينيين وجيل الألفية من الأمريكيين أثناء انتخاب ترامب. يعود بنا هذا إلى موضوع أساسي من موضوعات هذا الكتاب وإلى وصفتي الصغيرة لتدعيم تيار الإنسانية التنويرية في مواجهة الانتكاسة الأخيرة على التنوير.

أعتقد أنَّ الإعلام والمثقفين كانا متواطئين مع الصورة الشعبوية للدول الغربية الحديثة بأنَّها ظالمة ومختلة لدرجة أنَّ لا شيء يمكنه إصلاحها سوى تغيير جذري. كتب أحد الكتاب المحافظين مقالًا بعنوان «اقتحم غرفة القيادة أو مت!» وفيه يشبِّه الدولة بالطائرة المختطفة في يوم 11 سبتمبر والتي سقطت بسبب تمرد أحد الركاب، قال أحد المدافعين عن اليسار المناصر لـ (سياسة إشعال الحرائق): «أفضِّل أن تحترق الإمبراطورية برمتها تحت حُكم ترامب مما يفتح الباب أمام تغيير جذري على الأقل بدلًا من التحرك بالقيادة الآلية

تحت ولاية هيلاري كلينتون». وحتى المحرِّرون المعتدلون في الصحف المنتمية إلى التيار السائد يصفون أمريكا عادةً بأنَّها بؤرة للعنصرية وانعدام المساواة والإرهاب والمرض الاجتماعي والمؤسسات المتهاوية.

والمشكلة في الخطاب السوداوي أنَّ الناس إذا صدقوا أنَّ البلد عبارة عن مكب نفايات محترق فسيتجاوبون مع نداء الزعماء الديماغوجيين الذي يسأل: «ماذا ستخسر؟» يمكن للإعلام والمثقفين المساعدة في الإجابة على هذا السؤال إذا وضعوا الأحداث في سياقها التاريخي والإحصائي. تُظهر الأنظمة الثورية مثل ألمانيا النازية والصين أثناء حكم ماو وفنزويلا المعاصرة أنَّ الناس سيخسرون الكثير عندما يطأ الزعماء المستبدون ذوو الشعبية على قواعد الديمقراطية ومؤسساتها أثناء «الأزمات» ويسيطرون على بلادهم بقوة شخصيتهم.

تعد الديمقراطية الليبرالية إنجازًا مهمًّا، ولن تخلو من المشاكل حتى يأتي المسيح، ولكن من الأفضل حل هذه المشاكل بدلًا من إشعال حريق هائل وتمني نشوء شيء ما أفضل من بين العظام والأنقاض. عندما نعجز عن ملاحظة فوائد الحداثة، يُحرِّض النقاد الاجتماعيون الناخبين على الأمناء المسؤولين والأفراد الذين يحاولون الإصلاح تدريجيًّا الذين يمكنهم ترسيخ التقدم الهائل الذي تمتعنا به وتعزيز الأوضاع التي ستحقِّق لنا المزيد منه.

يُعتبر إقناع الناس بالحداثة تحديًا لأنَّك عندما تكون مُحاصرًا بالأخبار، يبدو التفاؤل سذاجة أو كما يقول الكليشيه الجديد المفضل لدى المثقفين عن النخبة «انفصالًا عن الواقع»،

ولكن في عالمٍ بعيد عن أساطير الأبطال، يكون النوع الوحيد من التقدم الذي يمكننا الحصول عليه هو النوع الذي يسهل السهو عنه أثناء معايشته، مثلما أشار الفيلسوف آيزيا برلين (Isaiah Berlin) إلى أنَّ المثل الأعلى من عالمٍ عادل وحر وصحي ومتكافئ ومتجانس تمامًا والذي لا ترقى إلى مستواه الديموقراطيات الليبرالية أبدًا هو مجرد خيال، والناس ليسوا نسخًا متطابقة، فما يرضي شخصًا سيُحبِط آخر، والطريقة الوحيدة للمساواة بينهما هي عدم معاملتهما بالمثل، إضافةً إلى ذلك، فمن بين شروط الحرية أن تتمتَّع بالحرية في إفساد حياتك. تستطيع الديمقراطيات الليبرالية إحراز تقدم فقط في سياق التنازلات الفوضوية والإصلاح المستمر:

> نال الأطفال ما تاق إليه أباؤهم وأجدادهم؛ أي قدرًا أكبر من الحرية، ورفاهيةً مادية أكبر، ومجتمعًا أكثر عدالة، واختفت المشاكل القديمة، ويواجه الأطفال الآن مشاكل جديدة جلبتها عليهم حلول المشاكل القديمة، وحتى لو أمكن حل هذه المشاكل فستخلق هذه الحلول مواقف جديدة ومتطلبات جديدة وهكذا إلى الأبد وبصورة غير متوقعة.

هذه هي طبيعة التقدم، يدفعنا إلى الأمام كلٌّ من الإبداع والتعاطف والمؤسسات النافعة، وتجذبنا إلى الخلف الجوانب المظلمة من الطبيعة البشرية والقانون الثاني للديناميكا الحرارية. ويشرح كيفن كيلي كيف يمكن لهذه الجدلية أن تؤدي إلى التقدم على الرغم من ذلك:

> لقد نجحنا في أن نبني عامًا تلو الآخر أكثر ممَّا ندمر بقليلٍ جدًا منذ بداية التنوير وظهور العلم، ولكنَّ هذا الاختلاف الإيجابي البسيط تراكَمَ على مر العقود وكوّن ما يمكن أن نسميه بالحضارة.. «فالتقدم» يخفي نفسه بنفسه ولا يُلاحظ إلا في وقتٍ لاحق، ولهذا أخبر الناس بأنَّ تفاؤلي الكبير تجاه المستقبل له جذور تاريخية.

ليس لدينا اسم جذَّاب لخطة بنَّاءة توفق بين المكتسبات على المدى الطويل والإخفاقات قصيرة الأمد، وبين التيارات التاريخية والتدخلات البشرية. ليس تعبير «التفاؤل» صحيحًا تمامًا لأنَّ الاعتقاد بأنَّ الأشياء ستتحسن باستمرار لا يُعد أكثر عقلانية من الاعتقاد بأنَّ الأشياء ستسوء باستمرار، ويقترح كيلي مصطلح «بروتوبيا» "protopia" و*pro* مأخوذة من كلمتي *progress* و*process*، واقترح آخرون تعبيري «الأمل التشاؤمي» و«التدرج الجذري»، أمَّا التعبير المفضل لديّ فصاحبه هو هانس روزلينج، فعندما سُئِل عمَّا إذا كان متفائلًا، أجاب قائلاً «لستُ متفائلًا، وإنَّما أؤمن بأنَّ كل شيء ممكن»

الجزء الثالث:
العقل والعلم والنزعة الإنسانية

أفكار الخبراء الاقتصاديين والفلاسفة السياسيين أقوى بكثير ممَّا يظن الجميع، سواء أكانت هذه الأفكار صحيحة أو خاطئة، إذ لا يحكم العالم غيرها بالفعل سوى القليل من الأفكار الأخرى، فالرجالُ العمليون الذين يظنون أنفسهم غير خاضعين لأي نفوذ فكري يكونون عادةً عبيدًا لمفكرٍ اقتصاديٍ منقرضٍ ما، ويستمد المجانين من أصحاب مراكز السلطة الذين يسمعون أصواتاً من العدم جنونَهم من مؤلفٍ أكاديمي قديمٍ ما، وأنا واثقٌ أنَّ قوة المصالح الخاصة مبالغٌ فيها بشكل كبير مقارنةً بالزحف التدريجي للأفكار.

– جون مايناردكينز (John Maynard Keynes)

الأفكار مهمة، يعيش «*الإنسان العاقل*» بذكائه ويخلق ويجمع مفاهيم عن كيفية سير العالم وكيف يمكن أن يعيش أفراده حياتهم بأفضل طريقة. ولا يوجد دليل على قوة الأفكار أكبر من مفارقة قوة تأثير الفيلسوف السياسي الذي أصرَّ على قوة المصالح الشخصية والذي كتب: «لطالما كانت الأفكار الحاكمة لكل عصر هي أفكار الطبقة الحاكمة». لم يمتلك كارل ماركس (Karl Marx) أي ثروة، ولم يقُد أي جيش، ولكنَّ الأفكار التي دوَّنها في غرفة القراءة في المتحف البريطاني شكَّلت مسار القرن العشرين وما بعده وغيرت حياة مليارات البشر.

يلخِّص هذا الجزء من الكتاب دفاعي عن أفكار التنوير. عرض الجزء الأول هذه الأفكار وأثبت الجزء الثاني فعاليتها، والآن حان الوقت للدفاع عنها ضد بعض الأعداء غير المتوقعين، ولا أعني بذلك الشعبويين الغاضبين والأصوليين الدينيين، بل أقصد طوائف من التيار الفكري الرئيسي. قد يبدو الدفاع عن التنوير في وجه أساتذة الجامعة والنقاد والمثقفين وقرائهم مثالية ساذجة، لأنهم إذا سُئِلوا بصراحة عن هذه المبادئ فلن ينكرها سوى القليل منهم، ولكنَّ التزام المثقفين بهذه المبادئ مشكوكٌ في أمره، ولدى العديد منهم انتماءات أخرى، والقليل منهم مستعدون للدفاع عن التنوير. لذا تتلاشى مبادئ التنوير تدريجيًّا في ظل عدم وجود من يدعو إليها وتصبح صهريجًا لكل مشاكل المجتمع غير المحلولة (وسيكون دائمًا هناك العديد من هذه المشاكل). أما الأفكار غير الليبرالية مثل السلطوية والقبلية والتفكير القائم على السحر فهي تحرك المشاعر بسهولة ولها الكثير من الأنصار، فالمعركة بينهما ليست عادلة.

رغم أنَّني أتمنى أن تترسخ مبادئ التنوير بعمق أكبرٍ في نفوس الجمهور عامةً –الأصوليين والشعبويين الغاضبين والجميع– إلَّا أنَّني لا أدَّعي إتقان فنون السحر الأسود مثل إقناع الجماهير أو الحشد الجماهيري أو الميمات سريعة الانتشار. وفيما يلي حججًا موجهة لمن يهتمون بالجدال، وقد تُحدِث هذه الحجج فارقًا لأنَّ الرجال والنساء العمليين والمجانين أصحاب مراكز السلطة يتأثرون بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بعالم الأفكار، فهم يذهبون إلى الجامعة، ويقرؤون المجلات الفكرية حتى وإن لم يفعلوا ذلك سوى في غُرف الانتظار في عيادات أطباء الأسنان، ويشاهدون المتحدثين في البرامج الإخبارية صباح الأحد. ويلخِّص لهم موظفوهم المشتركون في الصحف رفيعة المستوى والذين يشاهدون محاضرات تيد (TED) المعلومات التي تقدِّمها هذه المنصات، ويترددون على منتديات النقاش على الإنترنت التي تتأثر بالإيجاب أو السلب بقراءات المشاركين الأكثر ثقافة. تروقني فكرة أنه قد يأتي بعض الخير إلى العالم إذا كانت أفكار التنوير مثل العقل والعلم والنزعة الإنسانية من الأفكار التي تصل إلى هذه الروافد.

الفصل الحادي والعشرون:
العقل

إنَّ معارضة العقل غير منطقية بالبداهة، ولكنَّ هذا لم يمنع عددًا كبيرًا من اللا عقلانيين من تفضيل القلب على العقل، والجهاز الحوفي على القشرة المخيّة، والتجاهل على التفكير وماكوي على سبوك.* كانت هناك الحركة الرومانسية المضادة للتنوير التي عبَّر عنها يوهان هردر (Johann Herder) بقوله: «لم أُخلَق لأفكِّر وإنَّما لأكون، لأشعر، لأحيا!» وهناك تعظيم الإيمان (ليس من ناحية المتديّنين فحسب) الشائع، أي تصديق شيء دون سببٍ منطقي، وهناك العقيدة ما بعد الحداثية التي تقول إنَّ العقل ذريعةً لممارسة السُلطة، والواقع نتاج البناء الاجتماعي، وكل العبارات محصورة في شبكةٍ من المرجعية الذاتية وتتحول إلى تناقضات. وحتى زملائي من علماء النفس المعرفي يدَّعون كثيرًا تفنيد الاعتقاد التنويري القائل بأنَّ الإنسان كائن فاعل عقلاني، وبالتالي هدم مركزية العقل نفسه. وأثر ذلك في عدم جدوى محاولة جعل العالم مكاناً أكثر عقلانيةً.

ولكنّ لكلٍّ من هذه المواقف عيبًا قاتلا، وهو أنَّها تدحض نفسها، فهي تنفي إمكانية وجود سبب منطقي للإيمان بتلك المواقف، وبمجرد أن يفتح المدافعون عنها أفواههم لبدء الدفاع، يكونون قد خسروا قضيتهم، لأنَّهم بهذا الفعل يكونون ملتزمين ضمنيًّا بالإقناع، بتقديم أسباب منطقية لما سيقولونه، وهو ما يصرون على ضرورة أن يقبله المستمعون طبقًا لمعايير العقلانية التي يقبلها الطرفان، وإلَّا فإنَّهم يهدرون طاقتهم دون جدوى وربما يكون من الأفضل أن يحاولوا تغيير رأي جمهورهم بالرشوة أو العنف بدلًا من ذلك**!** أوضح الفيلسوف توماس نيجل (Thomas Nagel) في كتابه **الكلمة الأخيرة** *(The Last Word)*، أنَّ الذاتية والنسبية غير متسقتين مع العقل والواقع لأنَّك «لا يمكنك نقد شيء باللا شيء»:

> لا بد أنَّ الادِّعاء بأنَّ «كل شيء ذاتي» هراءٌ! إذ إنَّه بنفسه إمَّا يكون ذاتيًّا أو موضوعيًّا، ولكنَّه لا يمكن أن يكون موضوعيًّا بما أنَّه في هذه الحالة سيكون خاطئًا لو كان صحيحًا، ولا يمكن أن يكون ذاتيًّا لأنَّه لن يستبعد الادِّعاءات الموضوعية، بما فيها الادِّعاءات الخاطئة من ناحيةٍ موضوعية. ربما يكون هناك بعض الذاتيين الذين قد يلقِّبون أنفسهم بالبرجماتيين ويعرضون الذاتية بأنَّها تنطبق حتى على نفسها، ولكنَّها حينها لن تستدعي ردًّا، بما أنَّها لن تكون سوى تقرير لما يراه الشخص الذاتي مقبولًا، وإذا دعانا للانضمام إليه، فلن نحتاج إلى تقديم أي سبب منطقي للرفض بما أنَّه لم يقدم أي سبب منطقي للموافقة.

يسمِّي نيجل أسلوب التفكير هذا بالديكارتي، لأنَّه يشبه حجة ديكارت «*أنا أفكِّر، إذًا أنا موجود*»، كما أنَّ حقيقة تساؤل المرء عمَّا إذا كان موجودًا توضِّح أنَّه موجود، وأنَّ حقيقة أنَّ المرء يستخدم الأسباب المنطقية توضِّح أنَّ العقل موجود. يمكن أن يُطلق عليه أيضًا حجة ترانسندنتالية، حجة تستدعي الشروط المسبقة الضرورية لأداء ما تفعله، وهو تقديم حجةٍ ما (وهي تعود بطريقةٍ ما إلى مفارقة الكاذب القديمة، التي كان بطلها رجلٌ من كريت يقول: «كل الكريتيين كاذبون»). مهما كان الاسم الذي ستطلقه على الحجة، فسيكون من الخطأ تفسيرها على أنَّها تبرير لـ «اعتقاد» أو «إيمانٍ» بالعقل، وهو ما يطلق عليه نيجل: «مبالغة في التفكير»، فنحن لا *نؤمن*

*سبوك هو إحدى شخصيات سلسلة الخيال العلمي *Star Trek* والذي كان هجينًا بين البشر والفولكان، فكان يغلب عليه المنطق أكثر من العاطفة على عكس ماكوي البشري.

بالعقل، وإنَّما *نستخدم* العقل (كما أنَّنا لا نبرمج حواسيبنا الآلية على امتلاك وحدة معالجة مركزية، وإنَّما يكون البرنامج سلسلة من العمليات تتيحها وحدة المعالجة المركزية).

رغم أنَّ العقل سابق على كل شيء ولا حاجة لتبريره (بل ولا يمكن تبريره في الحقيقة) استنادًا إلى المبادئ الأولى، فبمجرد أن نبدأ في تطبيقه، يمكننا التأكد من أنَّ نوع التفكير المنطقي الذي نستخدمه سليمٌ بملاحظة اتساقه مع نفسه ومع الواقع. الحياة ليست حلمًا تظهر فيه التجارب غير المترابطة بتتابعٍ مربك. ويثبت تطبيق العقل على العالم صحته بنفسه عن طريق منحنا القدرة على إرضاخ العالم لإرادتنا، سواء أكانت هذه الإرادة هي الشفاء من العدوى أم إرسال رجلٍ إلى القمر.

رغم نشأة الحجة الديكارتية من الفلسفة التجريدية، إلَّا أنَّها ليست تدريبًا على التحذلق. يعرف الجميع، من أكثر التفكيكيين غموضًا حتى أكثر معادي الفكر العقلاني نشرًا لنظريات المؤامرة و«الحقائق البديلة»، قوة استجاباتٍ مثل «ما الذي قد يجعلني أصدِّقك؟» أو «أثبِت ما تقول» أو «كل ما تقوله هراء!» لن يجيب كثيرون قائلين: «هذا صحيح، ليس لديك سبب لتصديقي»، أو «أجل، أنا الآن أكذب عليك»، أو «أتفق معك، ما أقوله هراء فعلًا»، فمن طبيعة الجدال أن يحاول الناس إثبات كونهم على حق، وبمجرد أن يفعلوا، يكونون قد ألزموا أنفسهم بالمنطق، ويُجبَر مستمعوهم، الذين يحاولون إقناعهم على الاتفاق، على الاتساق والدقة.

أصبح الآن كثيرٌ من الناس على وعيٍ بالأبحاث في مجال علم النفس المعرفي على اللا عقلانية البشرية، والتي تشرحها كتبٌ حقَّقت أعلى المبيعات مثل كتاب **التفكير بسرعةٍ وببطءٍ** *(Thinking Fast and Slow)* لدانييل كانمان (Daniel Kahneman) وكتاب **غير عقلاني كالمتوقَّع** *(Predictably Irrational)* لدان آريلي (Dan Ariely). لقد ألمحت في الفصول السابقة إلى هذه العلل المعرفية، مثل الطريقة التي نقدِّر بها الاحتمالات بالحكايات الفردية المتاحة أمامنا، ونسقط الصور النمطية على الأفراد، ونبحث عن الأدلة المثبِتة ونتجاهل الأدلة النافية، ونهاب الأضرار والخسائر، ونفكِّر انطلاقًا من مبدأ الغائية وما يشبه سحر الفودو بدلًا من السببية التلقائية. ولكن رغم أهمية هذه الاكتشافات، إلَّا أنَّ من الخطأ أن ننظر إليها كأنَّها تدحض بعض مبادئ التنوير التي تشير إلى أنَّ الإنسان كائن فاعل عقلاني، ولا كأنَّها تجيز الاستنتاج الجبري أنَّه ربما يكون من الأفضل أن نتخلى عن الإقناع المدعوم بالأسباب المنطقية ونحارب الديماغوجية بالديماغوجية.

بدايةً، لم يدَّعِ *أي مفكِّرٍ من مفكِّري التنوير قط أنَّ البشر عقلانيون باستمرار*، وبالتأكيد لم يدِّعِ ذلك كانط المفرط في العقلانية الذي كتب أنَّه: «لا يمكن لشيء مستقيم حقًّا أن ينتُج عن ضلع الإنسانية الأعوج»، وكذلك لم يفعل سبينوزا ولا هيوم ولا سميث ولا *الموسوعيون* الذين كانوا علماء نفس اجتماعي ومعرفي سابقين لعصرهم. ما كانوا يقولونه هو أنَّ *علينا* أن نكون عقلانيين، عبر تعلُّم كبت المغالطات والعقائد الدوغمائية التي تغرينا بسهولةٍ شديدة، وأنَّ *بوسعنا* أن نكون عقلانيين، بشكلٍ جماعي أو فردي، عبر المؤسسات التنفيذية والالتزام بالمعايير التي تقيِّد ملكاتنا بما فيها حرية التعبير والتحليل المنطقي والاختبار التجريبي، وإذا كان رأيك مخالفًا، فلماذا قد نقبل *ادِّعاءك* بأنَّ البشر عاجزون عن العقلانية؟

تبرِّر نسخةٌ بدائية من علم النفس التطوري (نسخةٌ لا يؤيِّدها علماء النفس التطوريون أنفسهم) التشاؤمَ الساخر من المنطق غالبًا، وتقول هذه النسخة إنَّ البشر يفكِّرون باللوزة الدماغية ويستجيبون بصورةٍ غريزية لأقل صوت حفيفٍ بين الأعشاب والذي قد ينذر

بوجود نمرٍ متخفٍ جاثم. ولكنَّ علم النفس التطوري الحقيقي يعامل البشر على نحوٍ مختلف، ليس كأنَّهم حيوانات تسير على قدمين، وإنَّما بصفتهم النوع الذي *يفوق الحيوانات ذكاءً*، فنحن نوعٌ ذو قدرات إدراكية تعتمد على تفسيراتٍ للعالم. بما أنَّ وضع العالم كما هو بغض النظر عن اعتقادات الناس بشأنه، فهناك ضغط شديد على الانتخاب الذي يسمح بالقدرة على صياغة تفسيرات صحيحة.

ومن ثم فإنَّ للتفكير المنطقي جذورًا تطورية عميقة. درس العالم المستقل لويس ليبنبرج (Louis Liebenberg) شعب بوشمن الذي يعيش على الصيد وجمع الثمار في صحراء كالهاري، وهُم أصحاب إحدى أقدم ثقافات العالم، فهُم يمارسون أقدم أنواع المطاردة، الصيد بالمثابرة، إذ يطارد البشر أصحاب القدرة الفريدة على طرد الحرارة عبر جلدهم المغطى بالعرق إحدى الثدييات المغطاة بالفرو في الشمس في منتصف اليوم حتى تنهار مصابةً بضربة شمسٍ. بما أنَّ معظم الثدييات أسرع من البشر وتبتعد سريعًا للاختفاء بمجرد أن يراها أحدٌ، فإنّ الصيادين يتبعونها بالمثابرة عبر اقتفاء أثرها، ممَّا يعني استنتاج نوع الحيوان وجنسه وسنه ومستوى إجهاده، ومن ثم استنتاج اتجاه هروبه المحتمل من آثار حوافره وسيقان النباتات المثنية والحصى المزاحة التي يخلِّفها وراءه أثناء هروبه. لا يمارس البوشمن *الاستدلال* فحسب، مثل استنتاج أنَّ الغزلان الرشيقة تطأ الأرض بعمقٍ بحوافرها المدبَّبة لتثبِّت أقدامها في الأرض جيدًا على سبيل المثال، في حين أنَّ المرامري الثقيل يطأ الأرض بأقدامه المسطحة لتدعم وزنه، وإنَّما يمارسون أيضًا *التفكير* والجدال المنطقي، فيعبِّرون عن المنطق وراء استدلالاتهم بغرض إقناع رفقائهم أو اقتناعهم في المقابل. لاحظ ليبنبرج أنَّ متتبِّعي الأثر من شعب الكالهاري لا يقبلون الحجج التي تقدِّمها السلطة، فالمتتبّع الصغير قد يتحدى رأي غالبية الشيوخ، وإذا كان تفسيره للدليل مقنعًا فإنّ بإمكانه إقناعهم، ليزيد بذلك دقة الجماعة.

إذا كنت ما تزال تود إيجاد عذرٍ للخرافة والدوغما الحديثة بأن تقول إنَّها طبع بشري، انظر إلى ما قاله ليبنبرج عن التشكُّك العلمي بين البوشمن:

> أخبرني ثلاثة متتبعين –!نيت و/ويس وبورو//تساو– من منطقة لون تري في وسط كالهاري أنَّ طائر القبرة أحادي النغمة (*Mirafra passerina*) لا يغرِّد سوى بعد المطر لأنَّه «يكون سعيدًا بأنَّ السماء أمطرت». وأخبرني أحد المتتبِّعين واسمه بورو/تساو أنَّ الطائر عندما يغرِّد يجفِّف التربة ممَّا يجعل الجذور صالحة للأكل. بعد ذلك، أخبرني كلٌّ من !نيت و/ويس أنَّ بورو//تساو مخطئ، فليس الطائر من يجفِّف التربة، وإنَّما *الشمس* هي التي تفعل ذلك، ولا يفعل الطائر سوى أن يخبرهم بأنَّ التربة ستجف خلال الشهور التالية وأنَّ هذا هو الوقت الذي تكون فيه الجذور صالحة للأكل..
>
> أخبرني !نامكا، وهو متتبّع من بيري في وسط صحراء كالهاري في بوتسوانا، بأسطورة تقول إنَّ الشمس مثل ظبي إيلاند يعبر السماء ثم يقتله من يسكنون الغرب، والوهج الأحمر الذي يوجد في السماء عندما تغرب الشمس هو دم ظبي الإيلاند، وبعد أن يأكلوه، يلقون بعظم الكتف عبر السماء نحو الشرق حيث يسقط في بركةٍ وينمو ثانيةً مكوِّناً شمسًا جديدة، ويُقال إنَّ المرء يمكنه أحياناً سماع صوت طيران عظم الكتف في الهواء. وبعد أن أخبرني بالقصة بالتفصيل الممل، قال لي إنَّه يظن أنَّ «القدامى» كذبوا عليهم، لأنَّه لم يرَ عظم الكتف طائرًا في السماء ولم يسمع صوت طيرانه مطلقًا.

لا يتعارض أيٌّ من هذا بالطبع مع اكتشاف أنَّ الإنسان عرضة للأوهام والمغالطات، فقدرات أدمغتنا محدودة في معالجة المعلومات، وقد تطورت في عالمٍ دون علمٍ ولا دراسة، ودون الصور الأخرى لتقصِّي الحقائق، ولكنَّ الواقع يشكِّل ضغطًا جبَّارًا من أجل الانتقاء، لذا فإنَّ النوع الذي يعيش بأفكاره لا بد وأن يكون قد تطور ليحظى بالقدرة على تفضيل الأفكار الصحيحة. التحدي الماثل أمامنا اليوم هو تصميم بيئة معلوماتية تسود أو تتغلب فيها تلك القدرة على القدرات التي تؤدي بنا إلى الحماقة، والخطوة الأولى هي تحديد سبب انقياد

نوعٍ ذكي بهكذا سهولة إلى الحماقات.

شهد القرن الحادي والعشرون أيضًا، وهو عصر أصبح الوصول فيه إلى المعلومات غير مسبوق، دوامات من اللا عقلانية، بما فيها إنكار التطور وسلامة اللقاحات والتغير المناخي الناتج عن الأنشطة البشرية، وترويج نظريات المؤامرة عن الحادي عشر من سبتمبر، حتى النظريات عن حجم التصويت الشعبي لصالح دونالد ترامب. إنَّ أنصار العقلانية في حاجةٍ ماسَّةٍ إلى فهم هذه المفارقة، ولكنَّهم نادرًا ما ينظرون في البيانات التي قد تفسّرها بسبب بعض اللا عقلانية التي يتّسمون بها هُم أنفسهم.

إنّ التفسير المعتاد لجنون العامة هو الجهل، فنظام التعليم متوسط الجودة قد جعل العامة جاهلين بالعلم، وواقعين تحت رحمة انحيازاتهم المعرفية، ومن ثم يكونون غير مسلَّحين في مواجهة المشاهير الأغبياء والقنوات الإخبارية ومظاهر الفساد الأخرى في الثقافة الشعبية، والحل النموذجي هو التعليم الأفضل والمزيد من توعية العلماء للعامة عن طريق التليفزيون ووسائل التواصل الاجتماعي والمواقع الإلكترونية الرائجة. وبصفتي عالمًا أقوم بالتوعية، فلطالما أعجبتني هذه النظرية، ولكنَّني أدركتُ أنَّها خاطئة، أو على الأقل لا تمثِّل سوى جزءٍ صغيرٍ فقط من المشكلة.

فكِّر في هذه الأسئلة عن التطوُّر:

أثناء الثورة الصناعية في القرن التاسع عشر، غطى السخام الريف الإنجليزي، وأصبح لون العثة المفلفلة أغمق، كيف حدث ذلك؟

أ) كان على العث أن يصبح داكن اللون حتى يمتزج مع محيطه.

ب) كانت احتمالية تعرض العث داكن اللون للافتراس أقل وبالتالي كانت احتمالية تكاثره أكبر.

بعد عامٍ، أصبح متوسط مجموع نتائج الاختبارات في إحدى المدارس الثانوية الخاصة أعلى بثلاثين نقطة، ما التفسير لهذا التغيير المناظر لتفسير داروين لتكيف الأنواع؟

أ) لم تعُد المدرسة تقبل أبناء الخريجين الأثرياء إلا إذا استوفوا المعايير التي على الجميع استيفاءها.

ب) منذ الاختبارات الأخيرة، نمت معرفة كل الطلاب.

الإجابتان الصحيحتان هما (ب) و(أ). أعطى عالم النفس آندرو شتولمان (Andrew Shtulman) بعض طلاب المرحلة الثانوية والجامعية مجموعة من الأسئلة المماثلة التي تبحث عن فهمٍ أعمق لنظرية الانتخاب الطبيعي، وخاصةً الفكرة الرئيسية القائلة إنَّ التطور يتشكل من تغييرات في نسب المجموعات ذات السمات التكيفية وليس من تحول المجموعات كي تصبح سماتها أكثر تكيُّفًا. ولم يجِد أي صلة بين أداء الممتحنين في الاختبار والاعتقاد بأنَّ الانتخاب الطبيعي يفسِّر نشأة الإنسان، إذ يمكن أن يؤمن الناس بالتطوُّر دون أن يفهموه، والعكس بالعكس. أصيب عديد من علماء الأحياء في الثمانينيات بالإحراج عند قبولهم دعوات لمناظرة بعض المؤمنين بنظرية الخلق الذين اتضح أنَّهم ليسوا ريفيين سذج متعصِّبين، وإنَّما مترافعين واسعي الاطِّلاع يستشهدون بأحدث الأبحاث لبث الشك فيما إذا كان العلم كاملًا.

ليس التصريح بالإيمان بالتطور من هبات الثقافة العلمية وإنَّما إثبات للولاء لثقافة فرعية علمانية ليبرالية في مقابل الثقافة الدينية المحافظة. أزالت المؤسسة الوطنية للعلوم في عام 2010 البند التالي من اختبار الثقافة العلمية: «نشأ جنس البشر كما نعرفه اليوم عن

أنواع قديمة من الحيوانات». لم يكُن سبب ذلك التغيير أنَّ المؤسسة الوطنية للعلوم قد انصاعت لضغط القائلين بنظرية الخلق من أجل حذف التطور من القوانين العلمية كما صاح العلماء آنذاك، وإنَّما كان السبب أنَّ الصلة بين الأداء في ذلك البند والأداء في كل البنود الأخرى في الاختبار (مثل «الإلكترون أصغر من الذرة» و«المضادات الحيوية تقتل الفيروسات») كانت ضعيفة جدًّا لدرجة أنَّه كان يشغل مساحة في الاختبار يمكن أن تشغلها بنودٌ أكثر تشخيصية. بعبارة أخرى، كان البند اختبارًا للإذعان وليس للثقافة العلمية، وعندما سبقت البند عبارة «وفقًا لنظرية التطور» كي ينفصل الفهم العلمي عن الولاء الثقافي، أجاب الممتحنون المتدينون وغير المتدينين إجابات متماثلة.

أو فكِّر في هذه الأسئلة:

يعتقد علماء المناخ أنَّ الغطاء الجليدي فوق القطب الشمالي إذا ذاب نتيجةً للاحترار العالمي الناتج عن الأنشطة البشرية، فإنَّ مستويات سطح البحر العالمية سترتفع، صواب أم خطأ؟

ما الغاز الذي يعتقد أغلب العلماء أنَّه سبب ارتفاع درجات الحرارة في الغلاف الجوي؟ هل هو ثاني أكسيد الكربون أم الهيدروجين أم الهيليوم أم الرادون؟

يعتقد علماء المناخ أنَّ الاحترار العالمي الناتج عن الأنشطة البشرية سيزيد من خطر إصابة البشر بسرطان الجلد، صواب أم خطأ؟

إجابة السؤال الأول هي «خطأ»، لو كانت الإجابة «صواب» لكانت المياه الغازية تفيض من الكوب مع ذوبان مكعبات الثلج، فالغطاء الجليدي فوق *اليابسة* مثل جرينلاند والقارة القطبية الجنوبية هو الذي يؤدي عند ذوبانه إلى ارتفاع مستويات سطح البحر. لم يحقِّق المؤمنون بالتغير المناخي الناتج عن الأنشطة البشرية نتيجةً أعلى ممن ينكرونه في الاختبارات الخاصة بعلوم المناخ أو الثقافة العلمية عمومًا، فيظن كثيرٌ من المؤمنين بالتغير المناخي على سبيل المثال أنَّ الاحترار العالمي سببه ثقب في طبقة الأوزون وأنَّه من الممكن الحد منه بتنظيف مقالب النفايات السامة. ليس الجهل العلمي هو ما يتنبأ بإنكار التغير المناخي الناتج عن الأنشطة البشرية بل الأيديولوجية السياسية، إذ اتفق 10 في المئة من الجمهوريين المحافظين في عام 2015 مع مقولة أنَّ الأرض تزداد احترارًا بسبب الأنشطة البشرية (وأنكر 57 في المئة منهم أنَّ الأرض تزداد احترارًا من الأساس)، مقارنةً بـ 36 في المئة من الجمهوريين المعتدلين و53 في المئة من المستقلين حزبيًّا و63 في المئة من الديمقراطيين المعتدلين و78 في المئة من الديمقراطيين الليبراليين.

ذكر الباحث القانوني دان كاهان (Dan Kahan) في تحليل ثوري للمنطق في المجال العام أنَّ هناك اعتقادات معينة تصبح رموزًا للولاء الثقافي، فالناس يؤيدون هذه الاعتقادات أو ينكرونها لا للتعبير عمَّا *يعرفونه* وإنَّما عن *هويتهم*. ننتمي جميعًا إلى قبائل أو ثقافات فرعية معينة، وتتبنى كلٌّ منها عقيدةً خاصة بما يشكِّل حياة جيدة وكيف على المجتمع إدارة شؤونه. تتنوع هذه العقائد بين بُعدين، يجمع الأول بين ارتياح الجناح الأيمن للهيراركية الطبيعية وتفضيل الجناح الأيسر للمساواتية المصطنعة (التي تُقاس بالاتفاق مع عبارات مثل: «علينا الحد من عدم المساواة بين الأغنياء والفقراء، والبيض وأصحاب البشرة الملونة، والرجال والنساء»). والثاني هو التآلف التحرري مع النزعة الفردانية في مقابل تآلف النزعة المجتمعية أو السلطوية مع التضامن (التي تُقاس بالاتفاق مع عبارات مثل: «على الحكومة وضع حدود للخيارات التي يمكن للأفراد اتخاذها كي لا يعيقوا ما هو في صالح المجتمع»). يمكن أن يصبح أحد المعتقدات معيارًا أو كلمة سر أو علامةً أو شعارًا أو قيمة مقدَّسة أو يمين ولاء لإحدى هذه القبائل، ويعتمد هذا على كيفية صياغته وعلى من يؤيده ويصدِّق عليه. وكما أوضح كاهان ومعاونوه، فإنَّ:

> السبب الأساسي لاختلاف الناس حول علم التغير المناخي ليس إيصاله إليهم بصورٍ لا يستطيعون فهمها، وإنَّما لأنَّ الموقف من التغير المناخي يعبِّر عن القيم التي تقسِّمهم –مثل مصلحة المجتمع في مقابل الاعتماد الفردي على النفس، أو نكران الذات في مقابل البحث البطولي على المكافئة، أو التواضع مقابل العبقرية، أو التناغم مع الطبيعة في مقابل السيطرة عليها.

تتحدَّد القيم التي تقسِّم الناس أيضًا حسب مَن هُم الشياطين الملامون على مصائب المجتمع، الشركات الجشعة، أم النخبة المنعزلة عن الواقع، أم البيروقراطيون المتطفلون، أم الساسة الكاذبون، أم المتعصبون الجهلة أم الأقليات العرقية.

يشير كاهان إلى أنَّ ميل الناس إلى التعامل مع اعتقاداتهم كأنَّها يمين ولاء، وليست دفاعًا دون مصلحة، هو ميلٌ عقلاني بصورةٍ ما، فباستثناء عددٍ محدود من المحرضين ومحرِّكي الأحداث ومتخذي القرارات، لا تصنع آراء الشخص في التغير المناخي أو التطور فرقًا في العالم عمومًا، ولكنَّها تصنع فرقًا ضخمًا في الاحترام الذي يفرضه الشخص على الآخرين في دائرته الاجتماعية. قد يجعلك التعبير عن الرأي الخاطئ في مسألة مسيَّسة شاذًّا في أفضل الأحوال –شخصًا «لا يفهم الأمر جيدًا»– أو خائنًا في أسوأ الأحوال، يصبح الضغط على المرء من أجل الامتثال للآخرين أكبر عندما يعيش ويعمل مع أشخاص يشبهونه وعندما تسم الفئات الأكاديمية أو التجارية أو الدينية نفسها بقضايا يسارية أو يمينية، قد يمثِّل وقوف المثقَّفين والساسة الذين يشتهرون بقيادة فئاتهم على الجانب الخاطئ من قضيةٍ ما انتحارًا مهنيًّا لهم.

بالنظر إلى هذه العوامل الحاسمة، يكون تأييد اعتقادٍ لم يجتَز اختباري العلم وتقصي الحقائق غير عقلاني تمامًا، على الأقل ليس بمعيار آثاره المباشرة على المؤمن به، أمَّا آثاره على المجتمع والكوكب، فتلك مسألة أخرى، فالغلاف الجوي لا يهتم برأي الناس فيه، وإذا زادت حرارته بالفعل بمقدار 4 درجات مئوية، فسيعاني مليارات البشر، بغض النظر عن كمٍّ من حظوا منهم بالتقدير في جماعات أقرانهم لتبنِّيهم الرأي الرائج فيها عن التغير المناخي. ينتهي كاهان إلى أنَّنا جميعًا ممثِّلون في تراجيديا مشاع الاعتقادات، فالاعتقاد العقلاني لكل فردٍ (بناءً على التقدير الذي يحصل عليه) قد يكون من غير العقلاني أن يتصرَّف المجتمع بأكمله على أساسه (بناءً على الواقع).

تساعد الحوافز الفاسدة وراء «العقلانية التعبيرية» أو «الإدراك المدفوع بحماية الهوية» في تفسير مفارقة لا عقلانية القرن الحادي والعشرين. كان كثيرٌ من المراقبين السياسيين مرتابين من الآراء التي عبَّر عنها داعمو ترامب (وترامب نفسه في كثير من الأحيان) خلال الحملة الانتخابية في عام 2016، مثل أنَّ هيلاري كلينتون مصابة بمرض التصلب المتعدِّد وتخفي ذلك بدوبلير! أو أنَّه لا بد أن يكون لباراك أوباما دورٌ في أحداث الحادي عشر من سبتمبر لأنَّه لم يكُن في المكتب البيضاوي في ذلك الوقت (لم يكُن أوباما بالتأكيد الرئيس في عام 2001). وكما قالت آماندا ماركوت (Amanda Marcotte) فإنَّ «هؤلاء الأشخاص لديهم الأهلية الكافية لارتداء ملابسهم بأنفسهم، وقراءة عنوان التجمع الانتخابي والوصول إليه في الوقت المحدد، ومع ذلك فما زالوا يصدقون أشياء جنونية وزائفة لدرجة يستحيل تصديق أنَّ بإمكان أي شخص غير مجنون أن يصدقها! ما الذي يحدث؟» ما يحدث هو أنَّ هؤلاء الناس يشاركون *كذبات زرقاء*، تكون الكذبة البيضاء لصالح المستمع، أمَّا الكذبة الزرقاء فهي لصالح مجموعةٍ ذات مصالح مشتركة (وكانت هذه المجموعة في الأصل عند ظهور المصطلح هي ضباط الشرطة). في حين قد يكون بعض المؤمنين بنظريات المؤامرة مضلَّلين حقًّا، يعبِّر معظمهم عن هذه الاعتقادات بغرض الأداء وليس الحقيقة، فهُم يحاولون معارضة الليبراليين وإظهار التضامن مع إخوانهم. يضيف عالم الأنثروبولوجيا جون توبي (John Tooby) أنَّ الاعتقادات المحالة علامة على الولاء للتحالف أكثر فعاليةً من الاعتقادات العقلانية، يمكن أن يقول أي شخص أنَّ الصخور تسقط لأسفل ولا تصعد لأعلى، ولكن ليس لدى أي شخص أي سبب ليقول إنَّ الله ثلاثة أشخاص،

ولكنَّه أيضًا شخصٌ واحدٌ، أو أنَّ الحزب الديمقراطي يدير حلقة لممارسة الجنس مع الأطفال من مطعم بيتزا في واشنطن، عدا الشخص الملتزم بحقٍّ تجاه أخويةٍ ما.

تمثِّل نظريات المؤامرة التي تشاركها الحشود المتحمسة في تجمعٍ سياسي حالة بالغة من التعبير عن النفس الذي يطغي على الحقيقة، ولكنَّ مأساة مشاع الاعتقادات لها جذور أعمق من ذلك. من مفارقات الواقع الأخرى أنَّ الخبرة والقدرات العقلية والتفكير المنطقي الواعي لا تضمن في حد ذاتها اقتراب المفكِّرين من الحقيقة، بل على العكس، قد تكون أسلحة للتبرير شديد البراعة، فكما قال بنجامين فرانكلين (Benjamin Franklin):« من المريح للغاية أن تكون كائنًا عاقلًا، لأنَّ هذا يمكنِّك من العثور على –أو إيجاد– سببٍ لكل شيء تريد فعله».

يعرف علماء النفس منذ وقتٍ طويل أنَّ المخ البشري مصابٌ بالتفكير المنطقي المحفَّز (توجيه الحجة نحو استنتاجٍ مفضَّل بدلًا من تتبُّع مسارها وصولًا إلى الاستنتاج الذي يؤدِّي إليه)، والتقييم المتحيِّز (العثور على عيوبٍ في الأدلة التي تنفي الموقف المفضَّل ونتساهل مع الأدلة التي تدعمه) والانحياز إلى «جانبي من الأمر» (وهو يشرح نفسه). في تجربةٍ كلاسيكية في عام 1954 سأل كلٌّ من آل هاستورف (Al Hastorf) وهادلي كانتريل (Hadley Cantril) طلاب جامعتي دارتموث وبرينستون عن فيلمٍ حول مباراة كرة قدم أمريكية حديثة آنذاك بين الجامعتين كانت مليئة بتكسير العظام والجزاءات، ووجدا أنَّ كل مجموعة من الطلاب رأت مخالفات أكثر لدى الفريق الآخر.

نعرف اليوم أنَّ الحزبية السياسية تشبه التشجيع في عالم الرياضة، إذ ترتفع مستويات التستوستيرون أو تنخفض ليلة الانتخابات كما تفعل في يوم نهائي الدوري الوطني لكرة القدم الأمريكية، ولذا لا يجب أن يفاجئنا أنَّ أنصار الفرق السياسية –الذين يشملون معظمنا– يرون دائمًا مخالفات أكثر لدى الفريق الآخر. وفي دراسةٍ كلاسيكية أخرى، عرض علماء النفس تشارلز لورد (Charles Lord) ولي روس (Lee Ross) ومارك ليبر (Mark Lepper) على مؤيدي عقوبة الإعدام ومعارضيها دراستين، تشير إحداهما إلى أنَّ عقوبة الإعدام تردع جرائم القتل (انخفضت معدلات جرائم القتل في الولايات التي تبنَّتها في العام التالي)، وتشير الأخرى إلى فشلها في ردع الجرائم (جرائم القتل في الولايات التي تطبِّق عقوبة الإعدام أعلى منها في الولايات المجاورة التي لا تطبِّقها). كانت الدراستان زائفتين ولكنَّهما كانتا تبدوان واقعيتين، وقلب المختبِرون النتائج لنصف المشاركين في حال وجد أحدهم المقارنات بين وقتٍ وآخر أكثر إقناعًا من المقارنات بين مكانٍ وآخر، أو العكس. وجد المختبِرون أنَّ كل مجموعة تذبذبت للحظةٍ تأثُّرًا بالنتيجة التي عرفتها للتو، ولكن بمجرد أن حظي أفرادها بالفرصة لقراءة التفاصيل، تأمَّلوا في الدراسة غير المتناسبة مع مواقفهم المبدئية، قائلين أمورًا مثل: «لا معنى للأدلة دون بياناتٍ عن كيفية ارتفاع معدل الجريمة الإجمالي في تلك السنوات» أو «ربما تختلف ظروف الولايتين رغم أنَّهما تتشاركان في الحدود». نتيجة هذا الادِّعاء الانتقائي، أصبح المشاركون أكثر استقطابًا *بعد* أن تعرَّضوا جميعًا لنفس الأدلة من قبل، فأصبح المعارضون أكثر معارضةً والمؤيدون أكثر تأييدًا.

ويشبه الانخراط في السياسة التشجيع في عالم الرياضة من ناحيةٍ أخرى، فالناس يبحثون عن الأخبار ويتابعونها من أجل تعزيز تجربة المشجِّع لا لجعل آرائها أدق، ويفسِّر هذا إحدى نتائج كاهان الأخرى، فكلَّما زادت معلومات المرء عن التغيُّر المناخي، أصبح رأيه أكثر استقطابًا، وليس بالضرورة أن يكون *للشخص* رأي سابق كي تستقطبه الحقائق. عندما عرض كاهان على الناس عرضًا متوازنًا حياديًّا

لمخاطر تكنولوجيا النانو (التي لا تُعد قضية ساخنة حساسة مثارة على الشبكات الإعلامية التليفزيونية)، انقسموا سريعًا إلى فئات تتماشى مع آرائهم في الطاقة النووية والأغذية المعدلة جينيًّا.

إذا لم تفتح هذه الدراسات عينيك بما يكفي، فكِّر في التالية التي وصفتها إحدى المجلات بأنَّها «أكثر اكتشافٍ عن الدماغ كآبة على الإطلاق»، وفيها استقدم كاهان ألف أمريكي من جميع مناحي الحياة، وقيَّم سياساتهم ومعرفتهم بالحساب باستبيانات قياسية، وطلب منهم النظر في بعض البيانات من أجل تقييم فعالية علاج جديد لأحد الأمراض. قيل للمشاركين إنَّ عليهم الانتباه جيدًا إلى الأرقام، لأنَّ نجاح العلاج غير متوقع بنسبة مئة في المئة من الوقت، بل وربما يزيد الوضع سوءًا، في حين أنَّ سوء المرض قد يقل من تلقاء نفسه دون أي علاج. تم التلاعب بالأرقام كي تظهر إجابةٌ ما (وهي أنَّ العلاج نجح لأنَّ *عددًا* أكبر من الخاضعين للعلاج تحسَّنوا) ولكنَّ الإجابة الأخرى كانت صحيحة (وهي أنَّ العلاج لم ينجح، لأنَّ *نسبةً* أقل من الخاضعين للعلاج تحسَّنت)، وقد تلغي بعض الحسابات العقلية البسيطة –أي تقدير النسب بالنظر– الإجابة التلقائية. قيل للمشاركين في إحدى نسخ الدراسة أنَّ المرض طفح جلدي والعلاج كريم للبشرة، وفيما يلي الأرقام التي عُرضت عليهم:

	تحسَّن حاله	**ساء حاله**
مع العلاج	223	75
دون علاج	107	21

تشير البيانات ضمنًا إلى أنَّ ضرر كريم البشرة كان أكثر من نفعه، فمن استخدموه تحسَّنوا بنسبة حوالي ثلاثة إلى واحد، في حين تحسَّن من لم يستخدموه بنسبة حوالي خمسة إلى واحد (تم قلب هذه الصفوف في تجربة نصف المشاركين، لتشير ضمنًا إلى أنَّ كريم البشرة نجح بالفعل). أغرى العدد الأكبر من الخاضعين للعلاج الذين تحسَّنوا (223 في مقابل 107) المشاركين الأقل معرفةً بالعلم والحساب، فاختاروا الإجابة الخاطئة، أمَّا المشاركين الأكثر معرفةً بالعلم والحساب فركَّزوا على الفرق بين النسبتين (3:1 في مقابل 5:1) واختاروا الإجابة الصحيحة. لم يكُن المشاركون الأكثر معرفةً بالحساب بالطبع منحازين لكريم البشرة أو ضده، فلاحظوا الفرق مهما كان اتجاه البيانات، وعلى عكس أسوأ شكوك الديمقراطيين الليبراليين والجمهوريين المحافظين في ذكاء بعضهم بعض، لم تُبلِ إحدى الفئتين أفضل من الأخرى.

ولكنَّ كل هذا تغيَّر في نسخة التجربة التي تغيَّر فيها العلاج من كريم بشرة ممل إلى قانون مراقبة الأسلحة النارية (قانون يمنع المواطنين من حمل المسدسات المخفية في الأماكن العامة) وتغيَّرت النتيجة من معدلات الإصابة بالطفح الجلدي إلى معدلات الجرائم. إذ اختلف آنذاك المشاركون الأكثر معرفةً بالعلم والحساب بعضهم عن بعض حسب سياساتهم، عندما أشارت البيانات إلى أنَّ إجراء مراقبة الأسلحة يحد من الجرائم، لاحظ ذلك كل الليبراليين الذين يجيدون الحساب، وأغفله معظم المحافظين الذين يجيدون الحساب، فكان أداؤهم أفضل قليلًا من المحافظين الذين لا يجيدون الحساب ولكنَّهم أخطؤوا أكثر ممَّا أصابوا. عندما أظهرت البيانات أنَّ مراقبة الأسلحة *تزيد* الجرائم، لاحظ هذه المرة معظم المحافظين الذين يجيدون الحساب ذلك، ولكنَّ الليبراليين الذين يجيدون الحساب أغفلوه، فلم يكُن أداؤهم في الحقيقة أفضل من أداء الليبراليين الذين لا يجيدون الحساب. إذًا لا يمكننا لوم دماغ الزواحف الموجودة بداخلنا على لا عقلانية الإنسان، فالمشاركون *المثقَّفون* هُم من أعمتهم اعتقاداتهم السياسية أكثر من غيرهم. ولخَّصت مجلَّتان أخريان النتائج كما يلي: «العلم يثبت أنَّ السياسة تهدم قدرتك على الحساب» و«تجعلنا السياسة أغبياء».

ليس الباحثون أنفسهم منيعين ضد هذا الأمر، فغالبًا ما تعرقلهم انحيازاتهم الخاصة عندما يحاولون إظهار أنَّ خصومهم السياسيين منحازون، وهي مغالطة يمكن أن نطلق عليها انحياز الانحياز (كما ذُكر في إنجيل متى، الإصحاح 7 آية 3: «ولماذا تنظر القذى في عين أخيك، وأمَّا الخشبة التي في عينك فلا تفطن لها؟») توجَّب التراجع عن دراسة حديثة أجراها ثلاثة علماء اجتماع (ينتمون إلى مهنةٍ تطغي عليها الليبرالية)، مفادها إظهار أنَّ المحافظين أكثر عدائية وعدوانية، عندما اكتشف الباحثون أنَّهم أخطؤوا في قراءة العناوين، فكان *الليبراليون* في الحقيقة هُم من وُصِفوا بالأكثر عدائية وعدوانية. يتَّضح أنَّ كثيرًا من الدراسات التي تحاول إظهار أنَّ المحافظين أكثر تعصُّبًا وجمودًا من الليبراليين قد انتقت بنود الاختبار لتحقيق ذلك الغرض، فالمحافظون أكثر تعصُّبًا بالتأكيد ضد الأمريكيين من أصول أفريقية، ولكن اتَّضح أنَّ الليبراليين أكثر تعصُّبًا ضد المسيحيين المتديِّنين، والمحافظون أكثر تحيُّزًا تجاه السماح بصلاة المسيحيين في المدارس، ولكنَّ الليبراليين أكثر تحيُّزًا تجاه السماح بصلاة المسلمين في المدارس.

سيكون من الخطأ أيضًا أن نظنَّ أنَّ ذلك الانحياز بشأن الانحياز قاصرٌ على اليسار، وهذا هو انحياز الانحياز. نشر عالما الاقتصاد التحرُّريان دانييل كلاين (Daniel Klein) وزيلكا بوتوروفيتش (Zeljka Buturovic) دراسة تهدف إلى توضيح أنَّ الليبراليين اليساريين جاهلين اقتصاديًّا استنادًا إلى إجابات خاطئة على بنودٍ في مبادئ الاقتصاد مثل:

تجعل القيود على تطوير المساكن الإسكان أكثر تكلفةً. [صحيح]
يزيد الترخيص الإلزامي للخدمات المهنية من تكلفة تلك الخدمات. [صحيح]
الشركة التي تمتلك أكبر حصة في السوق محتكِرة. [خاطئ]
تؤدي الرقابة على الإيجار إلى عجزٍ في الإسكان. [صحيح]

(كان من ضمن البنود أيضًا: «بشكلٍ عام، مستوى المعيشة اليوم أعلى ممَّا كان عليه منذ 30 عامًا»، وهو صحيح، وتماشيًا مع ادِّعائي في الفصل الرابع بأنَّ التقدُّميين يكرهون التقدُّم، اختلف مع هذا البند 61 في المئة من التقدُّميين و52 في المئة من الليبراليين). شمِت المحافظون والتحرُّريون وألحقت *وول ستريت جورنال* الدراسة بعنوان «هل أنت أذكى من طالب الصف الخامس الابتدائي؟ قاصدةً ضمنًا أنَّ اليسار ليسوا كذلك، ولكنَّ النقاد أشاروا إلى أنَّ البنود المذكورة في الاختبار كانت تتحدَّى ضمنيًّا قضايا اليسار، لذا أجرى الاقتصاديان اختبارًا تاليًا بنوده من مبادئ الاقتصاد البدائية أيضًا على نفس المستوى وكانت مصممة هذه المرة لاستفزاز المحافظين:

عندما يُجري فردان صفقةً طوعية يخرج منها كلاهما *بالضرورة* أفضل حالًا من قبل. [خاطئ]
تجريم الإجهاض سيزيد عدد عمليات الإجهاض في السوق السوداء. [صحيح]
سيؤدي تقنين المخدِّرات إلى تمتُّع عصابات الشوارع بالمزيد من الثروة والقوة، وزيادة الجريمة المنظَّمة. [خاطئ]

أصبح مصطلح الأغبياء حينها من نصيب المحافظين. ويُحسَب لكلاين أنّه تراجع عن هجومه على اليسار في مقالٍ بعنوان: «كنتُ مخطئًا، وكذلك كنتَ أنت»، فكما قال،

> اختلف أكثر من 30 في المئة من زملائي التحرُّريين (وأكثر من 40 في المئة من المحافظين) على سبيل المثال مع عبارة: «الدولار يعني للفقير أكثر ممَّا يعني للغني» –حقًّا؟– في مقابل 4 في المئة من التقدُّميين..أوضح التبويب الكامل لـ 17

سؤالًا أنَّ أيًّا من المجموعات لا تفوق الأخرى غباءً، إذ يبدو أنَّهما متساوية في الغباء في مواجهة ما يتحدى مواقفهم.

وإذا كان اليسار واليمين متساويين في مقدار الغباء في الاختبارات والتجارب، فيمكن أن نتوقع منهما أن يكونا متساويين في الخطأ في فهم العالم. تقدِّم البيانات عن التاريخ الإنساني المذكورة في الفصول من الخامس حتى الثامن عشر فرصةً لمعرفة أيٍّ من الأيديولوجيات السياسية الكبرى بوسعها تفسير حقائق تقدُّم البشرية. أقول إنَّ الدوافع الأساسية كانت المبادئ غير السياسية، أي العقل والعلم والنزعة الإنسانية، التي أدت إلى سعي البشر إلى المعرفة وتطبيقهم إيَّاها ممَّا عزَّز ازدهار البشرية، هل لدى الأيديولوجيات اليمينية أو اليسارية شيئًا يمكنها إضافته؟ هل تجيز الرسوم البيانية الأكثر من سبعين رسمًا لأيِّهما أن يقول: «انحياز أو لا انحياز، نحن على حق وأنتم على خطأ»؟ يبدو أنَّه يمكن أن يكون لكل طرفٍ منهما الفضل في بعض الإنجازات مع افتقاد أجزاء كبيرة من القصة أيضًا.

أهمها تشكُّك المحافظين في مبدأ التقدُّم نفسه، منذ اقترح أول محافظٍ معاصر، إدموند بيرك (Edmund Burke) أنَّ البشر معيبون بقدرٍ أكبر من أن يتيح لهم ابتكار خطط لتحسين حالتهم ويكونون أفضل حالًا عند الالتزام بالتقاليد والمؤسسات التي منعتهم عن الانزلاق إلى الهاوية، أصبح تيار رئيسي من الفكر المحافظ متشكِّكًا في أفضل الخطط التي وضعها البشر. تعتقد الفئة المتطرِّفة الرجعية من المحافظين التي كشف عنها مؤخرًا أنصار ترامب واليمين المتطرِّف الأوروبي (الفصل الثاني والعشرين) أنَّ الحضارة الغربية مالت إلى الخروج عن السيطرة بعد قرنٍ ذهبي، وتخلَّت عن الوضوح الأخلاقي في العالم المسيحي التقليدي لصالح الترف العلماني المنحل الذي إذا تُرِك في مساره الحالي سينهار نتيجة الإرهاب والجريمة وغياب المعايير الاجتماعية.

هذا خطأ! فالحياة قبل التنوير كانت مظلمة نتيجة المجاعات والاوبئة والخرافات ووفيات الأمهات والأطفال الرُضَّع وطرق الإعدام السادية بالتعذيب والعبودية ومطاردة الساحرات والحملات الصليبية التي تؤدي إلى الإبادة العرقية والغزوات والحروب الدينية، غمة وانزاحت! توضِّح الأقواس الظاهرة في الأشكال من رقم 5–1 حتى رقم 18–4 أنَّه مع تطبيق الإبداع والتعاطف على الحالة البشرية، أصبحت الحياة أطول وأصح وأغنى وأكثر أماناً وأسعد وأكثر حريةً وأعمق وأكثر إثارةً للاهتمام. المشاكل باقية، ولكنَّ المشاكل حتمية.

أخطأ اليسار أيضًا في احتقار السوق ورومانسيته مع الماركسية، أطلقت الرأسمالية الصناعية الهروب الكبير من الفقر العالمي في القرن التاسع عشر وهي تنقذ بقية البشرية بالتقارب الكبير في القرن الحادي والعشرين، وفي نفس الفترة الزمنية، جلبت الشيوعية للعالم مجاعات كبرى وحملات تطهير ومعسكرات العمل القسري والإبادات الجماعية وتشرنوبل والحروب الثورية التي أدت إلى ملايين الوفيات والفقر على طراز كوريا الشمالية قبل أن تنهار في كل المناطق الأخرى جراء تناقضاتها الداخلية. ومع ذلك ففي استطلاع رأي حديث، عرَّف 18 في المئة من أساتذة العلوم الاجتماعية أنفسهم بأنَّهم ماركسيين، وما زالت كلمات مثل *رأسمالي* و*السوق الحرة* تمثِّل شوكةً في حلق معظم المثقَّفين. يعود هذا جزئيًّا إلى أنَّ عقلهم يغيِّر هذه المصطلحات تلقائيًّا إلى أسواق حرة *جامحة* أو *غير منظَّمة* أو *غير مقيَّدة*، أو *غير محدودة*، مكرِّسًا بذلك الثنائية الكاذبة، فالسوق الحرة بوسعها التعايش مع وجود قواعد تنظيمية خاصة بالسلامة والعمالة والبيئة، تمامًا كما بوسع الدولة الحرة أن تتعايش مع وجود القوانين الجنائية. ويمكن للسوق الحرة التعايش مع وجود مستويات مرتفعة من الإنفاق على الصحة والتعليم والرفاه (الفصل التاسع)، وتتمتَّع بالفعل بعض الدول ذات القدر الأكبر من الإنفاق الاجتماعي بأكبر درجات الحرية الاقتصادية.

لنكُن منصفين في حق اليسار، فقد تبنَّى اليمين التحرُّري أيضًا نفس الثنائية الكاذبة ويبدو أنَّه مستعدٌّ للقيام بمغالطة رجل القش مع حجج اليسار، حوَّل التحرُّريون من الجناح اليميني (في نسخة الحزب الجمهوري منه في القرن الحادي والعشرين) ملاحظة أنَّ التنظيم المفرط قد يكون ضارًّا (بالتمكين الزائد للبيروقراطيين، ممَّا يكلِّف المجتمع أكثر ممَّا يقدِّمه من منافع، أو بحماية أصحاب المناصب من المنافسة بدلًا من حماية المستهلكين من الضرر) إلى الدوغما القائلة إنَّ قلة التنظيم أفضل من كثرة التنظيم دائمًا. وحوَّلوا ملاحظة أنَّ الإنفاق الاجتماعي المفرط قد يكون ضارًّا (بخلق حوافز عكسية ضد العمل وبتقويض أعراف المجتمع المدني ومؤسساته) إلى الدوغما القائلة إنَّ أي قدر من الإنفاق الاجتماعي مفرطٌ، وترجموا ملاحظة أنَّ معدلات الضرائب قد تكون مرتفعة للغاية إلى خطابٍ هستيري عن «الحرية» يعني فيه رفع معدل الضريبة الحدي على الدخل الأكبر من 400,000 دولارٍ أمريكي من 35 إلى 39.6 في المئة تسليم البلد إلى قوات الصدمة العدوانية. يُبرَّر عادةً رفض السعي وراء بلوغ المستوى الأمثل من الحكم باللجوء إلى حُجة فريدريش هايك في كتاب **الطريق إلى العبودية**(*The Road to Serfdom*) والتي تقول إنَّ التنظيم والرفاهة يمهِّدان الطريق أمام منزلقٍ سينزلق فيه البلد إلى الفقر المدقع والطغيان.

تفاجئني حقائق التقدُّم البشري بكونها قاسية على التحرُّرية اليمينية بقدر قسوتها على المحافظة اليمينية والماركسية اليسارية، فالحكومات الشمولية التي حكمت في القرن العشرين لم تنشأ عن انزلاق دول الرفاه الديمقراطية في منزلقٍ ما، وإنَّما فرضها أصحاب الأيديولوجيات المتعصِّبون وعصابات من المجرمين. واتَّضح أنَّ الدول التي تجمع بين الأسواق الحرة وضرائب وإنفاق اجتماعي وتنظيمٍ أكثر من الولايات المتحدة (مثل كندا ونيوزيلندا وغرب أوروبا) ليست ديستوبيا كئيبة وإنَّما أماكن يطيب العيش فيها، وهي تهزم الولايات المتحدة في كل مقاييس ازدهار البشرية، بما فيها مقاييس الجريمة ومتوسط العمر المتوقع ووفيات الأطفال الرُضَّع والتعليم والسعادة. وكما رأينا، لا تعمل أي دولة متقدِّمة وفق المبادئ التحرُّرية اليمينية، ولم تُرسَم أي نسخة واقعية لدولةٍ كهذه مطلقًا.

ليس من الغريب أنَّ حقائق تقدم البشرية تفنِّد المفاهيم الكبرى، فالأيديولوجيات عمرها أكثر من عقدين ومبنية على رؤى قاصرة مثل إذا ما كان البشر معيبين بصورة مأسوية أم مرنين إلى أقصى حدٍّ ممكن، وإذا ما كان المجتمع بأكمله عضوًا واحدًا أم مجموعة من الأفراد. يتضمن أي مجتمع حقيقي مئات الملايين من الكائنات الاجتماعية التي يمتلك كلٌّ منها عقلًا يحتوي على تريليونات الوصلات العصبية ويسعى وراء سلامته، بينما يؤثر على سلامة الآخرين بكمٍّ هائل من المؤثرات الإيجابية والسلبية في شبكاتٍ معقدة الكثير منها غير مسبوق، لذا فلن تسير طبقًا لأي سردية بسيطة تتنبأ بما سيحدث في المستقبل في ظل قواعد معينة. الطريقة الأكثر عقلانية لممارسة السياسة هي معاملة المجتمعات على أنها تجارب مستمرة وتعلم أفضل الممارسات بعقلٍ متفتح أيًا كان مصدرها. تُشير الصورة الحالية المستمدة من واقع التجربة إلى أن الناس يزدهرون جدًا في الديمقراطيات الليبرالية مع مزيج من الأعراف المدنية والحقوق المكفولة واقتصاد السوق الحر والإنفاق الاجتماعي والتنظيم الحكيم. وكما أشار بات باولسن (Pat Paulsen): «إذا سيطر اليمين أو اليسار على البلد، فستدور في دوائر مفرغة».

ليس الأمر أنَّ جولديلوكس (Goldilocks)* دائمًا على حق وأنَّ الحقيقة تقع دائمًا بين طرفي النقيض، وإنَّما أنَّ المجتمعات الحالية غربلت أسوأ أخطاء الماضي، لذا فإذا كان هناك مجتمع يعمل على نحوٍ جيد جزئيًا –إذا لم تكُن الشوارع مليئة بالدماء، وإذا كانت السمنة تمثِّل مشكلةً أكبر من سوء التغذية، وإذا كان الذين يعبرون عن أصواتهم الانتخابية بأفعالهم يصرخون من أجل المشاركة في

---

*جولديلوكس هي الفتاة في قصة جولديلوكس والثلاث دببة التي كانت تختار دائمًا الخيار الأوسط بين نقيضين.

الانتخابات بدلًا من إسراعهم إلى الخروج منها– إذًا فربما تشكل مؤسسات هذا المجتمع نقطة انطلاق جيدة (وهو درس يمكن أن نتعلمه من فكر إدموند بيرك المتحفظ). يخبرنا المنطق أنَّ التشاور السياسي سيكون مثمرًا إذا تعامل مع الحكم على أنه تجربة علمية بدلًا من مسابقة رياضية خطرة.

رغم أنَّ دراسة البيانات من التاريخ وعلم الاجتماع هي طريقة لتقييم أفكارنا أفضل من الجدال من مخيلتنا، إلَّا أنَّ الاختبار الحقيقي للعقلانية التجريبية هو *التوقُّع*، يتقدم العلم باختبار توقعات الفرضيات وكلنا نُقدر المنطق في حياتنا اليومية عندما نمدح حُكماء الحانات أو نسخر منهم حسب الأحداث، وعندما نستخدم مصطلحات لتحميل الأشخاص مسؤولية أعمالهم مثل *من أفسد شيئًا فعليه إصلاحه*، *ولطّخ العار جبينه*، وعندما نستخدم مقولات مثل «دع أفعالك تتحدث عنك» و«إنَّما قيمة الأشياء بما لها من أثر».

وللأسف، نادرًا ما تُطبق المعايير المعرفية للحس السليم –الذي يلزمنا بأن نقدر الناس والأفكار التي تتوقَّع توقعات صحيحة وأن نستبعد التوقعات الخاطئة– على المثقفين والإعلاميين الذين يقولون آراءهم دون أي إحساس بالمسؤولية. وتستمر الصحافة في الترويج للعرّافين المخطئين دائمًا مثل بول إيرليش ولا يعرف القُرّاء ما إذا كان كتّابهم المفضلين أو معلميهم الروحانيين أو المتحدثين في برامجهم المفضلة على صوابٍ أم لا. قد تكون العواقب وخيمة، فقد نتج العديد من الهزائم السياسية والعسكرية عن الثقة الخاطئة في توقعات الخبراء (مثل التقارير الاستخباراتية التي قالت إنَّ صدام حسين يطوِّر أسلحة نووية في عام 2003) ويمكن أن يكون القليل من الدقة في التنبؤ بسير الأسواق المالية هو الفارق بين ربح ثروة أو خسارتها.

يجب أن نسترشد بسجل التوقعات في تقييمنا للنظم الفكرية بما فيها الأيديولوجيات السياسية، ومع أنَّ بعض الاختلافات الأيديولوجية ناتجة عن القيم المتضادة وقد يتعذر التوفيق بينها، إلَّا أنَّ العديد منها يعتمد على وسائل مختلفة لتحقيق غايات متفق عليها وينبغي أن تكون قابلة للحسم، فأي السياسات ستحقق ما يريده الجميع تقريبًا، مثل السلام الدائم أو النمو الاقتصادي؟ وأيُّها سيحد من الفقر أو الجريمة أو الأمية؟ يجب على أي مجتمع عقلاني أن يبحث عن الإجابات باستشارة العالم بدلًا من افتراض وجود المعرفة الكلية لدى بعض ذوي الرأي الذين يتشابهون في المعتقد.

وللأسف، تنطبق العقلانية التعبيرية التي وثقها كاهان في تجاربه أيضًا على الصحفيين والخبراء، ولا تتطابق العوامل التي تحدد سمعتهم مع دقة تنبؤاتهم في ظل عدم وجود من يتحقق من دقة هذه التنبؤات، بدلًا من ذلك، تتوقف سمعتهم على قدرتهم على التسلية أو دغدغة المشاعر أو الصدمة وقدرتهم على بث الثقة أو الخوف (على أمل أن تحقق النبوءة ذاتها أو تهزم نفسها) وعلى مهارتهم في حشد التحالف والاحتفاء بقيمه.

درس عالم النفس فيليب تيتلوك (Philip Tetlock) منذ الثمانينيات ما يميز المتنبئين المتسمين بالدقة عن العرَّافين «المخطئين عادةً ولكنَّهم واثقون في أنفسهم»، واستقدم مئات المحلِّلين وكُتَّاب المقالات والأكاديميين والأشخاص العاديين المهتمين من أجل التنافس في دورات تنبؤ تُعرض عليهم فيها أحداث محتملة ويُطلب منهم تقييم احتمالية وقوعها. يبرع الخبراء في صياغة توقُّعاتهم لحماية أنفسهم من التكذيب، واستخدام أفعال مساعدة (*قد*، *ربما*)، وصفات (*فرصة كبيرة*، *احتمالية قوية*)، وتعبيرات زمنية مراوغة (*قريبًا جدًّا*، *في المستقبل غير البعيد*). لذا حاصرهم تيتلوك بتحديد أحداث معينةٍ ذات نتائج ومواعيد نهائية واضحة (مثل: «هل ستضم روسيا أراضٍ

أوكرانية إضافيةٍ خلال الثلاثة أشهر التالية؟» أو «خلال العام التالي، هل ستنسحب أي دولة من منطقة اليورو» أو «كم دولة أخرى ستبلغ عن حالات إصابة بفيروس الإيبولا خلال الثمانية أشهر التالية؟») وجعلهم يدوِّنون احتمالات عددية.

تجنَّب تيتلوك أيضًا المغالطة الشائعة المتمثِّلة في الثناء على توقعٍ محتملٍ واحد أو السخرية منه بعد ظهور الحقيقة، مثلما تعرَّض نيت سيلفر (Nate Silver)، مجمّع بيانات استطلاعات الرأي في موقع *FiveThirtyEight* الإلكتروني للهجوم الشديد بعد أن توقَّع أن تكون احتمالية فوز دونالد ترامب بانتخابات عام 2016 29 في المئة فقط، وبما أنَّنا لا نستطيع إعادة الانتخابات آلاف المرات لإحصاء عدد المرات التي فاز بها ترامب، فيكون السؤال عمَّا إذا كان التوقع قد تأكد أم انتفى لا معنى له. ما *نستطيع* القيام به بالفعل، وما *فعله* تيتلوك، هو مقارنة *مجموعة* احتمالات كل متنبِّئ بالنتائج المرتبطة بها. استخدم تيتلوك معادلة لا تُعطي الفضل للمتنبِّئ في الدقة فحسب، بل في المجازفة بالتخمين بدقةٍ (بما أنَّه من الأسهل أن يكون كلامك دقيقًا عندما تظل في منطقة الأمان وتقول توقُّعاتك باحتمالية 50% إلى 50%). ترتبط المعادلة حسابيًّا بمقدار ما قد يفوزون به لو دعموا أقوالهم بأموالهم وراهنوا على توقُّعاتهم حسب الاحتماليات التي يتنبؤون بها هُم أنفسهم.

بعد عشرين عامًا وثمانية وعشرين ألف توقُّعٍ، كيف كان أداء الخبراء؟ كأداء الشمبانزي في المتوسط (وهو ما وصفه تيتلوك بأنَّه يشبه رمي السهام في الظلام بدلًا من قطف الموز). أجرى كلٌّ من تيتلوك وعالمة النفس باربرا ميلرز (Barbara Mellers) إعادةً بين عامي 2011 و2015 جنَّدا فيها عدة آلاف من المتسابقين على المشاركة في دورة تنبؤات عقدتها وكالة نشاط مشاريع أبحاث المخابرات المتقدمة (وهي المنظمة البحثية التابعة لاتحاد وكالات المخابرات الأمريكية). كان هناك كثيرٌ من التخمينات التي تشبه رمي السهام في الظلام، ولكنَّهما استطاعا خلال الدورتين ملاحظة «متنبِّئين خارقين» لم يكُن أداؤهم أفضل من الشمبانزي والمثقَّفين فحسب، بل أفضل من ضباط الاستخبارات المتخصِّصين ذوي القدرة على الوصول إلى معلوماتٍ سرية، وأفضل من أسواق التوقُّعات، ولا يبعد كثيرًا عن الحد الأقصى النظري. كيف نفسِّر هذا الاستبصار الواضح؟ (لمدة عامٍ في المستقبل، فالدقة تنخفض مع زيادة البُعد الزمني في المستقبل، وتصل إلى مستوى «الصدفة» عندما تصل إلى حوالي خمس سنوات). الإجابات على ذلك واضحة وعميقة.

كان المتنبِّؤون الذين حقَّقوا أسوأ أداء هُم أصحاب الأفكار العظيمة – يساريين كانوا أم يمينيين، متفائلين أم متشائمين – التي تبنُّوها بثقةٍ مُلهِمة (ولكنَّها مُخطِئة):

> ورغم تنوُّعهم الأيديولوجي الكبير، إلَّا أنَّ حقيقة أنَّ تفكيرهم كان أيديولوجيًّا للغاية كانت توحِّدهم، فحاولوا حشر المشاكل المعقدة داخل نماذج «العلة والمعلول» المفضَّلة وعاملوا ما لم يلائم هذه النماذج كأنَّه مشتِّت عرَضي. ولحساسيتهم تجاه الإجابات المطاطية، حاولوا دفع تحليلاتهم إلى أقصى حد (بل وحاولوا تجاوز هذا الحد)، باستخدام مصطلحات مثل «والأكثر من ذلك» و«إضافةً إلى ذلك» مع مراكمة أسباب كونهم محقين وكون الآخرين مخطئين. نتيجةً لذلك، كانوا واثقين في أنفسهم على نحوٍ غريب وأكثر ميلًا إلى اعتبار أمورٍ ما «مستحيلة» أو «أكيدة». ولالتزامهم تجاه استنتاجاتهم، كانوا ممانعين لتغيير رأيهم حتى عندما ثبت فشل توقُّعاتهم بوضوحٍ، فكانوا يقولون لنا: «انتظروا».

كانت السمات التي وضعت هؤلاء الخبراء في مكانةٍ مرئية للعامة هي التي جعلتهم الأسوأ في التوقُّعات، فكلَّما كانت شهرتهم أكبر، وكلَّما كان الحدث أقرب إلى مجال خبرتهم، أصبحت توقُّعاتهم أقل دقة. ولكنَّ نجاح الأيديولوجيات الشهيرة الذي لا يختلف عن

نجاح الشمبانزي لا يعني أنَّ «الخبراء» عديمو القيمة، أو أنَّ علينا التشكيك في النُخَب، وإنَّما يعني أنَّنا بحاجةٍ إلى مراجعة مفهومنا عن الخبير. كان المتنبِّؤون الخارقون في دراسة تيتلوك:

.. خبراءَ براجماتيين استخدموا أدوات تحليلية عديدة، وكان اختيار الأداة يتوقَّف على المشكلة المعينة التي يتناولونها، جمع هؤلاء الخبراء أكبر قدرٍ استطاعوا جمعه من أكبر عددٍ ممكن من المصادر. وعندما كانوا يفكِّرون، كانوا يتنقَّلون من فكرةٍ إلى أخرى، فشمل حديثهم إشارات انتقالية مثل «إنَّما»، و«لكن» و«رغم» و«على الجانب الآخر»، وكانوا يتحدَّثون عن الاحتماليات والممكنات لا عن اليقينيات. ورغم أنْ لا أحد يحب أن يقول: «كنتُ مخطئًا»، إلَّا أنَّ هؤلاء الخبراء اعترفوا بذلك وغيَّروا رأيهم بسرعةٍ أكبر.

التوقُّع الناجح هو انتقام المهووسين الأذكياء، والمتنبِّؤون الخارقون أذكياء ولكنَّهم ليسوا بالضرورة عباقرة، فهُم يقعون في الخُمس الأعلى من السكان من حيث الذكاء. وهُم ذوو معرفةً كبيرة بالعلم والحساب، لا يعني هذا براعتهم في الحساب وإنَّما يعني أنَّه يسهل عليهم التفكير بتقديراتٍ تخمينية، ويتمتَّعون بسماتٍ شخصية يطلق عليها علماء النفس «الانفتاح على التجربة» (الفضول الفكري وحُب التنوُّع)، و«الحاجة إلى الإدراك» (التمتُّع بالنشاط الفكري)، و«التعقيد المتكامل» (تقدير الشك ورؤية الجوانب المتعددة). إنَّهم مناهضون للاندفاع ويشكُّون في حدسهم الأوّلي، ليسوا يساريين ولا يمينيين، ليسوا بالضرورة متواضعين فيما يخص قدراتهم، ولكنَّهم متواضعون بالفعل فيما يخص اعتقادات معينة، فيعاملونها باعتبارها «فرضيات لا بد من اختبارها، لا كنوزًا لا بد من حمايتها». يسألون أنفسهم دومًا: «هل هناك ثغرات في هذا الاستدلال؟ هل ينبغي لي البحث عن شيءٍ آخر لسد هذه الثغرات؟ هل سأقتنع لو كنتُ شخصًا آخر؟» إنَّهم واعون بالبقع العمياء في الإدراك مثل انحيازات التوفر والتأكيد (الانحياز للذات) ويضبطون أنفسهم لتجنُّبها، ويمارسون ما يطلق عليها عالم النفس جوناثان بارون (Jonathan Baron) «الانفتاح العقلي النشط» مع آراءٍ كهذه:

يجب أن يأخذ الناس في اعتبارهم الأدلة التي تخالف معتقداتهم. [أوافق]
الانتباه لمن يخالفونك الرأي أنفع من الانتباه إلى من يوافقونك. [أوافق]
تغيير رأيك علامةٌ على الضعف. [لا أوافق]
الحدس هو أفضل دليل في اتخاذ القرارات. [لا أوافق]
من المهم الثبات على معتقداتك حتى عندما تكون كل الأدلة ضدها. [لا أوافق]

والأهم من طبعهم العام أسلوبهم في الاستدلال والتفكير المنطقي، المتنبِّؤون الخارقون «بايزيون»، أي يستخدمون ضمنًا قاعدة القسيس بايز –الذي سُمِّيت القاعدة تيمنًا به– لكيفية تحديث درجة إيمان المرء بقضية ما في ضوء الأدلة الجديدة، ينطلقون من المعدل الأساسي للحدث المعني، ما المعدل المتوقع لحدوثه بوجهٍ عام وعلى الأمد الطويل، ثم يدفعون هذا التقدير صعودًا أو هبوطًا بناءً على مدى إشارة الدليل الجديد إلى حدوث الفعل أو عدم حدوثه، ويبحثون عن هذا الدليل الجديد بنهمٍ ويتجنَّبون المبالغة في الاستجابة له («هذا يغيِّر كل شيء!») وكذلك الاستجابة الضعيفة له («لا يعني هذا أي شيء!»)

فعلى سبيل المثال، فإنّ الساسة والمثقفين سيتخيلون السيناريو الخاص بالتنبؤ القائل بأنّ «المتطرفين الإسلاميين في غرب أوروبا سيشنون هجومًا بين يومي 21 يناير و31 مارس من عام 2015» والذي قيل بعد مجزرة شارلي إيبدو (Charlie Hebdo)، وسيوافقون بالتأكيد على احتماليه حدوثه متأثرين بقانون التوفر، وحتى لا يظهروا بمظهر السذّج أو المتواطئين.

ولكن ليست هذه هي الطريقة التي يُفكر بها المتنبؤون الخارقون، فعندما طلب تيتلوك من أحدهم أن يفكر بصوتٍ عالٍ، قال إنه بدأ بحساب المعدل الأساسي عن طريق زيارة موسوعة *ويكيبيديا*، ثم بحث عن قائمة الهجمات الإرهابية الإسلامية على أوروبا خلال السنوات الخمس الماضية، ثم قسم النتيجة على 5 والتي تنبأت بوقوع 1.2 هجمة كل سنة، ولكنّه فكَّر في أنَّ العالم قد تغيَّر منذ الربيع العربي في عام 2011 لذا استبعد بيانات عام 2010 مما زاد من المعدل الأساسي ليصل إلى 1.5، وقد ازداد تجنيد داعش منذ هجمات شارلي إيبدو، ممَّا يستدعى رفع المعدل، ولكنَّ الإجراءات الأمنية زادت كذلك ممَّا يستدعي خفضه أيضًا، وبالتوفيق بين العاملين، بدا من المنطقي رفع المعدل بمقدار الخُمس تقريبًا ممَّا يعطينا توقعًا بـ 1.8 هجمة كل سنة، وكان متبقيًّا من الفترة المتوقع حدوث هجوم فيها 69 يومًا، لذا قسم 69 على 365 وضرب نتيجة القسمة في 1.8، وهذا يعني أنَّ احتمالية حدوث هجوم إسلامي في غرب أوروبا حتى نهاية مارس كانت 1 إلى 3 تقريبًا. فاختلاف طريقة التنبؤ يؤدي إلى تنبؤات مختلفة تمامًا.

هناك صفتان أُخريان تُميزان المتنبئين الخارقين عن المثقفين والشمبانزي، فالمتنبؤون الخارقون يؤمنون بحكمة الجماهير ويطرحون فرضياتهم كي ينتقدها الآخرون، أو يُعدلونها ويجمعون بين تقديراتهم وتقديرات الآخرين، ويؤمنون بقوة بالصدفة والحوادث العارضة في تاريخ البشرية في مقابل الحتمية والقدر. سأل كلٌ من تيتلوك (Tetlock) وميلرز (Mellers) مجموعات مختلفة من الناس عمَّا إذا كانوا يوافقون على مثل هذه الأقوال:

تتم الأمور وفقًا لخطة إلهية.

لكل شيء سبب.

لا توجد صدف أو حوادث.

لا يوجد شيء حتمي.

حتى الأحداث الكبرى مثل الحرب العالمية الثانية أو الحادي عشر من سبتمبر كان يمكن أن تحدث بصورة مختلفة تمامًا.

تلعب العشوائية دورًا في حياتنا الشخصية في حالاتٍ كثيرة.

وحسبا نقاطًا على الإيمان بالحتمية والقدر بجمع نقاط «أوافق» على الأقوال المشابهة للثلاثة الأولى وأيضًا على «لا أوافق» على الأقوال المشابهة للثلاثة الأخيرة، يقع الأمريكي العادي في مكانةٍ وسطى، ويحرز الطالب الجامعي الملتحق بجامعة راقية نقاطًا أقل بقليل، ويحرز المتنبئ المتوسط نقاطًا أقل أيضًا، ويحرز المتنبئ الخارق نقاطًا أقل من الجميع بينما يرفض المتنبئون الخارقون الذين يتسمون بالدقة الحتميةَ بشدة ويتقبلون فكرة الصدفة.

في رأيي، ينبغي أن يُحدث تقدير تيتلوك الشديد للخبرة بالمعيار الأقصى، أي التنبؤ، ثورةً في فهمنا للتاريخ والسياسة ونظرية المعرفة والحياة الفكرية. ما الذي يعنيه اعتبار تعديل الاحتمالات المتقن دليلًا أكثر موثوقية للعالم من الحُكماء الأذكياء والسرديات المستوحاة من منظومات فكرية؟ إضافةً إلى قرعنا على رؤوسنا برسالة تذكيرية مفادها أن نتواضع أكثر وأن نكون منفتحين، فإنَّه يعطينا لمحة عمَّا يفعله التاريخ في سنواتٍ وعقود. تحدث الظواهر بسبب عدد لا يُحصى من القوى الصغيرة التي تزيد من احتمالية حدوثها وحجمها أو تخفيضهما

وليس بسبب قوانين عامة وجدليات كبرى، لكنَّ العديد من المثقفين وجميع المفكرين السياسيين لا يُفكرون بهذه الطريقة للأسف، وربما من الأفضل أن نعتاد ذلك. عندما طُلب من تيتلوك في محاضرة عامة أن يتنبأ بطبيعة التنبؤ، أجاب قائلًا: «عندما ينظر جمهور 2515 إلى جمهور 2015، سيكون احتقارهم لطريقتنا في الحكم على النقاشات السياسية مساويًا لاحتقارنا لمحاكمات الساحرات في سالم عام 1692».

لم يُحدد تيتلوك مدى احتمالية حدوث توقعه الاعتباطي ووضع موعدًا نهائيًا طويلًا وآمنًا لحدوثه، فبالتأكيد سيكون من الحماقة التنبؤ بتحسن جودة النقاش السياسي خلال 5 سنوات وهي فترة من الممكن تحقُّق التنبؤ فيها. يبدو أنَّ العدو الأساسي للمنطق يتصاعد بشكلٍ ملحوظ في المجال العام في الوقت الحالي، وهذا العدو هو التسييس وليس الجهل أو عدم معرفة قواعد الحساب أو الانحيازات المعرفية.

أصبح الأمريكيون مستقطبين بصورةٍ متزايدة في المجال السياسي نفسه، إذ إنَّ آراء معظم الناس سطحية جدًا وتفتقر إلى الحقائق ولا ترقى لتشكل جزءًا من أيدولوجية متماسكة، ولكنَّ هناك تطورًا مريبًا، فقد تضاعفت نسبة ذوي الآراء الليبرالية الثابتة وذوي الآراء المحافظة الثابتة من الأمريكيين بين عامي 1994 و2014 لتصل إلى 21% بعد أن كانت 10%. تزامن هذا الاستقطاب مع زيادة التفرقة الاجتماعية بفعل السياسة: فخلال هذين العقدين أصبح الأصدقاء المقربون لأصحاب الأيديولوجيات أكثر تشابهًا معهم في نفس وجهات النظر السياسية.

أصبحت الأحزاب أكثر تحيزًا أيضًا، فطبقًا لدراسة حديثة أجراها مركز بيو للأبحاث، كان حوالي ثُلث الديمقراطيين أكثر محافظةً من الجمهوري المتوسط في عام 1994 والعكس بالعكس، وكانت هذه النسبة تُقارب *1 من 20* في عام 2014. على الرغم من ميل الأمريكيين من مختلف الانتماءات السياسية إلى اليسار خلال سنة 2004، إلَّا أنَّهم اختلفوا منذ ذلك الحين على كل القضايا الكبرى الأخرى عدا حقوق المثليين، بما في ذلك اللوائح الحكومية والإنفاق الاجتماعي والهجرة وحماية البيئة وحجم القوة العسكرية. والأكثر مدعاةً للقلق أن كل جانب أصبح يكره الجانب الآخر أكثر، ففي عام 2014، كانت لدى 38% من الديمقراطيين آراءٌ «سلبية جدًا» عن الحزب الجمهوري (بعد أن كانت النسبة 16% في عام 1994) وأكثر من رُبْع الديموقراطيين رؤوا أنَّ الحزب الجمهوري «يشكل تهديدًا على رفاهة البلد»، وكان الجمهوريون أكثر عدائيةً حتى من الديمقراطيين، ولدى 43% منهم صورة سلبية عن الحزب الديمقراطي وأكثر من الثُلث يرونه يشكِّل تهديدًا. وأصبح الأيديولوجيون أكثر مقاومةً للتنازل وقبول الحلول الوسط.

لحسن الحظ، فإنَّ أغلبية الأمريكيين أكثر اعتدالًا بشأن هذه الآراء، ولم تتغير نسبة الفئة التي تسمي نفسها معتدلةً خلال 40 سنة، ولكن من سوء الحظ، فإنَّ المتطرفين هم من يميلون أكثر إلى التصويت لمثليهم والتبرع لهم والضغط عليهم. وبتعبيرٍ ألطف، ليس هناك ما يدل على تحسن أيَّ من هذا منذ إجراء الدراسة في عام 2014.

يجب أن تكون الجامعات ساحة لتنحية التحيزات السياسية والاستكشاف المنفتح لمعرفة الطريقة التي يعمل بها العالم، ولكن في الوقت الذي نحن فيه بأشد الحاجة إلى هذه الساحة النزيهة، أصبحت الأوساط الأكاديمية مُسيّسة أكثر من ذي قبل أيضًا –ليست أكثر استقطابًا وإنَّما أكثر يساريةً. لطالما كانت الجامعات أكثر ليبرالية من العامة، ولكنَّ هذا الميل أصبح يزداد باطّراد، في عام 1990 كان

42% من هيئة التدريس منتمين لأقصى اليسار أو ليبراليين (أكثر من العامة بـ 11 نقطة مئوية)، وكان 40% منهم معتدلين، و18% منهم ينتمون لأقصى اليمين أو كانوا محافظين، فكانت نسبة اليسار إلى اليمين 2.3 إلى 1. أمَّا في عام 2014 فكان 60% منتمين لأقصى اليسار أو ليبراليين (أكثر بـ 30 نقطة مئوية من العامة)، و28% معتدلين، و12% محافظين، فكانت نسبة اليسار إلى اليمين 5 إلى 1. تختلف النسب تبعًا للمجال، فأقسام الأعمال وعلوم الكمبيوتر والهندسة وعلوم الصحة مُقَسّمة بالتساوي، بينما العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية يسارية بالتأكيد، فنسبة المحافظين منهم تُعد على أصابع اليد الواحدة ويفوقهم الماركسيون عددًا بنسبة 2 إلى 1. ويقع أساتذة العلوم البيولوجية والفيزيائية في المنتصف مع عدد قليل من الراديكاليين، ودون ماركسيين على الإطلاق تقريبًا، لكنَّ الليبراليين يفوقون المحافظين عددًا بصورة كبيرة.

إنَّ ميل الأوساط الأكاديمية (وكذلك مجال الصحافة والحياة الفكرية) لليبرالية طبيعي نوعًا ما، إذ لا بد للبحث الفكري من تحدي الوضع الراهن الذي لا يكون مثاليًا أبدًا. والاقتراحات المصوغة شفهيًا –وهي رصيد المثقفين في السوق– ملائمة للسياسات المدروسة التي يفضلها الليبراليون أكثر من النماذج المنتشرة للتنظيم الاجتماعي مثل الأسواق والأعراف التقليدية التي يفضلها المحافظون عادةً. والميل لليبرالية باعتدال مرغوبٌ أيضًا، فقد كانت الليبرالية الفكرية في صدارة العديد من أشكال التقدم التي تقبّلها الجميع تقريبًا مثل الديمقراطية والتأمينات الاجتماعية والتسامح الديني وإلغاء كلٍّ من العبودية والتعذيب القانوني وتضاؤل الحروب وتوسع نطاق حقوق الإنسان والحقوق المدنية، وجميعنا الآن ليبراليون (تقريبًا) من عدة نواحٍ.

لكنَّنا رأينا أنَّه عندما ترتبط عقيدة ما بمجموعةٍ ذات مصالح مشتركة، فقد تتعطل مهارات التفكير النقدي لدى أعضاء هذه المجموعة، وهناك أشياء تدفعنا إلى الاعتقاد بأنَّ هذا ما حدث مع كثيرٍ من الأوساط الأكاديمية. وقد أوضحت في كتابي **الصفحة البيضاء** *(The Blank Slate)* (صدرت منه نسخة محدَّثة في عام 2016) كيف شوَّهت السياسة اليسارية دراسة الطبيعة البشرية بما فيها الجنس والعنف والجنسانية وتنشئة الأطفال والشخصية والذكاء. وثَّق تيتلوك مع علماء النفس خوسيه دوارتي (José Duarte) وجاريت كراوفورد (Jarret Crawford) وتشارلوتا ستيرن (Charlotta Stern) وجوناثان هايت (Jonathan Haidt) ولي جوسيم (Lee Jussim) في بيانٍ حديث ميل علم النفس الاجتماعي إلى اليسار وأظهر كيف أثَّر ذلك سلبًا على جودة البحث، ونادوا بتعددية سياسية أكبر في علم النفس مستشهدين بقول جون ستيوارت ميل (John Stuart Mill): «من لا يعرف سوى جانبه من القضية، لا يعرف عنها سوى القليل»، وقصدوا التعددية الحقيقية التي تصنع فارقًا (بخلاف التعددية الصورية التي يسعى إليها الجميع غالبًا، وتحديدًا تعددية الأشخاص الذين يبدون مختلفين ولكنَّهم يفكِّرون بالطريقة نفسها).

ويُحسَب لعلم النفس الأكاديمي أنَّه تقبَّل نقد دوارتي وزملائه باحترام، ولكنَّ هذا الاحترام بعيد كل البعد عن العالمية، فعندما استشهد نيكولاس كريستوف (Nicholas Kristof)، الكاتب الصحفي بصحيفة نيويورك تايمز *(New York Times)*، بمقال دوارتي وزملائه بصورة إيجابية وقدّم وجهة نظر مماثلة، أكَّدت ردود الفعل الغاضبة أسوأ الاتهامات الموجهة لهم (كان التعليق الذي حظي بأكبر عددٍ من الإعجابات: «لا نريد تعددية مع الحمقى»). وقد أصبح فصيل من الثقافة الأكاديمية المكون من أعضاء هيئة التدريس من أقصى اليسار والطلاب النشطاء والبيروقراطيين التعدديين المستقلين (والذين يطلق عليهم على سبيل الازدراء المدافعين عن العدالة الاجتماعية) غير ليبراليين بشدة، فأي شخص لا يتفق مع افتراض أنَّ العنصرية هي سبب كل المشاكل يُلقَّب بالعنصري، وتُلغى دعوات كثيرٍ من المتحدثين غير اليساريين بعد الاحتجاجات أو تطغي عليهم أصوات الحشود الساخرة، وقد تُفضح إحدى الطالبات علنًا عن طريق عميد كليتها بسبب بريد إلكتروني خاص تعتبر فيه كلا الجانبين مثيرًا للجدل، ويتعرَّض أساتذة الجامعة لضغوطٍ من أجل

تجنب إلقاء محاضرات عن المواضيع المثيرة للاستياء ويخضعون لتحقيقات ستالينية بسبب آراء لا تتَسم باللباقة السياسية. يتحول هذا القمع غالبًا دون قصد إلى مسرحية هزلية، فتضم الإرشادات التوجيهية لعمداء الكليات للكشف عن «الاعتداءات الصغيرة» عباراتٍ مثل: «أمريكا هي أرض الفُرص» و«أعتقد أن الوظيفة يجب أن تكون من نصيب الأكفأ»، وسخر الطلاب من أستاذٍ جامعيٍ وسبّوه لأنَّه دعاهم لمناقشة خطاب من زوجته تقترح فيه ألَّا يشغل الطلاب بالهم كثيرًا بشأن أزياء الهالوين التنكرية، وأُلغيت دورة يوجا لأنَّها تعتبر «ضد الثقافة الأمريكية». والممثلون الكوميديون غير راضين عن هذا الوضع، فيخشى كلٌّ من جيري ساينفيلد (Jerry Seinfeld) وكريس روك (Chris Rock) وبيل مار (Bill Maher) وغيرهم تقديم عروض في الجامعات لأنَّ بعض الطلاب حتمًا سيغضبون من نكتةٍ ما.

يجب علينا أن نردع المتطرفين من اليمين عن تحيزهم ورفضهم لأي فكرة ناشئة من الجامعة لا توافق أهواءهم، يتبنى الوسط الأكاديمي العديد من الآراء المختلفة، ويلتزم بمعايير مصممة لتعزيز البحث النزيه عن الحقيقة مثل مراجعة الأقران والتثبيت الوظيفي والنقاش المفتوح وضرورة الاقتباس والدليل التجريبي، وإن كانت هذه المعايير لا تُطبَّق على النحو الأمثل. تعزز الجامعات والكليات النقد المخالف للسائد المذكور هنا وفي الأوساط الأخرى بينما تقدم كنوزًا معرفية عظيمة للعالم، والساحات البديلة مثل المدونات وتويتر وأخبار وكالات الأنباء والكونجرس ليست نماذج مثالية للموضوعية والدقة!

إنّ النموذج السياسي أخطر من النموذج الأكاديمي في إفساد المنطق في الوقت الحالي، ولهذا سبب واضح، يُقال كثيرًا (ولا أحد يعلم من أول من قال ذلك) إنَّ المناظرات الأكاديمية تكون خبيثة لأنَّ المخاطر الناتجة عنها ضئيلة جدًا، أمَّا المناظرات السياسية فالمخاطر الناتجة عنها لا حدّ لها وقد تصل إلى مستقبل الكوكب، فالساسة يملكون زمام السلطة بخلاف أساتذة الجامعة. في أمريكا القرن الحادي والعشرين، أصبحت سيطرة الحزب الجمهوري على الكونجرس مهلكة لأنَّه أصبح مرادفًا للحق المطلق، وكان الحزب مقتنعًا بصواب قضيته وبفساد قضية منافسيه لدرجة تقويضه مؤسسات الديمقراطية حتى ينفّذ ما يريد، وتضمنت صور الفساد تزوير الانتخابات وفرض قيود على التصويت كي يقل عدد الناخبين الديمقراطيين وتشجيع تبرعات أصحاب المصالح الأثرياء وعرقلة ترشيحات المحكمة الدستورية العليا حتى يسيطر حزبهم على الرئاسة، وتعطيل عمل الحكومة عند عدم تنفيذ معظم مطالب الحزب، والدعم غير المشروط لدونالد ترامب وتجاهلهم حتى لاعتراضاتهم أنفسهم على نزعاته الواضحة المضادة للديمقراطية. يجب أن تظل آليات التشاور الديمقراطي مصونة مهما كانت الخلافات السياسية أو الفلسفية بين الأحزاب، فقد أدَّى تقويض هذه الآليات على يد اليمين بصورةٍ خاصة إلى اقتناع كثيرٍ من الناس، بما فيهم جزء متزايد من الشباب الأمريكي، بأنَّ الحكومة الديمقراطية فاشلة بطبيعتها وأصبحوا متشائمين من الديمقراطية نفسها.

يغذِّي كلٌّ من الاستقطاب الفكري والسياسي بعضهما بعضًا، فيصعب أن تكون مفكرًا محافظًا عندما تتحول السياسة الأمريكية المحافظة إلى حزب «لا أعرف شيئًا» بدايةً من رونالد ريجان إلى دان كويل إلى جورج بوش الابن إلى سارة بالين إلى دونالد ترامب. وعلى الجانب الآخر، تفتح سيطرة كلٌ من ساسة الهوية وشرطة اللباقة السياسية والمدافعين عن العدالة الاجتماعية على اليسار الباب للثرثارين الذين يتفاخرون «بقول الحقيقة كما هي». وتحدي عصرنا هو كيفية تبني ثقافة فكرية وسياسية يقودها العقل المنطقي وليس القبلية أو رد الفعل.

يبدأ جعل العقل طريقتنا في الحوار بإيضاح مركزية المنطق نفسه، فكما ذكرت، هناك الكثير من المعلِّقين الذين يختلط عليهم المنطق. ولا يعني اكتشاف التحيزات المعرفية والعاطفية أنَّ «البشر غير منطقيين» وأنَّه لا فائدة من محاولة جعل مناقشاتنا أكثر منطقيةً، ولو كان البشر غير قادرين على العقلانية، لم نكُن لنستطيع اكتشاف ما يجعلهم غير عقلانيين لأنَّنا لم نكُن لنملك معيارًا للعقلانية نُقيِّم على أساسه حُكم الإنسان ولا طريقةً نجري بها هذا التقييم. قد يكون البشر مُعرضين للتحيز والخطأ، ولكنّ من الواضح أنَّ هذا لا ينطبق على الجميع ولا طوال الوقت وإلَّا فلن يحق لأحد أن يقول إنَّ البشر مُعرضون للتحيز والخطأ. الدماغ البشري *قادر* بالفعل على أن يكون منطقيًّا في الظروف المناسبة، وتكمن المشكلة في تحديد هذه الظروف وتثبيتها.

لهذا السبب نفسه، ينبغي للكتاب الصحفيين التوقف عن ذكر الكليشيه الجديد بأنَّنا في «حقبة ما بعد الحقيقة» إلَّا إذا كانوا يستطيعون مواصلة الحديث بهذه النغمة الساخرة اللاذعة، فهذا المصطلح مُدمر لأنَّه يفترِضُ أنَّ علينا أن نقبل بوجود الدعاية والأكاذيب وأن نواجهها بأكاذيب أكبر. لسنا في حقبة ما بعد الحقيقة، فكلٌّ من الكذب وإخفاء الحقيقة ونظريات المؤامرة والأوهام الغريبة الشائعة وجنون الجماهير قديم قِدم الجنس البشري، ولكنَّ الاقتناع بأنَّ بعض الأفكار صحيحة وبعضها غير صحيح قديمٌ كذلك، فنفس العقد الذي شهد صعود ترامب المفضوح بالكذب وأنصاره المجانين شهد أيضًا صعود مبدأ تقصي الحقائق. لاحظت آنجي هولان (Angie Holan) محررة موقع *PolitiFact* وهو موقع لتقصي الحقائق تم إطلاقه في عام 2007 أنَّ:

> «العديد» من إعلاميي التلفزيون في الوقت الحالي بدؤوا يستخدمون تقصي الحقائق والآن يستجوبون المرشحين بخصوص قضايا تحري الدقة أثناء مقابلاتهم على الهواء، ولا يعتقد معظم الناخبين أنَّ من التحيز سؤال الناس عمَّا إذا كانت تصريحاتهم التي تبدو مبنيةً على الحقائق دقيقةً أم لا، وأظهر بحث نشره معهد الصحافة الأمريكية في مطلع هذا العام أنَّ 8 أو أكثر من بين كل 10 أمريكيين ينظرون إلى فكرة تقصي الحقائق في السياسة نظرةً إيجابية.
>
> في الواقع، يخبرني الصحافيون باستمرار أنَّ مؤسساتهم الإعلامية بدأت بتسليط الضوء على تقصي الحقائق في تقاريرهم لأنَّ العديد من الناس ينقرون على المقالات التي تتقصي الحقائق بعد مناظرةٍ أو حدثٍ إخباري هام، يريد العديد من القُراء الآن أن يكون تقصي الحقائق جزءًا من الأخبار الصحافية التقليدية أيضًا، ويشكون علنًا لأمناء المظالم وممثِّلي القراء عندما يشاهدون خبرًا صحافيًا يكرر ادِّعاءات زائفة غير موثوقة.

كان هذا المبدأ سيفيدنا كثيرًا في العقود السابقة عندما كانت الشائعات تتسبب في مذابح وأعمال شغب وإعدامات دون محاكمة وحروب (بما في ذلك الحرب الأمريكية الإسبانية في عام 1898 وتفاقم حرب فيتنام عام 1964 وغزو العراق عام 2003 وكثير غيرها). ولم يُطبق هذا المبدأ بقوة كافية لمنع ترامب من الفوز عام 2016، ولكن منذ ذلك أصبحت أكاذيبه وأكاذيب المتحدثين نيابةً عنه موضع سخرية لاذعة في الإعلام والثقافة الشعبية ممَّا يعني أنَّ الموارد اللازمة لانتصار الحقيقة موجودة، حتى وإن كانت تخسر أحيانًا.

على المدى البعيد، يمكن أن تحد مؤسسات العقل من مأساة مشاع الاعتقادات وتتيح للحقيقة الانتصار. وعلى الرغم من كلّ لا عقلانيتنا، إلَّا أنَّ عددا قليلا فقط من الأشخاص المؤثِّرين اليوم يؤمنون بالمذؤوبين والحصان وحيد القرن والساحرات والخيمياء والتنجيم والحجامة والغيوم الناقلة للمرض والتضحية بالحيوانات وحق الملوك الإلهي في الحكم والنبوءات الخارقة للطبيعة في أقواس قزح والخسوف. ويمكن تجاوز اللا عقلانية الأخلاقية أيضًا، فمؤخرًا أثناء طفولتي، أدان قاضي فيرجينيا ليون بازيل (Leon Bazile) زواج ريتشارد وميلدريد لافنج (Richard and Mildred Loving) لأنَّهما من عرقين مختلفين بحجة لا يستطيع تقديمها أجهل المحافظين

اليوم، وهي:

> ارتكب الطرفان أخطر جريمة، وكانت الجريمة مخالفة للقانون العام المعلن القائم على السياسة العامة التي يعتمد عليها النظام الاجتماعي والأخلاق العامة والمصالح العليا لكلا العرقين..فقد خلق الله تعالى الأعراق بيضاء وسوداء وصفراء وملاوية وحمراء وأسكنهم قاراتٍ منفصلة، وفصله بين الأعراق يوضِّح أنَّه لم يُرِد للأعراق أن تختلط.

ومن المفترض ألَّا يقتنع معظم الليبراليين بالدفاع الذي قدمته سوزان سونتاج (Susan Sontag) عن كوبا في ظل حكم كاسترو في عام 1969 قائلةً:

> يألف الكوبيون التلقائية والمرح والحسِّية والهلع، ولا يتَّسمون بالجفاف والاستقامة الخطية التي تتَّسم بهما ثقافة الطباعة. باختصار، فإنَّ مشكلتهم عكس مشكلتنا تقريبًا، وعلينا أن نتعاطف مع جهودهم من أجل حلها.
>
> ولشكِّنا في تزمت الثورات اليسارية التقليدي، فيجب على الراديكاليين الأمريكيين أن يفكروا بموضوعية عندما تصبح دولة معروفة أساسًا بالموسيقى الراقصة والعاهرات والسيجار والإجهاض وحياة المنتجعات والأفلام الإباحية متشددة قليلًا بشأن الأخلاقيات الجنسية وتقرر في لحظة سيئة منذ عامين أن تجمع الآلاف من مثليي الجنس في هافانا وترسلهم إلى مزرعة لإعادة تأهيل أنفسهم.

كانت هذه «المزارع» في الحقيقة معسكرات عمل قسري، ولم تنشأ هذه المعسكرات لتصحيح البهجة التلقائية أو الهلع وإنَّما تعبيرًا عن رهاب المثلية المتجذر بعمقٍ في الثقافة اللاتينية. عندما نستاء من جنون الخطاب العام في الوقت الحالي، فعلينا أن نُذكِّر أنفسنا بأنَّ الناس لم يكونوا عقلانيين كثيرًا في الماضي كذلك.

ما الذي يمكن فعله لتحسين معايير التفكير المنطقي؟ لا يكون استخدام الحقائق والمنطق في الإقناع، وهي الاستراتيجية الأكثر مباشرةً، دون جدوى دائمًا، نعم، قد يتمسك الناس أحياناً باعتقادات رغم مخالفتها جميع الحقائق مثل لوسي في المسلسل الكرتوني **البينتس: سنوبي وتشارلي براون** *(Peanuts)* التي أصرَّت أنَّ الثلج يخرج من الأرض ويصعد إلى السماء حتى وهي تُدفن ببطءٍ تحت الثلوج المتساقطة. ولكنَّ هناك حدودًا لهذا التمسك، فعندما يُواجه الناس لأول مرةٍ بمعلومات تتعارض مع مواقفهم الراسخة، يلتزمون بها أكثر كما هو متوقع طبقًا لنظريات الإدراك المدفوع بحماية الهوية والاستدلال المدفوع وتقليل التنافر المعرفي. عندما يشعر المؤمنون باعتقادٍ ما بأنَّ هويتهم مهددة يزدادون تمسكًا باعتقادهم ويجمعون ذخيرةً أكبر لصد هذا التهديد، لكن بما أنَّ هناك جزءًا آخر من عقل الإنسان يبقيه على اتصالٍ بالواقع، فمع تراكم الأدلة المضادة، يزداد التنافر حتى يصبح غير محتمل ويسقط الرأي، وهي ظاهرة تسمى نقطة التحول الوجدانية. تعتمد نقطة التحول الوجدانية على التوازن بين مدى الضرر الذي سيلحق بسمعة صاحب الرأي بتخليه عن رأيه وما إذا كان الدليل المضاد صارخًا وعامًّا فيكون معلومًا للجميع مثل إمبراطور عارٍ أو فيلٍ في الغرفة. وكما رأينا في الفصل العاشر، فقد بدأ هذا يحدث

مع الرأي العام في التغير المناخي، ويمكن أن يتحول رأي السكان كلهم عندما تُغير نواة ناقدة من المؤثرين رأيها فيتبعها البقية، أو عندما يحل محل الجيل القديم جيل آخر لا يتمسك بنفس المبادئ الدوغمائية (التقدم جنازة تلو الأخرى).

يؤثر المنطق في الغالب على المجتمع ككل ببطء، وسيكون من الأفضل تسريع هذه العملية، والأماكن البديهية لتطبيقها هي الإعلام والتعليم. وقد ضغطَ المؤيدون للمنطق على المدارس والجامعات لإقرار مناهج دراسية تتضمن «التفكير النقدي» لعقودٍ عديدة، حيث يُنصح الطُلاب بالنظر لجانبي أي قضية، ودعم آرائهم بالأدلة واكتشاف المغالطات المنطقية مثل الحجة الدائرية والتحريف والاحتكام إلى السلطة والشخصنة واختزال قضية معقدة في أبيض أو أسود. وهناك برامج متعلقة بالموضوع تسمى «الحد من التحيز» تحاول تحصين الطلاب ضد المغالطات المعرفية مثل قانون التوفر وانحياز التأكيد.

عندما طُرحت هذه البرامج لأول مرة، كانت نتائجها محبطة ممَّا أدى إلى التشاؤم بخصوص ما إذا كنَّا سنستطيع جعل رجل الشارع يفكِّر بطريقة منطقية يومًا ما، لكن مالم يكن علماء النفس المعرفيون من سلالة متفوقة من الجنس البشري، فإنّ هناك شيئًا ما في *تعليمهم* بصَّرهم بالمغالطات المعرفية وكيفية تجنُّبها، ولا يوجد سبب للقول بأن هذه المعرفة التنويرية لا يمكن تطبيقها على نطاقٍ أوسع. يكمُن جمال المنطق في أنَّه يمكن دائمًا تطبيقه من أجل فهم قصور المنطق، أظهرت نظرةٌ أخرى على التفكير النقدي وبرامج الحد من التحيز ما الذي يؤدي إلى نجاحها أو فشلها.

يعرف الباحثون في مجال التعليم هذه الأسباب، سيكون *أي* منهج عديم الجدوى إذا كان عبارة عن مُحاضر يُثرثر أمام سبورة أو كتاب دراسي يحدد فيه الطلاب بعض الجمل بقلم ملوَّن. لا يستوعب الناس المفاهيم سوى عندما يضطرون إلى إمعان التفكير فيها أو مناقشتها مع الآخرين أو استخدامها لحل المشكلات. إحدى العراقيل الأخرى التي تقف أمام التدريس الفعال هو أنَّ الطلاب لا ينقلون بتلقائية ما تعلَّموه من مثالٍ محدد إلى غيره في نفس الفئة، فالطلاب الملتحقون بمادة الرياضيات الذين يتعلَّمون كيفية ترتيب فرقة استعراضية في صفوفٍ زوجية باستخدام مبدأ المضاعف المشترك الأصغر يتعثَّرون عندما يُطلب منهم ترتيب صفوف من الخضروات في حديقة. وكذلك لن يستطيع الطلاب في دورة التفكير النقدي الذين يتعلمون كيفية تناول الثورة الأمريكية من وجهتي النظر الأمريكية والإنجليزية التمادي لدرجة التفكير في رؤية الألمان للحرب العالمية الأولى.

ابتكر علماء النفس مؤخرًا برامج الحد من التحيز لتعزيز مناهج التفكير النقدي والمنطقي، استنادًا إلى الدروس المستفادة من التجارب السابقة، وهي تشجع الطلاب على اكتشاف المغالطات ومعرفتها بالاسم وتصحيحها في سياقات كثيرة متنوعة. تستخدم بعض المناهج ألعاب الكمبيوتر في تدريب الطلاب، وتعقِّب على أدائهم بما يتيح لهم رؤية العواقب الفادحة لأخطائهم، وتُحوّل بعضها الأخرى العبارات الرياضية المبهمة إلى سيناريوهات محددة يمكن تصورها.

جمع تيتلوك ممارسات المتنبِّئين الخارقين في صورة مجموعة إرشادات توجيهية للحكم السليم (على سبيل المثال: ابدأ بالمعدل الأساسي، وابحث عن الأدلة ولا تبالغ في رد فعلك عليها ولا تعطِها أقل من حجمها، ولا تحاول تبرير أخطائك بل استخدمها مصدرًا للمعايرة). ثبتت فعالية هذه البرامج وبرامج أخرى، فالحكمة الجديدة التي تتولَّد لدى الطلاب تدوم بعد دورة التدريب وتنتقل إلى موضوعاتٍ أخرى.

رغم هذه النجاحات ورغم ضرورة امتلاك القدرة على التفكير النقدي غير المتحيز كشرطٍ مسبق للتفكير في أي شيءٍ آخر، إلَّا أنَّ القليل من المؤسسات التعليمية اتخذت تحسين العقلانية هدفًا لها (بما في ذلك جامعتي، وقد تحولت اقتراحاتي أثناء مراجعة المناهج بأنَّه

ينبغي لجميع الطلاب معرفة الانحيازات المعرفية إلى هباءٍ منثور). وقد ناشد العديد من علماء النفس تخصصهم بـ «تقديم الحد من التحيز للعالم» كأحد أعظم إسهاماته في رفاهة البشرية.

قد يكون التدريب الفعال على التفكير النقدي والحد من التحيز المعرفي غير كافٍ لعلاج الإدراك المدفوع بحماية الهوية والذي يجعل الناس يتمسكون بأي رأي يُعزز من رفعة قبيلتهم ومكانتهم فيها. وهذا هو المرض الأكثر انتشارًا في المجال السياسي، ويخطئ العلماء حتى الآن في تشخصيه مشيرين إلى اللا عقلانية والجهل العلمي بدلًا من العقلانية قصيرة النظر النابعة من مأساة مشاع الاعتقادات. وكما لاحظ أحد الكتاب، فالعلماء يعاملون العامة كما يعامل الإنجليز الأجانب، فهم يتحدثون ببطء وبصوتٍ أعلى.

إذًا، لا يعتمد جعل العالم أكثر منطقيةً على مجرد تدريب الناس كي يفكِّروا بمنطقية أكثر ثم تركهم، وإنما يعتمد أيضًا على قواعد الحوار في أماكن العمل والدوائر الاجتماعية وساحات الجدال واتخاذ القرار. أظهرت التجارب أنَّ القواعد الصحيحة يمكن أن تتلافى مأساة مشاع الاعتقادات وتجبر الناس على فصل تفكيرهم عن هويتهم. هناك طريقة اكتشفها الحاخامات منذ وقتٍ طويل، وهي إجبار طُلاب اليشيفا على وضع أنفسهم مكان الآخر أثناء المناقشات التلمودية والدفاع عن وجهة نظر الخصم، وهناك طريقة أخرى وهي أن يحاول الناس التوصل إلى إجماع في مجموعات نقاش صغيرة، ويجبرهم ذلك على الدفاع عن آرائهم أمام أفراد مجموعتهم، وتنتصر الحقيقة عادةً. واكتشف العلماء أنفسهم استراتيجية جديدة تُسمى تعاون الخصوم، وفيها يتعاون ألد الأعداء بعضهم مع بعض من أجل الوصول إلى حل إشكالية ما، ويجرون اختبارات تجريبية يتفقون مسبقًا على أنَّها ستحل الإشكالية.

يمكن لمجرد طلب تفسير الرأي أن يُفقد الناس ثقتهم الزائدة في آرائهم، فأكثرنا مخدوعون في درجة فهمنا للعالم وهو تحيز معروف يسمى وهمَ عُمق الفهم (Illusion of Explanatory Depth)، فعلى الرغم من أننا نعتقد أنَّنا نفهم كيفية عمل السحَّاب أو القفل الأسطواني أو المرحاض، إلَّا أنَّه بمجرد أن يُطلب منَّا شرح طريقة عمل هذه الأشياء نشعر بالذهول ونضطر إلى الاعتراف بأنَّنا لا نعلم. ينطبق هذا أيضًا على القضايا السياسية الساخنة، فعندما يُطلب من المؤيدين بشدة لبرنامج «أوباما كير» أو اتفاقية التجارة الحرة لأمريكا الشمالية (NAFTA) شرح هذه السياسات فعلًا، يدركون أنَّهم لا يعلمون عنها شيئًا ويصبحون أكثر تقبلًا للحجج المضادة. والأكثر أهمية على الإطلاق هو أنَّ الناس يكونون أقل تحيزًا عندما يشاركون بأنفسهم ويتحملون تبعات آرائهم. توصَّل عالما الأنثروبولوجيا هوجو ميرسييه (Hugo Mercier) ودان سبيربر (Dan Sperber) من مراجعتهما للمؤلفات عن العقلانية إلى أنَّه «بخلاف التقديرات المتشائمة الشائعة لقدرة البشر على التفكير المنطقي، فهُم قادرون إلى حدٍ بعيد على التفكير المنطقي بطريقة غير متحيزة، على الأقل عندما يُقيِّمون الحجج وليس عندما يعرضونها، وكذلك عندما يسعون وراء الحقيقة بدلًا من محاولة الفوز في مناظرة».

يمكن للقواعد في ساحات معينة أن تزيد من غبائنا أو ذكائنا بصورةٍ جماعية، وبهذه الطريقة يمكن حل الإشكالية التي تظهر باستمرار في هذا الفصل وهي: لماذا يبدو أنَّ مستوى العقلانية ينحدر في العالم في عصر به معرفة غير مسبوقة وأدوات لمشاركتها. الإجابة هي أنَّ مستوى العقلانية *لم ينحدر* في معظم الساحات، فليس الأمر كما لو أنَّ المرضى في المستشفيات يموتون بصورة متزايدة بسبب الدجل، أو أنَّ الطائرات تتساقط من السماء، أو أنَّ الأكل يتعفَّن على أرصفة الموانئ لأنَّ الناس لا يعرفون كيفية نقله إلى المتاجر.

فقد أظهرت الفصول التي تحدثت عن التقدم أنَّ مستوى براعتنا الجمعية في حل مشاكل المجتمع بنجاحٍ قد ارتفع.

فنحن بالفعل نشهد انتصار جيوش المنطق على الحدس والمبادئ الدوغمائية في مجالٍ تلو الآخر، فتكمِّل الصُحف طُرقها التقليدية

و«نقدها» بخبراء الإحصاء وفرق تقصّي الحقائق، ويرى عالَمَ الاستخبارات الغامض المستقبلَ إلى مدى أبعد باستخدام طريقة تفكير المتنبئين الخارقين البايزية، ويُعيد الطب القائم على الأدلة تشكيل نظام الرعاية الصحي (وهو ما كان من المفترض أن يحدث منذ زمنٍ طويل)، وتحوَّل العلاج النفسي من الأريكة والمفكرة إلى علاجٍ مبني على تعقيبات المريض على العملية العلاجية ورؤيته لها، وانخفضت معدلات الجريمة في نيويورك ومدن أخرى باستخدام نظام تحليل بيانات فوري يسمى كومبستات (Compstat). وتسترشد المساعدات الموجهّة للعالم النامي الآن بالراندوميستاس (Randomistas)، وهم علماء اقتصاد يجمعون بيانات من تجارب عشوائية للتمييز بين البرامج الشائعة التي لا تفيد والبرامج التي تُحسِّن حياة الناس فعلًا.

كما تنتقد حركة «الإيثار الفعال» التطوع والتبرعات الخيرية، وهي حركة تُفرق بين الأعمال الخيرية الإيثارية التي تُحسِّن حياة المستحقين والأعمال التي تُحسن صورة المتبرعين. وشهدت الألعاب الرياضية ظهور طريقة «كرة المال» (Moneyball) في الإدارة، وفيها تُقيّم الاستراتيجيات واللاعبون بالتحليل الإحصائي بدلًا من الحدس والمعرفة التقليدية ممَّا يتيح للفرق الأذكى الانتصار على الفرق الأغنى وإعطاء المشجعين مواضيع جديدة للحوار خلال فترة تنقلات اللاعبين بعد انتهاء الموسم. وظهر في عالم المدونات المجتمع العقلاني الذي يُشجع الناس على أن تكون آراؤهم «أقل خطأً» بتطبيق طريقة التفكير البايزية والتعويض عن الانحيازات المعرفية. وأدّى تطبيق الرؤى السلوكية (التي يُطلق عليها أحياناً "Nudge") والسياسات القائمة على الأدلة في أعمال الحكومة اليومية إلى مزايا اجتماعية أكثر من أموال ضرائب أقل.

إنّ العالم يزداد عقلانية في مجالٍ تلو الآخر.

هناك بالطبع استثناء واضح وهو سياسات الانتخاب والقضايا المتعلقة بها، فقواعد اللعبة هنا مصممة ببراعة لإظهار لا عقلانية الناس، فالناخبون يملكون قرارًا بشأن قضايا لا تؤثر عليهم بشكل شخصي ولا يتوجب عليهم تثقيف أنفسهم فيها أو تبرير موقفهم منها. وتُوضع بنود جدول الأعمال العملية مثل التجارة والطاقة في سلة واحدة مع القضايا الأخلاقية الساخنة مثل القتل الرحيم وتدريس نظرية التطور، وتُلحق كل مجموعةِ بنودٍ بتحالف له دوائر انتخابية جغرافية وعرقية وإثنية. ويغطي الإعلام الانتخابات كأنَّها سباق خيل ويحلل القضايا عن طريق تحريض المؤيدين للأيديولوجيات بعضهم ضد بعض في مباريات ساخنة.

وتُبعد كل هذه السمات الناس عن التحليل المنطقي وتوجههم ناحية التعبير الحماسي عن أنفسهم. بعضها نتيجة التصور الخاطئ بأنَّ مزايا الديمقراطية تأتي من الانتخابات، في حين أنَّ مزايا الديمقراطية تعتمد أكثر على وجود حكومة مقيدة السُلطة ومسؤولة أمام مواطنيها ويقظة لنتائج سياساتها (الفصل الرابع عشر). نتيجةً لذلك، ربما تكون الإصلاحات المصممة لجعل الحكم أكثر «ديمقراطية» مثل الاستفتاءات والانتخابات المباشرة قد أدَّت إلى جعله أكثر تأثرًا بالهوية وأقل عقلانية. المعضلات جزء لا يتجزأ من الديمقراطية وهي محل جدال منذ عصر أفلاطون، وليس لهذه المشاكل حلٌ فوريٌّ، لكن ينبغي البدء بمعرفة أسوأ المشاكل الحالية ووضع أهداف للحد منها.

عندما لا تخضع القضايا للتسييس، فإنّ الناس يفكرون فيها بعقلانية، ولاحظ كاهان أنَّ «نزاعات الجمهور المريرة عن العلم هي في الحقيقة الاستثناء وليست القاعدة»، فلا ينفعل أحد بخصوص ما إذا كانت المضادات الحيوية فعالة أم لا، وما إذا كانت قيادة السيارة مخمورًا فكرة جيدة. ويُثبت التاريخ الحديث هذه النقطة بتجربة طبيعية وتامة بمجموعة ضابطة مطابقة بدقة، ففيروس الورم الحُليمي البشري (HPV) ينتقل عن طريق الاتصال الجنسي وهو سبب رئيسي في سرطان عنق الرحم، ولكن يمكن الوقاية منه بلقاح، والتهاب الكبد

الوبائي بفيروس ب ينتقل عن طريق الاتصال الجنسي أيضًا، ويتسبب في السرطان أيضًا، ويمكن الوقاية منه بلقاح كذلك. ولكنَّ لقاح فيروس الورم الحليمي أثار ضجةً سياسية باحتجاج أولياء الأمور على تسهيل الحكومة على المراهقين ممارسة الجنس، مع أنَّ لقاح فيروس التهاب الكبد الوبائي لا غبار عليه. يرى كاهان أنَّ الاختلاف يكمن في طريقة عرض اللقاحين، إذ كان التهاب الكبد الوبائي بفيروس ب يُعامل كمسألة صحية روتينية مثل السعال الديكي أو الحمى الصفراء، أما صُنَّاع لقاح فيروس الورم الحليمي فضغطوا على المجالس التشريعية بالولايات لجعل أخذ اللقاح إلزاميًّا بدءًا بالمراهقات، وهو ما أدَّى إلى إضفاء طابع جنسي على العلاج ممَّا أغضب أولياء الأمور المتزمتين.

ينبغي نزع الطابع السياسي عن القضايا بقدر الإمكان لجعل الخطاب العام أكثر عقلانية. أظهرت التجارب أنَّ الناس عندما يسمعون عن سياسة جديدة مثل إصلاح نظام الرعاية الاجتماعية فإنَّهم يؤيدونها إذا كانت مُقترحة من حزبهم ويعارضونها إذا كانت مُقترحة من الحزب الآخر، وهم مقتنعون أنَّ رد فعلهم مبني على أسسها الموضوعية، ويعني هذا أنَّه ينبغي اختيار المتحدثين الرسميين بعناية. وقد قال العديد من النشطاء في مجال التغير المناخي إنَّ كتابة آل جور الفيلم الوثائقي «**الحقيقة المُرَّة**» (*An Inconvenient Truth*)، وظهوره فيه ربما أحدث ضررًا للحركة أكثر من النفعٍ، لأنَّه بصفته نائبَ رئيس ديمقراطيًّا سابقًا، ومُرشحًا رئاسيًّا، فقد أضفى على التغير المناخي صبغة يسارية (من الصعب تصديق ذلك اليوم، ولكنَّ النزعة البيئية كانت يومًا ما مستنكرة بوصفها قضية *يمينية*، حيث كانت تعبيرًا عن خوف الطبقة العليا الشديد على البيئات التي يصطادون فيها البط وقلقهم على إطلالات منازلهم الريفية، ولم تكن قلقًا بشأن القضايا الخطيرة مثل العنصرية والفقر وفيتنام). وسيكون استخدام معلِّقين محافظين وتحرُّريين مقتنعين بالأدلة ومستعدين لمشاركة مخاوفهم أكثر فعاليةً من استخدام المزيد من العلماء الذين يتحدثون ببطءٍ وبصوتٍ أعلى.

ينبغي الفصل بين الوضع الراهن الفعلي والتدابير العلاجية المحملة بالمعاني الرمزية السياسية. وجد كاهان أنَّ الناس يكونون أقل استقطابًا في آرائهم حول وجود تغير مناخي ناجم عن النشاط البشري من الأساس عندما يُذكِّرهم أحدٌ باحتمالية تخفيف هذا التغير بالهندسة الجيولوجية، ويكونون أكثر استقطابًا عندما يخبرهم أحدٌ أنَّ هذا التغير يتطلب الرقابة الصارمة على الانبعاثات (لا يعني هذا أنَّه ينبغي المناداة بالهندسة الجيولوجية على أنَّها الحل الأساسي بالطبع). قد يؤدي نزع الصبغة السياسية عن قضيةٍ ما إلى فعل حقيقي. ساعد كاهان مجموعة من رجال أعمال فلوريدا وسياسييها وجمعيات سكانها –العديد منهم جمهوريون– على الموافقة على خطة للتكيّف مع ارتفاع مستويات سطح البحر التي هددت الطرق الساحلية وموارد المياه العذبة، وتضمنت الخطة إجراءات لتقليل انبعاثات الكربون والتي كانت ستتحول إلى قضية ساخنة سياسيًّا تحت أي ظرفٍ آخر. لكن ما دام التخطيط مركَّزًا على مشاكل يمكنهم رؤيتها وما دامت أهمية الخلفية السياسية المثيرة للخلاف مهمشة، فإنَّهم يتصرفون بعقلانية.

ومن جهته، فإنّ بإمكان الإعلام أن ينظر في دوره في تحويل السياسة إلى رياضة، وأن يعيد المثقفون والمفكرون التفكير في خلافاتهم. هل نستطيع تخيل يومٍ لا يملك فيه أشهر الكُتّاب والمتحدِّثين في البرامج توجهًا سياسيًّا متوقعًا، وإنَّما يحاولون التوصل إلى استنتاجات مبرَّرة لكل مسألة على حدة؟ يومٍ تُعد فيه عبارة «إنَّكَ تردِّد موقف اليسار (أو اليمين)» إحراجًا مدمِّرًا؟ يومٍ يجيب فيه الناس (وخاصةً الأوساط الأكاديمية) على أسئلةٍ مثل: «هل تحد مراقبة الأسلحة من الجريمة؟» أو «هل يزيد الحد الأدنى للأجور من البطالة؟» بإجابات مثل: «دعني أبحث عن آخر تحليل تجميعي أولًا» بدلًا من رد الفعل الجاهز المتوقع المبني على توجههم السياسي؟ يومٍ يتخلى فيه كتاب اليمين واليسار عن طريقة شيكاغو في الجدال («عندما يُلوحون بسكين، أشهِر مسدسًا، وإذا تسبب أحدٌ منهم في دخول أحد رجالك المستشفى، فأرسل أحد رجالهم إلى المشرحة») ويتبنون استراتيجية المعاملة بالمثل تدريجيًّا للحد من التوتر التي يستخدمها مراقبو الأسلحة

(وفيها يتنازل أحد المتنافسين تنازلًا فرديًا مع دعوة لبذل جهود مماثلة من الطرف الآخر)؟

هذا اليوم بعيد المنال، ولكنَّ قوى العقلانية التي تُصلح من نفسها والتي يشار فيها إلى أخطاء الاستدلال كأهداف للتعليم والنقد تستغرق وقتًا كي تنجح. فقد استغرقت ملاحظات فرانسيس بيكون على الاستدلال المعتمد على الروايات الشخصية (Francis Bacon) عقودًا حتى تُصبح جزءًا متأصلًا في طريقة تفكير المتعلمين وكذلك الخلط بين الارتباط والسببية، وقد استغرقت دلائل تفيرسكي (Tversky) وكانمان (Kahneman) على انحياز التوفر والانحيازات المعرفية الأخرى 50 عامًا تقريبًا كي تشق طريقها إلى تصوراتنا السائدة. ما زال اكتشاف أنَّ القبلية السياسية أخبث صورة من صور اللا عقلانية اليوم فكرةً جديدة ومجهولة تقريبًا، وبالتأكيد، يمكن أن يصاب بها المفكرون المحنكون كأي شخصٍ آخر، وربما تظهر تدابير مضادة لها قريبًا مع تسارع وتيرة كل شيء.

ومهما استغرق الأمر، فينبغي علينا ألَّا ندع وجود الانحيازات المعرفية والعاطفية أو اللاعقلانية المفاجئة في الساحة السياسية يُثنينا عن مبدأ التنوير بالسعي الدؤوب وراء المنطق والحقيقة. وإذا كان بإمكاننا تحديد ما يجعل البشر غير عقلانيين، فلا بد وأنَّنا نعرف ماهية العقلانية، وبما أنَّه لا يوجد ما يميزنا *نحن*، فبالتأكيد يملك زملاؤنا بعض القدرة على أن يكونوا عقلانيين أيضًا. ومن طبيعة العقلانية أنَّ المفكّر يمكنه أن يأخذ خطوة للوراء ويفكِّر في أوجه قصوره ويجد حلولًا لها.

الفصل الثاني والعشرون:
العلم

إذا طُلِب منَّا ذكر أكثر إنجازات الجنس البشري مدعاةً للفخر، سواء أكان ذلك في مسابقة تفاخر بين المجرات أو في شهادة أمام الإله القدير، فماذا سنقول؟

يمكننا التباهي بالانتصارات التاريخية في حقوق الإنسان مثل القضاء على العبودية وهزيمة الفاشية، ولكن مهما كانت هذه الانتصارات ملهمة، فهي تتمثَّل في إزالة عواقب وضعناها نحن بأنفسنا في طريقنا، وهو ما يشبه أن تدرج ضمن قائمة إنجازاتك في سيرتك الذاتية أنَّك تغلَّبت على إدمان الهيروين.

سنُدرج بالتأكيد روائع الفن والموسيقى والأدب، ولكنْ هل ستقدِّر كائنات فاعلة حسَّاسة ذات أدمغة وتجارب تختلف عنَّا كل الاختلاف أعمال إسخيليوس أو إل جريكو أو بيلي هوليداي؟ ربما توجد قواعد عامة للجمال والمعنى تتجاوز الثقافات وتؤثر في أي كائن ذكي –أحب أن أفترض أنَّ هذه القواعد موجودة بالفعل–ولكن تصعب معرفة ذلك كثيرًا.

ولكنّ هناك ساحة إنجازات واحدة يمكننا التفاخر بها بلا خجل أمام أي مجلس من العقول، ألا وهي العلم. يصعب تخيّل كائن فاعل ذكي لا يشعر بفضول تجاه العالم الذي يعيش فيه، وقد أرضى جنس البشر هذا الفضول إرضاءً كبيرًا، إذ يمكننا تفسير الكثير من تاريخ الكون، والقوى التي تحرِّكه، والأشياء التي نتكوَّن منها، وأصل الكائنات الحية، وآلية الحياة بما فيها الحياة النفسية.

رغم أنَّ جهلنا هائل (وسيظل كذلك)، إلَّا أنَّ معرفتنا مذهلة وتنمو يومًا تلو الآخر. يقول الفيزيائي شون كارول (Sean Carroll) في كتاب «**الصورة الكبرى**» *(The Big Picture)* إنَّ قوانين الفيزياء الأساسية في الحياة اليومية (باستثناء القيم القصوى من الطاقة والجاذبية مثل الثقوب السوداء والمادة المظلمة والانفجار الكبير) *معروفة لنا تمامًا*. يصعب الاختلاف على أنَّ هذا «أحد أعظم الانتصارات في التاريخ الفكري للإنسان». استطعنا تقديم وصفٍ علمي لأكثر من مليون ونصف المليون نوعٍ من الكائنات الحية، ومع بعض الجهود الإضافية الواقعية يمكن تسمية البقية التي تبلغ سبعة ملايين نوعٍ خلال القرن الجاري. والأكثر من ذلك أنَّ فهمنا للعالم لا يتمثَّل في قوائم مجردة للجسيمات والقوى والأنواع فحسب، وإنَّما في مبادئ عميقة وأنيقة مثل أنَّ الجاذبية هي انحناء الزمكان وأنَّ الحياة تقوم على جزيءٍ ينقل المعلومات ويدير عملية الأيض ويستنسخ نفسه.

تواصل الاكتشافات العلمية إدهاشنا وإبهاجنا وإجابة الأسئلة التي كنَّا نظن أنْ لا إجابة لها. عندما اكتشف كلٌّ من واتسون وكريك بنية الحمض النووي، لم يحلما يومًا بتتبع تسلسل جينوم أحفورة نياندرتال عمرها 38,000 عام واكتشاف احتوائها على جين له علاقة بالكلام واللغة، أو بيومٍ يكشف فيه تحليل الحمض النووي الخاص بأوبرا وينفري عن انحدارها من سلالة قبيلة الكيبل في غابات ليبريا المطيرة.

يسلّط العلم الضوءَ على الحالة البشرية من زاويةٍ جديدة. وُلد مفكِّرو العصور القديمة وعصر العقل وعصر التنوير مبكِّرًا فلم يستمتعوا بالأفكار ذات الآثار العميقة في الأخلاق والمعنى، ومنها الإنتروبيا والتطور والمعلومات ونظرية الألعاب والذكاء الاصطناعي (رغم أنَّهم كانوا يحاولون إنتاج بعض البوادر والمقاربات)، فالمشكلات التي طرحها علينا هؤلاء المفكِّرون تعزِّزها اليوم هذه الأفكار، ويتم التدقيق

فيها بأساليب مثل التصوير ثلاثي الأبعاد لنشاط المخ والتنقيب عن البيانات الضخمة لتتبع عملية انتشار الأفكار.

قدَّم العلمُ للعالَمَ أيضًا صورًا للجمال الرفيع، مثل الحركة المجمدة بفعل الضوء الاصطرابي، وحيوانات متوهجة من الغابات المطيرة الاستوائية والمنافس المائية في أعماق المحيطات، والمجرات الحلزونية الرشيقة والسُدُم الشفافة، ومجموعة الدوائر العصبية المشعة، وكوكب الأرض المضيء وهو يرتفع فوق أفق القمر متجهًا نحو عتمة الفضاء. ومثل الأعمال الفنية العظيمة، فهذه الصور ليست مجرد صورٍ جميلة وإنَّما محفزات على التأمل تعمِّق فهمنا لمعنى أن تكون إنسانًا ولمكاننا في الطبيعة.

ومنحنا العلم بالطبع نِعَم الحياة والصحة والثروة والمعرفة والحرية التي وثقناها في الفصول الخاصة بالتقدم. لنأخذ مثالًا واحدًا من الفصل السادس. قضت المعرفة العلمية على الجدري، وهو مرض مؤلم ومشوِّه قتل 300 مليون شخصٍ في القرن العشرين فقط. في حالة أنَّك مررت سريعًا على هذا الإنجاز العظيم ولم تنتبه له، أكرِّر قولي: قضت المعرفة العلمية على الجدري، وهو مرض مؤلم ومشوِّه قتل 300 مليون شخصٍ في القرن العشرين فقط.

تكذِّب هذه الإنجازات المذهلة أي شكوى عن أنَّنا نحيا في عصر تدهور وخيبة أمل وفقدان المعنى وسطحية وعبث، ومع ذلك فإنَّ جمال العلم وقوته لا يحصلان على أي تقدير، بل ويُنظر إليه باستياءٍ مرير. يظهر ازدراء العلم في أوساط مفاجئة، ليس بين الأصوليين المتدينين والساسة من حزب «لا أعرف شيئًا» فحسب، وإنما أيضًا بين كثيرٍ من المثقفين الذين نحبهم وفي أكثر مؤسسات التعليم العالي الجليلة.

وثَّق الصحافي كريس موني (Chris Mooney) في كتاب «**حرب الجمهوريين على العلم**» (*The Republican War on Science)* احتقار العلم في أوساط الساسة الأمريكيين اليمينيين، وقاد بعض الشجعان (مثل بوبي جيندال Bobby Jindal محافظ لويزيانا السابق) إلى أن يطلقوا على حزبهم «حزب الغباء». نشأت هذه السمعة من السياسات المطبقة في ظل إدارة جورج دابليو بوش، بما فيها تشجيعه على تدريس نظرية الخلق (خلف ستار «التصميم الذكي») والتحول من اتباع ممارسة قديمة هي التماس مشورة اللجان العلمية النزيهة إلى ملء هذه اللجان بأصحاب الأيديولوجيات المتوافقة معها، الذين يروِّج كثيرٌ منهم أفكارًا هشة (مثل أنَّ الإجهاض يسبِّب سرطان الثدي) وينكرون الأفكار المدعومة بالأدلة (مثل أنَّ الواقي الذكري يمنع الإصابة بالأمراض المنقولة جنسيًّا). انخرط الساسة الجمهوريون في بعض مظاهر السَفَه، مثلَ جلْبِ جيمس إنهوف (James Inhofe)، عضو مجلس الشيوخ عن أوكلاهوما ورئيس لجنة البيئة والأشغال العامة، كرة ثلج إلى مجلس الشيوخ في عام 2015 للتشكيك في حقيقة الاحترار العالمي.

حذرنا في الفصل السابق أنَّ التفسير الغبي للعلم في الخطاب السياسي يحدث غالبًا في القضايا الساخنة مثل الإجهاض والتطور والتغير المناخي، ولكنَّ الاستهانة بالإجماع العلمي توسَّعت لينتشر حزب «لا أعرف شيئًا» على نطاقٍ واسع، انتقد لمار سميث (Lamar Smith)، النائب عن ولاية تكساس ورئيس لجنة مجلس النواب للعلوم والفضاء والتكنولوجيا، المؤسسة الوطنية للعلوم انتقادًا لاذعًا، ليس بسبب أبحاثها على التغير المناخي فحسب (والذي يظنه مؤامرة يسارية) وإنَّما بسبب أبحاثها الأخرى في المنح التي تخضع لمراجعة الأقران، والتي يخرجها من سياقها ليسخر منها (كما قال على سبيل المثال: «كيف تبرِّر الحكومة الفيدرالية إنفاق ما يزيد على 220,000 دولار أمريكي لدراسة صورة الحيوانات في مجلة ناشونال جيوجرافيك؟») حاول إضعاف الدعم الفيدرالي للأبحاث الأساسية

عبر اقتراح تشريعٍ يلزم المؤسسة الوطنية للعلوم بتمويل الدراسات التي تعزِّز «المصالح الوطنية» مثل الدفاع والاقتصاد فقط. يتجاوز العلم بالطبع الحدود الوطنية (فكما قال تشيخوف: «لا يوجد علم وطني، مثلما لا يوجد جدول ضرب وطني») وتنبع قدرته على تعزيز مصالح أي شخص من فهمه التأسيسي للواقع. فيستخدم النظام العالمي لتحديد المواقع على سبيل المثال نظرية النسبية، ويعتمد علاج السرطان على اكتشاف التركيب اللولبي المزدوج، ويكيِّف الذكاء الاصطناعي الشبكات العصبية والدلالية من العلوم المعرفية والخاصة بالدماغ.

ولكنَّ الفصل الحادي والعشرين هيَّأنا لحقيقة أنَّ القمع المسيَّس للعلم يأتي من اليسار أيضًا، فاليسار هو من أثار الهلع بشأن الزيادة السكانية والطاقة النووية والكائنات المعدَّلة جينيًّا. تشوَّهت الأبحاث على الذكاء والجنسانية والعنف والتربية والأحكام المسبقة بفعل تكتيكات مختلفة من اختيار بنود الاستبيانات إلى ترهيب الباحثين الذين لا يقرُّون بالمعتقدات المتشددة التي تتمتع باللياقة السياسية.

سأركِّز في بقية هذا الفصل على العداء المتجذر للعلم، يغضب كثيرٌ من المثقفين عادةً من إقحام العلم في مجال الإنسانيات التقليدية مثل السياسة والتاريخ والفنون. ويتعرض للتنديد بنفس القدر تطبيق التفكير المنطقي العلمي في منطقة كانت محكومة سابقًا بالدين، فكثير من الكُتَّاب الذين لا يؤمنون بالله مطلقًا يقولون إنَّه من غير المناسب أن يشارك العلم بإجاباته عن الأسئلة الكبرى. يُتَّهم «الدخلاء» على العلم كثيرًا في كبرى مجلات الرأي بالحتمية والاختزالية والجوهرية والوضعية، والأسوأ من ذلك، بجريمة تُدعى العلموية.

وهذا الامتعاض صادر عن الطرفين، ونجد في مراجعة كتبها المؤرخ جاكسون ليرز (Jackson Lears) في مجلة *The Nation*) في عام 2011 حجة اليسار القياسية للدفاع عن هذا الادعاء، إذ يقول:

> تقوم الوضعية على الاعتقاد الاختزالي القائل بإمكانية تفسير الكون بأكمله، بما فيه السلوك البشري، بعمليات فيزيائية حتمية وقابلة للقياس بدقة...شكَّلت الافتراضات الوضعية أسسًا إبستمولوجية للداروينية الاجتماعية والتصورات التطورية الشعبية عن التقدم، إضافةً إلى الاستعمارية والعنصرية العلمية، واتحدت هذه الميول مع مبدأ تحسين النسل، الذي يقول بإمكانية تحسين الرفاهة البشرية وجعلها مثالية في النهاية من خلال التناسل الانتقائي «للأصلح» وتعقيم «غير اللائقين» أو استبعادهم. يعرف حتى طلاب المدارس ماذا حدث بعد ذلك: القرن العشرون الكارثي، حربان عالميتان ومذابح منهجية للأبرياء على نطاقٍ غير مسبوق، وانتشار أسلحة مدمرة بشكلٍ لم يكن بالإمكانِ تخيّله، وحروب مفاجئة متفرقة على حدود الإمبراطورية، وشملت كل هذه الأحداث تطبيق الأبحاث العلمية والتكنولوجيا المتقدمة بدرجاتٍ متفاوتة.

وتتَّضح حجة اليمين في هذا الخطاب الذي ألقاه ليون كاس (Leon Kass)، مستشار الرئيس بوش في مجال الأخلاقيات البيولوجية، في عام 2007:

> «تُطوَّعُ الاكتشافات والأفكار العلمية عن الإنسان والطبيعة الحية –الذين يكونون مرحّبين وغير مؤذيين تمامًا بطبيعتهم– في المعركة ضد تعاليمنا الدينية والأخلاقية التقليدية، بل وحتى ضد فهمنا لذواتنا ككائنات تتمتَّع بالحرية والكرامة. نشأ بيننا معتقد شبه ديني –سأطلق عليه «العلموية عديمة الروح»– يؤمن بأنَّ تركيبنا البيولوجي الجديد يمكنه تزويدنا بسجلّ كامل لحياة البشر، وتقديم تفسيرات علمية بحتة للفكر البشري والحب والإبداع والحكم الأخلاقي وحتى سبب إيماننا بالله، مزيلًا

بذلك كل الغموض. لا يأتي الخطر الذي يهدد إنسانيتنا اليوم من تناسخ الأرواح في الحياة التالية، وإنَّما من الحرمان من الروح في هذه الحياة..»

تأكد أنَّ المخاطر في هذه المنافسة عالية، وتشمل صحة أمتنا الأخلاقية والروحانية، ونشاط العلم المتواصل، وفهمنا لذواتنا بصفتنا بشرًا وأبناء الغرب...على كل أصدقاء الحرية والكرامة الإنسانية –حتى الملحدين بيننا– أن يفهموا أن إنسانيتنا على المحك.

هؤلاء بالطبع مدَّعون متحمِّسون، ولكنَّ ادِّعاءهم ملفق كما سنرى. لا يمكن لوم العلم على الإبادة الجماعية والحروب، وهو لا يهدِّد صحة أمتنا الأخلاقية والروحانية، بل على النقيض، إذ لا غنى عن العلم في كل المجالات التي تهم الإنسان بما فيها السياسة والفنون والبحث عن المعنى والغرض والأخلاق.

إنَّ حرب المثقَّفين على العلم تُشعل الجدل الذي أثاره تشارلز بيرسي سنو في عام 1959 عندما استنكر ازدراء العلم في أوساط المفكِّرين البريطانيين في محاضرته وكتابه بعنوان «**الثقافتان**». يفسِّر مصطلح «الثقافتان» بالمعنى الأنثروبولوجي لغز جذب العلم للانتقادات، ليس من الساسة الذين تموِّلهم شركات الوقود الأحفوري فحسب، وإنَّما من بعض أعلم أهل الفكر أيضًا.

حُفر مشهد المعرفة البشرية خلال القرن العشرين في الدوقيات التي اتسمت بطابع المهنية، ويُنظر غالبًا إلى نمو العلم (وخاصةً العلوم ذات الطبيعة الإنسانية) كأنَّه تعدٍّ على مجالات كانت تدعمها وتحدُّها العلوم الإنسانية الأكاديمية. ليس ذلك لأنَّ ممارسي العلوم الإنسانية أنفسهم لديهم هذه العقلية الصفرية، إذ لا يظهر على أغلب الفنانين أي علامة على ذلك، فالروائيون والرسَّامون والموسيقيون وصنَّاع الأفلام الذين أعرفهم يتمتَّعون بالفضول الشديد تجاه الضوء الذي قد يلقيه العلم على وسيلة تعبيرهم، كما أنَّهم منفتحون على أي مصدر للإلهام، ولا هو بسبب القلق الذي يعبِّر عنه الباحثون الذين يغوصون في الحقب التاريخية وأنواع الفنون ونظم الأفكار والمسائل الأخرى التي تشملها العلوم الإنسانية، بما أنَّ الباحث الحقيقي يكون متقبِّلًا للأفكار بغض النظر عن منشئها. تعود هذه المشاكسة الدفاعية إلى *إحدى الثقافتين*: وهي الثقافة الثانية حسب تعبير تشارلز بيرسي سنو أي ثقافة المثقفين الأدباء والنقاد الثقافيين وكُتَّاب المقالات الفكرية، الذين يصفهم الكاتب ديمون لينكر (Damon Linker) (مستشهدًا بعالم الاجتماع دانييل بيل Daniel Bell) بـ «المتخصِّصين في التعميمات.. الذين يلقون على العالم تجاربهم الفردية وعاداتهم في القراءة وقدرتهم على إصدار الأحكام. فالذاتية بكل نوادرها وغرائبها هي عملة جمهورية الآداب». وتختلف هذه الطريقة كل الاختلاف عن طريقة العلم، ومفكِّرو الثقافة الثانية هم أكثر من يخشى «العلموية» التي يفهمونها بأنَّها الموقف القائل بأنَّ «العلم هو الشيء الوحيد المهم» أو بأنَّه لا بد من «الثقة في العلماء لحل كل المشاكل».

لم يكُن موقف سنو بالطبع هذا الموقف الجنوني القائل بأنَّه لابد من نقل السلطة إلى ثقافة العلماء، بل على العكس، نادى بثقافةٍ ثالثة تجمع الأفكار المختلفة من العلم والثقافة والتاريخ وتطبِّقها بغرض تعزيز رفاهة البشرية حول العالم. أحيا الكاتب والوكيل الأدبي جون بروكمان (John Brockman) المصطلح في عام 1991، ويرتبط هذا المصطلح بمفهوم عالم الأحياء إدوارد أوزبورن ويلسون «توحيد العلوم»، وحدة العلوم، الذي يُرجعه ويلسون بدوره إلى مفكِّري التنوير. الخطوة الأولى في فهم وعد العلم فيما يخص شؤون الإنسان هي الهروب من عقلية الثقافة الثانية التي تتَّسم بالتحصن وراء الأسوار والتي تتَّضح على سبيل المثال في العنوان الفرعي لمقالٍ كتبه الأديب

البارز ليون ويسلتير (Leon Wieseltier) في عام 2013: «العلم يريد الآن غزو مجال الآداب الحرة، لا تسمحوا له بذلك!»

يجب التمييز أولًا بين تأييد التفكير العلمي وأي اعتقاد بأنَّ أعضاء الجماعة المهنية التي تُدعى «العلم» يتمتَّعون بحكمةٍ أو نبلٍ بصفةٍ خاصة. تقوم ثقافة العلم على الاعتقاد المضاد، فممارساتها المميّزة التي تشمل النقاش المفتوح ومراجعة الأقران والطرق مزدوجة التعمية مصمَّمة بغرض التحايل على الأخطاء التي يكون العلماء عرضةً للوقوع فيها لكونهم بشرًا. المبدأ الأول من مبادئ العلم هو كما قال ريتشارد فينمان (Richard Feynman) أنَّ: «عليك ألَّا تخدع نفسك، وأنت أسهل شخص يمكنك خداعه».

وللسبب نفسه، لا ينبغي الخلط بين دعوة الجميع إلى التفكير بطريقةٍ أكثر علمية والدعوة إلى تسليم اتخاذ القرارات إلى العلماء، فمعظم العلماء ساذجون فيما يتعلَّق بالسياسات والقانون، ويبتكرون أمورًا غير فعَّالة كالحكومة العالمية والترخيص الإلزامي للآباء والأمهات والهروب من الأرض المدنَّسة باستعمار الكواكب الأخرى. لا يهم أي من ذلك، لأنَّنا لسنا بصدد الحديث عن أي جماعة ينبغي منحها السلطة، بل نتحدث عن كيفية اتخاذ القرارات الجمعية بحكمةٍ أكبر.

لا يعني احترام التفكير العلمي اعتقاد أنَّ كل الفرضيات العلمية الحالية صحيحة، فمعظم الفرضيات الجديدة ليست صحيحة. وشريان حياة العلم هو دورة التخمين والتفنيد: طرح فرضية ثم اكتشاف ما إذا كانت ستنجو من محاولات تكذيبها. تفوت هذه النقطة كثيرًا من نقاد العلم الذين يشيرون إلى بعض الفرضيات التي تم دحضها كأنَّها دليل على أنَّه لا يمكن الثقة بالعلم، مثل الحاخام الذي فنَّد نظرية التطور في طفولتي قائلًا: «يظن العلماء أنَّ عمر العالم أربعة ملايين عام، وكانوا يظنون قبل ذلك أنَّ عمر العالم ثمانية ملايين عامٍ، وإذا كانوا مخطئين بأربعة ملايين عام، فيمكن أن يكونوا مخطئين الآن بالأربعة ملايين عام الأخرى!» وتكمن المغالطة هنا (بغض النظر عن التاريخ الملفق) في عدم إدراك أنَّ ما يتيحه لنا العلم هو تزايد الثقة في فرضيةٍ ما مع تراكم الأدلة، وليس ادعاء نزاهتها عن الخطأ من أول محاولة! ينفي هذا النوع من الحجج نفسه بنفسه بالتأكيد بما أنَّ المجادل لا بد وأن يلجأ هو نفسه إلى حقيقة الادعاءات العلمية الحالية للتشكيك في الادعاءات السابقة، وينطبق الأمر نفسه على الحجة الشائعة القائلة إنَّ ادعاءات العلم غير جديرة بالثقة لأنَّ علماء الأزمنة السابقة كانوا مدفوعين بالشوفينية والانحيازات المسبقة التي اتسمت بها تلك الفترات. عندما كانوا يُدفعون بهذه الأمور كانوا ينتجون علمًا سيئًا، والصور الأفضل من العلم التي توفرت في الفترات اللاحقة هي التي تتيح لنا اليوم اكتشاف أخطائهم.

هناك محاولةٌ لتشييد سورٍ عازل حول العلم وجعله يندم على ذلك، وتستخدم هذه المحاولة حجة مختلفة، وهي أنَّ العلم لا يتعامل سوى مع الحقائق الخاصة بالأشياء المادية، لذا فإنَّ العلماء يرتكبون خطأً منطقيًّا عندما يقولون أي شيء عن القيم أو المجتمع أو الثقافة. وكما قال ويسلتير: «لا يحق للعلم أن يقول ما إذا كان العلم ينتمي إلى مجال الأخلاق والسياسة والفن، فهذه مسائل فلسفية والعلم ليس فلسفةً». ولكنَّ هذه الحجة هي التي ترتكب خطأً منطقيًّا بالخلط بين الافتراضات والمجالات الأكاديمية، من الحقيقي أنَّ الافتراضات التجريبية ليست كالافتراضات المنطقية، وينبغي تمييزهما عن الادعاءات المعيارية أو الأخلاقية، ولكنَّ هذا لا يعني أنَّ العلماء خاضعين لقرارٍ بحظر النشر يمنعهم عن مناقشة القضايا المفاهيمية والأخلاقية، تمامًا كما لا ينبغي للفلاسفة الامتناع عن الحديث عن العالم المادي الملموس.

العلم ليس مجرد قائمةً بالحقائق التجريبية، فالعلماء منغمسون في وسط *المعلومات* الأثيري، الذي يشمل حقائق الرياضيات ومنطق نظرياتهم والقيم التي توجِّه أعمالهم. ولم تحصر الفلسفة نفسها في مضمار الأفكار المحضة التي تطوف متحررةً من الكون المادي. نسج فلاسفة التنوير على نحو خاصّ حججهم المفاهيمية بفرضيات عن الإدراك والوعي والشعور والنزعة الاجتماعية (انطلق تحليل هيوم على

سبيل المثال لطبيعة السببية من رؤاه عن علم نفس السببية، وكان كانط عالم نفس معرفيًا متبصّرًا من بين أمورٍ أخرى)، ويؤمن اليوم معظم الفلاسفة (على الأقل في التقاليد الفلسفية الأنجلو أمريكية أو التحليلية) بـ «*المذهب الطبيعي*»، وهو المذهب القائل إنَّ «الطبيعة تستنزف الواقع ولا تحتوي على أي شيء خارق للطبيعة وإنَّه لا بد من استخدام المنهج العلمي للتحقيق في جوانب الواقع كافةً، بما فيها الروح البشرية». العلم بالمفهوم الحديث مثله مثل الفلسفة والمنطق نفسه.

ما الذي يميِّز العلم إذًا عن الصور الأخرى لممارسة المنطق؟ ليس «المنهج العلمي» بالطبع، وهو مصطلح يتعلَّمه طلاب المدارس ولكن لا ينطقه أي عالم أبدًا، فالعلماء يستخدمون أي منهج يساعدهم في فهم العالم، مثل تبويب البيانات، والتجارب الجريئة، والأفكار الخيالية النظرية، وتصميم النماذج الرياضية الأنيقة، والمحاكاة غير المتناسقة بالكمبيوتر، والسرديات اللفظية الكاسحة. وتخدم كل الأساليب مبدأين، وهذان المبدآن هما اللذان يود مناصرو العلم تصديرهما لبقية جوانب الحياة الفكرية.

المبدأ الأول هو أنَّ العالم *قابل للفهم*، إذ يمكن تفسير الظواهر التي نشهدها بمبادئ أعمق من الظواهر نفسها، لهذا يضحك العلماء من نظرية البرونتصور لخبيرة الديناصورات في برنامج ***سيرك مونتي بايثون الطائر***: «كل ديناصورات البرونتصور نحيفة من أحد الطرفين ثم تكون سمينة من المنتصف ثم نحيلة من الطرف الآخر»، فهذه «النظرية» هي مجرد وصف لحقيقة الأمور وليست شرحًا *لسبب* كونها كذلك. والمبادئ التي تمثِّل التفسير يمكن تفسيرها بدورها بمبادئ أعمق، وهكذا (كما قال ديفيد دويتش: «نحن دائمًا في بداية اللانهائية»). عند محاولة فهم عالمنا، لا بد أن نضطر في بعض الأحيان إلى التسليم بأنَّ «هذا هو الواقع دون أسباب» أو أنَّ «هذا سحر» أو «لأنَّني قلتُ ذلك». ليس الالتزام بالوضوح وقابلية الفهم مسألة إيمان محض، ولكنَّه يثبت نفسه باستمرار إذ تصبح جوانب أكثر من العالم أكثر قابلة للتفسير بمصطلحات علمية، فعملية الحياة على سبيل المثال كانت تُعزى إلى دفعة الحياة الغامضة، ولكنَّنا نعرف الآن أنَّها مدفوعة بالتفاعلات الكيميائية والفيزيائية بين جزيئات معقدة.

يخلط أولئك الذين يشيطنون العلموية غالبًا بين القابلية للفهم وخطيئة تُدعى الاختزالية، أي تحليل نظامٍ معقد إلى عناصر أبسط، أو إلى لا شيء سوى عناصر أبسط، حسب الاتهام. لا يعني تفسير حدث معقد بمبادئ أعمق تجاهل ثرائه، فتنشأ في أحد مستويات التحليل أنماط لا يمكن اختزالها في مكوناتٍ من مستوى أدنى. رغم أنَّ الحرب العالمية الأولى تكوَّنت من مادةٍ متحركة، إلَّا أنَّ لا أحدَ سيحاول تفسيرها بلغة الفيزياء والكيمياء والأحياء بدلًا من اللغة الأوضح المعبِّرة عن تصورات قادتها وأهدافهم في أوروبا في عام 1914. وفي الوقت نفسه، يحق لأي شخصٍ فضولي أن يسأل *لماذا* يكون العقل البشري عرضة لتصورات وأهداف كهذه، بما فيها القبَلية وفرط الثقة والخوف المتبادل وثقافة الشرف، وهي الأمور التي شكَّلت في تلك اللحظة التاريخية مزيجًا قاتلًا.

المبدأ الثاني هو أنَّ علينا أن نسمح للعالم بأن يخبرنا ما إذا كانت أفكارنا صحيحة أم لا، فالأسباب التقليدية للمعتقدات –مثل الإيمان والكشف والدوغما والسلطة والجاذبية والتصورات السائدة والتحليل التأويلي للنصوص وحماسة اليقين الذاتي– من مسبِّبات الأخطاء وينبغي رفضها كمصدر للمعرفة. يجب تقييم معتقداتنا عن الافتراضات التجريبية بدلًا من ذلك حسب مدى ملاءمتها للعالم. عندما يواجه العلماء إلحاحًا من أجل شرح كيف يفعلون ذلك، فإنهم يذكرون عادةً نموذج كارل بوبر (Karl Popper) للتخمين والتفنيد، الذي يمكن وفقه أن تدحض الاختبارات التجريبية النظريةَ العلمية ولكن لا تُثبَت النظرية مطلقًا. لا يشبه العلم في الواقع رماية الأطباق الطائرة كثيرًا، كأن تُطلق مجموعة متتالية من الفرضيات في الهواء مثل أهداف الصلصال على شكل الحمام وتُطلق عليها النار لتنسفها إلى شظايا، إنَّما يشبه طريقة التفكير البايزية (المنطق الذي يستخدمه المتنبؤون الخارقون الذين تعرَّفنا عليهم في الفصل السابق).

تكتسب النظرية درجةً أولية من التصديق بناءً على اتساقها مع كل شيء آخر نعرفه، ثم يزداد مستوى التصديق أو ينخفض حسب مدى احتمالية وقوع الملاحظة التجريبية إذا كانت النظرية صحيحة، مقارنةً بمدى احتمالية وقوعها إذا كانت النظرية خاطئة. وبغض النظر عمَّا إذا كان نموذج بوبر أو نموذج بايز هو الأفضل، فإنَّ درجة تصديق العالِم نظريةً ما تعتمد على اتساقها مع الأدلة التجريبية. وأي حركة تطلق على نفسها «علمية» ولكنَّها لا تعزِّز فرص اختبار معتقداتها (ويظهر ذلك بوضوحٍ عندما تقتل من يختلفون معها أو تسجنهم) ليست حركةً علمية.

ينسب كثيرٌ من الناس الفضل للعلم في العقاقير والأجهزة المفيدة وفي تفسير عمل الأشياء المادية، ولكنَّهم يتوقفون عند الأمور التي تهمنا حقًّا كبشر، الأسئلة العميقة مثل من نحن؟ ومن أين أتينا؟ وكيف نحدِّد معنى حياتنا والغرض منها؟ إذ تقع هذه الأسئلة في مجال الدين التقليدي، ويكون المدافعون عنه غالبًا هم أكثر منتقدي العلم حماسًا، ويميلون إلى تأييد خطة التقسيم التي اقترحها عالم المستحاثات والكاتب العلمي ستيفن جاي جولد (Stephen Jay Gould) في كتابه *(Rocks of Ages)*، والتي مفادها أنَّ شواغل العلم وشواغل الدين ينتمون إلى «سلطات غير متداخلة»، فالعلم يتولى الكون التجريبي، والدين يتولى مسائل الأخلاق والمعنى والقيمة.

ولكنَّ هذا الوفاق يتخلخل بمجرد أن تبدأ في تفحُّصه، فالنظرة الأخلاقية للعالم لدى أي شخص مثقف علميًّا –شخص لم تجعله الأصولية ضيّق الأفق– تستلزم انفصالًا تامًا عن المفاهيم الدينية عن المعنى والقيمة.

بدايةً، تدل نتائج العلم ضمنيًّا على أنَّ النظم العقائدية الخاصة بكل الأديان والثقافات التقليدية في العالم –نظرياتهم عن تكوين العالم والحياة والبشر والمجتمعات– خاطئة. نحن نعرف –ولكنَّ أسلافنا لم يعرفوا– أنَّ البشر ينتمون إلى نوعٍ واحد من الرئيسيات الأفريقية التي طوَّرت الزراعة والحكومة والكتابة في حقبة متأخرة من التاريخ، ونعرف أنَّ نوعنا مجرد غصن صغير من شجرة نسبٍ تشمل كل الكائنات الحية نشأت من مواد كيميائية سبقت الحياة منذ أربعة ملايين عامٍ تقريبًا، ونعرف أنَّنا نحيا على كوكبٍ يدور حول إحدى النجوم من مئة مليار نجم في مجرتنا، التي تقع ضمن مئة مليار مجرة في كونٍ عمره 13.8 مليار عامٍ، والذي ربما يكون واحدًا من ضمن عددٍ شاسع من الأكوان. نحن نعرف أنَّ حدسنا البديهي عن المكان والزمان والمادة والسببية غير قابل للقياس حسب طبيعة الواقع على مقاييس كبيرة جدًّا وصغيرة جدًّا، ونعرف أنَّ القوانين التي تحكم العالم المادي (بما فيها الحوادث والأمراض والمصائب الأخرى) ليس لها أهداف تتعلَّق برفاهة البشرية، لا يوجد شيء اسمه القدر أو العناية الإلهية أو «الكارما» أو التعاويذ أو اللعنات أو العرافة أو العقاب الإلهي أو الأدعية المستجابة، وإن كان التعارض بين قوانين الاحتمالات وأساليب الإدراك يفسِّر سبب اعتقاد الناس بوجود هذه الأشياء. ونعرف أنَّنا لم نكُن نعرف هذه الأمور طوال تاريخنا، وأنَّ القناعات المفضلة لدى كل زمان وثقافة قد تُنفى بصورةٍ قاطعة، بما فيها بعض القناعات التي نحملها اليوم لا محالة.

بعبارةٍ أخرى، فإنَّ النظرة للعالم التي تُوجِّه القيم الأخلاقية والروحانية لدى الشخص واسع المعرفة اليوم هي النظرة للعالم التي يقدِّمها لنا العلم. رغم أنَّ الحقائق العلمية لا تفرض القيم بنفسها، إلَّا أنَّها تحصر الاحتمالات بالتأكيد، فبتجريد السلطة الكنسية من مصداقيتها في المسائل الوقائعية، فإنّ ذلك يثير الشك في ادِّعاءاتها بالتيقُّن من المسائل الأخلاقية. يهدم التفنيد العلمي لنظرية الآلهة المنتقمة والقوى الخفية ممارسات كالأضحية البشرية ومطاردة الساحرات والعلاج بالإيمان والمحاكمة بالاختبارات القاسية والتعذيب واضطهاد الزنادقة.

ويجبرنا العلم بالكشف عن غياب الهدف عن القوانين التي تحكم العالم على تحمُّل مسؤولية رفاهتنا ونوعنا وكوكبنا بأنفسنا، وللسبب نفسه، يهدم أيضًا أي نظام أخلاقي أو سياسي يقوم على القوى الصوفية الغامضة أو المساعي الصوفية أو الأقدار أو الجدليات أو الصراعات أو العصور المسيانية (عصور المسيح المنتظر). وإلى جانب بعض القناعات التي لا غبار عليها –أنَّنا جميعًا نقدِّر رفاهتنا الخاصة وأنَّنا كائنات اجتماعية يؤثِّر بعضها في بعض ويمكنها التفاوض على قواعد السلوك– فإنَّ الحقائق العلمية تدفع باتجاه الأخلاق المبرَّرة، أي المبادئ التي تزيد ازدهار الإنسان والكائنات الحسَّاسة الأخرى إلى أقصى حد. هذه النزعة الإنسانية (الفصل الثالث والعشرون) التي لا تنفصل عن فهم العالم من منظورٍ علمي في طريقها إلى أن تمثِّل الأخلاق الفعلية للديمقراطيات والمنظمات الدولية والأديان المحرِّرة، وتحدِّد الوعود غير المحقَّقة التي تقدِّمها الضرورات الأخلاقية التي نواجهها اليوم.

رغم أنَّ العلم يزداد انغماسًا على نحوٍ نافع في حياتنا الفكرية والأخلاقية والمادية، إلَّا أنَّ كثيرًا من مؤسساتنا الثقافية تزرع زُهدًا جاهلًا في العلم يتحوَّل إلى ازدراءٍ. تحصر المجلات الفكرية التي تكرِّس نفسها ظاهريًّا للأفكار في السياسة والفنون، وتوجِّه اهتمامًا طفيفًا للأفكار الجديدة النابعة من العلم باستثناء القضايا المسيَّسة مثل التغيُّر المناخي (والهجمات المنتظمة على العلموية). ولكنَّ الأسوأ هو تناول العلم في مناهج الآداب الحرة في كثيرٍ من الجامعات، إذ يمكن أن يتخرَّج الطلاب دون أن يتعرَّضوا للعلم سوى بدرجةٍ ضئيلة، وما يتعلَّمونه بالفعل يكون على الأغلب مصمَّمًا ليسمِّم أفكارهم تجاهه.

إنّ الكتاب الأكثر شيوعًا في مقررات العلم في الجامعات الحديثة (إضافةً إلى أحد الكتب الجامعية الرائجة عن الأحياء) هو كتاب توماس كون (Thomas Kuhn) بعنوان «**بنية الثورات العلمية**» *(The Structure of Scientific Revolutions)*. يشيع تفسير الكتاب الكلاسيكي الصادر عام 1962 كأنَّه يوضِّح أنَّ العلم لا يجتمع حول الحقيقة، بل يشغل نفسه بفك الألغاز قبل أن يتركها وينتقل إلى نموذج جديد يجعل النظريات السابقة عليه باطلة وملتبسة. ورغم أنَّ كون بنفسه أنكر هذا التفسير العدمي، إلَّا أنَّه أصبح التصور السائد في أوساط الثقافة الثانية. شرح لي أحد النقاد من مجلة فكرية كبرى ذات مرة أنَّ عالم الفن لم يعُد يهتم بما إذا كانت الأعمال الفنية «جميلة» أم لا للسبب نفسه الذي جعل العلماء غير مهتمين بما إذا كانت النظريات «صحيحة» أم لا، وبدا متفاجئًا فعلًا عندما صحَّحتُ له هذه الفكرة.

قال مؤرخ العلوم ديفيد ووتن (David Wootton) عن أعراف مجاله ما يلي: «تعمَّقت مشكلة الثقافتين خلال السنوات التي مرت منذ محاضرة سنو، إذ بدلًا من أن يؤدي تاريخ العلم دور الجسر بين الآداب والعلوم، يقدِّم اليوم للعلماء صورةً لا يعرفها معظمهم عن أنفسهم»، وهذا لأنَّ كثيرًا من مؤرخي العلوم يعتبرون أنّ من السذاجة التعامل مع العلم على أنَّه البحث عن التفسيرات الحقيقية للعالم. فتكون النتيجة كتقرير عن مباراة كرة سلة يضعه ناقد رقص غير مسموح له بأن يقول إنَّ اللاعبين يحاولون تمرير الكرة من الحلقة.

حضرت ذات مرة محاضرةً عن سيمياء التصوير العصبي فكَّك فيها أحد مؤرِّخي العلوم سلسلةً من الصور المتحركة ثلاثية الأبعاد متعددة الألوان للدماغ وشرح ببلاغة كيف أنَّ «النظرة العلمية التي تبدو حيادية وطبيعية تحفز أنواعًا معينة من «الأنفس» التي يمكن بعد ذلك تطويعها لأجندات سياسية معينة، مما يغيّر الموقف من الغرض العصبي (النفسي) إلى الموقف المراقب الخارجي» وهكذا، أي تفسير سوى التفسير الواضح، وهو أنَّ الصور تسهِّل رؤية ما يحدث في الدماغ! يكرِّس كثيرٌ من الباحثين في مجال «الدراسات العلمية» حياتهم المهنية

للتحليلات المبهمة لكيف أنَّ المؤسسة بأكملها عبارة عن ذريعة للاضطهاد، ومن الأمثلة على ذلك هذا الإسهام البحثي في أكثر تحديات العالم إلحاحًا:

الكتل الجليدية والنوع الاجتماعي والعلم: إطار نسوي لعلم الجليد للأبحاث على التغيرات البيئية العالمية

> «الكتل الجليدية رموز رئيسية للتغير المناخي والتغيرات البيئية العالمية، لكنَّ العلاقات بين النوع الاجتماعي والعلم والكتل الجليدية –وخاصةً تلك المتعلقة بالأسئلة الإبستمولوجية عن إنتاج المعرفة في مجال علم الجليد– ما زالت لا تخضع للدراسة الكافية. ومن ثم تقترح هذه الورقة البحثية إطارًا نسويًّا لعلم الجليد ذي أربعة مكوّنات رئيسية، هي: (1) منتجو المعرفة، (2) العلم والمعرفة ذوا البعد الجنساني، (3) أنظمة الهيمنة العلمية، (4) عروض بديلة للكتل الجليدية. يدمج الإطار النسوي لعلم الجليد الدراسات العلمية النسوية فيما بعد الاستعمار بعلم الإيكولوجيا السياسي النسوي، وينتج تحليلًا قويًّا للنوع الاجتماعي والسلطة والإبستمولوجيا في الأنظمة الاجتماعية الإيكولوجية الدينامية، وبذلك يؤدي إلى علمٍ أكثر عدلاً وإنصافًا، وتفاعلات أعدل بين الإنسان والجليد».

والأكثر خبثًا من التفتيش عن صورٍ ملغزة للعنصرية والتمييز على أساس الجنس هو الحملة المشيطنة التي تطعن في العلم (إلى جانب المنطق وقيم التنوير الأخرى) وتتَّهمه بجرائم قديمة قِدَم الحضارة بما فيها العنصرية والعبودية والغزو والإبادة الجماعية. كانت هذه إحدى السمات الرئيسية للنظرية النقدية المؤثرة لمدرسة فرانكفورت، وهي الحركة شبه الماركسية التي أسسها ثيودور أدورنو (Theodor Adorno) وماكس هوركهايمر (Max Horkheimer) الذي زعم أنَّ «الأرض المستنيرة تمامًا تُشّع كوارث وتسعد بها»، وتتمثل كذلك في أعمال مُنظّري ما بعد الحداثة مثل ميشيل فوكو (Michel Foucault) الذي قال بأنَّ الهولوكوست كان النتيجة الحتمية «للسياسة الحيوية» التي بدأت مع التنوير عندما زاد تأثير العلم والحُكم العقلاني في حياة الناس، ومن مُنطلق مماثل، ألقى عالم الاجتماع زيجمونت باومان (Zygmunt Bauman) مسؤولية حدوث الهولوكوست على التصور التنويري «تجديد المجتمع وإجباره على الالتزام بخطة شاملة من ابتكار العلم». في هذه الرواية الملتوية، تُرفع المسؤولية عن النازيين («إنها غلطة الحداثة!»). وكذلك الأيديولوجية النازية المضادة للتنوير بتطرفٍ والتي كانت تحتقر عبادة الليبراليين البرجوازيين المنحلين للمنطق والتقدم، وتبنَّت حراكًا بدائيًّا عضويًّا أجّج الصراع بين الأعراق. رغم أنَّ النظرية النقدية وما بعد الحداثة تتجنبان الأساليب «العلمية» مثل القياس الكمي وتسلسل الأحداث المرتب، إلَّا أنَّ الحقائق تشير إلى رجوعهما إلى الخلف، إذ كانت الإبادة الجماعية والاستبداد منتشرَين في عصور ما قبل الحداثة، ولكنهما تضاءلا ولم يزدادا بعد أن زاد تأثير قيم العلم والتنوير الليبرالي بعد الحرب العالمية الثانية.

كان العلم بالتأكيد يُستغل كثيرًا لدعم حركات سياسية يُرثى لها، ومن الضروري بالطبع فهم هذا التاريخ، ويجوز إصدار الأحكام على العلماء لدورهم فيه مثلما يحدث مع أي رموز تاريخية أخرى، ومع ذلك، يتخلى الباحثون في العلوم الإنسانية عن الصفات التي نقدِّرهم بسببها –السياق والفروق الدقيقة والعمق التاريخي– عندما تسنح لهم فرصة شن حملة ضد منافسيهم في الوسط الأكاديمي. يُلام العلم عادةً على الحركات الفكرية المصبوغة بصبغة علمية زائفة مع أنَّ هذه الحركات لها جذور عميقة ومتشعبة.

ونظرية «العنصرية العلمية» مثال بارز على ذلك، وهي النظرية التي تقول إنَّ الأعراق تشكِّل هرمًا تطوريًّا من الرُّقي العقلي، ويعتلي الأوروبيون الشماليون قمة هذا الهرم. كانت هذه النظرية شائعة في العقود الأولى من القرن العشرين، ومن الواضح أنها كانت مدعومة

بقياسات الجمجمة (كان هناك اعتقاد بأن قياسات الجمجمة تدل على صفات معينة في الشخصية) والاختبارات العقلية قبل أن ينفيها في منتصف القرن العشرين العلم الأفضل وكذلك جرائم النازية المروعة. ولكنَّ تعليق العنصرية الفكرية على شمَّاعة العلم وخاصةً على نظرية التطور هو صورة خاطئة للتاريخ الفكري، فقد وُجدت الاعتقادات العُنصرية عبر التاريخ وفي مناطق عديدة من العالم، وكانت العبودية موجودة في جميع الحضارات وكانت تُبرر عادةً بأنَّ العبيد مناسبون بطبيعتهم للعبودية وأنَّ الله خلقهم كذلك، وأقوال الكُتَّاب الإغريق والكُتَّاب العرب في العصور الوسطى عن دونية الأفارقة بيولوجيًّا قد تُجمِّد الدم في عروقك، ولم يكن رأي شيشرون في البريطانيين أفضل كثيرًا.

بدقة أكبر، كانت العنصرية الفكرية التي تفشَّت في الغرب في القرن التاسع عشر من بنات أفكار العلوم الإنسانية مثل التاريخ وفقه اللغة والكلاسيكيات والميثولوجيا وليس العلم. نشر آرثر دي جوبينو –روائي ومؤرخ هاوٍ– في عام 1853 نظريته السخيفة التي تقول بأن عِرقًا من الرجال البيض الشُجعان –الجنس الآري– نشأ من أرضٍ قديمة ونشر حضارةً من المقاتلين الأبطال في أوراسيا (أوروبا وآسيا) وتشعبت إلى الفُرس والحيثيين والإغريق الهوميريين والهنود الفيديين ثم بعد ذلك إلى الفايكنج والقوطيين والقبائل الجرمانية الأخرى (الجزء الحقيقي الوحيد من هذه القصة هو أن هذه القبائل تحدثت لغات تنتمي إلى عائلة واحدة هي الهندو–أوروبية)، وانهار كل شيء عندما خالط الجنس الآري الأجناس الأدنى التي غزاها مما قلَّل من عظمته وتحول إلى الثقافات الخائرة الفاسدة عديمة الروح البرجوازية التجارية التي كان الرومانسيون يتذمرون منها دائمًا. كان دمج هذه القصة الخيالية مع النزعة القومية الرومانسية ومعاداة السامية الألمانية سهلًا فكانت النتيجة أنَّ *الشعب* التيوتوني وريث الآريين أمَّا اليهود فهم عرق آسيوي هجين. تشرّب أفكار جوبينو ريتشارد فاجنر (الذي كانت مسرحياته الأوبرالية إحياءً للأساطير الآرية القديمة)، وكذلك صهره هيوستن ستيوارت تشامبرلين (Houston Stewart Chamberlain) (وهو الفيلسوف الذي كتب أنَّ اليهود لوَّثوا الحضارة التيوتونية بالرأسمالية والإنسانية الليبرالية والعلم العقيم)، ووصلت هذه الأفكار منهم إلى هتلر الذي كان ينظر لتشامبرلين بوصفه «أباه الروحي».

لم يلعب العلم في حلقة التأثير هذه دورًا يُذكَر، *فرفض* كلٌّ من جوبيناو وتشامبرلين وهتلر بوضوح نظرية داروين عن التطور، وخاصةً فكرة تطور البشر تدريجيًّا من القرود، والتي تعارضت مع نظريتهم الرومانسية عن العرق والمفاهيم الدينية التي نشأت عنها. فطبقًا لهذه الاعتقادات المنتشرة، كانت الأعراق تمثِّل أنواعًا مختلفة وكل نوع يتناسب مع حضارة ذات مستوى معين من الرقي، وستتدهور هذه الأعراق إذا اختلطت. قال داروين إنَّ البشر أفراد متقاربون ينتمون إلى نوعٍ واحد ولهم أصل مشترك، وإنَّ لكل البشر أصولًا «همجية» وإنَّ القدرات العقلية لجميع الأعراق واحدة تقريبًا، وإنَّ الأعراق يمكنها أن تمتزج جميعًا دون حدوث ضرر. وقد ختم المؤرخ روبرت ريتشاردز (Robert Richards) –الذي تتبع المؤثرات التي أثَّرت في هتلر– فصلًا بعنوان «هل كان هتلر داروينيًّا؟» (وهو ادِّعاء شائع بين المؤمنين بنظرية الخلق) بما يلي: «الإجابة المنطقية الوحيدة عن هذا السؤال..هي كلا، واضحة وقاطعة!»

تُنسب الداروينية الاجتماعية إلى العلم عادةً بصورة مغرضة مثل «العنصرية العلمية»، عندما شاع مفهوم التطور في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، تحول إلى اختبار شخصية ورأت تشكيلات سياسية وحركات ثقافية متنوعة أنَّه يحمي برامجهم، وأراد الجميع أن يصدق أن رؤيته الخاصة للصراع والتقدم والحياة الجيدة هي طريقة الطبيعة. سُميت إحدى هذه الحركات بالداروينية الاجتماعية بأثر رجعي، مع أنَّها نشأت على يد هربرت سبنسر (Herbert Spencer) وليس على يد داروين في عام 1851، أي قبل نشر كتاب «**أصل الأنواع**» *(Origins of Species)* بثمانية أعوام. لم يكن سبنسر يؤمن بالطفرات العشوائية والانتخاب الطبيعي، بل كان يؤمن بنظام الوراثة اللاماركي الذي كان فيه صراع الوجود يدفع الكائنات للسعي نحو تعقيدٍ وتكيُّف أكبر وهو ما ينقلونه بدورهم

للأجيال اللاحقة. كان سبنسر يعتقد أنَّ من الأفضل عدم عرقلة قوة التقدم هذه، لذا هاجم الرفاهة الاجتماعية والقواعد التنظيمية الحكومية التي تطيل عمر الأفراد والمجموعات الأضعف والمحكوم عليهم بالهلاك. وقد تبنى فلسفته السياسية، والتي كانت صورة مبكرة من التحرُّرية، البارونات الإقطاعيون وأنصار المبدأ الاقتصادي «دعه يعمل، دعه يمر» والمعارضون للإنفاق الاجتماعي. ولأنَّ هذه الأفكار تبدو يمينية، فقد أطلق اليساريون مصطلح *الداروينية الاجتماعية* على أفكار أخرى ذات طابع يميني مثل الإمبريالية وعلم تحسين النسل مع أنَّ سبنسر كان معارضًا تمامًا لمثل هذا التدخل الحكومي. ومؤخرًا استُخدم المصطلح سلاحًا ضد أي تطبيق لنظرية التطور في فهم البشر. إذًا فعلى الرغم من أصل هذا المصطلح اللغوي، إلَّا أنَّه لا صلة له بداروين أو البيولوجية التطورية، وهو الآن مصطلح لا معنى له يُساء استخدامه.

يمثِّل علم تحسين النسل حركةً أخرى استُخدمت سلاحًا أيديولوجيًّا. اقترح فرانسيس جالتون –وهو شخصٌ موسوعي من العصر الفيكتوري– إمكانية تحسين المخزون الوراثي للجنس البشري بتقديم حوافز تشجيعية للأشخاص الموهوبين حتى يتزاوجوا ويُنجبوا أطفالًا أكثر (علم تحسين النسل الإيجابي)، ولكنّ هذه الفكرة عندما انتشرت امتدت لتشمل الحد من تزاوج «غير اللائقين» (علم تحسين النسل السلبي). فعقَّمت العديد من الدول بصورةٍ إلزامية الجانحين والمتخلفين عقليًّا والمرضى النفسيين وغيرهم ممن ينتمون إلى مجموعةٍ واسعةٍ من الأمراض والوصمات، واقتدت ألمانيا النازية في قوانينها الخاصة بالتعقيم الإجباري بقوانين الولايات المتحدة والدول الاسكندنافية، وتُعد جرائم القتل الجماعي لليهود والروم والمثليين امتدادًا منطقيًّا لعلم تحسين النسل السلبي (في الواقع، تذرَّع النازيون في تعقيمهم بالصحة العامة أكثر مما تذرَّعوا بالوراثة أو التطور: إذ شبَّهوا اليهود بالحشرات ومسببات الأمراض والسرطانات والأعضاء الميتة والدم المسموم).

تسبب ارتباط حركة تحسين النسل بالنازية في تشويه سمعتها إلى الأبد، ولكنّ المصطلح بقي لوصم عدد من المساعي العلمية مثل استخدام علم الوراثة الطبية في إنجاب أطفال بدون أمراض تنكسية مميتة، وكذلك لوصم علم الوراثة السلوكي الذي يُحلل الأسباب الوراثية والبيئية المسؤولة عن الفروق الفردية بأكمله. وتوصف حركة تحسين النسل عادةً بأنها حركة العلماء اليمينيين على خلاف المذكور بالسجلات التاريخية، فقد لاقت في الحقيقة دعمًا من التقدميين والليبراليين والاشتراكيين بما في ذلك ثيودور روزفلت (Theodore Roosevelt) وهربرت جورج ويلز (H. G. Wells) وإيما جولدمان (Emma Goldman) وجورج برنارد شو (George Bernard Shaw) وهارولد لاسكي (Harold Laski) وجون مايناردكينز (John Maynard Keynes) وسيدني ويب (Sidney Webb) وبياتريس ويب (Beatrice Webb) وودرو ويلسون (Woodrow Wilson) ومارجرت سانجر (Margaret Sanger). فقد أضفى علم تحسين النسل على الإصلاح قيمة أكبر من قبول الوضع الراهن، وعلى المسؤولية الاجتماعية قيمة أكبر من الأنانية، وعلى التخطيط المركزي قيمة أكبر من مبدأ «دعه يعمل، دعه يمر». يرجع الرفض القاطع لعلم تحسين النسل إلى مبادئ الليبرالية والتحررية التقليدية وهي أنَّ الحكومة ليست حاكمًا كلي القدرة يتحكم في وجود الإنسان، وإنَّما مؤسسة محدودة السلطات، ولا يقع الوصول بالتركيب الجيني للمثالية ضمن هذه السلطات.

لم أذكر الدور المحدود للعلم في هذه الحركات لإعفاء العُلماء (فكثيرون منهم كانوا نشطاء أو متواطئين بالطبع) وإنما لأن هذه الحركات تستحق فهمًا أعمق وأكثر اعتمادًا على سياقها بدلًا من دورها الحالي كحملات دعائية معادية للعلم. وقد عززت إساءة الفهم التي تعرّض لها داروين هذه الحركات، ولكنَّها انبثقت من القناعات الدينية والفنية والفكرية والسياسية لهذه العصور مثل: النزعة الرومانسية والتشاؤمية ورؤية التقدم على أنه صراع جدلي أو كشف روحاني صوفي والحداثة العليا السلطوية. وإذا كنا نرى أن هذه الأفكار غير عصرية وخاطئة أيضًا، فهذا يرجع إلى أننا نتمتع اليوم بفهم أفضل للتاريخ والعلم.

ليس تبادل الاتهامات حول طبيعة العلم من بقايا «حروب العلم» التي حدثت في ثمانينيات القرن الماضي وتسعينياته فحسب، وإنما يواصل هذا التبادل بلورة دور العلم في الجامعات، فعندما عدَّلت جامعة هارفارد شروط تعليمها العام في عام 2006-2007، طرح التصريح الأولي لفريق العمل تدريس العلم دون أي ذكر لمكانته في المعرفة البشرية كما يلي: «يؤثر العلم والتكنولوجيا في طلابنا تأثيرًا مباشرًا بطرق عديدة بالإيجاب والسلب: فقد نتج عنهما أدوية يمكنها إنقاذ الحياة، والإنترنت، وطرق تخزين أكثر كفاءة للطاقة، ووسائل ترفيه رقمية، ولكن نتج عنهما أيضًا أسلحة نووية وبيولوجية، ووسائل تنصت إلكترونية، وإضرار بالبيئة». أجل، يمكن أن نقول إنَّ فن العمارة أنتج كلًّا من المتاحف وغُرف الغاز، وإنَّ الموسيقى الكلاسيكية تحفز النشاط الاقتصادي، وإنها ألهمت النازيين أيضًا وهكذا، لكنَّ هذه المواربة الغريبة بين المنافع والأضرار لم تُطبَّق على المجالات الأخرى، ولم يُشِر هذا التصريح إلى أنَّ من الممكن أن يكون لدينا أسبابنا المقنعة التي تجعلنا نفضِّل الفهم والدراية على الجهل والخرافة.

لخَّصت زميلة أخرى في مؤتمر حديث إرث العلم المتناقض في رأيها، إذ أنتج العلم من جهة لقاحات الجدري، وأنتج من جهة أخرى دراسة الزهري التي أجرتها جامعة توسكيجي، وبخصوص هذا الشأن، فإنّ أحد الأقاويل المحرضة التي تتضمنها السردية المشهورة عن شرور العلم أنَّ الباحثين في مجال الصحة العامة تعقبوا تطور مرض الزهري الكامن في عينة من الأمريكيين الفقراء من أصول أفريقية لمدة أربعة عقود دون أن يعالجوهم. كانت الدراسة غير أخلاقية بصورة فجَّة طبقًا لمعاييرنا الآن، ولكنَّها تُحكَى بطريقة مضللة لزيادة الاتهامات الموجهة للعلم، فالباحثون (وكان معظمهم أمريكيين من أصول أفريقية أو من المناصرين لصحتهم ورفاهتهم) لم يصيبوا المشاركين بالعدوى كما يعتقد كثيرٌ من الناس (وهو تصور خاطئ أدَّى إلى نظرية المؤامرة واسعة الانتشار التي تقول بأن الإيدز صُنع في معامل الحكومة الأمريكية للحد من عدد السود). وربما أمكن الدفاع عن الدراسة بمعايير الفترة التي بدأت فيها، فقد كانت الأدوية المتاحة آنذاك لعلاج الزهري (مثل الزرنيخ) سامة وغير فعَّالة، وعندما أصبحت المضادات الحيوية متاحة بعد ذلك لم يكن أحد يعرف ما إذا كانت آمنة وفعَّالة أم لا، وكان من المعروف أنَّ الزهري الكامن يختفي من تلقاء نفسه بدون علاج، لكنَّ المقصود هنا أنَّ المعادلة بأكملها متبلِّدة الحس الأخلاقي، وتُظهر قوة حجج الثقافة الثانية في إثارة حس التكافؤ. افترضت المقارنة التي أجرتها زميلتي بشكل حتمي أنَّ دراسة توسكيجي تمثِّل جزءًا لا يتجزأ من الممارسة العلمية بدلًا من اعتبارها انتهاكًا استنكره الجميع في أنحاء العالم، وساوت العجز مرة واحدة عن منع وقوع الضرر على بعض الناس بمنع هلاك الملايين في القرن الواحد إلى ما لا نهاية.

هل تُحدث شيطنة العلم في برامج الآداب الحرة في التعليم العالي فرقًا؟ أجل، وذلك لعدة أسباب. فرغم أنَّ كثيرًا من الطلاب يتدافعون لدراسة الطب والهندسة بمجرد التحاقهم بالجامعة، إلَّا أنَّ كثيرًا منهم لا يعرفون ما الذي يودون فعله في حياتهم ويتأثرون بأستاذتهم ومرشديهم. وماذا سيحدث للذين يدرسون أنَّ العلم مجرد سردية أخرى مثل الأديان والأساطير، وأنَّه يخرج من ثورة ليدخل في أخرى بسرعةٍ دون إحراز أي تقدم، وأنَّه تبرير للعنصرية والتمييز الجنسي والإبادة الجماعية؟ وقد شهدُت الإجابة عن ذلك السؤال بنفسي: فبعضهم يقول: «إذا كان هذا هو العلم، فمن الأفضل أن أجني منه بعض المال!» وبعد أربعة أعوام يستخدمون عقولهم في اختراع خوارزميات تُسرع من القرارات التي تتخذها صناديق التحوط عند قراءة المعلومات المالية بدلًا من استخدامها في اكتشاف أدوية جديدة لعلاج مرض الزهايمر أو تقنيات لاحتجاز الكربون وتخزينه.

وتعرقل عملية إدانة العلم تقدم العلم نفسه أيضًا، فإذا أراد أي شخص الآن أن يجري بحثًا علميًّا على البشر، حتى وإن كان مجرد

حوار عن الآراء السياسية أو استبيان عن الأفعال غير المنتظمة، فعليه أن يثبت للجنةٍ ما أنَّه ليس يوسف مينجله (Josef Mengele)*، ورغم أنَّه يجب حماية المشاركين في الأبحاث من الضرر والاستغلال إلَّا أنَّ البيروقراطية المؤسسية للتحقق من ذلك قد تضخمت بصورة تتجاوز مهمتها بكثير، وأشار النُقَّاد إلى أنَّ البيروقراطية أصبحت خطرًا على حرية التعبير وسلاحًا يستخدمه المتعصبون لإسكات من لا يرضون عن آرائهم، وبيروقراطية تُخفض من مستوى البحث العلمي بينما تفشل في حماية المرضى والمشاركين في البحث العلمي بل وتضرهم أحيانًا. قال جوناثان موس (Jonathan Moss)، الباحث الطبي الذي طور فئة جديدة من الأدوية وضُم إلى لجنة مراجعة البحث العلمي في جامعة شيكاغو: «أود منكم أن تُفكروا في ثلاث معجزات طبية نعتبرها من المسلَّمات، وهي: الأشعة السينية وقسطرة القلب والتخدير الكلي، وأزعم أنَّ ثلاثتها لم تكن لترى الشمس لو حاولنا تطويرها في عام 2005» (وذُكِرت الملاحظة نفسها عن الأنسولين وعلاجات الحروق وأدوية أخرى منقذة للحياة). تواجه العلوم الاجتماعية عوائق مماثلة أيضًا، فأي شخص يود الحديث مع إنسان بنيّة الحصول على معرفة قابلة للتعميم فإنّ من الواجب عليه أن يحصل على تصريحٍ مسبقٍ من هذه اللجان، وهو انتهاك أكيد للتعديل الدستوري الأول، ويُحظَر على علماء الأنثروبولوجيا التحدث إلى الفلاحين الأميين الذين لا يستطيعون توقيع استمارة موافقة أو محاورة الأشخاص المحتمل قيامهم بتفجيراتٍ انتحارية لاحتمالية إفشائهم معلومات قد *تعرضهم* للخطر.

ليست عرقلة البحث العلمي مجرد عَرَضٍ ناتج عن الزحف البيروقراطي، وفي الحقيقة، فإنّ العديد من الأكاديميين في مجال يسمى بالأخلاقيات البيولوجية يبررونها، إذ يختلق هؤلاء المنظرون أسبابًا لحظر مشاركة البالغين الموافقين في العلاجات التي تساعدهم وتساعد الآخرين بينما لا تضر أحدًا، مستخدمين كلمات مبهمة مثل «الكرامة» و«القداسة» و«العدالة الاجتماعية»، ويحاولون زرع الخوف من التطورات في أبحاث الطب الحيوي باستخدام تشبيهات بأشياء من المستبعد حدوثها تشمل الأسلحة النووية وأعمال النازيين الوحشية وديستوبيا من الخيال العلمي مثل «**عالم جديد شجاع**» *(Brave New World)* و«**جاتاكا**» *(Gattaca)*، وسيناريوهات مخيفة مثل جيوش من كائنات مستنسخة من هتلر وأشخاص يبيعون أعينهم على متجر إي باي (eBay) أو مخازن من الموتى الأحياء لتوفير أعضاء احتياطية للناس. فضح الفيلسوف الأخلاقي جوليان سافوليسكو (Julian Savulescu) المعايير المنخفضة للمنطق وراء هذه الحجج وأشار إلى أنَّه من الممكن أن تكون هذه العرقلة التي يقوم بها مجال الأخلاقيات البيولوجية غير أخلاقية، فقال: «يعني تأخير تطوير دواء يعالج مرضًا مميتًا يقتل مئة ألف شخص في السنة لمدة سنة أنَّك مسؤول عن موت هؤلاء المئة ألف حتى وإن لم ترَهم مطلقًا».

وفي النهاية، فإنَّ المردود الأعظم لغرس تقدير العلم هو أن يفكر الجميع بطريقة أكثر علمية، ورأينا في الفصل السابق أنَّ البشر مُعرضون للانحيازات والمغالطات المعرفية. رغم أنَّ المعرفة العلمية ليست في حد ذاتها علاجًا للتفكير الذي يتَّسم بالمغالطات المنطقية فيما يتعلق بالهوية المسيَّسة، إلَّا أنَّه ليست جميع القضايا تبدأ على هذا النحو، وسيصبح الجميع أفضل حالًا إذا فكَّروا في هذه القضايا بطريقة أكثر علمية. بإمكان الحركات التي تهدف إلى نشر التطور العلمي، مثل صحافة البيانات والتنبؤ البايزي والطب والسياسة المستندين إلى الأدلة والرصد الفوري للعنف والإيثار الفعَّال، تعزيز رفاهة البشر بصورةٍ هائلة، ولكنَّ تقدير قيمتها يتغلغل في الثقافة ببطءٍ.

سألتُ طبيبي عمَّا إذا كان المكمل الغذائي الذي وصفه لي بسبب ألم ركبتي فعَّالًا حقًّا، فأجاب قائلًا: «يقول بعض مرضاي أنَّه

---

* أو جوزيف مينجل الشهير بملاك الموت هو ضابط طبيب نازي كان يعمل في معسكر الأوشفيتز ويجري تجارب وحشية مميتة على المعتقلين ويختار المعتقلين الذي سيواجهون مصيرهم في أفران الغاز. — المترجمة.

فعالٌ معهم». شارك أحد زملائي في كلية إدارة الأعمال ملاحظته التالية عن عالم الشركات: «لقد لاحظتُ أنَّ العديد من الأذكياء ليس لديهم أي فكرة عن كيفية التفكير بالمنطق لحل مشكلة، ويستنتجون علاقة سببية من مجرد الارتباط ويستخدمون الحكايات الشخصية كدليل يفوق بكثير احتمالية حدوث هذه الأمور». يصف زميل آخر يقيس مقدار الحرب والسلام والأمن البشري بصورةٍ كمّية الأمم المتحدة بأنَّها «منطقة خالية من الأدلة»:

> لا تختلف المناصب العليا في الأمم المتحدة عن برامج العلوم الإنسانية المعادية للعلم، فمعظم من يصل إلى هذه المناصب محامون وخريجو كليات الآداب الحرة، والجزء الوحيد من الأمانة العامة الذي لديه ما يشبه ثقافة البحث لا يتمتَّع سوى بالقليل من النفوذ والتأثير. ولم يفهم عبارات تحفظية بسيطة مثل «في المتوسط ومع ثبات العوامل الأخرى» سوى القليل من كبار المسؤولين في الأمم المتحدة، لذا فإذا كنا نتحدث عن احتمالات نشوب نزاعات، فثِق أنَّ السير أرشيبالد برندرجاست الثالث أو أحد الزعماء البارزين الآخرين سيرفض قائلًا: «الوضع ليس كذلك في بوركينا فاسو».

يعترض من يرفضون التفكير العلمي عليه عادةً بقولهم إنَّ بعض الأشياء لا يمكن قياسها كمّيًّا، لكن مالم يكونوا مستعدين للحديث عن القضايا المحسومة بأنَّها خير أو شر فقط، ونبذ استخدام كلمات مثل *أكثر وأقل وأفضل وأسوأ* (و«*أفعل*» التفضيل)، فإنَّهم يدَّعون ادعاءات كميَّة بطبعها. إذا اعترضوا على إمكانية إضافة الأرقام للقضايا، فهم يقولون: «ثق في حدسي»، ولكنَّ الشيء الذي نعرفه عن الحدس أنَّ الناس (بما فيهم الخبراء) يثقون في حدسهم ثقةً زائدة. صدم بول مييل (Paul Meehl) زملاءه من علماء النفس بتوضيح أنَّ معادلات اكتوارية بسيطة يمكنها التفوق على آراء الخبراء في التنبؤ بتشخيص الأمراض النفسية ومحاولات الانتحار والأداء الوظيفي والدراسي والكذب والجريمة والتشخيص الطبي وبأي ناتج آخر يمكن قياس دقته. ألهمت أعمال مييل اكتشافات تفيرسكي وكانمان فيما يخص الانحيازات المعرفية ودورات تيتلوك للتنبؤ، ومن المعروف أنَّ استنتاجه بتفوق التقدير الإحصائي على الحدسي هو أحد أقوى الاكتشافات في تاريخ علم النفس.

ليست البيانات –ككل الأشياء الجيدة– حلًّا سحريًّا ولا رصاصة فضية أو سحرية وليست حلًّا لجميع المشكلات، فلا تستطيع كل أموال العالم دفع تكاليف التجارب العشوائية الخاضعة للمراقبة اللازمة للإجابة عن كل سؤال يراودنا. وسيبقى القرار دائمًا للبشر في تحديد البيانات التي يودون جمعها وكيفية تحليلها وتفسيرها. تبقى المحاولات الأولى لقياس أي مفهوم قياسًا كمّيًّا بدائية دائمًا، وحتى المحاولات الأفضل تؤدي إلى فهمٍ احتمالي وليس تامًّا، وعلى الرغم من ذلك، حدد علماء الاجتماعيات الكمية معايير لتقييم المقاييس وتطويرها، وليس المعيار الحاسم هو ما إذا كان المقياس مثاليًّا أم لا، وإنَّما كونه أفضل من تقدير الخبير أو الناقد أو الصحفي أو الطبيب أو القاضي أو الخبير المخضرم. واتَّضح أنَّ هذا المعيار منخفض المستوى.

نتيجة لخلوّ ثقافات السياسة والصحافة من أسلوب التفكير العلمي، فإنّ الإجابة عن الأسئلة ذات العواقب الهائلة للحياة والموت تكون بطرقٍ نعرف أنها خاطئة مثل الحكايات الشخصية والعناوين الرئيسية والخُطب الرنانة وما يسميه المهندسون (رأي الشخص الأعلى أجرًا).

لقد رأينا بالفعل بعض التصورات الخاطئة الخطيرة الناتجة عن عدم استخدام الإحصاء، حيث ظن الناس أنَّ الجريمة والحرب تخرجان عن نطاق السيطرة، مع أنَّ جرائم القتل ووفيات المعارك في انخفاضٍ لا ارتفاع، ويظنون أنَّ الإرهاب الإسلامي يشكل خطرًا كبيرًا على حياة

الناس رغم أنَّ خطره أقل من خطر الدبابير والنحل، ويظنون أنَّ «داعش» تهدد وجود الولايات المتحدة وبقائها رغم أنَّه يندر أن تحقق الحركات الإرهابية أهدافها الاستراتيجية.

يمكن أن تؤدي عقلية رهاب البيانات («الوضع ليس كذلك في بوركينا فاسو») إلى مأساة حقيقية، يتذكر بالطبع العديد من المعلقين السياسيين فشل قوات حفظ السلام (مثلما حدث في البوسنة عام 1995) ويستنتجون بالتالي أنَّ هذه القوات إهدار للمال والموارد البشرية، ولكن عندما تنجح قوات حفظ السلام، فلا يحدث شيء جدير بالتصوير والنشر، ولا يصل من ذلك شيء إلى الأخبار. تناولت عالمة السياسة فيرجينيا بيدج فورتنا (Virginia Page Fortna) في كتابها «**هل ينجح حفظ السلام؟**» (*Does Peacekeeping Work?)* السؤال الذي يطرحه عنوان كتابها بطريقة علمية بدلًا من استخدام عناوين صحفية بارزة وكانت الإجابة: «نعم واضحة ومدويّة» في تحدٍ لقانون بيتريدج. وتوصلت دراسات أخرى إلى الاستنتاج نفسه أيضًا، وقد تمثِّل المعرفة بنتائج هذه التحليلات الفارق بين مساعدة مؤسسة دولية للحفاظ على السلام في دولةٍ ما وترك الحرب المدنية تتفاقم فيها.

هل تأوي المناطق متعددة الأعراق «كراهيات قديمة» لا يمكن إخمادها إلا بتقسيم هذه المناطق إلى مقاطعاتٍ إثنية وإخراج الأقليات منها؟ نسمع عن الأعراق المتجاورة في الأخبار عندما تتقاتل، ولكن ماذا عن الأحياء المتجاورة من الأعراق المختلفة التي لا تصلنا أخبارها أبدًا لأنَّها تعيش في سلامٍ ممل؟ وما هي نسبة الأعراق المتجاورة التي تتعايش سويًّا دون عنف؟ الإجابة هي: معظمهم، 95% من الأعراق المتجاورة في الاتحاد السوفيتي سابقًا و99% من الأعراق المتجاورة في أفريقيا.

هل تنجح حملات المقاومة السلمية فعلًا؟ يعتقد كثيرٌ من الناس أنَّ غاندي ومارتن لوثر كينج كانا محظوظين، وأنَّ حركتيهما أسرت قلوب الديمقراطيات المستنيرة في الوقت المناسب، أما المظلومون في أيِّ مكانٍ آخر فيحتاجون إلى العنف للخروج من تحت سيطرة الدكتاتوريات. جمعت عالمتا السياسة إريكا شينويث (Erica Chenoweth) وماريا ستيفان (Maria Stephan) بيانات حركات المقاومة السياسية في جميع أنحاء العالم بين عامي 1900 و2006 واكتشفتا أنَّ *ثلاثة أرباع* حركات المقاومة السلمية نجحت مقارنة بثُلث الحركات التي استخدمت العنف في المقاومة فقط. كان غاندي وكينج على حق ولكنَّك لم تكُن لتعرف ذلك قط دون وجود بيانات.

على الرغم من أنَّ الانضمام إلى جماعة متمردة تستخدم العنف، أو جماعة إرهابية، ربما يكون بسبب الرغبة في تكوين رابطة قوية بين الذكور أكثر منه بسبب نظرية الحرب العادلة، إلَّا أنَّ أغلب المقاتلين يعتقدون أنهم إذا أرادوا خلق عالم أفضل فليس لديهم خيار سوى قتل بعض الناس. ماذا سيحدث إذا علم الجميع أنَّ استخدام العنف ليس غير أخلاقي فحسب وإنَّما غير فعالٍ أيضًا؟ لا يعني ذلك أنَّني أعتقد أنَّ علينا أن نقذف كُتُب شينويث وستيفان جوًا على مناطق النزاع، ولكنَّ قادة الجماعات المتطرفة يكونون عادةً ذوي تعليم عالٍ (ويستخلصون جنونهم من كتابات أكاديمية قديمة) وحتى منفِّذو العمليات عادةً ما يلتحقون بالجامعة ويستبطنون التصور التقليدي للحاجة إلى العنف الثوري. ما الذي سيحدث على المدى البعيد إذا كرَّست المقررات الدراسية الجامعية اهتمامًا أقل لكتابات كارل ماركس وفرانز فانون واهتمامًا أكثر للتحليلات الكمية للعنف السياسي؟

ربما يكون أحد الإسهامات العظيمة المحتملة للعلم الحديث هو دمجٌ أعمق مع شريكه الأكاديمي: العلوم الإنسانية، فالعلوم الإنسانية

واقعة في ورطة بكل المقاييس، فالبرامج الجامعية في انكماشٍ، والجيل القادم من الباحثين إما عاطل عن العمل أو يعاني من بطالة جزئية، والروح المعنوية في انخفاض، وتبتعد أعداد كبيرة من الطلاب عن الجامعة.

ليس من المفترض ألَّا يكترث أي شخص عاقل بعدم استثمار مجتمعنا في العلوم الإنسانية، فمجتمعٌ دون بحثٍ أكاديمي تاريخي يشبه شخصًا دون ذاكرة، واهمًا ومشوشًا ويسهل استغلاله. تنبع الفلسفة من إدراك أنَّ الوضوح والمنطق لا يسهل اكتسابهما وأنَّنا نكون أفضل عندما نصقل تفكيرنا ونعمقه، والفنون إحدى الأمور التي تجعل الحياة جديرة بأن تُعاش وتُثري التجربة الإنسانية بالجمال والحكمة، والنقد نفسه فنٌ يزيد من تقديرنا للأعمال العظيمة واستمتاعنا بها. تُحصَّل المعرفة في هذه المجالات بشق الأنفس وتحتاج إلى إثراء وإطلاع مستمر مع تغير الزمن.

تشير العلل التي أصابت العلوم الإنسانية بصورة مباشرة إلى الاتجاهات المعادية للفكر في ثقافتنا وإلى الاستغلال التجاري للجامعات، ولكنَّ التقييم الصادق سيدفعنا إلى الاعتراف بأنَّ بعض هذا الضرر ناتج عن الأذى الذاتي. ما زال على العلوم الإنسانية أن تتعافى من كارثة ما بعد الحداثة بظلاميتها العنيدة ونسبيتها التي تنقض نفسها بنفسها ولباقتها السياسية الخانقة. كثيرٌ من أبرز رموزها مثل نيتشه (Nietzsche) وهايدجر (Heidegger) وفوكو (Foucault) ولاكان (Lacan) ودريدا (Derrida) والنقاد المنظرين هم أشخاص متشائمون فيما يخص الثقافة، وكئيبون ويقولون إنَّ الحداثة بغيضة وكل التصريحات متناقضة، فالأعمال الفنية أدوات قمعٍ، والديمقراطية الليبرالية مثل الفاشية بالضبط، والحضارة الغربية تتدهور باستمرار ومصيرها الفشل.

ليس من المفاجئ إذًا أن تواجه العلوم الإنسانية صعوبة في تحديد خطة تقدمية لنفسها في ظل هذه النظرة المبتهجة الساذجة للعالم. وقد شكا لي العديد من رؤساء الجامعات وعمدائها من أنَّ العلماء عندما يأتون إلى مكاتبهم، فإنهم يأتون لأنهم اكتشفوا فرصة بحثية جديدة ويطالبون بالموارد اللازمة للسعي وراءها، أما عندما يأتي إليهم باحث في العلوم الإنسانية، فيأتي لينشد احترام طريقة سير الأمور منذ قديم الأزل. تستحق طريقة سير الأمور الاحترام بالفعل، ولا بديل عن القراءة المتأنية والوصف المكثَّف والانغماس العميق الذي يُطبقه الباحثون الخبراء في الأعمال الفردية، ولكن هل لا بد أن تكون هذه هي الطرق الوحيدة للفهم؟

يُقدم ارتباط العلوم الإنسانية بالعلم إمكانيات عديدة لرؤية جديدة، فالفن والثقافة والمجتمع من نواتج العقل البشري، تنشأ في ملكاتنا الإدراكية وفكرنا وعواطفنا وتتراكم وتنتشر من خلال ديناميات الانتشار التي يؤثر بها شخصٌ ما في الآخرين. ألا ينبغي أن يدفعنا الفضول لفهم هذه الروابط؟ سيفوز كلا الطرفين، وستتمتع العلوم الإنسانية بمزيد من عُمق الفهم الذي يتميز به العلم وبخطة تطلعية تستطيع جذب المواهب الشابة الطموحة (فضلًا عن أنها ستعجب العمداء والجهات المانحة). ويمكن للعلوم أن تعارض فرضياتها بالتجارب الطبيعية والظواهر التي تتسم بالصلاحية البيئية (الإيكولوجية) التي أسهب في وصفها باحثو العلوم الإنسانية كثيرًا.

هذا الارتباط أمرٌ واقع في بعض المجالات، إذ تطور علم الآثار من كونه فرعًا من تاريخ الفن، إلى علم قائم على التكنولوجيا الفائقة، وتتداخل فلسفة العقل مع المنطق الرياضي وعلم الكمبيوتر والعلوم المعرفية وعلم الأعصاب، ويجمع علم اللغويات بين الدراسة اللغوية لتاريخ الكلمات والتراكيب النحوية من جانب والدراسات المعملية للكلام والنماذج الرياضية لقواعد النحو والتحليلات الحاسوبية لمدونات هائلة من الكتابات والمحادثات من جانبٍ آخر.

هناك علاقة طبيعية وثيقة أيضًا بين النظرية السياسية وعلوم العقل، يقول جيمس ماديسون: «وما الحكومة إلَّا أعظم التأملات في الطبيعة البشرية». ويعيد علماء الاجتماع والسياسة والمعرفة فحص الروابط بين السياسة والطبيعة الإنسانية، ونوقشت هذه الروابط باهتمام

شديد في فترة ماديسون ولكنَّ النقاش اختفى في فترةٍ تم التعامل فيها مع البشر على أنَّهم صفحات بيضاء أو كائنات فاعلة عقلانية. نعرف الآن أنَّ البشر كائنات فاعلة أخلاقية تسترشد بحدسها عن السلطة والقبيلة والنقاء، وتلتزم باعتقادات مقدسة تُعبر عن هويتها، وتحركها نزعات انتقامية وتصالحية. وبدأنا للتو في فهم لماذا تطورت هذه النزعات، وكيف تعمل في الدماغ، وكيف تختلف بين الأفراد والثقافات والثقافات الفرعية وما الظروف التي تطلق هذه النزعات أو تُخمدها.

تلوح فرص مشابهة في قطاعات أخرى من العلوم الإنسانية، إذ يمكن أن تستفيد الفنون البصرية بالانفجار المعرفي في علم الرؤية بما فيه من إدراك اللون والشكل والملمس والإضاءة والجماليات التطورية في الوجوه والمناظر الطبيعية والأشكال الهندسية، وهناك فرص كثيرة للنقاش بين وأمام الباحثين في الموسيقى والعلماء الذين يدرسون إدراك الكلام وبنية اللغة وتحليل الدماغ للعالم السمعي.

لا أعرف من أين أبدأ فيما يخص الدراسة الأدبية. كتب جون درايدن أنّ العمل الروائي: «صورة حية وصادقة للطبيعة الإنسانية تمثل مشاعرها ومزاجها، وتعبر عن تغير المصائر الذي تخضع له من أجل إدخال البهجة على البشرية وإرشادها». ويمكن لعلم النفس المعرفي أن يُسلط الضوء على الكيفية التي يعيش فيها القرّاء بوعيهم تجربة المؤلف وشخصيات الرواية. ويمكن أن يُحدِّث علم الوراثة السلوكي النظريات الشعبية للتأثير الأبوي باكتشافاته الخاصة بتأثير الجينات والأقران والصدفة، ذات التأثيرات العميقة في تفسير السِيَر الشخصية والمذكرات، وهو مسعى آخر يمكن أن يستفيد كثيرًا من علم النفس المعرفي للذاكرة وعلم النفس الاجتماعي لتقديم الذات. كما يستطيع علماء النفس التطوريون التفرقة بين الهواجس العالمية والهواجس التي تغالي فيها ثقافة معينة، ويمكنهم تحديد الصراعات الفطرية والمصالح المشتركة داخل الأسر وبين الأزواج والأصدقاء والمتنافسين والتي تُحرك الحبكة. يمكن أن تساعد كل هذه الأفكار على إضافة عمق جديد لملاحظة درايدن عن الأدب الخيالي والطبيعة البشرية.

ومع أنّ من الأفضل فهم العديد من القضايا التي تطرحها العلوم الإنسانية بالنقد السردي التقليدي، إلا أن بعض هذه القضايا يُثير أسئلة تجريبية يمكن الإجابة عنها بالبيانات. افتتح تطبيق علم البيانات على الكتب والدوريات والمراسلات والعلامات الموسيقية «علومًا إنسانية رقمية» جديدة ومتوسعة. ولا يحد فرص النظريات والاكتشافات سوى الخيال، وتتضمن هذه الفرص منشأ الأفكار وانتشارها، وشبكات التأثير الفكري والفني، ومعالم الذاكرة التاريخية، وظهور واختفاء المواضيع في الأدب، والحبكات والنماذج الأولية العالمية والمحددة بثقافة ما، وأنماط الرقابة والمحظورات غير الرسمية.

لا يمكن تحقيق وحدة المعرفة إلا إذا سرت المعرفة في جميع الاتجاهات. كان بعض الباحثين الذين نفروا من تجاوزات العلماء في تفسير الفن محقين في أنَّ هذه التفسيرات ضحلة جدًا وساذجة بمعاييرهم، وهو سببٌ أدعى كي يمدوا أيديهم ويجمعوا بين خبرتهم في الأعمال الفردية وأنواع الفن، والرؤية العلمية للمشاعر الإنسانية والاستجابات الجمالية. والأفضل من ذلك، أن تُدرِّب الجامعات جيلًا جديدًا من الباحثين الذين يجيدون كلًّا من ثقافتي العلم والأدب.

على الرغم من أنَّ كثيرًا من باحثي العلوم الإنسانية يميلون لتقبل بعض الأفكار من العلم، إلَّا أنَّ العديد من المنتمين إلى «الثقافة الثانية» يعلنون أنَّهم غير مهتمين بمثل هذه الأفكار. كتب آدم جوبنيك مراجعة في جريدة **نيويوركر** *(New Yorker)* يعارض فيها كتابًا للباحث الأدبي جوناثان جوتشل (Jonathan Gottschall) عن تطور غريزة السرد وقال: «ليس السؤال الهام فيما يتعلق بالقصص هو ما الذي يجعل حب الناس لها عالميًّا، وإنَّما ما الفرق الهائل بين القصص الجيدة والقصص المملة؟..فالاختلافات البسيطة "السطحية" في القصص –مثلما في أزياء النساء– هي لب الموضوع كله في الحقيقة». ولكن هل يجب أن يكون التذوق الأدبي هو محور

تقدير الأدب؟ قد يحرك الفضول أحد مُحِبي البحث لمعرفة الطرق المتكررة التي تعاملت بها عقول مختلفة الثقافات والأزمنة مع ألغاز الوجود الإنساني.

أملى ويسلتير شروطًا تعجيزية لما لا يمكن أن تفعله الدراسة البحثية في العلوم الإنسانية مثل إحراز التقدم، فقال: «قضايا الفلسفة القديمة المثيرة للاستياء..لم تنتهِ، ولا تخضع الأخطاء للتصحيح والنبذ». لكن في الحقيقة، إن سألت فلاسفة الأخلاق اليوم فسيقول معظمهم إنَّ الحجج القديمة التي تُدافع عن العبودية بوصفها مؤسسة طبيعية هي حُجج خاطئة خضعت للتصحيح وتعرضت للنبذ، وقد يضيف فلاسفة الإبستمولوجيا أنَّ مجالهم تطور من الزمن الذي كان ديكارت يقول فيه بأنَّ الإدراك الإنساني صادق لأنَّ الله لا يمكن أن يخدعنا. ويقول ويسلتير أيضًا إنَّ هناك «اختلافًا مصيريًّا بين دراسة العالم الطبيعي ودراسة عالم الإنسان» وأي محاولة «لتعدي هذه الحدود» بين العالمين سيجعل العلوم الإنسانية «خادمةً للعلم» لأنَّ «التفسير العلمي سيكشف التماثل الخفي» و«سيبتلع جميع العوالم في عالمٍ واحد، عالمه هو». إلى أين يقودنا جنون الارتياب هذا وهذه النزعة الإقليمية؟ دعا ويسلتير في مقال هام له في *New York Times Book Review)* إلى رؤية عالمية تمثل ما قبل الداروينية «عدم عزو الاختلاف الإنساني لأيٍّ من جوانبنا الحيوانية» وإلى رؤية «مركزية البشرية بالنسبة للعالم» وهي بالتأكيد رؤية سابقة على الكوبرنيكية.

لنأمل ألَّا يسير الفنانون والباحثون خلف هؤلاء الناس الذين نصَّبوا أنفسهم مدافعين عنهم إلى هذه الهاوية. ولا يمكننا وقف سعينا وراء حل الأزمة الإنسانية عند القرن السابق أو ما قبله، فما بالك بالعصور الوسطى! وليس ثمّة شكّ في أنّ هناك الكثير لنضيفه إلى نظرياتنا السياسية والثقافية والأخلاقية من فهمنا الأفضل للعالم ولبنية نوعنا.

أشاد توماس بين (Thomas Paine) في عام 1778 بفضائل العلم العالمية قائلًا:

> «افتتح العلم –الذي لا يتبع أي دولة، ولكنَّه يساعد ويرعى الكل– معبدًا يمكن أن يلتقي فيه الجميع، وتأثيره على العقل –الذي يشبه سطوع الشمس على الأرض المتجمدة من البرودة– كان يُعِدَّه منذ زمنٍ طويل للمزيد من التثقيف والتطوير، ولا ينظر الفيلسوف إلى زميله الفيلسوف من دولة أخرى على أنَّه عدو، بل إنه يتخذ مقعده في معبد العلم، ولا يلتفت إلى من يجاوره».

وينطبق ما كتبه توماس بين عن المشهد المادي الملموس على المشهد المعرفي المعنوي أيضًا، وعلى هذا النحو وغيره، فإنَّ روح العلم هي روح التنوير.

الفصل الثالث والعشرون:
النزعة الإنسانية

العلم وحده لا يكفي لإحراز التقدم، «فكل ما لا تمنعه قوانين الطبيعة قابلٌ للتحقيق في ظلِّ وجود المعرفة الصحيحة» ولكنَّ هذه هي المشكلة، «فكل شيء» يعني إمكانية حدوث *كل شيء*: مثل اللقاحات والأسلحة البيولوجية والفيديوهات المتاحة بمجرد الطلب و«الأخ الأكبر» على شاشات التليفزيون الضخمة. هناك شيءٌ ما بجانب العلم ضمِن استخدام اللقاحات في القضاء على الأمراض بينما حظر استخدام الأسلحة البيولوجية، ولهذا قدمتُ مقولة سبينوزا (Spinoza) على مقولة ديفيد دويتش (David Deutsch): «إنَّ الذين يقودهم العقل..لا يرغبون في شيءٍ لأنفسهم إلَّا ويرغبونه أيضًا لبقية الناس». ويتطلب التقدم نشر المعرفة حتى تزدهر البشرية كلها بنفس الطريقة التي يسعى بها كل واحدٍ منّا للازدهار.

ربما يسمى هدف تحقيق الحد الأقصى من ازدهار البشرية –أي الحياة والصحة والسعادة والحرية والمعرفة والحب والتجربة الثرية– بالنزعة الإنسانية (بغض النظر عن جذر كلمة *الإنسانية*، فهي لا تُهمل ازدهار الحيوانات، ولكنَّ هذا الكتاب يُركز على رفاهة البشر). فالإنسانية هي التي تُحدد ما الذي علينا محاولة تحقيقه بمعرفتنا، وهي تزودنا *بالمفروض* الذي يُكمِّل ما هو *قائم بالفعل*، وتميِّز بين التقدم الحقيقي والبراعة الخالصة.

هناك *حركة* متنامية تسمى بالنزعة الإنسانية، تروج لأسُس غير غيبية لمعنى الحياة والأخلاق، أي فعل الخير دون وجود إله، وأُعلنت أهدافها في ثلاثة بيانات كان أولها في عام 1933، ويؤكد *البيان الثالث للنزعة الإنسانية* الذي أُعلن عام 2003 على:

> «**تُستمد معرفتنا عن العالم من الملاحظة والتجربة والتحليل العقلاني**. يرى أصحاب النزعة الإنسانية أنَّ العلم هو الطريقة المثلى للحصول على هذه المعرفة وكذلك لحل المشاكل وتطوير تقنيات مفيدة. وندرك أيضًا قيمة الانطلاقات الجديدة في الفكر والفنون والتجارب الداخلية، ويخضع كلٌّ من هذه الأمور لتحليل أنماط الذكاء النقدية.
>
> **الإنسان جزء لا يتجزأ من الطبيعة، ونتاج للتطور غير الموجه**..نرى أن هذه هي حياتنا الوحيدة ونكتفي بها، ونميز بين ماهية الأشياء وما نتمنى أو نتخيل أن تكون. نُرحب بتحديات المستقبل وننجذب إلى المجهول ولا نهابه.
>
> **تنبع القيم الأخلاقية من احتياج الإنسان ومصلحته كما ثبت بالتجربة**، يستند أصحاب النزعة الإنسانية في قيمهم إلى الرفاهة البشرية التي تصوغها ظروف البشرية ومصالحها واهتماماتها وتمتد إلى النظام البيئي العالمي وتتجاوزه..
>
> **يتأتى الإنجاز في الحياة من مشاركة الفرد في خدمة المُثل الإنسانية**، فنحن..نُفعم حياتنا بالحيوية عبرَ الإحساس بأنَّ لوجودنا هدفًا، وباكتشاف الجمال والدهشة في مُتع الوجود الإنساني وجماله وتحدياته ومآسيه وحتى في حتمية الموت ونهائيته..
>
> **البشر اجتماعيون بطبعهم ويجدون معنى في علاقاتهم ببعض**. يصبو الإنسانيون إلى عالمٍ مليء بالاهتمام والحرص المتبادل وخالٍ من القسوة وتبعاتها، عالم تُحل فيه المشاكل بتعاونٍ دون اللجوء إلى العنف..
>
> **يحقق عمل الفرد لما فيه خيرُ المجتمع الحدَّ الأقصى من السعادة** له. عملت الثقافات التقدمية على تحرير البشرية

من وحشية البقاء وعلى تقليل المعاناة وتحسين المجتمع وإنشاء مجتمع عالمي..»

سيكون أعضاء المؤسسات الإنسانية هم أول من يُصر على أنَّ مبادئ الإنسانية لا تنتمي إلى أي طائفة، مثل الرجل المحترم البرجوازي في مسرحية موليير (Molière) الذي سرَّته معرفة أنَّه كان يتكلم نثرًا طوال عمره، فكثيرٌ من الناس إنسانيون دون أن يدروا. يمكن العثور على بعض المبادئ الإنسانية في معتقدات ترجع إلى العصر المحوري (الفترة من القرن الثامن إلى القرن الثالث قبل الميلاد). وبرزت هذه المبادئ خلال عصر العقل والتنوير وأدَّت إلى بيان الحقوق الإنجليزي والفرنسي والأمريكي، ونشطت مرة أخرى بعد الحرب العالمية الثانية وألهمت إنشاء الأمم المتحدة ووضع الإعلان العالمي لحقوق الإنسان وإنشاء مؤسسات تعاون عالمي أخرى. مع أنَّ الإنسانية لا تعتمد على الآلهة أو الجن أو الأرواح كأساس للأخلاق والمعنى، إلَّا أنَّها لا تتعارض بأي حال من الأحوال مع المؤسسات الدينية. فقد استندت بعض الديانات الشرقية مثل الكونفوشية وبعض مذاهب البوذية في أخلاقها على رفاهة البشرية بدلًا من الأوامر الإلهية، وأصبحت العديد من الطوائف المسيحية واليهودية إنسانية النزعة، مخففين من إرثهم من المعتقدات الغيبية والسلطة الكنسية لصالح المنطق والازدهار العالمي للبشر، ومن بين هؤلاء الكويكريون (Quakers) والموحدون (Unitarians) والأساقفة الليبراليون (liberal Episcopalians) واللوثريون الشماليون (Nordic Lutherans) والفروع الإصلاحية والتفكيكية والإنسانية من اليهودية.

قد تبدو الإنسانية عادية ومتفقًا عليها، فمن يمكنه الوقوف ضد ازدهار البشر؟ لكنَّها في الحقيقة التزام أخلاقي مُميز لا يُفكر فيه العقل البشري بالفطرة، وكما سنرى، فإنها تلقى معارضة شديدة من العديد من الديانات والأحزاب السياسية، وما يثير العجب أنها تلقى معارضة أيضًا من فنانين وأكاديميين ومثقفين بارزين. إذا أرادت الإنسانية أن تحافظ على مكانتها في عقول الناس –مثل مبادئ التنوير الأخرى– فلا بد أن يكون شرحها والدفاع عنها بلغة العصر الحالي وأفكاره.

يمثِّل رأي سبينوزا أحد المبادئ التي لجأت إلى *عدم التحيز* ليشكِّل أساسًا عِلمانيًّا للأخلاق، وذلك بإدراك أنَّه لا يوجد ما يميز الضمير «*أنا*» حتى أُقدّم مصالحي على مصالح الآخرين، فإذا كنت لا أحب أن أتعرض للاغتصاب أو التشويه أو الجوع أو القتل، فلا يمكنني أن أغتصبك أو أشوهك أو أجوِّعك أو أقتلك. يشكِّل عدم التحيز أساس محاولات عدة لتشييد الأخلاق على أُسس عقلانية: وجهة نظر سبينوزا للأبدية والعقد الاجتماعي لهوبز (Hobbes) والضرورة الحتمية لكانط (Kant) وحجاب الجهل لرولز (Rawls) ونظرة ناجل (Thomas Nagel) من اللا مكان والحقيقة البديهية للوك (Locke) وجيفرسون (Jefferson) بأن جميع البشر سواسية، وبالطبع القاعدة الذهبية وصيغها المختلفة التي أُعيد اكتشافها في مئات التقاليد الأخلاقية (القاعدة الفضية هي «لا تُعامل الآخرين بما لا تحب أن يعاملوك» والقاعدة البلاتينية هي «عامل الناس كما يحبون أن يُعاملوا»، والمقصود بهذه القواعد تلافي المازوخيين والمفجرين الانتحاريين واختلاف الأذواق ونقاط الضعف الأخرى للقاعدة الذهبية).

الحجة وراء عدم التحيز غير تامّة بالطبع، فإذا كان هناك شخص قاسٍ وأناني ومعتل اجتماعيًا ومصاب بجنون العظمة ويمكنه استغلال الجميع دون أن يُعاقب، فلن تقنعه أي حُجة بأنه وقع في مغالطة منطقية، إضافة إلى أنَّ مضمون حُجج عدم التحيز قليلٌ أيضًا، ففضلًا عن النصيحة العامة باحترام رغبات الناس، لا تخبرنا الحجج سوى القليل عن ماهية هذه الرغبات، مثل الرغبات والاحتياجات والتجارب التي تميِّز ازدهار البشر. وهذه هي المطالب التي ينبغي ألا تتاح بصورة حيادية فقط وإنما ينبغي أن نسعى إليها بنشاط ونوسعها

ليحصل عليها أكبر عدد ممكن من الناس. تذكّر أن مارثا نوسباوم حاولت سدَّ هذه الفجوة بوضع قائمة من «القدرات الأساسية» التي يحق للناس الحصول عليها مثل طول العمر والصحة والأمان والثقافة والإلمام بالقراءة والكتابة والمعرفة وحرية التعبير والمرح والتمتع بالطبيعة والروابط العاطفية والاجتماعية، لكنَّ هذه مجرد قائمة، وتفتح المجال للاعتراض على من وضعت هذه القائمة بأنها تُعدد الأشياء التي تفضلها. هل يمكننا أن نؤسس الأخلاق الإنسانية على أرضية أعمق، أرضية تستبعد العقلانيين المعتلّين اجتماعيًا ويمكنها تبرير الاحتياجات الإنسانية التي يجب أن نحترمها؟ أعتقد أننا نستطيع.

طبقًا لإعلان الاستقلال، فالحق في الحياة والحرية والسعي وراء السعادة هي حقوق «بديهية». وهذا غير كافٍ، لأنَّ ما هو «بديهي» لا يكون بديهيًّا دائمًا، ولكنَّه يعكس حدسًا هامًا، فستكون أسس الأخلاق منحرفة إذا كان علينا تبرير الحياة نفسها أثناء فحص هذه الأُسس، فكأنه من الممكن السؤال عمَّا إذا كان يتسنى للشخص استكمال ما يقوله أم ستُطلق عليه النار. وفعل الفحص نفسه لأي شيء يفترض مُسبقًا وجود من سيفحص، إذا كانت حجة ناجل الترانسندنتالية بخصوص عدم قابلية المنطق للتفاوض لها مسوغاتها –وهو أن النظر في صلاحية المنطق يفترض مُسبقًا صلاحية المنطق– إذًا فهي تفترض بالطبع وجود المناطقة.

يفتح هذا المجال أمام تعميق تبريراتنا الإنسانية للأخلاق بفكرتين هامتين من العلم وهما: الإنتروبيا والتطور. تصورت التحليلات التقليدية للعقد الاجتماعي تحاورًا بين أرواح بلا جسد، لنُثري هذا النموذج المثالي بالمقدمة المنطقية البسيطة التي تقول إنَّ هذه الأرواح المفكرة موجودة في العالم المادي، ويترتب على ذلك الكثير.

فلا بد أنَّ هذه الكائنات المتجسِّدة تحدّت قوانين المادة بالتحول إلى عُضو مُفكر عن طريق الانتخاب الطبيعي، وهو العملية المادية الوحيدة القادرة على إنتاج تصميم مُعقد قادر على التكيف، ولا بد أنها تحدّت قوانين الإنتروبيا فترة تكفي وجودها حتى إجراء النقاش واستمرارها فيه. يعني هذا أنها استمدت طاقة من البيئة، وبقيت في حيّز صغير من الظروف الملائمة لسلامتها الجسدية، وأنها تصدَّت لهجمات الكائنات الحية ومخاطر الطبيعة. وبما أنها نتيجة للانتخاب الطبيعي والجنسي، فلا بد أنها سليلة فصيلة متأصلة الجذور من المتناسخين الذين وجد كل منهم زوجةً وأنجب ذُرية، وبما أن الذكاء ليس خوارزمية غامضة وإنما يُنمَّى بالمعرفة، فيجب أن يكون لديهم دافع لاكتساب معرفة عن العالم واهتمام بأنماطه غير العشوائية. وإذا كانوا يتبادلون الأفكار مع كائنات عقلانية أخرى، فلا بد من توافر شروط الحوار، أي لا بد من كونهم كائنات اجتماعية تخاطر بالأمان والوقت للتفاعل مع بعضهم.

ليست المتطلبات المادية التي تتيح للكائنات العقلانية الوجود في العالم المادي مجرد مواصفات تجريدية وإنما موجودة في العقل على شكل رغبات واحتياجات وعواطف وآلام ولذَّات. وفي البيئة التي نشأ فيها نوعنا، أتاحت التجارب الممتعة لأسلافنا البقاءَ والتكاثر، وأدّت التجارب المؤلمة إلى طُرقٍ مسدودة، ويعني هذا أن الطعام والراحة والفضول والجمال والإثارة والحب والجنس والصداقة ليست مجرد لهو أو لذَّات سطحية، وإنما حلقات في سلسلة الأسباب التي أتاحت تكوين عقولنا. وخلافًا للأنظمة الزاهدة والمتزمتة، فالأخلاقيات الإنسانية لا تُشكك في القيمة الجوهرية للأشخاص الذين يسعون وراء الراحة أو المتعة أو تحقيق الذات، فلو أنّ الناس لم يسعوا وراء هذه الأمور، لما كان هنالك بشرٌ. ويضمن التطور في الوقت نفسه أن تعمل هذه الرغبات على أهداف متقاطعة مع بعضها ومع رغبات الآخرين، وما الحكمة إلا موازنة الرغبات المتصارعة داخلنا، أما ما نسميه الأخلاق والسياسة فهما موازنة رغبات الناس المتصارعة.

كما ذكرت في الفصل الثاني (بعد ملاحظة لجون توبي)، فقانون الإنتروبيا يعرضنا لتهديد دائم آخر، لأنّ من الواجب توافر العديد من العوامل على نحوٍ صحيح كي يعمل الجسد (وبالتالي العقل)، في حين يمكن لشيء واحد خاطئ فقط أن يُتلفه تمامًا مثل نزف بعض

الدماء أو ضيق في التنفس أو عطل في أيٍ من أجزائه متناهية الصغر، ويمكن لفعلٍ عدواني من شخص ما القضاء على شخصٍ آخر. ونحن معرضون جميعًا للعنف على نحوٍ خطير، ولكن يمكننا في نفس الوقت التمتع بمنافع عظيمة إذا وافقنا على الإحجام عن العنف. تظل معضلة المسالمين (كيف يمكن لأعضاء المجتمع أن يتخلوا عن الرغبة في استغلال الآخرين في مُقابل عدم التعرض للاستغلال) مُعلقة فوق رقاب البشرية كسيف ديموقليس، ممَّا يجعل السلام والأمان مهمة دائمة للأخلاقيات الإنسانية. ويوضح الانخفاض التاريخي في معدلات العنف أنه مُشكلة قابلة للحل.

تُوضح هشاشتنا أمام العنف لِمَ لا يمكن أن يبقى القساة الأنانيون المعتلون اجتماعيًا والمصابون بجنون العظمة منفصلين عن ساحة الخطاب الأخلاقي (ومطالبها بعدم التحيز وعدم استخدام العنف) إلى الأبد، لأنه إذا رفض الالتزام بالأخلاق، فسيصبح خطرًا أهوج في أعين الجميع مثله كمثل جرثومة أو حريق هائل أو مستذئب هائج، خطرًا ينبغي إزالته بالقوة الغاشمة دون سؤال (كما يقول هوبز: «لا تعاهُد مع الوحوش»). وما دام يظن أنه منيع إلى الأبد، فربما يخاطر برفض الالتزام بالأخلاق، ولكنَّ قانون الإنتروبيا يستبعد أن يكون منيعًا، فقد يظلم الجميع لفترةٍ، ولكنَّ قوة أعدائه مجتمعين تستطيع هزيمته في النهاية. تُشجع استحالة وجود حصانة أبدية للجميع، حتى المعتلين اجتماعيًا، على العودة إلى ساحة الأخلاق، فكما يقول عالم النفس بيتر ديشيولي (Peter DeScioli)، عندما تواجه خصمًا منعزلًا، فإنّ الفأس تُصبح سلاحك المفضل، ولكن عندما تواجه خصمًا في وجود حشد من الناس، فإنّ الجدال هو ما يصبح سلاحك المفضل، ومن يخوض جدالًا قد يُهزم بحُجة أفضل. وفي النهاية، يشمل عالم الأخلاق كل من يستطيع التفكير.

تساعد نظرية التطور على تفسير أساس آخر للأخلاق العلمانية وهو قُدرتنا على التعاطف (أو كما أشار إليها كُتّاب التنوير بطرق مختلفة مثل الإحسان أو الشفقة أو التخيل أو المواساة)، وحتى لو استنتج شخص عقلاني أنه من مصلحة الجميع أن نلتزم جميعًا بالأخلاق، فمن الصعب تخيله يُخاطر بنفسه للتضحية في سبيل شخص آخر إلا إذا دفعه شيءٌ ما لذلك. وليس بالضرورة أن يأتي هذا الشيء من ملاك يقف على أكتافنا، فعلم النفس التطوري يُوضح إمكانية نبوعه من العواطف التي تجعلنا كائنات اجتماعية، ويرجع التعاطف بين الأقارب إلى تداخل التركيب الوراثي الذي يربطنا جميعًا في شبكة الحياة الكبيرة. أمَّا التعاطف بين بقية الناس فسببه عدم تحيز الطبيعة، فقد يجد كلٌّ منا نفسه في مأزق يُمكن لقليلٍ من الرفق من شخصٍ آخر أن يُخففه عنه بدرجة كبيرة، لذا يمكننا أنا نحيا حياةً أفضل إذا ساعد كلٌّ منا الآخر (دون وجود من يأخذ دون أن يُعطي) بدلًا من أن يعيش كلٌّ منا لنفسه فقط. ولذلك تنتخب الطبيعة المشاعر الأخلاقية مثل: التعاطف والثقة والامتنان والإحساس بالذنب والإحساس بالخزي والتسامح والغضب الناشئ عن دوافع أخلاقية، ومع وجود التعاطف في تركيبتنا النفسية، يمكن توسيع نطاقه بالمنطق والتجربة ليشمل جميع الكائنات الحساسة.

هناك اعتراض فلسفي آخر على النزعة الإنسانية بأنَّها مجرد اسمٍ آخر «للنفعية» ومفاده أن الأخلاق المبنية على تعزيز ازدهار البشر لأقصى حد مماثلة للأخلاق التي تسعى لتحقيق السعادة القُصوى لأكبر عدد من الأشخاص (يطلق الفلاسفة عادةً على السعادة مصطلح «المنفعة»). يمكن لأي شخص حضر دورة «مقدمة في الفلسفة الأخلاقية» أن يثرثر بالعديد من المشكلات، فهل نُطلق العنان لوحش النفعية الذي يُحقق السعادة بالتهامه للبشر أكثر من السعادة التي يُحققها ضحاياه إذا عاشوا؟ وهل علينا قتل بعض الأشخاص وأخذ أعضائهم لإنقاذ حياة أشخاصٍ أكثر؟ وإذا غضب سُكّان البلدة من قضية قتل فاعلها مجهولٌ وهددوا بأعمال شغب خطيرة، فهل يُطمئنهم العمدة بتلفيق القضية لسِكّير البلدة وشنقه؟ وإذا كان هناك دواء يمكنه إدخالنا في حالة سُبات دائمة نحلم فيها أحلامًا سعيدة

فهل ينبغي أن نتناوله؟ وهل نبني سلسلة مزارع يمكن تربية المليارات من الأرانب السعيدة فيها دون تكلفة كبيرة؟ تسوق هذه الأسئلة الحجج التي تبرر *أخلاق الواجب*، التي تتكون من حقوق وواجبات ومبادئ تنظر إلى الأفعال على أنها أخلاقية أو غير أخلاقية بطبيعتها، وفي بعض صور أخلاق الواجب، تأتي هذه المبادئ من الإله.

للإنسانية نكهة نفعية بالطبع، أو على الأقل تنظر إلى العواقب وتُقيِّم الأفعال والسياسات فيها بعواقبها، ولا تنحصر هذه العواقب بالضرورة في السعادة بالمعنى الضيق لها كرسم ابتسامةٍ على الوجوه، وإنما تتبنى معنى أوسع للازدهار يتضمن تربية الأطفال والتعبير عن النفس والتعليم والتجربة الثرية وصنع أعمال ذات قيمة باقية (الفصل الثامن عشر). ويمثل الجانب الذي ينظر إلى العواقب في الإنسانية نقطة لصالحها لعدة أسباب:

أولًا: يمكن لأي طالب ممن حضر محاضرات الأسبوع الثاني من المنهج الدراسي لفلسفة الأخلاق أن يُعدد مشاكل أخلاق الواجب، فإذا كان الكذب خطأً بطبيعته، فهل ينبغي أن نجيب بصدق عندما تسألنا الشرطة السرية النازية عن مكان اختباء آن فرانك؟ هل الإمتاع الذاتي غير أخلاقي (كما قال كانط، فيلسوف أخلاق الواجب) لأن الإنسان يستخدم نفسه وسيلةً لإشباع غريزة حيوانية وينبغي معاملة الناس دائمًا على أنهم غايات لا وسائل؟ إذا خبَّأ إرهابيٌّ قنبلة نووية موقوتة ستقضي على الملايين، فهل من غير الأخلاقي تعذيبه بالإيهام بالغرق حتى يفصح عن مكانها؟ وبما أنّه لا يوجد صوت هادر من السماء يخبرنا بما علينا أن نفعل، فمن يحق له اختلاق المبادئ التي ينبغي أن نتبعها ويحكم على أفعالٍ ما بأنها غير أخلاقية بطبيعتها حتى إذا لم تضر أحدًا؟ استخدم فلاسفة الأخلاق في أزمنةٍ مختلفة تفكير «أخلاق الواجب» للتأكيد على أن اللقاحات والتخدير ونقل الدم والتأمين على الحياة والزواج بين الأعراق المختلفة والمثلية الجنسية أفعال غير أخلاقية بطبيعتها.

يعتقد العديد من فلاسفة الأخلاق أنَّ التناقض الموجود في مقدمة فلسفة الأخلاق حاد للغاية، فمبادئ أخلاق الواجب تتسبب غالبًا في تحقيق السعادة القصوى لأكبر عدد من الناس. وبما أنه لا يمكن لأحد أن يحسب جميع عواقب أفعاله التي قد تمتد إلى ما لا نهاية في المستقبل، وبما أن الناس يستطيعون دائمًا تأويل أفعالهم الأنانية بأنَّها في صالح الآخرين، فأحد أفضل الطرق لزيادة السعادة الكلية هو وضع حدود واضحة لا يمكن لأحد أن يتخطاها. فنحن لا نسمح للحكومات بخداع مواطنيها أو قتلهم لأن الساسة الحقيقيين قد يستخدمون هذه السلطة في الاستبداد أو لخدمة نزواتهم –بخلاف أنصاف الآلهة الأخيار المنزهين عن الخطأ المذكورين في التجارب الفكرية–، وهذا أحد الأسباب التي تجعل الحكومة التي تلفق للناس جرائم يعاقب عليها بالإعدام أو تقتلهم لتأخذ أعضاءهم *لا تحقق السعادة القصوى* لأكبر عدد من الناس. لننظر إلى مبدأ المساواة في المعاملة، فهل القوانين التي فيها تمييزٌ ضد النساء والأقليات مجحفة بطبيعتها أم بسبب الضرر الذي يقع على ضحايا التمييز؟ رُبما ليس علينا الإجابة عن هذا السؤال، إذ ينبغي إهمال أي مبدأ من مبادئ أخلاق الواجب *ذي عواقب ضارة* مثل مبدأ قدسية الدم اللازم للحياة (والذي يُحرِّم نقل الدم). تعزز حقوق الإنسان ازدهار البشر، ولهذا تقترن الإنسانية بحقوق الإنسان على أرض الواقع.

لا ينبغي للإنسانية أن تشعر بالحرج من تداخلها مع النفعية لسببٍ آخر، وهو أنَّ لهذا المنهج سجلًا تاريخيًّا رائعًا في تحسين رفاهة البشر، فقد أقام النفعيون الكلاسيكيون –تشيزاري بيكاريا وجيريمي بنتام وجون ستيوارت ميل– حججًا معارضة للعبودية والتعذيب السادي والقسوة تجاه الحيوانات وتجريم المثلية الجنسية وتبعية المرأة ونجحوا. وحتى الحقوق المجردة مثل حرية التعبير وحرية المعتقد كان الدفاع عنها على أساس المنافع والأضرار، وقد كتب توماس جيفرسون: «تمتد سلطة الحكومة الشرعية لتشمل الأفعال التي لها ضررٌ على الآخرين،

ولكن لا يضرني أن يقول جاري إنَّ هناك عشرين إلهًا أو إنَّه لا يوجد إله، فاعتقاده لا يسرق محفظتي ولا يكسر ساقي». تطور كلٌّ من التعليم العالمي وحقوق العمال وحماية البيئة على أسس نفعية أيضًا، ولم تظهر مشكلة وحوش النفعية ومصانع إسعاد الأرانب، على الأقل حتى الآن.

نجحت الحجج النفعية كثيرًا لسببٍ ما، وهو أن بوسع الجميع تقديرها، فربما كانت مبادئ مثل: «أنت حر ما لم تضر» و«إذا لم تُؤذِ أحدًا، فلا يمكن أن تكون مخطئًا» و«لا ينبغي أن ينشغل أحد بما يفعله البالغون في حياتهم الخاصة برضاهم» و«لا ينبغي أن ينشغل أحد إذا نويتُ أن أقفز في البحر أو فعلت» غير عميقة أو استثنائية، ولكن عندما تُرسى هذه المبادئ، يستطيع الناس فهمها بسهولة ويصعب على من يعارضها إقامة حجته. ليس الأمر أنَّ النفعية بديهية، إذ جاءت الليبرالية الكلاسيكية متأخرةً في تاريخ البشرية، وتعتقد الثقافات التقليدية أنَّ ما يفعله البالغون برضاهم في حياتهم الخاصة يخصها. يرى الفيلسوف وعالم الأعصاب المعرفي جوشوا جرين (Joshua Greene) أنَّ العديد من اعتقادات أخلاق الواجب مبنية على بديهيات بدائية من القبَلية والطهارة والاشمئزاز والأعراف الاجتماعية، بينما تنشأ الاستنتاجات النفعية من التأمل العقلاني (وأظهر أنَّ نوعيَّ التفكير الأخلاقي يُشغِّلان الجهازين العاطفي والمنطقي في المخ على التوالي). يقول جرين أيضًا إنَّه عندما يضطر أشخاصٌ من خلفيات ثقافية مختلفة إلى الاتفاق على قانون أخلاقي، فإنهم يميلون إلى النفعية، ويفُسِّر هذا السرعة الرهيبة التي نقضت بها حركات إصلاحية مثل حركة المساواة القانونية للنساء وزواج المثليين قرونًا سابقة (الفصل الخامس عشر)، فباستخدام البداهة والعُرف، انهار الوضع القائم في مواجهة الحجج النفعية.

حتى عندما تعزز الحركات الإنسانية أهدافها بلغة الحقوق، فلا بد أن يكون النظام الفلسفي المبرر لهذه الحقوق بسيطًا، فلا يمكن بناء فلسفة أخلاقية صالحة لمجتمع عالمي من طبقات معقدة من الحجج أو على عقائد ميتافيزيقية أو دينية، وإنما يجب بناؤها على مبادئ بسيطة وشفافة يمكن للجميع فهمها والاتفاق عليها. يُعد تصور ازدهار البشر –أنَّه من الجيد أن يعيش الناس حياة صحية وطويلة وثرية وسعيدة ومثيرة– مثالًا على ذلك، بما أنه مبني على إنسانيتنا المشتركة فقط، لا أكثر ولا أقل.

يؤكد التاريخ أنه عندما يتوجّب على الثقافات المختلفة العثور على أرضية مشتركة فإنها تلجأ إلى الإنسانية، ففصلُ الكنيسة عن الدولة في الدستور الأمريكي لم ينتج من فلسفة التنوير فحسب، وإنما من الضرورة العملية أيضًا. أشار عالم الاقتصاد ساموبل هاموند (Samuel Hammond) أن ثماني مستعمرات من مجموع ثلاث عشرة كان لديها كنائس رسمية تتدخل في الشأن العام بدفع رواتب الكهنة وفرض رقابة دينية متشددة واضطهاد أعضاء الطوائف الأخرى. وكانت الطريقة الوحيدة لتوحيد المستعمرات تحت مظلة دستور واحد هي كفالة حرية التعبير عن المعتقدات الدينية والحق الطبيعي في ممارستها.

وبعد قرنٍ ونصف، اضطرت الدول التي ما زالت تعاني من آثار حربٍ عالمية إلى وضع مجموعة من المبادئ لتوحيد جهودها التعاونية، ولم يكن من المحتمل أن يُجمعوا على أنَّ «المسيح عيسى هو مخلِّصنا» أو أنَّ « أمريكا دولة عظيمة تقف شامخة فوق التل». سألت منظمة اليونسكو العديد من مفكري العالم (بما فيهم جاك ماريتان Jacques Maritain والمهاتما غاندي وألدوس هكسلي Aldous Huxley وهارولد لاسكي Harold Laski وكوينسي رايت Quincy Wright وبيير تيار دي شاردان Pierre Teilhard de Chardin والعديد من الباحثين المسلمين والكونفوشيين) عن الحقوق التي ينبغي إدراجها في إعلان الأمم المتحدة العالمي لحقوق الإنسان، ومن المثير للدهشة أن قوائم الحقوق كانت متشابهة. سرد ماريتان في مقدمة تقريرهم ما يلي:

في أحد اجتماعات لجنة اليونسكو القومية حيث كانت تجري مناقشة حقوق الإنسان، عبَّر أحدهم عن تعجبه من أن أنصار

أيديولوجيات معينة تعارض بعضها بعنفٍ وافقوا على قائمة بهذه الحقوق، وقالوا: «نعم، نوافق على هذه الحقوق ولكن بشرط ألَّا نُسأل عن السبب».

وضعت مسودة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان –وهو بيان إنساني يتكون من 30 مادة– في أقل من سنتين بفضل إصرار رئيسة لجنة الصياغة إلينور روزفلت على المضي قدمًا وتجنب الخوض في الأيديولوجيات (وعندما سُئل جون همفري واضع المسودة الأولى عن المبادئ التي بُني عليها الإعلان، أجاب بلباقةٍ: «لم يُبنَ على أي فلسفة على الإطلاق»)، واعتمدته الجمعية العامة للأمم المتحدة في ديسمبر عام 1948 دون مُعارضة. وخلافًا للاتهامات التي تقول بأن حقوق الإنسان نتاج عقيدة أبرشية غربية، فقد أيد الإعلان كلٌّ من الهند والصين وتايلاند وبورما وإثيوبيا وسبع دول مسلمة، بينما اضطر روزفلت إلى الضغط على المسؤولين الأمريكيين والإنجليز حتى يصطفوا خلفه، بسبب قلق الولايات المتحدة بشأن زنوجها وخوف المملكة المتحدة على مستعمراتها. وامتنع كلٌّ من الاتحاد السوفييتي والمملكة العربية السعودية وجنوب أفريقيا عن المشاركة.

تُرجم الإعلان إلى 500 لغة، وكان له أثر في معظم دساتير الدول التي صيغت في العقود التالية، إضافة إلى العديد من القوانين الدولية والمعاهدات والمنظمات، وما يزال مؤثرًا بعد سبعين عامًا.

مع أن الإنسانية هي القانون الأخلاقي الذي يلتقي عنده الناس عندما يفكرون بعقلانية وينتمون إلى ثقافات مختلفة ويحتاجون إلى التوافق، إلا أنها ليست مجرد حد أدنى مُشترك تافه بأي حالٍ من الأحوال. وتتعارض فكرة أن الأخلاق هي تحقيق الحد الأقصى من الازدهار للبشرية مع بديلين مُغريين، الأول هو الأخلاق الدينية، أي الاعتقاد بأن الأخلاق عبارة عن طاعة أوامر إله، وتعزز هذه الأوامر بثواب وعقاب غيبيين في الدنيا أو في الآخرة، أما الثاني فهو البطولة الرومانسية، أي الاعتقاد بأن الأخلاق تتمثل في النقاء والأصالة وعظمة الفرد أو الدولة. ومع أن البطولة الرومانسية ذُكرت لأول مرة في القرن التاسع عشر، إلا أننا نجدها في مجموعة من الحركات المؤثرة الجديدة مثل الشعبوية السلطوية والفاشية الجديدة والرجعية الحديثة واليمين البديل.

يعتقد العديد من المثقفين الذين لا يوافقون على بدائل الإنسانية أن هذه البدائل تعكس حقيقة جوهرية عنَّا وهي أن البشر يحتاجون إلى اعتقادات توحيدية أو روحانية أو بطولية أو قبلية، ويقولون إن الإنسانية قد لا تكون خاطئة، ولكنها تتعارض مع الطبيعة البشرية، ولا يمكن أن يدوم مجتمع مبني على المبادئ الإنسانية طويلًا، فما بالك بنظامٍ عالمي قائم عليها!

يسهل القفز من الادعاء النفسي إلى ادعاءٍ تاريخي بأن الإنسانية شرعت في الانهيار الحتمي، وأننا الآن نشاهد بأعيننا تفكك الرؤية العالمية الليبرالية الكوزموبوليتانية التنويرية الإنسانية. أعلن الكاتب الصحفي بجريدة نيويورك تايمز روجر كوهين (Roger Cohen) في عام 2016 أنَّ «الليبرالية ماتت»، وأضاف قائلًا: «التجربة الليبرالية الديمقراطية هي مجرد فاصل قصير –بإيمانها النابع من التنوير في قدرة الأفراد الذين يمتلكون حقوقًا طبيعية غير قابلة للتصرف في تقرير مصائرهم بحرية على ممارسة ما يريدون–». ووافق المحرر ستيفن كينزر (Stephen Kinzer) على ذلك في مقاله في صحيفة بوسطن جلوب (Boston Globe) بعنوان: «كانت حركة التنوير ناجحة..لفترةٍ قصيرة»، قائلًا:

حققت الكوزموبوليتانية –وهي محور التنوير– نتائج تزعج الناس في العديد من المجتمعات، مما يدفعهم نحو العودة إلى نظام الحكم الذي تفضله الرئيسيات غريزيًّا: أي قائد قوي يحمي القبيلة، وفي المقابل ينصاع له أفرادها..لا يُقدم المنطق أسسًا كافية للأخلاق، ويرفض القوة الروحانية، وينكر أهمية العاطفة والفن والإبداع، وعندما يكون المنطق باردًا وغير إنساني، فيمكنه أن يعزل الناس عن تركيبات متجذرة بعمقٍ فيهم تعطي الحياة معنى.

يضيف مثقفون آخرون أنه لا عجب من انجذاب العديد من الشباب إلى «داعش»، فهم ينصرفون عن «العلمانية الجافة» ويسعون إلى «علاج جذري وديني لرؤيةٍ سطحية للحياة البشرية».

إذًا، فهل كان ينبغي أن أسمّي هذا الكتاب: «*التنوير..قبل أن ينتهي*»؟ بالطبع لا! وثَّقتُ في الجزء الثاني واقع التقدم، وركزت في هذا الجزء على الأفكار المحركة له ولماذا أتوقع أن تدوم. وبعد أن دحضت الحجج التي تعارض المنطق والعلم في الفصلين السابقين، سأناقش الآن الحجج المعارضة للإنسانية، سأفحص هذه الحجج، لكنني لن أفعل ذلك لتوضيح أن الحجج الأخلاقية والنفسية والتاريخية المعارضة للإنسانية خاطئة فقط، بل أيضًا لأن أفضل طريقة لفهم فكرة ما هي معرفة ما لا تمثله، لذا فإن فحص بدائل الإنسانية يمكن أن يذكّرنا بما سيكون على المحك لو لم نُعزز مبادئ التنوير. أولًا، سنرى الحجة الدينية المعارضة للإنسانية، ثم سننظر في التركيبة الرومانسية البطولية القبلية السلطوية.

هل يمكن أن يوجد خير بدون إله حقًّا؟ هل قوضت اكتشافات العلم نفسه العالمَ غير المؤمن الذي قدمه العلماء الإنسانيون؟ وهل هناك تكيف فطري للوجود الإلهي –جين خاص بالإله في حمضنا النووي أو نموذج للإله في عقلنا– يضمن استمرار مقاومة الدين للإنسانية العلمانية؟

لنبدأ بالأخلاق الدينية، صحيح أن العديد من القواعد الدينية تحرّم على الناس قتل أحدهم الآخر أو سرقته أو الاعتداء عليه، ولكنَّ هذا ما تفعله أيضًا الأخلاق العلمانية وهذا لسبب واضح: أن هذه قواعد يود أي كائن عقلاني اجتماعي مهتم بمصلحته أن يوافق عليها جاره. لا عجب إذًا أن هذه الأخلاق مُقننة في كل الدول وتبدو حاضرة في كل المجتمعات البشرية.

ما الذي يضيفه اللجوء لمشرّع خارق للطبيعة إلى الالتزام الإنساني حتى يجعل الناس أفضل حالًا؟ الإضافة الأوضح هي تطبيق المشرّع الخارق الطبيعة للقانون الأخلاقي أي أنه إذا ارتكب أحدٌ خطيئة سيبتليه الإله أو سيُخلَّد في النار أو سيُحذف اسمه من كتاب الحياة، وهي إضافة مغرية حقًّا لأن قوى تنفيذ القانون العلماني لا تستطيع اكتشاف كل انتهاك للقانون والمعاقبة عليه، ويكون لدى كل شخص دافعٌ لأن يقنع الآخرين بأنهم لن يفلتوا من العقاب إذا ارتكبوا جريمة قتل. والإله –كما هو الحال مع سانتا كلوز– يراك وأنت نائم ويعرف متى تستيقظ ويعرف أي خيرٍ أو شرٍ فعلته، لذا فينبغي أن تكون خيّرًا لأجل الله.

ولكنَّ هناك ثغرتين خطيرتين في الأخلاق الدينية، الأولى: أنه لا يوجد سبب مقنع للإيمان بوجود إله. في ملحق غير روائي لرواية «**ست وثلاثون حجة تثبت وجود الإله: عمل روائي**» *(Thirty-Six Arguments for the Existence of God: A Work of Fiction)*، تدحض ريبيكا نيوبرجر جولدشتاين (Rebecca Newberger Goldstein) جميع هذه الحجج فيه (بالاستناد جزئيًّا إلى كلٍّ من أفلاطون وسبينوزا وهيوم وكانط وراسل). وأكثر هذه الحجج شيوعًا ليست حججًا أصلًا مثل

الإيمان القلبي والوحي والنص المقدس والسلطة والتقاليد والإعجاب الشخصي، وليس الأمر أن هذه الحجج لا يمكن الوثوق بها منطقيًّا فحسب، وإنما أنَّ هذه الديانات المختلفة تطالب أتباعها بالإيمان باعتقادات تعارض بعضها بعضًا مثل عدد الآلهة الموجودة والمعجزات التي حققوها ومطالبهم من المؤمنين بهم استنادًا إلى هذه المصادر. وأظهرت الدراسات التاريخية أن الكتب المقدسة نتاج بشري للحقب التاريخية التي ظهرت فيها بما فيها من تناقضات داخلية وأخطاء متعارضة مع الواقع وسرقة من الحضارات المجاورة وسخافات علمية (مثل خلق الله للشمس بعد أن ميَّز بين الليل والنهار بثلاثة أيام). وليست الحجج المبهمة التي يقدمها علماء الدين المتمرسون أكثر منطقيةً، فالحجج الكوزمولوجية والأنطولوجية الدالة على وجود إله غير سليمة منطقيًّا، ودحض داروين حجة التصميم الذكي، والحجج الأخرى إما خاطئة بشكلٍ جلي (مثل النظرية القائلة بأن البشر يتميزون بملكة فطرية للإحساس بحقيقة الإله) وإما مجرد محاولة واضحة للهروب (مثل الإشارة إلى أن البعث أهم من أن يكون محل تحقق على نحوٍ تجريبي).

يصر بعض الكُتَّاب على أنه لا مكان للعلم في هذا الحوار، ويسعون لفرض حالة من «المذهب الطبيعي المنهجي» على العلم مما يجعله عاجزًا عن تقييم ادعاءات الدين ولا حتى من حيث المبدأ، ويخلق هذا مساحةً آمنةً للمؤمنين يمكن أن يحافظوا فيها على معتقداتهم بينما يظلون متعاطفين مع العلم. ولكن كما رأينا في الفصل السابق، فالعلم ليس لعبة ذات قواعد عشوائية وإنما هو استخدام المنطق لتفسير العالم والتحقق مما إذا كانت هذه التفسيرات صحيحة أم لا. يقيم عالم الأحياء جيري كوين (Jerry Coyne) في كتابه «**الإيمان والحقيقة**» *(Faith Versus Fact)* الحجة على أن وجود الإله المذكور في الكتب المقدسة هي فرضية علمية يمكن التحقق من صحتها، ويمكن التحقق من المعلومات التاريخية المذكورة في الإنجيل بعلم الحفريات وعلم الوراثة وفقه اللغة. كان من الممكن أن يحتوي الإنجيل على حقائق علمية مستقبلية مثل «لن تسافر أسرع من الضوء» أو «سر الحياة هو شريطان متضافران». قد يظهر ضوء ساطع في السماوات يومًا ما، وقد ينزل رجل مُتشِّح بالأبيض ويرتدي صندلًا ومعه ملائكة بأجنحة، ويحيي الموتى ويُبرئ العميان. وربما نكتشف أن الصلاة قد ترد البصر لفاقده أو تعيد نمو الأطراف المبتورة أو يصعق من يذكر اسم النبي محمد سُدى بينما لا يمرض ولا يُصاب بضرر من يُصلي خمس مرات يوميًّا. أو ربما توضح البيانات عمومًا أن من يعمل خيرًا يحيا حياةً طيبة ومن يفعل شرًّا يشقى في حياته أي أن الأمهات اللاتي يمُتن أثناء الولادة والأطفال الذين يموتون بسبب السرطان وملايين الضحايا الذين يموتون من الزلازل والأعاصير والهولوكوست يستحقون ما حدث لهم.

يمكن التحقق أيضًا من المكونات الأخرى للمبادئ الأخلاقية الدينية مثل وجود أرواح غير مادية وملكوت متجاوز للمادة والطاقة. فربما نكتشف رأسًا مقطوعًا يمكنه الحديث، وربما يتنبأ الكاهن باليوم المحدد لحدوث الكوارث الطبيعية والهجمات الإرهابية. ويمكن أن تُرسل الخالة هيلدا رسالة من العالم الآخر تخبرنا فيها بالمكان المحدد من الأرضية التي خبَّأت تحتها مجوهراتها، ويمكن أن تحتوي رؤى مرضى نقص الأكسجين الذين يمرون بتجربة خروج أرواحهم من أجسادهم على تفاصيل غير متاحة لحواسنا ويمكن التحقق منها. ومما يقوض النظرية القائلة بوجود أرواح غير مادية خاضعة للعدالة الإلهية أنه تم فضح هذه الأخبار على أنها أساطير وذكريات كاذبة ومصادفات تمت المبالغة في تفسيرها وحيل رخيصة. توجد بالطبع فلسفات رافضة لفكرة الوحي ووفق هذه الفلسفات فإنَّ الإله قد خلق الكون ثم تراجع ليكتفي بمشاهدة ما يحدث أو فلسفات أخرى يعتبر «الإله» فيها مجرد مرادف لقوانين الفيزياء والرياضيات، ولكنَّ هذه الآلهة الضعيفة ليست في وضع يسمح لها بضمان الأخلاق.

نشأت العديد من المعتقدات الإيمانية كفرضيات لتفسير الظواهر الطبيعية مثل الطقس والمرض وأصل الأنواع، وقد انكمش النطاق الإيماني بانتظام عندما حلت فرضياتٌ علميةٌ محل هذه الفرضيات. ولكن بما أن إدراكنا العلمي لا يكتمل أبدًا، فهناك حجة زائفة تُعد الملاذ الأخير دائمًا تُسمى بإله الفجوات (God of the Gaps). في وقتنا الحالي، حاول المؤمنون المتمرسون وضع الإله في هاتين الفجوتين: الثوابت الفيزيائية الأساسية ومعضلة الوعي الكبرى. وعلى أي إنساني يُصر على أننا لا يمكننا استخدام الإله لتبرير الأخلاق أن يتوقع أن يواجَه بهاتين الفجوتين، لذا سأتكلم عنهما قليلًا، فكما سنرى، فهم على الأرجح قد يصدقون أن زيوس هو من يرسل الصواعق على أنه تفسير للعواصف الرعدية.

يمكن تعريف عالمنا ببضعة أرقام بما في ذلك قوى الطبيعة (الجاذبية والقوة الكهرومغناطيسية والقوى النووية) وعدد الأبعاد الكبيرة للزمكان (أربعة) وكثافة الطاقة المظلمة (مصدر تسارع تمدد الكون). يُعدهم مارتن ريس في كتابه «**ستة أرقام فقط**» (*Just Six Numbers)* على يدٍ وإصبع، ويعتمد العدُّ تحديدًا على صيغة النظرية الفيزيائية المستخدمة وما إذا كنا نحسب الثوابت فقط أو النسب بينها أيضًا. وإذا تغير أيٌّ من هذه الثوابت بمقدار ذرة، تتفكك المادة أو تنهار وما كانت لتوجد النجوم والمجرات والكواكب والحياة على الأرض و*البشر* مطلقًا. وفي الوقت الحالي، لا تفسر أكثر نظريات الفيزياء رسوخًا ضبط قيم هذه الثوابت بدقة كي تتيح وجودنا (وخاصة كثافة الطاقة المظلمة) ولذا تقول الحجة الدينية الألوهية أنه لا بد من وجود ضابط دقيق ألا وهو الإله. وهذا تطبيق لحجة التصميم القديمة على الكون كله بدلًا من الكائنات الحية فقط.

هناك اعتراض فوري على هذه الحجة وهو مشكلة الشر القديمة قِدم حجة التصميم، إذا كان الإله –وهو كلي القدرة والمعرفة– صمم الكون بدقة كي يخلقنا عليه، فلماذا صمم أرضًا تُدمر الكوارث الجيولوجية والطبيعية فيها مناطق مأهولة بالأبرياء؟ ما الغرض الإلهي من البراكين الهائلة التي أهلكت نوعنا في الماضي وقد تُبيدنا في المستقبل أو تحيل الشمس إلى عملاق أحمر سيبيدنا بالتأكيد؟

ولكن هذا التنظير عن سبب وجود الشر في العالم أمر ثانوي، ولم يقف علماء الفيزياء مذهولين أمام هذا الضبط الدقيق الواضح للثوابت الأساسية وإنما يسعون بنشاط وراء تفسيره بعدة تفسيرات. ذُكر أحدها في كتاب عالم الفيزياء فيكتور ستينجر (Victor Stenger) «مغالطة الضبط الدقيق» *(The Fallacy of Fine-Tuning)*. يعتقد العديد من عُلماء الفيزياء أنه من المبكر استنتاج أن قيم الثوابت الأساسية عشوائية أو أنها الوحيدة التي تُمكِّن من وجود حياة. ربما يُظهر الفهم الأعمق للفيزياء (وخاصةً التوحيد المنشود بين النسبية ونظرية الكم) أن بعض القيم لا بد أن تكون كما هي بالضبط، وربما نكتشف أن بعضها الآخر قد يُستبدل بقيمٍ أخرى –مجموعات متوافقة من القيم– تتسق مع كونٍ مستقر مليء بالمادة، وإن لم يكُن الكون الذي نعرفه ونحبه. قد يكشف التطور في علم الفيزياء أن الثوابت ليست مضبوطة بدقة كبيرة، وأن احتمالية وجود كون يتيح إمكانية الحياة ليست مستبعدة.

التفسير الآخر هو أنَّ كوننا هو مجرد منطقة واحدة وسط عالمٍ شاسع وربما لا نهائي من الأكوان –عالم متعدد الأكوان– لكلٍّ منها ثوابته الأساسية المختلفة. فنجد أنفسنا في كون يتسق مع وجود حياة، ليس بسبب أنَّه كان مضبوطًا ليسمح بوجودنا وإنما لأنَّ حقيقة وجودنا تعني ببساطة أننا في كونٍ *من هذا النوع بالتحديد* وليس من الأكوان العديدة الأخرى غير المواتية للحياة، إذًا فالضبط الدقيق مغالطة منطقية من النوع «حدث بعده، إذًا هو سببه» مثل الفائز باليانصيب الذي يُفكر ما الذي جعله يفوز مخالفةً لكل الاحتمالات المتوقعة، *كان لا بد أن يفوز أحدٌ ما*، وهو لا يتعجب سوى لأنه هو من فاز حقًّا. ليست هذه هي المرة الأولى التي تدفع فيها خدعة الاصطفاء المفكرين نحو البحث عن تفسيرات عميقة ليس لها وجود للثابت الفيزيائي، فقد أرهق يوهانس كبلر (Johannes Kepler) نفسه في البحث عن السبب وراء بُعد الأرض عن الشمس بـ 93 مليون ميل، وهي المسافة المثالية حتى لا تتجمد المياه في البحيرات

والأنهار أو تتبخر، لكننا نعرف الآن أنَّ الأرض مجرد كوكب من عدة كواكب، يبعد كلٌّ منها مسافة مختلفة عن الشمس أو عن نجمٍ آخر، ولا نندهش لوجودنا على هذا الكوكب بدلًا من المريخ.

كانت نظرية الأكوان المتعددة ذاتها لتصبح تفسيرًا من نوع «حدث بعده، إذًا هو سببه» لو لم تكن متسقة مع نظريات أخرى في الفيزياء، وبالأخص نظرية قدرة الفراغ الموجود في الفضاء على إحداث انفجارات كبرى تصبح أكوانًا جديدة، ويمكن أن تنشأ هذه الأكوان الجديدة بثوابت أساسية مختلفة. ومع ذلك، تُنفر الفكرة العديد من الناس (ولا سيما بعض علماء الفيزياء) لأنها مُحيرة للعقل بصورة مذهلة. يقتضي وجود عدد لا نهائي من الأكوان (أو على الأقل عدد ضخم بما يكفي ليشمل جميع احتمالات ترتيبات المادة) أن هناك أكوانًا تحتوي على نسخة منك إلا أنه تزوج شخصًا آخر، أو قُتل في حادث سيارة أمس، أو اسمه إيفيلن، أو ليس أنيقًا، أو أغلق هذا الكتاب من لحظة ولا يقرأ هذه الجملة الآن، وهكذا.

ومهما كانت نتائج هذه الأفكار مربكة وغريبة، إلا أن تاريخ الأفكار يخبرنا بأن غرابة الفكرة ليست مرشدًا جيدًا لمعرفة الواقع، وقد أهان العلم مرارًا وتكرارًا الحس السليم لأجدادنا باكتشافاته المربكة التي اتضحت صحتها لاحقًا بما في ذلك كروية الأرضة وتباطؤ الوقت مع السرعات العالية والتراكب الكمي وانحناء الزمان والمكان، وبالطبع التطور. ولكن عندما نتخطى الصدمة الأولية، نجد أن فكرة تعدد الأكوان ليست شديدة الغرابة. ليست هذه هي المرة الأولى التي يجد فيها علماء الفيزياء سببًا لافتراض تعدد الأكوان. وهناك نسخة أخرى من نظرية تعدد الأكوان وهي ناتجة مباشرةً عن اكتشاف أن الفضاء يبدو غير نهائي وأن المادة تبدو موزعة فيه بالتساوي، فلا بد من وجود عدد لا نهائي من الأكوان ينتشر في الفضاء ثلاثي الأبعاد متجاوزًا أُفقنا الكوني إذًا. وهناك نسخة أخرى وهي تفسير العوالم المتعددة لميكانيكا الكم وفيه تتحقق النتائج المتعددة لعملية كمّية محتملة (مثل مسار الفوتون) في أكوانٍ متوازية متداخلة (وهي احتمالية قد تؤدي إلى الحواسيب الكمية التي تتمثل فيها جميع القيم الممكنة للمتغيرات لعملية حسابية في وقتٍ واحد). تبدو نظرية تعدد الأكوان بصورةٍ ما النظرية *الأبسط* عن الواقع، لأنه إذا كان كوننا هو الكون الوحيد في الوجود، فسنحتاج إلى تعقيد قوانين الفيزياء الأنيقة بشروط اعتباطية لحالة كوننا الأولية المحدودة وثوابته الفيزيائية المحدودة. وكما يقول عالم الفيزياء ماكس تيجمارك (Max Tegmark) (وهو أحد المؤيدين للأنواع الأربعة من تعدد الأكوان): «يعتمد حُكمنا على أيِّ الأمرين أكثر سفهًا وأقل لياقةً في رأينا: كثير من العوالم أم كثير من الكلمات».

إذا اتضح أنَّ هذا هو التفسير الأفضل للثوابت الفيزيائية الأساسية، فلن تكون هذه هي المرة الأولى التي أدهشتنا فيها عوالمُ بعيدة عن أعيننا، فقد اضطر أسلافنا إلى تقبُّل اكتشاف نصف الأرض الغربي، وثمانية كواكب أخرى، ومئة مليار نجمة في مجرتنا (لكلٍّ منها كواكب) ومئة مليار مجرة في كوننا الملحوظ. إذا تعارض العقل مع الحدس ثانيةً، فأسفي على الحدس. يذكِّرنا أحد المؤيدين لفكرة الأكوان المتعددة براين جرين (Brain Greene) بما يلي:

> كانت رحلتنا من كونٍ غريب صغير متمحور حول الأرض إلى كونٍ مليء بمليارات المجرات شيقة وتدعو للتواضع. لقد أُجبِرنا على التخلي عن الإيمان المقدس بمركزيتنا، ولكنَّنا بخفض منزلتنا في الكون أظهرنا قدرة العقل البشري على الوصول إلى ما هو أبعد كثيرًا من حدود التجربة العادية للكشف عن الحقيقة غير العادية.

الفجوة الأخرى التي من المفترض أنّ بالإمكان ملؤها بالإله هي «مشكلة الوعي الصعبة»، والتي تُعرف أيضًا بمشكلة الوجدان والذاتية والوعي الظاهراتي (الفينومينولوجي) والكيفيات المحسوسة (أي الجانب «الكيفي» من الوعي). إنَّ المصطلح الذي اقترحه أساسًا الفيلسوف ديفيد كالمرز (David Chalmers) عبارة عن مزحة خاصة، لأنَّ المشكلة التي يُزعَم أنَّها «سهلة» –التحدي العلمي المتمثل في التمييز بين الحسابات الذهنية الواعية وغير الواعية، وتحديد ركائزها في المخ، وشرح أسباب تطورها– تعتبر «سهلة» كما يعتبر علاج السرطان أو إرسال إنسانٍ إلى القمر «سهلًا»، أي مرنة علميًّا. ولحسن الحظ فالمشكلة السهلة تجاوزت نقطة المرونة، فنحن في طريقنا نحو التوصل إلى تفسيرٍ مُرضٍ. ليس من الغامض تفسيرُ أنَّنا نرى أشياءَ ثابتة وصلبة وملوَّنة وثلاثية الأبعاد بدلًا من وحدات بكسل مشكالية* في شبكية أعيننا، أو تفسير أنَّنا نستمتع –وبالتالي نسعى إلى– الطعام والجنس وسلامة الجسد ونعاني من –وبالتالي نتجنب– العزلة الاجتماعية وتلف الأنسجة، فهذه الحالات الداخلية والسلوك الذي تشجّع عليه هذه الحالات عبارة عن وسائل تكيف داروينية بشكلٍ واضح. مع التطورات في علم النفس التطوري، أصبح يتم تفسير المزيد والمزيد من التجارب الواعية بهذه الطريقة، بما فيها هواجسنا الفكرية وعواطفنا الأخلاقية وردود فعلنا الجمالية.

وليست أسس الوعي الحسابية والعصبية الحيوية مربكة وعنيدة، وقد قال عالم الأعصاب المعرفي ستانيسلاس دوهان (Stanislas Dehaene) وزملاؤه المساعدون إنَّ الوعي يعمل كـ «مساحة عمل عالمية» أو «سبورة». يشير مجاز «السبورة» إلى أنَّ مجموعة متنوعة من الوحدات الحسابية بإمكانها نشر نتائجها بصيغةٍ مشتركة يمكن لبقية الوحدات جميعًا أن «تراها»، وتشمل هذه الوحدات الإدراك والذاكرة والتحفيز واللغة والفهم وتخطيط العمل، وتتيح لنا حقيقة إمكانية وصولها جميعًا إلى مجموعةٍ مشتركة من المعلومات التي لها صلة بما يحدث حاليًا (محتويات الوعي) أن نصف ما نراه أو نستوعبه أو نتناوله، وأن نستجيب لما يقوله الآخرون أو يفعلونه وأن نتذكر ونخطِّط استنادًا إلى ما نريده وما نعرفه (وعلى النقيض، فإنَّ الحسابات *داخل* كل وحدة مثل حساب العمق من العينين أو تسلسل انقباضات العضلة الذي يكوِّن فعلًا ما يمكن أن تعمل بناءً على تدفقات مدخلاتها الخاصة، وتواصل عملها تحت مستوى الوعي، فلا حاجة لرؤيتها الإجمالية). تُطبَّق مساحة العمل العالمية هذه في المخ على هيئة انبعاث متناغم ومتزامن في الشبكات العصبية التي تربط كلًّا من القشرتين المخيتين الجبهية الأمامية والجدارية بعضهما ببعض، وتربطهما بمناطق المخ التي ترسل إليهما إشارات إدراكية وذاكرية وتحفيزية.

ليست المشكلة «الصعبة» كما يُزعَم –لماذا يشعر كل شخص واعٍ بأنَّه *شخصٌ ما* بشكلٍ ذاتي، مثل الأحمر الذي يبدو أحمر والملح الذي طعمه مالح– صعبةً لأنَّها موضوع علمي مستعصٍ، بل لأنَّها معضلة مفاهيمية محيِّرة. فهي تتضمن أحجيات مثل ما إذا كان الأحمر الذي أراه مماثلا للأحمر الذي تراه أنت، وكيف ستشعر لو كنتَ خفاشًا، وما إذا كان من الممكن أن يوجد موتى أحياء «زومبي» (أشخاص لا يختلفون عنك وعني ولكن ليس بداخلهم شيء ولا يشعرون بشيء)، وإذا كانوا موجودين، فهل جميع من سواي من الزومبي، وما إذا كان إنسانٌ آلي يشبه الإنسان العادي بدقة تامة واعيًا، وما إذا كنت أستطيع تحقيق الخلود بتحميل بيانات خريطة الشبكة العصبية في مخي إلى السحابة الإلكترونية، وما إذا كانت آلة الانتقال عن بعد في مسلسل ستار تريك (Star Trek) تنقل كابتن كيرك إلى سطح الكوكب بالفعل أم تقتله وتبني توأمًا مطابقًا له.

قال بعض الفلاسفة، مثل دانييل دينيت في كتابه «**الوعي مفسَّرًا**» (*Conscious Explained*)، بعدم وجود ما يُدعى بمشكلة الوعي الصعبة، فهذا لبسٌ ناتج عن عادةٍ سيئة، وهي تصور إنسانٍ مصغَّر جالس في مسرحٍ داخل الجمجمة، وهو المجرِّب دون

*المشكال عبارة عن أنبوب من المرايا به خرز ملون وحصى وزجاج يصنع أشكالًا مختلفة. – المترجمة.

جسدٍ الذي سيخرج بحذرٍ من مسرحي ويدخل إلى مسرحك ليتحقَّق من اللون الأحمر أو يزور مسرح الخفاش ويشاهد الفيلم المعروض هناك، والذي لن يكون موجودًا لدى الزومبي وقد يكون حاضرًا أو غائبًا لدى الإنسان الآلي، والذي قد ينجو من الرحلة الإشعاعية إلى زاكدورن أو لا ينجو منها. أحياناً عندما أرى الضرر الذي تسبَّبت فيه المشكلة الصعبة (بما فيه تلويح المفكِّر المحافظ دينيش ديسوزا Dinesh D'Souza بنسخة من كتابي «**كيف يعمل العقل**» *"How the Mind Works"* في مناظرةٍ عن وجود الإله)، تُغريني فكرة الاتفاق مع دينيت في أنَّ حالنا سيكون أفضل دون هذا المصطلح. على عكس أوجه سوء الفهم المختلفة، فالمشكلة الصعبة لا تتكون من ظواهر فيزيائية أو خارقة للطبيعة مثل الاستبصار أو التخاطر أو الانتقال عبر الزمن أو العرافة أو تحريك الأشياء عن بُعد، ولا تستلزم فيزياء كمية غريبة ولا اهتزازات الطاقة المبتذلة ولا ترهات العصر الجديد الأخرى، والأمر الأهم فيما يخص النقاش الحالي، أنَّها لا تتضمَّن روحًا غير مادية. ليس هناك مما نعرفه عن الوعي ما لا يتسق مع فهمنا بأنَّه يعتمد تمامًا على النشاط العصبي.

في النهاية، ما زلتُ أعتقد أنَّ المشكلة الصعبة عبارة عن مشكلة *مفاهيمية* ذات معنى، ولكنَّني أتفق مع دينيت في أنَّها ليست مشكلة *علمية* ذات معنى. لن يحصل أحدٌ على منحةٍ لدراسة ما إذا كنتَ زومبي أو ما إذا كان كابتن كيرك الذي يسير على ظهر سفينة *Enterprise* هو ذاته الذي يسير على سطح زاكدورن. وأتفق مع العديد من الفلاسفة الآخرين في أنَّه ربما يكون من العبث أن نأمل في الوصول إلى حلٍّ على الإطلاق، لأنَّها مشكلة مفاهيمية، او بتعبيرٍ أدق، مشكلة مع مفاهيمنا. كما قال توماس ناجل في مقاله الشهير «**كيف ستشعر لو كنتَ خفاشًا؟**» (What Is It Like to Be a Bat?) فربما تكون هناك «حقائق لا يمكن للبشر أن يتصوروها أو يفهموها حتى لو بقي جنس البشر إلى الأبد، ببساطة لأنَّ تركيبتنا لا تسمح لنا بالعمل وفق أنواع المفاهيم اللازمة لذلك». تبنَّى الفيلسوف كولين ماكجين (Colin McGinn) هذه الفكرة وقال إنَّ هناك تباينًا بين أدواتنا المعرفية لتفسير الواقع (أي تسلسل السبب والنتيجة، وتحليل الأجزاء وتفاعلاتها سويًّا، وتصميم نماذج المعادلات الرياضية) وطبيعة مشكلة الوعي الصعبة، وهي شمولية على عكس ما يشير الحدس. يخبرنا أفضل ما توصلنا إليه في العلم أنَّ الوعي يتشكَّل من مساحة عمل عالمية تمثِّل أهدافنا الحالية وذكرياتنا ومحيطنا، ويُطبَّق بانبعاث عصبي متزامن في الدائرة الجبهية الجدارية. ولكنَّ الجزء الأخير الباقي من النظرية –أنَّ هذه الدائرة تشعر *بأنَّها شخصٌ ما*– ربما يمكن وصفه بأنَّه حقيقةٌ عن الواقع يتوقَّف عندها التفسير. لا ينبغي أن يكون هذا مفاجئًا تمامًا، فكما ذكر أمبروز بيرس (Ambrose Bierce) في كتابه «**قاموس الشيطان**» *(The Devil's Dictionary)*، لا يملك العقل إلَّا نفسه ليعرف نفسه به، وربما لا يرضى مطلقًا بأنَّه يفهم أعمق جوانب وجوده نفسه، وهو ذاتيته الجوهرية.

مهما كان ما نفهمه من مشكلة الوعي الصعبة، فلن يكون افتراض وجود روح غير مادية مفيدًا على الإطلاق، فهذا الافتراض أولًا يحاول حل لغز بلغزٍ أكبر، وثانيًا يتنبأ خطأً بوجود الظواهر الخارقة للطبيعة. والأكثر من ذلك أنَّ الوعي الموهوب من الإله لا يستوفي مواصفات تصميم المحل الهندسي للجزاء العادل، فلماذا يمنح الله رجل عصابةٍ القدرة على التمتع بمكاسبه غير المشروعة أو يمنح معتديًا جنسيًا المتعة الجنسية؟ (إذا كان هذا لاختبارهم بمغريات عليهم أن يثبتوا صلاحهم الأخلاقي بمقاومتها، فلماذا يكون ضحاياهم خسائر جانبية؟) لماذا قد يستاء إلهٌ رحيم من سرقة سنوات من عُمر مريض السرطان ويزيد عقوبة العذاب الأليم بلا مسوغ؟ تبدو ظواهر الوعي –مثل ظواهر الفيزياء– تمامًا كالمتوقَّع إذا كانت قوانين الطبيعة تُطبَّق دون اعتبار لرفاهة البشرية، فإذا أردنا تعزيز رفاهة البشرية، علينا أن نكتشف كيف نفعل ذلك بأنفسنا.

ويقودنا هذا إلى مشكلة الأخلاق الدينية الثانية. ليس الأمر أنَّه من شبه المؤكد أنَّه لا يوجد إله ليُملي علينا الوصايا الأخلاقية ويفرضها علينا فحسب، بل أيضًا أنَّه حتى لو كان هناك إلهٌ، فلا يمكن أن تكون تعاليمه الإلهية، التي تصلنا عن طريق الدين، مصدر الأخلاق. يعود تفسير ذلك إلى كتاب «**يوثيفرو**» (*Euthyphro*) لأفلاطون، الذي يشير فيه سقراط إلى أنَّه إذا كان لدى الآلهة أسباب مقنعة لاعتبار أفعالٍ ما أخلاقية، فيمكننا أن نستند إلى تلك الأسباب مباشرةً دون وسيط. أمَّا إذا لم يكن لديهم أسباب مقنعة، فلا ينبغي أن نأخذ أوامرهم على محمل الجد! ففي النهاية، يستطيع الأشخاص المفكِّرون أن يقدِّموا أسبابًا لعدم القتل أو الاغتصاب أو التعذيب عدا الخوف من الجحيم الأبدي، ولن يصبحوا مغتصبين أو قتلة مأجورين فجأةً إذا اعتقدوا أنَّ الله قد تخلَّى عنهم أو إذا أخبرهم الله أنَّ هذه الأفعال مقبولة.

يرد فلاسفة الأخلاق الدينية أنَّ إله الكتب المقدَّسة بطبيعته لا يستطيع إصدار أوامر غير أخلاقية، على عكس آلهة الأساطير الإغريقية المتقلِّبين، ولكنَّ كل من لديه إلمام بالنصوص المقدَّسة يعرف أنَّ هذا ليس حقيقيًا. قتل إله العهد القديم الأبرياء بالملايين، وأمر آل إسرائيل بارتكاب جرائم الاغتصاب الجماعي والإبادة الجماعية، وأقر عقوبة الإعدام على الكفر وعبادة الأصنام والمثلية الجنسية والزنا والرد على الوالدين كلمة بكلمة والعمل في يوم السبت، في حين لم يجد أدنى غضاضة في العبودية والاغتصاب والتعذيب وقطع الأعضاء والإبادة الجماعية. كان هذا معتادًا في حضارات العصر البرونزي والعصر الحديدي، أمَّا اليوم فالمؤمنون المتنوِّرون ينتقون بالطبع الأوامر الإنسانية فقط بينما يعتبرون الأوامر الخبيثة مجازية أو يحوِّرونها أو يتجاهلونها، وهذا هو مربط الفرس، فهُم يقرؤون الإنجيل بعيون النزعة الإنسانية التنويرية.

تنفي حجة يوثيفرو الادعاء الشائع بأنَّ الإلحاد يدفعنا نحو النسبية الأخلاقية إذ يستطيع كل شخص أن يفعل ما يحلو له. يعكس هذا الادعاء واقع الأمر، فالأخلاق الإنسانية تقوم على قاعدةٍ عالمية مكوَّنة من المنطق والمصالح البشرية، فمن خواص الحالة البشرية الحتمية أنَّنا جميعًا نكون أفضل حالًا إذا ساعد بعضُنا بعضًا وامتنعنا عن إيذاء بعضنا بعضًا. لهذا السبب فإنَّ كثيرًا من الفلاسفة المعاصرين بمن فيهم نا جل وجولدشتاين وبيتر سنجر وبيتر ريلتون وريتشارد بويد وديفيد برينك وديريك بارفيت يؤمنون بالواقعية الأخلاقية (عكس النسبية الأخلاقية) ويقولون بأنَّ المقولات الأخلاقية قد تكون صحيحة أو خاطئة بشكلٍ موضوعي. *الدين* هو الذي يكون نسبيًّا بطبيعته، فبالنظر إلى غياب الأدلة، لا يمكن أن يعتمد أي اعتقاد بشأن كم عدد الآلهة الموجودة ومن أنبياؤهم ورسلهم على الأرض وما يطالبوننا به سوى على دوغما قبيلة المرء المحدودة.

لا يجعل هذا الأخلاق الدينية نسبيةً فحسب، بل قد يجعلها أيضًا لا أخلاقية، فالآلهة الخفية قد تأمر الناس بنحر الزنادقة والكفار والمرتدين. والروح غير المادية لا تتأثر بالمحفزات الدنيوية التي تدفعنا إلى التوافق، عادةً ما يكون المتنافسون على أحد الموارد المادية أفضل حالًا إذا تقاسموه بدلًا من أن يتقاتلوا عليه، وخاصةً إذا كانوا يقدِّرون حياتهم على الأرض، ولكنَّ المتنافسين على قيمةٍ مقدَّسة (مثل الأرض المقدَّسة أو تأكيد معتقدهم)*لن يساوموا*، وإذا ظنوا أنَّ روحهم خالدة فلن تعني خسارة جسدهم الكثير، بل ربما تكون ثمنًا ضئيلًا يدفعونه للحصول على مكافأة أبدية في جنة النعيم.

أشار كثيرٌ من المؤرخين إلى أنَّ الحروب الدينية طويلة ودموية، وغالبًا ما تتسبَّب العقائد الدينية في إطالة مدة الحروب الدموية. حصر ماثيو وايت، مُحصي الموتى الذي ذكرناه في الفصل الرابع عشر، ثلاثين صراعًا دينيًّا من بين قائمة بأسوأ ما فعله البشر بعضهم ببعضٍ على الإطلاق، ونتج عنها حوالي 55 مليون قتيل (حارب أصحاب الأديان التوحيدية بعضهم بعضًا في سبعة عشر صراعًا منها،

وحاربوا الوثنيين في ثمانية صراعات أخرى). يعبِّر الجزم الشائع بأنَّ الحربين العالميتين انطلقتا بسبب تراجع الأخلاق الدينية (مثل ادعاء ستيفن بانون خبير ترامب الاستراتيجي السابق بأنَّ الحرب العالمية الثانية كانت مواجهة بين «الغرب المسيحي اليهودي من جانب والملحدين من جانب») عن تاريخٍ غبي. إذ كان المحاربون على الجانبين في الحرب العالمية الأولى مسيحيين مؤمنين فيما عدا الإمبراطورية العثمانية، التي كانت ثيوقراطية إسلامية، والقوة الوحيدة الملحدة علنًا التي شاركت في الحرب العالمية الثانية كانت الاتحاد السوفييتي، وكانت تحارب أغلب الحرب في صفنا ضد النظام النازي، والذي كان (على عكس الأسطورة الشائعة) متعاطفًا مع المسيحية الألمانية والعكس بالعكس، فكانت الفئتان متحدتين في كرههما للحداثة العلمانية (كان هتلر نفسه ربوبيًّا وقال «أنا على قناعةٍ بأنَّني مفوَّض من خالقنا، فأنا أنفذ مشيئة الرب بمحاربة اليهود»). يرد المدافعون عن الإيمان بالإله على ذلك بأنَّ الحروب والأعمال الوحشية غير الدينية المدفوعة بأيديولوجية الشيوعية العلمانية وبالغزو العادي تسبَّبت في مقتل عددٍ أكبر من الناس، يالها من نسبية! من الغريب تصنيف الدين على هذا المنحنى، فإذا كان الدين هو مصدر الأخلاق، فلا بد أن يكون عدد الحروب والأعمال الوحشية الدينية صفرًا، ومن الواضح أنَّ *الإلحاد* ليس منظومةً أخلاقية من الأساس، فهو مجرد غياب الاعتقاد الغيبي، كعدم الرغبة في الإيمان بزيوس أو فيشنو، والبديل الأخلاقي عن الإلحاد هو النزعة الإنسانية.

لا يؤمن اليوم بالجنة والنار أو بحرفية ما جاء في الإنجيل أو بإله يهزأ بقوانين الفيزياء سوى بضع مفكِّرين، ولكن كان رد فعل كثيرٍ من المثقَّفين غاضبًا على «الإلحاد الجديد» الذي روجته أربعة كتب حقَّقت أفضل المبيعات ونُشرت بين عامي 2005 و2007 لكلٍّ من سام هاريس وريتشارد دوكنز ودانييل دينيت وكريستوفر هيتشنز. أُطلِق على رد فعلهم «ملحد ولكن..»، و«إيمانٌ بالإيمان»، و«الرؤية الدمجية» و(المصطلح الذي صاغه كوين) «الإلحاد المتعاون مع الإيمان». ويتداخل رد فعلهم هذا مع العداء تجاه العلم في أوساط الثقافة الثانية، ويُفترض أنَّ هذا بسبب التعاطف المشترك مع المنهجيات التأويلية على حساب المنهجيات التحليلية والتجريبية، والنفور من الاعتراف بأنَّ العلماء المملين والفلاسفة العلمانيين قد يكونون محقين بشأن مسائل الوجود الأساسية. رغم أنَّ الإلحاد –عدم الإيمان بالله– متوافق مع مجموعة واسعة من المعتقدات الإنسانية وغير الإنسانية، إلَّا أنَّ الملحدين الجدد من أنصار النزعة الإنسانية بصورةٍ علنية، لذا فإنَّ أي عيوب في رؤيتهم للعالم قد تمتد عمومًا إلى النزعة الإنسانية.

وفقًا للملحدين المتعاونين مع المؤمنين فإنَّ الملحدين الجدد حادُّون ومتشدِّدون ومزعجون بنفس قدر إزعاج الأصوليين الذين ينتقدونهم (يرد أحد الشخصيات الكرتونية في رسم كاريكاتيري على موقع $XKCD$ فيقول: «المهم أنَّك وجدت طريقةً لتشعر بالأفضلية على كليهما»). يقولون إنَّ الأشخاص العاديين لن يتحرروا أبدًا من معتقداتهم الدينية، وربما لا ينبغي أن يتحرروا منها، لأنَّ المجتمعات الصحية بحاجةٍ إلى الدين ليكون حصنًا ضد الأنانية والاستهلاكية الفارغة، فالمؤسسات الدينية تلبِّي تلك الحاجة بالترويج للأعمال الخيرية والمجتمعات الصغيرة والمسؤولية الاجتماعية وطقوس العبور والهداية فيما يخص المسائل الوجودية التي لن يقدِّمها لهم العلم مطلقًا. ومعظم الناس يعاملون التعاليم الدينية بصورةٍ مجازية وليست حرفية على أي حال، ويجدون معنى وحكمةً في الإحساس الأسمى بالروحانية والفضل والنظام الإلهي. لننظر في هذه الادِّعاءات.

من مصادر الإلهام المثيرة للسخرية للإلحاد المتعاون مع الإيمان الأبحاث على الجذور النفسية للمعتقدات الغيبية، بما فيها عادات معرفية متمثلة في المبالغة في نَسب التصميم والوكالة (أي القدرة على الفعل) للظواهر الطبيعية، ومشاعر التضامن العاطفية داخل المجتمعات

العقائدية. التفسير الأكثر طبيعية لهذه النتائج أنَّها *تهدم* المعتقدات الدينية بتوضيح أنَّها من خيالات تكويننا العصبي الحيوي، ولكنّ هذه الأبحاث تم تفسيرها أيضًا بأنَّها توضِّح أنَّ الطبيعة البشرية تحتاج إلى الدين كما تحتاج إلى الغذاء والجنس والصحبة، لذا فمن العبث تخيل عدم وجود الدين. ولكنَّ هذا التفسير إشكالي، فليست كل خواص الطبيعة البشرية دافعًا توازنيًّا لا بد من ري عطشها له بانتظام. أجل، الناس عرضة للأوهام المعرفية التي تؤدي إلى المعتقدات الغيبية، ويحتاجون بالطبع إلى الانتماء إلى مجتمعٍ صغير. نشأت على مدار التاريخ مؤسسات تقدِّم مجموعاتٍ من التقاليد التي تشجِّع تلك الأوهام وتلبِّي تلك الاحتياجات، ولكنَّ هذا لا يعني أنَّ الناس بحاجةٍ إلى هذه المجموعات بأكملها كما لا يعني وجود الرغبة الجنسية أنَّ الناس بحاجةٍ إلى نوادي البلاي بوي. كلَّما ازدادت المجتمعات تعلُّمًا وأمانًا، أمكن فصل مكونات المؤسسات الدينية التي ورثناها بعضها عن بعض، فيمكن أن تواصل الأديان المتحرِّرة تقديم الفن والطقوس والرمزية والدفء المجتمعي الذي يتمتَّع به كثيرٌ من الناس دون الدوغما الغيبية أو أخلاق العصر الحديدي.

يعني ذلك أنَّه لا ينبغي شجب الأديان أو مدحها بوجهٍ عام، وإنَّما دراستها وفقًا لمنطق يوثيفرو، أي إذا كانت هناك أسباب مبرَّرة لأنشطةٍ معينة، فينبغي التشجيع على تلك الأنشطة، ولكن لا ينبغي التغاضي عن أفعال بعض الحركات لمجرد أنَّها دينية. من بين إسهامات الأديان الإيجابية في أزمنة معينة وأماكن معينة التعليم والصدقة والأعمال الخيرية والرعاية الطبية والمشورة وحل النزاعات وخدمات اجتماعية أخرى (رغم أنَّ هذه الجهود التي يبذلها المتدينون في العالم المتقدِّم لا تُضاهي جهود نظرائهم من العلمانيين، فلا دينَ كان سيقضي على الجوع أو المرض أو الأمية أو الحروب أو القتل أو الفقر على النطاقات التي رأيناها في الجزء الثاني). تقدِّم المنظمات الدينية أيضًا إحساسًا بالتضامن المجتمعي والدعم المتبادل، إلى جانب الفنون والطقوس والمعمار ذي الجمال الخلاب والصدى التاريخي، بفضل بدايتها التي سبقت غيرها بألفيةٍ كاملة. أشاركُ بنفسي في هذه الأنشطة وأستمتع بها كثيرًا.

إذا كانت إسهامات المؤسسات الدينية الإيجابية نابعة من دورها كروابط إنسانية في المجتمع المدني، فنتوقع ألَّا ترتبط هذه المساعدات بالمعتقد الديني التوحيدي، وهذا هو الوضع بالفعل. نعرف منذ وقتٍ طويل أنَّ مرتادي الكنائس ودور العبادة أسعد وأكثر إحسانًا ممَّن يمكثون في منازلهم، ولكنَّ روبرت بتنام وزميله عالم السياسة ديفيد كامبل (David Campbell) وجدا أنَّ هذه الهبات لا علاقة لها بالإيمان بالله أو الخلق أو الجنة أو النار، فالملحد الذي تصطحبه زوجته الملتزمة إلى التجمعات الدينية يكون مُحسِنًا بقدر إحسان المؤمنين في الجماعة، في حين أنَّ المؤمن المتحمس الذي يصلِّي وحده لا يكون مُحسِنًا بالضرورة. وفي الوقت نفسه، يمكن تعزيز الحس الاجتماعي والفضائل المدنية بالانتماء إلى المجتمعات الخدمية العلمانية الصغيرة مثل جمعية The Shriners (بالمستشفيات ووحدات الحروق المخصَّصة للأطفال) ومنظمة الروتاري الدولية (التي تساعد في القضاء على شلل الأطفال) ونادي ليونز (الذي يكافح فقدان البصر)، أو حتى اتحاد البولينج وفق بحث بتنام وكامبل!

كما تستحق المؤسسات الدينية الثناء عندما تسعى وراء تحقيق غايات إنسانية، فلا ينبغي إعفاؤها من النقد عندما تعيق تحقيق تلك الغايات. تشمل الأمثلة على إعاقتها تحقيق تلك الغايات منع الرعاية الطبية عن الأطفال المرضى في القطاعات التي تؤمن بالعلاج بالإيمان، ومعارضة الموت الرحيم، وإفساد تعليم العلوم في المدارس، وقمع الأبحاث الطبية الحيوية الحرجة مثل الأبحاث على الخلايا الجذعية، وعرقلة سياسات الصحة العامة التي تنقذ حياة الناس مثل وسائل منع الحمل والواقيات الذكرية ولقاح فيروس الورم الحليمي. ولا ينبغي افتراض امتلاك الأديان أغراضًا أخلاقية أسمى بالضرورة، فقد انخدع مرارًا وتكرارًا الملحدون المتعاونون مع المؤمنين (Faitheists) الذين كانوا يأملون أن يتوجه حماس المسيحية الإنجيلية الأخلاقي نحو حركاتٍ تسعى لتحقيق التنمية الاجتماعية. كان هناك في أوائل الألفينات تحالفٌ ثنائي من النشطاء البيئيين الذين يأملون جعل التغير المناخي قضيةً مشتركة مع الإنجيليين تحت عناوين مثل الاعتناء بمخلوقات الله

والنزعة البيئية المنطلقة من الإيمان، ولكنَّ الكنائس الإنجيلية فئة رئيسية من فئات الحزب الجمهوري الذي تبنَّى استراتيجية عدم التعاون التام مع حكومة أوباما، فانتصرت القَبَلية السياسية واصطف الإنجيليون مع حزبهم وفضَّلوا التحرُّرية (الليبرتارية) الراديكالية على رعاية المخلوقات.

وكان هناك أمل لفترة قصيرة كذلك في عام 2016 في أن تقلب الفضائل المسيحية مثل التواضع والاعتدال والسماحة والكياسة والشهامة والحرص والعطف على الضعفاء الإنجيليين على مطور نوادي قمار متغطرس مترف انتقامي فاسق كاره للنساء ثري ثراءً فاحشًا ومزدرٍ للناس الذين يطلق عليهم «فاشلين». ولكنّ هذا لم يحدث: ففاز دونالد ترامب بأصوات 81 في المئة من المسيحيين الإنجيليين البيض وأولئك الذين وُلِدوا «ولادة ثانية»، وهي نسبة أعلى من نسبة الأصوات من أي فئة ديموغرافية أخرى. وفاز ترامب بأصواتهم بالوعد بإبطال قانونٍ يحظر على المؤسسات الخيرية المعفية من الضرائب (بما فيها الكنائس) الانخراط في النشاط السياسي، وهكذا هزم النفوذ السياسي الفضائل المسيحية.

إذا لم تعُد تعاليم الدين الفعلية تؤخذ مأخذ الجد وإذا كانت تعاليمه الأخلاقية تعتمد بالكامل على ما إذا كان يمكن للأخلاقية العلمانية تبريرها، فماذا عن ادعائه الحكمة في مسائل الوجود الكبرى؟ من حجج الملحدين المتعاونين مع المؤمنين المفضَّلة أنَّه لا يمكن سوى للدين أن يخاطب أعمق تطلعات القلب البشري، فالعلم لن يكون كافيًا لتناول المسائل الوجودية الكبرى كالحياة والموت والحب والوحدة والفقدان والشرف والعدالة الكونية والأمل الميتافيزيقي.

وهذا النوع من العبارات هو ما يطلق عليه دينيت (مقتبسًا من طفلٍ صغير) «شبه عميق» (deepity) أي يكون ظاهره عميقًا، ولكنّه يبدو هراءً بمجرد أن تفكِّر فيما يعنيه ». فبدايةً، ليس «العلم» بديلًا عن الدين من حيث مصدر المعنى، فلم يقترح أحدٌ مطلقًا أن نبحث في علم الأسماك أو طب الكلى عن المعرفة بالكيفية التي يجب أن نعيش بها حياتنا، وإنَّما أن نبحث عن ذلك في نسيج المعرفة البشرية والعقل المنطقي والقيم الإنسانية بأكملها، والذي يشكِّل العلم جزءًا منه. صحيح أنَّ هذا النسيج يحتوي على خيوط مهمة كان منشؤها الدين مثل اللغة ورموز الكتاب المقدس وكتابات الحكماء والباحثين والأحبار، ولكنَّ الأغلبية العظمى منه اليوم هي المحتوى العلمي بما يشمل مناظرات عن الأخلاق النابعة من الفلسفة الإغريقية وفلسفة التنوير، وتصوير الحب والفقدان والوحدة في أعمال شكسبير وشعراء المدرسة الرومانسية وروائيي القرن التاسع عشر وفنانين وكُتَّاب مقالات عظماء آخرين. بالحكم وفق المقاييس العالمية، اتَّضح أنَّ كثيرًا من إسهامات الدين في مسائل الحياة الكبرى ليست عميقة ولا خالدة، بل سطحية وعتيقة مثل مفهوم «العدالة» الذي يشمل عقاب الكفار أو مفهوم «الحب» الذي يناشد المرأة بإطاعة زوجها. وكما رأينا فأي تصور للحياة والموت يقوم على فكرة وجود روحٍ غير مادية مشكوك في صحته وخطير من الناحية الأخلاقية، وبما أنَّه لا وجود للعدالة الكونية والأمل الميتافيزيقي (في مقابل العدالة البشرية والأمل الدنيوي)، فلا معنى للبحث عنهما دون جدوى. لا يوجد ما يؤيد الادِّعاء بأنَّ على البشر البحث عن معنى أعمق في المعتقدات الغيبية.

ماذا عن حس «الروحانية» الأكثر تجريدًا؟ إذا كانت الروحانية تتمثَّل في امتنان المرء لوجوده، والرهبة من جمال الكون واتساعه، والتواضع أمام حدود الفهم البشري، فإنَّها بالتأكيد تجربة تجعل حياة المرء تستحق أن تُعاش، وترقى إلى أبعادٍ أسمى بما يكشف عنه كلٌّ من العلم والفلسفة. ولكنَّ «الروحانية» تُفهم غالبًا بأنَّها تعني شيئًا أكبر، وهو القناعة بأنَّ الكون شخصي بصورةٍ ما، وأنَّ لكل شيء

سببًا، وأنَّنا سنجد المعنى في خضم الحياة. كانت أوبرا وينفري تتحدَّث في الحلقة الأخيرة من برنامجها البارز نيابةً عن الملايين عندما صرَّحت قائلةً: «إنَّني أفهم تجليات الله وفضله، لذا أعرف أنَّه لا توجد صدف، لا توجد صدف على الإطلاق، فلا يوجد سوى نظام إلهي».

ذُكِر حس الروحانية هذا في سكتش كوميدي للفنانة الكوميدية إيمي شومر (Amy Schumer) بعنوان «الكون»، يبدأ بمبسِّط العلوم بيل ناي (Bill Nye) واقفًا أمام خلفيةٍ من النجوم والمجرات:

ناي: الكون؛ حاولت البشرية طيلة قرون فهم هذا الامتداد الشاسع من الطاقة والغاز والغبار، ولكنّ طفرة مذهلة في مفهومنا عمَّا يفعله الكون حدثت في السنوات الأخيرة.

[*تقريب الصورة على سطح الأرض، ثم على متجر زبادي مثلج تتبادل فيه شابتان أطراف الحديث.*]

الفتاة الأولى: كنتُ أرسل رسالة نصية أثناء القيادة، فانعطفت منعطفًا خاطئًا أدى بي إلى المرور أمام متجر للفيتامينات، فقلتُ لنفسي إنَّه لا بد وأنَّ الكون يخبرني بأنَّ عليَّ تناول الكالسيوم!

ناي: كان العلماء يعتقدون سابقًا أنَّ الكون عبارة عن تجمُّعٍ فوضوي للمادة، ولكنَّنا الآن نعرف أنَّ الكون هو بالأساس قوة ترسل إرشادات كونية للنساء في العشرينيات من عمرهن.

[*تقريب الصورة على صالة رياضية بها إيمي شومر وصديقتها على دراجات ثابتة.*]

شومر: تعرفين أنَّني أضاجع مديري المتزوج منذ حوالي ستة أشهر، ثم بدأتُ أخشى أنَّه لن يترك زوجته أبدًا، ولكن في تدريب اليوجا أمس، كانت الفتاة أمامي مرتديةً قميصًا مكتوبًا عليه ''Chill'' (أي اهدأ)، ففكرتُ أنَّ الكون بالتأكيد يقول لي: «واصلي مضاجعة مديرك المتزوج!»

ليست «الروحانية» التي ترى معنى كونيًّا في أهواء الحظ حكيمةً وإنَّما حمقاء، والخطوة الأولى نحو الحكمة هي إدراك أنَّ قوانين الكون لا تهتم بك، وما عليك إدراكه ثانيًا أنَّ هذا لا يقتضي أن تكون حياتك خالية من المعنى، لأنَّ *الناس* يهتمون بك، وأنت تهتم بهم، وتهتم بنفسك، وأنت مسؤول عن احترام قوانين الكون التي تُبقيك على قيد الحياة كل لا تُضيع وجودك. يهتم بك أحباؤك ولديك مسؤولية تجاه أطفالك بألَّا تتركهم يتامى، وتجاه زوجتك بألَّا تتركها أرملة، وتجاه والديك بألَّا تفطر قلبيهما. ويهتم بك أي شخص ذي حساسية إنسانية، لا يعني هذا أنَّه يشعر بألمك، فالتعاطف الإنساني أضعف من أن يتوزع على مليارات الغرباء، ولكنَّه يعني أنَّه يدرك أنَّ وجودك لا يقل أهمية عن وجوده من منظورٍ كوني، وأنَّ علينا جميعًا مسؤولية استخدام قوانين الكون في تحسين الظروف كي نتمكّن جميعًا أن نزدهر.

لنُنحِّ الحُجج جانبًا، هل تقاوم الحاجة إلى الإيمان النزعة الإنسانية العلمانية؟ يتباهى المؤمنون والملحدون المتعاونون مع المؤمنين وكارهو العلم والتقدُّم بعودة الدين الظاهرية في كل أنحاء العالم، ولكن كما سنرى فإنَّ هذا الارتداد عبارة عن وهم، فالدين الأسرع نموًا في العالم هو اللا دين.

ليس قياس تاريخ الاعتقادات الدينية سهلًا، فلم تطرح سوى بضع استطلاعات رأي على الناس الأسئلة نفسها في أزمنة وأماكن مختلفة، وحتى عندما تطرح نفس الأسئلة، فإنّ المشاركين فيها يفسرونها تفسيرات مختلفة. يتحسَّس كثيرٌ من الناس من إطلاق لفظ «ملحد» على أنفسهم، فهو لفظ يساوي في نظرهم كلمة «غير أخلاقي»، وهو ما قد يعرِّضهم للعدائية والتمييز و–في كثيرٍ من الدول الإسلامية– السجن أو التشويه أو الموت. إضافةً إلى أنَّ معظم الناس ذوي معتقدات لاهوتية ضبابية وقد يتوقَّفون عند التصريح بالإلحاد في حين يعترفون بأنَّهم لا يؤمنون بأي أديانٍ أو معتقدات دينية أو يرون الدين غير مهم أو أنَّهم روحانيون ولكنَّهم ليسوا مؤمنين أو أنَّهم يؤمنون بوجود «قوة عليا» لا بوجود إله. قد تتوصل استطلاعات الرأي المختلفة إلى تقديرات مختلفة لعدم الإيمان بالدين حسب صياغة البدائل الأخرى.

لا يمكننا الجزم بعدد غير المؤمنين في العقود والقرون الماضية، ولكن لا بد وأنَّ عددهم لم يكُن كبيرًا، إذ كانت نسبتهم 0.2 في المئة في عام 1900 حسب أحد التقديرات. وفقًا لمسح أجراه ائتلاف الشبكة العالمية المستقلة ومؤسسة جالوب الدولية على خمسين ألف شخصٍ في سبعة وخمسين دولة عام 2012، فإنَّ 13 في المئة من سكان العالم يصنِّفون أنفسهم بأنَّهم «ملحدون عن اقتناع»، بعد أن كانت النسبة 10 في المئة في عام 2005. لن يكون من الغريب أن نقول إنَّ معدل الإلحاد العالمي زاد على مدار القرن العشرين بخمسمئة ضعف ثم تضاعف ثانيةً حتى هذا اليوم في القرن الحادي والعشرين. يصنِّف 23 في المئة من سكان العالم أنفسهم بأنَّهم «غير متدينين»، مما يترك لنا 59 في المئة من سكان العالم يندرجون تحت تصنيف «المتدينين»، بعد أن كانت نسبتهم ما يقرب من 100 في المئة منذ قرنٍ.

طبقًا لفكرةٍ قديمة في العلوم الاجتماعية يُطلق عليها «أطروحة العلمنة»، فإنَّ اللا دين نتيجة طبيعية للرغد والتعليم، وتؤكِّد دراساتٌ حديثة أنَّ الدول الأغنى وذات مستوى التعليم الأفضل تكون غالبًا أقل تديُّنًا. يظهر هذا التراجع بوضوحٍ أكبر في الدول المتقدِّمة في غرب أوروبا ودول الكومنولث وشرق آسيا. فالمتدينون أقلية في أستراليا وكندا وفرنسا وهونج كونج وأيرلندا واليابان وهولندا والسويد وعدة دول أخرى، وتتراوح نسبة الملحدين فيها من رُبع السكان إلى أكثر من نصفهم. تراجعت الأديان أيضًا في الدول الشيوعية سابقًا (وخاصةً الصين)، في حين لم تتراجع في أمريكا اللاتينية والعالم الإسلامي ومنطقة أفريقيا جنوب الصحراء.

لا توضِّح البيانات أي علامة على حركة عالمية لإحياء الدين. أصبحت إحدى عشرة دولة فقط من بين تسعٍ وثلاثين دولة خضعت للمسحين اللذين أجراهما *المؤشر* في عامي 2005 و2012 أكثر تدينًا، ولم تكُن هذه الزيادة أكثر من 6 نقاط مئوية، بينما أصبحت ستٌّ وعشرون دولة أقل تدينًا بدرجةٍ كبيرة. وعلى عكس الانطباعات التي تصلنا من الأخبار، فإنَّ الدول سريعة التأثر الديني مثل بولندا وروسيا والبوسنة وتركيا والهند ونيجيريا وكينيا أصبحت *أقل* تدينًا على مدار تلك السنوات السبعة، وكذلك الولايات المتحدة (سنتحدث أكثر عن هذا الأمر لاحقًا). تراجعت النسبة الإجمالية لمن يصنِّفون أنفسهم بأنَّهم متدينون بمقدار تسع نقاط، ممَّا أفسح مجالًا لزيادة نسبة «الملحدين عن اقتناع» في أغلبية الدول.

حاول استطلاعٌ عالمي آخر أجراه مركز بيو للأبحاث تقدير الانتماء الديني في المستقبل (ولم يسأل عن المعتقد)، وجد الاستطلاع أنَّ سُدس سكان العالم اختاروا «لا دين» إجابةً عن السؤال عن دينهم في عام 2010، هناك في العالم لا دينيون أكثر من الهندوس أو البوذيين أو اليهود أو المؤمنين بالأديان الشعبية، وهذه هي «الطائفة» التي يُتوقَّع أن يتحوَّل إليها أكبر عدد من الناس، فبحلول عام 2050 سيكون عدد من تركوا دينهم أكثر ممَّن دخلوا في الدين بمقدار 61.5 مليون شخص.

ومع كل هذه الأرقام التي توضّح أنَّ الناس يصبحون أقل تدينًا، فمن أين جاءت فكرة إحياء الدين؟ جاءت ممَّا يطلق عليه الكيبيكيون *la revanche du berceau*، أي الانتقام بالإنجاب، فالمتدينون ينجبون أطفالًا أكثر. أجرى علماء السكان في مركز بيو بعض الحسابات وتنبؤوا بأنَّ نسبة المسلمين من سكان العالم ستزيد من 23.2 في المئة في عام 2010 لتبلغ 29.7 في المئة في عام 2050، في حين ستظل نسبة المسيحيين كما هي دون تغيير، وستنخفض نسبة كل الطوائف الأخرى –ومن بينها غير المنتسبين إلى الأديان–. حتى هذا التوقُّع مربوط بتقديرات الخصوبة الحالية وربما يعتبر باطلًا إذا مرت أفريقيا (المتدينة الخصبة) بتحول ديموغرافي، أو إذا تواصل تراجع خصوبة المسلمين الذي ناقشناه في الفصل العاشر.

أحد الأسئلة المهمة فيما يخص موجة العلمنة هو ما إذا كانت مدفوعة بتغير الزمن (أثر الفترة) أم شيخوخة السكان (أثر السن) أم تعاقب الأجيال (أثر الفئة العمرية). لا تتوفر البيانات التي تشمل عدة عقود والتي نحتاج إليها للإجابة عن هذا السؤال سوى في دول قليلة، وكلها ناطقة بالإنجليزية. انخفض معدل تديّن الأستراليين والنيوزيلنديين والكنديين بمرور السنوات، وهذا على الأرجح نتيجة تغير الزمن وليس نتيجة شيخوخة السكان (فمن المتوقَّع أن يزداد الناس تدينًا عندما يشارفون على لقاء خالقهم وليس العكس). لم يحدث تغيُّرٌ كهذا في روح العصر في بريطانيا ولا أمريكا، ولكن في الدول الخمسة جميعًا، كان كل جيل أقل تدينًا من سابقه، فأثر الفئة العمرية جوهري. قال أكثر من 80 في المئة من الجيل الأعظم («جيل آي» – المولود في الفترة بين عامي 1905 و1924) من البريطانيين إنَّهم ينتسبون إلى دينٍ ما، ولم يقُل ذلك من جيل الألفية سوى أقل من 30 في المئة في نفس العُمر تقريبًا. وقال أكثر من 70 في المئة من الجيل الأعظم من الأمريكيين إنَّهم يعرفون أنَّ الله موجود» ولكن لم يقُل ذلك من أبناء أحفادهم من جيل الألفية سوى 40 في المئة فقط.

يزيل اكتشاف تعاقب الأجيال في مختلف دول الأنجلوسفير شوكةً كبيرة من ظهر أطروحة العلمنة، وهي الولايات المتحدة الثرية وإن كانت متدينة. لاحظ أليكسيس دي توكفيل (Alexis de Tocqueville) منذ عام 1840 أنَّ الأمريكيين أكثر ورعًا من الأوروبيين، وما زال هذا الاختلاف قائمًا اليوم، ففي عام 2012، صنَّف 60 في المئة من الأمريكيين أنفسهم بأنَّهم متدينون، مقارنةً بـ 46 في المئة من الكنديين، و37 في المئة من الفرنسيين، و29 في المئة من السويديين، وتحتوي الدول الديمقراطية الغربية الأخرى من ضعفي إلى 6 أضعاف نسبة الملحدين الموجودين في الولايات المتحدة.

ولكن رغم أنَّ الأمريكيين ذوو مستوى أعلى من الإيمان، إلَّا أنَّهم لم يتفادوا مسار العلمنة من جيلٍ إلى الجيل الذي يليه. لخَّص تقريرٌ أمريكي حديث هذا الاتجاه بعنوان: «الخروج الكبير: لماذا يخرج الأمريكيون من الدين؟ ولماذا لن يعودوا إليه؟» يتَّضح هذا «الخروج» أكثر في زيادة نسبة غير المنتسبين لأديان من 5 في المئة في عام 1972 إلى 25 في المئة اليوم، مما يجعلهم أكبر فئة «دينية» في الولايات المتحدة متجاوزةً الكاثوليك (21 في المئة) والإنجيليين البيض (16 في المئة) والتيار الرئيسي من البروتستانتيين البيض (13.5 في المئة). كما أنَّ منزلق «الفئة العمرية» شديد الانحدار، فنسبة غير المنتسبين إلى أديانٍ من الجيل الصامت وجيل طفرة المواليد الأكبر سنًّا 13 في المئة فقط، مقارنةً بـ 39 في المئة من جيل الألفية، والأكثر من ذلك أنَّ الأجيال الأصغر يحتمل أن تظل غير متدينة عندما تكبر في السن وتواجه فناءها. والاتجاهات أكثر دراميةً بين أفراد الفئة الفرعية من غير المنتسبين إلى أديان والذين لا ينطبق عليهم «أي مما سبق» وإنَّما يصرّحون بأنَّهم غير مؤمنين، وارتفعت نسبة الأمريكيين الذين يقولون إنَّهم ملحدون أو لا أدريون أو أنَّ الدين لا يهمهم (لم يكونوا يزيدون في الخمسينيات على الأرجح على نقطة مئوية أو اثنتين) إلى 10.3 في المئة في عام 2007 و15.8 في المئة في عام 2014. تنقسم الفئات العمرية إلى ما يلي: 7 في المئة من الجيل الصامت، و11 في المئة من جيل طفرة المواليد، و25 في المئة من جيل الألفية. وتشير

تقنيات الاستطلاع الذكية المصمَّمة لتجاوز حساسية الناس من الاعتراف بالإلحاد أنَّ النسب الحقيقية أعلى من ذلك.

لماذا إذًا يظن المعلِّقون أنَّ الدين يتعافى في الولايات المتحدة؟ يرجع هذا لاكتشافٍ آخر بخصوص الخروج الأمريكي الكبير: وهو أنَّ غير المنتسبين إلى أديانٍ لا يصوِّتون في الانتخابات، فكانوا في عام 2012 يشكِّلون 20 في المئة من السكان و12 في المئة فقط من الناخبين. إنّ الأديان المنظمة هي بطبيعة الحال منظمة وهي تسخِّر هذا التنظيم في التشجيع على التصويت وتوجيه الأصوات نحو مرشَّحيها. شكَّل البروتستانتيون الإنجيليون البيض 20 في المئة من السكان البالغين أيضًا في عام 2012، ولكنَّهم شكَّلوا *26 في المئة* من الناخبين، أي أكثر من ضعف نسبة غير المتدينين. فرغم أنَّ غير المنتسبين إلى أديانٍ كانوا يدعمون كلينتون في مقابل ترامب بنسبة ثلاثة إلى واحد، إلَّا أنَّهم مكثوا في منازلهم في يوم 8 من نوفمبر عام 2016 بينما اصطف الإنجيليون أمام اللجان الانتخابية للتصويت. وتنطبق أنماطٌ مماثلة على الحركات الشعبوية في أوروبا، فالمثقَّفون ربما يسيئون فهم هذا النفوذ الانتخابي على أنَّه عودة للدين، وهي وهمٌ يقدِّم لنا تفسيرًا ثانيًا (إلى جانب الخصوبة) لسبب كون العلمنة متخفية.

لماذا يفقد العالم أديانه؟ هناك أسبابٌ عدة: جرَّمت الحكومات الشيوعية في القرن العشرين الدين أو ثَنَت عنه، وعندما أصبحت ليبرالية، تباطأ مواطنوها في استعادة الميول الدينية. يرجع بعض هذا الجفاء جزئيًّا إلى قلة الثقة في *كل* المؤسسات التي وصلت إلى ذروتها في الستينيات، ويرجع بعضه إلى التيار العالمي المتجه نحو القيم التحررية (الفصل الخامس عشر) مثل حقوق المرأة والحرية الإنجابية والتسامح مع المثلية الجنسية. إضافةً إلى أنَّه مع زيادة الأمان المعيشي للناس بفضل سعة العيش والرعاية الطبية والتأمينات الاجتماعية، فإنهم لم يعودوا يدعون الله أن ينقذهم من الهلاك، فالدول التي تتمتَّع بشبكات أمانٍ أقوى تكون أقل تدينًا مع ثبات كل العوامل الأخرى. ولكنَّ السبب الأبرز ربما يكون هو المنطق نفسه، فعندما يصبح لدى الناس فضول فكري أكثر وثقافة علمية أكبر، يتوقفون عن الإيمان بالمعجزات، فالسبب الأكثر شيوعًا لترك الأمريكيين دينهم هو «عدم الإيمان بتعاليم الدين». لقد رأينا بالفعل أنَّ الدول ذات مستوى التعليم الأفضل بها معدلات إيمان أقل، ويتبع الإلحاد أثر فلين، فكلما ازدادت الدول ذكاءً، ابتعدت عن الله.

يكذِّب تاريخ العلمنة وجغرافيتها الخوف من أنَّ المجتمعات محكوم عليها في حالة غياب الدين بغياب المعايير الاجتماعية وبالعدمية و«الخسوف الكلي» لكل القيم، أيًّا ما كانت أسباب هذا الخوف. فالعلمنة تقدمت بالتوازي مع كل التقدم التاريخي الموثق في الجزء الثاني، وكثير من المجتمعات غير المتدينة مثل كندا والدنمارك ونيوزيلندا تُعد من بين أجمل أماكن المعيشة في تاريخ البشر (وهي ذات مستويات عالية من كل شيء جيد في الحياة يمكن قياسه)، في حين أنَّ كثيرًا من أكثر مجتمعات العالم تدينًا تمثِّل جحيمًا على الأرض. الاستثنائية الأمريكية مثيرة للاهتمام، فالولايات المتحدة أكثر تدينًا من أقرانها الأوروبيين ولكنَّ مستواها أقل في السعادة والرفاهة، ولديها معدلات أعلى من جرائم القتل والحبس والإجهاض والأمراض المنقولة جنسيًّا ووفيات الأطفال والسمنة المفرطة والجودة التعليمية المتوسطة والوفاة المبكرة. ينطبق الكلام نفسه على الخمسين ولاية، فكلَّما ازداد تدين الولاية، كانت حياة مواطنيها أكثر اختلالًا. يبدو أنَّ السببية تسير في اتجاهات عدة، ولكن من المعقول أن تؤدي العلمنة في الدول الديمقراطية إلى النزعة الإنسانية وتُبعد الناس عن الصلاة والعقائد والسلطة الكنسية وتوجههم نحو السياسات العملية التي تجعل حالهم وحال أصدقائهم أفضل.

ومهما كانت المبادئ الأخلاقية الدينية التوحيدية في الغرب مؤذية، فإنّ تأثيرها في الإسلام المعاصر أكثر إثارةً للقلق، فلا يمكن لأي نقاشٍ

عن التقدم العالمي أن يتجاهل العالم الإسلامي الذي يبدو وفق عددٍ من المقاييس الموضوعية أنَّه خارج مسار التقدم الذي يتمتَّع به بقية العالم. إنَّ أداء الدول ذات الأغلبية المسلمة ضعيف في مقاييس الصحة والتعليم والحرية والسعادة والديمقراطية والاحتفاظ بالثروة، فكل الحروب التي اندلعت في عام 2016 اندلعت في دولٍ ذات أغلبية مسلمة أو كانت تتضمَّن جماعات إسلامية، وكانت تلك الجماعات مسؤولة عن الأغلبية العظمى من الهجمات الإرهابية. وكما رأينا في الفصل الخامس عشر فإنَّ القيم التحررية كالمساواة بين الجنسين والاستقلالية الذاتية والصوت السياسي أقل شيوعًا في قلب العالم الإسلامي من أي منطقة أخرى في العالم، بما فيها منطقة أفريقيا جنوب الصحراء، وحقوق الإنسان في وضعٍ شديد السوء في كثيرٍ من الدول الإسلامية التي تطبِّق الحدود الوحشية (مثل الجَلد والتعمية وقطع الأوصال)، لا عقابًا على جرائمٍ فعلية وإنَّما على المثلية الجنسية والسحر والردة والتعبير عن الآراء الليبرالية على مواقع التواصل الاجتماعي.

كم مظهرًا من مظاهر غياب التقدم هذا ناتج عن المبادئ الأخلاقية الدينية؟ لا يمكن عزوه بالتأكيد إلى الإسلام نفسه، فالحضارة الإسلامية شملت ثورةً علمية مبكرة، وكانت طوال تاريخها أكثر تسامحًا وعالميةً وسلامًا داخليًّا من الغرب المسيحي. بعض التقاليد الرجعية الموجودة في الدول ذات الأغلبية المسلمة مثل تشويه الأعضاء التناسلية للإناث و«جرائم الشرف» مثل قتل الأخوات والبنات غير العفيفات هي في الحقيقة ممارسات قبَلية أفريقية أو آسيوية قديمة وينسبها ممارسوها خطأً إلى الشريعة الإسلامية. وبعض المشكلات موجودة في دول ديكتاتورية أخرى مصابة بلعنة الموارد، وتفاقمت مشكلات أخرى بفعل التدخلات الغربية الخرقاء في الشرق الأوسط بما فيها تمزيق الإمبراطورية العثمانية ودعم المجاهدين المعادين للاتحاد السوفييتي في أفغانستان وغزو العراق.

ولكن يمكن عزو جزء من مقاومة تيار التقدم إلى الاعتقاد الديني، فتبدأ المشكلة من حقيقة كون كثير من تعاليم الإسلام مناهضة للنزعة الإنسانية عندما تُفهم بالمعنى الحرفي، فالقرآن يتضمن عددًا كبيرًا من الآيات التي تعبِّر عن كراهية الكفار وحقيقة الاستشهاد وقدسية الجهاد المسلَّح، ويقر جلد شارب الخمر ورجم الزناة والمثليين جنسيًّا وصلب أعداء الإسلام والاسترقاق الجنسي للوثنيين والزواج القسري للفتيات في عمر التاسعة.

كثيرٌ من آيات الكتاب المقدس مناهضة للنزعة الإنسانية أيضًا بالطبع. لا حاجة للجدال حول أيهما أسوأ من الآخر، فما يهم هو مدى الحرفية التي يفهمهما بها أتباعهما. لدى الإسلام –كبقية الأديان الإبراهيمية– نسخته الخاصة من الجدلية اليهودية والمناظرة اليسوعية التي تستخدم المجاز وتقسِّم النص إلى أجزاء وتؤوِّلها لتحسين صورتها. لدى الإسلام أيضًا نسخته الخاصة من اليهود ثقافيًّا فقط والكاثوليكيين الانتقائيين والمسيحيين بالاسم فقط. تكمن المشكلة في أنَّ هذا النفاق الحميد أقل تطورًا في العالم الإسلامي المعاصر.

لاحظ عالما السياسة إيمي ألكساندر (Amy Alexander) وكريستيان ويلزيل عند فحص البيانات الضخمة الخاصة بالانتماء الديني التي أتاحها مسح القيم العالمية أنَّ «من يصنِّفون أنفسهم بأنَّهم مسلمون يبرزون كالطائفة ذات النسبة الأكبر حتى الآن من الأشخاص شديدي التديُّن، وهي: 82%. والأكثر إدهاشًا من ذلك أنَّ 92% ممَّن يصنِّفون أنفسهم بأنَّهم مسلمون يضعون أنفسهم في أعلى نقطتين على مقياس التدين المكون من عشر نقاط [مقارنةً بأقل من نصف اليهود والكاثوليك والإنجيليين]. يبدو أنَّ تصنيف نفسك كمسلم –بغض النظر عن المذهب– مرادف تقريبًا لكونك شديد التديُّن». ونجد نتائج مشابهة في بعض الاستطلاعات الأخرى. وجد استطلاع رأي كبير أجراه مركز بيو للأبحاث أنَّه «في 32 دولة من بين 39 دولة خاضعة للاستطلاع، يقول نصف المسلمين أو أكثر أنَّه ليس هناك سوى طريقة واحدة لفهم تعاليم الإسلام»، وأنَّ ما بين 50 و93 في المئة في الدول التي طُرِح فيها السؤال عن حرفية القرآن يؤمنون أنَّه «يجب قراءة القرآن حرفيًّا، كلمة بكلمة» وأنَّ «هناك نسبا غامرة من المسلمين في كثيرٍ من الدول يريدون أن تكون

الشريعة الإسلامية التشريع الرسمي للبلاد».

الارتباط لا يعني السببية، ولكن إذا جمعت بين حقيقة أنَّ كثيرًا من تعاليم الإسلام مناهضة للإنسانية وحقيقة أنَّ كثيرًا من المسلمين يؤمنون بأنَّ التعاليم الإسلامية منزهة عن الخطأ، إضافةً إلى حقيقة أنَّ المسلمين الذين ينفِّذون السياسات غير الليبرالية وأفعال العنف، نجد أنَّه من الصعب أن نقول إنَّ الممارسات غير الإنسانية لا علاقة لها بالتقوى الدينية وأنَّ السبب الحقيقي هو النفط أو الاستعمارية أو الإسلاموفوبيا أو الاستشراق أو الصهيونية. ولمن يحتاجون إلى بياناتٍ كي يقتنعوا، ففي مسوح القيم العالمية التي يُقاس فيها كل متغير يحب علماء الاجتماع قياسه (بما يشمل الدخل والتعليم والاعتماد على عوائد النفط)، يرتبط الإسلام نفسه بجرعةٍ إضافية من القيم الأبوية وقيم غير ليبرالية أخرى في مختلف الدول وبين مختلف الأفراد، وكذلك ارتياد المسجد في المجتمعات غير الإسلامية (هذه القيم متفشية للغاية في المجتمعات الإسلامية ممَّا يجعل ارتياد المسجد فيها عاملًا غير مهم).

كانت كل هذه الأنماط المقلقة تنطبق على العالم المسيحي يومًا ما، ولكنَّ الغرب بدأ مع التنوير عملية (وما زالت هذه العملية مستمرة) فصل الكنيسة عن الدولة وخلق مساحة للمجتمع المدني العلماني وتأسيس مؤسساته على أخلاقيات إنسانية عالمية. ليست تلك العملية حتى في طريقها إلى التطبيق في معظم الدول ذات الأغلبية المسلمة. وضَّح مؤرخون وعلماء اجتماع (كثيرٌ منهم مسلمون) كيف أعاقت سيطرة الدين الإسلامي المحكمة على المؤسسات الحكومية والمجتمع المدني في الدول الإسلامية تقدمها الاقتصادي والسياسي والاجتماعي.

ممَّا يزيد الوضع سوءًا أيديولوجية رجعية أصبحت مؤثرة بفعل كتابات الكاتب المصري سيد قطب (وُلد عام 1906 وتوفي عام 1966)، وكان عضوًا في جماعة الإخوان المسلمين والملهم الاساسي لإنشاء تنظيم القاعدة وحركات إسلامية أخرى. تتأمل هذه الأيديولوجية في أيام المجد في عهد الرسول والخلفاء الراشدين والحضارة العربية الكلاسيكية، وترثي حال القرون اللاحقة التي تتسم بالذل على أيدي الصليبيين والقبائل الخيالة والمستعمرين الأوروبيين وأخيرًا أنصار الحداثة العلمانية الخبيثة. يُنظر إلى ذلك التاريخ على أنَّه نتاج هجر الممارسات الإسلامية المتشددة، ولا يمكن أن ينتج الخلاص سوى عن طريق إحياء الدول الإسلامية الحقيقية التي تحكمها الشريعة وتتطهر من التأثيرات غير الإسلامية.

رغم أنَّ دور المبادئ الأخلاقية الدينية في المشكلات التي تكتنف العالم الإسلامي حتمي، إلَّا أنَّ كثيرًا من المفكِّرين الغربيين –الذين سيستاؤون لو وجدوا في مجتمعاتهم القمع وكراهية النساء ورهاب المثلية والعنف السياسي الشائعين في العالم الإسلامي، حتى وإن كانت أقل بمئة ضِعف– أصبحوا يميلون إلى التبرير الغريب عند القيام بهذه الممارسات باسم الإسلام. لا شك أنَّ بعض التبريرات تنطلق من رغبة جديرة بالإعجاب في منع العنصرية ضد المسلمين، وبعضها بقصد تكذيب رواية هدَّامة (وربما تحقِّق ذاتها) تقول إنَّ العالم متورط في صراع حضارات، وينتمي بعضها إلى تاريخٍ طويل من المفكرين الغربيين الذين يلعنون مجتمعهم ويصورون أعداءه بصورةٍ رومانسية (وهي متلازمة سنعود إليها بعد قليل). ولكنَّ كثيرًا من التبريرات تنبع من احتفاظ الملحدين والملحدين المتعاونين مع المؤمنين ومفكِّري الثقافة الثانية بعواطفَ رقيقة تجاه الدين، وعزوفهم عن الدعم الكامل للنزعة الإنسانية التنويرية.

ليس انتقاد خصائص المعتقد الإسلامي المعاصر المناهضة للإنسانية إسلاموفوبيا ولا صراع حضارات على الإطلاق، فالأغلبية الساحقة من ضحايا القمع والعنف الإسلامي مسلمون آخرون. الإسلام ليس عرقًا، وكما قالت الناشطة المسلمة سابقًا سارة حيدر: «الأديان مجرد أفكار وليس لها حقوق». ليس انتقاد أفكار الإسلام أكثر تعصبًا من انتقاد أفكار النيو ليبرالية أو منصة الحزب الجمهوري.

هل يمكن أن يتمتَّع العالم الإسلامي بالتنوير؟ هل يمكن أن يوجد إسلام إصلاحي أو إسلام ليبرالي أو إسلام إنساني أو مجمع مسكوني إسلامي وأن يحدث فصل بين المسجد والدولة؟ يصر كثيرٌ من المفكِّرين محبي الدين على أن يجدوا أعذارًا لعدم ليبرالية الإسلام في أنَّه من غير المنطقي توقُّع إحراز المسلمين أي تقدُّم يتجاوز الإسلام. وفي حين قد يتمتَّع الغرب بالسلام والرخاء والتعليم والسعادة التي تتسم بهم مجتمعات ما بعد التنوير، فلن يقبل المسلمون أبدًا هذا الانغماس السطحي في اللذات، ومن المفهوم أن يتمسَّكوا بنظامٍ قائم على تقاليد ومعتقدات من العصور الوسطى إلى الأبد.

ولكنَّ تاريخ الإسلام والحركات الوليدة فيه يكذّبان هذا الاستعلاء، كانت الحضارة العربية الكلاسيكية كما ذكرت مركزًا للعلوم والفلسفة العلمانية. وثَّق أمارتيا سن كيف طبَّق الإمبراطور المغولي أكبر الأول في القرن السادس عشر نظامًا اجتماعيًّا ليبراليًّا متعدِّد الأديان والمعتقدات (يشمل الملحدين واللا أدريين) في الهند تحت حكم الإسلام في وقتٍ كانت فيه محاكم التفتيش على أشدِّها في أوروبا وأُحرِق جوردانو برونو حيًّا عقابًا على الهرطقة. تعمل الآن قوى الحداثة في أجزاء كثيرة من العالم الإسلامي، فقد قطعت كلٌّ من تونس وبنجلاديش وماليزيا وإندونيسيا شوطًا طويلًا نحو الديمقراطية الليبرالية (الفصل الرابع عشر)، والمواقف تجاه النساء والأقليات في تحسن في كثيرٍ من الدول الإسلامية (الفصل الخامس عشر)، وهي تتحسَّن ببطءٍ ولكن بشكلٍ ملحوظٍ أكثر بين النساء والشباب والمتعلِّمين. لن تتجاوز القوى التحررية التي حررت الغرب –مثل سهولة التواصل والتعليم والحراك وتقدم النساء– العالم الإسلامي، أمَّا الممشى المتحرك المتمثل في إحلال جيل محل آخر فقد يتجاوز في سرعته المشاة المتثاقلين عليه.

الأفكار مهمة أيضًا، إذ يضغط عددٌ من المفكِّرين والكُتَّاب والناشطين المسلمين منذ وقتٍ بعيد من أجل إحداث ثورة إنسانية في الإسلام، ومن بينهم سعاد عدنان (المؤسسة المشاركة للمركز العربي للأبحاث العلمية والدراسات الإنسانية في المغرب) ومصطفى أكيول (مؤلِّف كتاب «**الإسلام دون تطرف**» *"Islam Without Extremes"*) وفيصل سعيد المطر (مؤسس الحركة الإنسانية العلمانية العالمية) وسارة حيدر (المؤسسة المشاركة لمنظمة المسلمين السابقين في أمريكا الشمالية) وشادي حميد (مؤلِّف كتاب «**الاستثنائية الإسلامية**» *"Islamic Exceptionalism"*) وبرويز هودبوي (مؤلِّف كتاب «**الإسلام والعلم: التشدُّد الديني ومعركة العقلانية**» *"Islam and Science: Religious Orthodoxy and the Battle for Rationality"*)، وأمير أحمد نصر (مؤلِّف كتاب «**إسلامي**» *"My Isl@m"*) وجولالاي إسماعيل (مؤسسة منظمة الفتيات الواعيات "Aware Girls" في باكستان)، وشيراز ماهر (مؤلف كتاب «**الجهادية السلفية**» *"Salafi-Jihadism"* الذي اقتبسنا منه في الفصل الأول)، وعمر محمود، وإرشاد مانجي (مؤلفة كتاب «**مشكلة الإسلام**» *"The Trouble with Islam"*)، ومريم نمازي (المتحدثة باسم منظمة قانون واحد للجميع "One Law for All")، وتسليمة نسرين (مؤلفة كتاب «**طفولتي كفتاة**» *"My Girlhood"*)، وإسراء نعماني (مؤلفة كتاب «**الوقوف وحدي في مكة**» *"Standing Alone in Mecca"*)، وماجد نواز (المؤلف المشارك مع سام هاريس في كتاب «**الإسلام ومستقبل التسامح**» *"Islam and the Future of Tolerance"*)، وراحيل رضا (مؤلفة كتاب «**جهادهم وليس جهادي**» *"Their Jihad, Not My Jihad"*)، وعلي رضوي (مؤلف كتاب «**المسلم الملحد**» *"The Atheist Muslim"*، ووفاء سلطان (مؤلفة كتاب «**إلهٌ يكره**» *"A God Who Hates"*، ومحمد سيد (رئيس منظمة المسلمين السابقين في أمريكا الشمالية)، وأشهرهم سلمان رشدي وآيان هيرسي علي وملالا يوسفزاي.

من الواضح أنَّ أي تنوير إسلامي جديد يجب أن يكون بقيادة المسلمين، ولكنَّ غير المسلمين لهم دور عليهم أن يؤدونه. إنَّ

الشبكة العالمية للتأثير الفكري متداخلة وملتحمة، وبالنظر إلى مكانة الغرب وقوته (حتى لدى من يكرهونه)، فيمكن للقيم والأفكار الغربية أن تسيل وتتدفق وتنهمر كالشلال بطرقٍ مفاجئة (فكان لدى أسامة بن لادن على سبيل المثال كتابٌ من تأليف نعوم تشومسكي). يشير تاريخ التقدم الأخلاقي المذكور في كتبٍ مثل «**ميثاق الشرف**» ''*The Honor Code*'' للفيلسوف كوامي أنتوني أبيا (Kwame Anthony Appiah)، إلى أنَّ الوضوح الأخلاقي في ثقافةٍ ما حول ممارسةٍ رجعية تقوم بها ثقافةٌ أخرى لا تستدعي دائمًا رد فعل ساخطًا ولكنَّه قد يُشعِر المتباطئين بالخزي حتى يقوموا بالإصلاح المتأخر (تشمل الأمثلة الماضية على ذلك العبودية والمبارزة وربط القدم والفصل العنصري، وربما تشمل الأمثلة المستقبلية التي تستهدف الولايات المتحدة عقوبة الإعدام والإفراط في الحبس). قد تمثِّل الثقافة الفكرية التي تدافع عن قيم التنوير بصمودٍ ولا تنغمس في الدين عندما يصطدم مع القيم الإنسانية منارةً للطلاب والمفكرين وأصحاب العقول المنفتحة في بقية أنحاء العالم.

بعد عرض منطق النزعة الإنسانية، لاحظتُ تناقضه الصارخ مع منظومتين عقائديتين أخريين. ألقينا للتو نظرةً على المبادئ الأخلاقية الدينية، وسأتجه الآن نحو عدو النزعة الإنسانية الآخر، وهو الأيديولوجية التي تحرِّك السلطوية الناهضة والقومية والشعبوية والتفكير الرجعي، بل وحتى الفاشية. تدَّعي هذه الأيديولوجية –كما تفعل المبادئ الأخلاقية الدينية– امتلاك أسس فكرية والصلة الوثيقة بالطبيعة البشرية والحتمية التاريخية، وكما سنرى فإنَّ كل هذه الادِّعاءات الثلاثة خاطئة. لنبدأ ببعض التاريخ الفكري.

إذا أردنا أن نخص بالذكر مفكِّرًا يمثِّل نقيض النزعة الإنسانية (في كل حجة في كتابه تقريبًا)، لن نجد من هو أفضل من فقيه اللغة الألماني فريدريك نيتشه (وُلد عام 1844 وتوفي عام 1900). أعربت في جزءٍ سابق من هذا الفصل عن قلقي بشأن كيف يمكن للمبادئ الأخلاقية الإنسانية التعامل مع شخصٍ قاسٍ أناني مصاب بجنون العظمة ومعتل اجتماعيًّا، أمَّا نيتشه فكان يقول إنَّه *من الجيد* أن يكون المرء قاسيًا أنانيًّا مصابًا بجنون العظمة ومعتلًّا اجتماعيًّا. ليس للجميع بالطبع، ولكنَّ هذا غير مهم، فحياة جمع غفير من البشر («الفاشلين والحمقى» و«الأقزام الثرثارين» و«خنافس البرغوث» حسب وصفه) لا قيمة لها، فالأمر ذو القيمة في الحياة هو أن يتجاوز السوبرمان (*Übermensch*، والتي تعني حرفيًّا «الإنسان الأعلى») الخير والشر ويمتلك رغبةً في السلطة ويحقِّق مجدًا بطوليًّا. ولا يمكن تحقيق أقصى إمكانات البشرية وانتقالها إلى مستوى أعلى من الوجود سوى بهذه البطولة، ولكنَّ مناقب العظمة لا تشمل شفاء المرضى ولا إطعام الجوعى ولا صنع السلام، وإنَّما الأعمال الفنية البارعة والغزو العسكري. فالحضارة الغربية في انحدارٍ ثابت منذ أوج عصر الإغريق الهومريين والمحاربين الآريين والفايكينج مرتديي الخوذ وغيرهم من الرجال الشجعان، وأفسدتها على الخصوص «أخلاق العبيد» المسيحية، وعبادة المنطق في ظل حركة التنوير، والحركات الليبرالية في القرن التاسع عشر التي سعت وراء الإصلاح الاجتماعي والرخاء المشترك، وأدَّت هذه العاطفية المتخاذلة إلى الاضمحلال والتدهور. على من رأوا الحقيقة أن «يتفلسفوا بالمطرقة» ليوجِّهوا للحضارة الحديثة الضربة القاضية التي ستجلب الكارثة المخلِّصة التي سينشأ منها نظامٌ جديد. وحتى لا تظن أنني أحرِّف فكرة الـ «سوبرمان»، إليكَ بعض الاقتباسات:

> أبغضُ ابتذال الرجل عندما يقول: «ما يناسب شخص ما يناسب غيره» و«لا تُعامل الآخرين بما لا تحب أن يعاملوك»..هذه الفرضية وضيعة إلى أقصى حد، فهي تُسلِّم بأنَّ هناك قدرًا ما من التساوي في القيمة بين أفعالي وأفعالك.

> لا أشير إلى شر الوجود وألمه بإصبع اللوم، وإنَّما أُمنِّي نفسي بالأمل في أن تصبح الحياة يومًا ما أكثر شرًّا وأكثر امتلاءً بالمعاناة من ذي قبل.

> يجب أن يتدرَّب الرجال على الحرب وأن تتدرَّب النساء على ترفيه المحاربين، وكل ما عدا ذلك حماقة..هل أنت ذاهب إلى امرأة؟ لا تنسَ سوطَك.

> نحن بحاجةٍ إلى أن يعلن الرجال الأعلى الحرب على الجموع..فنحن بحاجةٍ إلى عقيدةٍ قوية بما يكفي لتكون عاملًا للتكاثر، تقوِّي الأقوياء وتشلُّ المنهكين من العالم وتدمِّرهم. تُفني الهراء الذي يُطلق عليه «الأخلاق»..تُفني الأعراق المضمحلة..تسيطر على الأرض كوسيلة لإنتاج نوعٍ أرقى.

> إنَّ تلك الفصيلة الأرقى من الأحياء التي ستمسك بزمام أعظم المهام، السلالة الأرقى من البشرية، بما يشمل *إبادة كل ما هو متدهور وطفيلي دون رحمة*، ستتيح ثانيةً فائضًا من الحياة على الأرض تنشأ منه الحالة الديونيسية ثانيةً.

قد تبدو هذه الخطرفة المنادية بالإبادة الجماعية وكأنَّها نابعة من مراهقٍ عدواني يستمع إلى موسيقى ميتال الموت أكثر من اللازم، أو محاكاة تهكمية لأحد أشرار أفلام جيمس بوند مثل دكتور إيفل (Dr. Evil) في سلسلة أفلام *Austin Powers*، ولكنَّ نيتشه في الحقيقة من بين أكثر مفكِّري القرن العشرين تأثيرًا، واستمر تأثيره حتى القرن الحادي والعشرين.

من الجلي أنَّ نيتشه ساعد في إلهام النزعة العسكرية الرومانسية التي أدَّت إلى الحرب العالمية الأولى والفاشية التي أدَّت إلى الحرب العالمية الثانية، ورغم أنَّ نيتشه نفسه لم يكُن ألمانيًّا قوميًّا أو معاديًا للسامية، إلَّا أنَّه من غير المصادفة أن تبرز هذه الاقتباسات لتعبِّر بطريقةٍ مثالية عن النازية، فأصبح نيتشه بعد موته فيلسوف البلاط النازي (إذ حجَّ هتلر في عامه الأول كمستشار إلى أرشيف نيتشه، الذي كانت ترأسه إليزابيث فورستر نيتشه، أخت الفيلسوف ومنفِّذة وصيته الأدبية، والتي شجَّعت دون كلل على هذه الصلة بينه وبين النازية). وصلته بالفاشية الإيطالية أكثر مباشرةً: فقد كتب بينيتو موسوليني في عام 1921 أنَّ: «اللحظة التي ارتبطت فيها النسبية بنيتشه وبالرغبة في السلطة التي تحدَّث عنها، كانت اللحظة التي أصبحت فيها الفاشية الإيطالية –وما زالت– أبدع مخلوق من صنع رغبة الفرد والأمة في السلطة». أمَّا صلته بالبلشفية والستالينية –من السوبرمان إلى الرجل السوفييتي الجديد– فهي أقل شهرةً ولكنَّ المؤرِّخة برنيس جلاتسر روزنتال (Bernice Glatzer Rosenthal) وثَّقتها جيدًا. والروابط بين أفكار نيتشه والحركات التي أدَّت إلى ملايين الوفيات في القرن العشرين واضحة بالقدر الكافي، وتتَّضح في تمجيد العنف والقوة، والحماس لهدم مؤسسات الديمقراطية الليبرالية، واحتقار أغلب البشرية، واللا مبالاة متحجِّرة القلب تجاه حياة البشر.

قد تظن أنَّ بحر الدماء الذي سال سيكون كافيًا لوصم أفكار نيتشه بين المفكِّرين والفنانين، لكنَّه يحظى بإعجاب على نطاق واسع بشكلٍ لا يصدق. يقول رسم جرافيتي رائج في الجامعات وعلى أقمصة الشباب "Nietzsche is pietzsche" (ويُقصد بذلك أنَّ نيتشه رائع!). لا يرجع هذا لأنَّ تعاليمه مقنعة بصورةٍ خاصة، وكما أشار برتراند راسل في كتابه «**تاريخ الفلسفة الغربية**» (*A History of Western Philosophy*) فإنه «يمكن تلخيصه ببساطةٍ وصراحةٍ في جملةٍ واحدة: أتمنى لو عشت في أثينا في زمن بريكليس أو فلورنسا في عصر أسرة ميديتشي». تفشل الأفكار أمام أول اختبار للاتساق الأخلاقي، وهو قابلية تعميمها على

الشخص الذي يطرحها، فإذا كنت أستطيع السفر عبر الزمن، فإنني كنت سأواجهه كما يلي: «أنا سوبرمان، قوي، بارد، فظيع، دون مشاعر ودون ضمير، وحسب اقتراحك، فأنا سأحقِّق مجدًا بطوليًّا عبر إبادة بعض الأقزام الثرثارين، وسأبدأ *بكَ أنت*، أيها القصير، وربما أعبث قليلًا بأختك النازية أيضًا، إلَّا إذا استطعت أن تجد سببًا يمنعني من ذلك».

إذًا إذا كانت أفكار نيتشه منفِّرة وغير متسقة، فلماذا نجد لها كثيرًا من المعجبين؟ ربما من غير المفاجئ أن تلقى المنظومة الأخلاقية التي يكون فيها الفنان (إلى جانب المحارب) جديرًا بالحياة إعجابًا من كثيرٍ من الفنانين، مثل: ويستن هيو أودن ((W. H. Auden، وألبير كامو (Albert Camus)، وأندريه جيد (Andrè Gide)، وديفيد هربرت لورنس ((D. H. Lawrence، وجاك لندن (Jack London)، وتوماس مان (Thomas Mann)، ويوكيو ميشيما ((Yukio Mishima، ويوجين أونيل (Eugene O'Neill)، وويليام باتلر ييتس (William Butler Yeats)، وويندام لويس (Whyndham Lewis)، وجورج برنارد شو (George Bernard Shaw) (مع بعض التحفظات) مؤلِّف مسرحية «**الإنسان والسوبرمان**» (*Man and Superman*). (أمَّا بيلهام جرينفيل وودهاوس P. G. Wodehouse فعلى العكس، يجعل جيفز –أحد أبطال قصصه– المعجب بسبينوزا يقول لبيرتي ووستر: «لن تستمتع بقراءة نيتشه يا سيدي، فهو مضطرب تمامًا»). تعجب القيم النيتشوية أيضًا كثيرًا من مفكِّري الثقافة الثانية (تذكَّر ليفيس وهو يسخر من مخاوف سنو بشأن الأمراض والفقر العالمي لأنَّ «الأدب العظيم» هو «الغرض النهائي الذي يتبعه الإنسان») والنقاد الاجتماعيين الذين يحاولون كتم ضحكاتهم على «طبقة السذج» (حسب وصف هنري لويس منكن H. L. Mencken الملقَّب بـ «نيتشه الأمريكي» للعامة). وكان احتفاء آين راند بالأنانية وتأليهها للرأسمالي البطولي وازدراؤها للرفاهة العامة –رغم محاولتها إخفاء هذه الأمور لاحقًا– يتَّضح فيه أثر نيتشه جليًّا.

كان نيتشه كما أوضح موسوليني مصدر إلهام لأتباع النسبية في كل مكان، كان نيتشه يزدري الالتزام تجاه البحث عن الحقيقة في أوساط العلماء ومفكِّري التنوير، فأكَّد أنَّه «لا توجد حقائق، إنَّما توجد تفسيرات» وأنَّ «الحقيقة نوعٌ من الأخطاء لا يستطيع أحد أنواع الكائنات الحية أن يحيا بدونه» (أعجزه هذا بالطبع عن شرح لماذا علينا أن نصدق أنَّ *هاتين* العبارتين صحيحتان). لهذا السبب ولأسبابٍ أخرى، كان أحد مصادر التأثير الرئيسية على مارتن هيدجر وجان بول سارتر وجاك دريدا (Jacques Derrida) وميشيل فوكو، كما كان الأب الروحي لكل الحركات الفكرية في القرن العشرين التي كانت معادية للعلم والموضوعية بما فيها الوجودية والنظرية النقدية وما بعد البنيوية والتفكيكية وما بعد الحداثة.

ممَّا يُحسَب لنيتشه أنَّه كان صاحب أسلوب بارع رشيق، وقد يعذر المرء إعجاب الفنانين والمفكِّرين لو كان أساسه تقدير حماسته الأدبية والقراءة الساخرة لتصويره لطريقة تفكيرٍ يرفضونها هم أنفسهم، ولكنَّ طريقة التفكير هذه قد راقت لكثيرٍ منهم للأسف. تحدَّث عددٌ مذهل من المفكِّرين والفنانين في القرن العشرين بحماسٍ بالغ عن الدكتاتوريين الشموليين، وهي متلازمة أطلق عليها المؤرِّخ الفكري مارك ليلا ''Tyrannophilia'' أي «حب الطاغية». كان بعض محبي الطاغية ماركسيين يتبعون المبدأ العريق الذي يقول «قد يكون وغدًا، ولكنَّه *واحدٌ منَّا*»، ولكنَّ كثيرًا منهم كانوا نيتشويين، وكان أشهرهم مارتن هيدجر وفيلسوف القانون كارل شميت (Carl Schmitt) اللذان كانا معاونين متحمسين للنازيين ولهتلر. فلم يكُن هناك مستبدٌّ في القرن العشرين ينقصه أنصار من أهل الفكر، بمن فيهم موسوليني (عزرا باوند وبرنارد شو وويليام ييتس وويندام لويس) ولينين (برنارد شو وهربرت جورج ويلز) وستالين (برنارد شو وسارتر وبياتريس ويب وسيدني ويب وبرتولد بريخت ودو بويز وبابلو بيكاسو وليليان هيلمان) وماو (سارتر وفوكو ودو بويز ولوي ألتوسير وآلان باديو) وآية الله الخميني (فوكو) وكاسترو (سارتر وجراهام جرين وجونتر جراس ونورمان ميلر وهارولد بينتر، وكما رأينا في الفصل العشرين،

سوزان سونتاج). وتغنَّى المفكِّرون الغربيون في أوقاتٍ مختلفة بمديح هو تشي منه ومعمر القذافي وصدام حسين وكيم إل سونج وبول بوت وجوليوس نيريري وسلوبودان ميلوشيفيتش وهوجو شافيز.

لماذا يتملَّق المفكِّرون والفنانون من بين الناس لدكتاتوريين قتلة؟ يظن المرء أنَّ المفكِّرين هم أول من يفكِّك ذرائع السلطة، وأنَّ الفنانين هم أول من يوسِّع مدى التعاطف الإنساني (ولحسن الحظ أنَّ كثيرًا منهم فعلوا ذلك حقًّا). من ضمن التفسيرات التفسير الذي قدَّمه الاقتصادي توماس سويل (Thomas Sowell) وعالم الاجتماع بول هولاندر (Paul Hollander) وهو النرجسية المهنية، فقد يشعر المفكِّرون والفنانون بعدم التقدير في الديمقراطيات الليبرالية التي تسمح لمواطنيها بتلبية احتياجاتهم بأنفسهم في الأسواق والمنظمات المدنية، أمَّا الدكتاتوريون فيطبِّقون نظريات من أعلى السلم إلى أسفله، ويخصِّصون للمفكِّرين دورًا يشعرون أنَّه مناسب لقيمتهم. ولكنَّ حب الطاغية مدفوعٌ أيضًا بالازدراء النيتشوي لرجل الشارع الذي يفضِّل الرداءة على الفن الرفيع والثقافة، والإعجاب بالسوبرمان الذي يتجاوز تسويات الديمقراطية المتخبطة ويطبِّق على نحوٍ بطولي رؤيةً للمجتمع الجيد.

رغم أنَّ بطولة نيتشه الرومانسية تمجِّد السوبرمان وحده وليس أي «مجموع»، إلَّا أنَّه يسهل تأويل «الإنسان المنفرد الأقوى» بأنَّه قبيلة أو عرق أو أمة. وأجرت النازية والفاشية وأشكالٌ أخرى من القومية الرومانسية هذا التعديل على أفكار نيتشه وتبنَّتها، وأصبحوا جميعًا أبطال الدراما السياسية المتواصلة حتى يومنا الحاضر.

كنتُ أعتقد أنَّ «الترامبية» تمثِّل «الهوَ»، نهوض القبَلية والسلطوية من الأعماق المظلمة للنفس البشرية، ولكنَّ المجانين من أصحاب مراكز السلطة يستمدون جنونهم من كتابات أكاديمية تعود إلى بضع سنوات فقط، ولا تحتوي عبارة «الجذور الفكرية للترامبية» على تناقضات لفظية، إذ حصل ترامب في انتخابات عام 2016 على تأييد 136 شخصًا شكَّلوا مجموعة اسمها «باحثون وكُتَّاب من أجل أمريكا» في بيانٍ بعنوان «بيان الاتحاد» (Statement of Unity)، بعضهم على صلة بمعهد كليرمونت، وهو مركز فكري بحثي أُطلق عليه «الموطن الأكاديمي للترامبية». وكان من بين مستشاري ترامب المقربين رجلان معروفان بأنَّهما قارئان جيدان ويعتبران نفسيهما مفكِّرَين، وهُما ستيفن بانون ومايكل آنتون. على من يريد أن يتجاوز شخصية المرء عند محاولة فهم الشعبوية السلطوية أن يدرك الأيديولوجيتين اللتين تحركانها، فكلتاهما معادية بشراسةٍ للنزعة الإنسانية التنويرية، وكلتاهما متأثرتان بنيتشه بصورٍ مختلفة، إحداها فاشي والآخر رجعي، ليس بالمعنى اليساري الشائع الذي يعبِّر عن «أي شخص أكثر تحفُّظًا مني» وإنَّما بالمعنى الأصلي.

نشأ مصطلح الفاشية، المشتق من الكلمة الإيطالية التي تعني «مجموعة» أو «حزمة»، من التصور الرومانسي بأنَّ الفرد أسطورة وأنَّه لا يمكن فصل الناس عن ثقافتهم وسلالتهم وموطنهم. أعادت الأحزاب النازية الجديدة في أوروبا وبانون والحركة اليمينية المتطرفة في الولايات المتحدة –الذين يقرون جميعًا بأثر نيتشه– اكتشاف المفكِّرين الفاشيين الأوائل بمن فيهم يوليوس إيفولا (Julius Evola) (وُلد 1898 وتوفي عام 1974) وشارل موراس (Charles Maurras) (وُلد عام 1868 وتوفي عام 1952). تُبرِّر الفاشية المخفَّفة الحالية التي تتداخل مع الشعبوية السلطوية والقومية الرومانسية احياناً بنسخةٍ خام من علم النفس التطوري تكون فيها المجموعة هي وحدة الانتخاب، فالتطور مدفوع ببقاء المجموعة الأصلح في مقابل المجموعات الأخرى، وتم انتخاب البشر للتضحية بمصالحهم لصالح سيادة مجموعتهم (يتناقض هذا مع التيار الرئيسي من علم النفس التطوري الذي تكون فيه وحدة الانتخاب هي الجين). يترتَّب على ذلك أنَّه لا يمكن للمرء أن يكون مواطنًا عالميًّا، فأن تكون بشرًا يعني أن تكون جزءًا من أمةٍ ما، ولا يمكن أن ينجح مجتمعٌ متعدِّد

الثقافات متعدِّدِ الأعراق والإثنيات، لأنَّ شعبه سيشعر بأنَّه ليس له جذور وبأنَّه مغترب وأنَّ ثقافته ستُختزل وصولًا إلى أقل عامل مشترك. أن تُخضع أمةٌ ما مصالحها للاتفاقيات الدولية يعني تفريطها في حقها الأصيل في العظمة وتحولها إلى طرفٍ مغفل في المنافسة الدولية بين الكل. وبما أنَّ الأمة عبارة عن كلٍّ لا يتجزأ، فإنّ عظَمتها يمكن أن تتجسَّد في عظمة قائدها الذي يعبِّر عن روح الشعب مباشرةً غير مُثقَلٍ برحى الدولة الإدارية.

والأيديولوجية الرجعية هي المحافظة الثيوقراطية (Theoconservatism)، وعلى عكس ما قد يوحي به المصطلح الذي لا يتسم بالجدية (الذي صاغه المرتد ديمون لينكر "Damon Linker" على وزن "Neoconservatism" التي تعني المحافظة الجديدة)، فإنَّ أول المحافظين الثيوقراطيين كانوا راديكاليين من ستينيات القرن الماضي أعادوا توجيه حماسهم الثوري من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين، وهم يدعون إلى إعادة التفكير في جذور التنوير في النظام السياسي الأمريكي، ويعتقدون أنَّ الاعتراف بالحق في الحياة والحرية والسعي وراء السعادة وولاية الحكومة لكفالة هذه الحقوق غير مناسب لمجتمعٍ ذي صلاحية أخلاقية. إذ لم تدفعنا هذه الرؤية الفقيرة سوى إلى غياب المعايير الاجتماعية والانغماس في اللذات وتفشي الفسق بما يشمل فساد النسب والأفلام الإباحية وفشل المدارس والاعتمادية على إعانات الرعاية الاجتماعية والإجهاض. على المجتمع أن يستهدف ما هو أكثر من هذه الفردانية المتعثرة وتعزيز الامتثال لمعايير أخلاقية أكثر حزمًا من سلطةٍ أكبر منَّا، والمصدر الواضح لهذه المعايير هو المسيحية التقليدية بالطبع.

يعتقد المحافظون الثيوقراطيون أنَّ تحريف سلطة الكنيسة أثناء عصر التنوير جعل الحضارة الغربية دون أساسٍ أخلاقي صلب، وتقويضها أكثر خلال ستينيات القرن الماضي جعلها على حافة الانهيار، وستسقط إلى الهاوية في أي وقتٍ أثناء إدارة بيل كلينتون، كلا لم يحدث، إذًا فأثناء إدارة أوباما، كلا لم يحدث، ولكنَّها ستسقط بالتأكيد أثناء إدارة هيلاري كلينتون (ممَّا يبرِّر مقال آنتون الهستيري المذكور في الفصل العشرين بعنوان «انتخابات الرحلة رقم 93» (The Flight 93 Election) الذي قارن فيه البلاد بالطائرة المختطفة في يوم 11 سبتمبر ودعا الناخبين إلى الاختيار بين أن يقتحموا غرفة القيادة أو يموتوا!) مهما كان حجم الانزعاج الذي شعر به المحافظون الثيوقراطيون جراء ابتذال حامل لوائهم في عام 2016 وتصرفاته المنافية للديمقراطية، فإنَّ حجم الأمل في أنَّه وحده يستطيع فرض التغييرات الراديكالية التي تحتاج إليها أمريكا كي تتفادى الكارثة كان أكبر.

يشير مارك ليلا إلى السخرية الكامنة في المحافظة الثيوقراطية، رغم أنَّ هذه الحركات ثارت بسبب الجماعات الإسلامية الراديكالية (التي يظن المحافظون الثيوقراطيون أنَّها ستُطلق الحرب العالمية الثالثة قريبًا)، إلَّا أنَّ كليهما متشابه في العقلية الرجعية بذعرها من الحداثة والتقدُّم. يعتقد كلاهما أنَّه في زمنٍ ما في الماضي كانت هناك دولة سعيدة منظَّمة يعرف فيها الشعب مقامه، ثم أفسدت القوى العلمانية الغربية هذا التناغم وجلبت معها التدهور والاضمحلال، ولن يستطيع أن يُعيد المجتمع إلى عصره الذهبي سوى طليعة شجاعة لديها ذكرياتها عن الأساليب القديمة.

وحتى لا تغفل عمَّا يربط هذا التاريخ الفكري بالأحداث الجارية، تذكَّر أنَّ ترامب قرر في عام 2017 أن يسحب الولايات المتحدة من اتفاق باريس للمناخ تحت ضغطٍ من بانون الذي أقنعه بأنَّ التعاون مع الدول الأخرى علامةٌ على الاستسلام في السباق الدولي على العظمة (ونبع عداء ترامب للهجرة والتجارة من هذه الجذور نفسها). ونظرًا لكثرة المخاطر، فيُستحسن أن نذكِّر أنفسنا لماذا حجة الدفاع

عن القومية الشعبوية الرجعية الثيوقراطية الجديدة مفلسة على الجانب الفكري. ناقشتُ بالفعل مدى سخافة البحث عن أساسٍ للأخلاق في المؤسسات التي جاءت بالحملات الصليبية ومحاكم التفتيش ومطاردة الساحرات والحروب الدينية في أوروبا، وفكرة ضرورة أن يتكون النظام العالمي من دول قومية ذات تماثُل إثني وتعادي بعضها بعضًا سخيفة بنفس القدر.

أولًا: إنَّ الادعاء بأنَّ هناك حتمية فطرية لدى البشر تجعلهم يتماهون مع الدولة القومية (ممَّا يعني ضمنًا أنَّ المواطنة العالمية تخالف الطبيعة البشرية) يمثِّل صورةً سيئة لعلم النفس التطوري، فهو يخلط بين القابلية والحاجة، مثل الحتمية الفطرية المفترضة للانتماء إلى الدين. يشعر الناس بلا شكٍ بالتضامن مع قبيلتهم، ولكن أيًّا ما كان تصور «القبيلة» البديهي الذي يولد معنا فهو لا يمكن أن يكون «الدولة القومية» التي تمثِّل نتيجة تاريخية لمعاهدتي وستفاليا المنعقدتين في عام 1648 (ولا يمكن أن يكون العرق، بما أنَّ أسلافنا التطوريين لم يقابلوا أحدًا من أعراقٍ أخرى كثيرًا). إنَّ التصنيف المعرفي للقبيلة أو المجموعة ذات المصالح المشتركة أو التحالف في الحقيقة مجردٌ ومتعدِّد الأبعاد، يرى الناس أنَّهم ينتمون إلى قبائل عديدة متداخلة، عشيرتهم ومسقط رأسهم وموطنهم وبلدهم الثاني ودينهم وجماعتهم الإثنية ومدرستهم أو جامعتهم الأم وأخويتهم وحزبهم السياسي وجهة عملهم ومنظمتهم الخدمية وفريقهم الرياضي، بل وحتى ماركة معدات الكاميرا الخاصة بهم (إذا أردت أن ترى القبلية في أوجها، ألقِ نظرةً على مجموعة نقاشية عن الكاميرات «نيكون في مقابل كانون» على الإنترنت).

صحيح أنَّ التاجر السياسي يستطيع تسويق أسطورة وأيقونة تخدع الناس ليميِّزوا دينًا أو إثنية أو أمة معينة عن غيرها لتكون هويتهم الجوهرية، بل ويمكنه أن يحوِّلهم إلى جنودٍ منفِّذين بالتلقين والإكراه الملائمين، لكنّ هذا لا يعني أنَّ القومية نزعة بشرية. ليس في الطبيعة البشرية ما يمنع شخصًا من أن يكون مواطنًا فرنسيًّا وأوروبيًّا وعالميًّا فخورًا بكل ذلك في الوقت نفسه.

إنَّ الادِّعاء بأنَّ الوحدة الإثنية تؤدي إلى التفوق الثقافي خطأ إلى أقصى حد. هناك سبب وراء أنَّنا نشير إلى الأشياء البسيطة بأنَّها «*شعبية*» أو *محدودة* أو *ضيقة الأفق* وإلى الأشياء المعقدة بأنَّها *متحضرة* و*عالمية*. ليس هناك شخص عبقري بما يكفي ليبتكر أي شيء قيِّم وحده تمامًا، فالأفراد والثقافات العبقرية عبارة عن مجمِّعين ومستولين وجامعين لأفضل الأفكار والابتكارات، فالثقافات النابضة بالنشاط تتمركز في مناطق رفد شاسعة يتدفق إليها الناس والابتكارات من كل حدبٍ وصوبٍ. يفسِّر هذا كون أوراسيا كانت أول قارة تولد فيها حضارات توسعية وليست أستراليا ولا أفريقيا ولا الأمريكتين (حسبما وثَّقه سويل في ثلاثية «***الثقافة***» التي كتبها وجاريد دايموند Jared Diamond في كتابه «**أسلحة وجراثيم وفولاذ**» "*Guns, Germs, and Steel*")، ويفسِّر كون نوافير الثقافة تتنقل دائمًا بين المدن في مفارق الطرق والممرات المائية الرئيسية، ويفسِّر كون البشر دائمًا جوَّالين ينتقَّلون إلى أي مكان يستطيعون أن يعيشوا فيه أفضل حياة ممكنة، فالجذور تثبِّت الأشجار، أمَّا البشر فتحرِّكهم أقدامهم.

وأخيرًا، دعنا لا ننسى سبب نشأة المؤسسات الدولية والوعي العالمي من الأساس. جرَّب العالم بين عامي 1803 و1945 نظامًا دوليًّا قائمًا على كفاح الدول القومية ببسالةٍ من أجل تحقيق العظمة، ولم يؤدِّ هذا إلى نتائج جيدة. ومن الخطأ أن يستخدم اليمين الرجعي على الأخص التحذيرات المحمومة من «حربٍ» إسلامية على الغرب (يكون تعداد الوفيات فيها بالمئات) كسببٍ للعودة إلى نظامٍ دولي يخوض فيه الغرب باستمرار حروبًا ضد نفسه (يكون تعداد الوفيات فيها بعشرات الملايين). فبعد عام 1945، قال قادة العالم: «حسنًا، *دعونا لا نفعل ذلك ثانيةً*»، وبدؤوا يقلِّلون من القومية لصالح حقوق الإنسان العالمية والقوانين الدولية والمنظمات العابرة للحدود. والنتيجة كما رأينا في الفصل الحادي عشر سبعون عامًا من الرخاء والسلام النسبيين في أوروبا والمتناميين نسبيًّا في بقية العالم.

أمَّا فيما يخص رثاء الكتاب الصحفيين حال التنوير واصفين إياه بأنَّه «استراحة قصيرة»، فهذا الرثاء سيُكتب على الأرجح على قبر الفاشية الجديدة والرجعية الجديدة والانتكاسات الشبيهة التي حدثت في بداية القرن الحادي والعشرين. تشير الانتخابات الأوروبية وتخبط إدارة ترامب المدمِّر لها في عام 2017 إلى أنَّ العالم ربما يكون قد وصل إلى ذروة الشعبوية، وكما رأينا في الفصل العشرين فإنَّ الحركة في طريقها الديموغرافي إلى اللا مكان. ورغم عناوين الأخبار، فإنَّ الأرقام توضِّح أنَّ الديمقراطية (الفصل الرابع عشر) والقيم الليبرالية (الفصل الخامس عشر) على متن مصعد عالٍ طويل المدى من المستبعد أن ينعكس مساره بين ليلةٍ وضحاها. لا يمكن إنكار مزايا الكوزموبوليتانية والتعاون الدولي لفترةٍ طويلة في عالمٍ لا يتوقف فيه تدفق الأفكار والأشخاص.

رغم أنَّ الحجج الأخلاقية والفكرية للدفاع عن النزعة الإنسانية غامرة كما أعتقد، إلَّا أنَّ بعض الناس قد يتساءلون عمَّا إذا كانت مكافئة للدين والقومية والبطولة الرومانسية في الحملة من أجل الفوز بقلوب الناس، هل سيفشل التنوير في النهاية لأنَّه لا يستطيع مخاطبة الاحتياجات البشرية البدائية؟ هل على الإنسانيين عقد اجتماعات لإحياء النزعة الإنسانية يطرق فيها الوُعَّاظ المنبر بكتاب «**الأخلاق**» لسبينوزا ويغمض الحضور المنتشون أعينهم ويغمغمون بلغة الإسبرانتو؟* هل عليهم تنظيم تجمعات يحيِّي فيها الشباب الذين يرتدون أقمصة ملونة صورًا ضخمة لجون ستيوارت مل؟ لا أعتقد ذلك، لنتذكر أنَّ القابلية ليست كالحاجة، فمواطنو الدنمارك ونيوزيلندا والأجزاء السعيدة الأخرى من العالم تحيا جيدًا دون تلك النوبات، وهبة الديمقراطية العلمانية الكوزموبوليتانية موجودة على مرأى من الجميع.

ومع ذلك فإنَّ جاذبية الأفكار الرجعية مستمرة، ولا بد من الدفاع الدائم عن العقل والعلم والنزعة الإنسانية والتقدم. عندما نعجز عن إدراك التقدم الذي حققناه بشق الأنفس، ربما نتوصل إلى الاعتقاد بأنَّ النظام المثالي والرخاء العالمي هما الوضع الطبيعي وأنَّ كل مشكلة هي انتهاكٌ يستدعي لوم الأشرار وتقويض المؤسسات وتمكين قائدٍ يعيد البلاد إلى عظمتها المستحَقة. لقد قدمت أفضل حججي للدفاع عن التقدم والمبادئ التي جعلت حدوثه ممكنًا، وألمحت إلى كيف يمكن للصحافيين والمفكِّرين وغيرهم من أصحاب الفكر (بمن فيهم قُرَّاء هذا الكتاب) تجنُّب الإسهام في التغافل المنتشر عن هبات التنوير.

تذكَّر قواعد الحساب: النوادر الشخصية لا تمثِّل اتجاهًا عامًا. تذكَّر قواعد التاريخ: إنَّ حقيقة أنَّ شيئًا ما سيئ اليوم لا تعني أنَّه كان أفضل في الماضي. تذكَّر قواعد الفلسفة: لا يستطيع المرء أن يحاجج بالعقل على عدم وجود العقل، أو أنَّ هناك شيئًا حقيقيًا أو خيرًا لأنَّ الله قال إنَّه كذلك. تذكَّر قواعد علم النفس: كثيرٌ ممَّا نعرفه ليس كما نظن، وخاصةً عندما يعرفه رفقاؤنا أيضًا.

ضع الأمور في نصابها الصحيح، فليست كل مشكلة أزمة أو طاعونًا أو وباءً أو خطرًا وجوديًّا، وليس كل تغيير نهاية شيء ما أو موته أو فجر حقبة ما بعد أي شيء. لا تخلط بين التشاؤم والعُمق الفكري، المشكلات حتمية ولكنَّها قابلة للحل، وتشخيص كل انتكاسةٍ بأنَّها عرَضٌ لمجتمعٍ مريض محاولة رخيصة لاجتذاب الوقار. وأخيرًا، دعك من نيتشه. ربما تبدو أفكاره جريئة وأصيلة وخطيرة في حين تبدو النزعة الإنسانية عاطفية مملة وغير عصرية وغير رائجة، ولكن ما المثير للسخرية في السلام والحب والتفهم؟

ليس موضوع «التنوير الآن» مجرد نفي المغالطات أو نشر البيانات، بل قد يكون مصوغًا كسردية مؤثرة، وأتمنى أن يحكيها من يتمتَّعون بحماسة فنية وقوة خطابية أكثر مني على نحوٍ أفضل وينشرونها أكثر. إنَّ قصة تقدم البشرية بطولية بحقٍّ، وهي مجيدة، ومبهجة،

*لغة الإسبرانتو هي لغة مصطنعة كان هدفها أن تكون لغة دولية سهلة لتعزيز السلام والتفاهم الدولي. — المترجمة.

بل وأجرؤ أن أقول حتى إنّها روحانية. والقصة كما يلي:

وُلِدنا في كونٍ لا يرحم، نواجه احتمالات نجاة ضئيلة في ظل النظام الذي يمكِّن المرء من الحياة، ونحن معرَّضون باستمرارٍ لخطر الانهيار، شكَّلتنا قوةٌ تنافسية عديمة الرحمة، فتكويننا من ضلعٍ أعوج، عرضة للأوهام والتمركز حول الذات والغباء الصاعق أحياناً.

ومع ذلك فقد نعمت الطبيعة البشرية بالموارد التي تفسح مجالًا أمام نوعٍ من الخلاص، فنحن نتحلَّى بالقدرة على الجمع بين الأفكار بشكلٍ متكرِّرٍ، وأن تنشأ في رأسنا أفكارٌ عن أفكارنا، ولدينا غريزة اللغة، التي تسمح لنا بمشاركة ثمار تجاربنا وبراعتنا، وفي أعماقنا القدرة على التعاطف، على الشفقة والتخيل والعطف والمواساة.

وجدت هذه الهبات طرقًا لتعظيم قدراتها الخاصة، فمنظور اللغة توسَّع بالكتابة والطباعة والكلمات الإلكترونية، وتوسَّعت دائرة تعاطفنا بفعل التاريخ والصحافة والفنون السردية، وتعاظمت مَلَكاتنا العقلانية الضئيلة بفعل معايير العقل المنطقي ومؤسساته، مثل الفضول الفكري والحوار المفتوح والتشكُّك في السلطة والدوغما وعبء الإثبات للتحقُّق من صحة الأفكار عبر مواجهتها بالواقع.

بينما يجمع التحسُّن المتكرِّر زخمًا، نحاول الانتصار على القوى التي تسحقنا، ولا سيما الجوانب المظلمة من طبيعتنا نفسها. نقتحم ألغاز الكون بما فيها الحياة والعقل، ونعيش عمرًا أطول ونعاني أقل ونتعلم أكثر ونزداد ذكاءً ونستمتع أكثر بالمتع الصغيرة والتجارب الثرية، ويتعرَّض عددٌ أقل منا للقتل والاعتداءات والاستعباد والقمع والاستغلال على يد الآخرين. تتوسَّع الأراضي التي تنعم بالسلام والرخاء بعد أن كانت بضع واحات قليلة، وقد تطوق الكرة الأرضية بأكملها يومًا ما. ما زال هناك كثيرٌ من المعاناة والخطر الهائل، ولكنَّ هناك أفكارًا مقترحة لكيفية الحد منهما، وعدداً لا نهائيًّا من الأفكار الأخرى التي لم تخطر على بال أحد بعد.

لن ننعم بعالمٍ مثالي أبدًا، ومن الخطر أن نحاول خلق هذا العالم، ولكن لا حدود للتحسينات التي يمكننا تحقيقها إذا واصلنا تطبيق المعرفة في تعزيز ازدهار البشرية.

ليست هذه القصة البطولية مجرد أسطورة أخرى، فالأساطير من نسج الخيال، أمَّا هذه فحقيقية، حقيقية حسب علمنا الحالي، وهي الحقيقة الوحيدة التي نملكها، ونصدقِّها لأنَّ لدينا *أسبابًا* تدفعنا لتصديقها. كلَّما عرفنا أكثر، استطعنا توضيح أي أجزاء من القصة ستظل حقيقية وأيها زائفة، فأي جزء منها قد يكون زائفًا.

لا تنتمي هذه القصة إلى أي قبيلة بل إلى البشرية جمعاء، إلى أي كائن حسَّاس ذي قدرةٍ على التفكير المنطقي وباعثٍ للتمسُّك بوجوده، لأنَّها لا تحتاج سوى إلى قناعة أنَّ الحياة أفضل من الموت، والصحة أفضل من المرض، والوفرة أفضل من العوز، والحرية أفضل من العبودية، والسعادة أفضل من المعاناة، والمعرفة أفضل من الخرافات والجهل.